بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة البقرة

(ذكر ما ورد فى فضلها) قال الإمام أحمد [١]: حدثنا عارم حدثنا معتمر عن أبيه عن رجل، عن أبيه عن معقل بن يسار أن رسول الله ﷺ قال: «**البقرة سنام القرآن وذروته. نزل مع كل آية منها ثمانون ملكًا واستخرجت ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾** [البقرة: ٢٥٥] **من تحت العرش فوصلت بها أو فوصلت بسورة البقرة، ويس قلب القرآن لا يقرؤها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر له واقرؤوها على موتاكم**» انفرد به أحمد وقد رواه أحمد [٢] أيضًا عن عارم عن عبد الله بن المبارك عن سليمان التيمى عن أبى عثمان - وليس بالنهدى - عن أبيه عن معقل بن يسار قال، قال رسول الله ﷺ: «**اقرؤوها على موتاكم**» يعنى يس - فقد تبيَّنا بهذا الإسناد معرفة المبهم فى الرواية الأولى. وقد أخرج هذا الحديث على هذه الصفة فى الرواية الثانية أبو داود والنسائى وابن ماجه [٣]، وقد روى الترمذى [٤] من حديث حكيم بن جبير -وفيه ضعف- عن أبى صالح عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لكل شىء سنام وإن سنام القرآن سورة البقرة وفيها آية هى سيدة آى القرآن: آية الكرسى**».

وفى مسند أحمد وصحيح مسلم والترمذى والنسائى [٥] من حديث سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تجعلوا بيوتكم قبورًا فإن البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان**» وقال الترمذى: حسن صحيح وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: حدثنى ابن أبى مريم عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب عن سنان بن سعد عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الشيطان يخرج من البيت إذا سمع سورة البقرة تقرأ فيه**» سنان بن سعد ويقال بالعكس وثقه ابن معين واستنكر حديثه أحمد بن حنبل وغيره. وقال أبو عبيد: حدّثنا محمد بن جعفر عن شعبة عن سلمة بن كهيل عن أبى الأحوص عن عبد الله - يعنى ابن مسعود - رضى الله عنه قال: إن الشيطان يفرّ من البيت يسمع فيه سورة البقرة. ورواه النسائى فى اليوم والليلة وأخرجه الحاكم [٦] فى مستدركه من حديث شعبة ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وقال ابن مردويه: حدثنا أحمد بن كامل حدثنا أبو إسماعيل الترمذى حدثنا أيوب بن سليمان بن بلال حدثنى أبو بكر بن أبى أويس عن سليمان بن بلال عن محمد بن عجلان عن أبى إسحاق عن أبى الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا ألفين أحدكم يضع إحدى رجليه على**

---

(١) ضعيف: أحمد (١٩٧٨٩)، انظر ضعيف الترغيب والترهيب (٨٧٨).

(٢) ضعيف: أحمد (١٩٧٩٠).

(٣) ضعيف: أبو داود (٣١٢١)، والنسائي في «الكبرى» (٦/ ٢٦٥)، برقم (١٠٩١٣)، وابن ماجه: (١٤٤٨)، انظر ضعيف سنن أبي داود.

(٤) ضعيف: الترمذي، (٢٨٧٨)، انظر ضعيف جامع الترمذي.

(٥) أحمد (٨٦٩٨)، ومسلم (٧٨٠)، والترمذي، (٢٨٧٧)، والنسائي في «الكبرى» (٥/ ١٣)، برقم (٨٠١٥).

(٦) صحيح موقوفًا: النسائي في «عمل اليوم والليلة»، (١/ ٥٣٥)، برقم (٩٦٤)، والحاكم في «المستدرك»، (٢/ ٢٨٥)، برقم (٣٠٢٩).

الأخرى يتغنى ويدع سورة البقرة يقرؤها فإن الشيطان ينفر من البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة وإن أصفر البيوت الجوف الصفر من كتاب الله» وهكذا رواه النسائى [١] فى اليوم والليلة عن محمد بن نصر عن أيوب بن سليمان به. وروى الدارمى [٢] فى مسنده عن ابن مسعود قال: ما من بيت تقرأ فيه سورة البقرة إلا خرج منه الشيطان وله ضراط. وقال: إن لكل شيء سنامًا وإن سنام القرآن سورة البقرة وإن لكل شيء لبابًا وإن لباب القرآن المفصل. وروى [٣] أيضًا من طريق الشعبى قال: قال عبد الله بن مسعود: من قرأ عشر آيات من سورة البقرة فى ليلة لم يدخل ذلك البيت شيطان تلك الليلة، أربع من أولها وآية الكرسى، وآيتان بعدها، وثلاث آيات من آخرها، وفى رواية: لم يقربه ولا أهله يومئذ شيطان، ولا شيء يكرهه، ولا يقرآن على مجنون إلا أفاق. وعن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن لكل شيء سنامًا وإن سنام القرآن البقرة وإن من قرأها فى بيته ليلة لم يدخله الشيطان ثلاث ليال ومن قرأها فى بيته نهارًا لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام»** رواه أبو القاسم الطبرانى وأبو حاتم ابن حبان [٤] فى صحيحه وابن مردويه من حديث الأزرق بن على حدثنا حسان بن إبراهيم حدثنا خالد بن سعيد المدنى عن أبى حازم عن سهل به. وعند ابن حبان: خالد بن سعيد المدينى.

وقد روى الترمذى والنسائى وابن ماجه [٥] من حديث عبد الحميد بن جعفر عن سعيد المقبرى عن عطاء مولى أبى أحمد عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: «بعث رسول الله ﷺ بعثًا وهم ذوو عدد فاستقرأهم فاستقرأ كل واحد منهم ما معه من القرآن فأتى على رجل من أحدثهم سنًا فقال: ما معك يا فلان فقال: معى كذا وكذا وسورة البقرة. فقال: أمعك سورة البقرة؟ قال: نعم قال: اذهب فأنت أميرهم» فقال رجل من أشرافهم: والله ما منعنى أن أتعلم سورة البقرة إلا أنى خشيت أن لا أقوم بها. فقال رسول الله ﷺ: **«تعلموا القرآن واقرؤوه فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقرأ وقام به كمثل جراب محشو مسكًا يفوح ريحه فى كل مكان ومثل من تعلمه فيرقد وهو فى جوفه كمثل جراب أوكى على مسك»** هذا لفظ رواية الترمذى ثم قال: هذا حديث حسن ثم رواه من حديث الليث عن سعيد عن عطاء مولى أبى أحمد مرسلاً فالله أعلم.

وقال البخارى [٦]: وقال الليث: حدثنى يزيد بن الهاد عن محمد بن إبراهيم عن أسيد بن حضير رضى الله عنه قال: بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة - وفرسه مربوطة عنده - إذ جالت الفرس، فسكت فسكنت، فقرأ فجالت الفرس، فسكت فسكنت ثم قرأ فجالت الفرس، فانصرف، وكان ابنه

---

(١) النسائي في «عمل اليوم والليلة»، (١/ ٥٣٥)، برقم (٩٦٣)، ورجاله ثقات إلا أن محمد بن نصر: صدوق.

(٢) الدارمي، (٣٣٧٥)، ورجاله ثقات إلا أن أبا إسحاق مدلس.

(٣) ضعيف: الدارمي، (٣٣٨٢)، من طريق الشعبي عن ابن مسعود، والشعبي لم يسمع من ابن مسعود فالإسناد منقطع.

(٤) حسن لشواهده: ابن حبان (٣/ ٥٩)، برقم (٧٨٠)، والطبراني في «الكبير» (٦/ ١٦٣)، برقم (٥٨٦٤)، انظر صحيح الترغيب والترهيب، (١٤٦٢).

(٥) ضعيف: الترمذي (٢٨٧٦)، والنسائي في «الكبرى»، (٥/ ٢٢٧)، برقم (٨٧٤٩)، وابن ماجه، (٢١٧)، وانظر ضعيف جامع الترمذي.

(٦) صحيح: البخاري تعليقًا، كتاب: فضائل القرآن، باب: نزول السكينة والملائكة عند قراءة القرآن.

يحيى قريبًا منها - فأشفق أن تصيبه فلما أخذه رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح حدّث النبى ﷺ فقال: «اقرأ يا ابن حُضير» قال: قد فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيى وكان منها قريبًا فرفعت رأسى وانصرفت إليه فرفعت رأسى إلى السماء فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح فخرجت حتى لا أراها قال: «وتدرى ما ذاك؟» قال: لا قال: «**تلك الملائكة دنت لصوتك ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم**» وهكذا رواه الإمام العالم أبو عبيد القاسم بن سلام فى كتاب فضائل القرآن عن عبد الله بن صالح، ويحيى بن بكير عن الليث به. وقد روى من وجه آخر عن أسيد بن حضير كما تقدم والله أعلم. وقد وقع نحو من هذا لثابت بن قيس بن شماس رضى الله عنه وذلك فيما رواه [١] أبو عبيد حدثنا عباد بن عباد عن جرير بن حازم عن عمه جرير بن يزيد أن أشياخ أهل المدينة حدّثوه أن رسول الله ﷺ قيل له: ألم تر ثابت بن قيس بن شماس لم تزل داره البارحة تزهر مصابيح قال: «**فلعله قرأ سورة البقرة**» قال: **فسألت ثابتًا فقال: قرأت سورة البقرة**» وهذا إسناد جيد إلا أن فيه إبهامًا ثم هو مرسل والله أعلم.

(ذكر ما ورد فى فضلها مع آل عمران)

قال الإمام أحمد [٢] حدّثنا أبو نعيم حدّثنا بشير بن المهاجر حدّثنى عبد الله بن بريدة عن أبيه قال كنت جالسًا عند النبى ﷺ فسمعته يقول: «**تعلموا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة**» قال: ثم سكت ساعة ثم قال: «**تعلموا سورة البقرة وآل عمران فإنهما الزهراوان يظلان صاحبهما يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف وإن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب فيقول له: هل تعرفنى؟ فيقول: ما أعرفك فيقول: أنا صاحبك القرآن الذى أظمأتك فى الهواجر وأسهرت ليلك وإن كل تاجر من وراء تجارته وإنك اليوم من وراء كل تجارة فيعطى الملك بيمينه والخلد بشماله ويوضع على رأسه تاج الوقار ويكسى والداه حلتين لا يقوم لهما أهل الدنيا فيقولان بما كسينا هذا فيقال بأخذ ولدكما القرآن ثم يقال: اقرأ واصعد فى درج الجنة وغرفها فهو فى صعود ما دام يقرأ هذًا كان أو ترتيلًا**» وروى ابن ماجه [٣] من حديث بشير بن المهاجر بعضه وهذا إسناد حسن على شرط مسلم فإن بشيرًا هذا خرج له مسلم ووثقه ابن معين وقال النسائى: ما به بأس إلا أن الإمام أحمد قال: فيه هو منكر الحديث قد اعتبرت أحاديثه فإذا هى تجيئ بالعجب وقال البخارى: يخالف فى بعض حديثه وقال أبو حاتم الرازى: يكتب حديثه ولا يحتج به وقال ابن عدى: روى ما لا يتابع عليه وقال الدارقطنى: ليس بالقوى.

(قُلْتُ) ولكن لبعضه شواهد فمن ذلك حديث أبى أمامة الباهلى قال الإمام أحمد [٤]: حدّثنا عبد الملك بن عمرو حدّثنا هشام عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلام عن أبى أمامة قال: سمعت

---

(١) ضعيف: وقد بين الحافظ علته بأن فيه إبهامًا، ثم هو مرسل.

(٢) أحمد، (٢٢٤٤١)، قال الهيثمي (٧/ ١٥٩) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، وقال العقيلي في «الضعفاء» (١/ ١٤٣)، ولا يصح في هذا الباب عن النبي ﷺ حديث...

(٣) ضعيف: ابن ماجه، (٣٧٨١)، انظر ضعيف سنن ابن ماجه.

(٤) صحيح: أحمد (٢١٦٤٢)، انظر السلسلة الصحيحة (٣٩٩٢).

رسول الله ﷺ يقول: «**اقرؤوا القرآن فإنه شافع لأصحابه يوم القيامة اقرءوا الزهراوين: البقرة وآل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غيايتان أو كأنهما فرقان من طير صواف يحاجان عن أهلهما ثم قال: اقرءوا البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة**» وقد رواه مسلم [١] فى الصلاة من حديث معاوية بن سلام عن أخيه زيد بن سلام عن جده أبى سلام ممطور الحبشى عن أبى أمامة صدى بن عجلان الباهلى به، الزهراوان: المنيران، والغياية: ما أظلك من فوقك، والفِرْقُ: القطعة من الشىء، والصواف: المصطفة المتضامة، والبطلة: السحرة، ومعنى لا تستطيعها أى لا يمكنهم حفظها وقيل: لا تستطيع النفوذ فى قارئها والله أعلم.

ومن ذلك حديث النواس بن سمعان قال الإمام أحمد [٢]: حدّثنا يزيد بن عبد ربه حدّثنا الوليد بن مسلم عن محمد بن مهاجر عن الوليد بن عبد الرحمن الجُرَشى عن جبير بن نفير قال: سمعت النواس بن سمعان الكلابى يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمهم سورة البقرة وآل عمران**» وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد، قال: «**كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوان بينهما شرق أو كأنهما فرقان من طير صواف يحاجان عن صاحبهما**» ورواه مسلم [٣] عن إسحاق بن منصور عن يزيد بن عبدربه به، والترمذى من حديث الوليد بن عبد الرحمن الجرشى به وقال: حسن غريب.

وقال أبو عبيد: حدّثنا حجاج عن حماد بن سلمة عن عبد الملك بن عمير قال: قال حماد: أحسبه عن أبى منيب عن عمه أن رجلاً قرأ البقرة وآل عمران فلما قضى صلاته قال له كعب: أقرأت البقرة وآل عمران؟ قال: نعم قال: فوالذى نفسى بيده إن فيهما اسم الله الذى إذا دعى به استجاب. قال: فأخبرنى به قال: لا والله لا أخبرك به ولو أخبرتك به لأوشكت أن تدعوه بدعوة أهلك فيها أنا وأنت، وحدّثنا عبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح عن سليم بن عامر أنه سمع أبا أمامة يقول: إن أخًا لكم أرى فى المنام أن الناس يسلكون فى صدع جبل وَعِرٍ طويل وعلى رأس الجبل شجرتان خضراوان تهتفان هل فيكم من يقرأ سورة البقرة؟ هل فيكم من يقرأ سورة آل عمران؟ قال فإذا قال الرجل: نعم دنتا منه بأعذاقهما حتى يتعلق بهما فتخطران به الجبل.

وحدّثنا عبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح عن أبى عمران أنه سمع أم الدرداء تقول: إن رجلاً ممن قد قرأ القرآن أغار على جار له فقتله وإنه أقيد به فقتل فما زال القرآن ينسل منه سورة سورة حتى بقيت البقرة وآل عمران جمعة ثم إن آل عمران انسلت منه وأقامت البقرة جمعة فقيل لها ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩] قال: فخرجت كأنها السحابة العظيمة قال أبو عبيد: أراه يعنى أنهما كانتا معه فى قبره تدفعان عنه وتؤنسانه فكانتا من آخر ما بقى معه من القرآن. وقال أيضًا: حدثنا أبو مسهر الغسّانى عن سعيد بن عبد العزيز التنوخى أن يزيد بن الأسود الجرشى كان يحدث أنه من قرأ البقرة وآل عمران فى يوم برىء من النفاق حتى يمسى ومن قرأهما فى ليلة برئ من النفاق حتى يصبح، قال: فكان يقرؤهما كل يوم وليلة سوى جزئه.

---

(١) مسلم (٨٠٤).
(٢) **صحيح**: أحمد (١٧١٨٥)، انظر المشكاة (٢١٢١).
(٣) مسلم (٨٠٥).

وحدّثنا يزيد عن وقاء بن إياس عن سعيد بن جبير قال: قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: من قرأ البقرة وآل عمران فى ليلة كان - أو كتب - من القانتين فيه انقطاع ولكن ثبت فى الصحيح[١] أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قرأ بهما فى ركعة واحدة.

ذكر ما ورد فى فضل السبع الطول

قال أبو عبيد[٢]: حدّثنا هشام بن إسماعيل الدمشقى عن محمد بن شعيب عن سعيد بن بشير عن قتادة عن أبى المليح عن واثلة بن الأسقع عن النبى ﷺ قال: «**أعطيت السبع الطول مكان التوراة وأعطيت المئين مكان الإنجيل وأعطيت المثانى مكان الزبور وفضلت بالمفصل**» هذا حديث غريب وسعيد بن بشير فيه لين وقد رواه أبو عبيد عن عبد الله بن صالح عن الليث عن سعيد بن أبى هلال قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال... فذكره والله أعلم، ثم قال[٣]: حدّثنا إسماعيل بن جعفر عن عمرو بن أبى عمرو مولى المطلب بن عبد الله بن حنطب عن حبيب بن هند الأسلمى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها عن النبى ﷺ قال: «**من أخذ السبع فهو حبر**» وهذا أيضًا غريب وحبيب بن هند بن أسماء بن هند بن حارثة الأسلمى روى عنه عمرو بن أبى عمرو وعبد الله بن أبى بكرة وذكره أبو حاتم الرازى ولم يذكر فيه جرحًا فالله أعلم. وقد رواه الإمام أحمد[٤] عن سليمان بن داود وحسين كلاهما عن إسماعيل بن جعفر به، ورواه[٥] أيضًا عن أبى سعيد عن سليمان بن بلال عن حبيب بن هند عن عروة عن عائشة أنّ رسول الله ﷺ قال: «**من أخذ السبع الأول من القرآن فهو حبر**».

قال أحمد[٦]: وحدّثنا حسين حدثنا ابن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة عن النبى ﷺ مثله قال عبد الله بن أحمد: وهذا أرى فيه عن أبيه عن الأعرج ولكن كذا كان فى الكتاب فلا أدرى أغفله أبى أو كذا هو مرسل، وروى الترمذى[٧] عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ بعث بعثًا وهم ذوو عدد وقدم عليهم أحدثهم سنًا لحفظه سورة البقرة وقال له: «**اذهب فأنت أميرهم**» وصححه الترمذى ثم قال أبو عبيد: حدّثنا هشيم أخبرنا أبو بشر عن سعيد بن جبير فى قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ [الحجر: ٨٧] قال: هى السبع الطول البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس قال: وقال مجاهد: هى السبع الطول وهكذا قال مكحول وعطية بن قيس وأبو محمد الفارسى وشداد بن عبيد الله ويحيى بن الحارث الذمارى فى تفسير الآية بذلك وفى تعدادها وإنّ يونس هى السابعة.

فصل: والبقرة جميعها مدنية بلا خلاف وهى من أوائل ما نزل بها لكن قوله تعالى فيها: ﴿وَٱتَّقُوا۟

---

(١) مسلم (٧٧٢).

(٢) **حسن**: الطبراني في «الكبير» (٢٢/ ٧٦)، برقم (١٨٧)، وانظر السلسلة الصحيحة (١٤٨٠).

(٣) عزاه الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١٦٢)، وقال: ورجال البزار رجال الصحيح غير حبيب بن هند الأسلمي وهو ثقة ورواه بإسناد آخر رجاله رجال الصحيح.

(٤) **حسن**: أحمد (٢٣٩٢٢)، انظر السلسلة الصحيحة (٢٣٠٥).

(٥) **حسن**: أحمد (٢٤٠١٠)، انظر السلسلة الصحيحة (٢٣٠٥).

(٦) سبق تخريجه.

(٧) **ضعيف**: الترمذي (٢٨٧٦)، انظر ضعيف جامع الترمذي.

﴿يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١] الآية يقال: إنها آخر ما نزل من القرآن ويحتمل أن تكون منها وكذلك آيات الربا من آخر ما نزل وكان خالد بن معدان يسمى البقرة فسطاط القرآن، قال بعض العلماء: وهى مشتملة على ألف خبر وألف أمر وألف نهى، وقال العادّون: آياتها مائتان وثمانون وسبع آيات وكلماتها ستة آلاف كلمة ومائة وإحدى وعشرون كلمة وحروفها خمسة وعشرون ألفًا وخمسمائة حرف، فالله أعلم.

قال ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس: نزلت بالمدينة سورة البقرة، وقال خصيف عن مجاهد عن عبد الله بن الزبير قال: نزلت بالمدينة سورة البقرة، وقال الواقدى حدّثنى الضحاك بن عثمان عن أبى الزناد عن خارجة بن زيد بن ثابت عن أبيه قال نزلت البقرة بالمدينة، وهكذا قال غير واحد من الأئمة والعلماء والمفسرين ولا خلاف فيه. وقال ابن مردويه[1]: حدّثنا محمد بن معمر حدّثنا الحسن بن على بن الوليد الفارسى حدّثنا خلف بن هشام وحدّثنا عيسى بن ميمون عن موسى بن أنس بن مالك عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لاتقولوا سورة البقرة ولا سورة آل عمران ولا سورة النساء وكذا القرآن كله ولكن قولوا السورة التى يذكر فيها البقرة والتى يذكر فيها آل عمران وكذا القرآن كله»** هذا حديث غريب لا يصح رفعه وعيسى بن ميمون هذا هو أبو سلمة الخواص وهو ضعيف الرواية لا يحتج به وقد ثبت فى الصحيحين[2] عن ابن مسعود أنه رمى الجمرة من بطن الوادى فجعل البيت عن يساره ومنى عن يمينه ثم قال: هذا مقام الذى أنزلت عليه سورة البقرة أخرجاه، وروى ابن مردويه من حديث شعبة عن عقيل بن طلحة عن عتبة بن فرقد قال: رأى النبى ﷺ فى أصحابه تأخرًا فقال: **«يا أصحاب سورة البقرة»** وأظن هذا كان يوم حنين حين ولوا مدبرين أمر العباس فناداهم: **«يا أصحاب الشجرة»** يعنى أهل بيعة الرضوان[3] وفى رواية: **«يا أصحاب سورة البقرة»** لينشطهم بذلك فجعلوا يقبلون من كل وجه وكذلك يوم اليمامة مع أصحاب مسيلمة جعل الصحابة يفرون لكثافة جيش بنى حنيفة فجعل المهاجرون والأنصار يتنادون يا أصحاب سورة البقرة حتى فتح الله عليهم رضى الله عن أصحاب رسول الله أجمعين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ﴾

قد اختلف المفسرون فى الحروف المقطعة التى فى أوائل السور فمنهم من قال: هى مما استأثر الله بعلمه فردّوا علمها إلى الله ولم يفسروها، حكاه القرطبى فى تفسيره عن أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وابن مسعود رضى الله عنهم أجمعين، وقاله عامر الشعبى وسفيان الثورى والربيع بن خثيم واختاره أبو حاتم بن حبان ومنهم من فسرها واختلف هؤلاء فى معناها فقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنما هى أسماء السور.

---

(١) **ضعيف جدًا**: ضعفه السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٤١)، وعزاه لابن مردويه، وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١٥٧): فيه عيسى بن ميمون وهو متروك.

(٢) البخاري، (١٧٤٧)، ومسلم (١٢٩٦).

(٣) **صحيح**: ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٤١٧)، برقم (٣٦٩٨٩).

قال العلامة أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى فى تفسيره: وعليه إطباق الأكثر، ونقل عن سيبويه أنه نص عليه ويعتضد لهذا بما ورد فى الصحيحين [١] عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ فى صلاة الصبح يوم الجمعة الم السجدة وهل أتى على الإنسان، وقال سفيان الثورى عن ابن أبى نجيح عن مجاهد أنه قال: الم، وحم، والمص، وص. فواتح افتتح الله بها القرآن، وكذا قال غيره عن مجاهد وقال مجاهد فى رواية أبى حذيفة موسى بن مسعود عن شبل عن ابن أبى نجيح عنه أنه قال: الم اسم من أسماء القرآن وهكذا قال قتادة وزيد بن أسلم ولعل هذا يرجع إلى معنى قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم إنه اسم من أسماء السورة فإن كل سورة يطلق عليها اسم القرآن فإنه يبعد أن يكون المص اسمًا للقرآن كله لأن المتبادر إلى فهم سامع من يقول: قرأت المص إنما ذلك عبارة عن سورة الأعراف لا لمجموع القرآن، والله أعلم.

وقيل: هى اسم من أسماء الله تعالى فقال الشعبى: فواتح السور من أسماء الله تعالى وكذلك قال سالم بن عبد الله وإسماعيل بن عبد الرحمن السدى الكبير وقال شعبة عن السدى: بلغنى أن ابن عباس قال: الم اسم من أسماء الله الأعظم. هكذا رواه ابن أبى حاتم من حديث شعبة ورواه ابن جرير عن بندار عن ابن مهدى عن شعبة قال: سألت السدى عن حم وطس والم فقال: قال ابن عباس: هى اسم الله الأعظم وقال ابن جرير وحدثنا محمد بن المثنى حدّثنا أبو النعمان حدّثنا شعبة عن إسماعيل السدى عن مرة الهمدانى قال: قال عبد الله فذكر نحوه. وحكى مثله عن على وابن عباس وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: هو قسم أقسم الله به وهو من أسماء الله تعالى وروى ابن أبى حاتم وابن جرير من حديث ابن علية عن خالد الحذاء عن عكرمة أنه قال: الم قسم. ورويا أيضًا من حديث شريك بن عبد الله عن عطاء بن السائب عن أبى الضحى عن ابن عباس، الم قال: أنا الله أعلم، وكذا قال سعيد بن جبير وقال السدى عن أبى مالك.

وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبى ﷺ الم قال: أما الم فهى حروف استفتحت من حروف هجاء أسماء الله تعالى.

وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ قال: هذه الأحرف الثلاثة من التسعة والعشرين حرفًا دارت فيها الألسن كلها ليس منها حرف إلا وهو مفتاح اسم من أسمائه، وليس منها حرف إلا وهو من آلائه، وبلائه، وليس منها حرف إلا وهو فى مدة أقوام وآجالهم. قال عيسى ابن مريم عليه السلام وعجب فقال: وأعجب أنهم ينطقون بأسمائه ويعيشون فى رزقه فكيف يكفرون به، فالألف مفتاح اسم الله واللام مفتاح اسمه لطيف والميم مفتاح اسمه مجيد فالألف آلاء الله واللام لطف الله والميم مجد الله، والألف ستة واللام ثلاثون والميم أربعون.

هذا لفظ ابن أبى حاتم. ونحوه رواه ابن جرير ثم شرع يوجه كل واحد من هذه الأقوال ويوفق بينها وأنه لا منافاة بين كل واحد منها وبين الآخر وأن الجمع ممكن فهى أسماء للسور ومن أسماء الله تعالى يفتتح بها السور فكل حرف منها دل على اسم من أسمائه وصفة من صفاته كما افتتح سورًا كثيرة

---

(١) البخاري (٨٩١)، ومسلم (٨٨٠)

بتحميده وتسبيحه وتعظيمه، قال: ولا مانع من دلالة الحرف منها على اسم من أسماء الله وعلى صفة من صفاته وعلى مدة وغير ذلك كما ذكره الربيع بن أنس عن أبى العالية لأن الكلمة الواحدة تطلق على معانى كثيرة كلفظة الأمة فإنها تطلق ويراد به الدين كقوله تعالى ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢] وتطلق ويراد بها الرجل المطيع لله كقوله تعالى ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠] وتطلق ويراد بها الجماعة كقوله تعالى ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٣] وقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ [النحل: ٣٦] وتطلق ويراد بها الحين من الدهر كقوله تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥] أى بعد حين على أصح القولين قال: فكذلك هذا.

هذا حاصل كلامه موجهًا ولكن هذا ليس كما ذكره أبو العالية فإن أبا العالية زعم أن الحرف دل على هذا وعلى هذا معًا ولفظة الأمة وما أشبهها من الألفاظ المشتركة فى الاصطلاح إنما دل فى القرآن فى كل موطن على معنى واحد دل عليه سياق الكلام فأما حمله على مجموع محامله إذا أمكن فمسألة مختلف فيها بين علماء الأصول ليس هذا موضع البحث فيها والله أعلم. ثم إن لفظة الأمة تدل على كل من معانيها فى سياق الكلام بدلالة الوضع فأما دلالة الحرف الواحد على اسم يمكن أن يدل على اسم آخر من غير أن يكون أحدهما أولى من الآخر فى التقدير أو الإضمار بوضع ولا بغيره فهذا مما لا يفهم إلا بتوقيف، والمسألة مختلف فيها وليس فيها إجماع حتى يحكم به وما أنشدوه من الشواهد على صحة إطلاق الحرف الواحد على بقية الكلمة فإن فى السياق ما يدل على ما حذف بخلاف هذا، كما قال الشاعر:

قلنا لهما قفى لنا فقالت قاف ... لا تحسبى أنا نسينا الإيجاف

تعنى وقفت وقال الآخر:

ما للظليم عال كيف لا ... يا ينقد عنه جلده إذا يا

فقال ابن جرير: كأنه أراد أن يقول إذا يفعل كذا وكذا فاكتفى بالياء من يفعل وقال الآخر:

بالخير خيرات وإن شرًّا فا ... ولا أريد الشر إلا أن تا

يقول: وإن شرًّا فشرٌّ ولا أريد الشر إلا أن تشاء فاكتفى بالفاء والتاء من الكلمتين عن بقيتهما، ولكن هذا ظاهر من سياق الكلام، والله أعلم.

قال القرطبى: وفى الحديث «من أعان على قتل مسلم بشطر كلمة»[1] الحديث قال سفيان: هو أن يقول فى اقتل: «اق». وقال خصيف عن مجاهد أنه قال: فواتح السور كلها (ق وص وحم وطسم والر) وغير ذلك هجاء موضوع وقال بعض أهل العربية: هى حروف من حروف المعجم استغنى بذكر ما ذكر منها فى أوائل السور عن ذكر بواقيها التى هى تتمة الثمانية والعشرين حرفًا كما يقول القائل: ابنى يكتب فى - ا ب ت ث - أى فى حروف المعجم الثمانية والعشرين فيستغنى بذكر بعضها عن مجموعها حكاه ابن جرير.

قلت: مجموع الحروف المذكورة فى أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفًا وهى - ا ل

(١) ضعيف جدًا: ابن ماجه، (٢٦٢٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، انظر ضعيف سنن ابن ماجه.

م ص ر ك هـ ى ع ط س ح ق ن - يجمعها قولك: نص حكيم قاطع له سر. وهى نصف الحروف عددًا والمذكور منها أشرف من المتروك وبيان ذلك من صناعة التصريف: قال الزمخشرى وهذه الحروف الأربعة عشر مشتملة على أصناف أجناس الحروف يعنى من المهموسة والمجهورة، ومن الرخوة والشديدة، ومن المطبقة والمفتوحة ومن المستعلية والمنخفضة، ومن حروف القلقلة. وقد سردها مفصلة ثم قال: فسبحان الذى دقت فى كل شىء حكمته. وهذه الأجناس المعدودة مكثورة بالمذكورة منها وقد علمت أن معظم الشىء وجله ينزل منزلة كله ومن ههنا لخص بعضهم فى هذا المقام كلامًا فقال: لا شك أن هذه الحروف لم ينزلها سبحانه وتعالى عبثًا ولا سدى، ومن قال من الجهلة: إنه فى القرآن ما هو تعبد لا معنى له بالكلية فقد أخطأ خطأً كبيرًا، فتعين أن لها معنى فى نفس الأمر فإن صح لنا فيها عن المعصوم شىء قلنا به وإلا وقفنا حيث وقفنا وقلنا ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧] ولم يجمع العلماء فيها على شىء معين وإنما اختلفوا فمن ظهر له بعض الأقوال بدليل فعليه اتباعه وإلا فالوقف حتى يتبين هذا المقام.

المقام الآخر فى الحكمة التى اقتضت إيراد هذه الحروف فى أوائل السور ما هى؟ مع قطع النظر عن معانيها فى أنفسها، فقال بعضهم إنما ذكرت ليعرف بها أوائل السور حكاه ابن جرير وهذا ضعيف لأن الفصل حاصل بدونها فيما لم تذكر فيه وفيما ذكرت فيه البسملة تلاوة وكتابة وقال آخرون: بل ابتدئ بها لتفتح لاستماعها أسماع المشركين إذ تواصوا بالإعراض عن القرآن حتى إذا استمعوا له تُلي عليهم المؤلف منه حكاه ابن جرير أيضًا وهو ضعيف أيضًا؛ لأنه لو كان كذلك لكان ذلك فى جميع السور لا يكون فى بعضها بل غالبها ليس كذلك ولو كان كذلك أيضًا لانبغى الابتداء بها فى أوائل الكلام معهم سواء كان افتتاح سورة أو غير ذلك؛ ثم إن هذه السورة والتى تليها أعنى البقرة وآل عمران مدنيتان ليستا خطابًا للمشركين فانتقض ما ذكروه بهذه الوجوه. وقال آخرون: بل إنما ذكرت هذه الحروف فى أوائل السور التى ذكرت فيها بيانًا لإعجاز القرآن وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله هذا مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التى يتخاطبون بها، وقد حكى هذا المذهب الرازى فى تفسيره عن المبرد وجمع من المحققين، وحكى القرطبى عن الفراء وقطرب نحو هذا، وقرره الزمخشرى فى كشافه ونصره أتم نصر، وإليه ذهب الشيخ الإمام العلامة أبو العباس ابن تيمية وشيخنا الحافظ المجتهد أبو الحجاج المزى وحكاه لى عن ابن تيمية.

قال الزمخشرى: ولم ترد كلها مجموعة فى أول القرآن وإنما كررت ليكون أبلغ فى التحدى والتبكيت كما كررت قصص كثيرة وكرر التحدى بالصريح فى أماكن، قال: وجاء منها على حرف واحد كقوله - ص ن ق - وحرفين مثل حم وثلاثة مثل الم وأربعة مثل المر والمص وخمسة مثل كهيعص - و - حم عسق لأن أساليب كلامهم على هذا من الكلمات ما هو على حرف وعلى حرفين وعلى ثلاثة وعلى أربعة وعلى خمسة لا أكثر من ذلك.

(قُلْتُ): ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته وهذا معلوم بالاستقراء وهو الواقع فى تسع وعشرين سورة ولهذا يقول تعالى ﴿الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ١-٢] ﴿الٓمٓ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ

يَدَيْهِ﴾[آل عمران: ١-٣] ﴿الٓمٓصٓ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾[الأعراف: ١-٢] ﴿الٓرٰ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾[إبراهيم: ١] ﴿الٓمٓ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[السجدة: ١-٢] ﴿حمٓ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[فصلت: ١-٢] ﴿حمٓ عٓسٓقٓ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[الشورى: ١-٣] وغير ذلك من الآيات الدالة على صحة ما ذهب إليه هؤلاء لمن أمعن النظر، والله أعلم.

وأما من زعم أنها دالة على معرفة المُدَدِ وأنه يَستخرج من ذلك أوقات الحوادث والفتن والملاحم فقد ادعى ما ليس له، وطار فى غير مطاره، وقد ورد فى ذلك حديث ضعيف وهو مع ذلك أدل على بطلان هذا المسلك من التمسك به على صحته، وهو ما رواه محمد[1] بن إسحاق بن يسار صاحب المغازى حدثنى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس عن جابر بن عبد الله بن رئاب قال مر أبو ياسر بن أخطب فى رجال من يهود برسول الله ﷺ وهو يتلو فاتحة سورة البقرة ﴿الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[البقرة: ١-٢] فأتى أخاه حيى بن أخطب فى رجال من اليهود فقال: تعلمون والله لقد سمعت محمدًا يتلو فيما أنزل الله تعالى عليه: ﴿الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ فقال: أنت سمعته؟ قال: نعم قال: فمشى حيى بن أخطب فى أولئك النفر من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد ألم تذكر أنك تتلو فيما أنزل الله عليك ﴿الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾؟ فقال رسول الله ﷺ: «بلى» فقالوا: جاءك بهذا جبريل من عند الله؟ فقال «نعم» قالوا: لقد بعث الله قبلك أنبياء ما نعلمه بيّن لنبى منهم ما مدة ملكه وما أجل أمته غيرك. فقام حيى بن أخطب وأقبل على من كان معه فقال لهم: الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون فهذه إحدى وسبعون سنة أفتدخلون فى دين نبى إنما مدة ملكه وأجل أمته إحدى وسبعون سنة؟ ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال: يا محمد هل مع هذا غيره؟ فقال: نعم، قال: ما ذاك؟ قال «المص» قال هذه أثقل وأطول، الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون والصاد سبعون فهذه إحدى وثلاثون ومائة سنة. هل مع هذا يا محمد غيره؟ قال: نعم، قال ما ذاك؟ قال «الر». قال هذا أثقل وأطول الألف واحدة واللام ثلاثون والراء مائتان فهذه إحدى وثلاثون ومائتا سنة. فهل مع هذا يا محمد غيره؟ قال «نعم» قال: ماذا؟ قال: «المر» قال: هذه أثقل وأطول الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون والراء مائتان فهذه إحدى وسبعون ومائتان ثم قال: لقد لبس علينا أمرك يا محمد حتى ما ندرى أقليلًا أعطيت أم كثيرًا. ثم قال: قوموا عنه، ثم قال: أبو ياسر لأخيه حيى بن أخطب ولمن معه من الأحبار: ما يدريكم لعله قد جمع هذا لمحمد كله إحدى وسبعون وإحدى وثلاثون ومائة وإحدى وثلاثون ومائتان وإحدى وسبعون ومائتان فذلك سبعمائة وأربع سنين. فقالوا لقد تشابه علينا أمره فيزعمون أن هؤلاء الآيات نزلت فيهم ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾[آل عمران: ٧] فهذا الحديث مداره على محمد بن السائب الكلبى وهو ممن لا يحتج بما انفرد به ثم كان مقتضى هذا المسلك إن كان صحيحًا أن يحسب ما لكل حرف من الحروف الأربعة عشر التى ذكرناها وذلك يبلغ منه جملة كثيرة وإن حسبت مع التكرر فأطم وأعظم والله أعلم.

---

(١) منكر: ابن جرير (١/ ٩٣)، من طريق ابن إسحاق به، وعلته محمد بن السائب الكلبي: متهم بالوضع.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾

قال ابن جريج: قال ابن عباس: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أى هذا الكتاب وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والسدى ومقاتل بن حيان وزيد بن أسلم وابن جريج أن ذلك بمعنى هذا والعرب تعارض بين اسمى الإشارة فيستعملون كلًّا منهما مكان الآخر وهذا معروف فى كلامهم وقد حكاه البخارى عن معمر بن المثنى عن أبى عبيدة وقال الزمخشرى ذلك إشارة إلى ﴿الم﴾ كما قال تعالى: ﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ ۚ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۗ﴾ [البقرة: ٦٨] وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ﴾ [الممتحنة: ١٠] وقال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۚ﴾ [الأنعام: ٩٥] وأمثال ذلك مما أشير به إلى ما تقدم ذكره والله أعلم. وقد ذهب بعض المفسرين فيما حكاه القرطبى وغيره أن ذلك إشارة إلى القرآن الذى وعد الرسول ﷺ بإنزاله عليه أو التوراة أو الإنجيل أو نحو ذلك فى أقوال عشرة. وقد ضعف هذا المذهب كثيرون، والله أعلم.

والكتاب: القرآن ومن قال: إن المراد بذلك الكتاب الإشارة إلى التوراة والإنجيل كما حكاه ابن جرير وغيره فقد أبعد النجعة وأغرق فى النزع وتكلف ما لا علم له به.

والريب: الشك قال السدى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرّة الهمدانى عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ ﴿لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ﴾ لا شك فيه، وقال أبو الدرداء وابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وأبو مالك ونافع مولى ابن عمر وعطاء وأبو العالية والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان والسدى وقتادة وإسماعيل بن أبى خالد وقال ابن أبى حاتم: لا أعلم فى هذا خلافًا.

وقد يستعمل الريب فى التهمة قال جميل:

بثينة قالت يا جميل أربتنى ... فقلت كلانا يا بثين مريب

واستعمل أيضًا فى الحاجة كما قال بعضهم:

قضينا من تهامة كل ريب ... وخيبر ثم أجمعنا السيوفا

ومعنى الكلام هنا أن هذا الكتاب وهو القرآن لا شك فيه أنه نزل من عند الله كما قال الله تعالى فى السجدة ﴿الٓمٓ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقال بعضهم: هذا خبر ومعناه النهى أى: لا ترتابوا فيه. ومن القراء من يقف على قوله تعالى ﴿لَا رَيْبَ ۛ﴾ ويبتدئ بقوله تعالى ﴿فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ والوقف على قوله تعالى ﴿لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ﴾ أولى للآية التى ذكرناها ولأنه يصير قوله تعالى ﴿هُدًى﴾ صفة للقرآن وذلك أبلغ من كون ﴿فِيهِ ۛ هُدًى﴾، و﴿هُدًى﴾ يحتمل من حيث العربية أن يكون مرفوعًا على النعت ومنصوبًا على الحال وخصت الهداية للمتقين كما قال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤] ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على اختصاص المؤمنين بالنفع بالقرآن لأنه هو فى نفسه هدى ولكن لا يناله إلا الأبرار كما قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧] وقد قال السدى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرّة الهمدانى عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يعنى نورًا للمتقين، وقال الشعبى:

هدى من الضلالة. وقال سعيد بن جبير: تبيان للمتقين، وكل ذلك صحيح. وقال السدى: عن أبى مالك، وعن أبى صالح، عن ابن عباس، وعن مرة الهمدانى، عن ابن مسعود. وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ قال: هم المؤمنون. وقال محمد بن إسحاق: عن محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أى: الذين يحذرون من الله عقوبته فى ترك ما يعرفون من الهدى ويرجون رحمته فى التصديق بما جاء به. وقال أبو روق عن الضحاك عن ابن عباس: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ قال المؤمنين الذين يتقون الشرك بى ويعملون بطاعتى، وقال سفيان الثورى: عن رجل عن الحسن البصرى قوله تعالى ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ قال: اتقوا ما حرم الله عليهم وأدّوا ما افترض الله عليهم، وقال أبو بكر بن عياش سألنى الأعمش عن المتقين قال: فأجبته فقال لى: سل عنها الكلبى فسألته فقال: الذين يجتنبون كبائر الإثم قال: فرجعت إلى الأعمش فقال: نرى أنه كذلك ولم ينكره. وقال قتادة ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ هم الذين نعتهم الله بقوله ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٣] الآية والتى بعدها، واختار ابن جرير أن الآية تعم ذلك كله وهو كما قال. وقد روى الترمذى وابن ماجه [١] من رواية أبى عقيل عبد الله بن عقيل عن عبد الله بن يزيد عن ربيعة بن يزيد وعطية بن قيس عن عطية السعدى قال: قال رسول الله ﷺ **«لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرًا مما به بأس»** ثم قال الترمذى: حسن غريب.

وقال ابن أبى حاتم: حدّثنا أبى حدّثنا عبد الله بن عمران، حدثنا إسحاق بن سليمان يعنى الرازى عن المغيرة بن مسلم عن ميمون أبى حمزة قال: كنت جالسًا عند أبى وائل فدخل علينا رجل يقال له: أبو عفيف من أصحاب معاذ فقال له شقيق بن سلمة: يا أبا عفيف ألا تحدّثنا عن معاذ بن جبل قال: بلى سمعته يقول: يحبس الناس يوم القيامة فى بقيع واحد فينادى مناد: أين المتقون؟ فيقومون فى كنف من الرحمن لا يحتجب الله منهم ولا يستتر. قلت: من المتقون؟ قال: قوم اتقوا الشرك وعبادة الأوثان وأخلصوا لله العبادة فيمرون إلى الجنة. ويطلق الهدى ويراد به ما يقرّ فى القلب من الإيمان وهذا لا يقدر على خلقه فى قلوب العباد إلا الله عز وجل قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] وقال: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢] وقال: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٨٦] وقال: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧] إلى غير ذلك من الآيات ويطلق ويراد به بيان الحق وتوضيحه والدلالة عليه والإرشاد إليه قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] وقال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧] وقال: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] على تفسير من قال: المراد بهما الخير والشر وهو الأرجح والله أعلم، وأصل التقوى التوقى مما يكره لأن أصلها وقوى من الوقاية قال النابغة:

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه ... فتناولته واتقتنا باليد

وقال الآخر:

فألقت قناعًا دونه الشمس واتقت ... بأحسن موصولين كف ومعصم

(١) ضعيف: الترمذي (٢٤٥١)، وابن ماجه (٤٢١٥). وانظر ضعيف الترمذي.

وقد قيل: إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سأل أبى بن كعب عن التقوى فقال له: أما سلكت طريقًا ذا شوك؟ قال: بلى، قال: فما عملت؟ قال: شمرت واجتهدت قال: فذلك التقوى. وقد أخذ هذا المعنى ابن المعتز فقال:

خل الذنوب صغيرها ... وكبيرها ذاك التقى
واصنع كماش فوق أر ... ض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة ... إنّ الجبال من الحصى

وأنشد أبو الدرداء يومًا:

يريد المرء أن يؤتى مناه ... ويأبى الله إلا ما أرادا
يقول المرء فائدتى ومالى ... وتقوى الله أفضل ما استفادا

وفى سنن ابن ماجه [1] عن أبى أمامة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ **«ما استفاد المرء بعد تقوى الله خيرًا من زوجة صالحة إن نظر إليها سرته، وإن أمرها أطاعته، وإن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها نصحته فى نفسها وماله»**.

﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾

قال أبو جعفر الرازى عن العلاء بن المسيب بن رافع عن أبى إسحاق عن أبى الأحوص عن عبد الله قال: الإيمان التصديق، وقال على بن أبى طلحة وغيره عن ابن عباس رضى الله عنهما ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ يصدّقون وقال معمر عن الزهرى: الإيمان العمل، وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ يخشون.

قال ابن جرير: والأولى أن يكونوا موصوفين بالإيمان بالغيب قولاً واعتقادًا وعملاً وقال: وقد تدخل الخشية لله فى معنى الإيمان الذى هو تصديق القول بالعمل، والإيمان كلمة جامعة للإقرار بالله وكتبه ورسله وتصديق الإقرار بالفعل.

(قُلْتُ) أما الإيمان فى اللغة فيطلق على التصديق المحض وقد يستعمل فى القرآن والمراد به ذلك كما قال تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١] وكما قال إخوة يوسف لأبيهم ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧] وكذلك إذا استعمل مقرونًا مع الأعمال كقوله تعالى ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الإنشقاق: ٢٥] فأما إذا استعمل مطلقًا فالإيمان الشرعى المطلوب لا يكون إلا اعتقادًا وقولاً وعملاً. هكذا ذهب إليه أكثر الأئمة بل قد حكاه الشافعى وأحمد بن حنبل وأبو عبيد وغير واحد إجماعًا: أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص وقد ورد فيه آثار كثيرة وأحاديث أوردنا الكلام فيها فى أول شرح البخارى ولله الحمد والمنّة. ومنهم من فسره بالخشية كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ [الملك: ١٢] وقوله: ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣] والخشية

---

(١) **ضعيف بهذا اللفظ**: أخرجه ابن ماجه (١٨٥٧)، وفيه عثمان بن أبي عاتكة. قال الحافظ عنه: (ضعفوه في روايته عن على بن يزيد الألهانى) لكن الحديث محفوظ بإسناد حسن ولفظه قيل: «يا رسول الله أى النساء خير، قال: «التى تسره إذا نظر إليها، وتطيعه إذا أمرها...» أخرجه النسائي، برقم (٣٢٣١). فقد حسنه الألباني في إرواء الغليل برقم (١٧٨٦).

خلاصة الإيمان والعلم كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٣٣] وقال بعضهم: يؤمنون بالغيب كما يؤمنون بالشهادة وليسوا كما قال تعالى عن المنافقين: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤] وقال: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] فعلى هذا يكون قوله بالغيب حالاً أى فى حال كونهم غيبًا عن الناس.

وأما الغيب المراد ههنا فقد اختلفت عبارات السلف فيه وكلها صحيحة ترجع إلى أن الجميع مراد، قال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية في قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ قال يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وجنته وناره ولقائه ويؤمنون بالحياة بعد الموت وبالبعث، فهذا غيب كله. وكذا قال قتادة بن دعامة، وقال السدى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب النبى ﷺ: أما الغيب فما غاب عن العباد من أمر الجنة وأمر النار وما ذكر فى القرآن، وقال محمد بن إسحاق عن محمد بن أبى محمد عن عكرمة -أو عن سعيد بن جبير- عن ابن عباس ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ قال: بما جاء منه - يعنى من الله تعالى - وقال سفيان الثورى عن عاصم عن زر قال: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾: القرآن، وقال عطاء بن أبى رباح: من آمن بالله فقد آمن بالغيب وقال إسماعيل بن أبى خالد ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ قال: بغيب الإسلام وقال زيد بن أسلم: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ قال: بالقدر. فكل هذه متقاربة فى معنى واحد لأن جميع هذه المذكورات من الغيب الذى يجب الإيمان به.

وقال سعيد بن منصور [(١)]: حدّثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عمارة بن عمير عن عبد الرحمن بن يزيد قال: كنا عند عبد الله بن مسعود جلوسًا فذكرنا أصحاب النبى ﷺ وما سبقونا به قال: فقال عبد الله: إن أمر محمد ﷺ كان بيّنًا لمن رآه والذى لا إله غيره ما آمن أحد قط إيمانًا أفضل من إيمان بغيب ثم قرأ ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ - إلى قوله - ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١-٥] وهكذا رواه ابن أبى حاتم وابن مردويه والحاكم فى مستدركه [(٢)] من طرق عن الأعمش به. وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وفى معنى هذا الحديث الذى رواه أحمد [(٣)] حدثنا أبو المغيرة أخبرنا الأوزاعى حدّثنى أسيد بن عبد الرحمن عن خالد بن دريك عن ابن محيريز قال: قلت لأبى جمعة: حدّثنا حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ قال: نعم. أحدّثك حديثًا جيّدًا: تغدينا مع رسول الله ﷺ ومعنا أبو عبيدة بن الجراح فقال: يا رسول الله هل أحد خير منا؟ أسلمنا معك وجاهدنا معك. قال: «نعم قوم من بعدكم يؤمنون بى ولم يرونى»، طريق أخرى قال أبو بكر بن مردويه فى تفسيره [(٤)]: حدّثنا عبد الله بن جعفر حدّثنا إسماعيل بن عبد الله بن

---

(١) فى سننه (٢/ ٥٤٤)، برقم (١٨٠).

(٢) المستدرك (٢/ ٢٨٦)، برقم (٣٠٣٣)، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٣) **صحيح**: المسند (١٦٥٢٨). وانظر مشكاة المصابيح (٦٢٨٢).

(٤) **صحيح**: هو نفسه الحديث السابق لكن من طريق آخر، وأخرجه الطبراني في الكبير (٤/ ٢٣)، برقم (٣٥٤٠)، وقال الحافظ في الفتح: وإسناد هذه الرواية أقوى من إسناد الرواية المتقدمة.

مسعود حدّثنا عبد الله بن صالح حدّثنا معاوية بن صالح عن صالح بن جبير قال: قدم علينا أبو جمعة الأنصارى صاحب رسول الله ﷺ ببيت المقدس ليصلى فيه ومعنا يومئذٍ رجاء بن حيوة - رضى الله عنه - فلما انصرف خرجنا نشيعه فلما أراد الانصراف قال: إن لكم جائزة وحقًّا أحدّثكم بحديث سمعته من رسول الله ﷺ قلنا: هات رحمك الله قال: كنا مع رسول الله ﷺ ومعنا معاذ بن جبل عاشر عشرة فقلنا: يا رسول الله هل من قوم أعظم منَّا أجرًا؟ آمنا بالله واتبعناك، قال: «ما يمنعكم من ذلك ورسول الله بين أظهركم يأتيكم بالوحى من السماء، بل قوم من بعدكم يأتيهم كتاب بين لوحين يؤمنون به ويعملون بما فيه، أولئك أعظم منكم أجرًا مرتين» ثم رواه من حديث ضمرة بن ربيعة عن مرزوق بن نافع عن صالح بن جبير عن أبى جمعة بنحوه. وهذا الحديث فيه دلالة على العمل بالوجادة التى اختلف فيها أهل الحديث كما قررته فى أول شرح البخارى؛ لأنه مدحهم على ذلك وذكر أنهم أعظم أجرًا من هذه الحيثية لا مطلقًا، وكذا الحديث الآخر الذى رواه الحسن بن عرفة العبدى [1] حدثنا إسماعيل بن عياش الحمصى عن المغيرة بن قيس التميمى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال: قال رسول الله ﷺ **«أى الخلق أعجب إليكم إيمانًا؟»** قالوا: الملائكة قال: **«وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم»** ؟ قالوا: فالنبيون قال: **«وما لهم لا يؤمنون والوحى ينزل عليهم»؟** قالوا: فنحن قال: **«وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم؟»** قال: فقال رسول الله ﷺ: **«ألا إن أعجب الخلق إلى إيمانًا لقوم يكونون من بعدكم يجدون صحفًا فيها كتاب يؤمنون بما فيها»** قال أبو حاتم الرازى: المغيرة بن قيس البصرى منكر الحديث.

(قُلْتُ) ولكن قد روى أبو يعلى فى مسنده وابن مردويه فى تفسيره والحاكم فى مستدركه من حديث محمد بن أبى حميد - وفيه ضعف - عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر عن النبى ﷺ بمثله أو نحوه، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقد روى نحوه عن أنس بن مالك مرفوعًا، والله أعلم، وقال ابن أبى حاتم [2]: حدثنا أبى حدثنا عبد الله بن محمد المسندى حدثنا إسحاق بن إدريس أخبرنى إبراهيم بن جعفر بن محمود بن سلمة الأنصارى أخبرنى جعفر بن محمود عن جدته نويلة بنت أسلم قالت: صليت الظهر أو العصر فى مسجد بنى حارثة فاستقبلنا مسجد إيلياء فصلينا سجدتين ثم جاءنا من يخبرنا أن رسول الله ﷺ قد استقبل البيت الحرام فتحول النساء مكان الرجال والرجال مكان النساء فصلينا السجدتين الباقيتين ونحن مستقبلو البيت الحرام. قال إبراهيم فحدثنى رجال من بنى حارثة أنّ رسول الله ﷺ حين بلغه ذلك قال: **«أولئك قوم آمنوا بالغيب»** هذا حديث غريب من هذا الوجه.

قال ابن عباس ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أى يقيمون الصلاة بفروضها، وقال الضحاك عن ابن عباس: إقامة الصلاة إتمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع والإقبال عليها فيها، وقال قتادة: إقامة الصلاة

---

(١) ضعيف: أخرجه الحسن بن عرفة، برقم (١٩) وفيه المغيرة بن قيس، قال عنه ابن أبى حاتم (٨/ ٢٢٧) منكر الحديث.

(٢) ضعيف جدًا: ابن أبي حاتم (١/ ٣٧)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٦/ ٥٧)، وقال الهيثمي في المجمع (٢/ ١٤) فيه إسحاق بن إدريس الأسوارى، وهو ضعيف متروك. ولكن تحول الصحابة عن القبلة أثناء الصلاة ثابت صحيح، وستأتي الروايات فيه.

المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها، وقال مقاتل بن حيان: إقامتها المحافظة على مواقيتها وإسباغ الطهور بها وتمام ركوعها وسجودها وتلاوة القرآن فيها والتشهد والصلاة على النبى ﷺ فهذا إقامتها.

وقال على بن أبى طلحة وغيره عن ابن عباس ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ قال: زكاة أموالهم، وقال السدى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ قال: نفقة الرجل على أهله وهذا قبل أن تنزل الزكاة، وقال جويبر عن الضحاك: كانت النفقات قربات يتقربون بها إلى الله تعالى على قدر ميسرتهم وجهدهم حتى نزلت فرائض الصدقات سبع آيات فى سورة براءة مما يذكر فيهنّ الصدقات هن الناسخات المثبتات، وقال قتادة ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ فأنفقوا مما أعطاكم الله، هذه الأموال عوارٍ وودائع عندك يا ابن آدم يوشك أن تفارقها. واختار ابن جرير أنّ الآية عامة فى الزكاة والنفقات فإنه قال: وأولى التأويلات وأحقها بصفة القوم أن يكونوا لجميع اللازم لهم فى أموالهم مؤدين زكاة كانت ذلك أو نفقة من لزمته نفقته من أهل أو عيال وغيرهم ممن يجب عليهم نفقته بالقرابة والملك وغير ذلك لأن الله تعالى عم وصفهم ومدحهم بذلك وكل من الإنفاق والزكاة ممدوح به محمود عليه.

(قُلْتُ) كثيرًا ما يقرن الله تعالى بين الصلاة والإنفاق من الأموال فإن الصلاة حق الله وعبادته وهى مشتملة على توحيده والثناء عليه وتمجيده والابتهال إليه ودعائه والتوكل عليه، والإنفاق هو الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدى إليهم، وأولى الناس بذلك القرابات والأهلون والمماليك، ثم الأجانب فكل من النفقات الواجبة والزكاة المفروضة داخل فى قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ولهذا ثبت فى الصحيحين [1] عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «بنى الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت» والأحاديث فى هذا كثيرة، وأصل الصلاة فى كلام العرب الدعاء. قال الأعشى:

لها حارس لا يبرح الدهر بيتها ... وإن ذُبِحَت صلى عليها وزمزما

وقال أيضًا:

وقابلها الريح فى دنها ... وصلى على دنها وارتسم

أنشدهما ابن جرير مستشهدًا على ذلك، وقال الآخر وهو الأعشى أيضًا:

تقول بنتى وقد قرَّبتُ مرتحلا ... يا رب جُنب أبى الأوصابَ والوجعا

عليك مثل الذى صليت فاغتمضى ... نومًا فإن لجنب المرء مضطجعا

يقول عليك من الدعاء مثل الذى دعيته لى. وهذا ظاهر ثم استعملت الصلاة فى الشرع فى ذات الركوع والسجود والأفعال المخصوصة فى الأوقات المخصوصة بشروطها المعروفة وصفاتها وأنواعها المشهورة. قال ابن جرير: وأرى أن الصلاة سميت صلاة لأن المصلى يتعرض لاستنجاح طلبته من ثواب الله بعلمه مع ما يسأل ربه فيها من حاجته وقيل: هى مشتقة من الصلوين إذا تحركا فى الصلاة عند

---

(١) البخاري (٨)، ومسلم (١٦).

الركوع والسجود وهما عرقان يمتدان من الظهر حتى يكتنفان عجب الذنب ومنه سمى المصلى وهو التالى للسابق فى حلبة الخيل، وفيه نظر. وقيل هى مشتقة من الصلي وهو الملازمة للشيء من قوله تعالى: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ﴾ أى لا يلزمها ويدوم فيها ﴿إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ [الليل: ١٥] وقيل: مشتقة من تصلية الخشبة فى النار لتقوم كما أن المصلى يقوِّم عوجه بالصلاة ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥] واشتقاقها من الدعاء أصح وأشهر، والله أعلم. وأما الزكاة فسيأتى الكلام عليها فى موضعه إن شاء الله تعالى.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾

قال ابن عباس ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ أى: يصدّقون بما جئت به من الله وما جاء به من قبلك من المرسلين لا يفرّقون بينهم ولا يجحدون ما جاؤوهم به من ربهم ﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أى بالبعث والقيامة والجنة والنار والحساب والميزان، وإنما سميت الآخرة لأنها بعد الدنيا وقد اختلف المفسرون فى الموصوفين هنا، هل هم الموصوفون بما تقدّم من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣] ومن هم؟ على ثلاثة أقوال حكاها ابن جرير: أحدها أن الموصوفين أولاً هم الموصوفون ثانيًا وهم كل مؤمن، مؤمنو العرب ومؤمنو أهل الكتاب وغيرهم قاله مجاهد وأبو العالية والربيع بن أنس وقتادة، والثانى: هما واحد وهم مؤمنو أهل الكتاب، وعلى هذين تكون الواو عاطفة صفاتٍ على صفات كما قال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾ [الأعلى: ١-٥] وكما قال الشاعر:

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة فى المزدَحَم

فعطف الصفات بعضها على بعض والموصوف واحد، والثالث: أن الموصوفين أوّلاً مؤمنو العرب والموصوفون ثانيًا بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤] مؤمنو أهل الكتاب نقله السدى فى تفسيره عن ابن عباس وابن مسعود وأناس من الصحابة واختاره ابن جرير رحمه الله ويستشهد لما قال بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾ الآية [آل عمران: ١٩٩] وبقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٢-٥٤] وبما ثبت فى الصحيحين[1] من حديث الشعبى عن أبى بردة عن أبى موسى أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بى، ورجل مملوك أدَّى حق الله وحق مواليه، ورجل أدب جاريته فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها» وأما ابن جرير فما استشهد على صحة ما قال إلا بمناسبة وهى أن الله وصف فى أول هذه السورة المؤمنين والكافرين فكما أنه صنف الكافرين إلى صنفين كافر ومنافق فكذلك المؤمنون صنفهم إلى صنفين: عربى وكتابى.

(قُلْتُ) والظاهر قول مجاهد فيما رواه الثورى عن رجل عن مجاهد، ورواه غير واحد عن ابن أبى

(١) البخاري (٩٧)، ومسلم (١٥٤).

نجيح عن مجاهد أنه قال: أربع آيات من أوّل سورة البقرة فى نعت المؤمنين وآيتان فى نعت الكافرين وثلاثة عشرة فى المنافقين فهذه الآيات الأربع عامة فى كل مؤمن اتصف بها من عربى وعجمى وكتابى من إنسى وجنى وليس تصح واحدة من هذه الصفات بدون الأخرى، بل كل واحدة مستلزمة للأخرى وشرط معها فلا يصح الإيمان بالغيب وإقام الصلاة والزكاة إلا مع الإيمان بما جاء به الرسول ﷺ وما جاء به من قبله من الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين والإيقان بالآخرة كما أنّ هذا لا يصح إلا بذاك، وقد أمر الله المؤمنين بذلك كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ الآية وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ [النساء: ٤٧] وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨] وأخبر تعالى عن المؤمنين كلهم بذلك فقال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥] وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ [النساء: ١٥٢] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أمر جميع المؤمنين بالإيمان بالله ورسله وكتبه، لكن لمؤمنى أهل الكتاب خصوصية وذلك أنهم يؤمنون بما بأيديهم مفصلاً فإذا دخلوا فى الإسلام وآمنوا به مفصلاً كان لهم على ذلك الأجر مرتين، وأما غيرهم فإنما يحصل له الإيمان بما تقدّم مجملاً كما جاء فى الصحيح[1] «**إذا حدّثكم أهل الكتاب فلا تكذبوهم ولا تصدّقوهم ولكن قولوا: آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم**» ولكن قد يكون إيمان كثير من العرب بالإسلام، الذى بعث به محمد ﷺ أتم وأكمل وأعم وأشمل من إيمان من دخل منهم فى الإسلام فهم وإن حصل لهم أجران من تلك الحيثية فغيرهم قد يحصل له من التصديق ما ينيف ثوابه على الأجرين اللذين حصلا لهم والله أعلم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾

يقول الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أى المتصفون بما تقدم من الإيمان بالغيب وإقام الصلاة والإنفاق من الذى رزقهم الله والإيمان بما أنزل الله إلى الرسول ومن قبله من الرسل والإيقان بالدار الآخرة وهو مستلزم الاستعداد لها من الأعمال الصالحة وترك المحرمات ﴿عَلَىٰ هُدًى﴾ أى على نور وبيان وبصيرة من الله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أى فى الدنيا والآخرة، وقال محمد بن إسحاق عن محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أى على نور من ربهم واستقامة على ما جاءهم به ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أى الذين أدركوا ما طلبوا ونجوا من شر ما منه هربوا، وقال ابن جرير: وأما معنى قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ فإن معنى ذلك أنهم على نور من ربهم وبرهان واستقامة وسداد بتسديده إياهم وتوفيقه لهم، وتأويل قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أى المنجحون المدركون ما طلبوا عند الله بأعمالهم وإيمانهم بالله وكتبه ورسله من الفوز

---

(١) البخاري (٤٤٨٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بالثواب. والخلود فى الجنات والنجاة مما أعد الله لأعدائه من العقاب. وقد حكى ابن جرير قولاً عن بعضهم أنه أعاد اسم الإشارة فى قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ إلى مؤمنى أهل الكتاب الموصوفين بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ الآية [البقرة: ٤]، على ما تقدم من الخلاف، وعلى هذا فيجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ منقطعًا مما قبله وأن يكون مرفوعًا على الابتداء وخبره ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝﴾ واختار أنه عائد إلى جميع من تقدم ذكره من مؤمنى العرب وأهل الكتاب لما رواه السدى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ. أما الذين يؤمنون بالغيب فهم المؤمنون من العرب، والذى يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك هم المؤمنون من أهل الكتاب، ثم جمع الفريقين فقال: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝﴾، وقد تقدم من الترجيح أن ذلك صفة للمؤمنين عامة والإشارة عائدة عليهم، والله أعلم.

وقد نقل هذا عن مجاهد وأبى العالية والربيع بن أنس وقتادة رحمهم الله، وقال ابن أبى حاتم[1] حدثنا أبى حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح المصرى حدثنا أبى حدثنا ابن لهيعة حدثنى عبيد الله بن المغيرة عن أبى الهيثم واسمه سليمان بن عمرو عن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ وقيل له: يا رسول الله إنا نقرأ من القرآن فنرجو ونقرأ من القرآن فنكاد أن نيأس -أو كما قال-، قال: فقال: «أفلا أخبركم عن أهل الجنة وأهل النار؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: ﴿الٓمٓ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ - إلى قوله - ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١-٥] هؤلاء أهل الجنة، قالوا: إنا نرجو أن نكون هؤلاء ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾ - إلى قوله - ﴿عَظِيمٌ﴾ هؤلاء أهل النار، قالوا: لسنا هم يا رسول الله، قال: «أجل».

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝﴾

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى غطوا الحق وستروه وقد كتب الله تعالى عليهم ذلك سواء عليهم إنذارك وعدمه فإنهم لا يؤمنون بما جئتهم به. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧] وقال تعالى فى حق المعاندين من أهل الكتاب ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ الآية، أى إن من كتب الله عليه الشقاوة فلا مسعد له ومن أضله فلا هادى له، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات وبلغهم الرسالة فمن استجاب لك فله الحظ الأوفر ومن تولى فلا تحزن عليهم ولا يهمنك ذلك ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، ﴿إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢] وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال: كان رسول الله ﷺ يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى فأخبره الله تعالى

---

(١) **ضعيف**: ابن أبى حاتم (١/ ٣٩)، وفيه عبد الله بن لهيعة ثقة إلا أنه اختلط بعد احتراق كتبه وفيه أيضًا عثمان بن صالح: فيه مقال.

أنه لا يؤمن إلا من سبق له من الله السعادة فى الذكر الأول ولا يضل إلا من سبق له من الله الشقاوة فى الذكر الأول، وقال محمد بن إسحاق: حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى بما أنزل إليك وإن قالوا: إنا قد آمنا بما جاءنا قبلك ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أى إنهم قد كفروا بما عندهم من ذكرك وجحدوا ما أخذ عليهم من الميثاق وقد كفروا بما جاءك وبما عندهم مما جاءهم به غيرك فكيف يسمعون منك إنذارًا وتحذيرًا وقد كفروا بما عندهم من علمك، وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية قال نزلت هاتان الآيتان فى قادة الأحزاب وهم الذين قال الله فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ [إبراهيم: ٢٨-٢٩] والمعنى الذى ذكرناه أولاً وهو المروى عن ابن عباس فى رواية على بن أبى طلحة أظهر، ويفسر ببقية الآيات التى فى معناها، والله أعلم.

وقد ذكر ابن أبى حاتم ههنا حديثًا فقال: حدثنا أبى حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح المصرى حدثنا ابن لهيعة حدثنى عبيد الله بن المغيرة عن أبى الهيثم عن عبد الله بن عمرو قال قيل: يا رسول الله (إنا نقرأ من القرآن نرجو ونقرأ فنكاد أن نيأس) فقال: «ألا أخبركم» ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾ «هؤلاء أهل النار» قالوا: لسنا نهم يا رسول الله؟، قال: «أجل».

وقوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ محله من الإعراب أنه جملة مؤكدة للتى قبلها ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ أى هم كفار فى كلا الحالين، فلهذا أكد ذلك بقوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ويحتمل أن يكون ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ خبرًا لأن تقديره إن الذين كفروا لا يؤمنون ويكون قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ جملة معترضة، والله أعلم.

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾

قال السُّدِّيُّ: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ﴾ أى طبع الله، وقال قتادة فى هذه الآية: استحوذ عليهم الشيطان إذ أطاعوه فختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة فهم لا يبصرون هدى ولا يسمعون ولا يفقهون ولا يعقلون، وقال ابن جريج: قال مجاهد: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ قال: نبثت أن الذنوب على القلب تحفت به من كل نواحيه حتى تلتقى عليه، فالتقاؤها عليه الطبع والطبع الختم. قال ابن جريج: الختم على القلب والسمع، قال ابن جريج: وحدثنى عبد الله بن كثير أنه سمع مجاهدًا يقول: الران أيسر من الطبع، والطبع أيسر من الإقفال، والإقفال أشد من ذلك كله، وقال الأعمش: أرانا مجاهد بيده فقال: كانوا يرون أن القلب فى مثل هذه يعنى الكف، فإذا أذنب العبد ذنبًا ضم منه وقال بأصبعه الخنصر هكذا فإذا أذنب ضم وقال بإصبع أخرى فإذا أذنب ضم وقال بأصبع أخرى هكذا حتى ضم أصابعه كلها قال: ثم يطبع عليه بطابع. وقال مجاهد: كانوا يرون أن ذلك الرين، ورواه ابن جرير: عن أبى كريب عن وكيع عن الأعمش عن مجاهد بنحوه، قال ابن جرير: وقال بعضهم: إنما معنى قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ إخبار من الله عن تكبرهم وإعراضهم عن الاستماع لما دعوا إليه من الحق كما يقال: إن فلانًا لأصم عن هذا الكلام إذا امتنع من سماعه ورفع نفسه عن تفهمه تكبرًا، قال: وهذا لا

يصح لأن الله تعالى قد أخبر أنه هو الذى ختم على قلوبهم وأسماعهم. (قُلْتُ) وقد أطنب الزمخشرى فى تقرير ما رده ابن جرير ههنا وتأول الآية من خمسة أوجه وكلها ضعيفة جدًّا وما جرأه على ذلك إلا اعتزاله؛ لأن الختم على قلوبهم ومنعها من وصول الحق إليها قبيح عنده يتعالى الله عنه فى اعتقاده ولو فهم قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] وقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠] وما أشبه ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى إنما ختم على قلوبهم وحال بينهم وبين الهدى جزاء وفاقًا على تماديهم فى الباطل وتركهم الحق، وهذا عدل منه تعالى حسن وليس بقبيح، فلو أحاط علمًا بهذا لما قال ما قال والله أعلم.

قال القرطبى: وأجمعت الأمة على أن الله عز وجل قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم كما قال: ﴿بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥] وذكر حديث تقليب القلوب: **«ويا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك»** [(١)] وذكر حديث حذيفة الذى فى الصحيح [(٢)] عن رسول الله ﷺ. قال: **«تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا فأى قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء وأى قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مربادًا كالكوز مجخيًا لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا»** الحديث، قال ابن جرير [(٣)]: والحق عندى فى ذلك ما صح بنظيره الخبر عن رسول الله ﷺ وهو ما حدثنا به محمد بن بشار حدثنا صفوان بن عيسى حدثنا ابن عجلان عن القعقاع عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن المؤمن إذا أذنب ذنبًا كانت نكتة سوداء فى قلبه فإن تاب ونزع واستعتب صقل قلبه، وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه فذلك الران الذى قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾** [المطففين]» وهذا الحديث من هذا الوجه قد رواه الترمذى والنسائى [(٤)] عن قتيبة عن الليث بن سعد وابن ماجه عن هشام بن عمار عن حاتم بن إسماعيل والوليد بن مسلم ثلاثتهم عن محمد بن عجلان به، وقال الترمذى: حسن صحيح، ثم قال ابن جرير: فأخبر رسول الله ﷺ أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها وإذا أغلقتها أتاها حينئذٍ الختم من قبل الله تعالى والطبع فلا يكون للإيمان إليها مسلك، ولا للكفر عنها مخلص، فذلك هو الختم والطبع الذى ذكر فى قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ نظير الطبع والختم على ما تدركه الأبصار من الأوعية والظروف التى لا يوصل إلى ما فيها إلا بفض ذلك عنها ثم حلها فكذلك لا يصل الإيمان إلى قلوب من وصف الله أنه ختم على قلوبهم وعلى سمعهم إلا بعد فض خاتمه وحل رباطه عنها.

واعلم أن الوقف التام على قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ وقوله: ﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ﴾ جملة تامة فإن الطبع يكون على القلب وعلى السمع، والغشاوة وهى الغطاء تكون على البصر كما قال السدى فى تفسيره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمدانى عن ابن

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في مسنده برقم (١٧١٧٨)، وابن ماجه (١٩٩)، من حديث النواس بن سمعان، وانظر صحيح الجامع، برقم (٧٩٨٨).

(٢) مسلم (١٤٤). (٣) في التفسير (١/ ١٢٢).

(٤) حسن: الترمذي (٣٣٣٤)، وابن ماجه (٤٢٤٤). وانظر صحيح الترمذي للألباني رحمه الله.

مسعود وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ فى قوله ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ يقول: فلا يعقلون ولا يسمعون يقول: وجعل على أبصارهم غشاوة يقول: على أعينهم فلا يبصرون، وقال ابن جرير: حدثنى محمد بن سعد حدثنا أبى حدثنى عمى الحسين بن الحسن عن أبيه عن جده عن ابن عباس ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ والغشاوة على أبصارهم وقال: وحدثنا القاسم حدثنا الحسين يعنى ابن داود وهو سنيد حدثنى حجاج وهو ابن محمد الأعور حدثنى ابن جريج قال: الختم على القلب والسمع، والغشاوة على البصر قال الله تعالى: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشورى: ٢٤] وقال: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ [الجاثية: ٢٣] قال ابن جرير: ومن نصب غشاوة من قوله تعالى ﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ فيحتمل أنه نصبها بإضمار فعل تقديره وجعل على أبصارهم غشاوة يحتمل أن يكون نصبها على الإتباع على محل ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ [الواقعة: ٢٢] وقول الشاعر:

علفتها تبنًا وماء باردًا ... حتى شتت همالة عيناها

وقال الآخر:

ورأيت زوجك فى الوغى ... متقلدًا سيفًا ورمحا

تقديره: وسقيتها ماء باردًا ومعتقلاً رمحًا.

لما تقدم وصف المؤمنين فى صدر السورة بأربع آيات ثم عرّف حال الكافرين بهاتين الآيتين شرع تعالى فى بيان حال المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ولما كان أمرهم يشتبه على كثير من الناس أطنب فى ذكرهم بصفات متعددة، كل منها نفاق كما أنزل سورة براءة فيهم وسورة المنافقين فيهم وذكرهم فى سورة النور وغيرها من السور تعريفًا لأحوالهم لتجتنب ويجتنب من تلبس بها أيضًا، فقال تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾

النفاق: هو إظهار الخير وإسرار الشر، وهو أنواع: اعتقادى: وهو الذى يخلد صاحبه فى النار. وعملى: وهو من أكبر الذنوب كما سيأتى تفصيله فى موضعه إن شاء الله تعالى، وهذا كما قال ابن جريج: المنافق يخالف قوله فعله، وسره علانيته، ومدخله مخرجه، ومشهده مغيبه، وإنما نزلت صفات المنافقين فى السور المدنية؛ لأن مكة لم يكن فيها نفاق بل كان خلافه من الناس من كان يظهر الكفر مستكرهًا وهو فى الباطن مؤمن، فلما هاجر رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم إلى المدينة وكان بها الأنصار من الأوس والخزرج وكانوا فى جاهليتهم يعبدون الأصنام على طريقة مشركى العرب، وبها اليهود من أهل الكتاب على طريقة أسلافهم، وكانوا ثلاث قبائل: بنو قينقاع حلفاء الخزرج وبنو النضير وبنو قريظة حلفاء الأوس، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة وأسلم من أسلم من الأنصار من قبيلتى الأوس والخزرج وقلّ من أسلم من اليهود إلا عبد الله بن سلام رضى الله عنه ولم يكن إذ ذاك نفاق أيضًا؛ لأنه لم يكن للمسلمين بعد شوكة تخاف، بل قد كان عليه الصلاة والسلام

وادع اليهود وقبائل كثيرة من أحياء العرب حوالى المدينة فلما كانت وقعة بدر العظمى وأظهر الله كلمته وأعلى الإسلام وأهله قال عبد الله بن أبى بن سلول وكان رأسًا فى المدينة وهو من الخزرج وكان سيد الطائفتين فى الجاهلية، وكانوا قد عزموا على أن يملكوه عليهم فجاءهم الخير وأسلموا واشتغلوا عنه، فبقى فى نفسه من الإسلام وأهله، فلما كانت وقعت بدر قال: هذا أمر قد توجه فأظهر الدخول فى الإسلام، ودخل معه طوائف ممن هو على طريقته ونحلته وآخرون من أهل الكتاب فمن ثم وجد النفاق فى أهل المدينة ومن حولها من الأعراب، فأما المهاجرون فلم يكن فيهم أحد نافق، لأنه لم يكن أحد يهاجر مكرهًا بل يهاجر فيترك ماله وولده وأرضه رغبة فيما عند الله فى الدار الآخرة.

قال محمد بن إسحاق: حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾ يعنى المنافقين من الأوس والخزرج ومن كان على أمرهم وكذا فسرها بالمنافقين من الأوس والخزرج أبو العالية والحسن وقتادة والسدى، ولهذا نبه الله سبحانه على صفات المنافقين لئلا يغتر بظاهر أمرهم المؤمنون فيقع بذلك فساد عريض من عدم الاحتراز منهم ومن اعتقاد إيمانهم وهم كفار فى نفس الأمر وهذا من المحذورات الكبار أن يظن بأهل الفجور خير فقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾ أى يقولون ذلك قولاً ليس وراءه شىء آخر كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ أى إنما يقولون ذلك إذا جاؤوك فقط، لا فى نفس الأمر، ولهذا يؤكدون فى الشهادة بإن ولام التأكيد فى خبرها. كما أكدوا قولهم: آمنا بالله وباليوم الآخر، وليس الأمر كذلك كما كذبهم الله فى شهادتهم وفى خبرهم هذا بالنسبة إلى اعتقادهم بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ وبقوله: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾.

وَقَوْلُه تَعَالَى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أى بإظهارهم ما أظهروه من الإيمان مع إسرارهم الكفر، يعتقدون بجهلهم أنهم يخدعون الله بذلك، وأن ذلك نافعهم عنده، وأنه يروج عليه كما قد يروج على بعض المؤمنين كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ ولهذا قابلهم على اعتقادهم ذلك بقوله: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ يقول وما يغرون بصنيعهم هذا ولا يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون بذلك من أنفسهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ ومن القراء من قرأ: «وَمَا يحادعون إال أنفسهم» وكلا القراءتين ترجع إلى معنى واحد، قال ابن جرير: فإن قال قائل: كيف يكون المنافق لله وللمؤمنين مخادعًا وهو لا يظهر بلسانه خلاف ما هو له معتقد إلا تقية؟ قيل: لا تمتنع العرب من أن تسمى من أعطى بلسانه غير الذى فى ضميره تقية لينجو مما هو له خائف مخادعًا، فكذلك المنافق سمى مخادعًا لله وللمؤمنين بإظهاره ما أظهره بلسانه تقية بما يخلص به من القتل والسبى والعذاب العاجل، وهو لغير ما أظهره مستبطن وذلك من فعله وإن كان خداعًا للمؤمنين فى عاجل الدنيا فهو لنفسه بذلك من فعله خادع، لأنه يظهر لها بفعله ذلك بها أنه يعطيها أمنيتها ويسقيها كأس سرورها، وهو موردها حياض عطبها، ومجرعها به كأس عذابها، ومذيرها من غضب الله وأليم عقابه ما لا قبل لها به، فذلك خديعته نفسه ظنًّا منه مع إساءته إليها فى أمر معادها أنه إليها محسن كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا

يَشْعُرُونَ﴾ إعلامًا منه عباده المؤمنين أن المنافقين بإساءتهم إلى أنفسهم فى إسخاطهم عليها ربهم بكفرهم وشكهم وتكذيبهم غير شاعرين ولا دارين، ولكنهم على عمياء من أمرهم مقيمون. وقال ابن أبى حاتم: أنبأنا على بن المبارك فيما كتب إلى حدثنا زيد بن المبارك حدثنا محمد بن ثور عن ابن جريج فى قوله تعالى ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ قال: يظهرون لا إله إلا الله يريدون أن يحرزوا بذلك دماءهم وأموالهم وفى أنفسهم غير ذلك. وقال سعيد: عن قتادة ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ نعت المنافق عند كثير: خنع الأخلاق يصدق بلسانه وينكر بقلبه ويخالف بعمله ويصبح على حال ويمسى على غيره، ويمسى على حال ويصبح على غيره، ويتكفأ تكفُّأ السفينة كلما هبت ريح هبت معها.

﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ۝١٠﴾

قال السدى: عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ فى هذه الآية ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ قال: شك ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ قال شكًا. وقال ابن إسحاق عن محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ قال: شكٌّ. وكذلك قال مجاهد وعكرمة والحسن البصرى وأبو العالية والربيع بن أنس وقتادة. وعن عكرمة وطاوس ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ يعنى: الرياء. وقال الضحاك: عن ابن عباس: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ قال: نفاق ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ قال: نفاقًا وهذا كالأول. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ قال: هذا مرض فى الدين وليس مرضًا فى الأجساد وهم المنافقون، والمرض: الشك الذى دخلهم فى الإسلام ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ قال: زادهم رجسًا، وقرأ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٥]. قال شرًا إلى شرهم وضلالة إلى ضلالتهم، وهذا الذى قاله عبد الرحمن رحمه الله حسن وهو الجزاء من جنس العمل وكذلك قاله الأولون وهو نظير قوله تعالى أيضًا ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٧] وقوله ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ وقرئ ﴿يُكَذِّبُونَ﴾، وقد كانوا متصفين بهذا وهذا فإنهم كانوا كذبة ويكذبون بالغيب يجمعون بين هذا وهذا، وقد سئل القرطبى وغيره من المفسرين عن حكمة كفه عليه الصلاة والسلام عن قتل المنافقين مع علمه بأعيان بعضهم؟ وذكروا أجوبة عن ذلك منها ما ثبت فى الصحيحين[1] أنه ﷺ قال لعمر رضى الله عنه: «أكره أن يتحدث العرب أن محمدًا يقتل أصحابه» ومعنى هذا خشية أن يقع بسبب ذلك تغير لكثير من الأعراب عن الدخول فى الإسلام، ولا يعلمون حكمة قتله لهم وأن قتله إياهم إنما هو على الكفر فإنهم إنما يأخذونه بمجرد ما يظهر لهم فيقولون: إن محمدًا يقتل أصحابه، قال القرطبى: وهذا قول علمائنا وغيرهم كما كان يعطى المؤلفة مع علمه بسوء اعتقادهم، قال ابن عطية: وهى طريقة أصحاب مالك نص عليه محمد بن الجهم والقاضى إسماعيل والأبهرى وعن ابن الماجشون. ومنها ما قال مالك: إنما كف رسول الله ﷺ عن المنافقين ليبين لأمته أن الحاكم لا يحكم بعلمه، قال القرطبى:

---

(١) البخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وقد اتفق العلماء عن بكرة أبيهم على أن القاضى لا يقتل بعلمه وإن اختلفوا فى سائر الأحكام، قال: ومنها ما قال الشافعى: إنما مَنعَ رسول الله ﷺ من قتل المنافقين ما كانوا يظهرونه من الإسلام مع العلم بنفاقهم لأن ما يظهرونه يجبُّ ما قبله. ويؤيد هذا قوله عليه الصلاة والسلام فى الحديث المجمع على صحته فى الصحيحين[1] وغيرهما «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل**» ومعنى هذا أن من قالها جرت عليه أحكام الإسلام ظاهرًا، فإن كان يعتقدها وجد ثواب ذلك فى الدار الآخرة وإن لم يعتقدها لم ينفعه جريان الحكم عليه فى الدنيا وكونه كان خليط أهل الإيمان ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾[الحديد: ١٤] الآية، فهم يخالطونهم فى بعض المحشر فإذا حقت المحقوقية تميزوا منهم وتخلفوا بعدهم ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾[سبا: ٥٤] ولم يمكنهم أن يسجدوا معهم كما نطقت بذلك الأحاديث، ومنها ما قاله بعضهم: إنه إنما لم يقتلهم لأنه كان لا يخاف من شرهم مع وجوده ﷺ بين أظهرهم يتلو عليهم آيات الله مبينات فأما بعده فيقتلون إذا أظهروا النفاق وعلمه المسلمون، قال مالك: المنافق فى عهد رسول الله ﷺ هو الزنديق اليوم.

(قُلتُ) وقد اختلف العلماء فى قتل الزنديق إذا أظهر الكفر هل يستتاب أم لا أو يفرق بين أن يكون داعية أم لا، أو يتكرر منه ارتداده أم لا، أو يكون إسلامه ورجوعه من تلقاء نفسه أو بعد أن ظُهِر عليه؟ على أقوال متعددة، موضع بسطها وتقريرها وعزوها كتاب الأحكام.

(تنبيه) قول من قال: كان عليه الصلاة والسلام يعلم أعيان بعض المنافقين إنما مستنده حديث حذيفة بن اليمان فى تسمية أولئك الأربعة عشر منافقًا فى غزوة تبوك الذين هموا أن يفتكوا برسول الله ﷺ فى ظلماء الليل عند عقبة هناك، عزموا على أن ينفروا به الناقة ليسقط عنها، فأوحى الله إليه أمرهم، فأطلع على ذلك حذيفة ولعل الكف عن قتلهم كان لمدرك من هذه المدارك أو لغيرها، والله أعلم. فأما غير هؤلاء فقد قال الله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا﴾[الأحزاب: ٦٠-٦١] ففيها دليل على أنه لم يغر بهم ولم يدرك على أعيانهم وإنما كان تذكر له صفاتهم فيتوسمها فى بعضهم كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾[محمد: ٣٠] وقد كان من أشهرهم بالنفاق عبد الله بن أبى بن سلول، وقد شهد عليه زيد بن أرقم بذلك الكلام الذى سبق فى صفات المنافقين، ومع هذا لما مات صلى عليه النبى وشهد دفنه كما يفعل ببقية المسلمين وقد عاتبه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فيه فقال: «**إنى أكره أن تتحدث العرب أن محمدًا يقتل أصحابه**»[2] وفى رواية فى الصحيح[3] «**إنى خُيِّرْتُ فاخترتُ**» وفى رواية «**لو أعلم أنى لو زدت على السبعين يغفر له لزدت**».

---

(١) البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) صحيح: سبق تخريجه قريبًا.

(٣) البخاري (١٣٦٦)، والترمذي (٣٠٩٧)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾

قال السُّدِّيُّ فى تفسيره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة الطيب الهمدانى عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب النبى ﷺ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ قال: هم المنافقون، أما ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ قال: الفساد هو الكفر والعمل بالمعصية وقال أبو جعفر: عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ قال: يعنى لا تعصوا فى الأرض وكان فسادهم ذلك معصية الله لأنه من عصى الله فى الأرض؛ أو أمر بمعصيته فقد أفسد فى الأرض لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة، وهكذا قال الربيع بن أنس وقتادة وقال ابن جريج: عن مجاهد ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ قال: إذا ركبوا معصية الله فقيل لهم: لا تفعلوا كذا وكذا قالوا: إنما نحن على الهدى مصلحون، وقال وكيع وعيسى بن يونس وعثَّام بن على عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن عباد بن عبد الله الأسدى عن سلمان الفارسى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾ قال سلمان: لم يجئ أهل هذه الآية بعد. وقال ابن جرير: حدثنى أحمد بن عثمان بن حكيم حدثنا عبد الرحمن بن شريك حدثنى أبى عن الأعمش عن زيد بن وهب وغيره عن سلمان الفارسى فى هذه الآية قال: ما جاء هؤلاء بعد قال ابن جرير: يحتمل أن سلمان رضى الله عنه أراد بهذا أن الذين يأتون بهذه الصفة أعظم فسادًا من الذين كانوا فى زمن النبى ﷺ لا أنه عنى أنه لم يمض ممن تلك صفته أحد.

قال ابن جرير: فأهل النفاق مفسدون فى الأرض بمعصيتهم فيها ربهم وركوبهم فيها ما نهاهم عن ركوبه وتضييعهم فرائضه وشكهم فى دينه الذى لا يُقْبَلُ من أحد عمل إلا بالتصديق به والإيقان بحقيقته وكذبهم المؤمنين بدعواهم غير ما هم عليه مقيمون من الشك والريب، ومظاهرتهم أهل التكذيب بالله وكتبه ورسله على أولياء الله إذا وجدوا إلى ذلك سبيلاً فذلك إفساد المنافقين فى الأرض، وهم يحسبون أنهم بفعلهم ذلك مصلحون فيها. وهذا الذى قاله حسن، فإن من الفساد فى الأرض اتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء كما قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣] فقطع الله الموالاة بين المؤمنين والكافرين كما قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤] ثم قال ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥] فالمنافق لما كان ظاهره الإيمان اشتبه أمره على المؤمنين فكان الفساد من جهة المنافق حاصل لأنه هو الذى غر المؤمنين بقوله الذى لا حقيقة له ووالى الكافرين على المؤمنين ولو أنه استمر على حاله الأول لكان شره أخف، ولو أخلص العمل لله وتطابق قوله وعمله لأفلح وأنجح، ولهذا قال تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾ أى نريد أن ندارى الفريقين من المؤمنين والكافرين ونصطلح مع هؤلاء وهؤلاء كما قال محمد بن إسحاق عن محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾ أى إنما نريد الإصلاح بين

الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب يقول الله ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ يقول: ألا إن هذا الذى يعتمدونه ويزعمون أنه إصلاح هو عين الفساد ولكن من جهلهم لا يشعرون بكونه فسادًا.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾

يقول تعالى وإذا قيل للمنافقين ﴿ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ أى كإيمان الناس بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والجنة والنار وغير ذلك مما أخبر المؤمنون به وعنه، وأطيعوا الله ورسوله فى امتثال الأوامر وترك الزواجر ﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ يعنون - لعنهم الله - أصحاب رسول الله ﷺ رضى الله عنهم، قاله أبو العالية والسدى فى تفسيره بسنده عن ابن عباس وابن مسعود وغير واحد من الصحابة، وبه يقول الربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهم يقولون: أنصير نحن وهؤلاء بمنزلة واحدة وعلى طريقة واحدة وهم سفهاء؟ والسفهاء جمع سفيه كما أن الحكماء جمع حكيم والحلماء جمع حليم، والسفيه هو الجاهل الضعيف الرأى القليل المعرفة بمواضع المصالح والمضار، ولهذا سمى الله النساء والصبيان سفهاء فى قوله تعالى ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النساء: ٥] قال عامة علماء التفسير: هم النساء والصبيان، وقد تولى الله سبحانه جوابهم فى هذه المواطن كلها فقال ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ فأكد وحصر السفاهة فيهم ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ يعنى ومن تمام جهلهم أنهم لا يعلمون بحالهم فى الضلالة والجهل وذلك أردى لهم وأبلغ فى العمى والبعد عن الهدى.

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى: وإذا لقى هؤلاء المنافقون المؤمنين قالوا: ﴿ءَامَنَّا﴾ وأظهروا لهم الإيمان والموالاة والمصافاة غرورًا منهم للمؤمنين ونفاقًا ومصانعة وتقية وليشركوهم فيما أصابوا من خير ومغنم ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ يعنى: وإذا انصرفوا وذهبوا وخلصوا إلى شياطينهم فضمن ﴿خَلَوْا۟﴾ معنى انصرفوا لتعديته بإلى ليدل على الفعل المضمر والفعل الملفوظ به ومنهم من قال «إلى» هنا بمعنى «مع» والأول أحسن، وعليه يدور كلام ابن جرير، وقال السدى عن أبى مالك: ﴿خَلَوْا۟﴾ يعنى مضوا، و ﴿شَيَٰطِينِهِمْ﴾ يعنى: سادتهم وكبراءهم ورؤساءهم من أحبار اليهود ورؤوس المشركين والمنافقين قال السدى فى تفسيره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبى ﷺ ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾: يعنى هم رءوسهم فى الكفر.

وقال الضحاك عن ابن عباس: وإذا خلوا إلى أصحابهم وهم شياطينهم وقال محمد بن إسحاق عن محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ من يهود الذين يأمرونهم بالتكذيب وخلاف ما جاء به الرسول ﷺ وقال مجاهد: ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ إلى أصحابهم من المنافقين والمشركين. وقال قتادة ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ قال: إلى رؤوسهم وقادتهم فى الشرك والشر. وبنحو ذلك فسره أبو مالك وأبو العالية والسدى والربيع بن أنس. قال ابن جرير:

وشياطين كل شيء مردته، ويكون الشيطان من الإنس والجن كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢] وفي المسند عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «تعوذ بالله من شياطين الإنس والجن» فقلت: يا رسول أو للإنس شياطين؟ قال: «نعم»[1]. وقوله تعالى ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ قال محمد بن إسحاق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس أي إنا على مثل ما أنتم عليه ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ أي إنما نحن نستهزئ بالقوم ونلعب بهم، وقال الضحاك عن ابن عباس قالوا ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ ساخرون بأصحاب محمد ﷺ، وكذلك قال الربيع بن أنس وقتادة. وقوله تعالى جوابًا لهم ومقابلة على صنيعهم ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ وقال ابن جرير: أخبر الله تعالى أنه فاعل بهم ذلك يوم القيامة في قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣] الآية، وقوله تعالى ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ الآية [آل عمران: ١٧٨]، قال: فهذا وما أشبهه من استهزاء الله تعالى ذكره وسخريته ومكره وخديعته للمنافقين وأهل الشرك به عند قائل هذا القول ومتأول هذا التأويل قال: وقال آخرون: بل استهزاؤه بهم توبيخه إياهم ولومه لهم على ما ركبوا من معاصيه والكفر به. قال: وقال آخرون: هذا وأمثاله على سبيل الجواب كقول الرجل لمن يخدعه إذا ظفر به: أنا الذي خدعتك. ولم يكن منه خديعة ولكن قال ذلك إذا صار الأمر إليه، قالوا وكذلك قوله تعالى ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤] و﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ على الجواب، والله لا يكون منه المكر ولا الهزء. والمعنى أن المكر والهزء حاق بهم، وقال آخرون قوله تعالى ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ وقوله ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢] وقوله ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩] و﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] وما أشبه ذلك إخبار من الله تعالى أنه مجازيهم جزاء الاستهزاء ومعاقبهم عقوبة الخداع فأخرج خبره عن جزائه إياهم وعقابه لهم مخرج خبره عن فعلهم الذي عليه استحقوا العقاب في اللفظ وإن اختلف المعنيان كما قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠] وقوله تعالى ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤] فالأول ظلم والثاني عدل، فهما وإن اتفق لفظاهما فقد اختلف معناهما، قال: إلى هذا المعنى وجهوا كل ما في القرآن من نظائر ذلك. قال: وقال آخرون: إن معنى ذلك أن الله أخبر عن المنافقين أنهم إذا خلوا إلى مردتهم قالوا: إنا معكم على دينكم في تكذيب محمد ﷺ وما جاء به، وإنما نحن بما نظهر لهم من قولنا لهم مستهزئون، فأخبر تعالى أنه يستهزئ بهم فيظهر لهم من أحكامه في الدنيا يعني من عصمة دمائهم وأموالهم خلاف الذي عنده في الآخرة يعني من العذاب والنكال. ثم شرع ابن جرير يوجه هذا القول وينصره لأن المكر والخداع والسخرية على وجه اللعب والعبث منتف عن الله عز وجل بالإجماع وأما على وجه الانتقام والمقابلة بالعدل والمجازاة فلا يمتنع ذلك. قال: وبنحو ما قلنا فيه روى الخبر عن ابن عباس حدثنا أبو كريب حدثنا أبو عثمان حدثنا بشر بن أبي روق عن الضحاك عن ابن عباس في قوله ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾

(١) مسند أحمد (٢١٠٤٢).

قال: يسخر بهم للنقمة منهم، وقوله تعالى ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ قال السدى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب النبى ﷺ: يمدهم يملى لهم، وقال مجاهد: يزيدهم، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦] وقال: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٤٤] قال بعضهم: كلما أحدثوا ذنبًا أحدث لهم نعمة، وهى فى الحقيقة نقمة وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۝ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٤-٤٥] قال ابن جرير: والصواب نزيدهم على وجه الإملاء والترك لهم فى عتوهم وتمردهم كما قال تعالى ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠] والطغيان: هو المجاوزة فى الشىء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١] وقال الضحاك عن ابن عباس ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ فى كفرهم يترددون، وكذا فسره السدى بسنده عن الصحابة وبه يقول أبو العالية وقتادة والربيع بن أنس ومجاهد وأبو مالك وعبد الرحمن بن زيد فى كفرهم وضلالتهم. قال ابن جرير: والعمه: الضلال. يقال: عمه فلان يعمه عمها وعموهًا إذا ضل، قال: وقوله ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ فى ضلالتهم، وكفرهم الذى قد غمرهم دنسه وعلاهم رجسه يترددون حيارى ضلالاً لا يجدون إلى المخرج منه سبيلاً لأن الله قد طبع على قلوبهم وختم عليها وأعمى أبصارهم عن الهدى وأغشاها فلا يبصرون رشدًا ولا يهتدون سبيلاً. وقال بعضهم: العمى فى العين والعمه فى القلب، وقد يستعمل العمى فى القلب أيضًا قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] وتقول: عمه الرجل يعمه عموهًا فهو عمه، وعامه وجمعه عمه، وذهبت إبله العمهاء إذا لم يدر أين ذهبت.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ۝١٦﴾

قال السُّدِّيُّ فى تفسيره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ قال: أخذوا الضلالة وتركوا الهدى، وقال ابن إسحاق عن محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ أى الكفر بالإيمان، وقال مجاهد: آمنوا ثم كفروا وقال قتادة: استحبوا الضلالة على الهدى، وهذا الذى قاله قتادة يشبهه فى المعنى قوله تعالى فى ثمود ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧] وحاصل قول المفسرين فيما تقدم أن المنافقين عدلوا عن الهدى إلى الضلال واعتاضوا عن الهدى بالضلالة وهو معنى قوله تعالى ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ أى بذلوا الهدى ثمنًا للضلالة وسواء فى ذلك من كان منهم قد حصل له الايمان ثم رجع عنه إلى الكفر كما قال تعالى فيهم ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [المنافقون: ٣] أو أنهم استحبوا الضلالة على الهدى كما قد يكون حال فريق آخر منهم فإنهم أنواع وأقسام ولهذا قال تعالى ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ أى ما ربحت صفقتهم فى هذه البيعة ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ أى راشدين فى صنيعهم ذلك، وقال ابن جرير حدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا

﴿مُهْتَدِينَ﴾ قد والله رأيتموهم خرجوا من الهدى إلى الضلالة ومن الجماعة إلى الفرقة ومن الأمن إلى الخوف ومن السنة إلى البدعة، وهكذا رواه ابن أبى حاتم من حديث يزيد بن زريع عن سعيد عن قتادة بمثله سواء.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ۝١٧ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝١٨﴾

يقال: مَثَل ومِثْل ومَثِيل أيضًا والجمع أمثال، قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣] وتقرير هذا المثل أن الله سبحانه شبههم فى اشترائهم الضلالة بالهدى، وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى، بمن استوقد نارًا فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها وأبصر بها ما عن يمينه وشماله وتأنس بها، فبينا هو كذلك إذ طفئت ناره وصار فى ظلام شديد لا يُبصر ولا يهتدى وهو مع هذا أصم لا يسمع أبكم لا ينطق أعمى لو كان ضياء لما أبصر، فلهذا لا يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك، فكذلك هؤلاء المنافقون فى استبدالهم الضلالة عوضًا عن الهدى واستحبابهم الغى على الرشد وفى هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا كما أخبر تعالى عنهم فى غير هذا الموضع، والله أعلم.

وقد حكى هذا الذى قلناه الرازى فى تفسيره عن السدى، ثم قال: والتشبيه ههنا فى غاية الصحة لأنهم بإيمانهم اكتسبوا أولاً نورًا ثم بنفاقهم ثانيًا أبطلوا ذلك فوقعوا فى حيرة عظيمة فإنه لا حيرة أعظم من حيرة الدين.

وزعم ابن جرير أن المضروب لهم المثل ههنا لم يؤمنوا فى وقت من الأوقات واحتج بقوله تعالى ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨]، والصواب أن هذا إخبار عنهم فى حال نفاقهم وكفرهم، وهذا لا ينفى أنه كان حصل لهم إيمان قبل ذلك ثم سلبوه وطبع على قلوبهم، ولم يستحضر ابن جرير هذه الآية ههنا وهى قوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣] فلهذا وجه هذا المثل بأنهم استضاؤوا بما أظهروه من كلمة الإيمان أى فى الدنيا ثم أعقبهم ظلمات يوم القيامة، قال: وصح ضرب مثل الجماعة بالواحد، كما قال ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأحزاب: ١٩] أى كدوران عينى الذى يغشى عليه من الموت، وقال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨] وقال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥] وقال بعضهم: تقدير الكلام مثل قصتهم كقصة الذين استوقدوا نارًا، وقال بعضهم: المستوقد واحد لجماعة معه، وقال آخرون: الذى ههنا بمعنى الذين كما قال الشاعر:

وإن الذى حانت بفلج دماؤهم ... هم القوم كل القوم يا أم خالد

قلت: وقد التفت فى أثناء المثل من الواحد إلى الجمع فى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ۝١٧ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝١٨﴾ [البقرة] وهذا أفصح فى الكلام وأبلغ فى النظام، وقوله تعالى ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ أى أذهب عنهم ما ينفعهم وهو النور وأبقى

لهم ما يضرهم وهو الإحراق والدخان ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ وهو ما هم فيه من الشك والكفر والنفاق ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾ لا يهتدون إلى سبل خير ولا يعرفونها وهم مع ذلك ﴿صُمٌّ﴾ لا يسمعون خيرًا ﴿بُكْمٌ﴾ لا يتكلمون بما ينفعهم ﴿عُمْيٌ﴾ فى ضلالة وعماية البصيرة كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] فلهذا لا يرجعون إلى ما كانوا عليه من الهداية التى باعوها بالضلالة.

ذكر أقوال المفسرين من السلف بنحو ما ذكرناه

قال السدى فى تفسيره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة فى قوله تعالى ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ زعم أن ناسًا دخلوا فى الإسلام مقدم نبى الله ﷺ المدينة ثم إنهم نافقوا وكان مثلهم كمثل رجل كان فى ظلمة فأوقد نارًا فلما أضاءت ما حوله من قذى أو أذى فأبصره حتى عرف ما يتقى منه فبينما هو كذلك إذ طفئت ناره فأقبل لا يدرى ما يتقى من أذى، فكذلك المنافق كان فى ظلمة الشرك فأسلم فعرف الحلال والحرام والخير من الشر فبينما هو كذلك إذ كفر فصار لا يعرف الحلال من الحرام ولا الخير من الشر،

وقال مجاهد: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ أما إضاءة النار فإقبالهم إلى المؤمنين والهدى، وقال عطاء الخراسانى فى قوله تعالى ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ قال هذا مثل المنافق يبصر أحيانًا ويعرف أحيانًا ثم يدركه عمى القلب.

وقال ابن أبى حاتم: وروى عن عكرمة والحسن والسدى والربيع بن أنس نحو قول عطاء الخراسانى.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله تعالى ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ إلى آخر الآية. قال: هذه صفة المنافقين كانوا قد آمنوا حتى أضاء الإيمان فى قلوبهم كما أضاءت النار لهؤلاء الذين استوقدوا نارًا ثم كفروا فذهب الله بنورهم فانتزعه كما ذهب بضوء هذه النار فتركهم فى ظلمات لا يبصرون.

وقال العوفى عن ابن عباس فى هذه الآية، قال: أما النور فهو إيمانهم الذى كانوا يتكلمون به وأما الظلمة فهى ضلالتهم وكفرهم الذى كانوا يتكلمون به وهم قوم كانوا على هدى ثم نزع منهم فعتوا بعد ذلك. وأما قول ابن جرير فيشبه ما رواه على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ قال: هذا مثل ضربه الله للمنافقين أنهم كانوا يعتزون بالإسلام فيناكحهم المسلمون ويوارثونهم ويقاسمونهم الفىء، فلما ماتوا سلبهم الله ذلك العز كما سلب صاحب النار ضوءه، وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ فإنما ضوء النار ما أوقدتها، فإذا خمدت ذهب نورها، وكذلك المنافق كلما تكلم بكلمة الإخلاص بلا إله إلا الله أضاء له، فإذا شك وقع فى الظلمة، وقال الضحاك فى قوله: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ أما نورهم فهو إيمانهم الذى تكلموا به، وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ فهى لا إله إلا الله أضاءت لهم فأكلوا بها وشربوا وأمنوا فى الدنيا ونكحوا النساء

وحقنوا دمائهم حتى إذا ماتوا ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون. وقال سعيد عن قتادة فى هذه الآية: إن المعنى أن المنافق تكلم بلا إله إلا الله فأضاءت له فى الدنيا فناكح بها المسلمين وغازاهم بها ووارثهم بها وحقن بها دمه وماله فلما كان عند الموت سُلبها المنافق لأنه لم يكن لها أصل فى قلبه ولا حقيقة فى عمله، ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ يقول: فى عذاب إذا ماتوا، وقال محمد بن إسحاق عن محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ﴾ أى يبصرون الحق ويقولون به حتى إذا خرجوا من ظلمة الكفر أطفؤوه بكفرهم ونفاقهم فيه، فتركهم فى ظلمات الكفر فهم لا يبصرون هدى، ولا يستقيمون على حق، وقال السدى فى تفسيره بسنده: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ﴾ فكانت الظلمة نفاقهم. وقال الحسن البصرى: وتركهم فى ظلمات لا يبصرون، فذلك حين يموت المنافق فيظلم عليه عمله عمل السوء فلا يجد له عملاً من خير عمل به يصدق به قول لا إله إلا الله: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ قال السدى بسنده: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ فهم خرس عمى، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ يقول: لا يسمعون الهدى ولا يبصرونه، ولا يعقلونه وكذا قال أبو العالية وقتادة بن دعامة: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ قال ابن عباس: أى لا يرجعون إلى هدى، وكذا قال الربيع بن أنس: وقال السدى بسنده ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ إلى الإسلام. وقال قتادة: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾، أى لا يتوبون ولا هم يذكرون.

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾

وهذا مثل آخر ضربه الله تعالى لضرب آخر من المنافقين وهم قوم يظهر لهم الحق تارة ويشكون تارة أخرى فقلوبهم فى حال شكهم وكفرهم وترددهم ﴿كَصَيِّبٍ﴾، والصيب: المطر، قاله ابن مسعود وابن عباس وناس من الصحابة وأبو العالية ومجاهد وسعيد بن جبير وعطاء والحسن البصرى وقتادة وعطية العوفى وعطاء الخراسانى والسدى والربيع بن أنس، وقال الضحاك: هو السحاب، والأشهر هو المطر نزل من السماء فى حال ظلمات، وهى الشكوك والكفر والنفاق ﴿وَرَعْدٌ﴾ وهو ما يزعج القلوب من الخوف، فإن من شأن المنافقين الخوف الشديد والفزع كما قال تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤] وقال: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التوبة: ٥٦-٥٧] و«البرق»: هو ما يلمعُ فى قلوب هؤلاء الضرب من المنافقين فى بعض الأحيان من نور الإيمان ولهذا قال: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أى: ولا يجدى عنهم حذرهم شيئًا لأن الله محيط بهم بقدرته وهم تحت مشيئته وإرادته كما قال: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ [البروج: ١٧-٢٠] بهم ثم قال: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ أى لشدته وقوته فى نفسه، وضعف بصائرهم وعدم ثباتها للإيمان، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ

أَبْصَٰرَهُمْ﴾ يقول: يكاد محكم القرآن يدل على عورات المنافقين وقال ابن إسحاق: حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ أى: لشدة ضوء الحق ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾ أى كلما ظهر لهم من الإيمان شيء استأنسوا به واتبعوه وتارة تعرض لهم الشكوك أظلمت قلوبهم فوقفوا حائرين. وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ﴾ يقول: كلما أصاب المنافقين من عز الإسلام اطمأنوا إليه وإذا أصاب الإسلام نكبة قاموا ليرجعوا إلى الكفر كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ﴾ [الحج: ١١] وقال محمد بن إسحاق عن محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾ أى: يعرفون الحق ويتكلمون به، فهم من قولهم به على استقامة فإذا ارتكسوا منه إلى الكفر قاموا أى: متحيرين، وهكذا قال أبو العالية والحسن البصرى وقتادة والربيع بن أنس والسدى بسنده عن الصحابة وهو أصح وأظهر والله أعلم، وهكذا يكونون يوم القيامة عندما يعطى الناس النور بحسب إيمانهم، فمنهم من يعطى من النور ما يضيء له مسيرة فراسخ وأكثر من ذلك وأقل من ذلك، ومنهم من يطفأ نوره تارة ويضيء له أخرى، ومنهم من يمشى على الصراط تارة ويقف أخرى، ومنهم من يطفأ نوره بالكلية وهم الخلص من المنافقين الذين قال تعالى فيهم: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ [الحديد: ١٣] وقال فى حق المؤمنين: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الحديد: ١٢]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: ٨].

ذكر الحديث الوارد فى ذلك

قال سعيد بن أبى عروبة عن قتادة فى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ الآية، ذكر لنا أن نبى الله ﷺ كان يقول: «**من المؤمنين من يضيء نوره من المدينة إلى عدن أو بين صنعاء ودون ذلك حتى إن من المؤمنين من لا يضيء نوره إلا موضع قدميه**»(١). رواه ابن جرير ورواه ابن أبى حاتم من حديث عمران بن دَاوَر القطان عن قتادة بنحوه، وهذا كما قال المنهال بن عمرو عن قيس بن السكن عن عبد الله بن مسعود قال: يؤتون نورهم على قدر أعمالهم فمنهم من يؤتى نوره كالنخلة ومنهم من يؤتى نوره كالرجل القائم وأدناهم نورًا على إبهامه يطفأ مرة ويتقد مرة، وهكذا رواه ابن جرير عن ابن مثنى عن ابن إدريس عن أبيه عن المنهال وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى حدثنا على بن محمد الطنافسى حدثنا ابن إدريس سمعت أبى يذكر عن المنهال بن عمرو عن قيس بن السكن عن عبد الله بن مسعود ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ [التحريم: ٨] قال: على قدر أعمالهم يمرون على الصراط منهم من نوره مثل الجبل ومنهم من نوره مثل النخلة وأدناهم نورًا من نوره فى إبهامه يتقد مرة ويطفأ أخرى(٢)،

---

(١) ضعيف: وعلته الإرسال أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٧/ ٢٢٢).
(٢) الطبرى في التفسير (٢٧/ ٢٢٣).

وقال ابن أبى حاتم أيضًا: حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسى حدثنا أبو يحيى الحمانى حدثنا عتبة بن اليقظان عن عكرمة عن ابن عباس قال: ليس أحد من أهل التوحيد إلا يعطى نورًا يوم القيامة، فأما المنافق فيطفأ نوره فالمؤمن مشفق مما يرى من إطفاء نور المنافقين، فهم يقولون ﴿رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا﴾ [التحريم: ٨]، وقال الضحاك بن مزاحم: يعطى كل من كان يظهر الإيمان فى الدنيا يوم القيامة نورًا فإذا انتهى إلى الصراط طفئ نور المنافقين فلما رأى ذلك المؤمنون أشفقوا فقالوا: ربنا أتمم لنا نورنا.

فإذا تقرر هذا صار الناس أقسامًا: مؤمنون خلص وهم الموصوفون بالآيات الأربع فى أول البقرة وكفار خلص وهم الموصوفون بالآيتين بعدها ومنافقون وهم قسمان: خلص وهم المضروب لهم المثل النارى، ومنافقون يترددون تارة يظهر لهم لمع الإيمان وتارة يخبو وهم أصحاب المثل المائى وهم أخف حالاً من الذين قبلهم، وهذا المقام يشبه من بعض الوجوه ما ذكر فى سورة النور من ضرب مثل المؤمن وما جعل الله فى قلبه من الهدى والنور بالمصباح فى الزجاجة التى كأنها كوكب درى وهى قلب المؤمن المفطور على الإيمان واستمداده من الشريعة الخالصة الصافية الواصلة إليه من غير كدر ولا تخليط كما سيأتى تقريره فى موضعه إن شاء الله، ثم ضرب مثل العباد من الكفار الذين يعتقدون أنهم على شىء وليسوا على شىء، وهم أصحاب الجهل المركب فى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ الآية، ثم ضرب مثل الكفار الجُهَّال الجهل البسيط وهم الذين قال تعالى فيهم ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠] فقسم الكفار ههنا إلى قسمين: داعية ومقلد، كما ذكرهما فى أول سورة الحج ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ﴾ [الحج: ٣] وقال بعده ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ [الحج: ٨] وقد قسم الله المؤمنين فى أول الواقعة وفى آخرها، وفى سورة الإنسان إلى قسمين: سابقون وهم المقربون، وأصحاب يمين وهم الأبرار.

فتلخّص من مجموع هذه الآيات الكريمات أن المؤمنين صنفان: مقربون وأبرار، وأن الكافرين صنفان: دعاة ومقلدون، وأن المنافقين أيضًا صنفان: منافق خالص، ومنافق فيه شعبة من نفاق، كما جاء فى الصحيحين[1] عن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ: **«ثلاث من كن فيه كان منافقًا خالصًا ومن كانت فيه واحدة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: من إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان»** استدلوا به على أن الإنسان قد تكون فيه شعبة من إيمان وشعبة من نفاق. إما عملى لهذا الحديث أو اعتقادى كما دلت عليه الآية، كما ذهب إليه طائفة من السلف وبعض العلماء كما تقدم وكما سيأتى إن شاء الله. قال الإمام أحمد[2] حدثنا أبو النضر حدثنا أبو معاوية يعنى شيبان عن ليث عن عمرو بن مرة عن أبى البخترى عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: **«القلوب أربعة: قلب أجرد، فيه مثل السراج يزهر، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مصفح، فأما**

---

(١) البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨) بنحوه، ولفظه «أربع»، أما لفظ ثلاث فهى من حديث أبي هريرة. وهى في البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩).

(٢) ضعيف: في المسند (١٠٧٤٥)، وانظر السلسلة الضعيفة للألباني رحمه الله (٥١٦١).

القلب الأجرد فقلب المؤمن فسراجه فيه نوره، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق الخالص عرف ثم أنكر، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والدم فأى المادتين غلبت على الأخرى غلبت عليه» وهذا إسناد جيد حسن.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ قال محمد بن إسحاق: حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ قال: لِمَا تركوا من الحق بعد معرفته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ قال ابن عباس: أى إن الله على كل ما أراد بعباده من نقمة أو عفو قدير وقال ابن جرير: إنما وصف الله تعالى نفسه بالقدرة على كل شىء فى هذا الموضع لأنه حذر المنافقين بأسه وسطوته، وأخبرهم أنه بهم محيط، وعلى إذهاب أسماعهم وأبصارهم قدير. ومعنى ﴿قَدِيرٌ﴾ قادر، كما أن معنى ﴿عَلِيمٌ﴾ عالم، وذهب ابن جرير ومن تبعه من المفسرين إلى أن هذين المثلين مضروبان لصنف واحد من المنافقين وتكون «أو»، فى قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بمعنى الواو كقوله تعالى ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤] أو تكون للتخيير أى: اضرب لهم مثلاً بهذا وإن شئت بهذا، قال القرطبى: «أو» للتساوى مثل جالس الحسن أو ابن سيرين على ما وجهه الزمخشرى أن كلا منهما مساو للآخر فى إباحة الجلوس إليه ويكون معناه على قوله: سواء ضربت لهم مثلاً بهذا أو بهذا فهو مطابق لحالهم.

(قُلْتُ) وهذا يكون باعتبار جنس المنافقين فإنهم أصناف، ولهم أحوال وصفات، كما ذكرها الله تعالى فى سورة براءة ومنهم ومنهم ومنهم يذكر أحوالهم وصفاتهم وما يعتمدونه من الأفعال والأقوال، فجعل هذين المثلين لصنفين منهم أشد مطابقة لأحوالهم وصفاتهم، والله أعلم، كما ضرب المثلين فى سورة النور لصنفى الكفار الدعاة والمقلدين فى قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ﴾ إلى أن قال ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾ الآية [النور: ٣٩-٤٠]: فالأول للدعاة الذين هم فى جهل مركب، والثانى لذوى الجهل البسيط من الأتباع المقلدين، والله أعلم بالصواب.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

شرع تبارك وتعالى فى بيان وحدانية ألوهيته بأنه تعالى هو المنعم على عبيده بإخراجهم من العدم إلى الوجود وإسباغه عليهم النعم الظاهرة والباطنة بأن جعل لهم الأرض فراشًا أى مهدًا كالفراش مقررة موطأة مثبتة بالرواسى الشامخات ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ وهو السقف، كما قال فى الآية الأخرى ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢] ﴿وَأَنزَلَ﴾ لهم ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [البقرة: ٢٢] والمراد به السحاب ههنا فى وقته عند احتياجهم إليه، فأخرج لهم به من أنواع الزروع والثمار ما هو مشاهد رزقًا لهم ولأنعامهم، كما قرر هذا فى غير موضع من القرآن، ومن أشبه آية بهذه الآية قوله

تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤] ومضمونه: أنه الخالق الرازق مالك الدار وساكنيها ورازقهم، فبهذا يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به غيره ولهذا قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وفي الصحيحين [١] عن ابن مسعود قال: قلت: يا رسول الله أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: «أن تجعل لله ندًا وهو خلقك» الحديث، وكذا حديث معاذ [٢]: «أتدري ما حق الله على عباده؟ «أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا» الحديث، وفي الحديث الآخر «لا يقولن أحدكم ما شاء الله وشاء فلان، ولكن ليقل ما شاء الله ثم شاء فلان» [٣] وقال حماد بن سلمة: حدثنا عبد الملك بن عمير عن ربعي بن حراش عن الطفيل بن سخبرة أخي عائشة أم المؤمنين لأمها قال: رأيت فيما يرى النائم كأني أتيت على نفر من اليهود فقلت: من أنتم؟ قالوا: نحن اليهود، قلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: عزير ابن الله، قالوا: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وما شاء محمد، قال: ثم مررت بنفر من النصارى فقلت: من أنتم؟ قالوا: نحن النصارى، قلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: المسيح ابن الله، قالوا: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد، فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته فقال: «هل أخبرت بها أحدًا؟» قلت: نعم فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد فإن طفيلًا رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم وإنكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها فلا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد ولكن قولوا: ما شاء الله وحده» [٤] هكذا رواه ابن مردويه في تفسير هذه الآية من حديث حماد بن سلمة به، وأخرجه ابن ماجه من وجه آخر عن عبد الملك بن عمير به بنحوه، وقال سفيان بن سعيد الثوري عن الأجلح بن عبد الله الكندي عن يزيد بن الأصم عن ابن عباس قال: قال رجل للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت فقال: «أجعلتني لله ندًا؟» قل: «ما شاء الله وحده» [٥] رواه ابن مردويه وأخرجه النسائي وابن ماجه من حديث عيسى بن يونس عن الأجلح به، وهذا كله صيانة وحماية لجناب التوحيد، والله أعلم. وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ للفريقين جميعًا من الكفار والمنافقين، أي: وحدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم، وبه عن ابن عباس ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي لا تشركوا بالله غيره من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر، وأنتم تعلمون أنه لا رب لكم يرزقكم غيره وقد علمتم أن الذي يدعوكم إليه الرسول ﷺ من التوحيد هو الحق الذي لا شك فيه، وهكذا قال قتادة، وقال ابن أبي حاتم، حدثنا أحمد بن عمرو بن أبي عاصم حدثنا أبو عمرو حدثنا الضحاك بن مخلد أبو عاصم حدثنا شبيب بن بشر حدثنا عكرمة عن ابن عباس

---

(١) البخاري (٦٨٦١)، مسلم (٨٦). (٢) البخاري (٧٣٧٣)، ومسلم (٣٠).

(٣) صحيح: أبو داود (٤٩٨٠)، وأحمد (٢٢٧٥٤)، من حديث حذيفة رضي الله عنه. وانظر صحيح سنن أبي داود.

(٤) صحيح: ابن ماجه (٢١١٨)، وأحمد (٢٠١٧١). وانظر صحيح ابن ماجه للألباني.

(٥) حسن صحيح: ابن ماجه (٢١١٧). وانظر صحيح سنن ابن ماجه.

فى قول الله عز وجل: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ قال: الأنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء فى ظلمة الليل، وهو أن يقول: والله وحياتك يا فلان وحياتى، ويقول: لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص البارحة، ولولا البط فى الدار لأتى اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان، لا تجعل فيها «فلان» هذا كله به شرك، وفى الحديث أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: ما شاء الله وشئت، قال: «أجعلتنى لله ندًّا» وفى الحديث الآخر: «نعم القوم أنتم لولا أنكم تنددون تقولون: ما شاء الله وشاء فلان» قال أبو العالية ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أى عدلاء شركاء، وهكذا قال الربيع بن أنس وقتادة والسدى وأبو مالك وإسماعيل بن أبى خالد، وقال مجاهد: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قال: تعلمون أنه إله واحد فى التوراة والإنجيل.

ذكر حديث فى معنى هذه الآية الكريمة

قال الإمام أحمد[1] حدثنا عفان حدثنا أبو خلف موسى بن خلف وكان يعد من البدلاء حدثنا يحيى بن أبى كثير عن زيد بن سلام عن جده ممطور عن الحارث الأشعرى أن نبى الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل أمر يحيى بن زكريا عليه السلام بخمس كلمات أن يعمل بهن وأن يأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن فكاد أن يبطئ بها فقال له عيسى عليه السلام: إنك قد أمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن وتأمر بنى اسرائيل أن يعملوا بهن فإما أن تبلغهن وإما أن أُبلغهن، فقال: يا أخى إنى أخشى إن سبقتنى أن أعذب أو يخسف بى قال: فجمع يحيى بن زكريا بنى إسرائيل فى بيت المقدس حتى امتلأ المسجد، فقعد على الشرف، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله أمرنى بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن، أولهن: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، فإن مثل ذلك كمثل رجل اشترى عبدًا من خالص ماله بورق أو ذهب فجعل يعمل ويؤدى غلته إلى غير سيده، فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك؟ وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وآمركم بالصلاة فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده ما لم يلتفت فإذا صليتم فلا تلتفتوا، وآمركم بالصيام فإن مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك فى عصابة، كلهم يجد ريح المسك، وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، وآمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدوا يديه إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه، وقال لهم: هل لكم أن أفتدى نفسى منكم؟ فجعل يفتدى نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه، وآمركم بذكر الله كثيرًا وإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعًا فى أثره، فأتى حصنًا حصينًا فتحصن فيه، وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان فى ذكر الله» قال: وقال رسول الله: «**وأنا آمركم بخمس الله أمرنى بهن: الجماعة والسمع والطاعة والهجرة والجهاد فى سبيل الله، فإنه من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جُثَى جهنم**» قالوا: يا رسول الله وإن صام وصلى؟ فقال: «**وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم فادعوا المسلمين بأسمائهم على ما سماهم الله عز وجل المسلمين المؤمنين عباد الله**» هذا حديث حسن والشاهد منه فى هذه الآية قوله: «**وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئًا**» وهذه الآية دالة على توحيده تعالى بأنه [illegible]

(١) صحيح: في المسند (١٦٧١٨)، وانظر صحيح الجامع للألباني (١٧٢٤).

وحده لا شريك له، وقد استدل به كثير من المفسرين كالرازى وغيره على وجود الصانع تعالى، وهى دالة على ذلك بطريق الأولى فإن من تأمل هذه الموجودات السفلية والعلوية واختلاف أشكالها وألوانها وطباعها ومنافعها ووضعها فى مواضع النفع بها محكمة، علم قدرة خالقها وحكمته وعلمه وإتقانه وعظيم سلطانه، كما قال بعض الأعراب، وقد سئل: ما الدليل على وجود الرب تعالى؟ فقال: يا سبحان الله إن البعرة ليدل على البعير، وإن أثر الأقدام لتدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج؟ ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير؟.

وحكى الرازى عن الإمام مالك أن الرشيد سأله عن ذلك فاستدل له باختلاف اللغات والأصوات والنغمات، وعن أبى حنيفة أن بعض الزنادقة سألوه عن وجود البارى تعالى، فقال لهم: دعونى فإنى مفكر فى أمر قد أخبرت عنه، ذكروا لى أن سفينة فى البحر موقرة فيها أنواع من المتاجر وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها، وهى مع ذلك تذهب وتجىء وتسير بنفسها وتخترق الأمواج العظام حتى تتخلص منها، وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد، فقالوا: هذا شىء لا يقوله عاقل، فقال: ويحكم هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوى والسفلى وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة أليس لها صانع؟ فبهت القوم ورجعوا إلى الحق وأسلموا على يديه. وعن الشافعى أنه سئل عن وجود الصانع، فقال: هذا ورق التوت طعمه واحد تأكله الدود فيخرج منه الإبريسم، وتأكله النحل فيخرج منه العسل، وتأكله الشاة والبقر والأنعام فتلقيه بعرًا وروثًا، وتأكله الظباء فيخرج منها المسك وهو شىء واحد، وعن الإمام أحمد بن حنبل أنه سئل عن ذلك، فقال: ههنا حصن حصين أملس ليس له باب ولا منفذ، ظاهره كالفضة البيضاء، وباطنه كالذهب الإبريز، فبينا هو كذلك إذ انصدع جداره فخرج منه حيوان سميع بصير ذو شكل حسن وصوت مليح، يعنى بذلك البيضة إذا خرج منها الدجاجة، وسئل أبو نواس عن ذلك فأنشد:

تأمل فى نبات الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات ... بأحداق هى الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

وقال ابن المعتز:

فيا عجبًا كيف يعصى الإلـ ... ـه أم كيف يجحده الجاحد
وفى كل شىء له آية ... تدل على أنه واحد

وقال آخرون: من تأمل هذه السموات فى ارتفاعها واتساعها وما فيها من الكواكب الكبار والصغار النيرة من السيارة ومن الثوابت، وشاهدها كيف تدور مع الفلك العظيم فى كل يوم وليلة دويرة ولها فى أنفسها سير يخصها، ونظر إلى البحار المكتنفة للأرض من كل جانب، والجبال الموضوعة فى الأرض لتقر ويسكن ساكنوها مع اختلاف أشكالها وألوانها كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٧-٢٨] وكذلك هذه الأنهار السارحة من قطر إلى قطر للمنافع وما ذرأ فى الأرض من الحيوانات المتنوعة والنبات المختلف الطعوم والأراييح والأشكال والألوان مع اتحاد طبيعة التربة

والماء استدل على وجود الصانع وقدرته العظيمة وحكمته ورحمته بخلقه ولطفه بهم وإحسانه إليهم وبره بهم لا إله غيره ولا رب سواه، عليه توكلت وإليه أنيب، والآيات فى القرآن الدالة على هذا المقام كثيرة جدًا.

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾

ثم شرع تعالى فى تقرير النبوة بعد أن قرر أنه لا إله إلا هو، فقال مخاطبًا للكافرين: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ يعنى محمدًا صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾ من مثل ما جاء به إن زعمتم أنه من عند غير الله فعارضوه بمثل ما جاء به واستعينوا على ذلك بمن شئتم من دون الله فإنكم لا تستطيعون ذلك، قال ابن عباس: ﴿شُهَدَاءَكُم﴾ أعوانكم أى قومًا آخرين يساعدونكم على ذلك، وقال السدى عن أبى مالك: شركاءكم أى استعينوا بآلهتكم فى ذلك يمدونكم وينصرونكم، وقال مجاهد: وادعوا شهداءكم قال: ناس يشهدون به يعنى حكام الفصحاء، وقد تحداهم الله تعالى بهذا فى غير موضع من القرآن فقال فى سورة القصص ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ وقال فى سورة سبحان ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ وقال فى سورة هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ وقال فى سورة يونس: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ وكل هذه الآيات مكية، ثم تحداهم بذلك أيضًا فى المدينة فقال فى هذه الآية ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ - أى شك - ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ - يعنى محمدًا ﷺ - ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ يعنى من مثل القرآن، قاله مجاهد وقتادة واختاره ابن جرير الطبرى والزمخشرى والرازى، ونقله عن عمر وابن مسعود وابن عباس والحسن البصرى، وأكثر المحققين، ورجح ذلك بوجوه من أحسنها أنه تحداهم كلهم متفرقين ومجتمعين سواء فى ذلك أميهم وكتابيهم وذلك أكمل فى التحدى وأشمل من أن يتحدى آحادهم الأميين ممن لا يكتب ولا يعانى شيئًا من العلوم وبدليل قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ﴾ [هود: ١٣] وقوله ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾.

وقال بعضهم: من مثل محمد ﷺ، يعنى من رجل أمى مثله، والصحيح الأول، لأن التحدى عام لهم كلهم مع أنهم أفصح الأمم وقد تحداهم بهذا فى مكة والمدينة مرات عديدة مع شدة عداوتهم له وبغضهم لدينه ومع هذا عجزوا عن ذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا﴾ ولن لنفى التأبيد فى المستقبل أى ولن تفعلوا ذلك أبدًا وهذه أيضًا معجزة أخرى، وهو أنه أخبر خبرًا جازمًا قاطعًا مقدمًا غير خائف ولا مشفق أن هذا القرآن لا يعارض بمثله أبد الآبدين ودهر الداهرين، وكذلك وقع الأمر لم يعارض من لدنه إلى زمننا هذا ولا يمكن، وأنى يتأتى ذلك لأحد، والقرآن كلام الله خالق كل شىء، وكيف يشبه كلام الخالق كلام المخلوقين، ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنونًا

ظاهرة وخفية من حيث اللفظ ومن جهة المعنى، قال الله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [فصلت: ١] فأحكمت ألفاظه وفصلت معانيه أو بالعكس على الخلاف، فكل من لفظه ومعناه فصيح لا يجارى ولا يدانى، فقد أخبر عن مغيبات ماضية كانت ووقعت طبق ما أخبر سواء بسواء، وأمر بكل خير، ونهى عن كل شر كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ﴾ [الأنعام: ١١٥] أى صدقًا فى الأخبار وعدلاً فى الأحكام، فكله حق وصدق وعدل وهدى، ليس فيه مجازفة ولا كذب ولا افتراء، كما يوجد فى أشعار العرب وغيرهم من الأكاذيب والمجازفات التى لا يحسن شعرهم إلا بها، كما قيل فى الشعر: إن أعذبه أكذبه، وتجد القصيدة الطويلة المديدة قد استعمل غالبها فى وصف النساء أو الخيل أو الخمر أو فى مدح شخص معين أو فرس أو ناقة أو حرب أو كائنة أو مخافة أو سبع أو شىء من المشاهدات المتعينة التى لا تفيد شيئًا إلا قدرة المتكلم المعين على الشىء الخفى أو الدقيق أو إبرازه إلى الشىء الواضح، ثم تجد له فيه بيتًا أو بيتين أو أكثر هى بيوت القصيد وسائرها هذر لا طائل تحته، وأما القرآن فجميعه فصيح فى غاية نهايات البلاغة عند من يعرف ذلك تفصيلاً وإجمالاً ممن فهم كلام العرب وتصاريف التعبير، فإنه إن تأملت أخباره وجدتها فى غاية الحلاوة سواء كانت مبسوطة أو وجيزة وسواء تكررت أم لا، وكلما تكررت حلا وعلا، لا يخلق عن كثرة الرد، ولا يمل منه العلماء، وإن أخذ فى الوعيد والتهديد جاء منه ما تقشعر منه الجبال الصم الراسيات، فما ظنك بالقلوب الفاهمات، وإن وعد أتى بما يفتح القلوب والآذان، ويشوق إلى دار السلام ومجاورة عرش الرحمن كما قال فى الترغيب ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧] وقال: ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١] وقال فى الترهيب: ﴿أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ﴾ [الإسراء: ٦٨] ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٦-١٧] وقال فى الزجر: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ﴾ [العنكبوت: ٤٠] وقال فى الوعظ: ﴿أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧] إلى غير ذلك من أنواع الفصاحة والبلاغة والحلاوة، وإن جاءت الآيات فى الأحكام والأوامر والنواهى، اشتملت على الأمر بكل معروف حسن نافع طيب محبوب، والنهى عن كل قبيح رذيل دنىء، كما قال ابن مسعود وغيره من السلف: إذا سمعت الله تعالى يقول فى القرآن: يا أيها الذين آمنوا فارعها سمعك فإنها خير يأمر به أو شر ينهى عنه، ولهذا قال تعالى: ﴿يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٧]، وان جاءت الآيات فى وصف المعاد وما فيه من الأهوال وفى وصف الجنة والنار وما أعد الله فيهما لأوليائه وأعدائه من النعيم والجحيم والملاذ والعذاب الأليم، بشرت به وحذرت وأنذرت، ودعت إلى فعل الخيرات واجتناب المنكرات، وزهدت فى الدنيا ورغبت فى الآخرة، وثبتت على الطريقة المثلى، وهدت إلى صراط الله المستقيم وشرعه القويم، ونفت عن القلوب رجس الشيطان الرجيم. ولهذا ثبت فى الصحيحين[1] عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبى من الأنبياء إلا قد

(١) البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢).

أعطى من الآيات ما آمن على مثله البشر وإنما كان الذى أوتيته وحيًا أوحاه الله إلىَّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة» - لفظ مسلم - وقوله ﷺ : «وإنما كان الذى أوتيت وحيًا» أى الذى اختصصت به من بينهم هذا القرآن المعجز للبشر أن يعارضوه بخلاف غيره من الكتب الإلهية فإنها ليست معجزة عند كثير من العلماء والله أعلم، وله عليه الصلاة والسلام من الآيات الدالة على نبوته وصدقه فيما جاء به ما لا يدخل تحت حصر، ولله الحمد والمنة.

وقد قرر بعض المتكلمين الإعجاز بطريق يشمل قول أهل السنة وقول المعتزلة فى الصرفة، فقال: إن كان هذا القرآن معجزًا فى نفسه لا يستطيع البشر الإتيان بمثله ولا فى قواهم معارضته فقد حصل المدعى وهو المطلوب، وإن كان فى إمكانهم معارضته بمثله ولم يفعلوا ذلك مع شدة عداوتهم له كان ذلك دليلاً على أنه من عند الله لصرفه إياهم عن معارضته مع قدرتهم على ذلك، وهذه الطريقة وإن لم تكن مرضية؛ لأن القرآن فى نفسه معجز لا يستطيع البشر معارضته كما قررنا، إلا أنها تصلح على سبيل التنزل والمجادلة والمنافحة عن الحق وبهذه الطريقة أجاب الرازى فى تفسيره عن سؤاله فى السور القصار كالعصر و﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾.

وَقَوْلُه تَعَالَى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ أما الوقود، بفتح الواو، فهو ما يلقى فى النار لإضرامها كالحطب ونحوه، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٥] وقال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨-٩٩] والمراد بالحجارة ههنا هى حجارة الكبريت العظيمة السوداء الصلبة المنتنة، وهى أشد الأحجار حرًّا إذا حميت أجارنا الله منها، وقال عبد الملك بن ميسرة الزراد عن عبد الرحمن بن سابط بن عمرو بن ميمون عن عبد الله بن مسعود فى قوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ قال: هى حجارة من كبريت، خلقها الله يوم خلق السموات والأرض فى السماء الدنيا يعدها للكافرين. رواه ابن جرير وهذا لفظه وابن أبى حاتم والحاكم فى مستدركه وقال: على شرط الشيخين. وقال السدى فى تفسيره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرّة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾، أما الحجارة فهى حجارة في النار من كبريت أسود يعذبون به مع النار، وقال مجاهد: حجارة من كبريت أنتن من الجيفة، وقال أبو جعفر محمد بن على: حجارة من كبريت، وقال ابن جريج حجارة من كبريت أسود فى النار، وقال لى عمرو بن دينار: أصلب من هذه الحجارة وأعظم. وقيل: المراد بها حجارة الأصنام والأنداد التى كانت تعبد من دون الله كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ الآية، حكاه القرطبى والرازى ورجحه على الأول، قال: لأن أخذ النار فى حجارة الكبريت ليس بمستنكر فجعلها هذه الحجارة أولى. وهذا الذى قاله ليس بقوى، وذلك أن النار إذا أضرمت بحجارة الكبريت كان ذلك أشد لحرها وأقوى لسعيرها ولا سيما على ما ذكره السلف من أنها حجارة من كبريت معدة لذلك، ثم إنَّ أخذ النار بهذه الحجارة أيضًا مشاهد، وهذا الجص يكون أحجارًا فيعمل فيه بالنار حتى يصير كذلك. وكذلك سائر الأحجار تفجرها النار وتحرقها، وإنما سيق هذا فى حر هذه النار التى وعدوا بها، وشدة إضرامها وقوة لهبها كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ

سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧] وهكذا رجح القرطبى أن المراد بها الحجارة التى تسعر بها النار لتحمر ويشتد لهبها، قال ليكون ذلك أشد عذابًا لأهلها، قال: وقد جاء فى الحديث عن النبى ﷺ أنه قال: «كل مؤذ فى النار»(١) وهذا الحديث ليس بمحفوظ ولا معروف، ثم قال القرطبى: وقد فسر بمعنيين، أحدهما أن كل من آذى الناس دخل النار، والآخر أن كل ما يؤذى فى النار يتأذى به أهلها من السباع والهوام وغير ذلك.

وَقَوْلُه تَعَالَى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ الأظهر أن الضمير فى ﴿أُعِدَّتْ﴾ عائد إلى النار التى وقودها الناس والحجارة، ويحتمل عوده إلى الحجارة كما قال ابن مسعود، ولا منافاة بين القولين فى المعنى؛ لأنهما متلازمان و ﴿أُعِدَّتْ﴾ أى: أرصدت وحصلت للكافرين بالله ورسوله كما قال ابن إسحاق عن محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ أى لمن كان على مثل ما أنتم عليه من الكفر، وقد استدل كثير من أئمة السنة بهذه الآية على أن النار موجودة الآن لقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ﴾ أى أرصدت وهيئت، وقد وردت أحاديث كثيرة فى ذلك منها: «تحاجت الجنة والنار»(٢) ومنها «استأذنت النار ربها فقالت: رب أكل بعضى بعضًا فأذن لها بنفسين نفس فى الشتاء ونفس فى الصيف»(٣) وحديث ابن مسعود: سمعنا وجبة فقلنا ما هذه؟ فقال رسول الله ﷺ: «هذا حجر ألقى به من شفير جهنم منذ سبعين سنة الآن وصل إلى قعرها» وهو عند مسلم(٤)، وحديث صلاة الكسوف وليلة الإسراء وغير ذلك من الأحاديث المتواترة فى هذا المعنى، وقد خالفت المعتزلة بجهلهم فى هذا ووافقهم القاضى منذر بن سعيد البلوطى قاضى الأندلس.

(تنبيه ينبغى الوقوف عليه) قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ وقوله فى سورة يونس: ﴿بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس: ٣٨] يعم كل سورة فى القرآن طويلة كانت أم قصيرة لأنها نكرة فى سياق الشرط فتعم كما هى فى سياق النفى عن المحققين من الأصوليين كما هو مقرر فى موضعه، فالإعجاز حاصل فى طوال السور وقصارها، وهذا ما لا أعلم فيه نزاعًا بين الناس سلفًا وخلفًا، وقد قال الرازى فى تفسيره فإن قيل قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ يتناول سورة الكوثر وسورة العصر، و ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون: ١] ونحن نعلم بالضرورة أن الإتيان بمثله أو بما يقرب منه ممكن: فإن قلتم، إن الإتيان بمثل هذه السور خارج عن مقدار البشر، كان مكابرة، والإقدام على هذه المكابرات مما يطرق بالتهمة إلى الدين، (قلنا) فلهذا السبب اخترنا الطريق الثانى وقلنا: إن بلغت هذه السور فى الفصاحة حد الإعجاز فقد حصل المقصود، وإن لم يكن كذلك، كان امتناعهم من المعارضة مع شدة دواعيهم إلى توهين أمره معجزًا، فعلى التقديرين يحصل المعجز، هذا لفظه بحروفه، والصواب أن كل سورة من القرآن معجزة لا يستطيع البشر معارضتها طويلة كانت أو قصيرة قال الشافعى رحمه الله: لو تدبر الناس هذه

---

(١) **موضوع**: أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (١١/ ٢٩٧)، وفيه عثمان بن الخطاب البلوى قال عنه الذهبي: كذاب. وانظر السلسلة الضعيفة (٤٢٣٣).

(٢) البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) البخاري (٥٣٧)، ومسلم (٦١٧) من حديث أبي هريرة.

(٤) مسلم (٢٨٤٤)، لكنه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

السورة لكفتهم ﴿وَٱلْعَصْرِ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣] وقد روينا عن عمرو بن العاص أنه وفد على مسيلمة الكذاب قبل أن يسلم، فقال له مسيلمة: ماذا أنزل على صاحبكم بمكة فى هذا الحين؟ فقال له عمرو: لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة فقال: وما هى؟ فقال: ﴿وَٱلْعَصْرِ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ١-٢] ففكر ساعة ثم رفع رأسه فقال: ولقد أنزل على مثلها، فقال: وما هو؟ فقال: يا وبر يا وبر إنما أنت أذنان وصدر، وسائرك حقر فقر، ثم قال: كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله إنك لتعلم أنى لأعلم أنك تكذب.

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾

لما ذكر تعالى ما أعده لأعدائه من الأشقياء الكافرين به وبرسله من العذاب والنكال، عطف بذكر حال أوليائه من السعداء المؤمنين به وبرسله الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة، وهذا معنى تسمية القرآن مثانى على أصح أقوال العلماء كما سنبسطه فى موضعه، وهو أن يذكر الإيمان ويتبع بذكر الكفر أو عكسه أو حال السعداء ثم الأشقياء أو عكسه، وحاصله ذكر الشىء ومقابله. وأما ذكر الشىء ونظيره فذاك التشابه كما سنوضحه إن شاء الله، فلهذا قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ فوصفها بأنها ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[1] كما وصف النار بأن وقودها الناس والحجارة ومعنى ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أى من تحت أشجارها وغرفها، وقد جاء فى الحديث: أن أنهارها تجرى فى غير أخدود، وجاء فى الكوثر أن حافتيه قباب اللؤلؤ المجوف[2]، ولا منافاة بينهما فطينها المسك الأذفر، وحصباؤها اللؤلؤ والجوهر، نسأل الله من فضله إنه هو البر الرحيم. وقال ابن أبى حاتم[3]: قرأ على الربيع بن سليمان، حدثنا أسد بن موسى، حدثنا أبن ثوبان عن عطاء بن قرة، عن عبد الله بن ضمرة، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنهار الجنة تفجر من تحت تلال أو من تحت جبال المسك**» وقال أيضًا حدثنا أبو سعيد حدثنا وكيع عن الأعمش عن عبد الله بن مرة عن مسروق، قال: قال عبد الله: أنهار الجنة تفجر من جبل المسك.

وَقَوْلُه تَعَالَى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ﴾ قال السدى فى تفسيره: عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة قالوا: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ﴾، قال: إنهم أُتُوا بالثمرة فى الجنة فلما نظروا إليها قالوا هذا الذى رزقنا من قبل فى الدنيا، وهكذا قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ونصره ابن جرير، وقال عكرمة ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ﴾ قال: معناه مثل الذى كان بالأمس، وكذا قال الربيع بن أنس. وقال مجاهد: يقولون: ما أشبهه به قال ابن جرير: وقال آخرون: بل تأويل ذلك هذا الذى رزقنا من

---

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٦/ ٢٠٠٥)، وفي إسناده الجريرى اختلط.

(٢) البخاري (٦٥٨١)، والترمذي (٣٣٦٠).

(٣) **حسن**: ابن أبي حاتم (١/ ٦٥)، وأبو نعيم في صفة الجنة (٣١٣)، وابن حبان (٧٤٠٨).

ثمار الجنة من قبل هذا لشدة مشابهة بعضه بعضًا لقوله تعالى: ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ قال سنيد بن داود: حدثنا شيخ من أهل المصيصة عن الأوزاعى عن يحيى بن أبى كثير قال: يؤتى أحدهم بالصحفة من الشيء فيأكل منها، ثم يؤتى بأخرى فيقول: هذا الذى أتينا به من قبل، فتقول الملائكة: كُلْ فاللون واحد والطعم مختلف. وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبي حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا أبي حدثنا عامر بن يساف عن يحيى بن أبى كثير، قال: عشب الجنة الزعفران وكثبانها المسك، ويطوف عليهم الولدان بالفواكه فيأكلونها، ثم يؤتون بمثلها، فيقول لهم أهل الجنة: هذا الذى أتيتمونا آنفًا به، فتقول لهم الولدان: كلوا فاللون واحد والطعم مختلف، وهو قول الله تعالى: ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ وقال: أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ قال: يشبه بعضه بعضًا، ويختلف فى الطعم، قال ابن أبى حاتم: وروى عن مجاهد والربيع بن أنس والسدى نحو ذلك.

وقال ابن جرير بإسناده عن السدى فى تفسيره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة فى قوله تعالى: ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ يعنى فى اللون والمرأى وليس يشتبه فى الطعم، وهذا اختيار ابن جرير، وقال عكرمة ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ قال يشبه ثمر الدنيا غير أن ثمر الجنة أطيب.

وقال سفيان الثورى عن الأعمش عن أبى ظبيان عن ابن عباس: لا يشبه شيئٌ مما فى الجنة ما فى الدنيا إلا فى الأسماء، وفى رواية: ليس فى الدنيا مما فى الجنة إلا الأسماء، ورواه ابن جرير من رواية الثورى وابن أبى حاتم من حديث أبى معاوية كلاهما عن الأعمش به، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله تعالى: ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ قال يعرفون أسماءه كما كانوا فى الدنيا: التفاح بالتفاح والرمان بالرمان، قالوا فى الجنة: هذا الذى رزقنا من قبل فى الدنيا وأتوا به متشابهًا يعرفونه وليس هو مثله فى الطعم.

وَقَوْلُه تَعَالَى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس: مطهرة من القذر والأذى، وقال مجاهد: من الحيض والغائط والبول والنخام والبزاق والمنى والولد، وقال قتادة: مطهرة من الأذى والمأثم، وفى رواية عنه: لا حيض ولا كلف، وروى عن عطاء والحسن والضحاك وأبى صالح وعطية والسدى نحو ذلك. وقال ابن جرير: حدثنى يونس بن عبد الأعلى. أنبأنا ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، قال: المطهرة التى لا تحيض، قال: وكذلك خلقت حواء عليها السلام، فلما عصت قال الله تعالى: إنى خلقتك مطهرة وسأدميك كما أدميت هذه الشجرة - وهذا غريب، وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه: حدثنا إبراهيم بن محمد حدثنى جعفر بن محمد بن حرب وأحمد بن محمد الجورى قالا: حدثنا محمد بن عبيد الكندى، حدثنا عبد الرزاق بن عمر البزيعى، حدثنا عبد الله بن المبارك عن شعبة عن قتادة عن أبى نضرة عن أبى سعيد عن النبى ﷺ فى قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ قال: من الحيض والغائط والنخاعة والبزاق[1]. هذا حديث غريب - وقد رواه الحاكم فى مستدركه عن محمد بن يعقوب بن الحسن بن على بن عفان عن

(١) ضعيف: عزاه السيوطى في الدر المنثور إلى ابن مردويه والحاكم، وأخرجه أبو نعيم في صفة الجنة (٣٦٣). وقد بين ابن كثير علته أن عبد الرزاق بن عمر البزيعى قال فيه أبو حاتم: لا يجوز الاحتجاج به.

محمد بن عبيد، به، وقال: صحيح على شرط الشيخين، وهذا الذى ادعاه فيه نظر، فإن عبد الرزاق بن عمر البزيعى هذا قال فيه أبو حاتم ابن حبان البستى: لا يجوز الاحتجاج به.

(قُلْتُ) والأظهر أن هذا من كلام قتادة كما تقدم، والله أعلم.

وَقَوْلُه تَعَالَى: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ هذا هو تمام السعادة فإنهم مع هذا النعيم فى مقام أمين من الموت والانقطاع فلا آخر له ولا انقضاء بل فى نعيم سرمدى أبدى على الدوام، والله المسؤول أن يحشرنا فى زمرتهم، إنه جواد كريم بر رحيم.

ربع الحزب ١

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

قال السُّدِّيُّ فى تفسيره عن أبى مالك عن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة: لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين يعنى قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧] وقوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٩] الآيات الثلاث، قال المنافقون: الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال، فأنزل الله هذه الآية إلى قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة لما ذكر الله تعالى العنكبوت والذباب، قال المشركون: ما بال العنكبوت والذباب يذكران؟ فأنزل الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ وقال سعيد عن قتادة أى: إن الله لا يستحيى من الحق أن يذكر شيئًا ما قل أو كثر، وإن الله حين ذكر فى كتابه الذباب والعنكبوت قال أهل الضلالة: ما أراد الله من ذكر هذا؟ فأنزل الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾.

(قُلْتُ) العبارة الأولى عن قتادة فيها إشعار أن هذه الآية مكية وليس كذلك، وعبارة رواية سعيد عن قتادة أقرب، والله أعلم. وروى ابن جريج عن مجاهد نحو هذا الثانى عن قتادة. وقال ابن أبى حاتم: روى عن الحسن وإسماعيل بن أبى خالد نحو قول السدى وقتادة. وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس فى هذه الآية قال هذا مثل ضربه الله للدنيا أذ البعوضة تحيا ما جاعت فإذا سمنت ماتت، وكذلك مثل هؤلاء القوم الذين ضرب لهم هذا المثل فى القرآن، إذا امتلؤوا من الدنيا ريًّا أخذهم الله عند ذلك، ثم تلا: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤] هكذا رواه ابن جرير ورواه ابن أبى حاتم من حديث أبى جعفر عن الربيع بن أنس عن أبى العالية بنحوه فالله أعلم، فهذا اختلافهم فى سبب النزول. وقد اختار ابن جرير ما حكاه السدى لأنه أمس بالسورة وهو مناسب، ومعنى الآية أنه تعالى أخبر أنه لا يستحيى أى: لا يستنكف وقيل: لا يخشى أن يضرب مثلًا ما، أى: أى مثل كان بأى شىء كان صغيرًا كان أو كبيرًا، وما ههنا للتقليل وتكون ﴿بَعُوضَةً﴾ منصوبة على البدل كما تقول لأضربن ضربًا ما، فيصدق بأدنى شىء أو تكون ما نكرة موصوفة ببعوضة، واختار ابن جرير أن ما موصولة و ﴿بَعُوضَةً﴾ معربة بإعرابها، قال: وذلك سائغ فى كلام العرب أنهم يعربون صلة «ما»

و«من» بإعرابهما لأنهما يكونان معرفة تارة ونكرة أخرى كما قال حسان بن ثابت:

يكفى بنا فضلاً على من غيرنا حبُّ النبى محمدٍ إيَّانا

قال: ويجوز أن تكون ﴿بَعُوضَةً﴾ منصوبة بحذف الجار، وتقدير الكلام: إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلاً ما بين بعوضة إلى ما فوقها، وهذا الذى اختاره الكسائى والفراء وقرأ الضحاك وإبراهيم بن عبلة بعوضةٌ بالرفع، قال ابن جنى: وتكون صلة لما وحذف العائد كما فى قوله ﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾[الأنعام: ١٥٤] أى على الذى هو أحسن، وحكى سيبويه: ما أنا بالذى قائل لك شيئًا، أى بالذى هو قائل لك شيئًا، وقوله تعالى: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ فيه قولان: أحدهما فما دونها فى الصغر والحقارة، كما إذا وصف رجل باللؤم والشح فيقول السامع: نعم وهو فوق ذلك - يعنى فيما وصفت - وهذا قول الكسائى وأبى عبيد قاله الرازى وأكثر المحققين. وفى الحديث «**لو أن الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة لما سقى كافرًا منها شربة ماء**»(١) والثانى: فما فوقها لما هو أكبر منها لأنه ليس شىء أحقر ولا أصغر من البعوضة، وهذا قول قتادة بن دعامة واختيار ابن جرير، فإنه يؤيده ما رواه مسلم(٢) عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها إلا كتب له بها درجة ومحيت عنه بها خطيئة**» فأخبر أنه لا يستصغر شيئًا يضرب به مثلاً، ولو كان فى الحقارة والصغر كالبعوضة، كما لا يستنكف عن خلقها كذلك لا يستنكف من ضرب المثل بها كما ضرب المثل بالذباب والعنكبوت فى قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣] وقال: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[العنكبوت: ٤١] وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٧] وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ الآية، ثم قال: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ الآية، كما قال: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ الآية. قال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ الآية. وقال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[العنكبوت: ٤٣] وفى القرآن أمثال كثيرة، قال بعض السلف: إذا سمعت المثل فى القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسى لأن الله قال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ وقال مجاهد فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ الأمثال صغيرها وكبيرها يؤمن بها المؤمنون ويعلمون أنها الحق من ربهم ويهديهم الله بها.

---

(١) صحيح: الترمذي (٢٣٢٠) من حديث سهل بن سعد. وانظر صحيح الجامع، برقم (٥٢٩٢).
(٢) مسلم (٢٥٧٢).

وقال قتادة ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أى يعلمون أنه كلام الرحمن وأنه من عند الله، وروى عن مجاهد والحسن والربيع بن أنس نحو ذلك. وقال أبو العالية ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ يعنى هذا المثل ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ كما قال فى سورة المدثر ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۖ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ [المدثر: ٣١] وكذلك قال ههنا ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

قال السدى فى تفسيره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا﴾ يعنى به المنافقين ﴿وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ يعنى به المؤمنين، فيزيد هؤلاء ضلالة إلى ضلالتهم لتكذيبهم بما قد علموه حقًّا يقينًا من المثل الذى ضربه الله بما ضرب لهم، وأنه لما ضرب له موافق، فذلك إضلال الله إياهم به، ﴿وَيَهْدِى بِهِۦ﴾ يعنى المثل كثيرًا من أهل الإيمان والتصديق فيزيدهم هدى إلى هداهم وإيمانًا إلى إيمانهم لتصديقهم بما قد علموه حقًّا يقينًا أنه موافق لما ضربه الله له مثلًا وإقرارهم به، وذلك هداية من الله لهم به ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ قال: هم المنافقون، وقال أبو العالية ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ قال: هم أهل النفاق وكذا قال الربيع بن أنس، وقال ابن جريج عن مجاهد عن ابن عباس ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ قال: يقول: يعرفه الكافرون فيكفرون به.

وقال قتادة ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ فسقوا فأضلهم الله على فسقهم، وقال ابن أبى حاتم: حُدِّثتُ عن إسحاق بن سليمان عن أبى سنان عن عمرو بن مرة عن مصعب بن سعد عن سعد ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا﴾ يعنى الخوارج. وقال شعبة عن عمرو بن مرة عن مصعب بن سعد قال: سألت أبى فقلت: قوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ إلى آخر الآية: فقال: هم الحرورية، وهذا الإسناد وإن صح عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه فهو تفسير على المعنى لا أن الآية أريد منها التنصيص على الخوارج الذين خرجوا على علىٍّ بالنهروان، فإن أولئك لم يكونوا حال نزول الآية وإنما هم داخلون بوصفهم فيها مع من دخل لأنهم سموا خوارج لخروجهم عن طاعة الإمام والقيام بشرائع الإسلام، والفاسق فى اللغة هو الخارج عن الطاعة أيضًا، وتقول العرب: فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرتها، ولهذا يقال للفأرة: فويسقة لخروجها عن جحرها للفساد، وثبت فى الصحيحين [1] عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «**خمس فواسق يقتلن فى الحل والحرم: الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور**» فالفاسق يشمل الكافر والعاصى، ولكن فسق الكافر أشد وأفحش، والمراد من الآية الفاسق الكافر، والله أعلم؛ بدليل أنه وصفهم بقوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ وهذه الصفات صفات الكفار المباينة لصفات المؤمنين كما قال تعالى فى سورة الرعد ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ

---

(١) البخاري (٣٣١٤)، ومسلم (١١٩٨).

﴿ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾ الآيات، إلى أن قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ وقد اختلف أهل التفسير فى معنى العهد الذى وَصَف هؤلاء الفاسقين بنقضه، فقال بعضهم: هو وصية الله إلى خلقه وأمره إياهم بما أمرهم به من طاعته ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته فى كتبه وعلى لسان رسله، ونقضهم ذلك هو تركهم العمل به.

وقال آخرون: بل هى فى كفار أهل الكتاب والمنافقين منهم، وعهد الله الذى نقضوه هو ما أخذ الله عليهم فى التوراة من العمل بما فيها واتباع محمد ﷺ إذا بعث والتصديق به وبما جاء به من عند ربهم، ونقضهم ذلك هو جحودهم به بعد معرفتهم بحقيقته وإنكارهم ذلك وكتمانهم علم ذلك عن الناس بعد إعطائهم الله من أنفسهم الميثاق ليبيننه للناس ولا يكتمونه، فأخبر تعالى أنهم نبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنًا قليلاً. وهذا اختيار ابن جرير -رحمه الله- وهو قول مقاتل بن حيان.

وقال آخرون: بل عنى بهذه الآية جميع أهل الكفر والشرك والنفاق وعهده إلى جميعهم فى توحيده ما وضع لهم من الأدلة الدالة على ربوبيته، وعهده إليهم فى أمره ونهيه ما احتج به لرسله من المعجزات التى لا يقدر أحد من الناس غيرهم أن يأتى بمثلها، الشاهدة لهم على صدقهم، قالوا: ونقضهم ذلك تركهم الإقرار بما قد تبينت لهم صحته بالأدلة، وتكذيبهم الرسل والكتب مع علمهم أن ما أتوا به حق. وروى عن مقاتل بن حيان أيضًا نحو هذا وهو حسن، وإليه مال الزمخشرى فإنه قال: فإن قلت: فما المراد بعهد الله؟ قلت: ما ركز فى عقولهم من الحجة على التوحيد، كأنه أمرٌ وصّاهم به ووثقه عليهم، وهو معنى قوله تعالى ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] إذ أخذ الميثاق عليهم من الكتب المنزلة عليهم كقوله ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] وقال آخرون: العهد الذى ذكره تعالى هو العهد الذى أخذه عليهم حين أخرجهم من صلب آدم الذى وصف فى قوله ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ۛ﴾ الآيتين [الأعراف: ١٧٢-١٧٣]، ونقضهم ذلك تركهم الوفاء به، وهكذا روى عن مقاتل بن حيان أيضًا، حكى هذه الأقوال ابن جرير فى تفسيره.

وقال أبو جعفر الرازي: عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ - إلى قوله - ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ قال هى ست خصال من المنافقين إذا كانت فيهم الظُّهْرَة على الناس أظهروا هذه الخصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا اؤتمنوا خانوا، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وأفسدوا فى الأرض، وإذا كانت الظهرة عليهم أظهروا الخصال الثلاث: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا اؤتمنوا خانوا. وكذا قال الربيع بن أنس أيضًا، وقال السدى فى تفسيره بإسناده: قوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ قال: هو ما عهد إليهم فى القرآن، فأقروا به ثم كفروا فنقضوه.

وقوله: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ قيل: المراد به صلة الأرحام والقرابات كما فسره قتادة كقوله تعالى ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢] ورجحه ابن

جرير، وقيل: المراد أعم من ذلك فكل ما أمر الله بوصله وفعله فقطعوه وتركوه. وقال مقاتل بن حيان فى قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ قال: فى الآخرة، وهذا كما قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥] وقال الضحاك عن ابن عباس: كل شىء نسبه الله إلى غير أهل الإسلام من اسم مثل خاسر فإنما يعنى به الكفر، وما نسبه إلى أهل الاسلام، فإنما يعنى به الذنب.

وقال ابن جرير فى قوله تعالى ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾: الخاسرون جمع خاسر وهم الناقصون أنفسهم حظوظهم بمعصيتهم الله من رحمته، كما يخسر الرجل فى تجارته بأن يوضع من رأس ماله فى بيعه، وكذلك المنافق والكافر خسر بحرمان الله إياه رحمته التى خلقها لعباده فى القيامة أحوج ما كانوا إلى رحمته، يقال منه: خسر الرجل يخسر خَسْرًا وخُسْرانًا وخَسَارًا كما قال جرير بن عطية:

إن سليطًا فى الخسار إنه ... أولاد قوم خلقوا أقنه

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾

يقول تعالى محتجًّا على وجوده وقدرته وأنه الخالق المتصرف فى عباده ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ أى كيف تجحدون وجوده أو تعبدون معه غيره؟ ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ أى وقد كنتم عدمًا فأخرجكم إلى الوجود كما قال تعالى ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥-٣٦] وقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١] والآيات فى هذا كثيرة، وقال سفيان الثورى عن أبى إسحاق عن أبى الأحوص عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ [غافر: ١١] قال: هى التى فى البقرة ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ وقال ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾: أمواتًا فى أصلاب آبائكم لم تكونوا شيئًا حتى خلقكم ثم يميتكم موتة الحق، ثم يحييكم حين يبعثكم، قال: وهى مثل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١] وقال الضحاك عن ابن عباس فى قوله تعالى ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١] قال: كنتم ترابًا قبل أن يخلقكم، فهذه ميتة، ثم أحياكم فخلقكم فهذه حياة، ثم يميتكم فترجعون إلى القبور فهذه ميتة أخرى، ثم يبعثكم يوم القيامة فهذه حياة أخرى، فهذه ميتتان وحياتان فهو كقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ وهكذا روى عن السدى بسنده عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة وعن أبى العالية والحسن البصري ومجاهد وقتادة وأبى صالح والضحاك وعطاء الخراسانى نحو ذلك. وقال الثورى عن السدى عن أبى صالح ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ قال: يحييكم فى القبر ثم يميتكم، وقال ابن جرير عن يونس عن ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال: خلقهم فى ظهر آدم ثم أخذ عليهم الميثاق ثم أماتهم ثم خلقهم فى الأرحام ثم أماتهم ثم أحياهم يوم القيامة. وذلك كقوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ وهذا غريب والذى قبله.

والصحيح ما تقدم عن ابن مسعود وابن عباس وأولئك الجماعة من التابعين وهو كقوله تعالى ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ الآية [الجاثية: ٢٦]، وعبر عن الحال قبل الوجود بالموت لجامع يشتركان فيه من عدم الإحساس كما قال تعالى في الأصنام: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ الآية [النحل: ٢١] وقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٣٣].

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾

لما ذكر تعالى دلالة من خلقهم وما يشاهدونه من أنفسهم ذكر دليلاً آخر مما يشاهدونه من خلق السموات والأرض فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ أي قصد إلى السماء.

والاستواء ههنا تضمن معنى القصد والإقبال، لأنه عُدّي بإلى ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾ أي فخلق السماء سبعًا، والسماء ههنا اسم جنس فلهذا قال: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: وعلمه محيط بجميع ما خلق، كما قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤] وتفصيل هذه الآية في سورة حم السجدة وهو قوله تعالى ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ٩-١٢] ففي هذا دلالة على أنه تعالى ابتدأ بخلق الأرض أولاً ثم خلق السموات سبعًا، وهذا شأن البناء أن يبدأ بعمارة أسافله ثم أعاليه بعد ذلك، وقد صرح المفسرون بذلك كما سنذكره بعد هذا إن شاء الله.

فأما قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [النازعات: ٢٧-٣٣] فقد قيل: إن ثم ههنا إنما هي لعطف الخبر على الخبر لا لعطف الفعل على الفعل، كما قال الشاعر:

قل لمن ساد ثم ساد أبوه ثم قد ساد قبل ذلك جده

وقيل: إنّ الدحى كان بعد خلق السموات، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وقد قال السدي في تفسيره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ قال: إن الله تبارك وتعالى كان عرشه على الماء ولم يخلق شيئًا غير ما خلق قبل الماء، فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخانًا فارتفع فوق الماء فسما عليه فسماه سماء ثم أيبس الماء فجعله أرضًا واحدة ثم فتقها فجعلها سبع أرضين في يومين في الأحد والإثنين فخلق الأرض على حوت، والحوت هو النون الذي ذكره الله في القرآن ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ﴾ [القلم: ١].

والحوت في الماء والماء على ظهر صفاة والصفاة على ظهر ملك والملك على صخرة والصخرة

فى الريح، وهى الصخرة التى ذكر لقمان ليست فى السماء ولا فى الأرض، فتحرك الحوت فاضطرب فتزلزلت الأرض فأرسى عليها الجبال فقرت فالجبال تفخر على الأرض فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥] وخلق الجبال فيها وأقوات أهلها وشجرها وما ينبغى لها فى يومين فى الثلاثاء والأربعاء وذلك حين يقول: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ [فصلت: ٩-١٠] يقول أنبت شجرها ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ [فصلت: ١٠] يقول: أقواتها لأهلها ﴿فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [فصلت: ١٠] يقول: من سأل فهكذا الأمر ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١] يقول: وذلك الدخان من تنفس الماء حين تنفس فجعلها سماء واحدة، ثم فتقها فجعلها سبع سموات فى يومين فى الخميس والجمعة، إنما سمى يوم الجمعة لأنه جمع فيه خلق السموات والأرض ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ١٢] قال خلق الله فى كل سماء خلقها من الملائكة والخلق الذى فيها من البحار وجبال البرد ومما لا يُعلم، ثم زين السماء الدنيا بالكواكب فجعلها زينة وحفظًا تحفظ من الشياطين، فلما فرغ من خلق ما أحب استوى على العرش فذلك حين يقول ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] ويقول: ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] وقال ابن جرير: حدثنى المثنى حدثنا عبد الله بن صالح حدثنى أبو معشر عن سعيد بن أبى سعيد عن عبد الله بن سلام أنه قال: إن الله بدأ الخلق يوم الأحد فخلق الأرضين فى الأحد والاثنين، وخلق الأقوات والرواسى فى الثلاثاء والأربعاء، وخلق السموات فى الخميس والجمعة، وفرغ فى آخر ساعة من يوم الجمعة فخلق فيها آدم على عجل، فتلك الساعة التى تقوم فيها الساعة.

وقال مجاهد فى قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ قال: خلق الله الأرض قبل السماء فلما خلق الأرض ثار منها دخان فذلك حين يقول: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ قال: بعضهن فوق بعض وسبع أرضين يعنى بعضها تحت بعض، وهذه الآية دالة على أن الأرض خلقت قبل السماء كما قال فى سورة السجدة: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ٩-١٢] فهذه وهذه دالتان على أن الأرض خلقت قبل السماء، وهذا ما لا أعلم فيه نزاعًا بين العلماء إلا ما نقله ابن جرير عن قتادة أنه زعم أن السماء خلقت قبل الأرض، وقد توقف فى ذلك القرطبى فى تفسيره لقوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧-٣٢] قالوا: فذكر خلق السماء قبل الأرض.

وفى صحيح البخارى أن ابن عباس سئل عن هذا بعينه فأجاب بأن الأرض خلقت قبل السماء وأن الأرض إنما دحيت بعد خلق السماء، وكذلك أجاب غير واحد من علماء التفسير قديما وحديثًا، وقد حررنا ذلك فى سورة النازعات وحاصل ذلك أن الدحى مفسر بقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ [النازعات: ٣٠-٣٢] ففسر الدحى بإخرج ما كان مودعًا فيها بالقوة إلى

الفعل لما أكملت صورة المخلوقات الأرضية ثم السماوية دحى بعد ذلك الأرض فأخرجت ما كان مودعًا فيها من المياه فنبتت النباتات على اختلاف أصنافها وصفاتها وألوانها وأشكالها، وكذلك جرت هذه الأفلاك فدارت بما فيها من الكواكب الثوابت والسيارة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وقد ذكر ابن أبى حاتم وابن مردويه فى تفسير هذه الآية الحديث الذى رواه مسلم والنسائى [١] فى التفسير أيضًا من رواية ابن جريج، قال: أخبرنى إسماعيل بن أمية عن أيوب بن خالد عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة عن أبى هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدى فقال: «**خلق الله التربة يوم السبت، وخلق الجبال فيها يوم الأحد، وخلق الشجر فيها يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة من آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل**».

وهذا الحديث من غرائب صحيح مسلم، وقد تكلم عليه على بن المدينى والبخارى وغير واحد من الحفاظ وجعلوه من كلام كعب، وأن أبا هريرة إنما سمعه من كلام كعب الأحبار، وإنما اشتبه على بعض الرواة، فجعلوه مرفوعًا، وقد حرر ذلك البيهقى.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

يخبر تعالى بامتنانه على بنى آدم بتنويهه بذكرهم فى الملإ الأعلى قبل إيجادهم، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أى واذكر يا محمد إذ قال ربك للملائكة واقصص على قومك ذلك، وحكى ابن جرير عن بعض أهل العربية وهو أبو عبيدة أنه زعم أن إذ ههنا زائدة وأن تقدير الكلام وقال ربك، وردّه ابن جرير، قال القرطبى: وكذا رده جميع المفسرين حتى قال الزجاج: هذا اجتراء من أبى عبيدة ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أى قومًا يخلف بعضهم بعضًا قرنًا بعد قرن وجيلًا بعد جيل كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥] قال: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢] وقال: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِي ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ [الزخرف: ٦٠] وقال: ﴿خَلْفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ [مريم: ٥٩] وقرئ فى الشاذ: «**إنى جاعل فى الأرض خليفة**» حكاها الزمخشرى وغيره.

ونقل القرطبى عن زيد بن على وليس المراد ههنا بالخليفة آدم عليه السلام فقط كما يقوله طائفة من المفسرين، وعزاه القرطبى إلى ابن عباس وابن مسعود وجميع أهل التأويل وفى ذلك نظر بل الخلاف فى ذلك كثير حكاه الرازى فى تفسيره وغيره، والظاهر أنه لم يرد آدم عينًا؛ إذ لو كان ذلك لما حسن قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ فإنهم أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك وكأنهم علموا ذلك بعلم خاص أو بما فهموه من الطبيعة البشرية، فإن الله أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من صلصال من حمإ مسنون أو فهموا من الخليفة أنه الذى يفصل بين الناس ما يقع بينهم من المظالم ويردعهم عن المحارم والمآثم، قاله القرطبى، أو أنهم قاسوهم على من سبق كما سنذكر أقوال المفسرين فى ذلك.

---

(١) مسلم (٢٧٨٩)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٩٣)، برقم (١١٠١٠).

وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله ولا على وجه الحسد لبنى آدم كما قد يتوهمه بعض المفسرين، وقد وصفهم الله تعالى بأنهم لا يسبقونه بالقول أى لا يسألونه شيئًا لم يأذن لهم فيه، وههنا لما أعلمهم بأنه سيخلق فى الأرض خلقًا.

قال قتادة: وقد تقدم إليهم أنهم يفسدون فيها، فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ الآية، وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة فى ذلك يقولون: يا ربنا ما الحكمة فى خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد فى الأرض ويسفك الدماء، فإن كان المراد عبادتك فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك أى نصلى لك كما سيأتى. أى ولا يصدر منا شىء من ذلك، وهلا وقع الاقتصار علينا؟ قال الله تعالى مجيبًا لهم عن هذا السؤال: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أى إنى أعلم من المصلحة الراجحة فى خلق هذا الصنف على المفاسد التى ذكرتموها ما لا تعلمون أنتم، فإنى سأجعل فيهم الأنبياء وأرسل فيهم الرسل ويوجد منهم الصديقون والشهداء والصالحون والعباد والزهاد والأولياء والأبرار والمقربون والعلماء والعاملون والخاشعون والمحبون له تبارك وتعالى المتبعون رسله صلوات الله وسلامه عليهم، وقد ثبت فى الصحيح[1] أن الملائكة إذا صعدت إلى الرب تعالى بأعمال عباده يسألهم وهو أعلم: كيف تركتم عبادى؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون. وذلك لأنهم يتعاقبون فينا ويجتمعون فى صلاة الصبح وفى صلاة العصر، فيمكث هؤلاء ويصعد أولئك بالأعمال كما قال عليه الصلاة والسلام: «**يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل**»[2] فقولهم: أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون من تفسير قوله لهم: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وقيل معنى قوله جوابًا لهم: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ إنى لى حكمة مفصلة فى خلق هؤلاء والحالة ما ذكرتم لا تعلمونها، وقيل: إنه جواب ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ فقال: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أى: من وجود إبليس بينكم وليس هو كما وصفتم أنفسكم به. وقيل بل تضمن قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ طلبًا منهم أن يسكنوا الأرض بدل بنى آدم، فقال الله تعالى لهم: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من أن بقاءكم فى السماء أصلح لكم وأليق بكم. ذكرها الرازى مع غيرها من الأجوبة، والله أعلم.

ذكر أقوال المفسرين ببسط ما ذكرناه

قال ابن جرير: حدثنى القاسم بن الحسن قال: حدثنا الحسين قال: حدثنى الحجاج عن جرير بن حازم ومبارك عن الحسن وأبى بكر عن الحسن وقتادة قالوا: قال الله للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، قال لهم إنى فاعل وهذا معناه أنه أخبرهم بذلك، وقال السدى: استشار الملائكة فى خلق آدم، رواه ابن أبى حاتم قال: وروى عن قتادة نحوه وهذه العبارة إن لم ترجع إلى معنى الإخبار ففيها تساهل، وعبارة الحسن وقتادة فى رواية ابن جرير أحسن والله أعلم. ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾. قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى حدثنا أبو سلمة حدثنا حماد حدثنا عطاء بن السائب عن عبد الرحمن بن سابط أن

---

(١) البخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) مسلم (١٧٩)، وابن ماجه (١٩٥)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

رسول الله ﷺ قال: «دحيت الأرض من مكة وأول من طاف بالبيت الملائكة. فقال الله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ يعني مكة»[1] وهذا مرسل، وفي سنده ضعف وفيه مدرج وهو أن المراد بالأرض مكة، والله أعلم، فإن الظاهر أن المراد بالأرض أعم من ذلك، والله أعلم ﴿خَلِيفَةً﴾ قال السدى في تفسيره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة: أن الله تعالى قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. قالوا: ربنا وما يكون ذلك الخليفة؟ قال: يكون له ذرية يفسدون في الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضًا.

قال ابن جرير: فكان تأويل الآية على هذا ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ مني يخلفني في الحكم بالعدل بين خلقي وإن ذلك الخليفة هو آدم ومن قام مقامه في طاعة الله والحكم بالعدل بين خلقه، وأما الإفساد وسفك الدماء بغير حقها فمن غير خلفائه قال ابن جرير: وإنما معنى الخلافة التي ذكرها الله، إنما هي خلافة قرن منهم قرنًا، قال: والخليفة الفعيلة من قولك: خلف فلان فلانًا في هذا الأمر إذا قام مقامه فيه بعده كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤]، ومن ذلك قيل للسلطان الأعظم: خليفة لأنه خلف الذي كان قبله فقام بالأمر مقامه فكان منه خلفًا، قال: وكان محمد بن إسحاق يقول في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، يقول: ساكنًا وعامرًا يعمرها ويسكنها خلقًا ليس منكم. قال ابن جرير: وحدثنا أبو كريب حدثنا عثمان بن سعيد حدثنا بشر بن عمارة عن أبي روق عن الضحاك عن ابن عباس قال: إن أول من سكن الأرض الجن، فأفسدوا فيها وسفكوا فيها الدماء وقتل بعضهم بعضًا، قال: فبعث الله إليهم إبليس فقتلهم إبليس ومن معه حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال، ثم خلق آدم فأسكنه إياها، فلذلك قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. وقال سفيان الثوري عن عطاء بن السائب عن ابن سابط: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ قال: يعنون به بني آدم، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: قال الله للملائكة: إني أريد أن أخلق في الأرض خلقًا وأجعل فيها خليفة وليس لله عز وجل خلق إلا الملائكة والأرض ليس فيها خلق، قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها. وقد تقدم ما رواه السدى عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من الصحابة: أن الله أعلم الملائكة بما تفعله ذرية آدم فقالت الملائكة ذلك، وتقدم آنفًا ما رواه الضحاك عن ابن عباس أن الجن أفسدوا في الأرض قبل بني آدم، فقالت الملائكة ذلك فقاسوا هؤلاء بأولئك. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا علي بن محمد الطنافسي حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن بكير بن الأخنس عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو، قال: كان الجن بنو الجان في الأرض قبل أن يخلق آدم بألفي سنة، فأفسدوا في الأرض وسفكوا الدماء فبعث الله جندًا من الملائكة فضربوهم حتى ألحقوا بجزائر البحور فقال الله للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾؟ ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]. وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ - إلى قوله - ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣] قال خلق الله

(١) الطبري في تفسيره (٨٧/ ٨٧٩٩).

الملائكة يوم الأربعاء وخلق الجن يوم الخميس وخلق آدم يوم الجمعة، فكفر قوم من الجن فكانت الملائكة تهبط إليهم فى الأرض فتقاتلهم ببغيهم، وكان الفساد فى الأرض، فمن ثم قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها كما أفسدت الجن ويسفك الدماء كما سفكوا، قال ابن أبى حاتم وحدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا مبارك بن فضالة حدثنا الحسن قال: قال الله للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، قال لهم: إنى فاعل، فآفاضو برأيهم فعلمهم علمًا وطوى عنهم علمًا علمه ولم يعلموه، فقالوا بالعلم الذى علمهم أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟ ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. قال الحسن: إن الجن كانوا فى الأرض يفسدون ويسفكون الدماء، ولكن جعل الله فى قلوبهم أن ذلك سيكون، فقالوا بالقول الذى علمهم. وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة فى قوله: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ كعْان الله أعلمهم أنه إذا كان فى الأرض خلق أفسدوا فيها وسفكوا الدماء، فذلك حين قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾. وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى حدثنا هشام الرازى حدثنا ابن المبارك عن معروف يعنى ابن خربوذ المكى عمن سمع أبا جعفر محمد بن على يقول: السجل ملك، وكان هاروت وماروت من أعوانه، وكان له فى كل يوم ثلاث لمحات ينظرهن فى أم الكتاب، فنظر نظرة لم تكن له فأبصر فيها خلق آدم وما فيه من الأمور فأسر ذلك إلى هاروت وماروت وكانا فى أعوانه فلما قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾. قالا ذلك استطالة على الملائكة. وهذا أثر غريب وبتقدير صحته إلى أبى جعفر محمد بن على بن الحسين الباقر فهو نقله عن أهل الكتاب، وفيه نكارة توجب رده، والله أعلم، ومقتضاه أن الذين قالوا ذلك إنما كانوا اثنين فقط، وهو خلاف السياق وأغرب منه ما رواه ابن أبى حاتم أيضًا حيث قال: حدثنا أبى حدثنا هشام بن عبيد الله حدثنا عبد الله بن يحيى بن أبى كثير قال: سمعت أبى يقول: إن الملائكة الذين قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ كانوا عشرة آلاف فخرجت نار من عند الله فأحرقتهم، وهذا أيضًا إسرائيلى منكر كالذى قبله، والله أعلم. قال ابن جريج: وإنما تكلموا بما أعلمهم الله أنه كائن من خلق آدم فقالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء وقال ابن جرير: وقال بعضهم: إنما قالت الملائكة ما قالت: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؛ لأن الله أذن لها فى السؤال عن ذلك بعد ما أخبرها أن ذلك كائن من بنى آدم، فسألته الملائكة فقالت على التعجب منها: وكيف يعصونك يا رب وأنت خالقهم؟ فأجابهم ربهم ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعنى أن ذلك كائن منهم وإن لم تعلموه أنتم، ومن بعض ما ترونه لى طائعًا قال: وقال بعضهم ذلك من الملائكة على وجه الاسترشاد عما لم يعلموه من ذلك، فكأنهم قالوا: يا رب خبرنا - مسألة استخبار منهم لا على وجه الإنكار - واختاره ابن جرير، وقال سعيد عن قتادة قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قال: استشار الملائكة فى خلق آدم، فقالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء - وقد علمت الملائكة أنه لا شىء أكره عند الله من سفك الدماء والفساد فى الأرض - ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ * قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فكان فى علم الله أنه سيكون من تلك الخليفة أنبياء ورسل وقوم صالحون وساكنو الجنة، قال: وذكر لنا عن ابن عباس أنه كان يقول: إن الله لما أخذ فى خلق آدم عليه السلام قالت الملائكة: ما الله خالق

خلقًا أكرم عليه منا ولا أعلم منا فابتلوا بخلق آدم، وكل خلق مبتلى كما ابتليت السموات والأرض بالطاعة فقال الله تعالى: ﴿أَتَيْنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[فصلت: ١١] وقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة، التسبيح: التسبيح والتقديس: الصلاة، وقال السدى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ قال: يقولون: نصلى لك، وقال مجاهد ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، قال: نعظمك ونكبرك، وقال الضحاك: التقديس: التطهير، وقال محمد بن إسحاق: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، قال: لا نعصى ولا نأتى شيئًا تكرهه. وقال ابن جرير: التقديس: هو التعظيم والتطهير.

ومنه قولهم: سبوح قدوس يعنى بقولهم: سبوح تنزيه له، وبقولهم قدوس طهارة وتعظيم له، وكذلك قيل للأرض أرض مقدسة يعنى بذلك المطهرة، فمعنى قول الملائكة إذًا: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ ننزهك ونبرئك مما يضيفه إليك أهل الشرك بك ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ ننسبك إلى ما هو من صفاتك من الطهارة من الأدناس وما أضاف إليك أهل الكفر بك.

وفى صحيح مسلم[1] عن أبى ذر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل: أى الكلام أفضل؟ قال: «**ما اصطفى الله لملائكته سبحان الله وبحمده**» وروى البيهقى عن عبد الرحمن بن قرط أن رسول الله ﷺ ليلة أسرى به سمع تسبيحًا فى السموات العلا «**سبحان العلى الأعلى سبحانه وتعالى**»[2] ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال قتادة: فكان فى علم الله أنه سيكون فى تلك الخليقة أنبياء ورسل وقوم صالحون وساكنو الجنة. وسيأتى عن ابن مسعود وابن عباس وغير واحد من الصحابة والتابعين أقوال فى حكمة قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وقد استدل القرطبى وغيره بهذه الآية على وجوب نصب الخليفة ليفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه ويقطع تنازعهم وينتصر لمظلومهم من ظالمهم ويقيم الحدود ويزجر عن تعاطى الفواحش إلى غير ذلك من الأمور المهمة التى لا تمكن إقامتها إلا بالإمام وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

والإمامة تنال بالنص كما يقوله طائفة من أهل السنة فى أبى بكر، أو بالإيماء إليه كما يقول آخرون منهم، أو باستخلاف الخليفة آخر بعده كما فعل الصديق بعمر بن الخطاب أو بتركه شورى فى جماعة صالحين كذلك كما فعله عمر، أو باجتماع أهل الحل والعقد على مبايعته أو بمبايعته واحد منهم له فيجب التزامها عند الجمهور وحكى على ذلك إمام الحرمين الإجماع. والله أعلم. أو بقهر واحد الناس على طاعته فتجب لئلا يؤدى ذلك إلى الشقاق والاختلاف.

وقد نص عليه الشافعى، وهل يجب الإشهاد على عقد الإمامة؟ فيه خلاف، فمنهم من قال لا يشترط وقيل: بلى ويكفى شاهدان، وقال الجبائى: يجب أربعة وعاقد ومعقود له، كما ترك عمر رضى الله عنه الأمر شورى بين ستة فوقع الأمر على عاقد وهو عبد الرحمن بن عوف، ومعقود له وهو عثمان، واستنبط وجوب الأربعة الشهود من الأربعة الباقين وفى هذا نظر، والله أعلم.

ويجب أن يكون ذكرًا حرًا بالغًا عاقلاً مسلمًا عدلاً مجتهدًا بصيرًا خبيرًا سليم الأعضاء خبيرًا

(١) مسلم (٢٧٣١).
(٢) الطبراني في الأوسط (٤/ ١١٢)، برقم (٣٧٤٢).

بالحروب والآراء قرشيًا على الصحيح ولا يشترط الهاشمى ولا المعصوم من الخطأ خلافًا للغلاة الروافض، ولو فسق الإمام هل ينعزل أم لا؟ فيه خلاف، والصحيح أنه لا ينعزل لقوله عليه الصلاة السلام، «**إلا أن تروا كفرًا بواحًا عندكم من الله فيه برهان**»[١] وهل له أن يعزل نفسه؟ فيه خلاف.

وقد عزل الحسن بن على رضى الله عنه نفسه وسلم الأمر إلى معاوية لكن هذا لعذر وقد مدح على ذلك، فأما نصب إمامين فى الأرض أو أكثر فلا يجوز لقوله عليه الصلاة والسلام «**من جاءكم وأمركم جميع يريد أن يفرق بينكم فاقتلوه كائنًا من كان**»[٢] وهذا قول الجمهور.

وقد حكى الإجماع على ذلك غير واحد منهم إمام الحرمين، وقالت الكرامية: يجوز اثنان فأكثر كما كان على ومعاوية إمامين واجبى الطاعة، قالوا: وإذا جاز بعث نبيين فى وقت واحد وأكثر جاز ذلك فى الإمامة لأن النبوة أعلى رتبة بلا خلاف.

وحكى إمام الحرمين عن الأستاذ أبى إسحاق أنه جوز نصب إمامين فأكثر إذا تباعدت الأقطار واتسعت الأقاليم بينهما، وتردد إمام الحرمين فى ذلك، قلت: وهذا يشبه حال الخلفاء بنى العباس بالعراق والفاطميين بمصر والأمويين بالمغرب ولنقرر هذا كله فى موضع آخر من كتاب «**الأحكام**» إن شاء الله تعالى.

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

هذا مقام ذكر الله تعالى فيه شرف آدم على الملائكة بما اختصه به من علم أسماء كل شىء دونهم وهذا كان بعد سجودهم له، وإنما قدم هذا الفصل على ذاك لمناسبة ما بين هذا المقام وعدم علمهم بحكمة خلق الخليفة حين سألوا عن ذلك، فأخبرهم تعالى بأنه يعلم ما لا يعلمون، ولهذا ذكر الله هذا المقام عقيب هذا ليبين لهم شرف آدم بما فضل به عليهم فى العلم فقال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ قال السدى عمن حدثه عن ابن عباس: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ قال: علمه أسماء ولده إنسانًا إنسانًا والدواب فقيل: هذا الحمار، هذا الجمل، هذا الفرس، وقال الضحاك عن ابن عباس: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ قال: هى هذه الأسماء التى يتعارف بها الناس إنسان وداب وسماء وأرض وسهل وبحر وخيل وحمار وأشباه ذلك من الأمم وغيرها، وروى ابن أبى حاتم وابن جرير من حديث عاصم بن كليب عن سعيد بن معبد عن ابن عباس: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ قال: علمه اسم الصحفة والقدر؟ قال نعم حتى الفسوة والفسية، وقال مجاهد: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ قال: علمه اسم كل دابة وكل طير وكل شىء، وكذلك روى عن سعيد بن جبير وقتادة وغيرهم من السلف أنه علمه أسماء كل شىء، وقال الربيع فى رواية عنه: أسماء الملائكة. وقال حميد الشامى: أسماء

---

(١) البخاري (٧٠٥٦)، من حديث عبادة بن الصامت.

(٢) مسلم (١٨٥٢)، والنسائي (٤٠٢٠) من حديث عَرْفَجَةَ.

النجوم. وقال عبد الرحمن بن زيد: علمه أسماء ذريته كلهم، واختار ابن جرير أنه علمه أسماء الملائكة وأسماء الذرية لأنه قال: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ وهذا عبارة عما يعقل وهذا الذى رجح به ليس بلازم، فإنه لا ينفى أن يدخل معهم غيرهم، ويعبر عن الجميع بصيغة من يعقل للتغليب كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[النور: ٤٥] وقد قرأ عبد الله بن مسعود ثم عرضهن، وقرأ أبى بن كعب ثم عرضها أى السموات. والصحيح أنه علمه أسماء الأشياء كلها ذواتها وصفاتها وأفعالها كما قال ابن عباس: حتى الفسوة والفسية يعنى أسماء الذوات والأفعال المكبر والمصغر، ولهذا قال البخارى[1] فى تفسير هذه الآية فى كتاب التفسير من صحيحه: حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا هشام حدثنا قتادة عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ قال: وقال لى خليفة: حدثنا يزيد بن زريع حدثنا سعيد عن قتادة عن أنس عن النبى ﷺ قال: «**يجتمع المؤمنون: يوم القيامة فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا؟ فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شىء فاشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا، فيقول: لست هناكم، ويذكر ذنبه فيستحى. فيول: ائتوا نوحًا فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض فيأتونه فيقول: لست هناكم، ويذكر سؤاله ربه ما ليس له به علم فيستحى. فيقول: ائتوا خليل الرحمن، فيأتونه فيقول: لست هناكم، فيقول: ائتوا موسى عبدًا كلمه الله وأعطاه التوراة فيقول: لست هناكم. فيذكر قتل النفس بغير نفس فيستحى من ربه. فيقول: ائتوا عيسى عبد الله ورسوله وكلمة الله وروحه فيأتونه فيقول: لست هناكم ائتوا محمدًا عبدًا غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فيأتونى فأنطلق حتى أستأذن على ربى فيأذن لى فإذا رأيت ربى وقعت ساجدًا فيدعنى ما شاء الله ثم يقال: ارفع رأسك وسل تعطه وقل يسمع واشفع تشفع، فأرفع رأسى فأحمده بتحميد يعلمنيه ثم أشفع فيحد لى حدًا فأدخلهم الجنة ثم أعود إليه فإذا رأيت ربى مثله ثم أشفع فيحد لى حدًا فأدخلهم الجنة ثم أعود الثالثة ثم أعود الرابعة فأقول: ما بقى فى النار إلا من حبسه القرآن ووجب عليه الخلود**» هكذا ساق البخارى هذا الحديث ههنا، وقد رواه مسلم والنسائى من حديث هشام وهو ابن أبى عبد الله الدستوائى عن قتادة به، وأخرجه مسلم والنسائى وابن ماجه من حديث سعيد وهو ابن أبى عروبة عن قتادة، ووجه إيراده ههنا، والمقصود منه قوله عليه الصلاة والسلام: «**فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شىء**». فدل هذا على أنه علمه أسماء جميع المخلوقات، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ يعنى المسميات كما قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة، قال: ثم عرض تلك الأسماء على الملائكة ﴿فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ وقال السدى فى تفسيره: عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ ثم عرض الخلق على الملائكة، وقال ابن جريج عن مجاهد ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ عرض: أصحاب الأسماء على الملائكة، وقال ابن جرير: حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنى الحجاج عن جرير بن حازم ومبارك بن فضالة عن الحسن وأبى بكر عن الحسن وقتادة قالا: علمه اسم كل شىء، وجعل يسمى كل شىء باسمه.

(١) البخاري (٤٤٧٦).

وعرضت عليه أمة أمة، وبهذا الإسناد عن الحسن وقتادة فى قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ إنى لم أخلق خلقًا إلا كنتم أعلم منه فأخبرونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين، وقال الضحاك عن ابن عباس: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ إن كنتم تعلمون أنى لم أجعل فى الأرض خليفة، وقال السدى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أن بنى آدم يفسدون فى الأرض ويسفكون الدماء، وقال ابن جرير: وأولى الأقوال فى ذلك تأويل ابن عباس ومن قال بقوله، ومعنى ذلك فقال: أنبئونى بأسماء من عرضته عليكم أيها الملائكة القائلون أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟. من غيرنا أم منا فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك. إن كنتم صادقين فى قيلكم إنى إن جعلت خليفتى فى الأرض من غيركم عصانى وذريته وأفسدوا وسفكوا الدماء وإن جعلتكم فيها أطعتمونى واتبعتم أمرى بالتعظيم لى والتقديس، فإذا كنتم لا تعلمون أسماء هؤلاء الذين عرضت عليكم وأنتم تشاهدونهم فأنتم بما هو غير موجود من الأمور الكائنة التى لم توجد أحرى أن تكونوا غير عالمين ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ هذا تقديس وتنزيه من الملائكة لله تعالى أن يحيط أحد بشىء من علمه إلا بما شاء وأن يعلموا شيئًا إلا ما علمهم الله تعالى ولهذا قالوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أى العليم بكل شىء الحكيم فى خلقك وأمرك وفى تعليمك من تشاء ومنعك من تشاء لك الحكمة فى ذلك والعدل التام. قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا حفص بن غياث عن حجاج عن ابن أبى مليكة عن ابن عباس: سبحان الله، قال: تنزيه الله نفسه عن السوء، قال: ثم قال عمر لعلى وأصحابه عنده: لا إله إلا الله قد عرفناها، فما سبحان الله؟ فقال لى على: كلمة أحبها الله لنفسه ورضيها وأحب أن تقال، قال: وحدثنا أبى حدثنا ابن نفيل حدثنا النضر بن عربى قال: سأل رجل ميمون بن مهران عن سبحان الله، قال: اسم يعظم الله به، ويحاشى به من السوء.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ قال زيد بن أسلم: قال: أنت جبرائيل أنت ميكائيل أنت إسرافيل حتى عدد الأسماء كلها حتى بلغ الغراب، وقال مجاهد فى قول الله: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ قال اسم الحمامة والغراب واسم كل شىء.

وروى عن سعيد بن جبير والحسن وقتادة نحو ذلك، فلما ظهر فضل آدم عليه السلام على الملائكة عليهم السلام فى سرده ما علمه الله تعالى من أسماء الأشياء، قال الله تعالى للملائكة: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أى ألم أتقدم إليكم إنى أعلم الغيب الظاهر والخفى كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧] وكما قال تعالى إخبارًا عن الهدهد أنه قال لسليمان: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٥-٢٦] وقيل فى معنى قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ غير ما ذكرناه، فروى الضحاك عن ابن عباس ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ قال: يقول: أعلم السر كما أعلم العلانية يعنى ما كتم إبليس فى نفسه من الكبر والاغترار.

وقال السدى: عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من

الصحابة قال: قولهم ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ الآية، فهذا الذى أبدوا ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ يعنى ما أسر إبليس فى نفسه من الكبر وكذلك قال سعيد بن جبير ومجاهد والسدى والضحاك والثورى. واختاره مالك وابن جرير وقال أبو العالية والربيع بن أنس والحسن وقتادة: هو قولهم لم يخلق ربنا خلقًا إلا كنا أعلم منه وأكرم عليه منه، وقال أبو جعفر الرازى: عن الربيع بن أنس ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ فكان الذى أبدوا هو قولهم: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء، وكان الذى كتموا بينهم قولهم لم يخلق ربنا خلقًا إلا كنا أعلم منه وأكرم، فعرفوا أن الله فضل عليهم آدم فى العلم والكرم، وقال ابن جرير: حدثنا يونس حدثنا ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قصة الملائكة وآدم، فقال الله للملائكة: كما لم تعلموا هذه الأسماء فليس لكم علم إنما أردت أن أجعلهم ليفسدوا فيها، هذا عندى قد علمته ولذلك أخفيت عنكم أنى أجعل فيها من يعصينى ومن يطيعنى، قال: وقد سبق من الله ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩] قال: ولم تعلم الملائكة ذلك ولم يدروه، قال: فلما رأوا ما أعطى الله آدم من العلم أقروا له بالفضل. وقال ابن جرير: وأولى الأقوال فى ذلك قول ابن عباس وهو أن معنى قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ وأعلم مع علمى غيب السموات والأرض ما تظهرونه بألسنتكم ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ تخفون فى أنفسكم، فلا يخفى على شىء سواء عندى سرائركم وعلانيتكم والذى أظهروه بألسنتهم قولهم: أتجعل فيها من يفسد فيها، والذى كانوا يكتمون ما كان منطويًا عليه إبليس من الخلاف على الله فى أوامره والتكبر عن طاعته، قال: وصح ذلك كما تقول العرب قتل الجيش وهزموا، وإنما قتل الواحد أو البعض وهزم الواحد أو البعض، فيخرج الخبر عن المهزوم منه والمقتول مخرج الخبر عن جميعهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ [الحجرات: ٤] ذكر أن الذى نادى إنما كان واحدًا من بنى تميم، قال: وكذلك قوله: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾

وهذه كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم امتن بها على ذريته حيث أخبر أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم، وقد دل على ذلك أحاديث أيضًا كثيرة منها حديث الشفاعة المتقدم، وحديث موسى عليه السلام «رب أرنى آدم الذى أخرجنا ونفسه من الجنة، فلما اجتمع به قال: أنت آدم الذى خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته» قال وذكر الحديث كما سيأتى إن شاء الله. وقال ابن جرير[1]: حدثنا أبو كريب، حدثنا عثمان بن سعيد، حدثنا بشر بن عمارة عن أبى روق، عن الضحاك، عن ابن عباس، قال: كان إبليس من حى من أحياء الملائكة يقال لهم الجن، خلقوا من نار السموم من بين الملائكة، وكان اسمه الحارث، وكان خازنًا من خزان الجنة، قال: وخلقت الملائكة كلهم من نور غير هذا الحى، قال: وخلقت الجن الذين ذكروا فى القرآن من مارج من نار وهو لسان النار الذى يكون في طرفها إذا ألهبت، قال: وخلق الانسان من طين، فأول من سكن الأرض الجن فأفسدوا فيها، وسفكوا الدماء، وقتل بعضهم بعضًا، قال: فبعث الله إليهم إبليس فى جند من الملائكة

(١) في التفسير (١/ ٢٠١).

وهم هذا الحى الذى يقال لهم الجن فقتلهم إبليس ومن معه حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال فلما فعل إبليس ذلك اغتر فى نفسه، فقال: قد صنعت شيئًا لم يصنعه أحد، قال: فاطلع الله على ذلك من قلبه ولم تطلع عليه الملائكة الذين كانوا معه فقال الله للملائكة الذين كانوا معه: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. فقالت الملائكة مُجيبين له أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء كما أفسدت الجن وسفكت الدماء، وإنما بعثتنا عليهم لذلك؟ فقال الله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يقول: إنى قد اطلعت من قلب إبليس على ما لم تطلعوا عليه، من كبره واغتراره، قال: ثم أمر بتربة آدم فرفعت، فخلق الله آدم من طين لازب، واللازب اللازج الصلب من حمإ مسنون منتن، وإنما كان حمأ مسنونًا بعد التراب، فخلق منه آدم بيده، قال: فمكث أربعين ليلة جسدًا ملقى، وكان إبليس يأتيه فيضربه برجله فيصلصل قال فيصوت، أى فهو قول الله تعالى ﴿مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾[الرحمن: ١٤] يقول كالشىء المنفرج الذى ليس بمصمت، قال: ثم يدخل فى فيه ويخرج من دبره، ويدخل من دبره ويخرج من فيه، ثم يقول: لست شيئًا للصلصلة ولشىء ما خلقت، ولئن سلطت عليك لأهلكنك، ولئن سلطت على لأعصينك، قال: فلما نفخ الله فيه من روحه أتت النفخة من قبل رأسه فجعل لا يجرى شىء منها فى جسده إلا صار لحمًا ودمًا، فلما انتهت النفخة إلى سرته نظر إلى جسده فأعجبه ما رأى من جسده فذهب لينهض فلم يقدر، فهو قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾[الإسراء: ١١] قال ضجرًا لا صبر له على سراء ولا ضراء قال: فلما تمت النفخة فى جسده عطس فقال: الحمد لله رب العالمين بإلهام الله، فقال الله له: «يرحمك الله يا آدم» قال: ثم قال تعالى: للملائكة الذين كانوا مع إبليس خاصة دون الملائكة الذين فى السموات: اسجدوا لآدم فسجدوا كلهم أجمعون إلا إبليس أبى واستكبر لما كان حدث نفسه من الكبر والاغترار، فقال: لا أسجد له وأنا خير منه وأكبر سنًا وأقوى خلقًا، خلقتنى من نار وخلقته من طين، يقول: إن النار أقوى من الطين، قال: فلما أبى إبليس أن يسجد أبلسه الله، أى آيسه من الخير كله وجعله شيطانًا رجيمًا عقوبة لمعصيته، ثم علم آدم الأسماء كلها وهى هذه الأسماء التى يتعارف بها الناس: إنسان ودابة وأرض وسهل وبحر وجبل وحمار وأشباه ذلك من الأمم وغيرها ثم عرض هذه الأسماء على أولئك الملائكة يعنى الملائكة الذين كانوا مع إبليس الذين خلقوا من نار السموم، وقال لهم: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أى يقول: أخبرونى بأسماء هؤلاء ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[البقرة: ٣١] إن كنتم تعلمون، لم أجعل فى الأرض خليفة، قال: فلما علمت الملائكة موجدة الله عليهم فيما تكلموا به من علم الغيب الذى لا يعلمه غيره الذى ليس لهم به علم ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ﴾[البقرة: ٣٢] تنزيهًا لله من أن يكون أحد يعلم الغيب غيره: تبنا إليك ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ تبريًا منهم من علم الغيب إلا ما علمتنا كما علمت آدم فقال: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ يقول أخبرهم بأسمائهم ﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ أيتها الملائكة خاصة ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ولا يعلم غيرى ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ يقول: ما تظهرون ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ يقول: أعلم السر كما أعلم العلانية، يعنى ما كتم إبليس فى نفسه من الكبر والاغترار، هذا سياق غريب وفيه أشياء فيها نظر يطول مناقشتها وهذا الإسناد إلى ابن عباس يروى به تفسير مشهور، وقال السدى فى تفسيره عن أبى مالك، وعن أبى صالح، عن ابن عباس وعن مرة، عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب

النبى ﷺ : لما فرغ الله من خلق ما أحب استوى على العرش . فجعل إبليس على ملك السماء الدنيا، وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم الجن، وإنما سموا الجن لأنهم خزان الجنة، وكان إبليس مع ملكه خازنًا فوقع فى صدره كبر وقال: ما أعطانى الله هذا إلا لمزية لى على الملائكة، فلما وقع ذلك الكبر فى نفسه اطلع الله على ذلك منه، فقال الله للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فقالوا: ربنا وما يكون ذلك الخليفة؟ قال: يكون له ذرية يفسدون فى الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضًا، قالوا: ربنا ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعنى من شأن إبليس فبعث الله جبريل إلى الأرض ليأتيه بطين منها، فقالت الأرض: إنى أعوذ بالله منك أن تقبض منى أو تشيننى، فرجع ولم يأخذ، وقال: ربِّ منى عاذت بك فأعذتها، فبعث ميكائيل فعاذت منه فأعاذها، فرجع فقال كما قال جبريل، فبعث ملك الموت فعاذت منه فقال: وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره، فأخذ من وجه الأرض وخلط ولم يأخذ من مكان واحد وأخذ من تربة حمراء وبيضاء وسوداء فلذلك خرج بنو آدم مختلفين فصعد به فبل التراب حتى عاد طينًا لازبًا، واللازب هو الذى يلتزق بعضه ببعض، ثم قال للملائكة: ﴿إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: ٧١-٧٢] فخلقه الله بيده لئلا يتكبر إبليس عنه ليقول له: تتكبر عما عملت بيدى ولم أتكبر أنا عنه بخلقه بشرًا، فكان جسدًا من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة، فمرت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوه، فكان أشدهم فزعًا منه إبليس فكان يمر به فيضربه فيصوت الجسد كما يصوت الفخار يكون له صلصلة، فذلك حين يقول: ﴿مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ [الرحمٰن: ١٤] ويقول لأمر ما خلقت، ودخل من فيه فخرج من دبره وقال للملائكة: لا ترهبوا من هذا فإن ربكم صمد وهذا أجوف، لئن سلطت عليه لأهلكنه، فلما بلغ الحين الذى يريد الله عز وجل أن ينفخ فيه الروح، قال للملائكة: إذا نفخت فيه من روحى فاسجدوا له، فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح فى رأسه عطس فقالت الملائكة قل الحمد لله، فقال الحمد لله، فقال له الله «رحمك ربك» فلما دخلت الروح فى عينيه نظر إلى ثمار الجنة، فلما دخل الروح إلى جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن تبلغ الروح رجليه عجلان إلى ثمار الجنة فذلك حين يقول الله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧] ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣٠-٣١]، أبى واستكبر وكان من الكافرين، قال الله له: ما منعك أن تسجد إذ أمرتك لما خلقت بيدى؟ قال: أنا خير منه لم أكن لأسجد لبشر خلقته من طين، قال الله له: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ﴾ [الأعراف: ١٣] : يعنى ما ينبغى لك ﴿أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣] والصغار هو الذل، قال: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ ثم عرض الخلق على الملائكة فقال: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أن بنى آدم يفسدون فى الأرض ويسفكون الدماء، فقالوا له: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ قال الله: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ قال: قولهم ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ فهذا الذى أبدوا ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ يعنى ما أسر إبليس فى نفسه من الكبر، فهذا الإسناد إلى هؤلاء الصحابة مشهور فى تفسير السدى ويقع فيه إسرائيليات كثيرة، فلعل بعضها مدرج ليس من كلام الصحابة، أو أنهم أخذوه من بعض الكتب

المتقدمة، والله أعلم. والحاكم يروى فى مستدركه بهذا الإسناد بعينه ويقول أشياء على شرط البخارى.

والغرض أن الله تعالى لما أمر الملائكة بالسجود لآدم، دخل إبليس فى خطابهم لأنه وإن لم يكن من عنصرهم إلا أنه كان قد تشبه بهم وتوسم بأفعالهم، فلهذا دخل فى الخطاب لهم وذم فى مخالفة الأمر، وسنبسط المسألة إن شاء الله تعالى عند قوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾[الكهف: ٥٠] ولذا قال محمد بن إسحاق عن خلاد عن عطاء عن طاوس عن ابن عباس[1]، قال: كان إبليس قبل أن يركب المعصية من الملائكة اسمه عزازيل، وكان من سكان الأرض وكان من أشد الملائكة اجتهادًا، وأكثرهم علمًا، فذلك دعاه إلى الكبر، وكان من حى يسمونه جنًّا، وفى رواية عن خلاد عن عطاء عن طاوس أو مجاهد عن ابن عباس أو غيره بنحوه، وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا عباد يعنى ابن العوام عن سفيان بن حسين عن يعلى بن مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، قال: كان إبليس اسمه عزازيل، وكان من أشراف الملائكة من ذوى الأجنحة الأربعة، ثم أبلس بعد، وقال سنيد، عن حجاج عن ابن جريج، قال: قال ابن عباس: كان إبليس من أشراف الملائكة وأكرمهم قبيلة، وكان خازنًا على الجنان، وكان له سلطان سماء الدنيا، وكان له سلطان على الأرض، وهكذا روى الضحاك وغيره عن ابن عباس سواء. وقال صالح مولى التوأمة عن ابن عباس: إن من الملائكة قبيلاً يقال لهم الجن، وكان إبليس منهم، وكان يسوس ما بين السماء والأرض، فعصى، فمسخه الله شيطانًا رجيمًا، رواه ابن جرير، وقال قتادة عن سعيد بن المسيب: كان إبليس رئيس ملائكة سماء الدنيا، وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار حدثنا عدى بن أبى عدى عن عوف عن الحسن، قال: ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط، وإنه لأصل الجن كما أن آدم أصل الإنس، وهذا إسناد صحيح عن الحسن، وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم سواء. وقال شهر بن حوشب: كان إبليس من الجن الذين طردتهم الملائكة فأسره بعض الملائكة فذهب به إلى السماء، رواه ابن جرير. وقال سنيد بن داود: حدثنا هشيم أنبأنا عبد الرحمن بن يحيى عن موسى بن نمير وعثمان بن سعيد بن كامل عن سعد بن مسعود، قال: كانت الملائكة تقاتل الجن فسبى إبليس وكان صغيرًا فكان مع الملائكة يتعبد معها فلما أمروا بالسجود لآدم سجدوا، فأبى إبليس، فلذلك قال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾[الكهف: ٥٠] وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن سنان القزاز حدثنا أبو عاصم عن شريك عن رجل عن عكرمة عن ابن عباس قال: إن الله خلق خلقًا فقال: اسجدوا لآدم فقالوا: لا نفعل، فبعث الله عليهم نارًا فأحرقتهم، ثم خلق خلقًا آخر فقال: ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾[ص: ٧١] اسجدوا لآدم قال: فأبوا، فبعث الله عليهم نارًا فأحرقتهم، ثم خلق هؤلاء فقال: اسجدوا لآدم، قالوا: نعم، وكان إبليس من أولئك الذين أبوا أن يسجدوا لآدم - وهذا غريب ولا يكاد يصح إسناده فإن فيه رجلاً مبهمًا ومثله لا يحتج به، والله أعلم.

وقال قتادة فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ فكانت الطاعة لله والسجدة لآدم، أكرم الله آدم بها أن أسجد له ملائكته.

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير (١٥/٢٥٩).

وقال قتادة فى قوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ حسد عدو الله إبليس آدم عليه السلام ما أعطاه من الكرامة، وقال: أنا نارى وهذا طينى، وكان بدء الذنوب الكبر، استكبر عدو الله أن يسجد لآدم عليه السلام.

وقال بعض الناس: كان هذا سجود تحية وسلام وإكرام كما قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾ [يوسف: ١٠٠].

وقد كان هذا مشروعًا في الأمم الماضية ولكنه نسخ في ملتنا، قال معاذ: قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لأساقفتهم وعلمائهم، فأنت يا رسول الله أحق أن يسجد لك، فقال: «**لا لو كنت آمرًا بشرًا أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها**»[1].

ورجحه الرازي، وقال بعضهم بل كانت السجدة لله وآدم قبله فيها كما قال تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾ [الإسراء: ٧٨] وفي هذا التنظير نظر والأظهر أن القول الأول أولى، والسجدة لآدم إكرامًا وإعظامًا واحترامًا وسلامًا، وهى طاعة لله عز وجل لأنها امتثال لأمره تعالى، وقد قواه الرازي في تفسيره وضعف ما عداه من القولين الآخرين وهما كونه جعل قبله إذ لا يظهر فيه شرف والآخر أن المراد بالسجود الخضوع لا الانحناء ووضع الجبهة على الأرض وهو ضعيف كما قال، وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤] حسد عدو الله إبليس آدم عليه السلام ما أعطاه من الكرامة، وقال: أنا ناري وهذا طيني وكان بدء الذنوب الكبر، واستكبر عدو الله أن يسجد لآدم عليه السلام.

قلت وقد ثبت فى الصحيح[2] «**لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر**» وقد كان فى قلب إبليس من الكبر والكفر والعناد ما اقتضى طرده وإبعاده عن جناب الرحمة وحضرة القدس، وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو أسامة حدثنا صالح بن حيان حدثنا عبد الله بن بريدة: قوله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ من الذين أبوا فأحرقتهم النار، وقال أبو جعفر عن الربيع عن أبى العالية ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ يعنى من العاصين، وقال السدى ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ الذين لم يخلقهم الله يومئذ يكونون بعد، وقال محمد بن كعب القرظى: ابتدأ الله خلق إبليس على الكفر والضلالة وعمل بعمل الملائكة فصيره الله إلى ما أبتدأه عليه خلقه على الكفر، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ [البقرة: ٣٤] فكانت الطاعة لله والسجدة لآدم، أكرم الله آدم بها أن أسجد له ملائكته. قال بعض المعربين: وكان من الكافرين أى: وصار من الكافرين بسبب امتناعه كما قال ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣] وقال: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥] وقال الشاعر:

بتيهاء قفر والمطى كأنها ... قطا الحزن قد كانت فراخًا بيوضها

أى قد صارت، وقال ابن فورك: تقديره: وقد كان فى علم الله من الكافرين، ورجحه القرطبى، وذكر ههنا مسألة فقال: قال علماؤنا: من أظهر الله على يديه ممن ليس بنبى كرامات وخوارق للعادات

---

(١) أحمد (٢١٤٨) ورجاله ثقات.

(٢) مسلم (٩١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

فليس ذلك دالاً على ولايته خلافًا لبعض الصوفية والرافضة، هذا لفظه، ثم استدل على ما قال: بأنا لا نقطع بهذا الذى جرى الخارق على يديه أنه يوافى الله بالإيمان وهو لا يقطع لنفسه لذلك يعنى والولى الذى يقطع له بذلك الأمر، قلت: وقد استدل بعضهم على أن الخارق قد يكون على يدى غير الولى بل قد يكون على يد الفاجر والكافر أيضًا بما ثبت عن ابن صياد [1] أنه قال: هو الدخ حين خبأ له رسول الله ﷺ ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الدخان: ١٠] وبما كان يصدر عنه أنه كان يملأ الطريق إذا غضب حتى ضربه عبد الله بن عمر، وبما ثبتت به الأحاديث عن الدجال بما يكون على يديه من الخوارق الكثيرة من أن يأمر السماء أن تمطر فتمطر، والأرض أن تنبت فتنبت، وتتبعه كنوز الأرض مثل اليعاسيب، وأنه يقتل ذلك الشاب ثم يحييه إلى غير ذلك من الأمور المهولة. وقد قال يونس بن عبد الأعلى الصدفى: قلت: للشافعى: كان الليث بن سعد يقول: إذا رأيتم الرجل يمشى على الماء: فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة، فقال الشافعى: قصر الليث رحمه الله، بل إذا رأيتم الرجل يمشى على الماء ويطير فى الهواء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة، وقد حكى الرازى وغيره قولين للعلماء: هل المأمور بالسجود لآدم خاص بملائكة الأرض أو عام بملائكة السموات والأرض، وقد رجح كلا من القولين طائفة، وظاهر الآية الكريمة العموم ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ فهذه أربعة أوجه مقوية للعموم، والله أعلم.

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾

يقول الله تعالى إخبارًا عما أكرم به آدم: بعد أن أمر الملائكة بالسجود له فسجدوا إلا إبليس إنه أباحه الجنة يسكن منها حيث يشاء ويأكل منها ما شاء رغدًا أى هنيئًا واسعًا طيبًا، وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه [2] من حديث محمد بن عيسى الدامغانى، حدثنا سلمة بن الفضل عن ميكائيل عن ليث عن إبراهيم التيمى عن أبيه عن أبى ذر، قال: قلت: يا رسول الله أرأيت آدم أنبيًا كان؟ قال: «نعم نبيًا رسولاً كلمه الله قبلاً» - يعنى عيانًا - فقال: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ وقد اختلف فى الجنة التى أسكنها آدم أهى فى السماء أم فى الأرض؟ والأكثرون على الأول، وحكى القرطبى عن المعتزلة والقدرية القول بأنها فى الأرض، وسيأتى تقرير ذلك فى سورة الأعراف إن شاء الله تعالى، وسياق الآية يقتضى أن حواء خلقت قبل دخول آدم الجنة، وقد صرح بذلك محمد بن إسحاق حيث قال: لما فرغ الله من معاتبة إبليس أقبل على آدم وقد علمه الأسماء كلها فقال ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ قال: ثم ألقيت السنة على آدم فيما بلغنا عن أهل الكتاب من أهل التوراة وغيرهم من أهل العلم عن ابن عباس وغيره، ثم أخذ ضلعًا من أضلاعه من شقه الأيسر ولأم مكانه

---

(١) البخاري (١٣٥٥)، ومسلم (١٦٩) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما.

(٢) حسن لغيره: وهو جزء من حديث طويل عزاه الهيثمي في «المجمع» (٨/ ١٩٨) للطبراني في الأوسط، وقال: وفيه المسعودي وقد اختلط.

لحمًا، وآدم نائم لم يهب من نومه حتى خلق الله من ضلعه تلك زوجته حواء فسواها امرأة ليسكن إليها، فلما كشف عنه السنة وهب من نومه رآها إلى جنبه، فقال فيما يزعمون والله أعلم: «لحمي ودمي وروحي» فسكن إليها، فلما زوجه الله وجعل له سكنًا من نفسه قال له قبلاً: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ويقال: إن خلق حواء كان بعد دخول الجنة، كما قال السدى فى خبر ذكره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة: أخرج إبليس من الجنة وأسكن آدم الجنة فكان يمشى فيها وَحْشًا ليس له زوج يسكن إليه، فنام نومة فاستيقظ وعند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه، فسألها: ما أنت؟ قالت: امرأة، قال: ولم خلقت؟ قالت: لتسكن إلى. قالت له الملائكة: ينظرون ما بلغ من علمه، ما اسمها يا آدم؟ قال: سميت حواء، قالوا: ولِمَ حواء؟ قال: إنها خلقت من شيء حيٍّ. قال الله: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾.

وأما قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ فهو اختبار من الله تعالى وامتحان لآدم، وقد اختلف فى هذه الشجرة ما هى، فقال السدى عمن حدثه عن ابن عباس: الشجرة التى نهى عنها آدم عليه السلام هى الكرم، وكذا قال سعيد بن جبير والسدى والشعبى وجعدة بن هبيرة ومحمد بن قيس، وقال السدى أيضًا فى خبر ذكره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ هى الكرم. وتزعم يهود أنها الحنطة. وقال ابن جرير وابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن اسماعيل بن سمرة الأحمسى حدثنا أبو يحيى الحمانى حدثنا النضر أبو عمر الخراز عن عكرمة عن ابن عباس قال: الشجرة التى نهى عنها آدم عليه السلام هى السنبلة، وقال عبد الرزاق أنبأنا ابن عيينة وابن المبارك عن الحسن بن عمارة عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: هى السنبلة وقال محمد بن إسحاق عن رجل من أهل العلم عن مجاهد عن ابن عباس قال: هى البر وقال ابن جرير: وحدثنى المثنى بن إبراهيم، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا القاسم حدثنى رجل من بنى تميم أن ابن عباس كتب إلى أبى الجلد يسأله عن الشجرة التى أكل منها آدم والشجرة التى تاب عندها آدم، فكتب إليه أبو الجلد: سألتنى عن الشجرة التى نهى عنها آدم، وهى السنبلة، وسألتنى عن الشجرة التى تاب عندها آدم وهى الزيتونة، وكذلك فسره الحسن البصرى ووهب بن منبه وعطية العوفى وأبو مالك ومحارب بن دثار وعبد الرحمن بن أبى ليلى.

وقال محمد بن إسحاق عن بعض أهل اليمن عن وهب بن منبه أنه كان يقول: هى البر ولكن الحبة منها فى الجنة كَكُلَى البقر وألين من الزبد وأحلى من العسل، وقال سفيان الثورى عن حصين عن أبى مالك ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ قال: النخلة وقال ابن جرير عن مجاهد ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ قال التينة، وبه قال قتادة وابن جريج، وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية: كانت الشجرة من أكل منها أحدث، ولا ينبغى أن يكون فى الجنة حدث، وقال عبد الرزاق: حدثنا عمر بن عبد الرحمن بن مهرب قال: سمعت وهب بن منبه يقول: لما أسكن الله آدم وزوجته الجنة ونهاه عن أكل الشجرة، وكانت شجرة غصونها متشعب بعضها في بعض، وكان لها ثمر تأكله الملائكة لخلدهم وهى الثمرة التى نهى الله عنها آدم وزوجته.

فهذه أقوال ستة فى تعيين هذه الشجرة. قال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله: والصواب فى ذلك أن يقال: إن الله جل ثناؤه: نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها فأكلا منها ولا علم عندنا بأى شجرة كانت على التعيين، لأن الله لم يضع لعباده دليلاً على ذلك فى القرآن ولا من السنة الصحيحة، وقد قيل: كانت شجرة البر وقيل: كانت شجرة العنب وقيل: كانت شجرة التين، وجائز أن تكون واحدة منها، وذلك علم إذا علم لم ينفع العالم به علمه، وإن جهله جاهل لم يضره جهله به، والله أعلم، وكذلك رجح الإبهام فخر الدين الرازى فى تفسيره وغيره وهو الصواب، وقوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾ يصح أن يكون الضمير فى قوله عنها عائدًا إلى الجنة فيكون معنى الكلام كما قرأ عاصم بن بهدلة وهو ابن أبى النجود فأزلهما أى: فنحاهما ويصح أن يكون عائدًا على أقرب المذكورين وهو الشجرة فيكون معنى الكلام كما قال الحسن وقتادة: فأزلهما أى من قبل الزلل، فعلى هذا يكون تقدير الكلام ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾ أى بسببها، كما قال تعالى: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات: ٩] أى يصرف بسببه من هو مأفوك، ولهذا قال تعالى ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ أى من اللباس والمنزل الرحب والرزق الهنىء والراحة ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أى قرار وأرزاق وآجال - إلى حين - أى إلى وقت ومقدار معين ثم تقوم القيامة، وقد ذكر المفسرون من السلف كالسدى بأسانيده وأبى العالية ووهب بن منبه وغيرهم ههنا أخبارًا إسرائيلية عن قصة الحية وإبليس، وكيف جرى من دخول إبليس إلى الجنة ووسوسته، وسنبسط ذلك إن شاء الله فى سورة الأعراف، فهناك القصة أبسط منها ههنا، والله الموفق، وقد قال ابن أبى حاتم [1] ههنا: حدثنا على بن الحسن بن إشكاب، حدثنا على بن عاصم عن سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن الحسن عن أبى بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله خلق آدم رجلاً طوالاً كثير شعر الرأس كأنه نخلة سحوق، فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه، فأول ما بدا منه عورته، فلما نظر إلى عورته جعل يشتد فى الجنة، فأخذت شعره شجرةٌ فنازعها فناداه الرحمن: يا آدم منى تفر فلما سمع كلام الرحمن قال: يا رب لا، ولكن استحياء**» [2]. قال: وحدثنى جعفر بن أحمد بن الحكم القرشى سنة أربع وخمسين ومائتين، حدثنا سليمان بن منصور بن عمار حدثنا على بن عاصم عن سعيد عن قتادة عن أبى بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لما ذاق آدم من الشجرة فر هاربًا فتعلقت شجرة بشعره فنودى: يا آدم أفرارًا منى؟ قال: بل حياء منك، قال: يا آدم اخرج من جوارى فبعزتى لا يساكننى فيها من عصانى، ولو خلقت مثلك ملء الأرض خلقًا ثم عصونى لأسكنتهم دار العاصين**» هذا حديث غريب وفيه انقطاع بل إعضال بين قتادة وأبى بن كعب رضى الله عنهما. وقال الحاكم: حدثنا أبو بكر بن بَالُوَيه عن محمد بن أحمد بن النضر عن معاوية بن عمرو عن زائدة عن عمار بن معاوية البجلى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، قال: ما أسكن آدم الجنة إلا ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس، ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وقال عبد بن حميد فى تفسيره: حدثنا روح عن هشام عن الحسن، قال: لبث آدم فى الجنة ساعة من نهار تلك الساعة ثلاثون ومائة سنة من أيام الدنيا. وقال أبو

(١) **ضعيف**: ابن أبى حاتم (١/ ٨٧).

(٢) **ضعيف**: حديث معضل بين قتادة وأبى بن كعب، وقد ذكر ذلك الحافظ في تعليقه على الحديث.

جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، قال: خرج آدم من الجنة للساعة التاسعة أو العاشرة فأخرج آدم معه غصنًا من شجر الجنة على رأسه تاج من شجر الجنة، وهو الإكليل من ورق الجنة. وقال السدى: قال الله تعالى: ﴿اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٣٨] فهبطوا ونزل آدم بالهند ونزل معه الحجر الأسود وقبضة من ورق الجنة، فبثه بالهند فنبتت شجرة الطيب، فإنما أصل ما يجاء به من الطيب من الهند من قبضة الورق التى هبط بها آدم، وإنما قبضها آدم حين أخرج من الجنة أسفًا على الجنة حين أخرج منها، وقال عمران بن عيينة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، قال: أهبط آدم من الجنة بِدَحْنا أرض الهند. وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زرعة حدثنا عثمان بن أبى شيبة حدثنا جرير عن عطاء عن سعيد عن ابن عباس قال: أهبط آدم عليه السلام إلى أرض يقال لها: دحنا بين مكة والطائف. وعن الحسن البصرى قال: أهبط آدم بالهند، وحواء بجدة، وإبليس بدستميسان من البصرة على أميال، وأهبطت الحية بأصبهان، رواه ابن أبى حاتم. وقال أبو محمد بن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عمار بن الحارث حدثنا محمد بن سعيد بن سابق حدثنا عمرو بن أبى قيس عن الزبير بن عدى عن ابن عمر قال: أهبط آدم بالصفا وحواء بالمروة. وقال رجاء بن سلمة أهبط آدم عليه السلام يداه على ركبتيه مطأطئًا رأسه، وأهبط إبليس مشبكًا بين أصابعه رافعًا رأسه إلى السماء، وقال عبد الرزاق: قال معمر: أخبرنى عوف عن قسامة بن زهير عن أبى موسى، قال: إن الله حين أهبط آدم من الجنة إلى الأرض علمه صنعة كل شىء وزوده من ثمار الجنة، فثماركم هذه من ثمار الجنة غير أن هذه تتغير وتلك لا تتغير، وقال الزهرى عن عبد الرحمن بن هرمز الأعرج عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها» رواه مسلم والنسائى[1]. وقال الرازى: اعلم أن فى هذه الآية تهديدًا عظيمًا عن كل المعاصى من وجوه:

(الأول) أنما يتصور ما جرى على آدم بسبب إقدامه على هذه الزلة الصغيرة كان على وجل شديد من المعاصى، قال الشاعر:

يا ناظرًا يرنو بعينى راقد ... ومشاهدًا للأمر غير مشاهد
تصل الذنوبَ إلى الذنوب وترتجى ... دَرَجَ الجنان ونيل فوز العابد
أنسيت ربك حين أخرج آدما ... منها إلى الدنيا بذنب واحد

وقال ابن القاسم:

ولكننا سبى العدو فهل ترى ... نعود إلى أوطاننا ونسلم

قال الرازى عن فتح الموصلى أنه قال: كنا قومًا من أهل الجنة، فسبانا إبليس إلى الدنيا، فليس لنا إلا الهم والحزن حتى نرد إلى الدار التى أخرجنا منها. فإن قيل: فإذا كانت جنة آدم التى أخرج منها فى السماء كما يقوله الجمهور من العلماء، فكيف تمكن إبليس من دخول الجنة، وقد طرد من هنالك طردًا قدريًا، والقدرى لا يخالف ولا يمانع؟ فالجواب: أن هذا بعينه استدل به من يقول: إن الجنة التى كان فيها آدم فى الأرض لا فى السماء، كما قد بسطنا هذا فى أول كتابنا البداية والنهاية، وأجاب الجمهور بأجوبة، أحدها: أنه منع من دخول الجنة مكرمًا، فأما على وجه السرقة والإهانة، فلا يمتنع،

(١) مسلم (٨٥٤)، والنسائي (١٣٧٣).

ولهذا قال بعضهم: كما جاء فى التوراة: إنه دخل فى فم الحية إلى الجنة. وقد قال بعضهم: يحتمل أنه وسوس لهما وهو خارج باب الجنة. وقال بعضهم: يحتمل أنه وسوس لهما وهو فى الأرض، وهما فى السماء، ذكرها الزمخشرى وغيره. وقد أورد القرطبى ههنا أحاديث فى الحيات وقتلهن وبيان حكم ذلك، فأجاد وأفاد.

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾

قيل إن هذه الكلمات مفسرة بقوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] وروى هذا عن مجاهد وسعيد بن جبير وأبى العالية والربيع بن أنس والحسن وقتادة ومحمد بن كعب القرظى وخالد بن معدان وعطاء الخراسانى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقال أبو إسحاق السبيعى عن رجل من بنى تميم قال: أتيت ابن عباس فسألته قلت: ما الكلمات التى تلقى آدم من ربه؟ قال: علم شأن الحج، وقال سفيان الثورى: عن عبد العزيز بن رفيع، أخبرنى من سمع عبيد بن عمير، وفى رواية أخبرنى مجاهد عن عبيد بن عمير، أنه قال: قال آدم: يا رب خطيئتى التى أخطأت شيء كتبته على قبل أن تخلقنى أو شيء ابتدعته من قبل نفسى؟ قال «بل شيء كتبته عليك قبل أن أخلقك» قال: فكما كتبته على فاغفر لى، قال: فذلك قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ﴾ وقال السدى: عمن حدثه عن ابن عباس فتلقى آدم من ربه كلمات، قال: قال آدم عليه السلام: يا رب ألم تخلقنى بيدك؟ قيل له: بلى، ونفخت فى من روحك؟ قيل له: بلى، وعطست فقلت: يرحمك الله، وسبقت رحمتك غضبك؟ قيل له: بلى، وكتبت على أن أعمل هذا؟ قيل له: بلى، قال: أرأيت إن تبت هل أنت راجعى إلى الجنة؟ قال: نعم. وهكذا رواه العوفى وسعيد بن جبير وسعيد بن معبد عن ابن عباس بنحوه، ورواه الحاكم فى مستدركه من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وهكذا فسره السدى وعطية العوفى، وقد روى ابن أبى حاتم [1] ههنا حديثًا شبيهًا بهذا فقال: حدثنا على بن الحسين بن إشكاب، حدثنا على بن عاصم عن سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن الحسن عن أبى بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال آدم عليه السلام: أرأيت يا رب إن تبت ورجعت أعائدى إلى الجنة؟» قال: نعم فذلك قوله ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ وهذا حديث غريب من هذا الوجه وفيه انقطاع، وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ﴾ [البقرة: ٣٧]. قال: إن آدم لما أصاب الخطيئة قال: أرأيت يا رب إن تبت وأصلحت؟ قال الله: «إذًا أرجعك إلى الجنة» فهى الكلمات ومن الكلمات أيضًا ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] وقال ابن أبى نجيح: عن مجاهد أنه كان يقول فى قول الله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ﴾، قال: الكلمات: اللَّهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى إنك خير الغافرين، اللَّهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إنى ظلمت نفسى فارحمنى إنك خير الراحمين، اللَّهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إنى ظلمت نفسى فتب على إنك أنت التواب

(١) ضعيف: وهو تمام الحديث السابق.

الرحيم. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أى إنه يتوب على من تاب إليه وأناب، كقوله ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [التوبة: ١٠٤] وقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء: ١١٠] الآية، وقوله: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾ [الفرقان: ٧١] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى يغفر الذنوب، ويتوب على من يتوب، وهذا من لطفه بخلقه ورحمته بعبيده، لا إله إلا هو التواب الرحيم.

﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾

يقول تعالى مخبرًا عما أنذر به آدم وزوجته وإبليس حين أهبطهم من الجنة، والمراد الذرية، إنه سينزل الكتب ويبعث الأنبياء والرسل، كما قال أبو العالية: الهدى: الأنبياء والرسل والبينات والبيان، وقال مقاتل بن حيان: الهدى: محمد ﷺ، وقال الحسن: الهدى: القرآن، وهذان القولان صحيحان، وقول أبى العالية أعم ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ﴾ أى من أقبل على ما أنزلت به الكتب وأرسلت به الرسل ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أى فيما يستقبلونه من أمر الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما فاتهم من أمور الدنيا كما قال فى سورة طه ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣] قال ابن عباس: فلا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤] كما قال هاهنا ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾ أى مخلدون فيها لا محيد لهم عنها ولا محيص، وقد أورد ابن جرير [١] -رحمه الله- هنا حديثًا ساقه من طريقين عن أبى مسلمة سعيد بن يزيد عن أبى نضرة المنذر بن مالك بن قطعة عن أبى سعيد واسمه سعد بن مالك بن سنان الخدرى، قال: قال رسول الله ﷺ: **«أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن أقوام أصابتهم النار بخطاياهم أو بذنوبهم فأماتتهم إماتة حتى إذا صاروا فحمًا أذن فى الشفاعة»** وقد رواه مسلم [٢] من حديث شعبة عن أبى سلمة به. وذكر هذا الإهباط الثانى لما تعلق به ما بعده من المعنى المغاير للأول، وزعم بعضهم: إنه تأكيد وتكرير، كما يقال: قم قم، وقال آخرون: بل الإهباط الأول من الجنة إلى السماء الدنيا، والثانى من سماء الدنيا إلى الأرض، والصحيح الأول، والله أعلم.

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾

يقول تعالى آمرًا بنى إسرائيل بالدخول فى الإسلام، ومتابعة محمد عليه من الله أفضل الصلاة والسلام، ومهيجًا لهم بذكر أبيهم إسرائيل وهو نبى الله يعقوب عليه السلام، وتقديره: يا بنى العبد الصالح المطيع لله، كونوا مثل أبيكم فى متابعة الحق كما تقول: يا ابن الكريم افعل كذا، يا ابن الشجاع بارز الأبطال، يا ابن العالم اطلب العلم، ونحو ذلك. ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ

---

(١) **صحيح**: ابن جرير، (١/٢٤٨)، وانظر ما بعده.

(٢) مسلم (١٨٥).

حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣] فإسرائيل هو يعقوب بدليل ما رواه أبو داود الطيالسى [١]، حدثنا عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب، قال: حدثنى عبد الله بن عباس قال: حضرت عصابة من اليهود نبى الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال لهم: «هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب؟» قالوا: اللَّهم: نعم، فقال النبى ﷺ: «اللَّهم اشهد» وقال الأعمش عن إسماعيل بن رجاء عن عمير مولى ابن عباس عن عبد الله بن عباس: أن إسرائيل كقولك عبد الله وقوله تعالى ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ قال مجاهد: نعمة الله التى أنعم بها عليهم فيما سمى، وفيما سوى ذلك أن فجر لهم الحجر وأنزل عليهم المن والسلوى ونجاهم من عبودية آل فرعون، وقال أبو العالية: نعمته أن جعل منهم الأنبياء والرسل، وأنزل عليهم الكتب، قلت: وهذا كقول موسى عليه السلام لهم ﴿يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠] يعنى فى زمانهم، وقال محمد بن إسحاق: حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ أى: بلائى عندكم وعند آبائكم لما كان نجاهم به من فرعون وقومه وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ قال: بعهدى الذى أخذت فى أعناقكم للنبى محمد ﷺ إذا جاءكم، أوف بعهدكم أي: أنجز لكم ما وعدتكم عليه بتصديقه واتباعه بوضع ما كان عليكم من الإصر والأغلال التى كانت فى أعناقكم بذنوبكم التى كانت من أحداثكم. وقال الحسن البصرى: هو قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [المائدة: ١٢] الآية وقال آخرون: هو الذى أخذ الله عليهم فى التوراة أنه سيبعث من بنى إسماعيل نبيًا عظيمًا يطيعه جميع الشعوب، والمراد به محمد ﷺ فمن اتبعه غفر الله له ذنبه وأدخله الجنة وجعل له أجرين. وقد أورد الرازى بشارات كثيرة عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بمحمد ﷺ، وقال أبو العالية ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ قال: عهده إلى عباده دين الإسلام وأن يتبعوه، وقال الضحاك عن ابن عباس: أوف بعهدكم قال: أرض عنكم وأدخلكم الجنة، وكذا قال السدى والضحاك وأبو العالية والربيع بن أنس، وقوله تعالى ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ أى: فاخشون، قاله أبو العالية والسدى والربيع بن أنس وقتادة، وقال ابن عباس فى قوله تعالى ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ أى: أنزل بكم ما أنزلت بمن كان قبلكم من آبائكم من النقمات التى قد عرفتم من المسخ وغيره، وهذا انتقال من الترغيب إلى الترهيب، فدعاهم إليه بالرغبة والرهبة لعلهم يرجعون إلى الحق واتباع الرسول ﷺ والاتعاظ بالقرآن وزواجره وامتثال أوامره وتصديق أخباره، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم، ولهذا قال: ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ يعنى به القرآن الذى أنزل على محمد ﷺ النبى الأمى العربى بشيرًا ونذيرًا وسراجًا منيرًا مشتملاً على الحق من الله تعالى مصدقًا لما بين يديه من التوراة والإنجيل، قال أبو العالية رحمه الله فى قوله تعالى ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ يقول: يا معشر أهل الكتاب آمنوا بما أنزلت مصدقًا لما

---

(١) أبو داود الطيالسى، (١/ ٣٥٦)، برقم (٢٧٣١) وفيه عبد الحميد بن بهرام: صدوق، وقال أبو حاتم الرازي: أحاديثه عن شهر صحاح.

معكم، يقول: لأنهم يجدون محمدًا ﷺ مكتوبًا عندهم فى التوراة والإنجيل، وروى عن مجاهد والربيع بن أنس وقتادة نحو ذلك، وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِۦ﴾ قال بعض المعربين: أول فريق كافر به أو نحو ذلك، قال ابن عباس: ولا تكونوا أول كافر به، وعندكم فيه من العلم ما ليس عند غيركم، وقال أبو العالية: يقول: ولا تكونوا أول من كفر بمحمد ﷺ، يعنى من جنسكم أهل الكتاب بعد سماعكم بمبعثه، وكذا قال الحسن والسدى والربيع بن أنس، واختار ابن جرير أن الضمير فى قوله «به» عائد على القرآن الذى تقدم ذكره فى قوله ﴿بِمَآ أَنزَلْتُ﴾ وكلا القولين صحيح لأنهما متلازمان، لأن من كفر بالقرآن فقد كفر بمحمد ﷺ، ومن كفر بمحمد ﷺ فقد كفر بالقرآن، وأما قوله ﴿أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِۦ﴾ فيعنى به أول من كفر به من بنى إسرائيل؛ لأنه قد تقدمهم من كفار قريش وغيرهم من العرب بشر كثير، وإنما المراد أول من كفر به من بنى إسرائيل مباشرة، فإن يهود المدينة أول بنى إسرائيل خوطبوا بالقرآن فكفرهم به يستلزم أنهم أول من كفر به من جنسهم، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يقول: لا تعتاضوا عن الإيمان بآياتى وتصديق رسولى بالدنيا وشهواتها، فإنها قليلة فانية، كما قال عبد الله بن المبارك: أنبأنا عبد الرحمن بن زيد بن جابر عن هارون بن يزيد قال: سئل الحسن، يعنى البصرى عن قوله تعالى: ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ قال: الثمن القليل الدنيا بحذافيرها وقال ابن لهيعة: حدثنى عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ وإن آياته كتابه الذى أنزله إليهم، وإن الثمن القليل الدنيا وشهواتها، وقال السدى: ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يقول: لا تأخذوا طمعًا قليلًا، ولا تكتموا اسم الله، فذلك الطمع هو الثمن، وقال أبو جعفر عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله تعالى ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يقول: لا تأخذوا عليه أجرًا، قال: وهو مكتوب عندهم فى الكتاب الأول: يا ابن آدم عَلِّم مجانًا كما عُلمتَ مجانًا، وقيل: معناه لا تعتاضوا عن البيان والإيضاح ونشر العلم النافع فى الناس بالكتمان واللبس لتستمروا على رياستكم فى الدنيا القليلة الحقيرة الزائلة عن قريب، وفى سنن أبى داود [١] عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من تعلم علمًا مما يبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضًا من الدنيا لم يَرِحْ رائحة الجنة يوم القيامة»** فأما تعليم العلم بأجرة، فإن كان قد تعين عليه فلا يجوز أن يأخذ عليه أجرة، ويجوز أن يتناول من بيت المال ما يقوم به حاله وعياله، فإن لم يحصل له منه شىء وقطعه التعليم عن التكسب، فهو كما لم يتعين عليه، وإذا لم يتعين عليه فإنه يجوز أن يأخذ عليه أجرة عند مالك والشافعى وأحمد وجمهور العلماء كما فى صحيح البخارى [٢] عن أبى سعيد فى قصة اللديغ **«إن أحق ما أخذتم عليه أجرًا كتاب الله»** وقوله فى قصة المخطوبة [٣] **«زوجتكها بما معك من القرآن»** فأما حديث عبادة بن الصامت، أنه علم رجلًا من أهل الصفة شيئًا من القرآن فأهدى له قوسًا فسأل عنه رسول الله ﷺ فقال **«إن أحببت أن تطوق بقوس من نار فاقبله»** فتركه، رواه أبو داود [٤]، وروى مثله

---

(١) صحيح: أبو داود (٣٦٦٤). انظر صحيح سنن أبي داود.

(٢) البخاري، (٥٧٣٧).

(٣) البخاري، (٥٠٢٩)، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٤) صحيح: أبو داود (٣٤١٦)، انظر صحيح سنن أبي داود.

عن أبى بن كعب مرفوعًا، فإن صح إسناده فهو محمول عند كثير من العلماء منهم: أبو عمر بن عبد البر، على أنه لما علمه لله لم يجز بعد هذا أن يعتاض عن ثواب الله بذلك القوس، فأما إذا كان من أول الأمر على التعليم بالأجرة فإنه يصح كما فى حديث اللديغ وحديث سهل فى المخطوبة، والله أعلم.

وقوله ﴿وَإِيَّىَ فَٱتَّقُونِ﴾ قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو عمر الدورى، حدثنا أبو إسماعيل المؤدب عن عاصم الأحول عن أبى العالية عن طلق بن حبيب، قال: التقوى أن تعمل بطاعة الله رجاء رحمة الله على نور من الله، والتقوى أن تترك معصية الله مخافة عذاب الله على نور من الله تخاف عقاب الله، ومعنى قوله ﴿وَإِيَّىَ فَٱتَّقُونِ﴾ أنه تعالى يتوعدهم فيما يتعمدونه من كتمان الحق وإظهار خلافه ومخالفتهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه.

﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾

يقول تعالى ناهيًا لليهود عما كانوا يتعمدونه من تلبيس الحق بالباطل، وتمويهه به، وكتمانهم الحق، وإظهارهم الباطل: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فنهاهم عن الشيئين معًا، وأمرهم بإظهار الحق والتصريح به، ولهذا قال الضحاك عن ابن عباس - ولا تلبسوا الحق بالباطل: لا تخلطوا الحق بالباطل، والصدق بالكذب. وقال أبو العالية - ولا تلبسوا الحق بالباطل - يقول: ولا تخلطوا الحق بالباطل، وأدوا النصيحة لعباد الله من أمة محمد ﷺ ويروى عن سعيد بن جبير والربيع بن أنس نحوه وقال قتادة ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ ولا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالإسلام، وأنتم تعلمون أن دين الله الإسلام، وأن اليهودية والنصرانية بدعة ليست من الله، وروى عن الحسن البصرى نحو ذلك، وقال محمد بن إسحاق: حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أى لا تكتموا ما عندكم من المعرفة برسولى وبما جاء به وأنتم تجدونه مكتوبًا عندكم فيما تعلمون من الكتب التى بأيديكم، وروى عن أبى العالية نحو ذلك وقال مجاهد والسدى وقتادة والربيع بن أنس ﴿وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ يعنى محمدًا ﷺ.

(قُلْتُ): وتكتموا يحتمل أن يكون مجزومًا، ويحتمل أن يكون منصوبًا، أى لا تجمعوا بين هذا وهذا كما يقال: لا تأكل السمك وتشرب اللبن، قال الزمخشرى: وفى مصحف ابن مسعود وتكتمون الحق أى فى حال كتمانكم الحق ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ حال أيضًا، ومعناه وأنتم تعلمون الحق، ويجوز أن يكون المعنى: وأنتم تعلمون ما فى ذلك من الضرر العظيم على الناس من إضلالهم عن الهدى المفضى بهم إلى النار إن سلكوا ما تبدونه لهم من الباطل المشوب بنوع من الحق لتروّجوه عليهم، والبيان: الإيضاح وعكسه الكتمان وخلط الحق بالباطل ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ قال مقاتل: قوله تعالى لأهل الكتاب ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أمرهم أن يصلوا مع النبى ﷺ ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أمرهم أن يؤتوا الزكاة أى يدفعونها إلى النبى ﷺ ﴿وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أمرهم أن يركعوا مع الراكعين من أمة محمد ﷺ، يقول: كونوا معهم ومنهم، وقال على بن طلحة عن ابن عباس: ﴿وَءَاتُوا۟

﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يعنى بالزكاة: طاعة الله والإخلاص، وقال وكيع عن أبى جناب عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله: وآتوا الزكاة، قال: ما يوجب الزكاة قال: مائتان فصاعدًا، وقال مبارك بن فضالة عن الحسن فى قوله تعالى ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ قال: فريضة واجبة لا تنفع الأعمال إلا بها وبالصلاة، وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زرعة حدثنا عثمان بن أبى شيبة حدثنا جرير عن أبى حيان التيمى عن الحارث العُكلى فى قوله تعالى ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ قال: صدقة الفطر، وقوله تعالى: ﴿وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أى وكونوا مع المؤمنين فى أحسن أعمالهم، ومن أخص ذلك وأكمله الصلاة، وقد استدل كثير من العلماء بهذه الآية على وجوب الجماعة، وأبسط ذلك فى كتاب «الأحكام الكبير» إن شاء الله تعالى، وقد تكلم القرطبى على مسائل الجماعة والإمامة فأجاد.

نصف الحزب ١

﴿۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالى: كيف يليق بكم يا معشر أهل الكتاب، وأنتم تأمرون الناس بالبر وهو جماع الخير، أن تنسوا أنفسكم فلا تأتمروا بما تأمرون الناس به، وأنتم مع ذلك تتلون الكتاب وتعلمون ما فيه على من قصر فى أوامر الله؟ أفلا تعقلون ما أنتم صانعون بأنفسكم، فتنتبهوا من رقدتكم، وتتبصروا من عمايتكم، وهذا كما قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة فى قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ قال: كان بنو إسرائيل يأمرون الناس بطاعة الله وبتقواه وبالبر، ويخالفون، فعيرهم الله عز وجل، وكذلك قال السدى وقال ابن جريج: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ﴾ أهل الكتاب والمنافقون كانوا يأمرون الناس بالصوم والصلاة ويدعون العمل بما يأمرون به الناس، فعيرهم الله بذلك، فمن أمر بخير فليكن أشد الناس فيه مسارعة، وقال محمد بن إسحاق عن محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس: ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ أى تتركون أنفسكم ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أى: تنهون الناس عن الكفر بما عندكم من النبوة والعهد من التوراة وتتركون أنفسكم، أى: وأنتم تكفرون بما فيها من عهدى إليكم فى تصديق رسولى وتنقضون ميثاقى وتجحدون ما تعلمون من كتابى، وقال الضحاك عن ابن عباس: فى هذه الآية يقول: أتأمرون الناس بالدخول فى دين محمد ﷺ وغير ذلك مما أمرتم به من إقام الصلاة وتنسون أنفسكم.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنى على بن الحسن حدثنا مسلم الجرمى حدثنا مخلد بن الحسين عن أيوب السختيانى. عن أبى قلابة فى قول الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ قال أبو الدرداء رضى الله عنه: لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس فى ذات الله، ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتًا، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى هذه الآية: هؤلاء اليهود إذا جاء الرجل سألهم عن الشىء ليس فيه حق ولا رشوة ولا شىء أمروه بالحق، فقال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ والغرض: أن الله تعالى ذمهم على هذا الصنيع، ونبههم على خطئهم فى حق أنفسهم حيث كانوا يأمرون بالخير ولا يفعلونه، وليس المراد ذمهم على أمرهم بالبر مع تركهم له بل على تركهم له، فإن الأمر بالمعروف معروف وهو واجب على العالم، ولكن الواجب والأولى بالعالم أن يفعله مع من أمرهم به ولا يتخلف عنهم كما قال شعيب

عليه السلام: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[هود: ٨٨] فكل من الأمر بالمعروف وفعله واجب لا يسقط أحدهما بترك الآخر على أصح قولى العلماء من السلف والخلف، وذهب بعضهم إلى أن مرتكب المعاصى لا ينهى غيره عنها وهذا ضعيف، وأضعف منه تمسكهم بهذه الآية فإنه لا حجة لهم فيها، والصحيح: أن العالم يأمر بالمعروف وإن لم يفعله، وينهى عن المنكر وإن ارتكبه، قال مالك عن ربيعة: سمعت سعيد بن جبير يقول: لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شىء ما، ما أمر أحد بمعروف ولا نهى عن منكر. قال مالك: وصدق من ذا الذى ليس فيه شىء؟.

(قُلْتُ): لكنه والحالة هذه مذموم على ترك الطاعة وفعله المعصية لعلمه بها ومخالفته على بصيرة فإنه ليس من يعلم كمن لا يعلم، ولهذا جاءت الأحاديث فى الوعيد على ذلك، كما قال الإمام أبو القاسم الطبرانى[(١)] فى معجمه الكبير: حدثنا أحمد بن المعلى الدمشقى والحسن بن على المعمرى، قالا: حدثنا هشام بن عمار حدثنا على بن سليمان الكلبى حدثنا الأعمش عن أبى تميمة الهجيمى عن جندب بن عبد الله رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مثل العالم الذى يعلم الناس الخير ولا يعمل به، كمثل السراج يضىء للناس ويحرق نفسه»** هذا حديث غريب من هذا الوجه. حديث آخر قال الإمام أحمد[(٢)] بن حنبل فى مسنده: حدثنا وكيع حدثنا حماد بن سلمة عن على بن زيد هو ابن جدعان عن أنس بن مالك رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«مررت ليلة أسرى بى على قوم شفاههم تقرض بمقاريض من نار، قال: قلت من هؤلاء؟ قالوا: خطباء أمتك من أهل الدنيا ممن كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون»** ورواه عبد بن حميد[(٣)] فى مسنده وتفسيره عن الحسن بن موسى عن حماد بن سلمة به، ورواه ابن مردويه فى تفسيره من حديث يونس بن محمد المؤدب والحجاج بن منهال كلاهما عن حماد بن سلمة به، وكذا رواه يزيد بن هارون عن حماد بن سلمة به.

ثم قال ابن مردويه: حدثنا محمد بن عبد الله بن إبراهيم حدثنا موسى بن هارون حدثنا إسحاق بن إبراهيم التسترى ببلخ حدثنا مكى بن إبراهيم حدثنا عمر بن قيس عن على بن زيد عن ثمامة عن أنس، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مررت ليلة أسرى بى على أناس تقرض شفاههم وألسنتهم بمقاريض من نار، قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء خطباء أمتك الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم» وأخرجه ابن حبان[(٤)] فى صحيحه، وابن أبى حاتم وابن مردويه أيضًا من حديث هشام الدستوائى عن المغيرة يعنى ابن حبيب ختن مالك بن دينار عن مالك بن دينار عن ثمامة عن أنس بن مالك، قال: لما عرج برسول الله ﷺ مرّ بقوم تقرض شفاههم، فقال: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الخطباء من أمتك يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم أفلا يعقلون. حديث آخر - قال

---

(١) صحيح: الطبراني في «الكبير» (٢/ ١٦٥)، برقم (١٦٨١)، انظر صحيح الجامع (٥٨٣١).
(٢) صحيح: أحمد، (١١٨٠١)، انظر صحيح الترغيب والترهيب (٢٣٢٧).
(٣) صحيح: عبد بن حميد في «مسنده» (١/ ٣٦٧)، برقم (١٢٢٢)، وانظر السلسلة الصحيحة (٢٩١).
(٤) صحيح: ابن حبان (١/ ٢٩٤)، برقم (٥٣).

الإمام أحمد [١]: حدثنا يعلى بن عبيد: حدثنا الأعمش عن أبى وائل، قال: قيل لأسامة وأنا رديفه: ألا تكلم عثمان؟ فقال: إنكم ترون أنى لا أكلمه، ألا أسمعكم إنى لأكلمه فيما بينى وبينه دون أن أفتتح أمرًا لا أحب أن أكون أول من افتتحه، والله لا أقول لرجل إنك خير الناس وإن كان علىَّ أميرًا بعد أن سمعت رسول الله ﷺ يقول: قالوا: وما سمعته يقول؟ قال: سمعته يقول: «يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق به أقتابه، فيدور بها فى النار كما يدور الحمار برحاه، فيطيف به أهل النار فيقولون: يا فلان ما أصابك؟، ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه» رواه البخارى ومسلم [٢] من حديث سليمان بن مهران الأعمش به نحوه.

وقال أحمد [٣]: حدثنا سيار بن حاتم حدثنا جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يعافى الأميين يوم القيامة ما لا يعافى العلماء» وقد ورد فى بعض الآثار: إنه يغفر للجاهل سبعين مرة حتى يغفر للعالم مرة واحدة، ليس من يعلم كمن لا يعلم. وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩] وروى ابن عساكر [٤] فى ترجمة الوليد بن عقبة عن النبى ﷺ، قال: «إن أناسًا من أهل الجنة يطلعون على أناس من أهل النار فيقولون: بم دخلتم النار؟ فوالله ما دخلنا الجنة إلا بما تعلمنا منكم، فيقولون: إنا كنا نقول ولا نفعل».

ورواه من حديث الطبرى عن أحمد بن يحيى الخباز الرملى عن زهير بن عباد الرواسى عن أبى بكر الداهري عبد الله بن حكيم عن إسماعيل بن أبى خالد عن الشعبى عن الوليد بن عقبة فذكره، وقال الضحاك عن ابن عباس: أنه جاءه رجل فقال: يا ابن عباس، إن أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، قال: أوبلغت ذلك؟ قال: أرجو، قال: إن لم تخش أن تفتضح بثلاث آيات من كتاب الله فافعل، قال: وما هن؟ قال: قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ أحكمت هذه؟ قال: لا، قال: فالحرف الثانى؟ قال: قوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢-٣] أحكمت هذه؟ قال: لا، قال: فالحرف الثالث؟ قال: قول العبد الصالح شعيب عليه السلام: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ﴾ [هود: ٨٨] أحكمت هذه الآية؟ قال: لا، قال: فابدأ بنفسك، رواه ابن مردويه فى تفسيره، وقال الطبرانى [٥]: حدثنا عبدان بن أحمد حدثنا زيد بن الحريش حدثنا عبد الله بن خراش عن العوام بن حوشب عن المسيب بن رافع عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «من دعا الناس إلى قول أو عمل ولم يعمل

---

(١) صحيح: أحمد (٢١٢٧٧)، انظر صحيح الجامع (٨٠٢٢).

(٢) البخاري: (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩).

(٣) منكر: أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٣١) وقال أبو نعيم: لم نكتبه إلا من حديث أحمد بن حنبل، وانظر السلسلة الضعيفة (٣١٥٤).

(٤) ضعيف جدًا: الطبراني في «الكبير» (٢٢/ ١٥٠) برقم (٤٠٥)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١/ ١٨٥) رواه الطبراني في «الكبير» وفيه: أبو بكر عبد الله بن حكيم الداهري، وهو ضعيف جدًا.

(٥) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ١٥٨) إلى الطبراني، وضعف إسناده وكذا فعل المصنف، وعلته عبد الله بن خراش: ضعيف.

هو به لم يزل فى ظل سخط الله حتى يكف أو يعمل ما قال أو دعا إليه» إسناده فيه ضعف وقال إبراهيم النخعى: إن لأكره القصص لثلاث آيات: قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾. وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢-٣] وقوله إخبارًا عن شعيب: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾

يقول تعالى آمرًا عبيده فيما يؤملون من خير الدنيا والآخرة بالاستعانة بالصبر والصلاة، كما قال مقاتل بن حيان فى تفسير هذه الآية: استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على الفرائض والصلاة، فأما الصبر فقيل: إنه الصيام، نص عليه مجاهد، قال القرطبى وغيره: ولهذا يُسمى رمضان شهر الصبر كما نطق به الحديث، وقال سفيان الثورى عن أبى إسحاق عن جرى بن كليب عن رجل من بنى سليم عن النبى ﷺ، قال «الصوم نصف الصبر»[1] وقيل: المراد بالصبر الكف عن المعاصى، ولهذا قرنه بأداء العبادات وأعلاها فعل الصلاة. و قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى حدثنا عبيد الله بن حمزة بن إسماعيل حدثنا إسحاق بن سليمان عن أبى سنان عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، قال: الصبر صبران: صبر عند المصيبة حسن، وأحسن منه الصبر عن محارم الله. قال: وروى عن الحسن البصرى نحو قول عمر، وقال ابن المبارك عن ابن لهيعة عن مالك بن دينار عن سعيد بن جبير، قال: الصبر: اعتراف العبد لله بما أصيب فيه واحتسابه عند الله ورجاء ثوابه، وقد يجزع الرجل وهو يتجلد لا يرى منه إلا الصبر. وقال أبو العالية فى قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ قال: على مرضاة الله، واعلموا أنها من طاعة الله، وأما قوله: ﴿والصلاة﴾، فإن الصلاة من أكبر العون على الثبات فى الأمر كما قال تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ الآية[العنكبوت: ٤٥]. وقال الإمام أحمد[2]: حدثنا خلف بن الوليد حدثنا يحيى بن زكريا بن أبى زائدة عن عكرمة بن عمار عن محمد بن عبد الله الدؤلى قال: قال عبد العزيز أخو حذيفة: قال حذيفة -يعنى ابن اليمان رضى الله عنه-: كان رسول الله ﷺ، إذا حزبه أمر صلى، ورواه أبو داود[3] عن محمد بن عيسى عن يحيى بن زكريا عن عكرمة بن عمار كما سيأتى، وقد رواه ابن جرير[4] من حديث ابن جريج عن عكرمة بن عمار عن محمد بن عبيد بن أبى قدامة عن عبد العزيز بن اليمان عن حذيفة، قال: كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة. ورواه بعضهم عن عبد العزيز ابن أخى حذيفة، ويقال: أخى حذيفة مرسلاً عن النبى ﷺ، وقال محمد بن

---

(١) ضعيف: أحمد (١٧٨٢٣)، وانظر ضعيف الجامع (٢٥٠٩).
(٢) حسن: أحمد (٢٢٧٨٨)، وانظر صحيح الجامع (٤٧٠٣).
(٣) حسن: أبو داود، (١٣١٩)، وانظر صحيح سنن أبي داود.
(٤) ابن جرير (١/ ٢٦٠).

نصر المروزى فى كتاب الصلاة: حدثنا سهل بن عثمان العسكرى حدثنا يحيى بن زكريا بن أبى زائدة قال: قال عكرمة بن عمار: قال محمد بن عبد الله الدؤلى: قال عبد العزيز: قال حذيفة: رجعت إلى النبى ﷺ، ليلة الأحزاب وهو مشتمل فى شملة يصلى، وكان إذا حزبه أمر صلى [١]. حدثنا عبد الله بن معاذ حدثنا أبى حدثنا شعبة عن أبى إسحاق سمع حارثة بن مضرب سمع عليًا رضى الله عنه يقول: لقد رأيتنا ليلة بدر وما فينا إلا نائم غير رسول الله ﷺ يصلى ويدعو حتى أصبح.

قال ابن جرير [٢]: وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه مر بأبى هريرة وهو منبطح على بطنه فقال له: «أشكم درد» ومعناه أيوجعك بطنك؟ قال: نعم، قال: «**قم فصل، فإن الصلاة شفاء**» قال ابن جرير: وقد حدثنا محمد بن العلاء ويعقوب بن إبراهيم، قالا: حدثنا ابن علية حدثنا عيينة بن عبد الرحمن عن أبيه: أن ابن عباس نعى إليه أخوه قثم وهو فى سفر، فاسترجع ثم تنحى عن الطريق فأناخ، فصلى ركعتين أطال فيهما الجلوس، ثم قام يمشى إلى راحلته وهو يقول: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ وقال سنيد عن حجاج عن ابن جريج: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ قال: إنهما معونتان على رحمة الله. والضمير فى قوله: ﴿إنها لكبيرة﴾ عائد إلى الصلاة، نص عليه مجاهد، واختاره ابن جرير، ويحتمل أن يكون عائدًا على ما يدل عليه الكلام وهو الوصية بذلك، كقوله تعالى فى قصة قارون: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٥] أى وما يلقى هذه الوصية إلا الذين صبروا، ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ [فصلت: ٣٥] أى يؤتاها ويلهمها ﴿إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥]. وعلى كل تقدير فقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾. أى مشقة ثقيلة إلا على الخاشعين وقال ابن أبى طلحة عن ابن عباس: يعنى المصدقين بما أنزل الله، وقال مجاهد: المؤمنين حقًا، وقال أبو العالية: إلا على الخاشعين الخائفين.

وقال مقاتل بن حيان: إلا على الخاشعين يعنى به المتواضعين وقال الضحاك: وإنها لكبيرة، قال: إنها لثقيلة إلا على الخاضعين لطاعته الخائفين سطواته المصدقين بوعده ووعيده. وهذا يشبه ما جاء فى الحديث [٣] «**لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه**» وقال ابن جرير: معنى الآية: واستعينوا أيها الأحبار من أهل الكتاب بحبس أنفسكم على طاعة الله وبإقامة الصلاة المانعة من الفحشاء والمنكر المقربة من رضا الله العظيمة إقامتها إلا على الخاشعين أى المتواضعين لله المستكينين لطاعته المتذللين من مخافته. هكذا قال: والظاهر أن الآية وإن كانت خطابًا فى سياق إنذار بنى إسرائيل، فإنهم لم يقصدوا على سبيل التخصيص، وإنما هى عامة لهم ولغيرهم، والله أعلم.

وَقَوْلُه تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ هذا من تمام الكلام الذى قبله،

---

(١) صحيح: أحمد (١١٦٥).

(٢) ضعيف: ابن جرير (١/ ٢٦٠)، انظر ضعيف الجامع (٤١١٣).

(٣) صحيح: الترمذي، (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وأحمد (٢١٥١١)، من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه، انظر صحيح جامع الترمذي.

أى: وإن الصلاة أو الوصاة لثقيلة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم، أى: يعلمون أنهم محشورون إليه يوم القيامة معروضون عليه، وأنهم إليه راجعون أى: أمورهم راجعة إلى مشيئته يحكم فيها ما يشاء بعدله، فلهذا لما أيقنوا بالمعاد والجزاء سهل عليهم فعل الطاعات وترك المنكرات، فأما قوله: ﴿يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ فقال ابن جرير، رحمه الله: العرب قد تسمى اليقين ظنًا، والشك ظنًا، نظير تسميتهم الظلمة سدفة، والضياء سدفة، والمغيث صارخًا، والمستغيث صارخًا، وما أشبه ذلك من الأسماء التى يسمى بها الشيء وضده، كما قال دريد بن الصمة:

فقلت لهم ظنوا بألفى مدجج سراتهم فى الفارسى المسرد

يعنى بذلك: تيقنوا بألفى مدجج يأتيكم، وقال عميرة بن طارق:

بأن تغتروا قومى وأقعد فيكم وأجعل منى الظن غيبًا مرجمًا

يعنى وأجعل منى اليقين غيبًا مرجمًا، قال: والشواهد من أشعار العرب وكلامها على أن الظن فى معنى اليقين أكثر من أن تحصر، وفيما ذكرنا لمن وفق لفهمه كفاية، ومنه قول الله تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَٰقِعُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣] ثم قال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار حدثنا أبو عاصم حدثنا سفيان عن جابر عن مجاهد قال: كل ظن فى القرآن يقين، أى ظننت وظنوا، وحدثنى المثنى: حدثنا إسحاق حدثنا أبو داود الحفري عن سفيان عن ابن أبى نجيح عن مجاهد، قال: كل ظن فى القرآن فهو علم، وهذا سند صحيح، وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ قال: الظن ههنا يقين، قال ابن أبى حاتم وروى عن مجاهد والسدى والربيع بن أنس وقتادة نحو قول أبى العالية، وقال سنيد عن حجاج عن ابن جريج ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ علموا أنهم ملاقو ربهم كقوله ﴿إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٠] يقول: علمت، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

(قُلْتُ) وفى الصحيح [١]: أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة «ألم أزوّجك ألم أكرمك ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول بلى فيقول: الله تعالى «أظننت أنك ملاقى؟» فيقول: لا فيقول الله: «اليوم أنساك كما نسيتنى» وسيأتى مبسوطًا عند قوله تعالى ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] إن شاء الله تعالى.

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

يذكرهم تعالى بسالف نعمه على آبائهم وأسلافهم، وما كان فضلهم به من إرسال الرسل منهم وإنزال الكتب عليهم وعلى سائر الأمم من أهل زمانهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢] وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠] وقال أبو جعفر الرازى: عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله تعالى: ﴿وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال: بما أعطوا من الملك والرسل والكتب على عالم من كان فى ذلك الزمان، فإنّ لكل زمان عالمًا، وروى عن مجاهد

(١) مسلم (٢٩٦٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والربيع بن أنس وقتادة وإسماعيل بن أبى خالد نحو ذلك، ويجب الحمل على هذا لأن هذه الأمة أفضل منهم لقوله تعالى، خطابًا لهذه الأمة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾[آل عمران: ١١٠] وفى المسانيد والسنن[1] عن معاوية بن حيدة القشيرى، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله»، والأحاديث فى هذا كثيرة تذكر عند قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١١٠] وقيل، المراد تفضيل بنوع ما من الفضل على سائر الناس، ولا يلزم تفضيلهم مطلقًا، حكاه الرازى وفيه نظر، وقيل: إنهم فضلوا على سائر الأمم لاشتمال أمتهم على الأنبياء منهم، حكاه القرطبى فى تفسيره، وفيه نظر، لأن العالمين عام يشتمل من قبلهم ومن بعدهم من الأنبياء، فإبراهيم الخليل قبلهم وهو أفضل من سائر أنبيائهم، ومحمد بعدهم وهو أفضل من جميع الخلق وسيد ولد آدم فى الدنيا والآخرة، صلوات الله وسلامه عليه.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

لما ذكرهم تعالى بنعمه أولا، عطف على ذلك التحذير من حلول نقمه بهم يوم القيامة، فقال: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ يعنى يوم القيامة ﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ أى لا يغنى أحد عن أحد، كما قال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[الأنعام: ١٦٤]: وقال: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[عبس: ٣٧] وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾[لقمان: ٣٣] فهذا أبلغ المقامات أن كلا من الوالد وولده لا يغنى أحدهما عن الآخر شيئًا، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ يعنى من الكافرين كما قال: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ الشَّٰفِعِينَ﴾[المدثر: ٤٨] وكما قال عن أهل النار: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾[الشعراء: ١٠٠-١٠١] وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أى لا يقبل منها فداء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِۦ﴾[آل عمران: ٩١] وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[المائدة: ٣٦] وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾[الأنعام: ٧٠] وقال: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَىٰكُمُ النَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾[الحديد: ١٥] الآية. فأخبر تعالى أنهم إن لم يؤمنوا برسوله ويتابعوه على ما بعثه به ووافوا الله يوم القيامة على ما هم عليه فإنه لا ينفعهم قرابة قريب ولا شفاعة ذى جاه، ولا يقبل منهم فداء ولو بملء الأرض ذهبًا، كما قال تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾[البقرة: ٢٥٤] وقال: ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾[إبراهيم: ٣١] قال سنيد: حدثنى حجاج حدثنى ابن جريج قال: قال مجاهد: قال ابن عباس: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ قال: بدل، والبدل: الفدية، وقال السدى أما عدل فيعدلها من العدل يقول: لو جاءت بملء الأرض ذهبًا تفتدى به ما تقبل منها، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

---

(١) حسن: الترمذي (٣٠٠١)، وابن ماجه (٤٢٨٨)، وأحمد (١٩٥١٣)، والدارمي (٢٧٦٠)، انظر صحيح جامع الترمذي.

وقال أبو جعفر الرازى: عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: ١٢٣] يعنى فداء، قال ابن أبى حاتم، وروى عن أبى مالك والحسن وسعيد بن جبير وقتادة والربيع بن أنس نحو ذلك، وقال عبد الرزاق: أنبأنا الثورى عن الأعمش عن إبراهيم التيمى عن أبيه عن على رضى الله عنه فى حديث طويل، قال: والصرف والعدل التطوع والفريضة، وكذا قال الوليد بن مسلم عن عثمان بن أبى العاتكة عن عمير بن هانئ وهذا القول غريب ههنا، والقول الأول أظهر فى تفسير هذه الآية، وقد ورد حديث يقويه وهو ما قال ابن جرير[1]: حدثنى نجيح بن إبراهيم حدثنا على بن حكيم حدثنا حميد بن عبد الرحمن عن أبيه عن عمرو بن قيس الملائى عن رجل من بنى أمية من أهل الشام أحسن عليه الثناء، قال: قيل: يا رسول الله، ما العدل؟ قال: «العدل الفدية» وقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أى ولا أحد يغضب لهم فينصرهم وينقذهم من عذاب الله، كما تقدم من أنه لا يعطف عليهم ذو قرابة ولا ذو جاه، ولا يقبل منهم فداء، هذا كله من جانب التلطف، ولا لهم ناصر من أنفسهم ولا من غيرهم، كما قال: ﴿فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ١٠] أى أنه تعالى لا يقبل فيمن كفر به فدية ولا شفاعة ولا ينقذ أحدًا من عذابه منقذ، ولا يخلصه منه أحد، ولا يجيره منه أحد، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨] وقال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ [الفجر: ٢٥-٢٦] وقال: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات: ٢٥-٢٦] وقال: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٨] الآية، وقال الضحاك عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ [الصافات: ٢٥] ما لكم اليوم لا تمانعون منا، هيهات ليس ذلك لكم اليوم، قال ابن جرير: وتأويل قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يعنى أنهم يومئذ لا ينصرهم ناصر كما لا يشفع لهم شافع، ولا يقبل منهم عدل ولا فدية، بطلت هنالك المحاباة، واضمحلت الرشى والشفاعات، وارتفع من القوم التناصر والتعاون، وصار الحكم إلى الجبار العدل الذى لا ينفع لديه الشفعاء ولا النصراء، فيجزى بالسيئة مثلها، وبالحسنة أضعافها، وذلك نظير قوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات: ٢٤-٢٦].

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

يقول تعالى: واذكروا يا بنى إسرائيل نعمتى عليكم ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾، أى خلصتكم منهم، وأنقذتكم من أيديهم صحبة موسى عليه السلام، وقد كانوا يسومونكم أى يوردونكم ويذيقونكم ويولونكم سوء العذاب، وذلك أن فرعون لعنه الله كان قد رأى رؤيا هالته، رأى نارًا خرجت من بيت المقدس فدخلت بيوت القبط ببلاد مصر إلا بيوت بنى إسرائيل، مضمونها أن زوال ملكه يكون على يدى رجل من بنى إسرائيل، ويقال: بل تحدث سماره عنده بأن بنى إسرائيل يتوقعون خروج رجل منهم يكون لهم به دولة ورفعة، وهكذا جاء فى حديث الفتون كما سيأتى فى

(١) ضعيف: ابن جرير (١/ ٢٦٩)، وإسناده مرسل.

موضعه فى سورة طه إن شاء الله تعالى، فعند ذلك أمر فرعون لعنه الله بقتل كل ذكر يولد بعد ذلك من بنى إسرائيل وأن تترك البنات، وأمر باستعمال بنى إسرائيل فى مشاق الأعمال وأرذلها، وههنا فسر العذاب بذبح الأبناء، وفى سورة إبراهيم عطف عليه كما قال: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾[إبراهيم: ٦] وسيأتى تفسير ذلك فى أول سورة القصص إن شاء الله تعالى، وبه الثقة والمعونة والتأييد. ومعنى يسومونكم يولونكم، قاله أبو عبيدة، كما يقال: سامه خطة خسف إذا أولاه إياها، قال عمرو بن كلثوم:

إذا ما الملك سام الناس خسفا أبينا أن نقر الخسف فينا

وقيل معناه: يديمون عذابكم، كما يقال: سائمة الغنم من إدامتها الرعى، نقله القرطبى، وإنما قال ههنا: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ ليكون ذلك تفسيرًا للنعمة عليهم فى قوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ ثم فسره بهذا لقوله ههنا: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾[البقرة: ٤٠] وأما فى سورة إبراهيم فلما قال: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّـٰمِ ٱللَّهِ﴾[إبراهيم: ٥] أى بأياديه ونعمه عليهم فناسب أن يقول هناك: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ فعطف عليه الذبح ليدل على تعدد النعم والأيادى على بنى إسرائيل وفرعون علم على كل من ملك مصر كافرًا من العماليق وغيرهم، كما أن قيصر علم على كل من ملك الروم مع الشام كافرًا، وكذلك كسرى لمن ملك الفرس، وتبع لمن ملك اليمن كافرًا، والنجاشى لمن ملك الحبشة، وبطليموس لمن ملك الهند، ويقال: كان اسم فرعون الذى كان فى زمن موسى عليه السلام الوليد بن مصعب بن الريان، وقيل: مصعب بن الريان، فكان من سلالة عمليق بن الأود بن إرم بن سام بن نوح، وكنيته أبو مرة، وأصله فارسى من اصطخر، وأيًا ما كان فعليه لعنة الله، وقوله تعالى: ﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ قال ابن جرير: وفى الذى فعلنا بكم من إنجائنا إياكم مما كنتم فيه من عذاب آل فرعون بلاء لكم من ربكم عظيم، أى نعمة عظيمة عليكم فى ذلك، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: قوله تعالى: ﴿بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ قال: نعمة، وقال مجاهد: ﴿بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ قال: نعمة من ربكم عظيمة، وكذا قال أبو العالية وأبو مالك والسدى وغيرهم، وأصل البلاء الاختبار وقد يكون بالخير والشر كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] وقال: ﴿وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الأعراف: ١٦٨] قال ابن جرير: وأكثر ما يقال فى الشر بلوته أبلوه بلاء، وفى الخير أبليه إبلاء وبلاء، قال زهير بن أبى سلمى:

جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم وأبلاهما خير البلاء الذى يبلو

قال: فجمع بين اللغتين لأنه أراد فأنعم الله عليهما خير النعم التى يختبر بها عباده، وقيل: المراد بقوله: ﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ﴾ إشارة إلى ما كانوا فيه من العذاب المهين من ذبح الأبناء واستحياء النساء، قال القرطبى: وهذا قول الجمهور ولفظه بعد ما حكى القول الأول، ثم قال: وقال الجمهور: الإشارة إلى الذبح ونحوه، والبلاء ههنا فى الشر، والمعنى وفى الذبح مكروه وامتحان، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾، معناه وبعد أن أنقذناكم من آل فرعون وخرجتم مع موسى عليه السلام، خرج فرعون فى طلبكم ففرقنا بكم البحر كما أخبر تعالى عن ذلك مفصلاً كما سيأتى فى مواضعه ومن أبسطها ما فى سورة الشعراء إن شاء الله، ﴿فَأَنجَيْنَـٰكُمْ﴾ أى

خلصناكم منهم وحجزنا بينكم وبينهم وأغرقناهم وأنتم تنظرون، ليكون ذلك أشفى لصدوركم وأبلغ فى إهانة عدوكم. قال عبد الرزاق: أنبأنا معمر عن أبى إسحق الهمدانى عن عمرو بن ميمون الأودى فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ - إلى قوله - ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾، قال: لما خرج موسى ببنى إسرائيل، بلغ ذلك فرعون، فقال: لا تتبعوهم حتى تصيح الديكة، قال: فوالله ما صاح ليلتئذ ديك حتى أصبحوا، فدعا بشاة فذبحت، ثم قال: لا أفرغ من كبدها حتى يجتمع إلىّ ستمائة ألف من القبط فلم يفرغ من كبرها حتى اجتمع إليه ستمائة ألف من القبط ثم ثار، فلما أتى موسى البحر قال له رجل من أصحابه يقال له يوشع بن نون: أين أمر ربك؟ قال: أمامك، يشير إلى البحر، فأقحم يوشع فرسه فى البحر حتى بلغ الغمر، فذهب به الغمر، ثم رجع فقال: أين أمر ربك يا موسى؟ فوالله ما كذبت ولا كذبت، فعل ذلك ثلاث مرات ثم أوحى الله إلى موسى: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ [الشعراء: ٦٣]، فضربه ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣] يقول مثل الجبل - ثم سار موسى ومن معه، واتبعهم فرعون فى طريقهم حتى إذا تتاموا فيه أطبقه الله عليهم، فلذلك قال: ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ وكذلك قال غير واحد من السلف كما سيأتى بيانه فى موضعه، وقد ورد أن هذا اليوم كان يوم عاشوراء، كما قال الإمام أحمد [١]، حدثنا عفان حدثنا عبد الوارث حدثنا أيوب عن عبد الله بن سعيد بن جبير عن أبيه عن ابن عباس، قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة فرأى اليهود يصومون يوم عاشوراء، فقال: «ما هذا اليوم الذى تصومون؟» قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجى الله عز وجل فيه بنى إسرائيل من عدوهم، فصامه موسى عليه السلام، فقال رسول الله ﷺ: «أنا أحق بموسى منكم» فصامه رسول الله ﷺ وأمر بصومه، وروى هذا الحديث البخارى ومسلم والنسائى وابن ماجه [٢] من طرق عن أيوب السختيانى به نحو ما تقدم.

وقال أبو يعلى الموصلى [٣]: حدثنا أبو الربيع حدثنا سلام يعنى ابن سليم عن زيد العمى عن يزيد الرقاشى عن أنس عن النبى ﷺ قال: «فلق الله البحر لبنى إسرائيل يوم عاشوراء» وهذا ضعيف من هذا الوجه، فإن زيدًا العمى فيه ضعف، وشيخه يزيد الرقاشى أضعف منه.

﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾

يقول تعالى: واذكروا نعمتى عليكم فى عفوى عنكم، لما عبدتم العجل بعد ذهاب موسى لميقات ربه عند انقضاء أمد المواعدة، وكانت أربعين يومًا وهى المذكورة فى الأعراف فى قوله تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾ [الأعراف: ١٤٢] قيل إنها: ذو القعدة بكماله وعشر من ذى الحجة، وكان ذلك بعد خلاصهم من فرعون وإنجائهم من البحر، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى

---

(١) أحمد (٢٦٣٩)، ورجاله ثقات.

(٢) البخاري (٢٠٠٤)، ومسلم (١١٣٠)، والنسائي في «الكبرى» (٢/١٥٦)، برقم (٢٨٣٤)، وابن ماجه (١٧٣٤).

(٣) ضعيف: عزاه الهيثمي في «المجمع»، (٣/١٨٨) لأبى يعلى وقال: وفيه يزيد الرقاشي وفيه كلام وقد وثقه.

﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعنى التوراة ﴿وَٱلْفُرْقَانَ﴾ وهو ما يفرق بين الحق والباطل والهدى والضلال ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ وكان ذلك أيضًا بعد خروجهم من البحر كما دل عليه سياق الكلام فى سورة الأعراف، ولقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[القصص: ٤٣] وقيل: الواو زائدة، والمعنى ولقد آتينا موسى الكتاب الفرقان وهذا غريب، وقيل، عطف عليه وإن كان المعنى واحدًا، كما فى قول الشاعر:

وقدمت الأديم لراقشيه ... فألفى قولها كذبًا ومينا

وقال الآخر:

ألا حبذا هند وأرض بها هند ... وهند أتى من دونها النأى والبعد

فالكذب هو المين، والنأى: هو البعد. وقال عنترة:

حييت من طلل تقادم عهده ... أقوى وأقفر بعد أم الهيثم

فعطف الإقفار على الإقواء وهو هو.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾

هذه صفة توبته تعالى على بنى إسرائيل من عبادة العجل، قال الحسن البصرى رحمه الله فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ فقال: ذلك حين وقع فى قلوبهم من شأن عبادتهم العجل ما وقع حين قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾[الأعراف: ١٤٩] الآية. قال: فذلك حين يقول موسى ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ وقال أبو العالية وسعيد بن جبير والربيع بن أنس ﴿فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ أى إلى خالقكم، قلت: وفى قوله ههنا ﴿إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ تنبيه على عظم جرمهم، أى فتوبوا إلى الذى خلقكم وقد عبدتم معه غيره. وقد روى النسائى وابن جرير وابن أبى حاتم[1] من حديث يزيد بن هارون عن الأصبغ بن زيد الوراق عن القاسم بن أبى أيوب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، قال: فقال الله تعالى: إن توبتهم أن يقتل كل واحد منهم من لقى من والد وولد فيقتله بالسيف ولا يبالى من قتل فى ذلك الموطن، فتاب أولئك الذين كانوا خفى على موسى وهارون ما اطلع الله على ذنوبهم فاعترفوا بها وفعلوا ما أمروا به فغفر الله للقاتل والمقتول، وهذا قطعة من حديث الفتون وسيأتى فى سورة طه بكماله إن شاء الله.

وقال ابن جرير: حدثنى عبد الكريم بن الهيثم حدثنا إبراهيم بن بشار حدثنا سفيان بن عيينة قال: قال أبو سعيد عن عكرمة عن ابن عباس، قال: قال موسى لقومه: ﴿فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ قال: أمر موسى قومه عن أمر ربه عز وجل أن يقتلوا أنفسهم، قال: وأحتبى الذين عبدوا العجل فجلسوا وقام الذين لم يعكفوا على العجل فأخذوا

---

(١) النسائي في «الكبرى» (٦/ ٤٠٥)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٦٦): رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح غير أصبغ بن زيد والقسم بن أبي أيوب وهما ثقتان.

الخناجر بأيديهم وأصابتهم ظلمة شديدة، فجعل يقتل بعضهم بعضًا، فانجلت الظلة عنهم وقد أجلوا عن سبعين ألف قتيل، كل من قتل منهم كانت له توبة، وكل من بقى كانت له توبة. وقال ابن جريج: أخبرنى القاسم بن أبى بزة أنه سمع سعيد بن جبير ومجاهدًا يقولان فى قوله تعالى ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ قالا: قام بعضهم إلى بعض بالخناجر يقتل بعضهم بعضًا، لا يحنو رجل على قريب ولا بعيد حتى ألوى موسى بثوبه فطرحوا ما بأيديهم، فكشف عن سبعين ألف قتيل، وإن الله أوحى إلى موسى أن حسبى فقد اكتفيت فذلك حين ألوى موسى بثوبه وروى عن على رضى الله عنه نحو ذلك، وقال قتادة: أمر القوم بشديد من الأمر فقاموا يتناحرون بالشفار، يقتل بعضهم بعضًا، حتى بلغ الله فيهم نقمته، فسقطت الشفار من أيديهم، فأمسك عنهم القتل فجعله لحيهم توبة، وللمقتول شهادة وقال الحسن البصرى: أصابتهم ظلمة حندس، فقتل بعضهم بعضًا ثم انكشف عنهم فجعل توبتهم فى ذلك، وقال السدى فى قوله: ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ قال: فاجتلد الذين عبدوه والذين لم يعبدوه بالسيوف، فكان من قتل من الفريقين شهيدًا حتى كثر القتل حتى كادوا أن يهلكوا حتى قتل منهم سبعون ألفًا وحتى دعا موسى وهارون ربنا أهلكت بنى إسرائيل ربنا البقية البقية، فأمرهم أن يلقوا السلاح، وتاب عليهم، فكان من قتل منهم من الفريقين شهيدًا، ومن بقى مكفرًا عنه، فذلك قوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وقال الزهرى: لما أمرت بنو إسرائيل بقتل أنفسها برزوا ومعهم موسى فاضطربوا بالسيوف وتطاعنوا بالخناجر، وموسى رافع يديه حتى إذا أفنوا بعضهم، قالوا: يا نبى الله، ادع الله لنا، وأخذوا بعضديه يسندون يديه، فلم يزل أمرهم على ذلك حتى إذا قبل الله توبتهم قبض أيديهم بعضهم عن بعض فألقوا السلاح وحزن موسى وبنو إسرائيل للذى كان من القتل فيهم، فأوحى الله جل ثناؤه إلى موسى، ما يحزنك؟ أما من قتل منهم فحى عندى يرزقون، وأما من بقى فقد قبلت توبته، فسر بذلك موسى وبنو إسرائيل، رواه ابن جرير بإسناد جيد عنه.

وقال ابن إسحاق: لما رجع موسى إلى قومه وأحرق العجل وذراه فى اليم، خرج إلى ربه بمن اختار من قومه، فأخذتهم الصاعقة، ثم بعثوا، فسأل موسى ربه التوبة لبنى إسرائيل من عبادة العجل، فقال: لا إلا أن يقتلوا أنفسهم، قال: فبلغنى أنهم قالوا لموسى: نصبر لأمر الله فأمر موسى من لم يكن عبد العجل أن يقتل من عبده، فجلسوا بالأفنية، وأصلت عليهم القوم السيوف، فجعلوا يقتلونهم، وبكى موسى، وبهش إليه النساء والصبيان يطلبون العفو عنهم، فتاب الله عليهم وعفا عنهم، وأمر موسى أن ترفع عنهم السيوف وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لما رجع موسى إلى قومه وكانوا سبعين رجلًا قد اعتزلوا مع هارون العجل لم يعبدوه، فقال لهم موسى: انطلقوا إلى موعد ربكم، فقالوا: يا موسى. ما من توبة، قال: بلى، ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ الآية: فاخترطوا السيوف والجرزة والخناجر والسكاكين. قال: وبعث عليهم ضبابة، قال: فجعلوا يتلامسون بالأيدى ويقتل بعضهم بعضًا، قال: ويلقى الرجل أباه وأخاه فيقتله وهو لايدرى. قال: ويتنادون فيها رحم الله عبدًا صبر نفسه حتى يبلغ الله رضاه، قال: فقتلاهم شهداء، وتيب على أحيائهم ثم قرأ ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

يقول تعالى: واذكروا نعمتى عليكم فى بعثى لكم بعد الصعق إذ سألتم رؤيتى جهرة عيانًا مما لا يستطاع لكم ولا لأمثالكم، كما قال ابن جريج: قال ابن عباس فى هذه الآية: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ قال: علانية، وكذا قال إبراهيم بن طهمان عن عباد بن إسحاق عن أبى الحويرث عن ابن عباس، أنه قال فى قول الله تعالى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ أى علانية، أى حتى نرى الله، وقال قتادة والربيع بن أنس: ﴿حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ أى عيانًا، وقال أبو جعفر عن الربيع بن أنس: هم السبعون الذين اختارهم موسى فساروا معه، قال: فسمعوا كلامًا، فقالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ قال: فسمعوا صوتًا فصعقوا يقول: ماتوا. وقال مروان بن الحكم، فيما خطب به على منبر مكة: الصاعقة صيحة من السماء، وقال السدى فى قوله: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ الصاعقة: نار، وقال عروة بن رويم فى قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ قال: فصعق بعضهم وبعض ينظرون، ثم بعث هؤلاء وصعق هؤلاء، وقال السدى: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ فماتوا، فقام موسى يبكى ويدعو الله، ويقول: رب ماذا أقول لبنى إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ [الاعراف: ١٥٥] فأوحى الله إلى موسى أن هؤلاء السبعين ممن اتخذوا العجل، ثم إن الله أحياهم فقاموا وعاشوا رجل رجل، ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون؟ قال: فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ وقال الربيع بن أنس: كان موتهم عقوبة لهم فبعثوا من بعد الموت ليستوفوا آجالهم، وكذا قال قتادة.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن حميد حدثنا سلمة بن الفضل عن محمد بن إسحاق، قال: لما رجع موسى إلى قومه فرأى ما هم عليه من عبادة العجل، وقال لأخيه وللسامرى ما قال، وحرق العجل وذراه فى اليم، اختار موسى منهم سبعين رجلاً الخير فالخير، وقال: انطلقوا إلى الله وتوبوا إلى الله مما صنعتم، واسألوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم. فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقّته له ربه، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم، فقال له السبعون فيما ذكر لى حين صنعوا ما أمرهم به، وخرجوا للقاء الله، قالوا: يا موسى، اطلب لنا إلى ربك نسمع كلام ربنا، فقال أفعل، فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه الغمام حتى تغشى الجبل كله، ودنا موسى فدخل فيه، وقال للقوم: ادنوا، وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بنى آدم أن ينظر إليه، فضرب دونه بالحجاب، ودنا القوم حتى إذا دخلوا فى الغمام وقعوا سجودًا فسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه: افعل ولا تفعل، فلما فرغ إليه من أمره انكشف عن موسى الغمام، فأقبل إليهم، فقالوا لموسى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ فأخذتهم الرجفة وهى الصاعقة، فماتوا جميعًا، وقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ويقول ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] قد سفهوا، أفتهلك من ورائى من بنى إسرائيل بما يفعل السفهاء منا؟ أى إن هذا لهم هلاك واخترت منهم سبعين رجلاً الخير فالخير، أرجع إليهم وليس معى منهم رجل واحد، فما الذى

يصدقونى به ويأمنونى عليه بعد هذا؟ ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] فلم يزل موسى يناشد ربه عز وجل ويطلب إليه حتى رد إليهم أرواحهم، وطلب إليه التوبة لبنى إسرائيل من عبادة العجل، فقال: لا، إلا أن يقتلوا أنفسهم - هذا سياق محمد بن إسحاق - وقال إسماعيل بن عبد الرحمن السدى الكبير: لما تابت بنو إسرائيل من عبادة العجل، وتاب الله عليهم بقتل بعضهم لبعض كما أمرهم الله به، أمر الله موسى أن يأتيه فى كل أناس من بنى إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل ووعدهم موسى، فاختار موسى سبعين رجلاً على عينه، ثم ذهب بهم ليعتذروا، وساق البقية وهذا السياق يقتضى أن الخطاب توجه إلى بنى إسرائيل فى قوله: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ والمراد السبعون المختارون منهم ولم يحك كثير من المفسرين سواه، وقد أغرب الرازى فى تفسيره حين حكى فى قصة هؤلاء السبعين: أنهم بعد إحيائهم قالوا: يا موسى إنك لا تطلب من الله شيئًا إلا أعطاك، فادعه أن يجعلنا أنبياء، فدعا بذلك فأجاب الله دعوته، وهذا غريب جدًا إذ لا يعرف فى زمان موسى نبى سوى هارون ثم يوشع بن نون، وقد غلط أهل الكتاب أيضًا فى دعواهم أن هؤلاء رأوا الله عز وجل، فإن موسى الكليم عليه السلام قد سأل ذلك فمنع منه فكيف يناله هؤلاء السبعون؟

القول الثانى فى الآية: قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى تفسير هذه الآية: قال لهم موسى لما رجع من عند ربه بالألواح قد كتب فيها التوراة فوجدهم يعبدون العجل، فأمرهم بقتل أنفسهم ففعلوا، فتاب الله عليهم، فقال: إن هذه الألواح فيها كتاب الله فيه أمركم الذى أمركم به ونهيكم الذى نهاكم عنه. فقالوا: ومن يأخذه بقولك أنت؟ لا والله حتى نرى الله جهرة حتى يطلع الله علينا ويقول: هذا كتابى فخذوه، فما له لا يكلمنا كما يكلمك أنت يا موسى، وقرأ قول الله: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ قال: فجاءت غضبة من الله فجاءتهم صاعقة بعد التوبة فصعقتهم فماتوا أجمعون، قال: ثم أحياهم الله من بعد موتهم، وقرأ قول الله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ فقال لهم موسى: خذوا كتاب الله، فقالوا: لا، فقال: أى شىء أصابكم؟ فقالوا: أصابنا أنا متنا ثم حيينا، قال: خذوا كتاب الله، قالوا: لا، فبعث الله ملائكة فنتقت الجبل فوقهم. وهذا السياق يدل على أنهم كلفوا بعد ما أحيوا. وقد حكى الماوردى فى ذلك قولين: أحدهما: أنه سقط التكليف عنهم لمعاينتهم الأمر جهرة حتى صاروا مضطرين إلى التصديق، والثانى: أنهم مكلفون لئلا يخلو عاقل من تكليف، قال القرطبى: وهذا هو الصحيح لأن معاينتهم للأمور الفظيعة لا تمنع تكليفهم لأن بنى إسرائيل قد شاهدوا أمورًا عظامًا من خوارق العادات، وهم فى ذلك مكلفون وهذا واضح، والله أعلم.

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾

لما ذكر تعالى ما دفعه عنهم من النقم، شرع يذكرهم أيضًا بما أسبغ عليهم من النعم، فقال: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾ وهو جمع غمامة، سمى بذلك لأنه يغم السماء أى يواريها ويسترها، وهو السحاب الأبيض ظللوا به فى التيه ليقيهم حر الشمس، كما رواه النسائى وغيره عن ابن عباس فى حديث الفتون، قال: ثم ظلل عليهم فى التيه بالغمام، وقال ابن أبى حاتم وروى عن ابن عمر

والربيع بن أنس وأبى مجلز والضحاك والسدى نحو قول ابن عباس، وقال الحسن وقتادة: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾ كان هذا فى البرية، ظلل عليهم الغمام من الشمس، وقال ابن جرير: قال آخرون: وهو غمام أبرد من هذا وأطيب. وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى حدثنا أبو حذيفة حدثنا شبل عن ابن أبى نجيح عن مجاهد ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾ قال: ليس بالسحاب هو الغمام الذى يأتى الله فيه يوم القيامة ولم يكن إلا لهم. وهكذا رواه ابن جرير عن المثنى بن إبراهيم عن أبى حذيفة، وكذا رواه الثورى وغيره عن ابن أبى نجيح عن مجاهد وكأنه يريد، والله أعلم، أنه ليس من زى هذا السحاب بل أحسن منه وأطيب وأبهى منظرًا، كما قال سنيد فى تفسيره عن حجاج بن محمد عن ابن جريج، قال: قال ابن عباس: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾ قال: غمام أبرد من هذا وأطيب وهو الذى يأتى الله فيه فى قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠] وهو الذى جاءت فيه الملائكة يوم بدر. قال ابن عباس وكان معهم فى التيه، وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ﴾ اختلفت عبارات المفسرين فى المن ما هو؟ فقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: كان المنّ ينزل عليهم على الأشجار، فيغدون إليه، فيأكلون منه ما شاؤوا. وقال مجاهد: المن: صمغة، وقال عكرمة: المن: شىء أنزله الله عليهم مثل الطل شبه الرّب الغليظ، وقال السدى، قالوا: يا موسى، كيف لنا بما ههنا، أين الطعام؟ فأنزل الله عليهم المن، فكان يسقط على شجرة الزنجبيل، وقال قتادة: كان المن ينزل محلتهم فى محلهم سقوط الثلج أشد بياضًا من اللبن وأحلى من العسل، يسقط عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، يأخذ الرجل منهم قدر ما يكفيه يومه ذلك، فإذا تعدى ذلك فسد ولم يبق، حتى إذا كان يوم سادسه ليوم جمعته أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه لأنه كان يوم عيد لا يشخص فيه لأمر معيشته ولا يطلبه لشىء، وهذا كله فى البرية، وقال الربيع بن أنس: المن شراب كان ينزل عليهم مثل العسل فيمزجونه بالماء ثم يشربونه. وقال وهب بن منبه، وسئل عن المن، فقال: خبز رقاق مثل الذرة أو مثل النقى، وقال أبو جعفر بن جرير حدثنى محمد بن إسحاق حدثنا أبو أحمد حدثنا إسرائيل عن جابر عن عامر، وهو الشعبى، قال: عسلكم هذا جزء من سبعين جزءًا من المن، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنه العسل، ووقع فى شعر أمية بن أبى الصلت حيث قال:

فرأى الله أنهم بمضيع لا ... بذى مزرع ولا مشمورا
فسناها عليهم غاديات ... وترى مزنهم خلايا وخورا
عسلًا ناطفًا وماء فراتا ... وحليبًا ذا بهجة مرمورا

فالناطف هو السائل والحليب المرمور الصافى منه، والغرض أن عبارات المفسرين متقاربة فى شرح المن، فمنهم من فسره بالطعام، ومنهم من فسره بالشراب، والظاهر، والله أعلم، أنه كل ما امتن الله به عليهم من طعام وشراب وغير ذلك مما ليس لهم فيه عمل ولا كد، فالمن المشهور إن أُكل وحده كان طعامًا وحلاوة، وإن مزج مع الماء صار شرابًا طيبًا، وإن ركب مع غيره صار نوعًا آخر، ولكن ليس هو المراد من الآية وحده، والدليل على ذلك قول البخارى[1]: حدثنا أبو نعيم حدثنا سفيان عن عبد الملك عن عمرو بن حريث عن سعيد بن زيد رضى الله عنه، قال: قال النبى ﷺ: «الكمأة من

(١) البخاري (٤٤٧٨).

المن وماؤها شفاء للعين» وهذا الحديث رواه الامام أحمد[١] عن سفيان بن عيينة عن عبد الملك وهو ابن عمير به، وأخرجه الجماعة[٢] فى كتبهم إلا أبا داود من طرق عن عبد الملك وهو ابن عمير به، وقال الترمذى: حسن صحيح، ورواه البخارى ومسلم والنسائي[٣] من رواية الحكم عن الحسن العرنى عن عمرو بن حريث به، وقال الترمذى[٤]: حدثنا أبو عبيدة بن أبى السفر ومحمود بن غيلان، قالا: حدثنا سعيد بن عامر عن محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: **«العجوة من الجنة، وفيها شفاء من السم، والكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين»** تفرد بإخراجه الترمذى ثم قال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث محمد بن عمرو وإلا من حديث سعيد بن عامر عنه، وفى الباب عن سعيد بن زيد وأبى سعيد وجابر - كذا قال - وقد رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسيره من طريق آخر عن أبى هريرة، فقال: حدثنا أحمد بن الحسن بن أحمد البصرى، حدثنا أسلم بن سهل حدثنا القاسم بن عيسى حدثنا طلحة بن عبد الرحمن عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين»** وهذا حديث غريب من هذا الوجه وطلحة بن عبد الرحمن هذا السلمى الواسطى يكنى بأبى محمد وقيل: أبو سليمان المؤدب قال فيه الحافظ أبو أحمد بن عدى: روى عن قتادة أشياء لا يتابع عليها.

ثم قال الترمذى[٥]: حدثنا محمد بن بشار حدثنا معاذ بن هشام حدثنا أبى عن قتادة عن شهر بن حوشب عن أبى هريرة: أن ناسًا من أصحاب النبى ﷺ قالوا: الكمأة جدرى الأرض فقال نبى الله ﷺ: **«الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين والعجوة من الجنة وهى شفاء من السم»** وهذا الحديث قد رواه النسائى[٦] عن محمد بن بشار به، وعنه عن غندر عن شعبة عن أبى بشر جعفر بن إياس عن شهر بن حوشب عن أبى هريرة به، وعن محمد بن بشار عن عبد الأعلى عن خالد الحذاء عن شهر بن حوشب بقصة الكمأة فقط. وروى النسائى أيضًا وابن ماجه[٧] من حديث محمد بن بشار عن أبى عبد الصمد عبد العزيز بن عبد الصمد عن مطر الوراق عن شهر: بقصة العجوة عند النسائى، وبالقصتين عند ابن ماجه، وهذه الطريق منقطعة بين شهر بن حوشب وأبى هريرة، فإنه لم يسمع منه بدليل ما رواه النسائى[٨] فى الوليمة من سننه عن على بن الحسين الدرهمى عن عبد الأعلى عن

---

(١) **صحيح**: أحمد (١٦٢٩)، انظر صحيح الجامع الصغير.

(٢) **صحيح**: الترمذي (٢٠٦٧)، والنسائي في «الكبرى» (٤/ ١٥٦)، برقم (٦٦٦٧)، وابن ماجه (٣٤٥٤)، وأحمد (١٦٣٥)، وانظر صحيح جامع الترمذي.

(٣) البخاري (٤٤٧٨)، ومسلم (٢٠٤٩).

(٤) **حسن صحيح**: الترمذي (٢٠٦٦)، انظر صحيح جامع الترمذي.

(٥) **صحيح**: الترمذي (٢٠٦٨)، انظر صحيح جامع الترمذي.

(٦) النسائي في «الكبرى» (٤/ ١٥٧)، برقم (٦٦٧٢). ورواية النسائي عن محمد بن بشار (بقصة الكمأة فقط) أخرجها النسائي في «الكبرى» (٤/ ١٥٧)، برقم (٦٦٧٣).

(٧) **صحيح**: (رواية النسائي سبق تخريجها) أما ابن ماجه فأخرجها (٣٤٥٥)، وانظر صحيح سنن ابن ماجه.

(٨) النسائي في «الكبرى» (٤/ ١٥٧)، برقم (٦٦٧٠).

سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم عن أبى هريرة، قال: خرج رسول الله ﷺ وهم يذكرون الكمأة وبعضهم يقول: جدرى الأرض، فقال: «الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين» وروى عن شهر بن حوشب عن أبى سعيد وجابر كما قال الإمام أحمد [١]: حدثنا أسباط بن محمد حدثنا الأعمش عن جعفر بن إياس عن شهر بن حوشب عن جابر بن عبد الله وأبى سعيد الخدرى، قالا: قال رسول الله ﷺ: «الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين، والعجوة من الجنة، وهى شفاء من السم» وقال النسائى [٢] فى الوليمة أيضًا: حدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبى بشر جعفر بن إياس عن شهر بن حوشب عن أبى سعيد وجابر رضى الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين» ثم رواه أيضًا ابن ماجه [٣] من طرق عن الأعمش عن أبى بشر عن شهر عنهما به، وقد رويا - أعنى النسائى وابن ماجه من حديث سعيد مسلم - كلاهما عن الأعمش عن جعفر بن إياس عن أبى نضرة عن أبى سعيد زاد النسائى [٤] جابر عن النبى ﷺ قال: «الكمأة من المنّ وماؤها شفاء للعين» ورواه ابن مردويه عن أحمد بن عثمان عن عباس الدورى عن لاحق بن صواب عن عمار بن زريق عن الأعمش كابن ماجه، وقال ابن مردويه أيضًا: حدثنا أحمد بن عثمان حدثنا عباس الدورى حدثنا الحسن بن الربيع حدثنا أبو الأحوص عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن أبى سعيد الخدرى، قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وفى يده كمآت، فقال: «الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين» وأخرجه النسائى [٥] عن عمرو بن منصور عن الحسن بن الربيع به: ثم رواه أيضًا عن عبد الله بن إسحاق عن الحسن بن سلام عن عبيد الله بن موسى، عن شيبان عن الأعمش به، وكذا رواه النسائى [٦] عن أحمد بن عثمان بن حكيم عن عبيد الله بن موسى، وقد روى من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه، كما قال ابن مردويه: حدثنا محمد بن عبد الله بن إبراهيم حدثنا حمدون بن أحمد حدثنا حوثرة بن أشرس حدثنا حماد عن شعيب بن الحبحاب عن أنس: أن أصحاب رسول الله ﷺ تدارؤوا فى الشجرة التى اجتثت من فوق الأرض ما لها عن قرار، فقال بعضهم: نحسبه الكمأة، فقال رسول الله ﷺ: «الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين، والعجوة من الجنة، وفيها شفاء من السم» وهذا الحديث محفوظ أصله من رواية حماد بن سلمة. وقد روى الترمذى والنسائى [٧] من طريقه شيئًا من هذا، والله أعلم. وروى عن شهر عن ابن عباس كما رواه النسائى أيضًا فى الوليمة عن أبى بكر أحمد بن على بن سعيد عن عبد الله بن عون الخراز عن أبى عبيدة الحداد عن عبد الجليل بن عطية عن شهر عن عبد الله بن عباس

---

(١) أحمد (١١٠٦١)، ورجاله ثقات.

(٢) النسائي في «الكبرى» (٤/ ١٥٧)، برقم (٦٦٧٤)، من طريق هلال بن العلاء قال: ثنا حسين، قال: ثنا أبو خيثمة، قال: ثنا الأعمش عن جعفر بن إياس عن شهر عن أبي سعيد وجابر رضي الله عنهما. انظر صحيح الجامع (٤٦١٣).

(٣) صحيح: ابن ماجه (٣٤٥٣)، انظر صحيح سنن ابن ماجه.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) لم أقف عليه من هذا الطريق.

(٦) النسائي في «الكبرى» (٤/ ١٥٦)، برقم (٦٦٦٩).

(٧) سبق تخريجه.

عن النبى ﷺ قال: «الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين» فقد اختلف كما ترى فيه على شهر بن حوشب ويحتمل عندى أنه حفظه ورواه من هذه الطرق كلها، وقد سمعه من بعض الصحابة وبلغه عن بعضهم، فإن الأسانيد إليه جيدة، وهو لا يتعمد الكذب، وأصل الحديث محفوظ عن رسول الله ﷺ كما تقدم من رواية سعيد بن زيد رضى الله عنه.

وأما السلوى، فقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: السلوى طائر يشبه بالسمانى، كانوا يأكلون منه. وقال السدى فى خبر ذكره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة: السلوى طائر يشبه السمانى، وقال ابن أبى حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث حدثنا قرة بن خالد عن جهضم عن ابن عباس، قال: السلوى هو السمانى، وكذا قال مجاهد والشعبى والضحاك والحسن وعكرمة والربيع بن أنس رحمهم الله تعالى، وعن عكرمة أما السلوى فطير كطير يكون بالجنة أكبر من العصفور أو نحو ذلك، وقال قتادة: السلوى كان من طير أقرب إلى الحمرة تحشرها عليهم الريح الجنوب وكان الرجل يذبح منها قدر ما يكفيه يومه ذلك فإذا تعدى فسد ولم يبق عنده حتى إذا كان يوم سادسه ليوم جمعته أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه لأنه كان يوم عبادة لا يشخص فيه لشىء ولا يطلبه، وقال وهب بن منبه: السلوى طير سمين مثل الحمام كان يأتيهم فيأخذون منه من سبت إلى سبت وفى رواية عن وهب قال: سألت بنو إسرائيل موسى عليه السلام اللحم فقال الله: لأطعمنهم من أقل لحم يعلم فى الأرض فأرسل عليهم ريحًا فأذرت عند مساكنهم السلوى وهو السمانى مثل ميل فى ميل قيد رمح فى السماء فخبأوا للغد فنتن اللحم وخنز الخبز، وقال السدى: لما دخل بنو إسرائيل التيه قالوا لموسى عليه السلام كيف لنا بما ههنا أين الطعام؟ فأنزل الله عليهم المن فكان ينزل على شجر الزنجبيل، والسلوى وهو طائر يشبه السمانى أكبر منه فكان يأتى أحدهم فينظر إلى الطير فإن كان سمينًا ذبحه وإلا أرسله فإذا سمن أتاه فقالوا: هذا الطعام. فأين الشراب؟ فأمر موسى فضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا فشرب كل سبط من عين، فقالوا: هذا الشراب فأين الظل؟ فظلل عليهم الغمام، فقالوا: هذا الظل فأين اللباس؟ فكانت ثيابهم تطول معهم كما تطول الصبيان ولا ينخرق لهم ثوب، فذلك قوله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ وقوله: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠] وروى عن وهب بن منبه وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم نحو ما قاله السدى، وقال سنيد: عن حجاج عن ابن جريج قال: قال ابن عباس خلق لهم فى التيه ثياب لا تخرق ولا تدرن، قال ابن جريج: فكان الرجل إذا أخذ من المن والسلوى فوق طعام يوم فسد إلا أنهم كانوا يأخذون فى يوم الجمعة طعام يوم السبت فلا يصبح فاسدًا، قال ابن عطية: السلوى طير بإجماع المفسرين وقد غلط الهذلى فى قوله أنه العسل وأنشد فى ذلك مستشهدًا:

وقاسمها بالله جهدًا لأنتم ألذ من السلوى إذا ما أشورها

قال فظن أن للسلوى عسلاً، قال القرطبى: دعوى الإجماع لا تصح لأن المؤرخ أحد علماء اللغة والتفسير قال: إنه العسل واستدل ببيت الهذلى هذا وذكر أنه كذلك فى لغة كنانة لأنه يسلى به ومنه عين

سلوان، وقال الجوهرى: السلوى العسل واستشهد ببيت الهذلى أيضًا، والسلوانة بالضم خرزة كانوا يقولون إذا صب عليها ماء المطر فشربها العاشق سلا، قال الشاعر:

شربت على سلوانة ماء مزنة فلا وجديد العيش يامى ما أسلو

واسم ذلك الماء السلوان، وقال بعضهم السلوان دواء يشفى الحزين فيسلوا والأطباء يسمونه (مفرج)، قالوا: والسلوى جمع بلفظ الواحد أيضًا كما يقال: سمانى للمفرد والجمع وويلى كذلك، وقال الخليل واحده سلواة، وأنشد:

وإنى لتعرونى لذكراك هزة كما انتقض السلواة من بلل القطر

وقال الكسائى: السلوى واحدة وجمعه سلاوى، نقله كله القرطبى، وقوله تعالى: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ أمر إباحة وإرشاد وامتنان، وقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧] أى أمرناهم بالأكل مما رزقناهم وأن يعبدوا كما قال: ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا لَهُۥ﴾ [سبأ: ١٥] فخالفوا وكفروا فظلموا أنفسهم هذا مع ما شاهدوه من الآيات البينات والمعجزات القاطعات، وخوراق العادات، ومن ههنا تتبين فضيلة أصحاب محمد ﷺ ورضى الله عنهم على سائر أصحاب الأنبياء فى صبرهم وثباتهم وعدم تعنتهم مع ما كانوا معه فى أسفاره وغزواته منها عام تبوك فى ذلك القيظ والحر الشديد والجهد لم يسألوا خرق عادة ولا إيجاد أمر مع أن ذلك كان سهلاً على النبى ﷺ لكن لما أجهدهم الجوع سألوه فى تكثير طعامهم فجمعوا ما معهم فجاء قدر مبرك الشاة فدعا الله فيه وأمرهم فملؤوا كل وعاء معهم وكذا لما احتاجوا إلى الماء سأل الله تعالى فجاءتهم سحابة فأمطرتهم فشربوا وسقوا الإبل وملؤوا أسقيتهم ثم نظروا فإذا هى لم تجاوز العسكر. فهذا هو الأكمل فى اتباع الشىء مع قدر الله مع متابعة الرسول ﷺ.

﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾

يقول تعالى لائمًا لهم على نكولهم عن الجهاد ودخولهم الأرض المقدسة لما قدموا من بلاد مصر صحبة موسى عليه السلام فأمروا بدخول الأرض المقدسة التى هى ميراث لهم عن أبيهم إسرائيل وقتال من فيها من العماليق الكفرة فنكلوا عن قتالهم وضعفوا واستحسروا فرماهم الله تعالى فى التيه عقوبة لهم كما ذكره تعالى فى سورة المائدة، ولهذا كان أصح القولين أن هذه البلدة هى بيت المقدس كما نص على ذلك السدى والربيع بن أنس وقتادة وأبو مسلم الأصفهانى وغير واحد وقد قال الله تعالى حاكيًا عن موسى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟﴾ [المائدة: ٢١-٢٤]. وقال آخرون هى أريحا، ويحكى عن ابن عباس وعبد الرحمن بن زيد وهذا بعيد لأنها ليست على طريقهم وهم قاصدون بيت المقدس لا أريحا، وأبعد من ذلك قول من ذهب إلى أنها مصر، حكاه الرازى فى تفسيره، والصحيح الأول أنها بيت المقدس، وهذا كان لما خرجوا من التيه بعد أربعين سنة مع يوشع بن نون عليه السلام وفتحها الله عليهم عشية جمعة وقد حبست لهم الشمس يومئذ قليلاً حتى

أمكن الفتح، وأما أريحا فقرية ليست مقصون بني إسرائيل ولما فتحوها أمروا أن يدخلوا الباب باب البلد ﴿سُجَّدًا﴾ أى شكرًا لله تعالى على ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر ورد بلدهم عليهم وإنقاذهم من التيه والضلال، قال العوفى فى تفسيره عن ابن عباس أنه كان يقول فى قوله تعالى: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ أى ركعًا، وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار حدثنا أبو أحمد الزبيرى حدثنا سفيان عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ قال ركعًا من باب صغير، ورواه الحاكم من حديث سفيان به، ورواه ابن أبى حاتم من حديث سفيان وهو الثورى به وزاد فدخلوا من قبل أستاههم، وقال الحسن البصرى: أمروا أن يسجدوا على وجوههم حال دخولهم واستبعده الرازى، وحكى عن بعضهم أن المراد ههنا فى السجود الخضوع لتعذر حمله على حقيقته، وقال خصيف: قال عكرمة: قال ابن عباس: كان الباب قبل القبلة.

وقال ابن عباس ومجاهد والسدى وقتادة والضحاك: هو باب الحطة من باب إيلياء بيت المقدس، وحكى الرازى عن بعضهم أنه عنى بالباب جهة من جهات القبلة، وقال خصيف: قال عكرمة: قال ابن عباس فدخلوا على شق، وقال السدى: عن أبى سعيد الأزدى عن أبى الكنود عن عبد الله بن مسعود قيل لهم: ادخلوا الباب سجّدًا فدخلوا مقنعى رؤوسهم أى رافعى رؤوسهم خلاف ما أمروا، وقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ قال الثورى عن الأعمش عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ قال: مغفرة استغفروا، وروى عن عطاء والحسن وقتادة والربيع بن أنس نحوه.

وقال الضحاك عن ابن عباس: ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ قال: قولوا هذا الأمر حق كما قيل لكم، وقال عكرمة: قولوا لا إله إلا الله وقال الأوزاعى: كتب ابن عباس إلى رجل قد سماه فسأله عن قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ فكتب إليه أن أقروا بالذنب.

وقال الحسن وقتادة: أى أحطط عنا خطايانا ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وقال: هذا جواب الأمر أى إذا فعلتم ما أمرناكم غفرنا لكن الخطيئات وضاعفنا لكم الحسنات وحاصل الأمر أنهم أمروا أن يخضعوا لله تعالى عند الفتح بالفعل والقول وأن يعترفوا بذنوبهم ويستغفروا منها والشكر على النعمة عندها والمبادرة إلى ذلك من المحبوب عند الله تعالى كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ١-٣] فسره بعض الصحابة بكثرة الذكر والاستغفار عند الفتح والنصر، وفسره ابن عباس بأنه نعى إلى رسول الله ﷺ أجله فيها وأقره على ذلك عمر رضى الله عنه، ولا منافاة بين أن يكون قد أمر بذلك عند ذلك ونعى إليه روحه الكريمة أيضًا، ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يظهر عليه الخضوع جدًا عند النصر كما روى أنه كان يوم الفتح فتح مكة داخلاً إليها من الثنية العليا وأنه لخاضع لربه حتى أن عثنونه ليمس مورك رحله شكرًا لله على ذلك، ثم لما دخل البلد اغتسل وصلى ثمانى ركعات وذلك ضحى، وقال بعضهم: هذه صلاة الضحى، وقال آخرون بل هى صلاة الفتح فاستحبوا للإمام وللأمير إذا فتح بلدًا أن يصلى فيه ثمانى ركعات عند أول دخوله كما فعل سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه لما دخل إيوان كسرى صلى فيه ثمانى ركعات والصحيح أنه يفصل بين كل ركعتين بتسليم، وقيل يصليها كلها بتسليم واحد، والله أعلم.

وَقَوْلُه تَعَالَى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ قال البخارى[١] حدثنى محمد حدثنا عبد الرحمن بن مهدى عن ابن المبارك عن معمر عن همام بن منبه عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «**قيل لبنى اسرائيل ادخلوا الباب سجدًا وقولوا حطة - فدخلوا يزحفون على أستاههم فبدلوا وقالوا: حبة فى شعرة**» ورواه النسائى[٢] عن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم عن عبد الرحمن بن مهدى به موقوفًا وعن محمد بن عبيد بن محمد عن ابن المبارك ببعضه مسندًا فى قوله تعالى: ﴿حِطَّةٌ﴾ قال: فبدلوا وقالوا حبة، وقال عبد الرزاق[٣] أنبأنا معمر عن همام بن منبه أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله لبنى إسرائيل: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ فبدلوا ودخلوا الباب يزحفون على أستاههم فقالوا: حبة فى شعرة**» وهذا حديث صحيح رواه البخارى عن إسحاق بن نصر ومسلم عن محمد بن رافع والترمذى عن عبد الرحمن بن حميد كلهم عن عبد الرزاق به، وقال الترمذى: حسن صحيح، وقال محمد بن إسحاق: كان تبديلهم كما حدثنى صالح بن كيسان عن صالح مولى التوأمة عن أبى هريرة وعمن لا أتهم عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «**دخلوا الباب - الذى أمروا أن يدخلوا فيه سجدًا - يزحفون على أستاههم وهم يقولون حنطة فى شعيرة**» وقال أبو داود[٤] حدثنا أحمد بن صالح وحدثنا سليمان بن داود حدثنا عبد الله بن وهب حدثنا هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ: «قال الله لبنى إسرائيل ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ ثم قال أبو داود[٥] حدثنا جعفر بن مسافر حدثنا ابن أبى فديك عن هشام بن سعد بمثله، هكذا رواه منفردًا به فى كتاب الحروف مختصرًا، وقال ابن مردويه[٦]: حدثنا عبد الله بن جعفر حدثنا إبراهيم بن مهدى حدثنا أحمد بن محمد بن المنذر القزاز حدثنا محمد بن إسماعيل بن أبى فديك عن هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى، قال: سرنا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كان من آخر الليل أجزنا فى ثنية يقال لها: ذات الحنظل، فقال رسول الله ﷺ: «**ما مثل هذه الثنية الليلة إلا كمثل الباب الذى قال الله لبنى إسرائيل: ادخلوا الباب سجدًا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم**» وقال سفيان الثورى عن أبى إسحاق عن البراء: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٢] قال: اليهود قيل لهم: ادخلوا الباب سجدًا قال: ركعًا، وقولوا حطة أى مغفرة، فدخلوا على أستاههم وجعلوا يقولون حنطة حمراء فيها شعيرة، فذلك قول الله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ وقال الثورى عن السدى عن أبى سعد الأزدى عن أبى الكنود عن ابن مسعود وقولوا حطة، فقالوا حنطة، حبة حمراء فيها شعيرة، فأنزل الله: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ وقال أسباط: عن السدى عن مرة عن ابن مسعود أنه قال: إنهم قالوا هُطِّى سمعاتا أزبة مزبا،

---

(١) البخاري، (٤٤٧٩).

(٢) النسائي في «الكبرى» (٦/ ٢٨٦)، برقم (١٠٩٨٩)، ورجاله ثقات.

(٣) **صحيح**: أحمد (٢٧٥٤٤)، انظر صحيح جامع الترمذي.

(٤) **حسن صحيح**: أبو داود (٤٠٠٦)، انظر صحيح سنن أبى داود.

(٥) انظر ما قبله.

(٦) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ١٧٤) لابن مردويه، وقال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ١٤٤): رجاله ثقات.

فهى بالعربية حبة حنطة حمراء مثقوبة فيها شعرة سوداء فذلك قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ وقال الثورى: عن الأعمش عن المنهال عن سعيد عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ قال ركعًا من باب صغير، فدخلوا من قبل أستاههم وقالوا حنطة، فذلك قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ وهكذا روى عن عطاء ومجاهد وعكرمة والضحاك والحسن وقتادة والربيع بن أنس ويحيى بن رافع. وحاصل ما ذكره المفسرون وما دل عليه السياق من الحديث: أنهم بدلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل فأمروا أن يدخلوا سجدًا فدخلوا يزحفون على أستاههم من قبل أستاههم رافعى رؤوسهم وأمروا أن يقولوا حطة أى أحطط عنا ذنوبنا وخطايانا، فاستهزؤوا فقالوا حنطة فى شعيرة، وهذا فى غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسقهم وهو خروجهم عن طاعته. ولهذا قال: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ وقال الضحاك عن ابن عباس: كل شىء فى كتاب الله من الرجز يعنى به العذاب، وهكذا روى عن مجاهد وأبى مالك والسدى والحسن وقتادة أنه العذاب وقال أبو العالية الرجز الغضب، وقال الشعبى: الرجز إما الطاعون وإما البرد، وقال سعيد بن جبير هو الطاعون، وقال ابن أبى حاتم [١] حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا وكيع عن سفيان عن حبيب بن أبى ثابت عن إبراهيم بن سعد يعنى ابن أبى وقاص عن سعد بن مالك وأسامة بن زيد وخزيمة بن ثابت رضى الله عنهم، قالوا: قال رسول الله ﷺ: **«الطاعون رجز عذاب عذب به من كان قبلكم»** وهكذا رواه النسائى [٢] من حديث سفيان الثورى به، وأصل الحديث فى الصحيحين [٣] من حديث حبيب بن أبى ثابت: **«إذا سمعتم الطاعون بأرض فلا تدخلوها»** الحديث، قال ابن جرير [٤]: أخبرنى يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب عن يونس عن الزهرى، قال: أخبرنى عامر بن سعد بن أبى وقاص عن أسامة بن زيد عن رسول الله ﷺ قال: «إن هذا الوجع والسقم رجز عُذب به بعض الأمم قبلكم» وهذا الحديث أصله مخرج فى الصحيحين [٥] من حديث الزهرى، ومن حديث مالك عن محمد بن المنكدر وسالم بن أبى النضر عن عامر بن سعد بنحوه.

ثلاثة أرباع الحزب ١

﴿۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾

يقول تعالى: واذكروا نعمتى عليكم فى إجابتى لنبيكم موسى عليه السلام حين استسقانى لكم وتيسيرى لكم الماء وإخراجه لكم من حجر يُحَملُ معكم وتفجيرى الماء لكم منه من اثنتى عشرة عينًا لكل سبط من أسباطكم عين قد عرفوها فكلوا من المن والسلوى واشربوا من هذا الماء الذى أنبعته لكم بلا سعى منكم ولا كد واعبدوا الذى سخر لكم ذلك: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ولا تقابلوا النعم بالعصيان فتسلبوها. وقد بسطه المفسرون فى كلامهم كما قال ابن عباس رضى الله عنه وجعل

---

(١) ابن أبي حاتم (١/ ١٢٠)، وانظر ما بعده.
(٢) صحيح: النسائي في «الكبرى» (٤/ ٣٦٢)، برقم (٧٥٢٣)، انظر صحيح الجامع، (٢٢٤٨).
(٣) البخاري، (٥٧٢٨)، ومسلم (٢٢١٨)، من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.
(٤) ابن جرير (١/ ٣٠٥)، وانظر ما بعده. (٥) البخاري (٣٤٧٣)، ومسلم (٢٢١٨).

بين ظهرانيهم حجر مربع وأمر موسى عليه السلام فضربه بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا فى كل ناحية منه ثلاث عيون وأعلم كل سبط عينهم يشربون منها لا يرتحلون من منقلة إلا وجدوا ذلك معهم بالمكان الذى كان منهم بالمنزل الأول، وهذا قطعة من الحديث الذى رواه النسائى وابن جرير وابن أبى حاتم وهو حديث الفتون الطويل.

وقال عطية العوفى: وجعل لهم حجرًا مثل رأس الثور يحمل على ثور فإذا نزلوا منزلاً وضعوه فضربه موسى عليه السلام بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا فإذا ساروا حملوه على ثور فاستمسك الماء وقال عثمان بن عطاء الخراسانى عن أبيه: كان لبنى اسرائيل حجر فكان يضعه هارون ويضربه موسى بالعصا، وقال قتادة: كان حجرًا طوريًا من الطور يحملونه معهم حتى إذا نزلوا ضربه موسى بعصاه، وقال الزمخشرى: وقيل: كان من الرخام وكان ذراعًا فى ذراع وقيل مثل رأس الإنسان وقيل كان من الجنة طوله عشرة أذرع على طول موسى وله شعبتان تتقدان فى الظلمة وكان يحمل على حمار، قال: وقيل: اهبطه آدم من الجنة فتوارثوه حتى وقع إلى شعيب فدفعه إليه مع العصا وقيل: هو الحجر الذى وضع عليه ثوبه حين اغتسل، فقال له جبريل: ارفع هذا الحجر فإن فيه قدرة ولك فيه معجزة فحمله فى مخلاته.

قال الزمخشرى: ويحتمل أن تكون اللام للجنس لا للعهد أى اضرب الشىء الذى يقال له الحجر، وعن الحسن لم يأمره أن يضرب حجرًا بعينه، قال: وهذا أظهر فى المعجزة وأبين فى القدرة فكان يضرب الحجر بعصاه فينفجر ثم يضربه فييبس، فقالوا إن فقد موسى هذا الحجر عطشنا، فأوحى الله إليه أن يكلم الحجارة فتنفجر ولا يمسها بالعصا لعلهم يقرون، والله أعلم، وقال يحيى بن النضر: قلت لجويبر: كيف علم كل أناس مشربهم؟ قال: كان موسى يضع الحجر ويقوم من كل سبط رجل ويضرب موسى الحجر فينفجر منه اثنتا عشرة عينًا فينضح من كل عين على رجل فيدعو ذلك الرجل سبطه إلى تلك العين، وقال الضحاك: قال ابن عباس: لما كان بنو اسرائيل فى التيه شق لهم من الحجر أنهارًا، وقال سفيان الثورى عن أبى سعيد عن عكرمة عن ابن عباس: قال: ذلك فى التيه ضرب لهم موسى الحجر فصار فيه اثنتا عشرة عينًا من ماء لكل سبط منهم عين يشربون منها، وقال مجاهد نحو قول ابن عباس وهذه القصة شبيهة بالقصة التى فى سورة الأعراف ولكن تلك مكية، فلذلك كان الإخبار عنهم بضمير الغائب لأن الله تعالى يقص على رسوله ﷺ ما فعل بهم. وأما فى هذه السورة - وهى البقرة - فهى مدنية، فلهذا كان الخطاب فيها متوجهًا إليهم. وأخبر هناك بقوله: ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗا﴾ [الأعراف: ١٦٠] وهو أول الانفجار، وأخبر ههنا بما آل إليه الحال آخرًا وهو الانفجار فناسب ذكر الانفجار ههنا وذاك هناك، والله أعلم، وبين السياقين تباين من عشرة أوجه لفظية ومعنوية قد سأل عنها الزمخشرى فى تفسيره وأجاب عنها بما عنده، والأمر فى ذلك قريب. والله أعلم.

﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ ﴿٦١﴾﴾

يقول تعالى: واذكروا نعمتى عليكم فى إنزالى عليكم المن والسلوى طعامًا طيبًا نافعًا هنيئًا سهلاً

واذكروا دبركم وضجركم مما رزقناكم وسؤالكم موسى استبدال ذلك بالأطعمة الدنيه من البقول ونحوها مما سألتم وقال الحسن البصرى-رحمه الله-: فبطروا ذلك ولم يصبروا عليه، وذكروا عيشهم الذى كانوا فيه، وكانوا قومًا أهل أعداس وبصل وبقول وفوم فقالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ وإنما قالوا على طعام واحد وهم يأكلون المن والسلوى لأنه لا يتبدل ولا يتغير كل يوم، فهو مأكل واحد: فالبقول والقثاء والعدس والبصل كلها معروفة، وأما الفوم، فقد اختلف السلف فى معناه، فوقع فى قراءة ابن مسعود وثومها بالثاء، وكذا فسره مجاهد فى رواية ليث بن أبى سليم عنه، بالثوم. وكذا الربيع بن أنس وسعيد بن جبير، وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عمرو بن رافع، حدثنا أبو عمارة يعقوب بن إسحاق البصرى، عن يونس، عن الحسن، فى قوله: ﴿وَفُومِهَا﴾ قال: قال ابن عباس: الثوم، قالوا وفى اللغة القديمة: فوموا لنا بمعنى اختبزوا، وقال ابن جرير: فإن كان ذلك صحيحًا، فإنه من الحروف المبدلة كقولهم: وقعوا فى عاثور شر وعافور شر، وأثافى وأثاثى، ومغافير ومغاثير وأشباه ذلك مما تقلب الفاء ثاء والثاء فاء لتقارب مخرجيهما، والله أعلم. وقال آخرون: الفوم الحنطة، وهو البر الذى يعمل منه الخبز قال ابن أبى حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى قراءة، أنبأنا ابن وهب قراءة حدثنى نافع بن أبى نعيم: أن ابن عباس سُئل عن قول الله: ﴿وَفُومِهَا﴾ ما فومها؟ قال: الحنطة. قال ابن عباس: أما سمعت قول أحيحة بن الجلاح، وهو يقول:

قد كنت أغنى الناس شخصًا واحدًا ورد المدينة عن زراعة فوم

وقال ابن جرير: حدثنا على بن الحسن، حدثنا مسلم الجرمى، حدثنا عيسى بن يونس، عن رشيد بن كريب، عن أبيه، عن ابن عباس، فى قوله تعالى: ﴿وَفُومِهَا﴾ قال: الفوم الحنطة بلسان بنى هاشم، وكذا قال على بن أبى طلحة والضحاك عن ابن عباس وعكرمة عن ابن عباس: أن الفوم الحنطة، وقال سفيان الثورى عن ابن جريج عن مجاهد وعطاء ﴿وَفُومِهَا﴾ قالا: وخبزها، وقال هشيم عن يونس عن الحسن وحصين عن أبى مالك ﴿وَفُومِهَا﴾ قال: الحنطة، وهو قول عكرمة والسدى والحسن البصرى وقتادة وعبد الرحمن بن يزيد بن أسلم وغيرهم، فالله أعلم، وقال الجوهرى: الفوم: الحنطة، وقال ابن دريد: الفوم: السنبلة، وحكى القرطبى عن عطاء وقتادة: أن الفوم كل حب يختبز. قال: وقال بعضهم: هو الحمص، لغة شامية، ومنه يقال لبائعه: فامى، مغير عن فومى، قال البخارى: وقال بعضهم: الحبوب التى تؤكل كلها فوم وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ فيه تقريع لهم وتوبيخ على ما سألوا من هذه الأطعمة الدنيه مع ما هم فيه من العيش الرغيد والطعام الهنىء الطيب النافع، وقوله تعالى: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا﴾ هكذا هو منون مصروف، مكتوب بالألف فى المصاحف الأئمة العثمانية وهو قراءة الجمهور بالصرف. وقال ابن جرير: ولا أستجيز القراءة بغير ذلك لإجماع المصاحف على ذلك. وقال ابن عباس ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا﴾ قال: مصرًا من الأمصار، رواه ابن أبى حاتم من حديث أبى سعيد البقال سعد بن المرزبان عن عكرمة عنه قال: وروى عن السدى وقتادة والربيع بن أنس نحو ذلك، وقال ابن جرير: وقع فى قراءة أبى بن كعب وابن مسعود «اهبطوا مصرا» من غير إجراء، يعنى من غير صرف ثم روى عن أبى العالية والربيع بن أنس أنهما فسرا ذلك بمصر فرعون،

وكذا رواه ابن أبى حاتم عن أبى العالية والربيع وعن الأعمش أيضًا، قال وابن جرير: ويحتمل أن يكون المراد: مصر فرعون على قراءة الإجراء أيضًا. ويكون ذلك من باب الاتباع لكتابة المصحف كما فى قوله تعالى: ﴿قَوَارِيرَا قَوَارِيرَا﴾ [الإنسان: ١٥-١٦] ثم توقف فى المراد ما هو أمصر فرعون أم مصر من الأمصار؟ وهذا الذى قاله فيه نظر، والحق أن المراد: مصر من الأمصار كما روى عن ابن عباس وغيره، والمعنى على ذلك؛ لأن موسى عليه السلام يقول لهم: هذا الذى سألتم ليس بأمر عزيز بل هو كثير فى أى بلد دخلتموه وجدتموه، فليس يساوى مع دناءته وكثرته فى الأمصار أن أسأل الله فيه. ولهذا قال: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ أى ما طلبتم، ولما كان سؤالهم هذا من باب البطر والأشر ولا ضرورة فيه لم يجابوا إليه، والله أعلم.

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ أى وضعت عليهم وألزموا بها شرعًا وقدرًا، أى لا يزالون مستذلين، من وجدهم استذلهم وأهانهم وضرب عليهم الصغار، وهم مع ذلك فى أنفسهم أذلاء متمسكنون. قال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ قال: هم أصحاب النيالات يعنى الجزية. وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن الحسن، وقتادة فى قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ قال: يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون، وقال الضحاك: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾، قال: الذل. وقال الحسن: أذلهم الله فلا منعة لهم، وجعلهم تحت أقدام المسلمين، ولقد أدركتهم هذه الأمة وإن المجوس لتجبيهم الجزية، وقال أبو العالية والربيع بن أنس والسدى: المسكنة الفاقة، وقال عطية العوفى: الخراج، وقال الضحاك: الجزية، وقوله تعالى: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ قال الضحاك: استحقوا الغضب من الله، وقال الربيع بن أنس: فحدث عليهم غضب من الله، وقال سعيد بن جبير: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يقول: استوجبوا سخطًا، وقال ابن جرير: يعنى بقوله: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ انصرفوا ورجعوا، ولا يقال: باءوا إلا موصولاً إما بخير وإما بشر، يقال منه: باء فلان بذنبه يبوء به بوءًا وبواء، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ﴾ [المائدة: ٢٩] يعنى تنصرف متحملهما وترجع بهما قد صارا عليك دونى. فمعنى الكلام: إذًا فرجعوا منصرفين متحملين غضب الله قد صار عليهم من الله غضب، ووجب عليهم من الله سخط. وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ يقول تعالى: هذا الذى جازيناهم من الذلة والمسكنة، وإحلال الغضب بهم بسبب استكبارهم عن اتباع الحق وكفرهم بآيات الله، وإهانتهم حملة الشرع، وهم الأنبياء وأتباعهم، فانتقصوهم إلى أن أفضى بهم الحال إلى أن قتلوهم، فلا كفر أعظم من هذا، إنهم كفروا بآيات الله، وقتلوا أنبياء الله بغير الحق، ولهذا جاء فى الحديث المتفق[1] على صحته: أن رسول الله ﷺ قال: «الكبر بطر الحق وغمط الناس» وقال الإمام أحمد[2] رحمه الله: حدثنا

---

(١) مسلم (٩١)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أحمد، (٣٦٣٦)، ورجاله ثقات.

إسماعيل، عن ابن عون، عن عمرو بن سعيد، عن حميد بن عبد الرحمن، قال: قال ابن مسعود: كنت لا أحجب عن النجوى، ولا عن كذا ولا عن كذا، فأتيت رسول الله ﷺ وعنده مالك بن مرارة الرهاوى، فأدركته من آخر حديثه وهو يقول: يا رسول الله، قد قسم لى من الجمال ما ترى، فما أحب أن أحدًا من الناس فضلنى بشراكين فما فوقهما، أليس ذلك هو البغى؟ فقال: «**لا ليس ذلك من البغى ولكن البغى من بطر -أو قال-: سفه الحق وغمط الناس**» يعنى رد الحق، وانتقاص الناس، والازدراء بهم، والتعاظم عليهم، ولهذا لما ارتكب بنو إسرائيل ما ارتكبوه من الكفر بآيات الله، وقتلهم أنبياءه، أحل الله بهم بأسه الذى لا يرد، وكساهم ذلاً فى الدنيا موصولاً بذل الآخرة جزاء وفاقًا، قال أبو داود[١] الطيالسى: حدثنا شعبة، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن أبى معمر، عن عبد الله بن مسعود، قال: كانت بنو إسرائيل فى اليوم تقتل ثلاثمائة نبى، ثم يقيمون سوق بقلهم من آخر النهار، وقد قال الإمام أحمد[٢]: حدثنا عبد الصمد، حدثنا أبان، حدثنا عاصم، عن أبى وائل عن عبد الله يعنى ابن مسعود، أن رسول الله ﷺ قال: «**أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل قتله نبى أو قتل نبيًا وإمام ضلالة وممثل من الممثلين**» وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ وهذه علة أخرى فى مجازاتهم بما جوزوا به، أنهم كانوا يعصون ويعتدون فالعصيان فعل المناهى، والاعتداء المجاوزة فى حد المأذون فيه والمأمور به، والله أعلم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾

لما بيّن تعالى حال من خالف أوامره وارتكب زواجره وتعدى فى فعل ما لا إذن فيه وانتهك المحارم وما أحل بهم من النكال، نبه تعالى على أن من أحسن من الأمم السالفة وأطاع فإن له جزاء الحسنى، وكذلك الأمر إلى قيام الساعة كل من اتبع الرسول النبى الأمى فله السعادة الأبدية ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه، ولا هم يحزنون على ما يتركونه ويخلفونه كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢] وكما تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار فى قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠] قال ابن أبى حاتم[٣]: حدثنا أبى حدثنا بن أبى عمر العدنى حدثنا سفيان عن ابن أبى نجيح عن مجاهد قال: قال سلمان رضى الله عنه: سألت النبى ﷺ عن أهل دين كنت معهم، فذكرت من صلاتهم وعبادتهم، فنزلت ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ إلى آخر الآية، وقال السدى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [البقرة: ٦٢] الآية، نزلت فى أصحاب سلمان الفارسى بينا هو يحدث النبى ﷺ إذ ذكر أصحابه فأخبره خبرهم، فقال كانوا يصلون ويصومون ويؤمنون بك ويشهدون أنك

---

(١) أورده القرطبي من هذا الطريق في التفسير (٤/ ٤٦).

(٢) صحيح: أحمد (٣٨٥٨)، انظر السلسلة الصحيحة (٢٨١)

(٣) ضعيف: ابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ١٩٨)، وفيه انقطاع؛ لأن مجاهدًا لم يسمع من سلمان رضي الله عنه.

ستبعث نبيا، فلما فرغ سلمان من ثنائه عليهم قال له نبى الله ﷺ «يا سلمان هم من أهل النار»، فاشتد ذلك على سلمان، فأنزل الله هذه الآية فكان إيمان اليهود أنه من تمسك بالتوراة وسنة موسى عليه السلام حتى جاء عيسى فلما جاء عيسى كان من تمسك بالتوارة وأخذ بسنة موسى فلم يدعها ولم يتبع عيسى كان هالكًا وإيمان النصارى: أن من تمسك بالإنجيل منهم وشرائع عيسى كان مؤمنًا مقبولاً منه حتى جاء محمد ﷺ، فمن لم يتبع محمدًا ﷺ منهم ويدع ما كان عليه من سنة عيسى والإنجيل كان هالكًا. قال ابن أبى حاتم وروى عن سعيد بن جبير نحو هذا، قلت: وهذا لا ينافى ما روى على بن أبى طلحة عن ابن عباس ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ الآية - قال - فأنزل الله بعد ذلك ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥] فإن هذا الذى قاله ابن عباس إخبار عن أنه لا يقبل من أحد طريقة ولا عملاً إلا ما كان موافقًا لشريعة محمد ﷺ بعد أن بعثه بما بعثه به، فأما قبل ذلك فكل من اتبع الرسول فى زمانه فهو على هدى وسبيل ونجاة، فاليهود أتباع موسى عليه السلام الذين كانوا يتحاكمون إلى التوارة فى زمانهم. واليهود من الهوادة وهى المودة، أو التهود وهى التوبة، كقول موسى عليه السلام ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] أى تبنا، فكأنهم سموا بذلك فى الأصل لتوبتهم ومودتهم فى بعضهم لبعض، وقيل: لنسبتهم إلى يهودا أكبر أولاد يعقوب، وقال أبو عمرو بن العلاء: لأنهم يتهودون أى يتحركون عند قراءة التوارة، فلما بعث عيسى ﷺ وجب على بنى إسرائيل اتباعه والانقياد له، فأصحابه وأهل دينه هم النصارى، سموا بذلك لتناصرهم فيما بينهم، وقد يقال لهم: أنصار أيضًا، كما قال عيسى عليه السلام ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢] وقيل: إنهم سموا بذلك من أجل أنهم نزلوا أرضًا يقال لها: ناصرة، قاله قتادة وابن جريج، وروى عن ابن عباس أيضًا، والله أعلم. والنصارى جمع نصران، كنشاوى جمع نشوان، وسكارى جمع سكران، ويقال للمرأة نصرانة وقال الشاعر:

نصرانة لم تحنّفِ

فلما بعث الله محمدًا ﷺ خاتمًا للنبيين، ورسولاً إلى بنى آدم على الإطلاق، وجب عليهم تصديقه فيما أخبر. وطاعته فيما أمر، والانكفاف عما عنه زجر، وهؤلاء هم المؤمنون حقًا وسميت أمة محمد ﷺ مؤمنين لكثرة إيمانهم، وشدة إيقانهم، ولأنهم يؤمنون بجميع الأنبياء الماضية والغيوب الآتية، وأما الصابئون فقد اختلف فيهم، فقال سفيان الثورى، عن ليث بن أبى سليم، عن مجاهد، قال: الصابئون قوم بين المجوس واليهود والنصارى، وليس لهم دين، وكذا رواه ابن أبى نجيح عنه، وروى عن عطاء وسعيد بن جبير نحو ذلك، وقال أبو العالية والربيع بن أنس والسدى وأبو الشعثاء، جابر بن زيد، والضحاك وإسحاق بن راهويه: الصابئون فرقة من أهل الكتاب يقرؤون الزبور، ولهذا قال أبو حنيفة وإسحاق: لا بأس بذبائحهم ومناكحتهم، وقال هشيم، عن مطرف: كنا عند الحكم بن عتبة، فحدثه رجل من أهل البصرة عن الحسن أنه كان يقول فى الصابئين: إنهم كالمجوس فقال الحكم- ألم أخبركم بذلك؟ وقال عبد الرحمن بن مهدى عن معاوية بن عبد الكريم: سمعت الحسن ذكر الصابئين فقال: هم قوم يعبدون الملائكة، وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر بن سليمان، عن أبيه، عن الحسن، قال: أخبر زياد أن الصابئين يصلون إلى القبلة، ويصلون

الخمس قال: فأراد أن يضع عنهم الجزية، قال: فخبر بعد أنهم يعبدون الملائكة، وقال أبو جعفر الرازى: بلغنى أن الصابئين قوم يعبدون الملائكة، ويقرؤون الزبور ويصلون للقبلة، وكذا قال سعيد بن أبى عروبة عن قتادة، وقال ابن أبى حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرنى ابن أبى الزناد عن أبيه قال: الصابئون قوم مما يلى العراق وهم بكوثى، وهم يؤمنون بالنبيين كلهم ويصومون من كل سنة ثلاثين يومًا، ويصلون إلى اليمن كل يوم خمس صلوات، وسئل وهب بن منبه عن الصابئين فقال: الذى يعرف الله وحده وليست له شريعة يعمل بها ولم يحدث كفرًا، وقال عبد الله بن وهب: قال عبد الرحمن بن زيد: الصابئون أهل دين من الأديان، كانوا بجزيرة الموصل، يقولون: لا إله إلا الله، وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبى إلا قول: لا إله إلا الله، قال: ولم يؤمنوا برسول، فمن أجل ذلك كان المشركون يقولون للنبى ﷺ وأصحابه: هؤلاء الصابئون يشبهونهم بهم، يعنى فى قول: لا إله إلا الله، وقال الخليل: هم قوم يشبه دينهم دين النصارى إلا أن قبلتهم نحو مهب الجنوب، يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام، وحكى القرطبى عن مجاهد والحسن وابن أبى نجيح، أنهم قوم تركب دينهم بين اليهود والمجوس، ولا تؤكل ذبائحهم، قال ابن عباس: ولا تنكح نساؤهم، قال القرطبى: والذى تحصل من مذهبهم فيما ذكره بعض العلماء أنهم موحدون ويعتقدون تأثير النجوم، وأنها فاعلة، ولهذا أفتى أبو سعيد الإصطخرى بكفرهم للقادر بالله حين سأله عنهم، واختار الرازى أن الصابئين قوم يعبدون الكواكب، بمعنى أن الله جعلها قبلة للعبادة والدعاء، أو بمعنى أن الله فوض تدبير أمر هذا العالم إليها، قال وهذا القول هو المنسوب إلى الكشدانيين الذين جاءهم إبراهيم عليه السلام رادًّا عليهم ومبطلًا لقولهم، وأظهر الأقوال والله أعلم، قول مجاهد ومتابعيه ووهب بن منبه: أنهم قوم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين، وإنما هم قوم باقون على فطرتهم، ولا دين مقرر لهم يتبعونه ويقتفونه، ولهذا كان المشركون ينبزون من أسلم بالصابئ، أى أنه قد خرج عن سائر أديان أهل الأرض إذ ذاك. وقال بعض العلماء: الصابئون الذين لم تبلغهم دعوة نبى، والله أعلم.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾

يقول تعالى مذكرًا بنى إسرائيل ما أخذ عليهم من العهود والمواثيق بالإيمان به وحده لا شريك له، واتباع رسله، وأخبر تعالى أنه لما أخذ عليهم الميثاق، رفع الجبل فوق رؤوسهم ليقروا بما عوهدوا عليه، ويأخذوه بقوة وحزم وامتثال، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[الأعراف: ١٧١] فالطور: هو الجبل كما فسره به فى الأعراف، ونص على ذلك ابن عباس ومجاهد وعطاء وعكرمة والحسن والضحاك والربيع بن أنس وغير واحد، وهذا ظاهر، وفى رواية عن ابن عباس: الطور ما أنبت من الجبال، وما لم ينبت فليس بطور، وفى حديث الفتون عن ابن عباس أنهم لما امتنعوا عن الطاعة رفع عليهم الجبل ليسمعوا، وقال السدى: فلما أبوا أن يسجدوا أمر الله الجبل أن يقع عليهم فنظروا إليه وقد غشيهم، فسقطوا سجدًا

فسجدوا على شق ونظروا بالشق الآخر، فرحمهم الله فكشفه عنهم، فقالوا: والله ما سجدة أحب إلى الله من سجدة كشف بها العذاب عنهم فهم يسجدون كذلك، وذلك قول الله تعالى ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ وقال الحسن فى قوله ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ يعنى التوارة، وقال أبو العالية والربيع بن أنس: بقوة أى بطاعة، وقال مجاهد: بقوة: بعمل ما فيه، وقال قتادة ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ القوة: الجد وإلا قذفته عليكم، قال: فأقروا بذلك أنهم يأخذون ما أوتوا بقوة، ومعنى قوله: وإلا قذفته عليكم أى أسقطته عليكم، يعنى الجبل، وقال أبو العالية والربيع ﴿وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ﴾ يقول: اقرؤوا ما فى التوارة واعملوا به، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ يقول تعالى: ثم بعد هذا الميثاق المؤكد العظيم توليتم عنه وانثنيتم ونقضتموه ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ أى بتوبته عليكم وإرساله النبيين والمرسلين إليكم ﴿لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ بنقضكم ذلك الميثاق فى الدنيا والآخرة.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾ يا معشر اليهود ما حل من البأس بأهل القرية التى عصت أمر الله وخالفوا عهده وميثاقه فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت والقيام بأمره إذ كان مشروعًا لهم، فتحيلوا على اصطياد الحيتان فى يوم السبت، بما وضعوه لها من الشصوص والحبائل والبرك قبل يوم السبت، فلما جاءت يوم السبت على عادتها فى الكثرة نشبت بتلك الحبائل والحيل، فلم تخلص منها يومها ذلك، فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت، فلما فعلوا ذلك، مسخهم الله إلى صورة القردة، وهى أشبه شىء بالأناسى فى الشكل الظاهر وليست بإنسان حقيقة، فكذلك أعمال هؤلاء وحيلتهم لما كانت مشابهة للحق فى الظاهر ومخالفة له فى الباطن، كان جزاؤهم من جنس عملهم، وهذه القصة مبسوطة فى سورة الأعراف حيث يقول تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣] القصة بكمالها، وقال السدى: أهل هذه القرية هم أهل أيلة، وكذا قال قتادة، وسنورد أقوال المفسرين هناك مبسوطة إن شاء الله وبه الثقة، وقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو حذيفة، حدثنا شبل، عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ قال: مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة. وإنما هو مثل ضربه الله ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥] ورواه ابن جرير عن المثنى، عن أبى حذيفة، وعن محمد بن عمر الباهلى وعن أبى عاصم عن عيسى عن ابن أبى نجيح عن مجاهد، به، وهذا سند جيد عن مجاهد، وقول غريب خلاف الظاهر من السياق فى هذا المقام وفى غيره، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠] الآية، وقال العوفى فى تفسيره عن ابن عباس ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ فجعل الله منهم القردة والخنازير فزعم أن شباب القوم صاروا قردة وأن المشيخة صاروا خنازير، وقال شيبان النحوى عن قتادة ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ فصار القوم قردة تعاوى، لها أذناب بعد ما كانوا رجالاً

ونساءً، وقال عطاء الخراساني: نودوا: يا أهل القرية ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ فجعل الذين نهوهم يدخلون عليهم فيقولون: يا فلان ألم ننهكم؟ فيقولون برؤوسهم: أي بلى، وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين حدثنا عبد الله بن محمد بن ربيعة بالمصيصة، حدثنا محمد بن مسلم، يعني الطائفي، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس، قال: إنما كان الذين اعتدوا في السبت فجعلوا قردة فُوَاقًا، ثم هلكوا ما كان للمسخ نسل، وقال الضحاك، عن ابن عباس: فمسخهم الله قردة بمعصيتهم يقول: إذ لا يحيون في الأرض إلا ثلاثة أيام، قال: ولم يعش مسخ قط فوق ثلاثة أيام، ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل، وقد خلق الله القردة والخنازير وسائر الخلق في الستة الأيام التي ذكرها الله في كتابه، فمسخ هؤلاء القوم في صورة القردة، وكذلك يفعل بمن يشاء كما يشاء، ويحوله كما يشاء، وقال أبو جعفر، عن الربيع، عن أبي العالية في قوله ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ قال: يعني أذلة صاغرين، وروى عن مجاهد وقتادة والربيع وأبي مالك نحوه، وقال محمد بن إسحاق عن داود بن الحصين عن عكرمة، قال: قال ابن عباس: إن الله إنما افترض على بني إسرائيل اليوم الذي افترض عليكم في عيدكم يوم الجمعة فخالفوا إلى السبت فعظموه وتركوا ما أمروا به، فلما أبو إلا لزوم السبت ابتلاهم الله فيه، فحرم عليهم ما أحل لهم في غيره، وكانوا في قرية بين أيلة والطور، يقال لها: مدين، فحرم الله عليهم في السبت الحيتان صيدها وأكلها، وكانوا إذا كان يوم السبت، أقبلت إليهم شرعًا إلى ساحل بحرهم، حتى إذا ذهب السبت، ذهبن فلم يروا حوتًا صغيرًا ولا كبيرًا، حتى إذا كان يوم السبت أتين شرعًا، حتى إذا ذهب السبت، ذهبن فكانوا كذلك، حتى إذا طال عليهم الأمد وقرموا إلى الحيتان، عمد رجل منهم فأخذ حوتًا سرًا يوم السبت فخرمه بخيط ثم أرسله في الماء وأوتد له وتدًا في الساحل فأوثقه تم تركه، حتى إذا كان الغد جاء فأخذه، أي: إني لم آخذه في يوم السبت، فانطلق به فأكله، حتى إذا كان يوم السبت الآخر عاد لمثل ذلك، ووجد الناس ريح الحيتان، فقال أهل القرية: والله لقد وجدنا ريح الحيتان، ثم عثروا على صنع ذلك الرجل، قال: ففعلوا كما فعل، وصنعوا سرًا زمانًا طويلاً لم يعجل الله عليهم العقوبة حتى صادوها علانية وباعوها في الأسواق، فقالت طائفة منهم من أهل البقية: ويحكم اتقوا الله ونهوهم عما كانوا يصنعون، فقالت طائفة أخرى لم تأكل الحيتان، ولم تنه القوم عما صنعوا، ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٦٤] سخطنا أعمالهم ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤]، قال ابن عباس: فبينما هم على ذلك، أصبحت تلك البقية في أنديتهم ومساجدهم فقدوا الناس فلم يروهم، قال: فقال بعضهم لبعض: إن للناس شأنًا، فانظروا ما هو؟ فذهبوا ينظرون في دورهم، فوجدوها مغلقة عليهم، قد دخلوها ليلا فغلقوها على أنفسهم كما يغلق الناس على أنفسهم، فأصبحوا فيها قردة، وإنهم ليعرفون الرجل بعينه وإنه لقرد، والمرأة بعينها وإنها لقردة، والصبي بعينه وإنه لقرد، قال: قال ابن عباس: فلولا ما ذكر الله أنه نجى الذين نهوا عن السوء لقد أهلك الله الجميع منهم، قال: وهي القرية التي قال جل ثناؤه لمحمد ﷺ ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ [الأعراف: ١٦٣] الآية، وروى الضحاك عن ابن عباس نحوًا من هذا، وقال السدي في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٥﴾﴾ قال: هم أهل أيلة، وهي القرية التي كانت حاضرة البحر، فكانت الحيتان

إذا كان يوم السبت، وقد حرم الله على اليهود أن يعملوا فى السبت شيئًا، فلم يبق فى البحر حوت إلا خرج حتى يخرجن خراطيمهن من الماء، فإذا كان يوم الأحد لزمن مقل البحر فلم ير منهن شىء حتى يكون يوم السبت، فذلك قوله تعالى ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ [الأعراف: ١٦٣] فاشتهى بعضهم السمك، فجعل الرجل يحفر الحفيرة ويجعل لها نهرًا إلى البحر، فإذا كان يوم السبت فتح النهر فأقبل الموج بالحيتان يضربها حتى يلقيها فى الحفيرة، فيريد الحوت أن يخرج فلا يطيق من أجل قلة ماء النهر، فيمكث فيها، فإذا كان يوم الأحد، جاء فأخذه، فجعل الرجل يشوى السمك، فيجد جاره روائحه، فيسأله فيخبره، فيصنع مثل ما صنع جاره حتى فشا فيهم أكل السمك، فقال لهم علماؤهم: ويحكم، إنما تصطادون يوم السبت، وهو لا يحل لكم، فقالوا: إنما صدناه يوم الأحد حين أخذناه، فقال الفقهاء: لا، ولكنكم صدتموه يوم فتحتم له الماء فدخل، قال: وغلبوا أن ينتهوا. فقال بعض الذين نهوهم لبعض: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [الأعراف: ١٦٤] يقول: لمَ تعظوهم، وقد وعظتموهم فلم يطيعوكم؟ فقال بعضهم ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤] فلما أبوا، قال المسلمون: والله لا نساكنكم فى قرية واحدة، فقسموا القرية بجدار، ففتح المسلمون بابًا والمعتدون فى السبت بابًا ولعنهم داود عليه السلام، فجعل المسلمون يخرجون من بابهم، والكفار من بابهم، فخرج المسلمون ذات يوم ولم يفتح الكفار بابهم، فلما أبطؤوا عليهم، تسور المسلمون عليهم الحائط، فإذا هم قردة يثب بعضهم على بعض، ففتحوا عنهم فذهبوا فى الأرض، فذلك قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾ [الأعراف: ١٦٦] وذلك حين يقول ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ الآية [المائدة: ٧٨]: فهم القردة.

(قُلْتُ): والغرض من هذا السياق عن هؤلاء الأئمة، بيان خلاف ما ذهب إليه مجاهد رحمه الله، من أن مسخهم إنما كان معنويًا لا صوريًا، بل الصحيح أنه معنوى صورى، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَـٰهَا نَكَـٰلًا﴾ قال بعضهم: الضمير فى ﴿فَجَعَلْنَـٰهَا﴾ عائد على القردة، وقيل: على الحيتان وقيل: على العقوبة وقيل: على القرية، حكاها ابن جرير، والصحيح أن الضمير عائد على القرية، أى فجعل الله هذه القرية، والمراد أهلها بسبب اعتدائهم فى سبتهم ﴿نَكَـٰلًا﴾ أى عاقبناهم عقوبة فجعلناها عبرة كما قال الله عن فرعون ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰ﴾ [النازعات: ٢٥] وقوله تعالى: ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ [البقرة: ٦٦] أى من القرى، قال ابن عباس: يعنى جعلناها بما أحللنا بها من العقوبة عبرة لما حولها من القرى، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٧] ومنه قوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ الآية [الرعد: ٤١]، على أحد الأقوال، فالمراد: لما بين يديها وما خلفها فى المكان كما قال محمد بن إسحاق عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس لما بين يديها من القرى وما خلفها من القرى، وكذا قال سعيد بن جبير: لما بين يديها وما خلفها، قال: من بحضرتها من الناس يومئذٍ. وروى عن إسماعيل بن أبى خالد وقتادة وعطية العوفى ﴿فَجَعَلْنَـٰهَا نَكَـٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ قال: ما قبلها من الماضين فى شأن السبت، وقال أبو

العالية والربيع وعطية: ﴿وما خلفها﴾ لما بقى بعدهم من الناس من بنى إسرائيل أن يعملوا مثل عملهم، وكان هؤلاء يقولون: المراد لما بين يديها وما خلفها فى الزمان. وهذا مستقيم بالنسبة إلى من يأتى بعدهم من الناس أن تكون أهل تلك القرية عبرة لهم، وأما بالنسبة إلى من سلف قبلهم من الناس فكيف يصح هذا الكلام أن تفسر الآية به، وهو أن تكون عبرة لمن سبقهم؟ وهذا لعل أحدًا من الناس لا يقوله بعد تصوره، فتعين أن المراد بما بين يديها وما خلفها فى المكان، وهو ما حولها من القرى، كما قاله ابن عباس وسعيد بن جبير، والله أعلم. وقال أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ أى: عقوبة لما خلا من ذنوبهم، وقال ابن أبى حاتم: وروى عن عكرمة ومجاهد والسدى الحسن وقتادة والربيع بن أنس نحو ذلك. وحكى القرطبي عن ابن عباس والسدي. والفراء وابن عطية. ﴿لما بين يديها﴾ من ذنوب القوم ﴿وما خلفها﴾، لمن يعمل بعدها مثل تلك الذنوب، وحكى الرازى ثلاثة أقوال: أحدها: أن المراد ما بين يديها وما خلفها، من تقدمها من القرى بما عندهم من العلم بخبرها بالكتب المتقدمة ومن بعدها. والثانى: المراد بذلك من بحضرتها من القرى والأمم. والثالث: أنه تعالى، جعلها عقوبة لجميع ما ارتكبوه من قبل هذا الفعل وما بعده، وهو قول الحسن.

(قُلْتُ): وأرجح الأقوال المراد بما بين يديها وما خلفها، من بحضرتها من القرى، يبلغهم خبرها وما حل بها، كما قال تعالى ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ [الأحقاف: ٢٧] الآية، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ﴾ [الرعد: ٣١] الآية، وقال تعالى ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ [الأنبياء: ٤٤] فجعلهم عبرة ونكالاً لمن فى زمانهم، وموعظة لمن يأتى بعدهم بالخبر المتواتر عنهم، ولهذا قال ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ قال محمد بن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الذين من بعدهم إلى يوم القيامة، وقال الحسن وقتادة ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ بعدهم فيتقون نقمة الله ويحذرونها، وقال السدى وعطية العوفى ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ قال أمة محمد ﷺ.

(قُلْتُ): المراد بالموعظة ههنا الزاجر أى جعلنا ما أحللنا بهؤلاء من البأس والنكال فى مقابلة ما ارتكبوه من محارم الله، وما تحيلوا به من الحيل، فليحذر المتقون صنيعهم لئلا يصيبهم ما أصابهم، كما قال الإمام أبو عبد الله بن بطة: حدثنا أحمد بن محمد بن مسلم، حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح الزعفرانى، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا محمد بن عمر، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «**لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل**» وهذا إسناد جيد، وأحمد بن محمد بن مسلم هذا، وثقه الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادى وباقى رجاله مشهورون على شرط الصحيح، والله أعلم.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾

يقول تعالى: واذكروا يا بنى إسرائيل نعمتى عليكم فى خرق العادة لكم فى شأن البقرة، وبيان القاتل من هو بسببها، وإحياء الله المقتول، ونصه على من قتله منهم.

(مسألة) الإبل تنحر والغنم تذبح واختلفوا في البقر فقيل: تذبح وقيل: تنحر والذبح أولى لنص القرآن ولقرب منحرها من مذبحها، قال ابن المنذر: ولا أعلم خلافًا في حل ما ذبح مما ينحر أو نحر ما يذبح، غير أن مالكًا كره ذلك وقد يكره الإنسان ما لا يحرمه، قال أبو عبد الله: وكان نزول قصة البقرة على موسى عليه السلام في أمر القتل قبل نزول القسامة في التوراة.

ذكر بسط القصة: قال ابن أبى حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا هشام بن حسان عن محمد بن سيرين، عن عبيدة السلمانى، قال: كان رجل من بنى إسرائيل عقيمًا لا يولد له، وكان له مال كثير، وكان ابن أخيه وارثه، فقتله ثم احتمله ليلاً، فوضعه على باب رجل منهم، ثم أصبح يدعيه عليهم حتى تسلحوا وركب بعضهم إلى بعض. فقال ذوو الرأى منهم والنهى: علام يقتل بعضكم بعضا، وهذا رسول الله فيكم؟ فأتوا موسى عليه السلام، فذكروا ذلك له، فقال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ قال: فلو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة، ولكنهم شددوا، فشدد عليهم، حتى انتهوا إلى البقرة التى أمروا بذبحها، فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها، فقال: والله لا أنقصها من ملء جلدها ذهبًا، فأخذوها بملء جلدها ذهبًا، فذبحوها، فضربوه ببعضها، فقام: فقالوا: من قتلك؟ فقال: هذا - لابن أخيه، ثم مال ميتًا، فلم يعط من ماله شيئًا، فلم يورث قاتل بعد، ورواه ابن جرير من حديث أيوب، عن محمد بن سيرين، عن عبيدة بنحو من ذلك، والله أعلم. ورواه عبد بن حميد فى تفسيره: أنبأنا يزيد بن هارون به، ورواه آدم بن أبى إياس فى تفسيره، عن أبى جعفر هو الرازى، عن هشام بن حسان، به، وقال آدم بن أبى إياس فى تفسيره: أنبأنا أبو جعفر الرازى عن الربيع عن أبى العالية فى قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ قال: وكان رجل من بنى إسرائيل، وكان غنيًا، ولم يكن له ولد، وكان له قريب، وكان وارثه، فقتله ليرثه، ثم ألقاه على مجمع الطريق، وأتى موسى عليه السلام فقال له: إن قريبى قتل وأنى إلى أمر عظيم، وإنى لا أجد أحدًا يبين لى من قتله غيرك يا نبى الله، قال: فنادى موسى فى الناس، فقال: أنشد الله من كان عنده من هذا علم إلا يبينه لنا، فلم يكن عندهم علم، فأقبل القاتل على موسى عليه السلام، فقال له: أنت نبى الله، فسل لنا ربك أن يبين لنا، فسأل ربه، فأوحى الله إليه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ فعجبوا من ذلك، فقالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ﴾[البقرة: ٦٧-٦٨] يعنى لا هرمة ﴿وَلَا بِكْرٌ﴾[البقرة: ٦٨] يعنى ولا صغيرة ﴿عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾[البقرة: ٦٨] أى نصف بين البكر والهرمة ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ [البقرة: ٦٩] أى صاف لونها ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾[البقرة: ٦٩] أى تعجب الناظرين ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ﴾[البقرة: ٧٠-٧١] أى لم يذللها العمل ﴿تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ﴾ يعنى وليست بذلول، تثير الأرض ﴿وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾ يعنى ولا تعمل فى الحرث ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ يعنى مسلمة من العيوب ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ يقول: لا بياض فيها ﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ قال ولو أن القوم حين أمروا بذبح بقرة، استعرضوا بقرة من البقر فذبحوها لكانت إياها، ولكن شددوا على أنفسهم، فشدد الله عليهم، ولولا أن القوم استثنوا فقالوا:

﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٧٠]، لما هدوا إليها أبدًا، فبلغنا أنهم لم يجدوا البقرة التى نعتت لهم إلا عند عجوز وعندها يتامى وهى القيمة عليهم، فلما علمت أنه لا يزكو لهم غيرها، أضعفت عليهم الثمن، فأتوا موسى فأخبروه أنهم لم يجدوا هذا النعت إلا عند فلانة، وأنها سألت أضعاف ثمنها، فقال موسى: إن الله قد خفف عليكم، فشددتم على أنفسكم، فأعطوها رضاها وحكمها. ففعلوا واشتروها فذبحوها، فأمرهم موسى عليه السلام أن يأخذوا عظما منها فيضربوا به القتيل، ففعلوا، فرجع إليه روحه، فسمى لهم قاتله، ثم عاد ميتًا كما كان، فأخذ قاتله، وهو الذى كان أتى موسى عليه السلام، فشكا إليه، فقتله الله على أسوإ عمله.

وقال محمد بن جرير: حدثنى محمد بن سعيد، حدثنى أبى، حدثنى عمى، حدثنى أبى عن أبيه، عن ابن عباس، فى قوله فى شأن البقرة، وذلك أن شيخًا من بنى إسرائيل على عهد موسى عليه السلام كان مكثرًا من المال، وكان بنو أخيه فقراء لا مال لهم، وكان الشيخ لا ولد له، وكان بنو أخيه ورثته فقالوا: ليت عمنا قد مات فورثنا ماله، وإنه لما تطاول عليهم ألا يموت عمهم، أتاهم الشيطان فقال لهم: هل لكم إلى أن تقتلوا عمكم فترثوا ماله، وتغرموا أهل المدينة التى لستم بها ديته، وذلك أنهما كانتا مدينتين كانوا فى إحداهما، وكان القتيل إذا قتل وطرح بين المدينتين، قيس ما بين القتيل والقريتين، فأيتهما كانت أقرب إليه، غرمت الدية، وأنهم لما سول لهم الشيطان ذلك، وتطاول عليهم أن لا يموت عمهم، عمدوا إليه فقتلوه، ثم عمدوا فطرحوه على باب المدينة التى ليسوا فيها، فلما أصبح أهل المدينة، جاء بنو أخى الشيخ فقالوا: عمنا قتل على باب مدينتكم، فوالله لتغرمنَّ لنا دية عمنا، قال أهل المدينة: نقسم بالله ما قتلنا ولا علمنا قاتلاً ولا فتحنا باب مدينتنا منذ أغلق حتى أصبحنا، وإنهم عمدوا إلى موسى عليه السلام، فلما أتوه، قال بنو أخى الشيخ: عمنا وجدناه مقتولاً على باب مدينتهم، وقال أهل المدينة: نقسم بالله ما قتلناه ولا فتحنا باب المدينة من حين أغلقناه حتى أصبحنا، وإن جبريل جاء بأمر السميع العليم إلى موسى عليه السلام، فقال: قل لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ فتضربوه ببعضها، وقال السدى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ قال: كان رجل من بنى إسرائيل مكثرًا من المال، فكانت له ابنة، وكان له ابن أخ محتاج، فخطب إليه ابن أخيه ابنته، فأبى أن يزوجه، فغضب الفتى وقال: والله لأقتلن عمى ولآخذن ماله، ولأنكحن ابنته، ولآكلن ديته، فأتاه الفتى وقد قدم تجار فى بعض أسباط بنى إسرائيل، فقال: يا عم، انطلق معى فخذ لى من تجارة هؤلاء القوم لعلى أن أصيب منها، فإنهم إذا رأوك معى أعطونى، فخرج العم مع الفتى ليلاً فلما بلغ الشيخ ذلك السبط قتله الفتى، ثم رجع إلى أهله، فلما أصبح جاء كأنه يطلب عمه، كأنه لا يدرى أين هو، فلم يجده، فانطلق نحوه، فإذا بذلك السبط مجتمعين عليه، فأخذهم وقال: قتلتم عمى، فأدوا إلى ديته، فجعل يبكى ويحثو التراب على رأسه وينادى: واعماه، فرفعهم إلى موسى فقضى عليهم بالدية، فقالوا له: يا رسول الله ادع لنا ربك حتى يبين لنا من صاحبه فيؤخذ صاحب الجريمة، فوالله إن ديته علينا لهينة، ولكن نستحى أن نعير به فذلك حين يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٧٢] فقال لهم موسى عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ قالوا: نسألك عن القتيل وعمن قتله، وتقول: اذبحوا بقرة أتهزأ بنا ﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ

مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧] قال ابن عباس: فلو اعترضوا بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم، ولكن شددوا وتعنتوا على موسى، فشدد الله عليهم، فقالوا: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٦٨] والفارض: الهرمة التى لا تلد، والبكر التى لم تلد إلا ولدًا واحدًا، والعوان النصف التى بين ذلك التى قد ولدت وولد ولدها ﴿فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ [البقرة: ٦٨-٦٩] قال: نقى لونها ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ [البقرة: ٦٩] قال: تعجب الناظرين ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ [البقرة: ٧٠-٧١] من بياض ولا سواد ولا حمرة ﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: ٧١] فطلبوها فلم يقدروا عليها، وكان رجل من بنى إسرائيل من أبر الناس بأبيه، وإن رجلاً مرّ به معه لؤلؤ يبيعه، وكان أبوه نائمًا تحت رأسه المفتاح، فقال له الرجل: تشترى منى هذا اللؤلؤ بسبعين ألفًا؟ فقال له الفتى: كما أنت حتى يستيقظ أبى فآخذه منك بثمانين ألفًا، قال الآخر: أيقظ أباك وهو لك بستين ألفًا، فجعل التاجر يحط له حتى بلغ ثلاثين ألفًا، وزاد الآخر على أن ينتظر أباه حتى يستيقظ حتى بلغ مائة ألف، فلما أكثر عليه قال: والله لا أشتريه منك بشىء أبدًا، وأبى أن يوقظ أباه، فعوضه الله من ذلك اللؤلؤ أن جعل له تلك البقرة، فمرت به بنو إسرائيل يطلبون البقرة، وأبصروا البقرة عنده فسألوه أن يبيعهم إياها بقرة ببقرة، فأبى، فأعطوه اثنتين فأبى، فزادوه حتى بلغوا عشرًا، فأبى، فقالوا: والله لا نتركك حتى نأخذها منك، فانطلقوا به إلى موسى عليه السلام، فقالوا: يا نبى الله، إنا وجدناها عند هذا وأبى أن يُعْطِيَنَاهَا وقد أعطيناه ثمنًا، فقال له موسى: أعطهم بقرتك، فقال: يا رسول الله، أنا أحق بمالى، فقال: صدقت، وقال للقوم: أَرْضُوا صاحبكم فأعطوه وزنها ذهبًا، فأبى فأضعفوا له مثل ما أعطوه وزنًا حتى أعطوه وزنها عشر مرات ذهبًا، فباعهم إياها وأخذ ثمنها، فذبحوها، قال: اضربوه ببعضها، فضربوه بالبضعة التى بين الكتفين، فعاش، فسألوه: من قتلك؟ فقال لهم: ابن أخى، قال: أقتلُهُ فآخذ ماله وأنكح ابنته. فأخذوا الغلام فقتلوه، وقال سنيد: حدثنا حجاج هو ابن محمد، عن ابن جريج، عن مجاهد وحجاج، عن أبى معشر، عن محمد بن كعب القرظى ومحمد بن قيس - دخل حديث بعضهم فى حديث بعض، قالوا: إن سبطًا من بنى إسرائيل لما رأوا كثرة شرور الناس، بنوا مدينة فاعتزلوا شرور الناس، فكانوا إذا أمسوا لم يتركوا أحدًا منهم خارجًا إلا أدخلوه، وإذا أصبحوا قام رئيسهم فنظر وأشرف، فإذا لم يرَ شيئًا فتح المدينة، فكانوا مع الناس حتى يمسوا، قال: وكان رجل من بنى إسرائيل له مال كثير، ولم يكن له وارث غير أخيه، فطال عليه حياته، فقتله ليرثه، ثم حمله فوضعه على باب المدينة، ثم كَمُنَ فى مكان هو وأصحابه، قال: فأشرف رئيس المدينة على باب المدينة فنظر، فلم يرَ شيئًا ففتح الباب، فلما رأى القتيل رد الباب، فناداه أخو المقتول وأصحابه: هيهات قتلتموه ثم ترُدُّون الباب، وكان موسى لما رأى القتل كثيرًا فى أصحابه -بنى إسرائيل- كان إذا رأى القتيل بين ظهرانى القوم أخذهم فكاد يكون بين أخى المقتول وبين أهل المدينة قتال حتى لبس الفريقان السلاح ثم كَفَّ بعضهم عن بعض، فأتوا موسى، فذكروا له شأنهم، قالوا: يا موسى إن هؤلاء قتلوا قتيلاً ثم ردوا الباب، قال أهل المدينة: يا رسول الله قد عرفت اعتزالنا الشرور، وبنينا مدينة كما رأيت نعتزل شرور

الناس، والله ما قتلنا ولا علمنا قاتلاً، فأوحى الله تعالى إليه أن يذبحوا بقرة، فقال لهم موسى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ وهذه السياقات عن عبيدة وأبى العالية والسُّدِّى وغيرهم، فيها اختلاف ما، والظاهر أنها مأخوذة من كتب بنى إسرائيل، وهى مما يجوز نقلها، ولكن لا تُصَدَّق ولا تُكَذَّب، فلهذا لا يعتمد عليها إلا ما وافق الحق عندنا، والله أعلم.

﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ ۖ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا ۖ وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾

أخبر تعالى عن تعنت بنى إسرائيل وكثرة سؤالهم لرسولهم، ولهذا لما ضيقوا على أنفسهم ضيق الله عليهم، ولو أنهم ذبحوا أى بقرة كانت لوقعت الموقع عنهم، كما قال ابن عباس وعبيدة وغير واحد، ولكنهم شددوا فَشُدِّدَ عليهم فقالوا: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ﴾ أى ما هذه البقرة وأى شىء صفتها؟ قال ابن جرير [1]، حدثنا أبو كريب، حدثنا عثام بن على، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: لو أخذوا أدنى بقرة لاكتفوا بها، ولكنهم شددوا فشدد عليهم - إسناد صحيح - وقد رواه غير واحد عن ابن عباس، وكذا قال عبيدة والسدى ومجاهد وعكرمة وأبو العالية وغير واحد، وقال ابن جريج: قال لى عطاء: لو أخذوا أدنى بقرة لكفتهم، قال ابن جريج: قال رسول الله ﷺ: **«إنما أمروا بأدنى بقرة ولكنهم لما شددوا على أنفسهم شدد الله عليهم وايم الله لو أنهم لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الأبد»** قال: ﴿إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾ أى لا كبيرة هرمة ولا صغيرة لم يلحقها الفحل، كما قاله أبو العالية والسدى ومجاهد وعكرمة وعطية العوفى وعطاء الخراسانى ووهب بن منبه والضحاك والحسن وقتادة، وقاله ابن عباس أيضًا، وقال الضحاك عن ابن عباس: ﴿عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾، يقول: نصف بين الكبيرة والصغيرة، وهى أقوى ما يكون من الدواب والبقر، وأحسن ما تكون، وروى عن عكرمة ومجاهد وأبى العالية والربيع بن أنس وعطاء الخراسانى والضحاك نحو ذلك، وقال السدى: العوان: النصف التى بين ذلك التى قد ولدت وولد ولدها، وقال هشيم، عن جويبر، عن كثير بن زياد، عن الحسن فى البقرة: كانت بقرة وحشية، وقال ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس: من لبس نعلاً صفراء لم يزل فى سرور ما دام لابسها، وذلك قوله تعالى: ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ وكذا قال مجاهد ووهب بن منبه: إنها كانت صفراء، وعن ابن عمر: كانت صفراء الظلف، وعن سعيد بن جبير: كانت صفراء القرن والظلف، وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا نصر بن على، حدثنا نوح بن قيس، أنبأنا أبو رجاء عن الحسن فى قوله تعالى: ﴿بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ قال سوداء شديدة السواد، وهذا غريب، والصحيح الأول ولهذا أكد صفرتها بأنه ﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ وقال عطية العوفى ﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ تكاد تسود من صفرتها، وقال سعيد بن جبير ﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ قال:

(١) صحيح: ابن جرير في تفسيره (١/ ٣٤٧).

صافية اللون. وروى عن أبى العالية والربيع بن أنس والسدى والحسن وقتادة نحوه، وقال شريك عن معمر عن ابن عمر ﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ قال: صاف، وقال العوفى فى تفسيره عن ابن عباس ﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ شديدة الصفرة تكاد من صفرتها تبيض، وقال السدى ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ أى تعجب الناظرين، وكذا قال أبو العالية وقتادة والربيع بن أنس. وقال وهب بن منبه: إذا نظرت إلى جلدها يخيل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها. وفى التوارة: أنها كانت حمراء، فلعل هذا خطأ فى التعريب، أو كما قال الأول: إنها كانت شديدة الصفرة تضرب إلى حمرة وسواد، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ أى: لكثرتها، فميز لنا هذه البقرة وصفها وجلِّها لنا ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ إذا بينتها لنا ﴿لَمُهْتَدُونَ﴾ إليها، وقال ابن أبى حاتم[1]: حدثنا أحمد بن يحيى الأودى الصوفى، حدثنا أبو سعيد أحمد بن داود الحداد، حدثنا سرور بن المغيرة الواسطى بن أخى منصور بن زاذان، عن عباد بن منصور، عن الحسن، عن أبى رافع، عن أبى هريرة: قال: قال رسول الله ﷺ: **«لولا أن بنى إسرائيل قالوا ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ لما أعطوا ولكن استثنوا»**. ورواه الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسيره من وجه آخر عن سرور بن المغيرة بن زاذان عن عباد بن منصور عن الحسن عن أبى رافع عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«لولا أن بنى إسرائيل قالوا: ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ ما أعطوا أبدًا، ولو أنهم اعترضوا بقرة من البقر فذبحوها لأجزأت عنهم، ولكن شددوا، فشدد الله عليهم»** وهذا حديث غريب من هذا الوجه، وأحسن أحواله أن يكون من كلام أبى هريرة كما تقدم مثله عن السدى، والله أعلم، ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ أى إنها ليست مذللة بالحراثة، ولا معدة للسقى فى السانية، بل هى مكرمة، حسنة، ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ صحيحة لا عيب فيها ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ أى ليس فيها لون غير لونها، وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ يقول: لا عيب فيها، وكذا قال أبو العالية والربيع، وقال مجاهد: مسلمة من الشية، وقال عطاء الخراسانى مسلمة القوائم والخلق ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾، قال مجاهد: لا بياض ولا سواد، وقال أبو العالية والربيع والحسن وقتادة ليس فيها بياض، وقال عطاء الخراسانى: لا شية فيها، قال لونها واحد بهيم. وروى عن عطية العوفى ووهب بن منبه وإسماعيل بن أبى خالد نحو ذلك، وقال السدى: ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ من بياض ولا سواد ولا حمرة، وكل هذه الأقوال متقاربة فى المعنى، وقد زعم بعضهم أن المعنى فى ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ﴾ ليست بمذللة بالعمل، ثم استأنف فقال: ﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ أى يعمل عليها بالحراثة، لكنها لا تسقى الحرث، وهذا ضعيف، لأنه فسر الذلول التى لم تذلل بالعمل بأنها لا تثير الأرض ولا تسقى الحرث، كذا قرره القرطبى وغيره: ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ قال قتادة: الآن بينت لنا، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقبل ذلك، والله قد جاءهم الحق ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ قال الضحاك، عن ابن عباس: كادوا أن لا يفعلوا ولم يكن ذلك الذى أرادوا، لأنهم أرادوا أن لا يذبحوها، يعنى أنهم مع هذا البيان وهذه الأسئلة والأجوبة والإيضاح ما ذبحوها إلا بعد الجهد، وفى هذا ذم لهم، وذلك أنه لم يكن غرضهم إلا التعنت، فلهذا ما كادوا يذبحونها.

---

(١) ضعيف: تفسير ابن أبي حاتم (٢٢٣)، برقم (٧٢٧). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٣١٤): رواه البزار، وفيه عباد بن منصور وهو ضعيف، وبقية رجاله ثقات.

وقال محمد بن كعب ومحمد بن قيس: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ لكثرة ثمنها، وفى هذا نظر؛ لأن كثرة الثمن لم يثبت إلا من نقل بنى إسرائيل كما تقدم من حكاية أبى العالية والسدى، ورواه العوفى عن ابن عباس.

وقال عبيدة ومجاهد ووهب بن منبه وأبو العالية وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنهم اشتروها بمال كثير، وفيه اختلاف، ثم قد قيل فى ثمنها غير ذلك، وقال عبد الرزاق: أنبأنا ابن عيينة، أخبرنى محمد بن سوقة عن عكرمة، قال: ما كان ثمنها إلا ثلاثة دنانير، وهذا إسناد جيد عن عكرمة، والظاهر أنه نقله عن أهل الكتاب أيضًا.

وقال ابن جرير، وقال آخرون: لم يكادوا أن يفعلوا ذلك خوف الفضيحة إن اطلع الله على قاتل القتيل الذى اختصموا فيه، ولم يسنده عن أحد، ثم اختار أن الصواب فى ذلك أنهم لم يكادوا يفعلوا ذلك لغلاء ثمنها وللفضيحة، وفى هذا نظر بل الصواب، والله أعلم، ما تقدم من رواية الضحاك عن ابن عباس على ما وجهناه، وبالله التوفيق.

(مسألة) استدل بهذه الآية فى حصر صفات هذه البقرة حتى تعينت أو تم تقييدها بعد الإطلاق على صحة السلم فى الحيوان، كما هو مذهب مالك والأوزاعى والليث والشافعى وأحمد وجمهور من العلماء سلفًا وخلفًا بدليل ما ثبت فى الصحيحين[1] عن النبى ﷺ: «**لا تنعت المرأة المرأة لزوجها كأنه ينظر إليها**» وكما وصف النبى ﷺ، إبل الدية فى قتل الخطأ، وشبه العمد بالصفات المذكورة بالحديث، وقال أبو حنيفة والثورى والكوفيون: لا يصح السلم فى الحيوان لأنه لا تنضبط أحواله، وحكى مثله عن ابن مسعود وحذيفة بن اليمان وعبد الرحمن بن سمرة وغيرهم.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾

قال البخاري: ﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ اختلفتم، وهكذا قال مجاهد فيما رواه ابن أبى حاتم، عن أبيه، عن أبى حذيفة، عن شبل، عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد، أَنَّهُ قال فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ اختلفتم، وقال عطاء الخراسانى والضحاك: اختصمتم فيها، وقال ابن جريج ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ قال: بعضهم: أنتم قتلتموه، وقال آخرون: بل أنتم قتلتموه، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ قال مجاهد: ما تغيبون، وقال ابن أبى حاتم: حدثنا عمرة بن أسلم البصرى، حدثنا محمد بن الطفيل العبدى، حدثنا صدقة بن رستم، سمعت المسيب بن رافع يقول: ما عمل رجل حسنة فى سبعة أبيات إلا أظهرها الله، وما عمل رجل سيئة فى سبعة أبيات إلا أظهرها الله، وتصديق ذلك فى كلام الله ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ هذا البعض أى شىء كان من أعضاء هذه البقرة، فالمعجزة حاصلة به، وخرق العادة به كائن، وقد كان معينًا فى نفس الأمر، فلو كان فى تعيينه لنا فائدة تعود علينا فى أمر الدين أو الدنيا لبينه الله تعالى لنا، ولكنه أبهمه ولم يجئ من طريق صحيح عن معصوم بيانه، فنحن نبهمه كما أبهمه الله، ولهذا

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢٤٠) من حديث عبد الله بن مسعود بلفظ: «لا تباشر المرأة المرأة فتصفها لزوجها...».

قال ابن أبى حاتم: حدّثنا أحمد بن سنان حدّثنا عفان بن مسلم حدّثنا عبد الواحد بن زياد حدّثنا الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال إن أصحاب بقرة بنى إسرائيل طلبوها أربعين سنة حتى وجدوها عند رجل فى بقر له، وكانت بقرة تعجبه، قال: فجعلوا يعطونه بها فيأبى حتى أعطوه ملء مسكها دنانير، فذبحوها، فضربوه - يعنى القتيل - بعضو منها، فقام تشخب أوداجه دمًا، فقالوا له من قتلك؟ قال: قتلنى فلان، وكذا قال الحسن وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أنه ضرب ببعضها، وفى رواية عن ابن عباس أنه ضرب بالعظم الذى يلى الغضروف، وقال عبد الرزاق أنبأنا معمر، قال: أيوب عن ابن سيرين، عن عبيدة: ضربوا القتيل ببعض لحمها، قال معمر: قال قتادة: ضربوه بلحم فخذها فعاش، فقال: قتلنى فلان، وقال وكيع بن الجراح فى تفسيره: حدثنا النضر بن عربى عن عكرمة ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ فضرب بفخذها، فقام فقال: قتلنى فلان، قال ابن أبى حاتم: وروى عن مجاهد وقتادة وعكرمة نحو ذلك. وقال السدى: فضربوه بالبضعة التى بين الكتفين، فعاش، فسألوه فقال: قتلنى ابن أخى، وقال أبو العالية: أمرهم موسى عليه السلام، أن يأخذوا عظمًا من عظامها فيضربوا به القتيل، ففعلوا فرجع إليه روحه، فسمى لهم قاتله، ثم عاد ميتًا كما كان، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: فضربوه ببعض آرابها، وقيل: بلسانها وقيل بعجب ذنبها، وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ أى فضربوه فحيى، ونبه تعالى على قدرته وإحيائه الموتى بما شاهدوه من أمر القتيل، جعل تبارك وتعالى ذلك الصنيع حجة لهم على المعاد، وفاصلاً ما كان بينهم من الخصومة والفساد، والله تعالى قد ذكر فى هذه السورة ما خلقه من إحياء الموتى فى خمسة مواضع ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾[البقرة: ٥٦] وهذه القصة، وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، وقصة الذى مرّ على قرية وهى خاوية على عروشها، وقصة إبراهيم عليه السلام والطيور الأربعة، ونبه تعالى بإحياء الأرض بعد موتها على إعادة الأجسام بعد صيرورتها رميمًا، كما قال أبو داود الطيالسى[1]: حدثنا شعبة، أخبرنى يعلى بن عطاء، قال سمعت وكيع بن عدس يحدث عن أبى رزين العقيلى رضى الله عنه، قال: قلت يا رسول الله، كيف يحيى الله الموتى؟ قال: «أما مررت بواد ممحل، ثم مررت به خضرًا»؟ قال: بلى. قال: «كذلك النشور» أو قال: «كذلك يحيى الله الموتى» وشاهد هذا قوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾[يس: ٣٣-٣٥].

(مسألة) استدل لمذهب الإمام مالك فى كون قول الجريح: فلان قتلنى لوثًا بهذه القصة، لأن القتيل لما حيى سئل عمن قتله، فقال فلان قتلنى، فكان ذلك مقبولاً منه، لأنه لا يخبر حينئذ إلا بالحق، ولا يتهم والحالة هذه، ورجحوا ذلك لحديث أنس: أن يهوديًا قتل جارية على أوضاح لها، فرضخ رأسها بين حجرين[2]، فقيل: من فعل بك هذا، أفلان؟ أفلان؟ حتى ذكروا اليهودى، فأومأت برأسها، فأخذ اليهودى، فلم يزل به حتى اعترف، فأمر رسول الله ﷺ أن يرض رأسه بين حجرين،

(١) صحيح: أبو داود الطيالسى في مسنده ص (١٤٧)، برقم (١٠٨٩).
(٢) أخرجه البخاري (٢٤١٣)، مسلم (١٦٧٢) من حديث أنس.

وعن مالك إذا كان لوثًا، حلف أولياء القتيل قسامة، وخالف الجمهور فى ذلك، ولم يجعلوا قول القتيل فى ذلك لوثا.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾

يقول تعالى توبيخًا لبنى إسرائيل وتقريعًا لهم على ما شاهدوه من آيات الله تعالى وإحيائه الموتى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ كله، ﴿فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ﴾ التى لا تلين أبدًا، ولهذا نهى الله المؤمنين عن مثل حالهم، فقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦] وقال العوفى فى تفسيره عن ابن عباس: لما ضرب المقتول ببعض البقرة جلس أحيا ما كان قط، فقيل له: من قتلك؟ قال: بنو أخى قتلونى ثم قبض، فقال بنو أخيه حين قبضه الله: والله ما قتلناه فكذبوا بالحق بعد أن رأوه فقال الله ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾، يعنى بنى أخى الشيخ ﴿فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾، فصارت قلوب بنى إسرائيل مع طول الأمد قاسية بعيدة عن الموعظة بعد ما شاهدوه من الآيات والمعجزات، فهى فى قسوتها كالحجارة التى لا علاج للينها أو أشد قسوة من الحجارة فإن من الحجارة ما يتفجر منها العيون بالأنهار الجارية، ومنها ما يشقق فيخرج منه الماء وإن لم يكن جاريًا، ومنها ما يهبط من رأس الجبل من خشية الله وفيه إدراك لذلك بحسبه، كما قال: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤] وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد: أنه كان يقول: كل حجر يتفجر منه الماء، أو يتشقق عن ماء أو يتردى من رأس جبل لمن خشية الله نزل بذلك القرآن، وقال محمد بن إسحاق حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ أى وإن من الحجارة لألين من قلوبكم عما تدعون إليه من الحق ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وقال أبو على الجبائى فى تفسيره ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ هو سقوط البرد من السحاب، قال القاضى الباقلانى وهذا تأويل بعيد، وتبعه فى استبعاده الرازى، وهو كما قال فإن هذا خروج عن اللفظ بلا دليل، والله أعلم، وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا الحكم بن هشام الثقفى، حدثنى يحيى بن أبى طالب يعنى يحيى بن يعقوب فى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ قال: كثرة البكاء ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ﴾ قال: قليل البكاء ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ قال: بكاء القلب من غير دموع العين، وقد زعم بعضهم أن هذا من باب المجاز، وهو إسناد الخشوع إلى الحجارة كما أسندت الإرادة إلى الجدار فى قوله: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: ٧٧] قال الرازى والقرطبى وغيرهما من الأئمة: ولا حاجة إلى هذا، فإن الله تعالى يخلق فيها هذه الصفة كما فى قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ [الأحزاب: ٧٢] وقال: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤] الآية،

وقال: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦] ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ﴾ الآية [النحل: ٤٨]، ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ الآية [الحشر: ٢١]، ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ﴾ الآية [فصلت: ٢١]، وفي الصحيح [١]: «هذا جبل يحبنا ونحبه» وكحنين الجذع المتواتر خبره، وفي صحيح مسلم [٢] «إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلم على قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن» وفي صفة الحجر الأسود: أنه يشهد لمن استلمه بحق يوم القيامة، وغير ذلك مما في معناه.

(تنبيه) اختلف علماء العربية في معنى قوله تعالى: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ بعد الإجماع على استحالة كونها للشك، فقال بعضهم: أو: ههنا بمعنى الواو، تقديره: فهي كالحجارة وأشد قسوة، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤] ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ [المرسلات: ٦] وكما قال النابغة الذبياني:

قالت ألا ليتما هذا الحمام لنا ... إلى حمامتنا أو نصفه فقد

تريد ونصفه، قاله ابن جرير، وقال جرير بن عطية:

نال الخلافة أو كانت له قدرًا ... كما أتى ربَّه موسى على قدر

قال ابن جرير: يعني نال الخلافة وكانت له قدرًا، وحكى القرطبي قولاً أنها للتخيير أي مثلاً لهذا وهذا وهذا مثل جالس الحسن أو ابن سيرين. وكذا حكاه الرازي في تفسيره وزاد قولاً آخر: إنها للإبهام بالنسبة إلى المخاطب، كقول القائل: أكلت خبزًا أو تمرًا، وهو يعلم أيهما أكل، وقال آخر: إنها بمعنى قول القائل: كل حلوًا أو حامضًا، أي لا يخرج عن واحد منهما، أي وقلوبكم صارت كالحجارة أو أشد قسوة منها لا تخرج عن واحد من هذين الشيئين، والله أعلم.

وقال آخرون أو ههنا بمعنى بل فتقديره: فهي كالحجارة بل أشد قسوة، وكقوله: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧]، ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧]، ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٩] وقال آخرون: معنى ذلك: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ عندكم، حكاه ابن جرير، وقال آخرون: المراد بذلك الإبهام على المخاطب، كما قال أبو الأسود:

أحب محمدًا حبًّا شديدًا ... وعباسًا وحمزة والوصيًّا

فإن يك حبهم رشدا أصبه ... وليس بمخطئ إن كان غيًّا

وقال ابن جرير: قالوا: ولا شك أن أبا الأسود لم يكن شاكًّا في أن حب من سمى رشد، ولكنه أبهم على من خاطبه، قال: وقد ذكر عن أبي الأسود أنه لما قال هذه الأبيات، قيل له: شككت؟ فقال: كلا والله، ثم انتزع بقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤] فقال: أو كان شاكًّا من أخبر بهذا من الهادي منهم ومن الضال؟ وقال بعضهم: معنى ذلك فقلوبكم لا تخرج عن أحد هذين المثلين، إما أن تكون مثل الحجارة في القسوة، وإما أن تكون أشد منها في القسوة. قال ابن جرير ومعنى ذلك على هذا التأويل، فبعضها كالحجارة قسوة، وبعضها أشد قسوة من

(١) البخاري (٢٨٨٩)، مسلم (١٣٦٥)، من حديث أنس به.
(٢) مسلم (٢٢٧٧)، من حديث جابر بن سمرة.

الحجارة وقد رجحه ابن جرير مع توجيه غيره .

(قُلْتُ): وهذا القول الأخير يبقى شبيهًا بقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧] مع قوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٩] وكقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ﴾ [النور: ٣٩] مع قوله: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾ [النور: ٤٠] الآية، أى إن منهم من هو هكذا، ومنهم من هو هكذا، والله أعلم.

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا محمد بن أيوب حدثنا محمد بن عبد الله بن أبى الثلج حدثنا على بن حفص حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن حاطب عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة القلب، وإن أبعد الناس من الله: القلب القاسى**» رواه الترمذى [(١)] فى كتاب الزهد من جامعه عن محمد بن عبد الله بن أبى الثلج صاحب الإمام أحمد، به، ومن وجه آخر عن إبراهيم بن عبد الله بن الحارث بن حاطب به، وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديث إبراهيم.

وروى البزار [(٢)] عن أنس مرفوعًا «**أربع من الشقاء: جمود العين، وقساوة القلب، وطول الأمل، والحرص على الدنيا**».

حزب ٢

﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾

يقول تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ أيها المؤمنون ﴿أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ﴾ أى ينقاد لكم بالطاعة هؤلاء الفرقة الضالة من اليهود الذين شاهد آباؤهم من الآيات البينات ما شاهدوه، ثم قست قلوبهم من بعد ذلك ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾ أى يتأولونه على غير تأويله ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ أى فهموه على الجلية ومع هذا يخالفونه على بصيرة ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه وتأويله، وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣] قال محمد بن إسحاق: حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس، أنه قال: ثم قال الله تعالى لنبيه ﷺ ولمن معه من المؤمنين يؤيسهم منهم ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ وليس قوله: يسمعون كلام الله يسمعون التوراة، كلهم قد سمعها، ولكنهم الذين سألوا موسى رؤية ربهم فأخذتهم الصاعقة فيها. وقال محمد بن إسحاق، فيما حدثنى بعض أهل العلم: أنهم قالوا لموسى: يا موسى، قد حيل بيننا وبين رؤية ربنا تعالى فأسمعنا كلامه حين يكلمك، فطلب ذلك موسى إلى ربه تعالى، فقال: نعم،

---

(١) **صحيح**: الترمذي (٢٤١١).

(٢) **منكر**: البزار (٣٢٣٠- كشف). في سنده: هانئ بن المتوكل، وهو ضعيف. انظر: ميزان الاعتدال (٧/ ٧٢)، ومجمع الزوائد (١٠/ ٢٢٦)، ولسان الميزان (٦/ ١٨٦).

مرهم فليتطهروا وليطهروا ثيابهم ويصوموا ثم خرج بهم حتى أتوا الطور، فلما غشيهم الغمام، أمرهم موسى أن يسجدوا، فوقعوا سجودًا، وكلمه ربه، فسمعوا كلامه يأمرهم وينهاهم حتى عقلوا منه ما سمعوا، ثم انصرف بهم إلى بنى إسرائيل، فلما جَاءَهُم، حرف فريق منهم ما أمرهم به، وقالوا: حين قال موسى لبنى إسرائيل: إن الله قد أمركم بكذا وكذا، قال ذلك الفريق الذين ذكرهم الله: إنما قال كذا وكذا خلافًا لما قال الله عز وجل لهم فهم الذين عنى الله لرسوله ﷺ، وقال السدى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾ قال: هى التوراة حرفوها، وهذا الذى ذكره السدى أعم مما ذكره ابن عباس وابن إسحاق، وإن كان قد اختاره ابن جرير لظاهر السياق، فإنه ليس يلزم من سماع كلام الله أن يكون منه، كما سمعه الكليم موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام، وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾[التوبة: ٦] أى مبلغًا إليه، ولهذا قال قتادة فى قوله: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ قال: هم اليهود كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ووعوه، وقال مجاهد: الذين يحرفونه والذين يكتمونه هم العلماء منهم، وقال أبو العالية: عمدوا إلى ما أنزل الله فى كتابهم من نعت محمد ﷺ فحرفوه عن مواضعه، وقال السدى ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أى أنهم أذنبوا.

وقال ابن وهب: قال ابن زيد فى قوله: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾ قال: التوراة التى أنزلها الله عليهم يحرفونها، يجعلون الحلال فيها حرامًا والحرام فيها حلالاً، والحق فيها باطلاً والباطل فيها حقًا، إذا جاءهم المحق برشوة أخرجوا له كتاب الله، وإذا جاءهم المبطل برشوة أخرجوا له ذلك الكتاب فهو فيه محق، وإذا جاءهم أحد يسألهم شيئًا ليس فيه حق ولا رشوة ولا شىء أمروه بالحق، فقال الله لهم: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[البقرة: ٤٤].

وَقَوْلُه تَعَالَى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ الآية، قال محمد بن إسحاق: حدثنا محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ أى: بصاحبكم رسول الله، ولكنه إليكم خاصة، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا: لا تحدثوا العرب بهذا فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم فكان منهم، فأنزل الله ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ أى تقرون بأنه نبى. وقد علمتم أنه قد أخذ له الميثاق عليكم باتباعه. وهو يخبرهم أنه النبى الذى كنا ننتظر ونجد فى كتابنا، اجحدوه ولا تقروا به. يقول الله تعالى ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وقال الضحاك عن ابن عباس: يعنى المنافقين من اليهود، كانوا إذا لقوا أصحاب محمد ﷺ قالوا: آمنا، وقال السدى: هؤلاء ناس من اليهود، آمنوا ثم نافقوا. وكذا قال الربيع بن أنس وقتادة وغير واحد من السلف والخلف حتى قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فيما رواه ابن وهب عنه كان رسول الله ﷺ قد قال «**لا يدخلن علينا قصبة المدينة إلا مؤمن**»[1]. فقال رؤساؤهم من أهل الكفر والنفاق: اذهبوا فقولوا: آمنا واكفروا إذا رجعتم إلينا، فكانوا يأتون المدينة بالبكر ويرجعون إليهم بعد العصر. وقرأ قول الله تعالى ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (١/ ٣٧١).

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢] وكانوا يقولون إذا دخلوا المدينة: نحن مسلمون ليعلموا خبر رسول الله ﷺ وأمره، فإذا رجعوا رجعوا إلى الكفر، فلما أخبر الله نبيه ﷺ قطع ذلك عنهم، فلم يكونوا يدخلون، وكان المؤمنون يظنون أنهم مؤمنون فيقولون: ألبس قد قال الله لكم كذا وكذا، فيقولون: بلى، فإذا رجعوا إلى قومهم، يعنى الرؤساء، فقالوا: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ الآية، وقال أبو العالية ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ يعنى بما أنزل الله عليكم فى كتابكم من نعت محمد ﷺ.

وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ قال: كانوا يقولون: سيكون نبى فخلا بعضهم ببعض، فقالوا: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ قول آخر فى المراد بالفتح، قال ابن جريج [1]: حدثنى القاسم بن أبى بزة عن مجاهد فى قوله تعالى: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ قال: قام النبى ﷺ يوم قريظة تحت حصونهم، فقال: يا إخوان القردة والخنازير، ويا عبدة الطاغوت، فقالوا: من أخبر بهذا الأمر محمدًا؟ ما خرج هذا القول إلا منكم ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بما حكم الله للفتح ليكون لهم حجة عليكم، قال ابن جريج عن مجاهد: هذا حين أرسل إليهم عليًّا فآذوا محمدًا ﷺ، وقال السدى ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ من العذاب ﴿لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ هؤلاء ناس من اليهود آمنوا ثم نافقوا، فكانوا يحدثون المؤمنين من العرب بما عذبوا به، فقال بعضهم لبعض ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ من العذاب ليقولوا: نحن أحب إلى الله منكم، وأكرم على الله منكم. وقال عطاء الخراسانى ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ يعنى بما قضى لكم وعليكم. وقال الحسن البصرى: هؤلاء اليهود كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قال بعضهم: لا تحدثوا أصحاب محمد بما فتح الله عليكم مما فى كتابكم ليحاجوكم به عند ربكم فيخصموكم. وقوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ قال أبو العالية: يعنى ما أسروا من كفرهم بمحمد ﷺ وتكذيبهم به، وهم يجدونه مكتوبًا عندهم، وكذا قال قتادة، وقال الحسن ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ قال: كان ما أسروا أنهم كانوا إذا تولوا عن أصحاب محمد ﷺ وخلا بعضهم إلى بعض، تناهوا أن يخبر أحد منهم أصحاب محمد ﷺ بما فتح الله عليهم مما فى كتابهم خشية أن يحاجهم أصحاب محمد ﷺ بما فى كتابهم عند ربهم ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ يعنى حين قالوا لأصحاب محمد ﷺ: آمنا. كذا قال أبو العالية والربيع وقتادة.

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾ أى ومن أهل الكتاب، قاله مجاهد، والأميون جمع أمى، وهو الرجل الذى لا يحسن الكتابة، قال أبو العالية والربيع وقتادة وإبراهيم النخعى وغير واحد وهو ظاهر فى قوله تعالى ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أى لا يدرون ما فيه. ولهذا فى صفات النبى ﷺ: أنه الأمى

(١) انظر السابق.

لأنه لم يكن يحسن الكتابة، كما قال تعالى ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] وقال عليه الصلاة السلام «إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب الشهر هكذا وهكذا وهكذا»[1] الحديث، أى لا نفتقر فى عباداتنا ومواقيتها إلى كتاب ولا حساب، وقال تبارك وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢] وقال ابن جرير: نسبت العرب من لا يكتب ولا يخط من الرجال إلى أمه فى جهله بالكتاب دون أبيه. قال: وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قول خلاف هذا، وهو ما حدثنا به أبو كريب حدثنا عثمان بن سعيد، عن بشر بن عمارة، عن أبى روق، عن الضحاك، عن ابن عباس، فى قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾ قال الأميون: قوم لم يصدقوا رسولاً أرسله الله، ولا كتابًا أنزله الله، فكتبوا كتابًا بأيديهم، ثم قالوا لقوم سفلة جهال: هذا من عند الله، وقال: قد أخبر أنهم يكتبون بأيديهم ثم سماهم أميين لجحودهم كتب الله ورسله، ثم قال ابن جرير: وهذا التأويل تأويل على خلاف ما يعرف من كلام العرب المستفيض بينهم، وذلك أن الأمى عند العرب الذى لا يكتب. قلت: ثم فى صحة هذا عن ابن عباس بهذا الإسناد نظر، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾ قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس: إلا أمانى إلاّ أحاديث، وقال الضحاك عن ابن عباس فى قوله تعالى ﴿إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾ يقول: إلا قولاً يقولونه بأفواههم كذبًا. وقال مجاهد إلا كذبًا: وقال سنيد عن حجاج، عن ابن جريج، عن مجاهد ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾ قال: أناس من اليهود، لم يكونوا يعلمون من الكتاب شيئًا، وكانوا يتكلمون بالظن بغير ما فى كتاب الله، ويقولون: هو من الكتاب، أمانى يتمنونها، وعن الحسن البصرى نحوه، وقال أبو العالية والربيع وقتادة: إلا أمانى يتمنون على الله ما ليس لهم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إلا أمانى، قال: تمنوا فقالوا: نحن من أهل الكتاب وليسوا منهم، قال ابن جرير: والأشبه بالصواب قول الضحاك عن ابن عباس، وقول مجاهد: إن الأميين الذين وصفهم الله تعالى أنهم لا يفقهون من الكتاب الذى أنزله الله تعالى على موسى شيئًا ولكنهم يتخرصون الكذب ويتخرصون الأباطيل كذبًا وزورًا، والتمنى فى هذا الموضع هو تخلق الكذب وتخرصه، ومنه الخبر المروى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه: ما تغنيت ولا تمنيت، يعنى: ما تخرصت الباطل ولا اختلقت الكذب، وقيل: المراد بقوله إلا أمانى بالتشديد والتخفيف أيضًا: أى إلا تلاوة، فعلى هذا يكون استثناء منقطعًا، واستشهدوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ - أى تلا - ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ الآية [الحج: ٥٢]، وقال كعب بن مالك الشاعر:

تمنى كتاب الله أول ليله ... وآخره لاقى حمام المقادر

وقال آخر:

تمنى كتاب الله آخر ليله ... تمنى داود الكتاب على رسل

وقال محمد بن إسحاق: حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أى: ولا يدرون ما فيه، وهم يجدون نبوتك بالظن، وقال مجاهد: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ يكذبون وقال قتادة وأبو العالية والربيع: يظنون بالله الظنون بغير

(١) أخرجه البخاري (١٩١٣)، مسلم (١٠٨٠)، من حديث ابن عمر.

الحق. قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الآية، هؤلاء صنف آخر من اليهود. وهم الدعاة إلى الضلال بالزور والكذب على الله وأكل أموال الناس بالباطل، والويل: الهلاك والدمار، وهى كلمة مشهورة فى اللغة، وقال سفيان الثورى عن زياد بن فياض: سمعت أبا عياض يقول: ويل صديد فى أصل جهنم، وقال عطاء بن يسار: الويل واد فى جهنم لو سيرت فيه الجبال لماعت. وقال ابن أبى حاتم [١]: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرنى عمرو بن الحارث عن دراج، عن أبى الهيثم عن أبى سعيد الخدرى، عن رسول الله ﷺ قال: «**ويل واد فى جهنم يهوى فيه الكافر أربعين خريفًا قبل أن يبلغ قعره**» ورواه الترمذى [٢] عن عبد الرحمن بن حميد، عن الحسن بن موسى، عن ابن لهيعة، عن دارج به، وقال: هذا الحديث غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة.

(قُلْتُ): لم ينفرد به ابن لهيعة كما ترى، ولكن الآفة ممن بعده، وهذا الحديث بهذا الإسناد مرفوع منكر، والله أعلم. وقال ابن جرير [٣] حدثنا المثنى، حدثنا إبراهيم بن عبد السلام، بن صالح التسترى، حدثنا على بن جرير عن حماد بن سلمة، عن عبد الحميد بن جعفر، عن كنانة العدوى، عن عثمان بن عفان رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ قال «**الويل جبل فى النار وهو الذى أنزل فى اليهود، لأنهم حرفوا التوراة، زادوا فيها ما أحبوا، ومحوا منها ما يكرهون، ومحوا اسم محمد ﷺ من التوراة ولذلك غضب الله عليهم، فرفع بعض التوراة فقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾**» وهذا غريب أيضًا جدًّا، وعن ابن عباس: الويل المشقة من العذاب، وقال الخليل بن أحمد: الويل شدة الشر، وقال سيبويه: ويل لمن وقع فى الهلكة، وويح لمن أشرف عليها، وقال الأصمعى: الويل تفجع، والويح ترحم، وقال غيره: الويل: الحزن، وقال الخليل: وفى معنى ويل: ويح وويش وويه وويك ووبب، ومنهم من فرق بينها، وقال بعض النحاة: إنما جاز الابتداء بها وهى نكرة لأن فيها معنى الدعاء، ومنهم من جوز نصبها بمعنى: ألزمهم ويلًا.

(قُلْتُ): لكن لم يقرأ بذلك أحد، وعن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ قال: هم أحبار اليهود، وكذا قال سعيد عن قتادة: هم اليهود، وقال سفيان الثورى عن عبد الرحمن بن علقمة: سألت ابن عباس رضى الله عنه، عن قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ قال: نزلت فى المشركين وأهل الكتاب، وقال السدى: كان ناس من اليهود كتبوا كتابًا من عندهم يبيعونه من العرب ويحدثونهم أنه من عند الله فيأخذوا به ثمنًا قليلًا، وقال الزهرى: أخبرنى عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس أنه قال: يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شىء، وكتاب الله الذى أنزله على نبيه أحدث أخبار الله تقرؤونه غضًّا لم يشب وقد حدثكم الله تعالى أن أهل الكتاب قد بدلوا كتاب الله وغيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمنًا

---

(١) ضعيف: ابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٢٤٣)، برقم (٨٠٣).
(٢) ضعيف: الترمذي (٣١٦٤)، في سنده: دراج عن أبي الهيثم، ضعيف.
(٣) ابن جرير في تفسيره (١/ ٣٧٨)

قليلاً، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم، ولا والله ما رأينا منهم أحدًا قط سألكم عن الذى أنزل عليكم، رواه البخارى [١] من طرق عن الزهرى، وقال الحسن بن أبى الحسن البصرى: الثمن القليل الدنيا بحذافيرها. وقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ أى فويل لهم مما كتبوا بأيديهم من الكذب والبهتان والافتراء، وويل لهم مما أكلوا به من السحت، كما قال الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم﴾ يقول: فالعذاب عليهم من الذى كتبوا بأيديهم من ذلك الكذب، ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ يقول: مما يأكلون به الناس السفلة وغيرهم.

﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾

يقول تعالى إخبارًا عن اليهود فيما نقلوه وادعوه لأنفسهم من أنهم لن تمسهم النار إلا أيامًا معدودة، ثم ينجون منها، فرد الله عليهم ذلك بقوله تعالى ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا﴾ أى بذلك، فإن كان قد وقع عهد فهو لا يخلف عهده، ولكن هذا ما جرى ولا كان، ولهذا أتى (بأم) التى بمعنى بل، أى بل تقولون على الله ما لا تعلمون من الكذب والافتراء عليه، قال محمد بن إسحاق عن سيف بن سليمان، عن مجاهد، عن ابن عباس: إن اليهود كانوا يقولون: إن هذه الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما نعذب بكل ألف سنة يومًا فى النار وإنما هى سبعة أيام معدودة فأنزل الله تعالى ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ إلى قوله ﴿خَالِدُونَ﴾ ثم رواه عن محمد، عن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس بنحوه، وقال العوفى عن ابن عباس ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ اليهود قالوا: لن تمسنا النار إلا أربعين ليلة، زاد غيره وهى مدة عبادتهم العجل، وحكاه القرطبى عن ابن عباس وقتادة، وقال الضحاك: قال ابن عباس: زعمت اليهود أنهم وجدوا فى التوراة مكتوبًا أن ما بين طرفى جهنم مسيرة أربعين سنة إلى أن ينتهوا إلى شجرة الزقوم التى هى نابتة فى أصل الجحيم، وقال أعداء الله: إنما نعذب حتى ننتهى إلى شجرة الزقوم فتذهب جهنم وَتَهْلَكُ فذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ يعنى الأيام التى عبدنا فيها العجل وقال عكرمة خاصمت اليهود رسول الله ﷺ، فقالوا: لن ندخل النار إلا أربعين ليلة، وسيخلفنا فيها قوم آخرون، يعنون محمدًا ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم، فقال رسول الله ﷺ بيده على رؤوسهم «بل أنتم خالدون مخلدون لا يخلفكم فيها أحد» [٢] فأنزل الله عز وجل ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ الآية، وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه رحمه الله: حدثنا عبد الرحمن بن جعفر، حدثنا محمد بن محمد بن صخر، حدثنا أبو عبد الرحمن المقرئ، حدثنا ليث بن سعد، حدثنى سعيد بن أبى سعيد، عن أبى هريرة، قال: لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ، شاة فيها سم، فقال رسول الله ﷺ «اجمعوا لى من كان من اليهود ههنا» فقال لهم رسول الله ﷺ «من أبوكم» ؟ قالوا: فلان، قال «كذبتم بل أبوكم فلان» فقالوا: صدقت وبررت، ثم قال لهم «هل أنتم صادقى عن شىء إن سألتكم عنه» ؟ قالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبناك عرفت

(١) البخاري (٢٦٨٥) من حديث ابن عباس. (٢) رواه ابن جرير في تفسيره (١/ ٣٨٢).

كذبنا كما عرفته فى أبينا، فقال لهم رسول الله ﷺ «من أهل النار» ؟ فقالوا: نكون فيها يسيرًا ثم تخلفونا فيها، فقال لهم رسول الله ﷺ «اخسئوا والله لا نخلفكم فيها أبدًا» ثم قال لهم رسول الله ﷺ «هل أنتم صادقى عن شىء إن سألتكم عنه؟» قالوا: نعم يا أبا القاسم، قال: «هل جعلتم فى هذه الشاة سما؟» فقالوا: نعم، قال «فما حملكم على ذلك؟» فقالوا: **أردنا إن كنت كاذبًا أن نستريح منك، وإن كنت نبيًا لم يضرك، ورواه الإمام أحمد والبخارى والنسائى** [1] من حديث الليث بن سعد بنحوه.

﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾

يقول تعالى: ليس الأمر كما تمنيتم ولا كما تشتهون، بل الأمر أنه من عمل سيئة وأحاطت به خطيئته وهو من وافى يوم القيامة وليست له حسنة، بل جميع أعماله سيئات فهذا من أهل النار، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أى آمنوا بالله ورسوله، وعملوا الصالحات من العمل الموافق للشريعة فهم من أهل الجنة، وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣-١٢٤] قال محمد بن إسحاق حدثنى محمد بن أبى محمد عن سعيد أو عكرمة، عن ابن عباس ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ أى عمل مثل أعمالكم وكفر بمثل ما كفرتم به حتى يحيط به كفره، فما له من حسنة، وفى رواية عن ابن عباس، قال: الشرك، قال ابن أبى حاتم: وروى عن أبى وائل وأبى العالية ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والربيع بن أنس نحوه، وقال الحسن أيضًا والسدى: السيئة: الكبيرة من الكبائر، وقال ابن جريج، عن مجاهد ﴿وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ قال: بقلبه، وقال أبو هريرة وأبو وائل وعطاء والحسن ﴿وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ قال: أحاط به شركه، وقال الأعمش عن أبى رزين عن الربيع بن خيثم ﴿وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ قال: الذى يموت على خطايا من قبل أن يتوب، وعن السدى وأبى رزين نحوه، وقال أبو العالية ومجاهد والحسن فى رواية عنهما، وقتادة والربيع بن أنس ﴿وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ الكبيرة الموجبة، وكل هذه الأقوال متقاربة فى المعنى، والله أعلم. ويذكر ههنا الحديث الذى رواه الإمام أحمد [2] حيث قال: حدثنا سليمان بن داود، حدثنا عمران عن قتادة عن عبد ربه، عن أبى عياض، عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه**» وإن رسول الله ﷺ ضرب لهم مثلًا، كمثل قوم نزلوا بأرض فلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجىء بالعود، والرجل يجىء بالعود حتى جمعوا سوادًا، وأججوا نارًا فأنضجوا ما قذفوا فيها. وقال محمد بن إسحاق حدثنى محمد عن سعيد أو عكرمة، عن

---

(١) البخاري (٣١٦٩)، أحمد (٢٧٢٣١)، النسائي في الكبرى (٦/ ٤١٣)، برقم (١١٣٥٥)، من حديث أبي هريرة.
(٢) صحيح: المسند (٣٨٠٨)، من حديث ابن مسعود به. وأخرجه أيضًا برقم (٢٢٣٠٢)، من حديث سهل بن سعد.

ابن عباس ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ أى من آمن بما كفرتم وعمل بما تركتم من دينه، فلهم الجنة خالدين فيها، يخبرهم أن الثواب بالخير والشر مقيم على أهله أبدًا لا انقطاع له أبدًا.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾

يذكر تبارك وتعالى بنى إسرائيل بما أمرهم به من الأوامر وأخذه ميثاقهم على ذلك وأنهم تولوا عن ذلك كله، وأعرضوا قصدًا وعمدًا وهم يعرفونه، ويذكرونه، فأمرهم تعالى أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وبهذا أمر جميع خلقه، ولذلك خلقهم كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] وهذا هو أعلى الحقوق وأعظمها، وهو حق الله تبارك وتعالى أن يعبد وحده لا شريك له، ثم بعده حق المخلوقين وآكدهم وأولاهم بذلك حق الوالدين، ولهذا يقرن تبارك وتعالى بين حقه وحق الوالدين كما قال تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤] وقال تبارك وتعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ الآية [الإسراء: ٢٣] إلى أن قال ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الإسراء: ٢٦] وفى الصحيحين[1] عن ابن مسعود، قلت: يا رسول الله أى العمل أفضل؟ قال «الصلاة على وقتها» قلت: ثم أى؟ قال «بر الوالدين» قلت: ثم أى؟ قال «الجهاد فى سبيل الله» ولهذا جاء فى الحديث الصحيح[2] أن رجلًا قال: يا رسول الله من أبر؟ قال «أمك» قال: ثم من؟ قال «أمك» قال: ثم من؟ قال: «أباك؟ ثم أدناك ثم أدناك» وقوله تعالى: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ قال الزمخشرى خبر بمعنى الطلب وهو آكد، وقيل كان أصله أن لا تعبدوا ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ كما قرأها من قرأها من السلف، فحذفت أن فارتفع، وحكى عن أبى وابن مسعود أنهما قرآها لا تعبدوا ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ ونقل هذا التوجيه القرطبى فى تفسيره عن سيبويه. قال: واختاره الكسائى والفراء، قال ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ وهم الصغار الذين لا كاسب لهم من الآباء. ﴿والمساكين﴾ الذين لا يجدون ما ينفقون على أنفسهم وأهليهم، وسيأتى الكلام على هذه الأصناف عند آية النساء التى أمرنا الله تعالى بها صريحًا فى قوله ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ الآية، وقوله تعالى ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ أى كلموهم طيبًا، ولينوا لهم جانبًا، ويدخل فى ذلك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بالمعروف كما قال الحسن البصرى فى قوله تعالى ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ فالحسن من القول يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحلم ويعفو ويصفح، ويقول للناس حسنًا كما قال الله، وهو كل خلق حسن رضيه الله.

وقال الإمام أحمد[3]: حدثنا روح، حدثنا أبو عامر الخزاز، عن أبى عمران الجونى، عن

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢٧)، مسلم (٨٥)

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٥١٣٩)، الترمذي (١٨٩٧) من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده.

(٣) صحيح: المسند (٢١٠٠٨).

عبد الله بن الصامت، عن أبى ذر رضى الله عنه، عن النبى ﷺ أنه قال «**لا تحقرن من المعروف شيئًا، وإن لم تجد فالق أخاك بوجه منطلق**» وأخرجه مسلم فى صحيحه، والترمذى[١]، وصححه من حديث أبى عامر الخزاز واسمه صالح بن رستم به، وناسب أن يأمرهم بأن يقولوا للناس: حسنًا بعدما أمرهم بالإحسان إليهم بالفعل، فجمع بين طرفى الإحسان الفعلى والقولى، ثم أكد الأمر بعبادته والإحسان إلى الناس بالمعين من ذلك وهو الصلاة والزكاة، فقال ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ﴾ وأخبر أنهم تولوا عن ذلك كله، أى تركوه وراء ظهورهم وأعرضوا عنه على عمد بعد العلم به إلا القليل منهم، وقد أمر الله هذه الأمة بنظير ذلك فى سورة النساء بقوله ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَٰمَىٰ وَالْمَسَٰكِينِ وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنۢبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦] فقامت هذه الأمة من ذلك بما لم تقم به أمة من الأمم قبلها، ولله الحمد والمنة. ومن النقول الغريبة ههنا ما ذكره ابن أبى حاتم فى تفسيره: حدثنا أبى، حدثنا محمد بن خلف العسقلانى، حدثنا عبد الله بن يوسف يعنى التنيسى، حدثنا خالد بن صبيح عن حميد بن عقبة، عن أسد بن وداعة أنه كان يخرج من منزله فلا يلقى يهوديًا ولا نصرانيًا إلا سلم عليه، فقيل له: ما شأنك تسلم على اليهودى والنصرانى؟ فقال: إن الله تعالى يقول: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ وهو السلام. قال: وروى عن عطاء الخراسانى نحوه.

(قُلتُ): وقد ثبت فى السنة أنهم لا يُبدؤون بالسلام[٢]، والله أعلم.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا بِالْءَاخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾

يقول الله تبارك وتعالى منكرًا على اليهود الذين كانوا فى زمان رسول الله ﷺ بالمدينة، وما كانوا يعانونه من القتال مع الأوس والخزرج، وذلك أن الأوس والخزرج وهم الأنصار كانوا فى الجاهلية عباد أصنام، وكانت بينهم حروب كثيرة، وكانت يهود المدينة ثلاث قبائل: بنو قينقاع، وبنو النضير: حلفاء الخزرج، وبنو قريظة: حلفاء الأوس، فكانت الحرب إذا نشبت بينهم، قاتل كل فريق مع حلفائه، فيقتل اليهودى أعداءه، وقد يقتل اليهودى الآخر من الفريق الآخر، وذلك حرام عليهم فى دينه ونص كتابه، ويخرجونهم من بيوتهم وينتهبون ما فيها من الأثاث والأمتعة والأموال، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها استفكّوا الأسارى من الفريق المغلوب عملاً بحكم التوراة، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ أى لا يقتل بعضكم بعضًا ولا يخرجه من منزله ولا يظاهر

(١) مسلم (٢٦٢٦)، الترمذي (١٨٣٣).
(٢) أخرجه مسلم (٢١٦٧) من حديث أبي هريرة.

عليه، كما قال تعالى: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] وذلك أن أهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة كما قال عليه الصلاة والسلام: «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتواصلهم بمنزلة الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»[1] وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أى ثم أقررتم بمعرفة هذا الميثاق وصحته وأنتم تشهدون به ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ [البقرة: ٨٥] الآية، وقال محمد بن إسحاق بن يسار، حدثنى محمد بن أبى محمد عن سعيد بن جبير أو عكرمة، عن ابن عباس ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ الآية، قال: أنبهم الله بذلك من فعلهم، وقد حرم عليهم فى التوراة سفك دمائهم، وافترض عليهم فيها فداء أسراهم، فكانوا فريقين: طائفة منهم بنو قينقاع وهم حلفاء الخزرج والنضير، وقريظة وهم حلفاء الأوس، فكانوا إذا كانت بين الأوس والخزرج حرب خرجت بنو قينقاع مع الخزرج، وخرجت النضير وقريظة مع الأوس، يظاهر كل واحد من الفريقين حلفاءه على إخوانه حتى تسافكوا دماءهم بينهم، وبأيديهم التوراة يعرفون فيها ما عليهم وما لهم، والأوس والخزرج أهل شرك يعبدون الأوثان ولا يعرفون جنة ولا نارًا ولا بعثًا ولا قيامة ولا كتابًا ولا حلالاً ولا حرامًا، فإذا وضعت الحرب أوزارها، افتدوا أسراهم تصديقًا لما فى التوراة وأخذًا به بعضهم من بعض، يفتدى بنو قينقاع ما كان من أسراهم فى أيدى الأوس، ويفتدى النضير وقريظة ما كان فى أيدى الخزرج منهم، ويطلبون ما أصابوا من دمائهم، وقتلوا من قتلوا منهم فيما بينهم مظاهرة لأهل الشرك عليهم، يقول الله تعالى ذكره حيث أنبهم بذلك ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ أى تفادونهم بحكم التوراة وتقتلونهم وفى حكم التوراة أن لا يقتل ولا يخرج من داره ولا يظاهر عليه إلا من يشرك بالله ويعبد الأوثان من دونه ابتغاء عرض الدنيا، ففى ذلك من فعلهم مع الأوس والخزرج فيما بلغنى نزلت هذه القصة.

وقال أسباط عن السدى: كانت قريظة حلفاء الأوس، وكانت النضير حلفاء الخزرج فكانوا يقتتلون فى حرب بينهم، فتقاتل بنو قريظة مع حلفائها النضير وحلفاءهم، وكانت النضير تقاتل قريظة وحلفاءها ويغلبونهم، فيخربون ديارهم ويخرجونهم منها، فإذا أسر رجل من الفريقين كليهما، جمعوا له حتى يفدوه، فتعيرهم العرب بذلك يقولون: كيف تقاتلونهم وتفدونهم؟ قالوا: إنا أمرنا أن نفديهم وحرم علينا قتالهم، قالوا فلم تقتلونهم؟ قالوا: إنا نستحى أن تستذل حلفاؤنا، فذلك حين عيرهم الله تبارك وتعالى فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ﴾ الآية، وقال شعبة عن السدى: نزلت هذه الآية فى قيس بن الخطيم ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ الآية، وقال أسباط عن السدى، عن عبد خير، قال: غزونا مع سليمان بن ربيعة الباهلى بلنجر فحاصرنا أهلها، ففتحنا المدينة وأصبنا سبايا، واشترى عبد الله بن سلام يهودية بسبعمائة، فلما مر برأس الجالوت نزل به، فقال له عبد الله، يا رأس الجالوت، هل لك فى عجوز ههنا من أهل دينك تشتريها منى؟ قال: نعم، قال: أخذتها بسبعمائة

(١) أخرجه البخاري (٦٠١١)، مسلم (٢٥٨٦)، من حديث النعمان بن بشير.

درهم، قال: فإنى أربحك سبعمائة أخرى، قال: فإنى قد حلفت أن لا أنقصها من أربعة آلاف، قال: لا حاجة لى فيها، قال: والله لتشرينها منى أو لتكفرن بدينك الذى أنت عليه، قال: ادن منى، فدنا منه، فقرأ فى أذنه مما فى التوراة: إنك لا تجد مملوكًا من بنى إسرائيل إلا اشتريته، فأعتقته ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ قال: أنت عبد الله بن سلام؟ قال: نعم: فجاء بأربعة آلاف، فأخذ عبد الله ألفين، ورد عليه ألفين.

وقال آدم بن أبى إياس فى تفسيره: حدثنا أبو جعفر يعنى الرازى، حدثنا الربيع بن أنس، أخبرنا أبو العالية: أن عبد الله بن سلام مر على رأس الجالوت بالكوفة، وهو يفادى من النساء من لم يقع عليه العرب، ولا يفادى من وقع عليها العرب، فقال عبد الله من سلام: أما إنه مكتوب عندك فى كتابك أن تفاديهن كلهن، والذى أرشدت إليه الآية الكريمة، وهذا السياق ذم اليهود فى قيامهم بأمر التوراة التى يعتقدون صحتها ومخالفة شرعها مع معرفتهم بذلك وشهادتهم له بالصحة، فلهذا لا يؤتمنون على ما فيها ولا على نقلها، ولا يصدقون فيما يكتمونه من صفة رسول الله ﷺ ونعته ومبعثه ومخرجه ومهاجره وغير ذلك من شؤونه التى أخبرت بها الأنبياء قبله عليهم الصلاة والسلام، واليهود عليهم لعائن الله يتكاتمونه بينهم، ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أى بسبب مخالفتهم شرع الله وأمره ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ جزاء على ما كتموه من كتاب الله الذى بأيديهم ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ أى استحبوها على الآخرة واختاروها ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أى لا يفتر عنهم ساعة واحدة ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أى وليس لهم ناصر ينقذهم مما هم فيه من العذاب الدائم السرمدى ولا يجيرهم منه.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾

ينعت تبارك وتعالى بنى إسرائيل بالعتو والعناد والمخالفة والاستكبار على الأنبياء، وأنهم إنما يتبعون أهواءهم، فذكر تعالى أنه آتى موسى الكتاب وهو التوراة، فحرفوها وبدلوها وخالفوا أوامرها وأولوها، وأرسل الرسل والنبيين من بعده الذين يحكمون بشريعته كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ [المائدة: ٤٤] الآية: ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾ [البقرة: ٨٧] قال السدى عن أبى مالك: أتبعنا، وقال غيره: أردفنا والكل قريب كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ [المؤمنون: ٤٤] حتى ختم أنبياء بنى إسرائيل بعيسى ابن مريم، فجاء بمخالفة التوراة فى بعض الأحكام، ولهذا أعطاه الله تعالى من البينات وهى المعجزات، قال ابن عباس: من إحياء الموتى، وخلقه من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيرًا بإذن الله، وإبراء الأسقام، وإخباره بالغيوب، وتأييده بروح القدس وهو جبريل عليه السلام - ما يدلهم على صدقه فيما جاءهم به، فاشتد تكذيب بنى إسرائيل له، وحسدهم وعنادهم لمخالفة التوراة فى البعض، كما قال تعالى إخبارًا عن عيسى:

﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الآية [آل عمران: ٥٠]، فكانت بنو إسرائيل تعامل الأنبياء أسوأ المعاملة، ففريقًا يكذبونه، وفريقًا يكذبونه ويقتلونه، وما ذاك إلا لأنهم يأتونهم بالأمور المخالفة لأهوائهم وآرائهم، وبالإلزام بأحكام التوراة التى قد تصرفوا فى مخالفتها، فلهذا كان ذلك يشق عليهم فكذبوهم، وربما قتلوا بعضهم، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾.

والدليل على أن روح القدس هو جبريل، كما نص عليه ابن مسعود فى تفسير هذه الآية، وتابعه على ذلك ابن عباس ومحمد بن كعب القرظى وإسماعيل بن أبى خالد والسدى والربيع بن أنس وعطية العوفى وقتادة مع قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٥] ما قال البخارى وقال ابن أبى الزناد، عن أبيه، عن أبى هريرة، وعن عروة عن عائشة: أن رسول الله ﷺ، وضع لحسان بن ثابت منبرًا فى المسجد، فكان ينافح عن رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ **«اللّهم أيد حسان بروح القدس كما نافح عن نبيك»** فهذا من البخارى تعليق، وقد رواه أبو داود فى سننه عن ابن سيرين والترمذى، عن على بن حجر وإسماعيل بن موسى الفزارى، ثلاثتهم، عن أبى عبد الرحمن بن أبى الزناد، عن أبيه وهشام بن عروة، كلاهما عن عروة، عن عائشة به[(١)]، وقال الترمذى: حسن صحيح، وهو حديث أبى الزناد، وفى الصحيحين[(٢)] من حديث سفيان بن عيينة، عن الزهرى عن سعيد بن المسيب، عن أبى هريرة: أن عمر بن الخطاب مر بحسان وهو ينشد الشعر فى المسجد، فلحظ إليه فقال: قد كنت أنشد فيه، وفيه من هو خير منك، ثم التفت إلى أبى هريرة فقال أنشدك الله: أسمعت رسول الله ﷺ يقول: **«أجب عنى اللّهم أيده بروح القدس»** فقال: اللّهم نعم، وفى بعض الروايات: أن رسول الله ﷺ، قال لحسان **«اهجهم - أو «هاجِهِمْ» - وجبريل معك»** وفى شعر حسان قوله:

وجبريل رسول الله فينا ... وروح القدس ليس به خفاء

وقال محمد بن إسحاق[(٣)]: حدثنى عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى حسين المكى، عن شهر بن حوشب الأشعرى: أن نفرًا من اليهود سألوا رسول الله ﷺ، قالوا: أخبرنا عن الروح، فقال: **«أنشدكم بالله وبأيامه عند بنى إسرائيل هل تعلمون أنه جبريل وهو الذى يأتينى؟»** قالوا: نعم، وفى صحيح ابن حبان[(٤)]، عن ابن مسعود: أن رسول الله ﷺ قال: **«إن روح القدس نفث فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب»**. أقوال أخر - قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا منجاب بن الحارث، حدثنا بشر عن أبى روق، عن الضحاك، عن ابن عباس ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ قال: هو الاسم الأعظم الذى كان عيسى يحيى به الموتى. وقال ابن جرير: حدثت عن المنجاب فذكره، وقال ابن أبى حاتم: وروى عن سعيد بن جبير نحو ذلك، ونقله

---

(١) حسن: أبو داود (٥٠١٥)، الترمذي (٢٨٤٦).
(٢) أخرجه البخاري (٣٢١٢)، مسلم (٢٤٨٥).
(٣) رواه ابن جرير في تفسيره (١/ ٤٠٤).
(٤) أورده ابن عبد البر في التمهيد (١/ ٢٨٤).

القرطبى عن عبيد بن عمير أيضًا قال: وهو الاسم الأعظم.

وقال ابن أبى نجيح: الروح هو حفظة على الملائكة، وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس: القدس هو الرب تبارك وتعالى، وهو قول كعب، وحكى القرطبى عن مجاهد والحسن البصرى أنهما قالا: القدس: هو الله تعالى، وروحه: جبريل. فعلى هذا يكون القول الأول، وقال السدى: القدس البركة. وقال العوفى عن ابن عباس: القدس: الطهر، وقال ابن جرير حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أنبأنا ابن وهب، قال ابن زيد فى قوله تعالى ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ قال: أيد الله عيسى بالإنجيل روحًا كما جعل القرآن روحًا، كلاهما روح من الله، كما قال تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] ثم قال ابن جرير: وأولى التأويلات فى ذلك بالصواب قول من قال: الروح فى هذا الموضع: جبريل، فإن الله تعالى أخبر أنه أيد عيسى به كما أخبر فى قوله تعالى ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [المائدة: ١١٠] الآية، فذكر أنه أيده به، فلو كان الروح الذى أيده به هو الإنجيل، لكان قوله: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [المائدة: ١١٠] ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [المائدة: ١١٠] تكرير قول لا معنى له، والله سبحانه وتعالى أعز وأجل أن يخاطب عباده بما لا يفيدهم به.

(قُلْتُ): ومن الدليل على أنه جبريل ما تقدم من أول السياق، ولله الحمد، وقال الزمخشرى ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ بالروح المقدسة، كما تقول: حاتم الجود ورجل صدق، ووصفها بالقدس كما قال: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١] فوصفه بالاختصاص والتقريب تكرمة، وقيل: لأنه لم تضمه الأصلاب والأرحام الطوامث، وقيل بجبريل، وقيل بالإنجيل كما قال فى القرآن ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] وقيل: باسم الله الأعظم الذى كان يحيى الموتى بذكره، فتضمن كلامه قولاً آخر، وهو أن المراد روح عيسى نفسه المقدسة المطهرة، وقال الزمخشرى فى قوله تعالى: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ إنما لم يقل: وفريقًا قتلتم، لأنه أراد بذلك وصفهم فى المستقبل أيضًا لأنهم حاولوا قتل النبى ﷺ بالسم والسحر وقد قال عليه السلام فى مرض موته: «**ما زالت أكلة خيبر تعاودنى فهذا أوان انقطاع أبهرى**».

(قُلْتُ) وهذا الحديث فى صحيح البخارى [1] وغيره.

﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾

قال محمد بن إسحاق: حدثنى محمد بن أبى محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ أى فى أكنة، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ أى لا تفقه: وقال العوفى عن ابن عباس: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ هى القلب المطبوع عليها، وقال مجاهد ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ عليه غشاوة، وقال عكرمة: عليها طابع، وقال أبو العالية: أى لا تفقه، وقال السدى يقولون عليه غلاف، وهو الغطاء، وقال عبد الرزاق عن معمر، عن قتادة: فلا تعى ولا تفقه،

---

(١) أخرجه البخاري معلقًا، كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ قبل حديث رقم (٤٤٢٨)، من حديث عائشة وقد وصله البزار والحاكم والإسماعيلي، وله شاهدان مرسلان أيضًا، انظر: فتح الباري (٨/ ١٣١).

قال مجاهد وقتادة: وقرأ ابن عباس (غُلُفٌ)، بضم اللام، وهو جمع غلاف، أى قلوبنا أوعية كل علم فلا نحتاج إلى علمك، قاله ابن عباس وعطاء ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ أى طردهم الله وأبعدهم من كل خير ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ قال قتادة: معناه لا يؤمن منهم إلا القليل ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ هو كقوله ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥] وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله ﴿غلف﴾، قال: تقول قلبى فى غلاف فلا يخلص إليه مما تقول شىء، وقرأ ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥] وهذا الذى رجحه ابن جرير، واستشهد بما روى من حديث عمرو بن مرة الجملى عن أبى حاتم البخترى، عن حذيفة قال: «القلوب أربعة» فذكر منها «وقلب أغلف مغضوب عليه وذاك قلب الكافر»[1] وقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عبد الرحمن العرزمى، أنبأنا أبى، عن جدى، عن قتادة، عن الحسن فى قوله: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ قال: لم تختن، وهذا القول يرجع معناه إلى ما تقدم من عدم طهارة قلوبهم وأنها بعيدة من الخير.

قول آخر: قال الضحاك عن ابن عباس في قوله ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ قال: يقولون: قلوبنا غلف مملوءة لا تحتاج إلى علم محمد ولا غيره. وقال عطية العوفى عن ابن عباس ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ أى أوعية للعلم، وعلى هذا المعنى جاءت قراءة بعض الأنصار فيها، حكاه ابن جرير، (وقالوا قلوبنا غُلُف)، بضم اللام، نقلها الزمخشرى، أى جمع غلاف، أى أوعية، بمعنى أنهم ادعوا أن قلوبهم مملوءة بعلم لا يحتاجون معه إلى علم آخر كما كانوا يمنون بعلم التوراة، ولهذا قال تعالى: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أى ليس الأمر كما ادعوا بل قلوبهم ملعونة مطبوع عليها، كما قال فى سورة النساء: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥] وقد اختلفوا فى معنى قوله: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ وقوله: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥] فقال بعضهم: فقليل من يؤمن منهم، وقيل: فقليل إيمانهم، بمعنى أنهم يؤمنون بما جاءهم به موسى من أمر المعاد والثواب والعقاب، ولكنه إيمان لا ينفعهم لأنه مغمور بما كفروا به من الذى جاءهم به محمد ﷺ، وقال بعضهم: إنما كانوا غير مؤمنين بشىء، وإنما قال: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ وهم بالجميع كافرون، كما تقول العرب: قلما رأيت مثل هذا قط، تريد ما رأيت مثل هذا قط، وقال الكسائى: تقول العرب: من زنى بأرض قلما تنبت، أى لا تنبت شيئًا، حكاه ابن جرير رحمه الله، والله أعلم.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ﴾، يعنى اليهود، ﴿كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وهو القرآن الذى أنزل على محمد ﷺ ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ يعنى من التوراة، وقوله ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أى وقد كانوا من قبل مجىء هذا الرسول بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم يقولون: إنه سيبعث نبى فى آخر الزمان نقتلكم معه قتل عاد وإرم، كما قال محمد بن

---

(١) **ضعيف:** أخرجه أحمد (١٠٧٤٥)، من حديث أبي سعيد الخدري. في إسناده: ليث بن أبي سليم، صدوق يهم انظر: السلسلة الضعيفة رقم (٥١٦١).

إسحاق، عن عاصم بن عمر، عن قتادة الأنصارى، عن أشياخ منهم، قال: فينا والله وفيهم، يعنى فى الأنصار وفى اليهود الذين كانوا جيرانهم نزلت هذه القصة يعنى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ قالوا: كنا قد علوناهم قهرًا دهرًا فى الجاهلية، ونحن أهل شرك، وهم أهل كتاب، فكانوا يقولون: إن نبيًّا يبعث الآن نتبعه قد أظل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به، يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وقال الضحاك، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قال: يستظهرون، يقولون: نحن نعين محمدًا عليهم، وليسوا كذلك بل يكذبون.

وقال محمد بن إسحاق: أخبرنى محمد بن أبى محمد، أخبرنى عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أن يهودًا كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب، كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور أخوبنى سلمة: يا معشر يهود، اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ونحن أهل شرك وتخبروننا بأنه مبعوث وتصفونه بصفته، فقال سلام بن مشكم أخو بنى النضير: ما جاءنا بشىء نعرفه، ما هو بالذى كنا نذكر لكم، فينزل الله فى ذلك من قولهم: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الآية، وقال العوفى عن ابن عباس ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يقول: يستنصرون بخروج محمد ﷺ على مشركى العرب، يعنى بذلك أهل الكتاب، فلما بعث محمد ﷺ ورأوه من غيرهم، كفروا به وحسدوه، وقال أبو العالية: كانت اليهود تستنصر بمحمد ﷺ على مشركى العرب، يقولون: اللَّهم ابعث هذا النبى الذى نجده مكتوبًا عندنا حتى نعذب المشركين ونقتلهم. فلما بعث الله محمدًا ﷺ ورأوا أنه من غيرهم، كفروا به حسدًا للعرب وهم يعلمون أنه رسول الله ﷺ، فقال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وقال قتادة ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قال: وكانوا يقولون: إنه سيأتى نبى. ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ وقال مجاهد ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قال: هم اليهود.

﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾

قال مجاهد ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ يهود شروا الحق بالباطل وكتمان ما جاء به محمد ﷺ بأن يبينوه، وقال السدى ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ يقول: باعوا به أنفسهم، يقول: بئسما اعتاضوا لأنفسهم فرضوا به وعدلوا إليه من الكفر بما أنزل الله على محمد ﷺ عن تصديقه ومؤازرته ونصرته، وإنما حملهم على ذلك البغى والحسد والكراهية ﴿أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ ولا حسد أعظم من هذا، قال ابن إسحاق، عن محمد، عن عكرمة أو سعيد، عن ابن عباس ﴿بِئْسَمَا

﴿ٱشْتَرَوْا بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أى أن الله جعله من غيرهم ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ قال ابن عباس: فالغضب على الغضب، فغضب عليهم فيما كانوا ضيعوا من التوراة وهى معهم، وغضب بكفرهم بهذا النبى الذى بعث الله إليهم.

(قُلْتُ): ومعنى ﴿فَبَآءُو﴾ استوجبوا واستحقوا واستقروا بغضب على غضب، وقال أبو العالية: غضب الله عليهم بكفرهم بالإنجيل وعيسى، ثم غضب الله عليهم بكفرهم بمحمد ﷺ وبالقرآن، وعن عكرمة وقتادة مثله، قال السدى: أما الغضب الأول، فهو حين غضب عليهم فى العجل، وأما الغضب الثانى، فغضب عليهم حين كفروا بمحمد ﷺ، وعن ابن عباس مثله. وقوله تعالى: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ لما كان كفرهم سببه البغى والحسد، ومنشأ ذلك التكبر، قوبلوا بالإهانة والصغار فى الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] أى صاغرين حقيرين ذليلين راغمين، وقد قال الإمام أحمد[1]: حدثنا يحيى، حدثنا ابن عجلان، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبى ﷺ، قال: «يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر فى صور الناس يعلوهم كل شىء من الصغار، حتى يدخلوا سجنًا فى جهنم يقال له، بولس تعلوهم نار الأنيار يسقون من طينة الخبال عصارة أهل النار.

ربع الحزب ٢

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أى لليهود وأمثالهم من أهل الكتاب ﴿ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ على محمد ﷺ وصدقوه واتبعوه ﴿قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ أى يكفينا الإيمان بما أنزل علينا من التوراة والإنجيل ولا نقر إلا بذلك ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ يعنى بما بعد بعده ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أى وهم يعلمون أن ما أنزل على محمد ﷺ الحق ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ منصوب على الحال، أى فى حال تصديقه لما معهم من التوراة والإنجيل، فالحجة قائمة عليهم بذلك، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦] ثم قال تعالى: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أى إن كنتم صادقين فى دعواكم الإيمان بما أنزل إليكم، فلم قتلتم الأنبياء الذين جاءوكم بتصديق التوراة التى بأيديكم والحكم بها وعدم نسخها، وأنتم تعلمون صدقهم؟ قتلتموهم بغيًا وعنادًا واستكبارًا على رسل الله، فلستم تتبعون إلا مجرد الأهواء والآراء والتشهى، كما قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧] وقال السدى: فى هذه الآية يعيرهم الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

وقال أبو جعفر بن جرير: قل يا محمد ليهود بنى إسرائيل إذا قلت لهم آمنوا بما أنزل الله، قالوا: نؤمن بما أنزل علينا: لم تقتلون - إن كنتم مؤمنين بما أنزل الله - أنبياء الله يا معشر اليهود وقد حرم الله فى الكتاب الذى أنزل عليكم قتلهم، بل أمركم باتباعهم وطاعتهم وتصديقهم، وذلك من الله تكذيب

(١) حسن: المسند (٦٦٣٩) قال الترمذي في سننه (٢٤٩٢): هذا حديث حسن.

لهم فى قولهم: نؤمن بما أنزل علينا وتعيير لهم ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أى بالآيات الواضحات والدلائل القاطعات على أنه رسول الله، وأنه لا إله إلا الله، والآيات البينات هى: الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا واليد، وفرق البحر وتظليلهم بالغمام والمن والسلوى والحجر وغير ذلك من الآيات التى شاهدوها ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ أى معبودًا من دون الله فى زمان موسى وأيامه، وقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾، أى من بعد ما ذهب عنكم إلى الطور لمناجاة الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾[الأعراف: ١٤٨]، ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾، أى وأنتم ظالمون فى هذا الصنيع الذى صنعتموه من عبادتكم العجل وأنتم تعلمون أنه لا إله إلا الله كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[الأعراف: ١٤٩].

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ۖ وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾

يعدد سبحانه وتعالى عليهم خطأهم، ومخالفتهم للميثاق، وعتوهم وإعراضهم عنه، حتى رفع الطور عليهم حتى قبلوه ثم خالفوه ولهذا قال: ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ وقد تقدم تفسير ذلك ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ قال عبد الرزاق، عن معمر عن قتادة ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ قال: أشربوا حبه حتى خلص ذلك إلى قلوبهم، وكذا قال أبو العالية والربيع بن أنس، وقال الإمام أحمد[1]: حدثنا عصام بن خالد، حدثنى أبو بكر بن عبد الله بن أبى مريم الغسانى، عن خالد بن محمد الثقفى، عن بلال بن أبى الدرداء، عن أبى الدرداء، عن النبى ﷺ: قال «**حبك الشىء يعمى ويصم**» ورواه أبو داود[2] عن حيوة بن شريح، عن بقية، عن أبى بكر بن عبد الله بن أبى مريم به، وقال السدى: أخذ موسى عليه السلام، العجل فذبحه ثم حرقه بالمبرد، ثم ذراه فى البحر، فلم يبق بحر يجرى يومئذ إلا وقع فيه شىء، ثم قال لهم موسى اشربوا منه، فشربوا، فمن كان يحبه خرج على شاربيه الذهب، فذلك حين يقول الله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا عبد الله بن رجاء، حدثنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن عمارة بن عبد وأبى عبد الرحمن السلمى، عن على رضى الله عنه، قال: عمد موسى إلى العجل، فوضع عليه المبارد فبرده بها، وهو على شاطئ نهر، فما شرب أحد من ذلك الماء ممن كان يعبد العجل إلا اصفر وجهه مثل الذهب، وقال سعيد بن جبير ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾ قال: لما أحرق العجل، برد ثم نسف، فحسوا الماء حتى عادت وجوههم كالزعفران، وحكى القرطبى عن كتاب القشيرى: أنه ما شرب أحد «منه» ممن عبد العجل إلا جن، ثم قال القرطبى: وهذا شىء غير ما ههنا، لأن المقصود

---

(١) **ضعيف**: المسند (٢١١٨٦) في إسناده: أبو بكر بن أبي مريم، ضعيف اختلط انظر: صحيح وضعيف الجامع رقم (٢٦٨٨).

(٢) ضعيف أبو داود (٥١٣٠).

من هذا السياق: أنه ظهر على شفاههم ووجوههم، والمذكور ههنا: أنهم أشربوا فى قلوبهم العجل، يعنى فى حال عبادتهم له، ثم أنشد قول النابغة فى زوجته عثمة:

تغلغل حب عثمة فى فؤادى ... فبادية مع الخافى يسير
تغلغل حيث لم يبلغ شراب ... ولا حزن ولم يبلغ سرور
أكاد إذا ذكرت العهد منها ... أطير لو أن إنسانًا يطير

وقوله ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أى بئسما تعتمدونه فى قديم الدهر وحديثه من كفركم بآيات الله، ومخالفتكم الأنبياء ثم اعتمادكم فى كفركم بمحمد ﷺ وهذا أكبر ذنوبكم وأشد الأمور عليكم، إذ كفرتم بخاتم الرسل وسيد الأنبياء والمرسلين، المبعوث إلى الناس أجمعين، فكيف تدّعون لأنفسكم الإيمان، وقد فعلتم هذه الأفاعيل القبيحة: من نقضكم المواثيق، وكفركم بآيات الله، وعبادتكم العجل من دون الله؟.

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

قال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبى محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضى الله عنه، يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾ أى ادعوا بالموت على أى الفريقين أكذب، فأبوا ذلك على رسول الله ﷺ ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾ أى بعلمهم بما عندهم من العلم بل والكفر بذلك ولو تمنوه يوم قال لهم ذلك ما بقى على الأرض يهودى إلا مات.

وقال الضحاك عن ابن عباس: ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾ فسلوا الموت وقال عبد الرزاق عن معمر عن عبد الكريم الجزرى عن عكرمة قوله: ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾. قال: قال ابن عباس: لو تمنى يهود الموت، لماتوا.

وقال ابن أبى حاتم[1]: حدثنا أبى، حدثنا على بن محمد الطنافسى، حدثنا عثام: سمعت الأعمش قال: لا أظنه إلا عن المنهال، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: لو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه، وهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس، وقال ابن جرير فى تفسيره[2]: وبلغنا أن النبى ﷺ، قال «**لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا، ولرأوا مقاعدهم من النار ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً**»، حدثنا بذلك أبو كريب، حدثنا زكريا بن عدى، حدثنا عبيد الله بن عمرو عن عبد الكريم، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ، ورواه الإمام أحمد[3] عن إسماعيل بن يزيد الرقى، حدثنا فرات عن عبد الكريم، به، وقال ابن أبى حاتم:

---

(١) **صحيح**: ابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٢٨٤) برقم (٩٤١).
(٢) **صحيح**: ابن جرير (١/ ٤٢٤).
(٣) **صحيح**: أحمد في مسنده (٢٢٢٦).

حدثنا الحسن بن أحمد، حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن بشار، حدثنا سرور بن المغيرة، عن عباد بن منصور، عن الحسن، قال: قول الله: ما كانوا ليتمنوه بما قدمت أيديهم، قلت: أرأيتك لو أنهم أحبوا الموت حين قيل لهم تمنوا الموت أتراهم كانوا ميتين؟ قال: لا والله ما كانوا ليموتوا ولو تمنوا الموت، وما كانوا ليتمنوه، وقد قال الله ما سمعت ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ وهذا غريب عن الحسن، ثم هذا الذى فسر به ابن عباس الآية، هو المتعين وهو الدعاء على أى الفريقين أكذب منهم أو من المسلمين على وجه المباهلة، ونقله ابن جرير عن قتادة وأبى العالية والربيع بن أنس رحمهم الله تعالى، ونظير هذه الآية قوله تعالى فى سورة الجمعة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: ٦-٨] فهم عليهم لعائن الله تعالى، لما زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه، قالوا: لن يدخل الجنة إلا من كانوا هودًا أو نصارى، دعوا إلى المباهلة والدعاء على أكذب الطائفتين منهم أو من المسلمين، فلما نكلوا عن ذلك، علم كل أحد أنهم ظالمون، لأنهم لو كانوا جازمين بما هم فيه، لكانوا أقدموا على ذلك، فلما تأخروا، علم كذبهم وهذا كما دعا رسول الله وفد نجران من النصارى بعد قيام الحجة عليهم فى المناظرة وعتوهم وعنادهم إلى المباهلة، فقال الله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١] فلما رأوا ذلك، قال بعض القوم لبعض: والله لئن باهلتم هذا النبى لا يبقى منكم عين تطرف، فعند ذلك جنحوا للسلم، وبذلوا الجزية عن يد وهم صاغرون، فضربها عليهم، وبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح أمينًا، ومثل هذا المعنى أو قريب منه قول الله تعالى لنبيه أن يقول للمشركين ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٥] أى من كان فى الضلالة منا ومنكم فزاده الله مما هو فيه ومد له واستدرجه، كما سيأتى تقريره فى موضعه، إن شاء الله تعالى.

أما من فسر الآية على معنى ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى: إن كنتم صادقين فى دعواكم، فتمنوا الآن الموت، ولم يتعرض هؤلاء للمباهلة، كما قرره طائفة من المتكلمين وغيرهم، ومال إليه ابن جرير بعد ما قارب القول الأول، فإنه قال: القول فى تأويل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ﴾ الآية، فهذه الآية مما احتج الله سبحانه لنبيه ﷺ على اليهود الذين كانوا بين ظهرانى مهاجره، وفضح بها أحبارهم وعلماءهم، وذلك أن الله تعالى أمر نبيه ﷺ أن يدعوهم إلى قضية عادلة فيما كان بينه وبينهم من الخلاف، كما أمره أن يدعو الفريق الآخر من النصارى إذ خالفوه فى عيسى ابن مريم عليه السلام، وجادلوه فيه إلى فاصلة بينه وبينهم من المباهلة، فقال لفريق اليهود: إن كنتم محقين فتمنوا الموت، فإن ذلك غير ضاركم إن كنتم محقين فيما تدعون من الإيمان وقرب المنزلة من الله، بل أعطيكم أمنيتكم من الموت إذا تمنيتم، فإنما تصيرون إلى الراحة من تعب الدنيا ونصبها وكدر عيشها والفوز بجوار الله فى جناته إن كان الأمر كما تزعمون، من أن الدار الآخرة لكم خاصة دوننا، وإن لم تعطوها علم الناس أنكم المبطلون ونحن المحقون فى دعوانا، وانكشف أمرنا وأمركم لهم، فامتنعت اليهود من الإجابة إلى ذلك لعلمها، أنها إن تمنت الموت هلكت فذهبت

دنياها، وصارت إلى خزى الأبد فى آخرتها، كما امتنع فريق النصارى الذين جادلوا النبى ﷺ فى عيسى إذ دعوا للمباهلة من المباهلة.

فهذا الكلام منه أولُه حسنٌ، وآخره فيه نظر، وذلك أنه لا تظهر الحجة عليهم على هذا التأويل، إذ يقال: إنه لا يلزم من كونهم يعتقدون أنهم صادقون فى دعواهم، أن يتمنوا الموت، فإنه لا ملازمة بين وجود الصلاح وتمنى الموت، وكم من صالح لا يتمنى الموت، بل يود أن يعمر ليزداد خيرًا وترتفع درجته فى الجنة، كما جاء فى الحديث «خيركم من طال عمره، وحسن عمله»[1]. ولهم مع ذلك أن يقولوا على هذا: فها أنتم تعتقدون أيها المسلمون أنكم أصحاب الجنة وأنتم لا تتمنون فى حال الصحة الموت، فكيف تلزموننا بما لا يلزمكم؟ وهذا كله إنما نشأ من تفسير الآية على هذا المعنى، فأما على تفسير ابن عباس: فلا يلزم عليه شىء من ذلك، بل قيل لهم كلام نصف: إن كنتم تعتقدون أنكم أولياء الله من دون الناس، وأنكم أبناء الله وأحباؤه، وأنكم من أهل الجنة ومن عداكم من أهل النار، فباهلوا على ذلك، وادعوا على الكاذبين منكم أو من غيركم، واعلموا أن المباهلة تستأصل الكاذب لا محالة، فلما تيقنوا ذلك وعرفوا صدقه، نكلوا عن المباهلة لما يعلمون من كذبهم وافترائهم وكتمانهم الحق من صفة الرسول ﷺ ونعته، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ويتحققونه، فعلم كل أحد باطلهم وخزيهم وضلالهم وعنادهم، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة، وسميت هذه المباهلة تمنيًا، لأن كل محق يود لو أهلك الله المبطل المناظر له، ولا سيما إذا كان فى ذلك حجة له فى بيان حقه وظهوره، وكانت المباهلة بالموت لأن الحياة عندهم عزيزة عظيمة، لما يعلمون من سوء مآلهم بعد الموت، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ﴾ أى على طول عمر لما يعلمون من مآلهم السيئ، وعاقبتهم عند الله الخاسرة، لأن الدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر، فهم يودون لو تأخروا عن مقام الآخرة بكل ما أمكنهم، وما يحاذرون منه واقع بهم لا محالة، حتى وهم أحرص من المشركين الذين لا كتاب لهم، وهذا من باب عطف الخاص على العام.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن بن مهدى، عن سفيان، عن الأعمش، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ قال: الأعاجم، وكذا رواه الحاكم فى مستدركه من حديث الثورى، وقال: صحيح على شرطهما، ولم يخرجاه. قال: وقد اتفقا على سند تفسير الصحابى، وقال الحسن البصرى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ﴾. قال: المنافق أحرص الناس، وهو أحرص على الحياة من المشرك، ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ﴾ أى يود أحد اليهود، كما يدل عليه نظم السياق، وقال أبو العالية: يود أحدهم، أى أحد المجوس، وهو يرجع إلى الأول ﴿لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، قال الأعمش، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: هو كقول الفارسى «ده هزارسال» يقول: عشرة آلاف سنة. وكذا روى عن سعيد بن جبير نفسه أيضًا، وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن على بن الحسن بن شقيق:

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٣٢٩)، أحمد (١٧٢٢٧)، من حديث عبد الله بن بسر.

سمعت أبى عليًا يقول: حدثنا أبو حمزة، عن الأعمش عن مجاهد، عن ابن عباس فى قوله ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: هو قول الأعاجم: هزارسال نوروز ومهرجان وقال مجاهد ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: حببت إليهم الخطيئة طول العمر، وقال مجاهد بن إسحاق، عن محمد بن أبى محمد، عن سعيد أو عكرمة، عن ابن عباس ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ أى وما هو بمنحيه من العذاب، وذلك أن المشرك لا يرجو بعثًا بعد الموت، فهو يحب طول الحياة، وأن اليهودى مآله عرف فى الآخرة من الخزى، بما ضيع ما عنده من العلم، وقال العوفى عن ابن عباس ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ قال: هم الذين عادوا جبريل، قال أبو العالية وابن عمر: فما ذاك بمغيثه من العذاب، ولا منجيه منه. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى هذه الآية: يهود أحرص على الحياة من هؤلاء، وقد ودّ هؤلاء لو يعمر أحدهم ألف سنة، وليس بمزحزحه من العذاب لو عمر، كما أن عمر إبليس لم ينفعه إذ كان كافرًا، ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أى خبير بصير بما يعمل عباده من خير وشر، وسيجازى كل عامل بعمله.

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٩٧ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ۝٩٨﴾

قال الإمام أبو جعفر بن جرير الطبرى [1] رحمه الله: أجمع أهل العلم بالتأويل جميعًا أن هذه الآية نزلت جوابًا لليهود من بنى إسرائيل، إذ زعموا أن جبريل عدوّ لهم، وأن ميكائيل ولى لهم، ثم اختلفوا فى السبب الذى من أجله قالوا ذلك، فقال بعضهم: إنما كان سبب قيلهم ذلك، من أجل مناظرة جرت بينهم وبين رسول الله ﷺ فى أمر نبوته.

(ذكر من قال ذلك) حدثنا أبو كريب، حدثنا يونس بن بكير عن عبد الحميد بن بهرام، عن شهر بن حوشب، عن ابن عباس، أنه قال: حضرت عصابة من اليهود رسول الله ﷺ، فقالوا: يا أبا القاسم، حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبى، فقال رسول الله ﷺ: «سلوا عما شئتم، ولكن اجعلوا لى ذمة الله وما أخذ يعقوب على بنيه، لئن أنا حدثتكم عن شىء فعرفتموه لتتابعننى على الإسلام» فقالوا: ذلك لك، فقال رسول الله ﷺ: «سلوا عما شئتم» قالوا: أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهن، أخبرنا أى الطعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة؟ وأخبرنا كيف ماء المرأة وماء الرجل، وكيف يكون الذكر منه والأنثى؟ وأخبرنا بهذا النبى الأمى فى التوراة، ومن وليه من الملائكة؟ فقال النبى ﷺ، **«عليكم عهد الله لئن أنا أنبأتكم لتتابعننى؟»** فأعطوه ما شاء الله من عهد وميثاق، فقال: «نشدتكم بالذى أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب مرض مرضًا شديدًا، فطال سقمه منه، فنذر لله نذرًا لئن عافاه الله من مرضه ليحرمن أحب الطعام والشراب إليه، وكان أحب الطعام إليه: لحوم الإبل، وأحب الشراب إليه ألبانها؟» فقالوا: اللّهم نعم، فقال رسول الله ﷺ: **«اللّهم اشهد عليهم، وأنشدكم بالله الذى لا إله إلا هو الذى أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن ماء الرجل غليظ أبيض، وأن ماء المرأة رقيق أصفر، فأيهما علا كان له الولد والشبه**

(١) صحيح: ابن جرير في تفسيره (١/ ٤٣١).

بإذن الله عز وجل، وإذا علا ماء الرجل ماء المرأة كان الولد ذكرًا بإذن الله، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل كان الولد أنثى بإذن الله عز وجل» قالوا: اللَّهم نعم، «قال: اللَّهم اشهد، وأنشدكم بالله الذى أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن هذا النبى الأمى تنام عيناه ولا ينام قلبه» ؟ قالوا: اللَّهم نعم، قال: «اللَّهم اشهد» ، قالوا: أنت الآن فحدثنا من وليك من الملائكة، فعندها نجامعك أو نفارقك، قال: «فإن وليى جبريل، ولم يبعث الله نبيًا قط إلا وهو وليه» قالوا: فعندها نفارقك، ولو كان وليك سواه من الملائكة تابعناك وصدقناك، قال: «فما يمنعكم أن تصدقوه» ؟ قالوا: إنه عدونا، فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ - إلى قوله - ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٣] فعندها باؤوا بغضب على غضب، وقد رواه الإمام أحمد[١] فى مسنده عن أبى النضر هاشم بن القاسم وعبد بن حميد فى تفسيره عن أحمد بن يونس كلاهما عن عبد الحميد بن بهرام، به، ورواه أحمد[٢] أيضًا عن الحسين بن محمد المروزى عن عبد الحميدبه بنحوه، وقد رواه محمد بن إسحاق بن يسار، حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى حسين، عن شهر بن حوشب، فذكره مرسلاً وزاد فيه، قالوا: فأخبرنا عن الروح، قال: «فأنشدكم بالله وبآياته عند بنى إسرائيل هل تعلمون أنه جبريل وهو الذى يأتينى» قالوا: اللَّهم نعم، ولكنه عدو لنا، وهو ملك إنما يأتى بالشدة وسفك الدماء، فلولا ذلك لاتبعناك، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ - إلى قوله - ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١] وقال الإمام أحمد[٣] : حدثنا أبو أحمد، حدثنا عبد الله بن الوليد العجلى عن بكير بن شهاب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: أقبلت يهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم، أخبرنا عن خمسة أشياء، فإن أنبأتنا بهن عرفنا أنك نبى اتبعناك، فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه إذ قال: و﴿اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: ٦٦] ، قال: «هاتوا» قالوا: أخبرنا عن علامة النبى؟ قال: «تنام عيناه ولا ينام قلبه» قالوا: أخبرنا كيف تؤنث المرأة؟ وكيف يذكر الرجل؟ قال: «يلتقى الماءان، فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة أذكرت، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل أنثت» قالوا: أخبرنا ما حرم إسرائيل على نفسه؟ قال: «كان يشتكى عرق النسا، فلم يجد شيئًا يلائمه إلا ألبان كذا وكذا» قال أحمد: قال بعضهم: يعنى الإبل فحرم لحومها، قالوا: صدقت، قالوا: أخبرنا ما هذا الرعد؟ قال: «ملك من ملائكة الله عز وجل موكل بالسحاب بيديه أو فى يديه مخراق من نار يزجر به السحاب يسوقه حيث أمره الله» قالوا: فما هذا الصوت الذى نسمع؟ قال: «صوته» قالوا: صدقت، قالوا: إنما بقيت واحدة، وهى التى نتابعك إن أخبرتنا بها، إنه ليس من نبى إلا وله ملك يأتيه بالخبر، فأخبرنا من صاحبك؟ قال: «جبريل عليه السلام» قالوا: جبريل ذاك الذى ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدونا، لو قلت: ميكائيل الذى ينزل بالرحمة والقطر والنبات لكان، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ إلى آخر الآية، ورواه الترمذى والنسائى[٤] من حديث عبد الله بن الوليد به، وقال الترمذى: حسن غريب وقال سنيد فى

(١) صحيح: المسند (٢٥١٠).
(٢) صحيح: المسند (٢٤٦٧).
(٣) صحيح: المسند (٢٤٧٩).
(٤) صحيح: الترمذي (٣١١٧)، النسائي في الكبرى (٥/ ٣٣٦)، برقم (٩٠٧٢).

تفسيره عن حجاج بن محمد عن ابن جريج: أخبرنى القاسم بن أبى بزة أن يهودًا سألوا النبى ﷺ عن صاحبه الذى ينزل عليه بالوحى، قال: «جبريل» قالوا: فإنه عدو لنا ولا يأتى إلا بالشدة والحرب والقتال، فنزلت: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ الآية، قال ابن جريج: وقال مجاهد: قالت يهود: يا محمد ما ينزل جبريل إلا بشدة وحرب وقتال، فإنه لنا عدو، فنزل: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ الآية، وقال البخارى[1]: قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ قال عكرمة: جبر وميك وإسراف: عبد. و إيل: الله، حدثنا عبد الله بن منير سمع عبد الله بن بكر، حدثنا حميد عن أنس بن مالك، قال: سمع عبد الله بن سلام بمقدم رسول الله ﷺ وهو فى أرض يخترف - يجتنى - الثمر فأتى النبى ﷺ فقال: إنى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبى: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام أهل الجنة؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: «أخبرنى بهذه جبريل آنفًا» قال: جبريل؟ قال: «نعم» قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقرأ هذه الآية: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ «**وأما أول أشراط الساعة: فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب. وأما أول طعام يأكله أهل الجنة: فزيادة كبد الحوت، وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة، نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة نزعت أنثى**» قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. يا رسول الله، إن اليهود قوم بهت، وإنهم إن يعلموا بإسلامى قبل أن تسألهم يبهتونى، فجاءت اليهود، فقال له رسول الله ﷺ: «**أى رجل عبد الله بن سلام فيكم؟**» قالوا: خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا، قال: «**أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام**» قالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله. فقالوا: هو شرنا وابن شرنا وانتقصوه، فقال: هذا الذى كنت أخاف يا رسول الله - انفرد به البخارى من هذا الوجه، وقد أخرجاه[2] من وجه آخر عن أنس بنحوه، وفى صحيح مسلم[3] عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قريب من هذا السياق كما سيأتى فى موضعه إن شاء الله تعالى، وحكاية البخارى كما تقدم عن عكرمة هو المشهور أن إيل هو الله، وقد رواه سفيان الثورى عن خصيف، عن عكرمة، ورواه عبد بن حميد عن إبراهيم بن الحكم، عن أبيه، عن عكرمة، ورواه ابن جرير عن الحسين بن يزيد الطحان عن إسحاق بن منصور عن قيس بن عاصم عن عكرمة أنه قال: إن جبريل اسمه عبيد الله، وميكائيل اسمه عبد الله، إيل: الله، ورواه يزيد النحوى عن عكرمة عن ابن عباس مثله سواء، كذا قال غير واحد من السلف كما سيأتى قريبًا.

ومن الناس من يقول: إيل عبارة عن عبد، والكلمة الأخرى هى اسم الله، لأن كلمة إيل لا تتغير فى الجميع، فوزانه: عبد الله، عبد الرحمن، عبد الملك، عبد القدوس، عبد السلام، عبد الكافى، عبد الجليل، فعبد موجودة فى هذا كله، واختلفت الأسماء المضاف إليها، وكذلك جبريل وميكائيل وعزرائيل وإسرافيل ونحو ذلك، وفى كلام غير العرب يقدمون المضاف إليه على المضاف، والله أعلم.

ثم قال ابن جرير: وقال آخرون: بل كان سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بينهم وبين

---

(١) البخاري (٤٤٨٠).
(٢) البخاري (٣٣٢٩).
(٣) مسلم (٣١٥).

عمر بن الخطاب فى أمر النبى ﷺ .

(ذكر من قال ذلك) حدثنى محمد بن المثنى، حدثنى ربعى بن علية، عن داود بن أبى هند، عن الشعبى، قال: نزل عمر الروحاء، فرأى رجالاً يبتدرون أحجارًا يصلون إليها، فقال: ما بال هؤلاء؟ قالوا يزعمون أن رسول الله ﷺ صلى ههنا، قال: فكره ذلك، وقال إيما رسول الله ﷺ أدركته الصلاة بواد صلاها، ثم ارتحل فتركه، ثم أنشأ يحدثهم، فقال: كنت أشهد اليهود يوم مدارسهم فأعجب من التوراة وكيف تصدق الفرقان ومن القرآن كيف يصدق التوراة؟ فبينما أنا عندهم ذات يوم قالوا: يا ابن الخطاب ما من أصحابك أحد أحب إلينا منك. قُلْتُ: ولمَ ذلك؟ قالوا: لأنك تغشانا وتأتينا، فقلت: إنى آتيكم فأعجب من الفرقان كيف يصدق التوراة ومن التوراة كيف تصدق القرآن، قال: ومر رسول الله ﷺ، فقالوا: يا ابن الخطاب، ذاك صاحبكم فالحق به، قال: فقلت لهم عند ذلك: نشدتكم بالله الذى لا إله إلا هو، وما استرعاكم من حقه، وما استودعكم من كتابه، أتعلمون أنه رسول الله؟ قال: فسكتوا، فقال له عالمهم وكبيرهم: إنَّهُ قد غلظ عليكم فأجيبوه، قالوا: فأنت عالمنا وكبيرنا فأجبه أنت، قال: أما إذا نشدتنا بما نشدتنا، فإنا نعلم أنه رسول الله، قلت: ويحكم إذًا هلكتم، قالوا: إنا لم نهلك، قلت: كيف ذلك وأنتم تعلمون أنه رسول الله ولا تتبعونه ولا تصدقونه؟ قالوا: إن لنا عدوًّا من الملائكة وسلمًا من الملائكة، وإنه قرن بنبوته عدونا من الملائكة، قلت: ومن عدوكم، ومن سلمكم؟ قالوا: عدونا جبريل، وسلمنا ميكائيل، قال: قلت: وفيم عاديتم جبريل وفيم ساكتم ميكائيل؟ قالوا: إن جبريل ملك الفظاظة والغلظة والإعسار والتشديد والعذاب ونحو هذا، وإن ميكائيل ملك الرحمة والرأفة والتخفيف ونحو هذا، قال: قلت: وما منزلتهما من ربهما عز وجل؟ قالوا: أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره، قال: فقلت: فو الذى لا إله إلا هو إنهما والذى بينهما لعدو لمن عاداهما، وسلم لمن سالمهما، وما ينبغى لجبريل أن يسالم عدو ميكائيل، وما ينبغى لميكائيل أن يسالم عدو جبريل، قال: ثم قمت فأتبعت النبى ﷺ، فلحقته وهو خارج من خوخة لبنى فلان، فقال: «يا ابن الخطاب ألا أقرئك آيات نزلن قبل» فقرأ على ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ حتى قرأ هذه الآيات، قال: قلت: بأبى وأمى أنت يا رسول الله، والذى بعثك بالحق لقد جئت وأنا أريد أن أخبرك فأسمع اللطيف الخبير قد سبقنى إليك بالخبر.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة عن مجالد، أنبأنا عامر، قال: انطلق عمر بن الخطاب إلى اليهود، فقال: أنشدكم بالذى أنزل التوراة على موسى هل تجدون محمدًا فى كتبكم؟ قالوا: نعم، قال: فما يمنعكم أن تتبعوه؟ قالوا: إن الله لم يبعث رسولاً إلا جعل له من الملائكة كفلاً وإن جبرائيل كَفِلَ محمدًا وهو الذى يأتيه، وهو عدونا من الملائكة، وميكائيل سلمنا لو كان ميكائيل الذى يأتيه أسلمنا، قال: فإنى أنشدكم بالله الذى أنزل التوراة على موسى ما منزلتهما من رب العالمين؟ قالوا: جبريل عن يمينه، وميكائيل عن شماله، قال عمر: وإنى أشهد ما ينزلان إلا بإذن الله، وما كان ميكائيل ليسالم عدو جبريل، وما كان جبرائيل ليسالم عدو ميكائيل، فبينما هو عندهم إذ مر النبى ﷺ، فقالوا: هذا صاحبك يا ابن الخطاب، فقام إليه عمر فأتاه، وقد أنزل الله عز وجل: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ وهذان الإسنادان يدلان

على أن الشعبى حدث به عن عمر، ولكن فيه انقطاع بينه وبين عمر فإنه لم يدرك زمانه، والله أعلم.

وقال جرير: حدثنا بشر، حدثنا يزيد بن زريع، عن سعيد عن قتادة، قال: ذكر لنا أن عمر بن الخطاب انطلق ذات يوم إلى اليهود، فلما أبصروه ورحبوا به، فقال لهم عمر: أما والله ما جئتكم لحبكم ولا لرغبة فيكم، ولكن جئت لأسمع منكم، فسألهم وسألوه، فقالوا: من صاحب صاحبكم؟ فقال لهم: جبريل، فقالوا: ذاك عدونا من أهل السماء يطلع محمدًا على سرنا، وإذا جاء جاء بالحرب والسنة، ولكن صاحب صاحبنا ميكائيل، وكان إذا جاء جاء بالخصب والسلم، فقال لهم عمر: هل تعرفون جبريل، وتنكرون محمدًا ﷺ؟ ففارقهم عمر عند ذلك، وتوجه نحو النبى ﷺ ليحدثه حديثهم، فوجده قد أنزلت عليه هذه الآية: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ الآيات.

ثم قال: حدثنى المثنى، حدثنا آدم، حدثنا أبو جعفر، حدثنا قتادة، قال: بلغنا أن عمر أقبل إلى اليهود يومًا فذكر نحوه، وهذا فى تفسير آدم وهو أيضًا منقطع، وكذلك رواه أسباط عن السدى عن عمر مثل هذا أو نحوه، وهو منقطع أيضًا، وقال ابن أبن حاتم: حدثنا محمد بن عمار، حدثنا عبد الرحمن يعنى الدشتكى، حدثنا أبو جعفر عن حصين بن عبد الرحمن، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى: أن يهوديًا لقى عمر بن الخطاب، فقال: إن جبريل الذى يذكر صاحبكم عدو لنا، فقال عمر ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ قال: فنزلت على لسان عمر رضى الله عنه، ورواه عبد بن حميد عن أبى النضر هاشم بن القاسم، عن أبى جعفر هو الرازى، وقال ابن جرير: حدثنى يعقوب بن إبراهيم، حدثنى هشيم، أخبرنا حصين بن عبد الرحمن، عن ابن أبى ليلى فى قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ قال: قالت: اليهود للمسلمين: لو أن ميكائيل كان هو الذى ينزل عليكم اتبعناكم، فإنه ينزل بالرحمة والغيث، وإن جبريل ينزل بالعذاب والنقمة، فإنه عدو لنا، قال: فنزلت هذه الآية، حدثنى يعقوب، قال أخبرنا هشيم، أخبرنا عبد الملك عن عطاء بنحوه، وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن قتادة فى قوله: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ قال: قالت اليهود: إن جبريل عدو لنا، لأنه ينزل بالشدة والسنة، وإن ميكائيل ينزل بالرخاء والعافية والخصب، فجبريل عدو لنا. فقال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ الآية.

وأما تفسير الآية فقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧]، أى من عادى جبريل فليعلم أنه الروح الأمين الذى نزل بالذكر الحكيم على قلبك من الله بإذنه له فى ذلك، فهو رسول من رسل الله ملكى، ومن عادى رسولاً فقد عادى جميع الرسل، كما أن من آمن برسول يلزمه الإيمان بجميع الرسل، وكما أن من كفر برسول فإنه يلزمه الكفر بجميع الرسل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١] الآيتين، فحكم عليهم بالكفر المحقق إذ آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعضهم، وكذلك من عادى جبرائيل فإنه عدو لله، لأن جبريل لا ينزل بالأمر من تلقاء نفسه وإنما ينزل بأمر ربه، كما قال: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ

نَسِيًّا﴾[مريم: ٦٤] الآية، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٤]، وقد روى البخاري في صحيحه[1] عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من عادى لي وليًا فقد بارزني بالحرب» ولهذا غضب الله لجبريل على من عاداه، فقال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي من الكتب المتقدمة: ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي هدى لقلوبهم وبشرى لهم بالجنة، وليس ذلك إلا للمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤] الآية.

وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢] الآية، ثم قال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾ يقول تعالى: من عادانى وملائكتى ورسلى، ورسله تشمل رسله من الملائكة والبشر، كما قال تعالى ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]. ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ وهذا من باب عطف الخاص على العام، فإنهما دخلا في الملائكة في عموم الرسل، ثم خصصا بالذكر، لأن السياق في الانتصار لجبريل، وهو السفير بين الله وأنبيائه، وقرن معه ميكائيل في اللفظ، لأن اليهود زعموا أن جبريل عدوهم، وميكائيل وليهم، فأعلمهم الله تعالى أن من عادى واحدًا منهما فقد عادى الآخر وعادى الله أيضًا، ولأنه أيضًا ينزل على أنبياء الله بعض الأحيان، كما قرن برسول الله ﷺ في ابتداء الأمر، ولكن جبريل أكثر وهي وظيفته، وميكائيل موكل بالنبات والقطر، هذاك بالهدى وهذا بالرزق كما أن إسرافيل موكل بالنفخ في الصور للبعث يوم القيامة، ولهذا جاء في الصحيح[2] أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يقول: «**اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**» وقد تقدم ما حكاه البخاري، ورواه ابن جرير عن عكرمة وغيره أنه قال، جبر، وميك، وإسراف: عبيد، وإيل: الله.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن سفيان، عن الأعمش، عن إسماعيل بن أبي رجاء، عن عمير مولى ابن عباس، عن ابن عباس، قال: إنما كان قوله جبريل كقوله: عبد الله وعبد الرحمن، وقيل جبر: عبد، وإيل: الله. وقال محمد بن إسحاق عن الزهري، عن علي بن الحسين، قال: أتدرون ما اسم جبريل من أسمائكم؟ قلنا: لا، قال: اسمه عبد الله، قال: فتدرون ما اسم ميكائيل من أسمائكم؟ قلنا: لا، قال: اسمه عبيد الله. وكل اسم مرجعه إلى إيل فهو إلى الله عز وجل. قال ابن أبي حاتم: وروى عن عكرمة ومجاهد والضحاك ويحيى بن يعمر، نحو ذلك. ثم قال: حدثني أبي حدثنا أحمد بن أبي الحواري حدثني عبد العزيز بن عمير قال: اسم جبريل في الملائكة خادم الله، قال فحدثت به أبا سليمان الداراني فانتفض، وقال: لهذا الحديث أحبُّ إليَّ من كل شيء في دفتر كان بين يديه. وفي جبريل وميكائيل لغات وقراءات تذكر

---

(١) البخاري (٦٥٠٢).

(٢) أخرجه مسلم (٧٧٠)، أبو داود (٧٦٧)، الترمذي (٣٤٢٠)، النسائي (١٦٢٥)، أحمد (٢٤٦٩٩).

فى كتب اللغة والقراءات، ولم نطول كتابنا هذا بسرد ذلك إلا أن يدور فهم المعنى عليه، أو يرجع الحكم فى ذلك إليه، وبالله الثقة وهو المستعان، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ فيه إيقاع المظهر مكان المضمر حيث لم يقل: فإنه عدو للكافرون، بل قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ كما قال الشاعر:

لا أرى الموت يسبق الموت شيء ... نَغّص الموت ذا الغنى والفقيرا

وقال الآخر:

ليت الغراب غداة ينعب دائبًا ... كان الغراب مقطع الأوداج

وإنما أظهر الله هذا الاسم ههنا لتقرير هذا المعنى وإظهاره، وإعلامهم أن من عادى وليًّا لله فقد عادى الله، ومن عادى الله فإن الله عدو له، ومن كان الله عدوه فقد خسر الدنيا والآخرة، كما تقدم الحديث «من عادى لى وليًا فقد بارزنى بالحرب» وفى الحديث الآخر «إنى لأثأر لأوليائى كما يثأر الليث الحرب» وفى الحديث الصحيح «من كنتُ خصمَه خَصَمْتُه»[1].

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

قال الإمام أبو جعفر بن جرير فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ الآية، أى أنزلنا إليك يا محمد، علامات واضحات، دالات على نبوتك، وتلك الآيات هى ما حواه كتاب الله من خفايا علوم اليهود، ومكنونات سرائر أخبارهم وأخبار أوائلهم من بنى إسرائيل، والنبأ عما تضمنته كتبهم التى لم يكن يعلمها إلا أحبارهم وعلماؤهم وما حرّفه أوائلهم وأواخرهم وبدلوه من أحكامهم التى كانت فى التوراة، فأطلع الله فى كتابه الذى أنزل على نبيه محمد ﷺ، فكان فى ذلك من أمره الآيات البينات لمن أنصف من نفسه ولم يدعها إلى هلاكها الحسد والبغى، إذ كان فى فطرة كل ذى فطرة صحيحة تصديق من أتى بمثل ما جاء به محمد ﷺ من الآيات البينات التى وصف من غير تعلم تعلمه من بشر، ولا أخذ شيئًا منه عن آدمى، كما قال الضحاك عن ابن عباس ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ يقول: فأنت تتلوه عليهم وتخبرهم به غدوة وعشية وبين ذلك، وأنت عندهم أمى لم تقرأ

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٤٤٢)، أحمد (٨٤٧٧)، من حديث أبى هريرة.

كتابًا، وأنت تخبرهم بما فى أيديهم على وجهه، يقول الله تعالى لهم فى ذلك عبرة وبيان، وعليهم حجة لو كانوا يعلمون. وقال محمد بن إسحاق: حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أوسعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: قال ابن صوريا الفطوينى لرسول الله ﷺ: يا محمد، ما جئتنا بشىء نعرفه، وما أنزل الله عليك من آية بينة فنتبعك، فأنزل الله فى ذلك من قوله ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ وقال مالك بن الصيف حين بعث رسول الله ﷺ: وذكرهم ما أخذ عليهم من الميثاق وما عهد إليهم فى محمد ﷺ، والله ما عهد إلينا فى محمد، وما أخذ علينا ميثاقًا، فأنزل الله تعالى ﴿أَوَكُلَّمَا عَـٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ وقال الحسن البصرى: فى قوله ﴿بَل أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال: نعم، ليس فى الأرض عهد يعاهدون عليه إلا نقضوه ونبذوه، يعاهدون اليوم وينقضون غدًا. وقال السدى: لا يؤمنون بما جاء به محمد ﷺ. وقال قتادة: نبذه فريق منهم، أى نقضه فريق منهم. وقال ابن جرير: أصل النبذ الطرح والإلقاء، ومنه سمى اللقيط منبوذًا، ومنه سمى النبيذ، وهو التمر والزبيب إذا طرحا فى الماء، قال أبو الأسود الدؤلى:

نظرت إلى عنوانه فنبذته كنبذك نعلاً أخلقت من نعالكا

قلت: فالقوم ذمهم الله بنبذهم العهود التى تقدم الله إليهم فى التمسك بها والقيام بحقها، ولهذا أعقبهم ذلك التكذيب بالرسول المبعوث إليهم وإلى الناس كافة الذى فى كتبهم نعته وصفته وأخباره، وقد أمروا فيها باتباعه ومؤازرته ونصرته، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] الآية، وقال ههنا ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الآية، أى طرح طائفة منهم كتاب الله الذى بأيديهم مما فيه البشارة بمحمد ﷺ وراء ظهورهم، أى تركوها كأنهم لا يعلمون ما فيها، وأقبلوا على تعلم السحر واتباعه، ولهذا أرادوا كيدًا برسول الله ﷺ وسحروه فى مشط ومشاقة وجف طلعة ذكر تحت راعوفة ببئر أروان، وكان الذى تولى ذلك منهم رجل يقال له: لبيد بن الأعصم لعنه الله وقبحه، فأطلع الله على ذلك رسوله ﷺ وشفاه منه وأنقذه، كما ثبت ذلك مبسوطًا فى الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها، كما سيأتى بيانه. قال السدى ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ قال: لما جاءهم محمد ﷺ عارضوه بالتوراة، فخاصموه بها، فاتفقت التوراة والقرآن، فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف، وسحر هاروت وماروت، فلم يوافق القرآن فذلك قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وقال قتادة فى قوله ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال: إن القوم كانوا يعلمون، ولكنهم نبذوا علمهم وكتموه وجحدوا به، وقال العوفى فى تفسيره عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟﴾ الآية، وكان حين ذهب ملك سليمان ارتد فئات من الجن والإنس واتبعوا الشهوات، فلما أرجع الله إلى سليمان ملكه، وقام الناس على الدين كما كان، وأن سليمان ظهر على كتبهم فدفنها تحت كرسيه، وتوفى سليمان عليه السلام حدثان ذلك، فظهر الإنس والجن على الكتب بعد وفاة سليمان وقالوا: هذا كتاب من الله نزل على سليمان وأخفاه عنا، فأخذوا به فجعلوه دينًا، فأنزل الله ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ

وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الآية واتبعوا الشهوات التى كانت تتلو الشياطين، وهى المعازف واللعب وكل شىء يصد عن ذكر الله. وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة عن الأعمش، عن المنهال، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: كان آصف كاتب سليمان، وكان يعلم الاسم الأعظم، وكان يكتب كل شىء بأمر سليمان ويدفنه تحت كرسيه، فلما مات سليمان أخرجته الشياطين، فكتبوا بين كل سطرين سحرًا وكفرًا، وقالوا: هذا الذى كان سليمان يعمل بها. قال: فأكفره جهال الناس وسبوه، ووقف علماء الناس، فلم يزل جهال الناس يسبونه حتى أنزل الله على محمد ﷺ ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾.

وقال ابن جرير: حدثنى أبو السائب سلم بن جنادة السوائى، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن المنهال، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: كان سليمان عليه السلام إذا أراد أن يدخل الخلاء أو يأتى شيئًا من نسائه، أعطى الجرادة وهى امرأته خاتمه، فلما أراد الله أن يبتلى سليمان عليه السلام بالذى ابتلاه به، أعطى الجرادة ذات يوم خاتمه، فجاء الشيطان فى صورة سليمان فقال: هاتى خاتمى، فأخذه ولبسه، فلما لبسه دانت له الشياطين والجن والإنس. قال: فجاءها سليمان، فقال لها: هاتى خاتمى، فقالت: كذبت لست سليمان، قال: فعرف سليمان أنه بلاء ابتلى به. قال: فانطلقت الشياطين، فكتبت فى تلك الأيام كتبًا فيها سحر وكفر، فدفنوها تحت كرسى سليمان، ثم أخرجوها وقرؤوها على الناس وقالوا: إنما كان سليمان يغلب الناس بهذه الكتب، قال فبرئ الناس من سليمان وكفروه حتى بعث الله محمدًا ﷺ فأنزل عليه ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ ثم قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا جرير عن حصين بن عبد الرحمن، عن عمران وهو ابن الحارث، قال: بينما نحن عند ابن عباس رضى الله عنهما، إذ جاء رجل فقال له: من أين جئت؟ قال: من العراق، قال: من أية؟ قال: من الكوفة، قال: فما الخبر؟ قال: تركتهم يتحدثون أن عليًا خارج إليهم ففزع، ثم قال: ما تقول لا أبا لك؟ لو شعرنا ما نكحنا نساءه ولا قسمنا ميراثه، أما إنى سأحدثكم عن ذلك، إنه كانت الشياطين يسترقون السمع من السماء فيجىء أحدهم بكلمة حق قد سمعها، فإذا جُرّب منه وصدق، كذب معها سبعين كذبة، قال: فتشربها قلوب الناس قال: فأطلع الله عليها سليمان عليه السلام، فدفنها تحت كرسيه، فلما توفى سليمان عليه السلام، قام شيطان الطريق، فقال: هل أدلكم على كنزه الممنع الذى لا كنز له مثله؟ تحت الكرسى. فأخرجوه، فقالوا: هذا سحره، فتناسخها الأمم حتى بقاياها ما يتحدث به أهل العراق، فأنزل الله عز وجل ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ الآية، وروى الحاكم فى مستدركه عن أبى زكريا العنبرى، عن محمد بن عبد السلام عن إسحاق بن إبراهيم عن جرير به.

وقال السدى فى قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ﴾ أى على عهد سليمان، قال: كانت الشياطين تصعد إلى السماء فتقعد منها مقاعد للسمع، فيستمعون من كلام الملائكة ما يكون فى الأرض من موت أو غيب أو أمر، فيأتون الكهنة فيخبرونهم، فتحدث الكهنة الناس فيجدونه كما قالوا، فلما أمنتهم الكهنة كذبوا لهم، وأدخلوا فيه غيره، فزادوا مع كل كلمة سبعين كلمة، فاكتتب الناس ذلك الحديث فى الكتب، وفشا ذلك فى بنى إسرائيل أن الجن تعلم الغيب، فبعث سليمان فى

الناس، فجمع تلك الكتب فجعلها فى صندوق، ثم دفنها تحت كرسيه ولم يكن أحد من الشياطين يستطيع أن يدنو من الكرسى إلا احترق، وقال: لا أسمع أحدًا يذكر أن الشياطين يعلمون الغيب إلا ضربت عنقه، فلما مات سليمان عليه السلام، وذهبت العلماء الذين كانوا يعرفون أمر سليمان، وخلف من بعد ذلك خلف، تمثل الشيطان فى صورة إنسان ثم أتى نفرًا من بنى إسرائيل فقال لهم: هل أدلكم على كنز لا تأكلونه أبدًا ؟ قالوا: نعم، قال: فاحفروا تحت الكرسى، وذهب معهم وأراهم المكان وقام ناحية، فقالوا له: فادن، فقال: لا، ولكننى ههنا فى أيديكم، فإن لم تجدوه فاقتلونى، فحفروا فوجدوا تلك الكتب، فلما أخرجوها قال الشيطان: إن سليمان إنما كان يضبط الإنس والشياطين والطير بهذا السحر ثم طار وذهب، وفشا فى الناس أن سليمان كان ساحرًا، واتخذت بنو إسرائيل تلك الكتب، فلما جاء محمد ﷺ خاصموه بها فذلك حين يقول الله تعالى ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا﴾، وقال الربيع بن أنس: إن اليهود سألوا محمدًا ﷺ زمانًا عن أمور من التوراة لا يسألونه عن شىء من ذلك إلا أنزل الله سبحانه وتعالى ما سألوه عنه، فيخصمهم فلما رأوا ذلك قالوا: هذا أعلم بما أنزل الله إلينا منا. وإنهم سألوه عن السحر وخاصموه به، فأنزل الله عز وجل ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ وإن الشياطين عمدوا إلى كتاب فكتبوا فيه السحر والكهانة وما شاء الله من ذلك، فدفنوه تحت كرسى مجلس سليمان، وكان عليه السلام لا يعلم الغيب، فلما فارق سليمان الدنيا استخرجوا ذلك السحر وخدعوا الناس وقالوا: هذا علم كان سليمان يكتمه ويحسده الناس عليه، فأخبرهم النبى ﷺ بهذا الحديث فرجعوا من عنده وقد أدحض الله حجتهم.

وقال مجاهد فى قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ﴾ قال: كانت الشياطين تستمع الوحى فما سمعوا من كلمة زادوا فيها مائتين مثلها، فأرسل سليمان عليه السلام إلى ما كتبوا من ذلك، فلما توفى سليمان وجدته الشياطين وعلمته الناس وهو السحر، وقال سعيد بن جبير: كان سليمان يتتبع ما فى أيدى الشياطين من السحر فيأخذه منهم فيدفنه تحت كرسيه فى بيت خزانته فلم تقدر الشياطين أن يصلوا إليه فديت إلى الإنس فقالوا لهم: أتدرون ما العلم الذى كان سليمان يسخر به الشياطين والرياح وغير ذلك؟ قالوا: نعم، قالوا: فإنه فى بيت خزانته وتحت كرسيه فاستثار به الإنس واستخرجوه وعملوا به، فقال أهل الحجا: كان سليمان يعلم بهذا وهذا سحر فأنزل الله تعالى على لسان نبيه محمد ﷺ براءة سليمان عليه السلام فقال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟﴾ وقال محمد بن إسحاق بن يسار: عمدت الشياطين حين عرفت موت سليمان بن داود عليه السلام، فكتبوا أصناف السحر: من كان يحب أن يبلغ كذا فليفعل كذا وكذا، حتى إذا صنفوا أصناف السحر، جعلوه فى كتاب ثم ختموه بخاتم على نقش خاتم سليمان وكتبوا فى عنوانه: هذا ما كتب آصف بن برخيا الصديق للملك سليمان بن داود عليهن السلام من ذخائر كنوز العلم. ثم دفنوه تحت كرسيه واستخرجته بعد ذلك بقايا بنى إسرائيل حتى أحدثوا، ما أحدثوا فلما عثروا عليه قالوا: والله ما كان ملك سليمان إلا بهذا، فأفشوا السحر فى الناس فتعلموه وعلموه، فليس هو فى أحد أكثر منه فى اليهود لعنهم الله، فلما ذكر رسول الله ﷺ فيما نزل عليه من

الله سليمان بن داود وعدّه فيمن عدّ من المرسلين، قال من كان بالمدينة من اليهود: ألا تعجبون من محمد يزعم أن ابن داود كان نبيًّا والله ما كان إلا ساحرًا. وأنزل الله فى ذلك من قولهم ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟﴾ الآية، وقال ابن جرير: حدثنا القاسم: حدثنا حسين حدثنا حجاج عن أبى بكر عن شهر بن حوشب، قال: لما سلب سليمان ملكه كانت الشياطين تكتب السحر فى غيبة سليمان، فكتبت: من أراد أن يأتى كذا وكذا فليستقبل الشمس وليقل كذا وكذا، ومن أراد أن يفعل كذا وكذا فليستدبر الشمس وليقل كذا وكذا، فكتبته وجعلت عنوانه: هذا ما كتب آصف بن برخيا للملك سليمان بن داود عليهما السلام من ذخائر كنوز العلم، ثم دفنته تحت كرسيه، فلما مات سليمان عليه السلام، قام إبليس لعنه الله خطيبًا فقال: يا أيها الناس إن سليمان لم يكن نبيًّا إنما كان ساحرًا فالتمسوا سحره فى متاعه وبيوته، ثم دلهم على المكان الذى دفن فيه، فقالوا: والله لقد كان سليمان ساحرًا، هذا سحره، بهذا تعبدنا وبهذا قهرنا، فقال المؤمنون: بل كان نبيًّا مؤمنًا، فلما بعث الله النبى محمدًا ﷺ وذكر داود وسليمان فقالت اليهود: انظروا إلى محمد يخلط الحق بالباطل، يذكر سليمان مع الأنبياء إنما كان ساحرًا يركب الريح، فأنزل الله تعالى ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ﴾ الآية.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى الصنعانى، حدثنا المعتمر بن سليمان، قال: سمعت عمران بن حدير عن أبى مجلز قال: أخذ سليمان عليه السلام من كل دابة عهدًا فإذا أصيب رجل فسأل بذلك العهد خلى عنه، فزاد الناس السجع والسحر، فقالوا: هذا يعمل به سليمان بن داود، فقال الله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾، وقال ابن أبى حاتم: حدثنا عصام بن رواد حدثنا آدم حدثنا المسعودى عن زياد مولى ابن مصعب عن الحسن ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ﴾ قال: ثلث الشعر وثلث السحر وثلث الكهانة، وقال: حدثنا الحسن بن أحمد حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن بشار الواسطى حدثنى سرور بن المغيرة عن عباد بن منصور عن الحسن ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ﴾ وتبعته اليهود على ملكه وكان السحر قبل ذلك فى الأرض لم يزل بها، ولكنه إنما اتبع على ملك سليمان، فهذه نبذة من أقوال أئمة السلف فى هذا المقام، ولا يخفى ملخص القصة والجمع بين أطرافها وأنه لا تعارض بين السياقات على اللبيب الفهم، والله الهادى. وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ﴾ أى واتبعت اليهود الذين أوتوا الكتاب من بعد إعراضهم عن كتاب الله الذى بأيديهم، ومخالفتهم لرسول الله محمد ﷺ ما تتلوه الشياطين، أى ما ترويه وتخبر به وتحدثه الشياطين على ملك سليمان، وعداه (على) لأنه ضمن تتلو تكذب، وقال ابن جرير «على» ههنا بمعنى فى، أى تتلوا فى ملك سليمان، ونقله عن ابن جريج وابن إسحاق.

(قُلْتُ): والتضمين أحسن وأولى، والله أعلم. وقول الحسن البصرى رحمه الله وقد كان السحر قبل زمان سليمان بن داود - صحيح لا شك فيه، لأن السحرة كانوا فى زمان موسى عليه السلام وسليمان بن داود بعده، كما قال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦] الآية، ثم ذكر القصة بعدها وفيها ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ

جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ٢٥١] وقال قوم صالح وهم قبل إبراهيم الخليل عليه السلام لنبيهم صالح إنما ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣] أى المسحورين على المشهور، وقوله تعالى ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ اختلف الناس فى هذا المقام، فذهب بعضهم إلى أن «ما» نافية أعنى التى فى قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ قال القرطبى: ما نافية ومعطوف على قوله ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ ثم قال ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ وذلك أن اليهود كانوا يزعمون أنه نزل به جبريل وميكائيل فأكذبهم الله وجعل قوله ﴿هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ بدلاً من الشياطين، قال: وصح ذلك إما لأن الجمع يطلق على الاثنين كما فى قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ﴾ [النساء: ١١] أو لكونهما لهما أتباع أو ذكرا من بينهم لتمردهما، تقدير الكلام عنده: يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت. ثم قال: وهذا أولى ما حملت عليه الآية وأصح ولا يتلفت إلى ما سواه، وروى ابن جرير بإسناده من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ﴾ الآية، يقول لم ينزل الله السحر، وبإسناده عن الربيع بن أنس فى قوله ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ قال: ما أنزل الله عليهما السحر.

قال ابن جرير: فتأويل الآية على هذا ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ من السحر وما كفر سليمان ولا أنزل الله السحر على الملكين ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت، فيكون قوله ﴿بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ من المؤخر الذى معناه المقدم قال: فإن قال لنا قائل: كيف وجه تقديم ذلك؟ قيل وجه تقديمه أن يقال ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ من السحر وما كفر سليمان وما أنزل الله السحر على الملكين، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت، فيكون معنيًّا بالملكين جبريل وميكائيل عليهما السلام، لأن سحرة اليهود فيما ذكرت كانت تزعم أن الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود فأكذبهم الله بذلك، أخبر نبيه محمدًا ﷺ أن جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر وبرأ سليمان عليه السلام مما نحلوه من السحر، وأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين وأنها تعلم الناس ذلك ببابل، وأن الذين يعلمونهم ذلك رجلان: اسم أحدهما هاروت، واسم الآخر ماروت، فيكون هاروت وماروت على هذا التأويل ترجمة عن الناس وردًّا عليهم. هذا لفظه بحروفه، وقد قال ابن أبى حاتم: حدثت عن عبيد الله بن موسى، أخبرنا فضيل بن مرزوق عن عطية ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ قال: ما أنزل الله على جبريل وميكائيل السحر، قال ابن أبى حاتم: حدثنا الفضل بن شاذان، حدثنا محمد بن عيسى، حدثنا معلى يعنى ابن أسد، حدثنا بكر يعنى ابن مصعب، حدثنا الحسن بن أبى جعفر: أن عبد الرحمن بن أبزى كان يقرؤها وما أنزل على الملكين داود وسليمان وقال أبو العالية: لم ينزل عليهما السحر، يقول: علما بالإيمان والكفر، فالسحر من الكفر، فهما ينهيان عنه أشد النهى، رواه ابن أبى حاتم، ثم شرع ابن جرير فى رد هذا القول، وأن ما بمعنى الذى، وأطال القول فى ذلك وادعى أن هاروت وماروت ملكان أنزلهما الله إلى الأرض، وأذن لهما فى تعليم السحر اختبارًا لعباده وامتحانًا، بعد أن بين لعباده أن ذلك مما ينهى عنه على ألسنة الرسل، وادعى أن هاروت وماروت

مطيعان فى تعليم ذلك، لأنهما امتثلا ما أمرا به، وهذا الذى سلكه غريب جدًّا، وأغرب منه قول من زعم أن هاروت وماروت قبيلان من الجن، كما زعمه ابن حزم، وروى ابن أبى حاتم بإسناده عن الضحاك بن مزاحم أنه كان يقرؤها ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ ويقول: هما علجان من أهل بابل، ووجه أصحاب هذا القول الإنزال بمعنى الخلق لا بمعنى الإيحاء كما فى قوله تعالى ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦] ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥]، ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ [غافر: ١٣] وفى الحديث «ما أنزل الله داء إلا أنزل له دواء» (١) وكما يقال «أنزل الله الخير والشر» وحكى القرطبى عن ابن عباس وابن أبزى والحسن البصرى أنهم قرأوا ﴿الْمَلِكَيْنِ﴾ بكسر اللام، وقال ابن أبزى: وهما داود وسليمان، قال القرطبى: فعلى هذا تكون ما نافية أيضًا، وذهب آخرون إلى الوقف على قوله ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ وما نافية، قال ابن جرير: حدثنى يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرنا الليث عن يحيى بن سعيد عن القاسم بن محمد وسأله رجل عن قول الله ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ قال الرجل: يعلمان الناس السحر وما أنزل عليهما يعلمان الناس ما لم ينزل عليهما، فقال القاسم: ما أبالى أيتهما كانت. ثم روى عن يونس عن أنس بن عياض عن بعض أصحابه أن القاسم قال فى هذه القصة: لا أبالى أى ذلك كان، إنى آمنت به، وذهب كثير من السلف إلى أنهما كانا ملكين من السماء، وأنهما أنزلا إلى الأرض، فكان من أمرهما ما كان، وقد ورد فى ذلك حديث مرفوع رواه الإمام أحمد فى مسنده رحمه الله كما سنورده إن شاء الله، وعلى هذا فيكون الجمع بين هذا وبين ما ورد من الدلائل على عصمة الملائكة أن هذين سبق فى علم الله لهما هذا، فيكون تخصيصًا لهما، فلا تعارض حينئذ، كما سبق فى علمه من أمر إبليس ما سبق، وفى قوله إنه كان من الملائكة لقوله تعالى ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ [طه: ١١٦] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك، مع أن شأن هاروت وماروت على ما ذكر أخف مما وقع من إبليس، لعنه الله تعالى. وقد حكاه القرطبى عن على وابن مسعود وابن عباس وابن عمر وكعب الأحبار والسدى والكلبى.

ذكر الحديث الوارد فى ذلك إن صح سنده ورفعه وبيان الكلام عليه

قال الإمام أحمد (٢) بن حنبل رحمه الله تعالى فى مسنده: أخبرنا يحيى بن بكير، حدثنا زهير بن محمد عن موسى بن جبير عن نافع عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما، أنه سمع نبى الله ﷺ: يقول «إن آدم عليه السلام لما أهبطه الله إلى الأرض قالت الملائكة: أى رب ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] قالوا: ربنا نحن أطوع لك من بنى آدم، قال الله تعالى للملائكة: هلموا ملكين من الملائكة حتى نهبطهما إلى الأرض فننظر كيف يعملان، قالوا: ربنا هاروت وماروت، فأهبطا إلى الأرض، ومثلت لهما الزهرة امرأة من

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٨)، من حديث أبي هريرة.

(٢) المسند (٦١٤٣) قال الحافظ في القول المسدد (١/ ٣٩) وله طرق كثيرة جمعتها في جزء مفرد، يكاد الواقف عليه أن يقطع وقوع هذه القصة؛ لكثرة الطرق الواردة فيها، وقوة مخارج أكثرها قال الهيثمي في المجمع (٦/ ٣١٤): رجاله رجال الصحيح غير موسى بن جبير وهو ثقة.

أحسن البشر، فجاءتهما فسألاها نفسها، فقالت لا والله حتى تتكلما بهذه الكلمة من الإشراك، فقالا: والله لا نشرك بالله شيئًا أبدًا، فذهبت عنهما، ثم رجعت بصبى تحمله فسألاها نفسها فقالت: لا والله حتى تقتلا هذا الصبى، فقالا: لا والله لا نقتله أبدًا، فذهبت ثم رجعت بقدح خمر تحمله فسألاها نفسها، فقالت: لا والله حتى تشربا هذا الخمر، فشربا فسكرا فوقعا عليها وقتلا الصبى، فلما أفاقا قالت المرأة: والله ما تركتما شيئًا أبيتماه علىَّ إلا قد فعلتماه حين سكرتما، فخيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا».

وهكذا رواه أبو حاتم بن حبان فى صحيحه[1] عن الحسن بن سفيان عن أبى بكر بن أبى شيبة عن يحيى بن أبى بكير - به، وهذا حديث غريب من هذا الوجه، ورجاله كلهم ثقات من رجال الصحيحين إلا موسى بن جبير هذا هو الأنصارى السلمى مولاهم المدينى الحذاء، وروى عن ابن عباس وأبى أمامة بن سهل بن حنيف ونافع وعبد الله بن كعب بن مالك وروى عنه ابنه عبد السلام وبكر بن مضر وزهير بن محمد وسعيد بن سلمة وعبد الله بن لهيعة وعمرو بن الحارث ويحيى بن أيوب، وروى له أبو داود وابن ماجه، وذكره ابن أبى حاتم فى كتاب الجرح والتعديل، ولم يحك فيه شيئًا من هذا فهو مستور الحال، وقد تفرد به عن نافع مولى ابن عمر عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ، وروى له متابع من وجه آخر عن نافع، كما قال ابن مردويه: حدثنا دعلج بن أحمد حدثنا هشام بن على بن هشام حدثنا عبد الله بن رجاء حدثنا سعيد بن سلمة حدثنا موسى بن سرجس عن نافع عن ابن عمر: سمع النبى ﷺ يقول: فذكره بطوله.

وقال أبو جعفر بن جرير[2] رحمه الله: حدثنا القاسم، أخبرنا الحسين وهو سنيد بن داود صاحب التفسير، أخبرنا الفرج بن فضالة عن معاوية بن صالح عن نافع، قال: سافرت مع ابن عمر فلما كان من آخر الليل قال: يا نافع انظر طلعت الحمراء؟ قلت: لا، مرتين أو ثلاثًا، ثم قلت: قد طلعت، قال: لا مرحبًا بها ولا أهلاً، قلت: سبحان الله نجم مسخر سامع مطيع، قال: ما قلت لك إلا ما سمعت من رسول الله ﷺ أو قال: قال لى رسول الله ﷺ «إن الملائكة قالت: يا رب كيف صبرك على بنى آدم فى الخطايا والذنوب؟ قال: إنى ابتليتهم وعافيتكم، قالوا: لو كنا مكانهم ما عصيناك، قال: فاختاروا ملكين منكم، قال: فلم يألوا جهدًا أن يختاروا فاختاروا هاروت وماروت» وهذان أيضًا غريبان جدًا. وأقرب ما يكون فى هذا أنه من رواية عبد الله بن عمر عن كعب الأحبار لا عن النبى ﷺ كما قال عبد الرزاق فى تفسيره عن الثورى عن موسى بن عقبة عن سالم عن ابن عمر عن كعب الأحبار قال: ذكرت الملائكة أعمال بنى آدم وما يأتون من الذنوب، فقيل لهم: اختاروا منكم اثنين فاختاروا هاروت وماروت، فقال لهما: إنى أرسل إلى بنى آدم رسلاً وليس بينى وبينكم رسول، انزلا لا تشركا بى شيئًا ولا تزنيا ولا تشربا الخمر، قال كعب: فوالله ما أمسيا من يومهما الذى أهبطا فيه حتى استكملا جميع ما نهيا عنه، رواه ابن جرير من طريقين عن عبد الرزاق به، ورواه ابن أبى حاتم عن أحمد بن عصام عن مؤمل عن سفيان الثورى به، ورواه ابن جرير أيضًا حدثنى المثنى أخبرنا المعلى وهو ابن

(١) ابن حبان في صحيحه (١٤/ ٦٣، ٦٤) برقم (٦١٨٦).

(٢) ابن جرير في تفسيره (١/ ٤٥٨) في سنده: الفرج بن فضالة، منكر الحديث.

أسد أخبرنا عبد العزيز بن المختار عن موسى بن عقبة حدثنى سالم أنه سمع عبد الله يحدث عن كعب الأحبار فذكره، فهذا أصح وأثبت إلى عبد الله بن عمر من الإسنادين المتقدمين، وسالم أثبت فى أبيه من مولاه نافع، فدار الحديث ورجع إلى نقل كعب الأحبار عن كتب بنى إسرائيل، والله أعلم.

ذكر الآثار الواردة فى ذلك عن الصحابة والتابعين رضى الله عنهم أجمعين

قال ابن جرير [١]: حدثنى المثنى حدثنا الحجاج أخبرنا حماد عن خالد الحذاء عن عمير بن سعيد، قال: سمعت عليًّا رضى الله عنه يقول: كانت الزهرة امرأة جميلة من أهل فارس وإنها خاصمت إلى الملكين هاروت وماروت فراوداها عن نفسها فأبت عليهما إلا أن يعلماها الكلام الذى إذا تكلم به أحد يعرج به إلى السماء فعلماها فتكلمت به، فعرجت إلى السماء فمسخت كوكبًا وهذا الإسناد رجاله ثقات وهو غريب جدًّا - وقال ابن أبى حاتم: أخبرنا الفضل بن شاذان أخبرنا محمد بن عيسى أخبرنا إبراهيم بن موسى أخبرنا معاوية عن خالد عن عمير بن سعيد عن على رضى الله عنه قال: هما ملكان من ملائكة السماء، يعنى ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسيره بسنده عن مغيث عن مولاه جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن على مرفوعًا، وهذا لا يثبت من هذا الوجه. ثم رواه من طريقين آخرين عن جابر عن أبى الطفيل عن على رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ «**لعن الله الزهرة فإنها هى التى فتنت الملكين هاروت وماروت**» [٢] وهذ أيضًا لا يصح وهو منكر جدًّا، والله أعلم.

وقال ابن جرير: حدثنى المثنى بن إبراهيم أخبرنا الحجاج بن منهال حدثنا حماد عن على بن زيد عن أبى عثمان النهدى عن ابن مسعود وابن عباس أنهما قالا جميعًا: لما كثر بنو آدم وعصوا، دعت الملائكة عليهم والأرض والجبال ربنا لا تمهلهم، فأوحى الله إلى الملائكة: إنى أزلت الشهوة والشيطان من قلوبكم، وأنزلت الشهوة والشيطان فى قلوبهم، ولو نزلتم لفعلتم أيضًا. قال: فحدثوا أنفسهم أن لو ابتلوا اعتصموا، فأوحى الله إليهم أن اختاروا ملكين من أفضلكم، فاختاروا هاروت وماروت، فأهبطا إلى الأرض وأنزلت الزهرة إليهما فى صورة امرأة من أهل فارس يسمونها بيذخت، قال: فوقعا بالخطيئة، فكانت الملائكة يستغفرون للذين آمنوا ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]، فلما وقعا بالخطيئة استغفروا لمن فى الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم، فخيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا عذاب الدنيا.

وقال ابن أبى حاتم: أخبرنا أبى أخبرنا عبد الله بن جعفر الرقى أخبرنا عبيد الله يعنى ابن عمرو عن زيد بن أبى أنيسة عن المنهال بن عمرو ويونس بن خباب عن مجاهد، قال: كنت نازلاً على عبد الله بن عمر فى سفر، فلما كان ذات ليلة قال لغلامه: انظر هل طلعت الحمراء لا مرحبًا بها ولا أهلاً ولا حياها الله هى صاحبة الملكين، قالت الملائكة: يا رب، كيف تدع عصاة بنى آدم وهم يسفكون الدم الحرام، وينتهكون محارمك ويفسدون فى الأرض؟ قال: إنى ابتليتهم فلعل إن ابتليتكم

---

(١) ابن جرير في تفسيره (١/ ٤٥٦).

(٢) ضعيف: رواه ابن السنى في عمل اليوم والليلة برقم (٦٥٤) من طريق جابر عن أبى الطفيل.

بمثل الذى ابتليتهم به فعلتم كالذى يفعلون، قالوا: لا، قال: فاختاروا من خياركم اثنين، فاختاروا هاروت وماروت، فقال لهما: إنى مهبطكما إلى الأرض وعاهد إليكما أن لا تشركا ولا تزنيا ولا تخونا، فأهبطا إلى الأرض وألقى عليهما الشهوة، وأهبطت لهما الزهرة فى أحسن صورة امرأة، فتعرضت لهما فراوداها عن نفسها، فقالت: إنى على دين لا يصح لأحد أن يأتينى إلا من كان على مثله، قالا: وما دينك؟ قالت المجوسية، قالا: الشرك هذا شىء لا نقر به، فمكثت عنهما ما شاء الله تعالى، ثم تعرضت لهما فراوداها عن نفسها، فقالت: ما شئتما غير أن لى زوجًا وأنا أكره أن يطلع على هذا منى فأفتضح، فإن أقررتما لى بدينى وشرطتما لى أن تصعدا بى إلى السماء فعلت، فأقرا لها بدينها وأتياها فيما يريان ثم صعدا بها إلى السماء، فلما انتهيا بها إلى السماء اختطفت منهما وقطعت أجنحتهما فوقعا خائفين نادمين يبكيان، وفى الأرض نبى يدعو بين الجمعتين فإذا كان يوم الجمعة أجيب فقالا: لو أتينا فلانًا فسألناه فطلب لنا التوبة، فأتياه فقال: رحمكما الله كيف يطلب التوبة أهل الأرض لأهل السماء؟ قالا: إنا قد ابتلينا، قال ائتيانى يوم الجمعة فأتياه، فقال: ما أجبت فيكما بشىء ائتيانى فى الجمعة الثانية فأتياه، فقال: اختارا فقد خيرتما إن اخترتما معافاة الدنيا وعذاب الآخرة وإن أحببتما فعذاب الدنيا وأنتما يوم القيامة على حكم الله، فقال أحدهما: إن الدنيا لم يمض منها إلا القليل. وقال الآخر: ويحك إنى قد أطعتك فى الأمر الأول فأطعنى الآن، إن عذابًا يفنى ليس كعذاب يبقى. فقال: إننا يوم القيامة على حكم الله فأخاف أن يعذبنا، قال: لا. إنى أرجو إن علم الله أنا قد اخترنا عذاب الدنيا مخافة عذاب الآخرة أن لا يجمعها علينا، قال: فاختارا عذاب الدنيا فجعلا فى بكرات من حديد فى قليب مملوءة من نار عاليهما سافلهما - وهذا إسناد جيد إلى عبد الله بن عمر - وقد تقدم فى رواية ابن جرير من حديث معاوية بن صالح عن نافع عنه رفعه، وهذا أثبت وأصح إسنادًا ثم هو - والله أعلم - من رواية ابن عمر عن كعب كما تقدم بيانه من رواية سالم عن أبيه. وقوله: إن الزهرة نزلت فى صورة امرأة حسناء، وكذا فى المروى عن على فيه غرابة جدًا.

وأقرب ما ورد فى ذلك ما قال ابن أبى حاتم: أخبرنا عصام بن رواد، أخبرنا آدم، أخبرنا أبو جعفر، حدثنا الربيع بن أنس عن قيس بن عباد عن ابن عباس رضى الله عنهما، قال: لما وقع الناس من بعد آدم عليه السلام فيما وقعوا فيه من المعاصى والكفر بالله، قالت الملائكة فى السماء: يا رب هذا العالم الذى إنما خلقتهم لعبادتك وطاعتك قد وقعوا فيما وقعوا فيه، وركبوا الكفر، وقتل النفس، وأكل المال الحرام، والزنا والسرقة، وشرب الخمر، فجعلوا يدعون عليهم ولا يعذرونهم فقيل: إنهم فى غيب فلم يعذروهم، فقيل لهم: اختاروا من أفضلكم ملكين آمرهما، وأنهاهما، فاختاروا هاروت وماروت، فأهبطا إلى الأرض وجعل لهما شهوات بنى آدم وأمرهما الله أن يعبداه ولا يشركا به شيئًا، ونهيا عن قتل النفس الحرام، وأكل المال الحرام وعن الزنا والسرقة وشرب الخمر، فلبثا فى الأرض زمانًا يحكمان بين الناس بالحق وذلك فى زمن إدريس عليه السلام، وفى ذلك الزمان امرأة حسنها فى النساء كحسن الزهرة فى سائر الكواكب، وإنهما أتيا عليها فخضعا لها فى القول وأراداها على نفسها فأبت إلا أن يكون على أمرها وعلى دينها، فسألاها عن دينها، فأخرجت لهما صنمًا فقالت: هذا أعبده، فقالا: لا حاجة لنا فى عبادة هذا، فذهبا فغبرا ما شاء الله، ثم أتيا عليها فأراداها على نفسها

ففعلت مثل ذلك، فذهبا ثم أتيا عليها فأراداها على نفسها، فلما رأت أنهما قد أبيا أن يعبدا الصنم، قالت لهما: اختارا أحد الخلال الثلاث: إما ان تعبدا هذا الصنم، وإما أن تقتلا هذه النفس، وإما أن تشربا هذه الخمر، فقالا: كل هذا لا ينبغى وأهون هذا شرب الخمر فشربا الخمر فأخذت فيهما، فواقعا المرأة فخشيا أن يخبر الإنسان عنهما فقتلاه، فلما ذهب عنهما السكر وعلما ما وقعا فيه من الخطيئة أرادا أن يصعدا إلى السماء فلم يستطيعا وحيل بينهما وبين ذلك، وكشف الغطاء فيما بينهما وبين أهل السماء، فنظرت الملائكة إلى ما وقعا فيه فعجبوا كل العجب وعرفوا أنه من كان فى غيب فهو أقل خشية، فجعلوا بعد ذلك يستغفرون لمن فى الأرض فنزل فى ذلك ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥] فقيل لهما: اختارا عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة، فقالا: أما عذاب الدنيا فإنه ينقطع ويذهب وأما عذاب الآخرة فلا انقطاع له، فاختارا عذاب الدنيا، فجعلا ببابل فهما يعذبان، وقد رواه الحاكم فى مستدركه مطولاً عن أبى زكريا العنبرى عن محمد بن عبد السلام عن إسحاق بن راهويه عن حكام بن سلم الرازى وكان ثقة عن أبى جعفر الرازى به، ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، فهذا أقرب ما روى فى شأن الزهرة، والله أعلم.

وقال ابن أبى حاتم: أخبرنا أبى أخبرنا مسلم أخبرنا القاسم بن الفضل الحدانى أخبرنا يزيد يعنى الفارسى عن ابن عباس: أن أهل سماء الدنيا أشرفوا على أهل الأرض فرأوهم يعملون بالمعاصى، فقالوا: يا رب أهل الأرض كانوا يعملون بالمعاصى، فقال الله: أنتم معى، وهم فى غيب عنى، فقيل لهم: اختاروا منكم ثلاثة فاختاروا منهم ثلاثة على أن يهبطوا إلى الأرض على أن يحكموا بين أهل الأرض، وجعل فيهما شهوة الآدميين، فأمروا أن لا يشربوا خمرًا ولا يقتلوا نفسًا ولا يزنوا ولا يسجدوا لوثن، فاستقال منهم واحد فأقيل، فأهبط اثنان إلى الأرض، فأتتهما امرأة من أحسن الناس يقال لها: مناهية فهوياها جميعًا، ثم أتيا منزلها فاجتمعا عندها فأراداها فقالت لهما: لا، حتى تشربا خمرى، وتقتلا ابن جارى، وتسجدا لوثنى، فقالا: لا نسجد ثم شربا من الخمر ثم قتلا ثم سجدا، فأشرف أهل السماء عليهما، وقالت لهما: أخبرانى بالكلمة التى إذا قلتماها طرتما، فأخبراها فطارت، فمسخت جمرة وهى هذه الزهرة، وأما هما فأرسل إليهما سليمان بن داود فخيرهما بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا، فهما مناطان بين السماء والأرض، وهذا السياق فيه زيادات كثيرة وإغراب ونكارة، والله أعلم بالصواب.

وقال عبد الرزاق: قال معمر: قال قتادة والزهرى، عن عبيد الله بن عبد الله ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ كانا ملكين من الملائكة، فأهبطا ليحكما بين الناس، وذلك أن الملائكة سخروا من حكام بنى آدم، فحاكمت إليهما امرأة فحافا، لها ثم ذهبا يصعدان فحيل بينهما وبين ذلك، ثم خيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا عذاب الدنيا. قال معمر: قال قتادة: فكانا يعلمان الناس السحر فأخذ عليهما أن لا يعلما أحدًا حتى يقولا ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾.

وقال أسباط عن السدى: إنه قال: كان من أمر هاروت وماروت أنهما طعنا على أهل الأرض فى أحكامهم، فقيل لهما: إنى أعطيت بنى آدم عشرًا من الشهوات فبها يعصوننى، قال هاروت وماروت: ربنا لو أعطيتنا تلك الشهوات ثم نزلنا لحكمنا بالعدل. فقال لهما: انزلا فقد أعطيتكما تلك الشهوات

العشر فاحكما بين الناس، فنزلا ببابل دنياوند، فكانا يحكمان حتى إذا أمسيا عرجا فإذا أصبحا هبطا، فلم يزالا كذلك حتى أتتهما امرأة تخاصم زوجها فأعجبهما حسنها واسمها بالعربية زهرة، وبالنبطية بيدخت، وبالفارسية أناهيد، فقال أحدهما لصاحبه: إنها لتعجبنى، قال الآخر: قد أردت أن أذكر لك فاستحييت منك، فقال الآخر: هل لك أن أذكرها لنفسها؟. قال: نعم، ولكن كيف لنا بعذاب الله؟ قال الآخر: إنا لنرجو رحمة الله. فلما جاءت تخاصم زوجها ذكرا إليها نفسها، فقالت: لا، حتى تقضيا لى على زوجى، فقضيا لها على زوجها، ثم واعدتهما خربة من الخرب يأتيانها فيها، فأتياها لذلك، فلما أراد الذى يواقعها قالت: ما أنا بالذى أفعل حتى تخبرانى بأى كلام تصعدان إلى السماء، وبأى كلام تنزلان منها، فأخبراها فتكلمت فصعدت، فأنساها الله تعالى ما تنزل به فثبتت مكانها وجعلها الله كوكبًا، فكان عبد الله بن عمر كلما رآها لعنها، وقال: هذه التى فتنت هاروت وماروت، فلما كان الليل، أرادا أن يصعدا فلم يطيقا فعرفا الهلكة، فخيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا، فعلقا ببابل وجعلا يكلمان الناس كلامهما وهو السحر.

وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد: أما شأن هاروت وماروت فإن الملائكة عجبت من ظلم بنى آدم وقد جاءتهم الرسل والكتب والبينات، فقال لهم ربهم تعالى: اختاروا منكم ملكين أنزلهما يحكمان فى الأرض بين بنى آدم فاختاروا فلم يألوا هاروت وماروت، فقال لهما حين أنزلهما: أعجبتما من بنى آدم من ظلمهم ومعصيتهم وإنما تأتيهم الرسل والكتب من وراء وراء، وإنتما ليس بينى وبينكما رسول، فافعلا كذا وكذا ودعا كذا وكذا، فأمرهما بأمور ونهاهما، ثم نزلا على ذلك ليس أحد أطوع لله منهما، فحكما فعدلا، فكانا يحكمان فى النهار بين بنى آدم، فإذا أمسيا عرجا فكانا مع الملائكة، وينزلان حين يصبحان فيحكمان فيعدلان، حتى أنزلت عليهما الزهرة فى أحسن صورة امرأة تخاصم فقضيا عليها، فلما قامت وجد كل واحد منهما فى نفسه، فقال أحدهما لصاحبه: وجدت مثل الذى وجدت؟ قال: نعم، فبعثا إليها أن ائتيانا نقض لك، فلما رجعت قالا وقضيا لها فأتتهما فكشفا لها عن عورتيهما، وإنما كانت شوتهما فى أنفسهما، ولم يكونا كبنى آدم فى شهوة النساء ولذاتها، فلما بلغا ذلك واستحلا افتتنا، فطارت الزهرة فرجعت حيث كانت، فلما أمسيا عرجا فزجرا فلم يؤذن لهما ولم تحملهما أجنحتهما، فاستغاثا برجل من بنى آدم فأتياه فقالا: ادع لنا ربك، فقال: كيف يشفع أهل الأرض لأهل السماء؟ قالا: سمعنا ربك يذكرك بخير فى السماء، فوعدهما يومًا، وغدا يدعو لهما فدعا لهما فاستجيب له، فخيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فنظر أحدهما إلى صاحبه فقال: ألا تعلم أن أفواج عذاب الله فى الآخرة كذا وكذا فى الخلد، وفى الدنيا تسع مرات مثلها؟ فأمرا أن ينزلا ببابل فتم عذابهما، وزعم أنهما معلقان فى الحديد مطويان يصفقان بأجنحتهما، وقد روى فى قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين كمجاهد والسدى والحسن البصرى وقتادة وأبى العالية والزهرى والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان وغيرهم، وقصها خلق من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين، وحاصلها راجع فى تفصيلها إلى أخبار بنى إسرائيل، إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى، وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب فيها، فنحن نؤمن بما ورد فى القرآن على ما أراده الله تعالى، والله أعلم بحقيقة الحال.

وقد ورد فى ذلك أثر غريب وسياق عجيب فى ذلك، أحببنا أن ننبه عليه، قال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله تعالى: أخبرنا الربيع بن سليمان أخبرنا ابن وهب أخبرنا ابن أبى الزناد حدثنى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة زوج النبى ﷺ أنها قالت: قدمت علىَّ امرأة من أهل دومة الجندل جاءت تبتغى رسول الله ﷺ بعد موته حداثة ذلك تسأله عن أشياء دخلت فيه من أمر السحر ولم تعمل به، وقالت عائشة رضى الله عنها لعروة: يا ابن أختى، فرأيتها تبكى حين لم تجد رسول الله ﷺ فيشفيها، فكانت تبكى حتى إنى لأرحمها، وتقول: إنى أخاف أن أكون قد هلكت، كان لى زوج فغاب عنى، فدخلت على عجوز فشكوت ذلك إليها، فقالت: إن فعلت ما آمرك به فأجعله يأتيك، فلما كان الليل جاءتنى بكلبين أسودين فركبت أحدهما وركبت الآخر، فلم يكن كشيء حتى وقفنا ببابل وإذا برجلين معلقين بأرجلهما فقالا: ما جاء بك؟ قلت: أتعلم السحر، فقالا: إنما نحن فتنة فلا تكفرى فارجعى، فأبيت وقلت: لا، قالا: فاذهبى إلى ذلك التنور فبولى فيه، فذهبت ففزعت ولم أفعل، فرجعت إليهما، فقالا: أفعلت؟ فقلت: نعم، فقالا: هل رأيت شيئًا؟ فقلت: لم أر شيئًا، فقالا: لم تفعلى، ارجعى إلى بلادك ولا تكفرى فأربيت وأبيت، فقالا: اذهبى إلى ذلك التنور فبولى فيه، فذهبت فاقشعررت وخفت، ثم رجعت إليهما، وقلت: قد فعلت، فقالا: فما رأيت؟ قلت: لم أر شيئًا، فقالا: كذبت لم تفعلى ارجعى إلى بلادك، ولا تكفرى، فإنك على رأس أمرك فأربيت وأبيت، فقالا: اذهبى إلى التنور فبولى فيه، فذهبت إليه فبلت فيه، فرأيت فارسًا مقنعًا بحديد خرج منى، فذهب فى السماء وغاب حتى ما أراه، فجئتهما فقلت: قد فعلت، فقالا: فما رأيت؟ قلت: رأيت فارسًا مقنعًا خرج منى فذهب فى السماء وغاب حتى ما أراه، فقالا: صدقت ذلك إيمانك خرج منك، اذهبى، فقلت للمرأة: والله ما أعلم شيئًا، وما قالا لى شيئًا، فقالت: بلى لم تريدى شيئًا إلا كان، خذى هذا القمح فابذرى، فبذرت، وقلت: اطلعى فأطلعت، وقلت: احقلى فأحقلت، ثم قلت: افركى فأفركت، ثم قلت: أيبسى فأيبست، ثم قلت: اطحنى فأطحنت، ثم قلت: اخبزى فأخبزت، فلما رأيت أنى لا أريد شيئًا إلا كان سقط فى يدى، وندمت، والله يا أم المؤمنين ما فعلت شيئًا قط ولا أفعله أبدًا، ورواه ابن أبى حاتم عن الربيع بن سليمان به مطولاً كما تقدم وزاد بعد قولها ولا أفعله أبدًا، فسألت أصحاب رسول الله ﷺ حداثة وفاة رسول الله ﷺ وهم يومئذ متوافرون، فما دروا ما يقولون لها، وكلهم هاب وخاف أن يفتيها بما لا يعلمه، إلا أنه قد قال لها ابن عباس أو بعض من كان عنده: لو كان أبواك حيين أو أحدهما. قال هشام: فلو جاءتنا أفتيناها بالضمان. قال ابن أبى الزناد: وكان هشام يقول: إنهم كانوا من أهل الورع والخشية من الله ثم يقول هشام: لو جاءتنا مثلها اليوم لوجدت نوكى أهل حمق وتكلف بغير علم، فهذا إسناد جيد إلى عائشة رضى الله عنها.

وقد استدل بهذا الأثر من ذهب إلى أن الساحر له تمكن فى قلب الأعيان؛ لأن هذه المرأة بذرت واستغلت فى الحال. وقال آخرون: بل ليس له قدرة إلا على التخييل كما قال تعالى ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ﴾[الأعراف: ١١٦] وقال تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ﴾[طه: ٦٦] واستدل به على أن بابل المذكورة فى القرآن هى بابل العراق لا بابل دنباوند كما قاله السدى وغيره، ثم الدليل على أنها بابل العراق ما قال ابن أبى حاتم: أخبرنا على بن الحسين أخبرنا أحمد بن صالح

حدثنى ابن وهب حدثنى ابن لهيعة ويحيى بن أزهر عن عمار بن سعد المرادى عن أبى صالح الغفارى: أن على بن أبى طالب رضى الله عنه مر ببابل وهو يسير، فجاء المؤذن يؤذنه بصلاة العصر، فلما برز منها أمر المؤذن فأقام الصلاة، فلما فرغ قال: إن حبيبى ﷺ نهانى أن أصلى بأرض المقبرة ونهانى ان أصلى ببابل فإنها ملعونة، وقال أبو داود[1]: أخبرنا سليمان بن داود أخبرنا ابن وهب حدثنى ابن لهيعة ويحيى بن أزهر عن عمار بن سعد المرادى عن أبى صالح الغفارى أن عليًا مرّ ببابل وهو يسير، فجاءه المؤذن يؤذنه بصلاة العصر، فلما برز منها أمر المؤذن فأقام الصلاة، فلما فرغ قال: إن حبيبى ﷺ نهانى أن أصلى فى المقبرة، ونهانى أن أصلى بأرض بابل فإنها ملعونة. حدثنا أحمد بن صالح حدثنا ابن وهب أخبرنى يحيى بن أزهر وابن لهيعة عن حجاج بن شداد عن أبى صالح الغفارى عن على بمعنى حديث سليمان بن داود، قال: فلما (خرج) مكان (برز)، وهذا الحديث حسن عند الإمام أبى داود لأنه رواه وسكت عليه ففيه من الفقه كراهية الصلاة بأرض بابل، كما تكره بديار ثمود الذين نهى رسول الله ﷺ عن الدخول إلى منازلهم إلا أن يكونوا باكين[2]. قال أصحاب الهيئة: وبعد ما بين بابل وهى من إقليم العراق عن البحر المحيط الغربى، ويقال له أوقيانوس سبعون درجة، ويسمون هذا طولاً، وأما عرضها وهو بعد ما بينها وبين وسط الأرض من ناحية الجنوب، وهو المسامت لخط الاستواء اثنان وثلاثون درجة، والله أعلم.

وَقَوْلُه تَعَالَى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ قال أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس عن قيس بن عباد عن ابن عباس قال: فإذا أتاهما الآتى يريد السحر نهياه أشد النهى وقالا له: إنما نحن فتنة فلا تكفر، وذلك أنهما علما الخير والشر والكفر والإيمان، فعرفا أن السحر من الكفر، قال: فإذا أبى عليهما أمراه أن يأتى مكان كذا وكذا، فإذا أتاه عاين الشيطان فعلمه، فإذا علمه خرج منه النور، فنظر إليه ساطعًا فى السماء فيقول: يا حسرتاه، يا ويله ماذا صنع؟ وعن الحسن البصرى أنه قال فى تفسير هذه الآية: نعم أنزل الملكان بالسحر، ليعلما الناس البلاء الذى أراد الله أن يبتلى به الناس، فأخذ عليهما الميثاق أن لا يعلما أحدًا حتى يقولا: إنما نحن فتنة فلا تكفر، رواه ابن أبى حاتم، وقال قتادة: كان أخذ عليهما أن لا يعلما أحدًا حتى يقولا: إنما نحن فتنة أى بلاء ابتلينا به فلا تكفر. وقال السدى: إذا أتاهما إنسان يريد السحر وعظاه وقالا له: لا تكفر إنما نحن فتنة، فإذا أبى قالا له: ائت هذا الرماد فبل عليه، فإذا بال عليه خرج منه نور فسطع حتى يدخل السماء وذلك الإيمان، وأقبل شىء أسود كهيئة الدخان حتى يدخل فى مسامعه، وكل شىء، وذلك غضب الله، فإذا أخبرهما بذلك علماه السحر، فذلك قول الله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ الآية، وقال سعيد عن حجاج عن ابن جريج فى هذه الآية: لا يجترئ على السحر إلا كافر، وأما الفتنة فهى المحنة والاختبار، ومنه قول الشاعر:

وقد فتن الناس فى دينهم ... وخلى ابن عفان شرًا طويلاً

وكذلك قوله تعالى إخبارًا عن موسى عليه السلام حيث قال ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] أى

(١) إسناده ضعيف: أبو داود (٤٩٠). انظر: فتح البارى (١/ ٥٣٠).
(٢) أخرجه البخاري (٤٣٣)، مسلم (٢٩٨٠) من حديث ابن عمر.

ابتلاؤك واختبارك وامتحانك ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٥] وقد استدل بعضهم بهذه الآية على تكفير من تعلم السحر، ويُستشهد له بالحديث الذى رواه الحافظ أبو بكر البزار (١)، حدثنا محمد بن المثنى، أخبرنا أبو معاوية عن الأعمش، عن إبراهيم عن همام عن عبد الله قال: «من أتى كاهنًا أو ساحرًا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ» وهذا إسناد جيد وله شواهد أخر (٢)، وقوله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ أى فيتعلم الناس من هاروت وماروت من علم السحر ما يتصرفون به فيما يتصرفون من الأفاعيل المذمومة ما إنهم ليفرقون به بين الزوجين، مع ما بينهما من الخلطة والائتلاف، وهذا من صنيع الشياطين، كما رواه مسلم (٣) فى صحيحه من حديث الأعمش عن أبى سفيان طلحة بن نافع عن جابر بن عبد الله - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال: «إن الشيطان ليضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فى الناس، فأقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة، ويجىء أحدهم فيقول: ما زلت بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا، فيقول إبليس: لا والله ما صنعت شيئًا! ويجىء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله قال: فيقر به ويدنيه ويلتزمه ويقول: نعم أنت» وسبب التفريق بين الزوجين بالسحر ما يخيل إلى الرجل أو المرأة من الآخر من سوء منظر أو خلق أو نحو ذلك أو عقد أو بغضة أو نحو ذلك من الأسباب المقتضية للفرقة، والمرء عبارة عن الرجل وتأنيثه امرأة ويثنى كل منهما ولا يجمعان، والله اعلم.

وقوله تعالى ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ قال سفيان الثورى: إلا بقضاء الله، وقال محمد بن إسحاق: إلا بتخلية الله بينه وبين ما أراد، وقال الحسن البصرى ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ قال: نعم، من شاء الله سلطهم عليه، ومن لم يشأ الله لم يسلط ولا يستطيعون ضر أحد إلا بإذن الله، كما قال الله تعالى. وفى رواية عن الحسن أنه قال: لا يضر هذا السحر إلا من دخل فيه، وقوله تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ أى يضرهم فى دينهم وليس له نفع يوازى ضرره ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ أى ولقد علم اليهود الذين استبدلوا بالسحر عن متابعة الرسول ﷺ لمن فعل فعلهم، ذلك أنه ما له فى الآخرة من خلاق، قال ابن عباس ومجاهد والسدى: من نصيب، وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة: ما له فى الآخرة من جهة عند الله، وقال عبد الرزاق، وقال الحسن: ليس له دين، وقال سعد عن قتادة ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ قال: ولقد علم أهل الكتاب فيما عهد الله إليهم أن الساحر لا خلاق له فى الآخرة، وقوله تعالى ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَبِئْسَ﴾ البديل ما استبدلوا به من السحر عوضًا عن الإيمان ومتابعة الرسل لو كان لهم علم بما وعظوا به ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ أى ولو أنهم آمنوا بالله ورسله واتقوا المحارم لكان مثوبة الله على ذلك خيرًا لهم مما استخاروا لأنفسهم ورضوا به كما قال

---

(١) صحيح: مسند البزار (٥/ ٣١٥)، برقم (١٩٣١).

(٢) صحيح: أبو داود (٣٩٠٤)، الترمذي (١٣٥)، ابن ماجه (٦٣٩)، أحمد (٩٠٣٥)، من حديث أبي هريرة.

(٣) مسلم (٢٨١٣).

تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠].

وقد يستدل بقوله ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟﴾ من ذهب إلى تكفير الساحر، كما هو رواية عن الإمام أحمد بن حنبل طائفة من السلف، وقيل: بل لا يكفر، ولكن حده ضرب عنقه، لما رواه الشافعي وأحمد بن حنبل[1]، قال: أخبرنا سفيان، هو ابن عيينة عن عمرو بن دينار، أنه سمع بجالة بن عبدة يقول: كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن اقتلوا كل ساحر وساحرة، قال: فقتلنا ثلاث سواحر وقد أخرجه البخارى[2] فى صحيحه أيضًا، وهكذا صح أن حفصة أم المؤمنين سحرتها جارية لها، فأمرت بها، فقتلت، قال الإمام أحمد بن حنبل: صح عن ثلاثة من أصحاب النبى ﷺ فى قتل الساحر. وروى الترمذى[3] من حديث إسماعيل بن مسلم عن الحسن عن جندب الأزدى أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حد الساحر ضربه بالسيف» ثم قال: لا نعرفه مرفوعًا إلا من هذا الوجه، وإسماعيل بن مسلم يضعف فى الحديث، والصحيح عن الحسن عن جندب موقوفًا، قلت: قد رواه الطبرانى[4] من وجه آخر عن الحسن عن جندب مرفوعًا. والله أعلم. وقد روى من طرق متعددة أن الوليد بن عقبة: كان عنده ساحر يلعب بين يديه، فكان يضرب رأس الرجل، ثم يصيح به فيرد إليه رأسه، فقال الناس: سبحان الله يحيى الموتى، ورآه رجل من صالحى المهاجرين، فلما كان الغد جاء مشتملاً على سيفه وذهب يلعب لعبه ذلك، فاخترط الرجل سيفه فضرب عنق الساحر، وقال: إن كان صادقًا فليحى نفسه، وتلا قوله تعالى: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣]، فغضب الوليد إذ لم يستأذنه فى ذلك، فسجنه ثم أطلقه، والله أعلم. وقال الإمام أبو بكر الخلال: أخبرنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثنى أبى أخبرنا يحيى بن سعيد، حدثنى أبو إسحاق عن حارثة قال: كان عند بعض الأمراء رجل يلعب فجاء جندب مشتملاً على سيفه فقتله، قال: أراه كان ساحرًا، وحمل الشافعى رحمه الله قصة عمر وحفصة على سحر يكون شركًا، والله أعلم.

(فصل) حكى أبو عبد الله الرازى فى تفسيره عن المعتزلة أنهم أنكروا وجود السحر، قال: وربما كفَّروا من اعتقد وجوده، قال: وأما أهل السنة فقد جوزوا أن يقدر الساحر أن يطير فى الهواء ويقلب الإنسان حمارًا، والحمار إنسانًا إلا أنهم قالوا: إن الله يخلق الأشياء عندما يقول الساحر تلك الرقى والكلمات المعينة، فأما أن يكون المؤثر فى ذلك هو الفلك والنجوم، فلا، خلافًا للفلاسفة والمنجمين والصابئة، ثم استدل على وقوع السحر وأنه بخلق الله تعالى بقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ ومن الأخبار بأن رسول الله ﷺ سحر، وأن السحر عمل فيه وبقصة تلك المرأة مع عائشة رضى الله عنها وما ذكرت تلك المرأة من إتيانها بابل وتعلمها السحر قال: وبما يذكر فى هذا الباب من الحكايات الكثيرة، ثم قال بعد هذا:

(المسألة الخامسة) فى أن العلم بالسحر ليس بقبيح ولا محظور - اتفق المحققون على ذلك لأن

---

(١) صحيح: المسند (١٦٦٠). (٢) البخاري (٣١٥٦).

(٣) ضعيف: الترمذي (١٤٦٠)، قال الحافظ في الفتح (١٠/ ٢٣٦): في سنده ضعف.

(٤) الطبراني في الكبير (٢/ ١٦١) برقم (١٦٦٥).

العلم لذاته شريف، وأيضًا لعموم قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] ولأن السحر لو لم يكن يعلم لما أمكن الفرق بينه وبين المعجزة، والعلم بكون المعجز معجزًا واجب، وما يتوقف الواجب عليه فهو واجب، فهذا يقتضى أن يكون تحصيل العلم بالسحر واجبًا، وما يكون واجبًا، فكيف يكون حرامًا وقبيحًا؟ هذا لفظه بحروفه فى هذه المسألة، وهذا الكلام فيه نظر من وجوه: أحدها قوله: العلم بالسحر ليس بقبيح شرعًا إن عنى به ليس بقبيح عقلاً، فمخالفوه من المعتزلة يمنعون هذا، وإن عنى أنه ليس بقبيح شرعًا، ففى هذه الآية الكريمة تبشيع لتعلم السحر، وفى الصحيح [١] «من أتى عرافًا أو كاهنًا فقد كفر بما أنزل على محمد»، وفى السنن [٢] «من عقد عقدة ونفث فيها فقد سحر» وقوله: ولا محظور، اتفق المحققون على ذلك، كيف لا يكون محظورًا مع ما ذكرناه من الآية والحديث واتفاق المحققين يقتضى أن يكون قد نص إلى هذه المسألة أئمة العلماء أو أكثرهم وأين نصوصهم على ذلك؟ ثم إدخاله علم السحر فى عموم قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] فيه نظر؛ لأن هذه الآية إنما دلت على مدح العالمين العلم الشرعى، ولم قلت إن هذا منه؟ ثم ترقيه إلى وجوب تعلمه بأنه لا يحصل العلم بالمعجز إلا به، ضعيف بل فاسد، لأن أعظم معجزات رسولنا عليه الصلاة والسلام هى القرآن العظيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. ثم إن العلم بأنه معجز لا يتوقف على علم السحر أصلاً، ثم من المعلوم بالضرورة أن الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين وعامتهم، كانوا يعلمون المعجز، ويفرقون بينه وبين غيره، ولم يكونوا يعلمون السحر ولا تعلموه ولا علموه، والله أعلم.

ثم ذكر أبو عبد الله الرازى، أن أنواع السحر ثمانية:

(الأول) سحر الكدانيين والكشدانيين، الذين كانوا يعبدون الكواكب السبعة المتحيرة، وهى السيارة، وكانوا يعتقدون أنها مدبرة العالم، وأنها تأتى بالخير والشر، وهم الذين بعث الله إليهم إبراهيم الخليل ﷺ مبطلاً لمقالتهم وردًّا لمذهبهم، وقد استقصى فى (كتاب السر المكتوم، فى مخاطبة الشمس والنجوم) المنسوب إليه، كما ذكرها القاضى ابن خلكان وغيره، ويقال إنه تاب منه، وقيل بل صنفه على وجه إظهار الفضيلة، لا على سبيل الاعتقاد، وهذا هو المظنون به، إلا أنه ذكر فيه طرائقهم فى مخاطبة كل من هذه الكواكب السبعة وكيفية ما يفعلون وما يلبسونه وما يتمسكون به.

قال (والنوع الثانى) سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية، ثم استدل على أن الوهم له تأثير بأن الإنسان يمكنه أن يمشى على الجسر الموضوع على وجه الأرض، ولا يمكنه المشى عليه إذا كان ممدودًا على نهر أو نحوه، قال: وكما أجمعت الأطباء على نهى المرعوف عن النظر إلى الأشياء الحمر، والمصروع إلى الأشياء القوية اللمعان أو الدوران، وما ذلك إلا لأن النفوس خلقت مطيعة للأوهام. قال: وقد اتفق العقلاء على أن الإصابة بالعين حق - وله أن يستدل على ذلك بما ثبت فى

---

(١) سبق تخريجه

(٢) ضعيف: النسائي (٤٠٧٩)، من حديث أبى هريرة في سنده: عباد بن ميسرة، وهو لين الحديث وفيه انقطاع أيضًا بين الحسن وأبي هريرة، فالحسن لم يسمع من أبي هريرة عند الجمهور. انظر: ميزان الاعتدال (٤/ ٤٣، ٤٤).

الصحيح[١] أن رسول الله ﷺ قال: «العين حق ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين» - قال: فإذا عرفت هذا فنقول: النفس التى تفعل هذه الأفاعيل قد تكون قوية جدًّا فتستغنى فى هذه الأفاعيل عن الاستعانه بالآلات والأدوات، وقد تكون ضعيفة فتحتاج إلى الاستعانة بهذه الآلات، وتحقيقه أن النفس إذا كانت مستعلية عن البدن شديدة الانجذاب إلى عالم السماوات صارت كأنها روح من الأرواح السماوية، فكانت قوية على التأثير فى مواد هذا العالم، وإذا كانت ضعيفة شديدة التعلق بهذه الذات البدنية، فحينئذ لا يكون لها تصرف البتة إلا فى هذا البدن، ثم أرشد إلى مداواة هذا الداء بتقليل الغذاء، والانقطاع عن الناس والرياضة قلت: وهذا الذى يشير إليه هو التصرف بالحال، وهو على قسمين، تارة تكون حالاً صحيحة شرعية يتصرف بها فيما أمر الله تعالى ورسوله ﷺ، ويترك ما نهى الله ورسوله ﷺ، فهذه الأحوال مواهب من الله تعالى وكرامات للصالحين من هذه الأمة ولا يسمى هذا سحرًا فى الشرع. وتارة تكون الحال فاسدة لا يمتثل صاحبها ما أمر الله ورسوله ﷺ، ولا يتصرف بها فى ذلك، فهذه حال الأشقياء المخالفين للشريعة ولا يدل إعطاء الله إياهم هذه الأحوال على محبته لهم، كما أن الدجال له من الخوارق للعادات ما دلت عليه الأحاديث الكثيرة مع أنه مذموم شرعًا لعنه الله، وكذلك من شابهه من مخالفى الشريعة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، وبسط هذا يطول جدًّا وليس هذا موضعه.

قال (والنوع الثالث) من السحر، الاستعانة بالأرواح الأرضية وهم الجن خلافًا للفلاسفة والمعتزلة وهم على قسمين: مؤمنين، وكفار وهم الشياطين، وقال: واتصال النفوس الناطقة بها أسهل من اتصالها بالأرواح السماوية لما بينها من المناسبة والقرب، ثم إن أصحاب الصنعة وأرباب التجربة شاهدوا أن الاتصال بهذه الأرواح الأرضية يحصل بها أعمال سهلة قليلة من الرقى والدخن والتجريد، وهذا النوع هو المسمى بالعزائم وعمل التسخير.

(النوع الرابع) من السحر التخييلات والأخذ بالعيون والشعبذة، ومبناه على أن البصر قد يخطىء ويشتغل بالشيء المعين دون غيره؛ ألا ترى أن المشعبذ الحاذق يظهر عمل شيء يذهل أذهان الناظرين به ويأخذ عيونهم إليه؛ حتى إذا استفرغهم الشغل بذلك الشيء بالتحديق ونحوه عمل شيئًا آخر عملاً بسرعة شديدة، وحينئذ يظهر لهم شيئًا آخر غير ما انتظروه فيتعجبون منه جدًّا ولو أنه سكت ولم يتكلم بما يصرف الخواطر إلى ضد ما يريد أن يعلمه، ولم تتحرك النفوس والأوهام إلى غير ما يريد إخراجه، لفطن الناظرون لكل ما يفعله (قال): وكلما كانت الأحوال تفيد حسن البصر نوعًا من أنواع الخلل أشد، كان العمل أحسن مثل أن يجلس المشعبذ فى موضع مضيء جدًّا أو مظلم فلا تقف القوة الناظرة على أحوالها بكلالها والحالة هذه.

(قُلْتُ) وقد قال بعض المفسرين: إن سحر السحرة بين يدى فرعون إنما كان من باب الشعبذة ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾[الأعراف: ١١٦] وقال تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾[طه: ٦٦] قالوا: ولم تكن تسعى فى نفس الأمر، والله أعلم.

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٨٨)، من حديث ابن عباس.

(النوع الخامس من السحر) : الأعمال العجيبة التى تظهر من تركيب آلالات المركبة على النسب الهندسية كفارس على فرس فى يده بوق، كلما مضت ساعة من النهار ضرب بالبوق، من غير أن يمسه أحد - ومنها الصور التى تصورها الروم والهند حتى لا يفرق الناظر بينها وبين الإنسان حتى يصوروها ضاحكة وباكية، إلى أن قال: فهذه الوجوه من لطيف أمور المخاييل، قال: وكان سحر سحرة فرعون من هذا القبيل.

(قُلْتُ) يعنى ما قاله بعض المفسرين: إنهم عمدوا إلى تلك الحبال والعصى فحشوها زئبقًا فصارت تتلوى بسبب ما فيها من ذلك الزئبق، فيخيل إلى الرائى أنها تسعى باختيارها، قال الرازى: ومن هذا الباب تركيب صندوق الساعات، ويندرج فى هذا الباب علم جر الأثقال بالآلات الخفيفة قال: وهذا فى الحقيقة لا ينبغى أن يعد من باب السحر لأن لها أسبابًا معلومة يقينية من اطلع عليها قدر عليها.

(قُلْتُ): ومن هذا القبيل حيل النصارى على عامتهم بما يرونهم إياه من الأنوار كقضية قمامة الكنيسة التى لهم ببلد القدس، وما يحتالون به من إدخال النار خفية إلى الكنيسة وإشعال ذلك القنديل بصنعة لطيفة تروج على العوام منهم. وأما الخواص فهم معترفون بذلك، ولكن يتأولون أنهم يجمعون شمل أصحابهم على دينهم، فيرون ذلك سائغًا لهم. وفيهم شبهة للجهلة الأغبياء من متعبدى الكرامية الذين يرون جواز وضع الأحاديث فى الترغيب والترهيب فيدخلون فى عداد من قال رسول الله ﷺ فيهم: «من كذب على متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار»[1] وقوله: «حدثوا عنى ولا تكذبوا على فإنه من يكذب على يلج النار»[2] ثم ذكر ههنا حكاية عن بعض الرهبان وهو أنه سمع صوت طائر حزين الصوت ضعيف الحركة، فإذا سمعته الطيور ترق له فتذهب فتلقى فى وكره من ثمر الزيتون ليتبلغ به، فعمد هذا الراهب إلى صنعة طائر على شكله وتوصل إلى أن جعله أجوف فإذا دخلته الريح يسمع منه صوت كصوت الطائر، وانقطع فى صومعة ابتناها، وزعم أنها على قبر بعض صالحيهم، وعلق ذلك الطائر فى مكان منها، فإذا كان زمان الزيتون فتح بابًا من ناحيته فيدخل الريح إلى داخل هذه الصورة، فيسمع صوتها كل طائر فى شكله أيضًا، فتأتى الطيور فتحمل من الزيتون شيئًا كثيرًا، فلا ترى النصارى إلا ذلك الزيتون فى هذه الصومعة ولا يدرون ما سببه، ففتنهم بذلك وأوهم أن هذا من كرامات صاحب هذا القبر، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة.

(قال الرازى: النوع السادس من السحر) الاستعانة بخواص الأدوية يعنى فى الأطعمة والدهانات قال: واعلم أنه لا سبيل إلى إنكار الخواص فإن تأثير المغناطيس مشاهد.

(قُلْتُ): يدخل فى هذا القبيل كثير ممن يدعى الفقر ويتحيل على جهلة الناس بهذه الخواص مدعيًا أنها أحوال له من مخالطة النيران ومسك الحيات إلى غير ذلك من المحالات.

قال (النوع السابع من السحر) التعليق للقلب، وهو أن يدعى الساحر أنه عرف الاسم الأعظم وأن الجن يطيعونه وينقادون له فى أكثر الأمور، فإذا اتفق أن يكون السامع لذلك ضعيف العقل قليل التمييز

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٧) من حديث الزبير، و(١١٠) من حديث أبي هريرة، مسلم (٢، ٣، ٤) من حديث أنس وأبي هريرة والمغيرة.

(٢) أخرجه البخاري (١٠٦)، مسلم (١) من حديث على بن أبي طالب.

اعتقد أنه حق وتعلق قلبه بذلك، وحصل فى نفسه نوع من الرعب والمخافة، فإذا حصل الخوف ضعفت القوى الحساسة فحينئذ يتمكن الساحر أن يفعل ما يشاء.

(قُلْتُ) هذا النمط يقال له: التنبلة وإنما يروج على ضعفاء العقول من بنى آدم. وفى علم الفراسة ما يرشد إلى معرفة كامل العقل من ناقصه، فإذا كان المتنبل حاذقًا فى علم الفراسة عرف من ينقاد له من الناس من غيره.

قال (النوع الثامن من السحر) السعى بالنميمة والتقريب من وجوه خفيفة لطيفة وذلك شائع فى الناس.

(قُلْتُ) النميمة على قسمين تارة تكون على وجه التحريش بين الناس وتفريق قلوب المؤمنين، فهذا حرام متفق عليه، فأما إن كانت على وجه الإصلاح بين الناس وائتلاف كلمة المسلمين كما جاء فى الحديث «ليس بالكذاب من ينم خيرًا» (١) أو يكون على وجه التخزيل والتفريق بين جموع الكفرة، فهذا أمر مطلوب كما جاء فى الحديث «الحرب خدعة» (٢)، وكما فعل نعيم بن مسعود فى تفريق كلمة الأحزاب وبنى قريظة: جاء إلى هؤلاء فنمى إليهم عن هؤلاء كلامًا، ونقل من هؤلاء إلى أولئك شيئًا آخر، ثم لأم بين ذلك فتناكرت النفوس وافترقت، وإنما يحذو على مثل هذا الذكاء ذو البصيرة النافذة والله المستعان. ثم قال الرازى: فهذه جملة الكلام فى أقسام السحر وشرح أنواعه وأصنافه.

(قُلْتُ) وإنما أدخل كثيرًا من هذه الأنواع المذكورة فى فن السحر، للطافة مداركها، لأن السحر فى اللغة عبارة عما لطف وخفى بسببه، ولهذا جاء فى الحديث «إن من البيان لسحرًا» (٣)، وسمى السحور لكونه يقع خفيًا آخر الليل، والسحر: الرئة، وهى محل الغذاء وسميت بذلك لخفائها ولطف مجاريها إلى أجزاء البدن وغضونه، كما قال أبو جهل يوم بدر لعتبة: انتفخ سحر أى انتفخت رئته من الخوف. وقالت عائشة رضى الله عنها: توفى رسول الله ﷺ بين سحرى ونحرى (٤)، وقال تعالى: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف: ١١٦] أى أخفوا عنهم عملهم، والله أعلم.

وقال أبو عبد الله القرطبى: وعندنا أن السحر حق وله حقيقة يخلق الله عنده ما يشاء خلافًا للمعتزلة وأبى إسحاق الإسفرايني من الشافعية حيث قالوا: إنه تمويه وتخييل، قال: ومن السحر ما يكون بخفة اليد كالشعوذة، والشعوذى: البريد لخفة سيره، قال ابن فارس: وليست هذه الكلمة من كلام أهل البادية، قال القرطبى: ومنه ما يكون كلامًا يحفظ ورقى من أسماء الله تعالى، وقد يكون من عهود الشياطين ويكون أدوية وأدخنة وغير ذلك، قال: وقوله عليه السلام: «إن من البيان لسحرًا» (٥) يحتمل أن يكون مدحًا كما تقول طائفة، ويحتمل أن يكون ذمًا للبلاغة قال: وهذا أصح، قال لأنها تصوب الباطل حتى توهم السامع أنه حق كما قال عليه الصلاة والسلام: «فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له» (٦) الحديث.

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٢)، مسلم (٢٦٠٥)، من حديث أم كلثوم بنت عقبة.
(٢) أخرجه البخاري (٣٠٣٠)، مسلم (١٧٣٩)، من حديث جابر رضي الله عنه.
(٣) أخرجه البخاري (٥١٤٦)، من حديث ابن عمر، مسلم بنحوه (٨٦٩)، من حديث عمّار.
(٤) أخرجه البخاري (٤٤٥١)، مسلم (٢٤٤٣)، من حديث عائشة.
(٥) سبق تخريجه.
(٦) أخرجه البخاري (٢٦٨٠)، مسلم (١٧١٣)، من حديث أم سلمة.

(فصل) وقد ذكر الوزير أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة رحمه الله فى كتابه (الإشراف على مذاهب الأشراف) بابًا فى السحر فقال: أجمعوا على أن السحر له حقيقة إلا أبا حنيفة فإنه قال: لا حقيقة له عنده، واختلفوا فيمن يتعلم السحر ويستعمله، فقال أبو حنيفة ومالك وأحمد، يكفر بذلك. ومن أصحاب أبى حنيفة من قال: إن تعلمه ليتقيه أو ليجتنبه فلا يكفر، ومن تعلمه معتقدًا جوازه أو أنه ينفعه كفر، وكذا من اعتقد أن الشياطين تفعل له ما يشاء فهو كافر. وقال الشافعى رحمه الله: إذا تعلم السحر قلنا له: صف لنا سحرك فإن وصف ما يوجب الكفر مثل ما اعتقده أهل بابل من التقرب إلى الكواكب السبعة وأنها تفعل ما يلتمس منها فهو كافر، وإن كان لا يوجب الكفر فإن اعتقد إباحته فهو كافر، قال ابن هبيرة: وهل يقتل بمجرد فعله واستعماله؟ فقال مالك وأحمد: نعم، وقال الشافعى وأبو حنيفة: لا، فأما إن قتل بسحره إنسانًا فإنه يقتل عند مالك والشافعى وأحمد. وقال أبو حنيفة: يقتل حتى يتكرر منه ذلك، أو يقر بذلك فى حق شخص معين، وإذا قتل فإنه يقتل حدًّا عندهم إلا الشافعى فإنه قال: يقتل والحالة هذه قصاصًا قال: وهل إذا تاب الساحر تقبل توبته؟ فقال مالك وأبو حنيفة وأحمد فى المشهور عنهم: لا تقبل، وقال الشافعى وأحمد فى الرواية الأخرى تقبل، وأما ساحر أهل الكتاب فعند أبى حنيفة أنه يقتل كما يقتل الساحر المسلم، وقال مالك وأحمد والشافعى: لا يقتل، يعنى لقصة لبيد بن الأعصم، واختلفوا فى المسلمة الساحرة، فعند أبى حنيفة أنها لا تقتل ولكن تحبس، وقال الثلاثة حكمها حكم الرجل، والله أعلم. وقال أبو بكر الخلال: أخبرنا أبو بكر المروزى قال: قرأ على أبى عبد الله - يعنى أحمد بن حنبل - عمر بن هارون حدثنا يونس عن الزهرى قال: يقتل ساحر المسلمين ولا يقتل ساحر المشركين؛ لأن رسول الله ﷺ سحرته امرأة من اليهود فلم يقتلها. وقد نقل القرطبى عن مالك رحمه الله، أنه قال فى الذمى: يقتل إن قتل سحره، وحكى ابن خويز منداد عن مالك روايتين فى الذمى إذا سحر: إحداهما أنه يستتاب فإن أسلم وإلا قتل، والثانية أنه يقتل وإن أسلم، وأما الساحر المسلم فإن تضمن سحره كفرًا كفر عند الأئمة الأربعة وغيرهم لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾. لكن قال مالك: إذا ظهر عليه لم تقبل توبته لأنه كالزنديق فإن تاب قبل أن يظهر عليه وجاءنا تائبًا قبلناه، فإن قتل سحره قتل، قال الشافعى: فإن قال لم أتعمد القتل فهو مخطئ تجب عليه الدية.

(مسألة) وهل يسئل الساحر حلاًّ لسحره فأجاز سعيد بن المسيب فيما نقله عنه البخارى، وقال عامر الشعبى: لا بأس بالنشرة وكره ذلك الحسن البصرى، وفى الصحيح[1] عن عائشة أنها قالت: يا رسول الله هلا تنشرت، فقال: «أما الله فقد شفانى وخشيت أن أفتح على الناس شرًا» وحكى القرطبى عن وهب: أنه قال يؤخذ سبع ورقات من سدر فتدق بين حجرين ثم تضرب بالماء ويقرأ عليها آية الكرسى ويشرب منها المسحور ثلاث حسوات ثم يغتسل بباقيه فإنه يذهب ما به، وهو جيد للرجل الذى يؤخذ عن امرأته.

(قُلْتُ) أنفع ما يستعمل لإذهاب السحر ما أنزل الله على رسوله فى ذهاب ذلك وهما المعوذتان،

---

(١) أخرجه البخاري، (٥٧٦٦)، ومسلم، (٢١٨٩).

وفى الحديث «لم يتعوذ المتعوذ بمثلهما» [١] وكذلك قراءة آية الكرسى فإنها مطردة للشياطين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾

نهى الله تعالى عباده المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين فى مقامهم وفعالهم، وذلك أن اليهود كانوا يعانون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنقيص، عليهم لعائن الله فإذا أرادوا أن يقولوا اسمع لنا يقولون راعنا ويورون بالرعونة كما قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٤٦]، وكذلك جاءت الأحاديث بالأخبار عنهم بأنهم كانوا إذا سلموا إنما يقولون السام عليكم، والسام هو الموت، ولهذا أمرنا أن نرد عليهم بـ «وعليكم» [٢]، وإنما يستجاب لنا فيهم ولا يستجاب لهم فينا، والغرض أن الله تعالى نهى المؤمنين عن مشابهة الكافرين قولاً وفعلاً، فقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾.

وقال الإمام أحمد [٣]: أخبرنا أبو النضر أخبرنا عبد الرحمن بن ثابت أخبرنا حسان بن عطية، عن أبى منيب الجرشى عن ابن عمر رضى الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: **«بعثت بين يدى الساعة بالسيف حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقى تحت ظل رمحى، وجعلت الذلة والصغار على من خالف أمرى ومن تشبه بقوم فهو منهم»**. وروى أبو داود [٤] عن عثمان بن أبى شيبة عن أبى النضير هاشم أخبرنا ابن القاسم به «من تشبه بقوم فهو منهم» ففيه دلالة على: النهى الشديد والتهديد والوعيد على التشبه بالكفار فى أقوالهم وأفعالهم ولباسهم وأعيادهم وعباداتهم وغير ذلك من أمورهم التى لم تشرع لنا ولا نقر عليها. وقال ابن أبى حاتم: أخبرنا أبى أخبرنا نعيم بن حماد أخبرنا عبد الله بن المبارك أخبرنا مسعر عن ابن معن وعون أو أحدهما أن رجلاً أتى عبد الله بن مسعود فقال اعهد إلى، فقال: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فأرعها سمعك فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه. وقال الأعمش عن خيثمة قال ما تقرءون فى القرآن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فإنه فى التوراة يا أيها المساكين. وقال محمد بن إسحاق: حدثنى محمد بن أبى محمد عن سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس ﴿رَٰعِنَا﴾ أى أرعنا سمعك.

وقال الضحاك عن ابن عباس ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا﴾ قال: كانوا يقولون

---

(١) صحيح: أخرجه النسائي في «الكبرى»، (٤/ ٤٣٧)، وأحمد بنحوه، (١٦٨٩٩)، والحديث بنحو مشابه عند مسلم، (٨١٤)، من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه، انظر صحيح الجامع الصغير، (٧٩٤٩).

(٢) أخرجه البخاري، (٦٢٥٨)، ومسلم، (٢١٦٣)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) صحيح: أخرجه أحمد (٥٠٩٤)، انظر صحيح الجامع الصغير (٢٨٣١).

(٤) حسن صحيح، وهو جزء من الحديث السابق وقد أخرجه أبو داود (٤٠٣١)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

للنبى ﷺ: أرعنا سمعك وإنما راعنا كقولك عاطنا. وقال ابن أبى حاتم وروى عن أبى العالية وأبى مالك والربيع بن أنس، وعطية العوفى وقتادة نحو ذلك، وقال مجاهد: ﴿لَا تَقُولُوا رَٰعِنَا﴾ لا تقولوا خلافًا، وفى رواية لا تقولوا اسمع منا ونسمع منك. وقال عطاء لا تقولوا ﴿رَٰعِنَا﴾، كانت لغة تقولها الأنصار، فنهى الله عنها، وقال الحسن: ﴿لَا تَقُولُوا رَٰعِنَا﴾، قال الراعن من القول السخرى منه، نهاهم الله أن يسخروا من قول محمد ﷺ، وما يدعوهم إليه من الإسلام. وكذا روى عن ابن جريج، أنه قال مثله، وقال أبو صخر: ﴿لَا تَقُولُوا رَٰعِنَا وَقُولُوا ٱنظُرْنَا﴾ قال: كان رسول الله ﷺ، إذا أدبر ناداه من كانت له حاجة من المؤمنين، فيقول أرعنا سمعك، فأعظم الله رسوله ﷺ أن يقال ذلك له. وقال السدى: كان رجل من اليهود من بنى قينقاع يدعى رفاعة بن زيد يأتى النبى ﷺ فإذا لقيه فكلمه قال: أرعنى سمعك واسمع غير مسمع، وكان المسلمون يحسبون أن الأنبياء كانت تفخم بهذا، فكان ناس منهم يقولون: اسمع غير مسمع غير صاغر، وهى كالتى فى سورة النساء، فتقدم الله إلى المؤمنين أن لا يقولوا راعنا وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم بنحو من هذا. قال ابن جرير: والصواب من القول فى ذلك عندنا أن الله نهى المؤمنين أن يقولوا لنبيه ﷺ، لأنها كلمة كرهها الله تعالى أن يقولها لنبيه ﷺ، نظير الذى ذكر عن النبى ﷺ أنه قال: «**لا تقولوا للعنب الكرم ولكن قولوا الحبلة**[1] **ولا تقولوا عبدى ولكن قولوا فتاى**»[2] وما أشبه ذلك. وقوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يبين بذلك تعالى شدة عداوة الكافرين من أهل الكتاب والمشركين، الذين حذر الله تعالى من مشابهتهم للمؤمنين، ليقطع المودة بينهم وبينهم، ونبه تعالى على ما أنعم به على المؤمنين من الشرع التام الكامل الذى شرعه لنبيهم محمد ﷺ، حيث يقول تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

نصف الحزب ٢

﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾

قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ ما نبدل من آية، وقال ابن جريج عن مجاهد ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ أى ما نمحو من آية، وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ قال نثبت خطها ونبدل حكمها، حدث به عن أصحاب عبد الله بن مسعود رضى الله عنهم. وقال ابن أبى حاتم: وروى عن أبى العالية ومحمد بن كعب القرظى نحو ذلك، وقال الضحاك ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ ما ننسك، وقال عطاء أما ﴿مَا نَنسَخْ﴾، فما نترك من القرآن. وقال ابن أبى حاتم: يعنى ترك فلم ينزل على محمد ﷺ. وقال السدى ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ نسخها قبضها وقال ابن أبى حاتم: يعنى قبضها ورفعها، مثل قوله «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة»[3]، وقوله «**لو كان لابن آدم واديان**

---

(١) أخرجه مسلم، (٢٢٤٨)، والدارمي، (٢١١٤)، من حديث وائل بن حجر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٢٥٥٢)، ومسلم، (٢٢٤٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) صحيح: أخرجه النسائي في «الكبرى»، (٧١٤٥)، وأحمد (٢١٠٨٦)، من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه، انظر السلسلة الصحيحة (٢٩١٣).

من ذهب لابتغى لهما ثالثًا»[1] وقال ابن جرير: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾، ما ننقل من حكم آية إلى غيره، فنبدله ونغيره، وذلك أن نحول الحلال حرامًا، والحرام حلالاً، والمباح محظورًا، والمحظور مباحًا، ولا يكون ذلك، إلا فى الأمر والنهى والحظر والإطلاق والمنع والإباحة، فأما الأخبار فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ، وأصل النسخ من نسخ الكتاب وهو نقله من نسخة إلى أخرى غيرها، فكذلك معنى نسخ الحكم إلى غيره إنما هو تحويله ونقل عبارة إلى غيرها وسواء نسخ حكمها أو خطها، إذ هى في كلتا حالتيها منسوخة. وأما علماء الأصول، فاختلفت عباراتهم فى حد النسخ والأمر فى ذلك قريب، لأن معنى النسخ الشرعى معلوم عند العلماء ولخصّ بعضهم أن رفع الحكم بدليل شرعى متأخر. فاندرج فى ذلك نسخ الأخف بالأثقل وعكسه والنسخ لا إلى بدله، وأما تفاصيل أحكام النسخ وذكر أنواعه وشروطه فمبسوطة، فى أصول الفقه. وقال الطبرانى: حدثنا أبو شبيل عبيد الله بن عبد الرحمن بن واقد، أخبرنا أبى أخبرنا العباس بن الفضل، عن سليمان بن أرقم عن الزهرى عن سالم عن أبيه قال: قرأ رجلان سورة أقرأهما رسول الله ﷺ، فكانا يقرآن بها، فقاما ذات ليلة يصليان، فلم يقدرا منها على حرف، فأصبحا غاديين إلى رسول الله ﷺ، فذكرا ذلك له، فقال رسول الله ﷺ: إنها مما نسخ وأنسى، فالهوا عنها، فكان الزهرى يقرؤها: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾، بضم النون الخفيفة، سليمان بن الأرقم ضعيف. وقد روى أبو بكر بن الأنبارى عن أبيه عن نصر بن داود عن أبى عبيد عن عبد الله بن صالح عن الليث عن يونس وعقيل عن ابن شهاب عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف، مثله مرفوعًا، ذكره القرطبى، وقوله تعالى: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾، فقرئ على وجهين، ننسأها وننسها، فأما من قرأها بفتح النون والهمزة بعد السين فمعناه نؤخرها. قال على بن أبى طلحة: عن ابن عباس، ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾، يقول ما نبدل من آية أو نتركها لا نبدلها، وقال مجاهد عن أصحاب ابن مسعود: أو ننسأها، نثبت خطها ونبدل حكمها، وقال عبد بن عمير ومجاهد وعطاء أو ننسأها، نؤخرها ونرجئها. وقال عطية العوفى: أو ننسأها، نؤخرها فلا ننسخها، وقال السدى: مثله أيضًا وكذا الربيع بن أنس، وقال الضحاك: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ ننسأها﴾، يعنى الناسخ والمنسوخ. وقال أبو العالية: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ ننسأها﴾ نؤخرها عندنا، وقال ابن أبى حاتم: أخبرنا عبيد الله بن إسماعيل البغدادى، أخبرنا خلف، أخبرنا الخفاف، عن إسماعيل يعنى ابن مسلم، عن حبيب بن أبى ثابت، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: خطبنا عمر رضى الله عنه، فقال: يقول الله عز وجل: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ ننسأها﴾، أى نؤخرها، وأما على قراءة ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾، فقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة فى قوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾، قال كان الله عز وجل: ينسى نبيه ﷺ ما يشاء، وينسخ ما يشاء.

وقال ابن جرير: أخبرنا سواد بن عبد الله، أخبرنا خالد بن الحارث، أخبرنا عوف، عن الحسن أنه قال: فى قوله: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ قال: إن نبيكم ﷺ، قرأ علينا قرآنًا ثم نسيه، وقال ابن أبى حاتم: أخبرنا أبى أخبرنا ابن نفيل، أخبرنا محمد بن الزبير الحرانى، عن الحجاج يعنى الجزرى عن عكرمة عن ابن

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٣٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ومسلم (١٠٤٨)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

عباس قال: كان مما ينزل على النبى ﷺ ، الوحى بالليل وينساه بالنهار، فأنزل الله عز وجل: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾، قال أبو حاتم: قال لى أبو جعفر بن نفيل، ليس هو الحجاج بن أرطاة هو شيخ لنا جزرى، وقال عبيد بن عمير: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ نرفعها من عندكم، وقال ابن جرير: حدثنى يعقوب بن إبراهيم، أخبرنا هشيم، عن يعلى بن عطاء عن القاسم بن ربيعة، قال سمعت سعد بن أبى وقاص يقرأ ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ قال: قلت له فإن سعيد بن المسيب يقرأ ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ قال: قال سعد: إن القرآن، لم ينزل على المسيب ولا على آل المسيب، قال: قال الله جل ثناؤه: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾[الأعلى: ٦] ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾[الكهف: ٢٤]، وكذا رواه عبد الرزاق عن هشيم، وأخرجه الحاكم فى مستدركه، من حديث أبى حاتم الرازى، عن آدم عن شعبة عن يعلى بن عطاء به، وقال على شرط الشيخين ولم يخرجاه. قال ابن أبى حاتم وروى عن محمد بن كعب وقتادة وعكرمة نحو قول سعيد.

وقال الإمام أحمد: أخبرنا يحيى أخبرنا سفيان الثورى: عن حبيب بن أبى ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، قال: قال عمر: على أقضانا وأبى أقرءونا، وإنا لندع من قول أبى، وذلك أن أبيا يقول: ما أدع شيئًا سمعته من رسول الله ﷺ ، والله يقول: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾، قال البخارى[1]: أخبرنا يحيى أخبرنا سفيان عن حبيب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، قال: قال عمر: أقرءونا أبى وأقضانا على، وإنا لندع من قول أبى، وذلك أن أبيا يقول: لا أدع شيئًا سمعته من رسول الله ﷺ ، وقد قال الله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ وقوله: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾، أى فى الحكم بالنسبة إلى مصلحة المكلفين، كما قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ ويقول خير لكم فى المنفعة وأرفق بكم. وقال أبو العالية: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ فلا نعمل بها ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾، أى نرجئها عندنا نأت بها أو نظيرها، وقال السدى ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ يقول: نأت بخير من الذى نسخناه أو مثل الذى تركناه. وقال قتادة: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ يقول: آية فيها تخفيف فيها رخصة فيها أمر فيها نهى، وقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، يرشد عباده تعالى بهذا، إلى أنه المتصرف فى خلقه، بما يشاء، فله الخلق والأمر وهو المتصرف، فكما خلقهم كما يشاء، ويسعد من يشاء، ويشقى من يشاء ويصح من يشاء ويمرض من يشاء، ويوفق من يشاء، ويخذل من يشاء كذلك يحكم فى عباده بما يشاء، فيحل ما يشاء ويحرم ما يشاء ويبيح ما يشاء ويحظر ما يشاء وهو الذى يحكم ما يريد لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، ويختبر عباده وطاعتهم لرسله بالنسخ، فيأمر بالشىء لما فيه من المصلحة التى يعلمها تعالى، ثم ينهى عنه لما يعلمه تعالى فالطاعة كل الطاعة فى امتثال أمره واتباع رسله فى تصديق ما أخبروا، وامتثال ما أمروا، وترك ما عنه زجروا وفى هذا المقام رد عظيم وبيان بليغ لكفر اليهود وتزييف شبهتهم لعنهم الله، فى دعوى استحالة النسخ، إما عقلاً كما زعمه بعضهم جهلاً وكفرًا، وإما نقلاً كما تخرصه آخرون منهم افتراء وإفكا.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٨١)، وأحمد (٢٠٥٨١).

قال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله: فتأويل الآية: ألم تعلم يا محمد، أن لى ملك السموات والأرض وسلطانها دون غيرى، أحكم فيهما وفيما فيهما بما أشاء، وآمر فيهما وفيما فيهما بما أشاء، وأنهى عما أشاء، وأنسخ وأبدل وأغير، من أحكامى التى أحكم بها فى عبادى، بما أشاء إذ أشاء، وأقر فيهما ما أشاء، ثم قال: وهذا الخبر وإن كان خطابًا من الله تعالى، لنبيه ﷺ على وجه الخبر، عن عظمته فإنه منه جل ثناؤه تكذيب لليهود، الذين أنكروا نسخ أحكام التوراة وجحدوا نبوة عيسى ومحمد عليهما الصلاة السلام، لمجيئهما بما جاءا به من عند الله، بتغيير ما غير الله من حكم التوراة، فأخبرهم الله أن له ملك السموات والأرض وسلطانهما، وأن الخلق أهل مملكته، وطاعته وعليهم السمع والطاعة لأمره ونهيه، وأن له أمرهم بما يشاء ونهيهم عما يشاء، ونسخ ما يشاء، وإقرار ما يشاء، وإنشاء ما يشاء من إقراره وأمره ونهيه.

(قُلْتُ) الذى يحمل اليهود على البحث فى مسألة النسخ، إنما هو الكفر والعناد، فإنه ليس فى العقل ما يدل على امتناع النسخ فى أحكام الله تعالى، لأنه يحكم ما يشاء، كما أنه يفعل ما يريد، مع أنه قد وقع ذلك فى كتبه المتقدمة وشرائعه الماضية، كما أحل لآدم تزويج بناته من بنيه، ثم حرم ذلك، وكما أباح لنوح، بعد خروجه من السفينة أكل جميع الحيوانات، ثم نسخ حل بعضها، وكان نكاح الأختين مباحًا لإسرائيل وبنيه، وقد حرم ذلك فى شريعة التوراة وما بعدها، وأمر إبراهيم عليه السلام بذبح ولده، ثم نسخه قبل الفعل، وأمر جمهور بنى إسرائيل بقتل من عبد العجل منهم، ثم رفع عنهم القتل كيلا يستأصلهم القتل، وأشياء كثيرة يطول ذكرها وهم يعترفون بذلك ويصدقون عنه وما يجاب به عن هذه الأدلة بأجوبة لفظية فلا يصرف الدلالة فى المعنى، إذ هو المقصود، وكما فى كتبهم مشهورًا من البشارة بمحمد ﷺ والأمر باتباعه، فإنه يفيد وجوب متابعته عليه الصلاة والسلام، وأنه لا يقبل عمل إلا على شريعته، وسواء قيل إن الشرائع المتقدمة مغيّاة إلى بعثته عليه السلام، فلا يسمى ذلك نسخًا لقوله: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وقيل: إنها مطلقة، وإن شريعة محمد ﷺ نسختها، فعلى كل تقدير فوجوب متابعته متعين، لأنه جاء بكتاب وهو آخر الكتب عهدًا بالله تبارك وتعالى، ففى هذا المقام بين تعالى جواز النسخ، ردًا على اليهود عليهم لعنة الله، حيث قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية، فكما أن له الملك بلا منازع، فكذلك له الحكم بما يشاء، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]وقرئ فى سورة آل عمران، التى نزل فى صدرها خطابًا مع أهل الكتاب، وقوع النسخ فى قوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ الآية [آل عمران: ٩٣]، كما سيأتى تفسيره والمسلمون كلهم متفقون على جواز النسخ فى أحكام الله تعالى، لما له فى ذلك من الحكمة البالغة، وكلهم قال بوقوعه، وقال أبو مسلم الأصبهانى المفسر: لم يقع شىء من ذلك فى القرآن، وقوله ضعيف مردود مرذول، وقد تعسف فى الأجوبة عما وقع من النسخ، فمن ذلك قضية العدة بأربعة أشهر وعشر بعد الحول، لم يجب عن ذلك بكلام مقبول، وقضية تحويل القبلة إلى الكعبة. عن بيت المقدس لم يجب بشىء، ومن ذلك نسخ مصابرة المسلم لعشرة من الكفرة إلى مصابرة الاثنين، ومن ذلك نسخ وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول ﷺ وغير ذلك، والله أعلم.

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُـُٔلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾

نهى الله تعالى المؤمنين فى هذه الآية الكريمة، عن كثرة سؤال النبى ﷺ عن الأشياء قبل كونها كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١] أى وإن تسألوا عن تفصيلها بعد نزولها تبين لكم، ولا تسألوا عن الشىء قبل كونه فلعله أن يحرم من أجل تلك المسألة، ولهذا جاء فى الصحيحين[١]: «إن أعظم المسلمين جرمًا من سأل عن شىء لم يحرم فحرم من أجل مسألته» ولما سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يجد مع امرأته رجلاً، فإن تكلم تكلم بأمر عظيم، وإن سكت سكت على مثل ذلك، فكره رسول الله ﷺ المسائل وعابها[٢]، ثم أنزل الله حكم الملاعنة، ولهذا ثبت فى الصحيحين[٣]، من حديث المغيرة بن شعبة: أن رسول الله ﷺ كان ينهى عن قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال. وفى صحيح مسلم[٤] **«ذرونى ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وإن نهيتكم عن شىء فاجتنبوه»** وهذا إنما قاله بعد ما أخبرهم، **«أن الله كتب عليهم الحج»**، فقال رجل أكل عام: يا رسول الله؟ فسكت عنه رسول الله ﷺ ثلاثا، ثم قال عليه السلام: **«لا، ولو قلت نعم لوجبت ولو وجبت لما استطعتم»**، ثم قال: «ذرونى ما تركتكم» الحديث، ولهذا قال أنس بن مالك: نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شىء، فكان يعجبنا أن يأتى الرجل من أهل البادية فيسأله ونحن نسمع[٥]. وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده: أخبرنا أبو كريب، أخبرنا إسحاق بن سليمان، عن أبى سنان عن أبى إسحاق عن البراء بن عازب، قال: إن كان ليأتى على السنة، أريد أن أسأل رسول الله ﷺ عن الشىء، فأتهيب منه وإن كنا لنتمنى الأعراب. وقال البزار: أخبرنا محمد بن المثنى، أخبرنا ابن فضيل عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، قال: ما رأيت قومًا خيرًا من أصحاب محمد ﷺ، ما سألوه إلا عن اثنتى عشرة مسألة كلها فى القرآن ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ [البقرة: ٢١٩] و ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ٢١٧] و ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، يعنى هذا وأشباهه[٦].

وَقَوْلُه تَعَالَى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُـُٔلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ [البقرة: ١٠٨] أى بل تريدون، أو هى على بابها فى الاستفهام، وهو إنكارى، وهو يعمّ المؤمنين والكافرين، فإنه عليه السلام رسول الله إلى الجميع، كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٩)، ومسلم (٢٣٥٨)، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري، (١٤٧٧)، ومسلم (٥٩٣).
(٣) أخرجه البخاري (٥٢٥٩)، ومسلم (١٤٩٢)، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.
(٤) أخرجه مسلم، (١٣٣٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٥) جزء من حديث أخرجه مسلم، (١٢).
(٦) **ضعيف**: أخرجه الدارمي (١٢٥)، وفيه عطاء بن السائب، اختلط ورواه عن محمد بن فضيل وجرير بن عبد الله وكلاهما ممن روى عنه بعد الاختلاط.

﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٣]، قال محمد بن إسحاق: حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد عن ابن عباس، قال: قال رافع بن حريملة ووهب بن زيد: يا محمد، ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرءوه، وفجر لنا أنهارًا نتبعك ونصدقك، فأنزل الله من قولهم، ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴿١٠٨﴾﴾.

وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ قال: قال رجل: يا رسول الله، لو كانت كفارتنا ككفارات بنى إسرائيل، فقال النبى ﷺ: «اللَّهم لا نبغيها - ثلاثًا - ما أعطاكم الله خير مما أعطى بنى إسرائيل، كانت بنو إسرائيل إذا أصاب أحدهم الخطيئة وجدها مكتوبة على بابه وكفارتها، فإن كفرها كانت له خزيًا فى الدنيا وإن لم يكفرها كانت له خزيًا فى الآخرة، فما أعطاكم الله خير مما أعطى بنى إسرائيل»، قال ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]، وقال «الصلوات الخمس ومن الجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن» وقال: «من هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه، وإن عملها كتبت سيئة واحدة، ومن همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة واحدة، وإن عملها كتبت له عشر أمثالها، ولا يهلك على الله إلا هالك»، فأنزل الله: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾، وقال مجاهد: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾، أن يريهم الله جهرة، قال: سألت قريش محمدًا ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبًا، قال: «نعم وهو لكم كالمائدة لبنى إسرائيل»، فأبوا ورجعوا، وعن السدى وقتادة نحو هذا، والله أعلم، والمراد أن الله ذم من سأل الرسول ﷺ عن شىء على وجه التعنت والاقتراح، كما سألت بنو إسرائيل موسى عليه السلام تعنتًا وتكذيبًا وعنادًا. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَٰنِ﴾، أى ومن يشتر الكفر بالإيمان ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السَّبِيلِ﴾ أى فقد خرج عن الطريق المستقيم إلى الجهل والضلال. وهكذا حال الذين عدلوا عن تصديق الأنبياء، واتباعهم والانقياد لهم إلى مخالفتهم وتكذيبهم، والاقتراح عليهم بالأسئلة التى لا يحتاجون إليها على وجه التعنت والكفر، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٨-٢٩]، وقال أبو العالية: يتبدل الشدة بالرخاء.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۖ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾

يحذر تعالى عباده المؤمنين عن سلوك طريق الكفار من أهل الكتاب، ويعلمهم بعداوتهم لهم فى الباطن والظاهر، وما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين، مع علمهم بفضلهم وفضل نبيهم، ويأمر عباده المؤمنين بالصفح والعفو والاحتمال، حتى يأتى أمر الله من النصر والفتح، ويأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ويحثهم على ذلك ويرغبهم فيه، كما قال محمد بن إسحاق: حدثنى محمد بن أبى محمد، عن سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس قال: كان حيى بن أخطب وأبو ياسر بن

أخطب، من أشد يهود للعرب حسدًا، إذ خصهم الله برسوله ﷺ، وكانا جاهدين فى رد الناس عن الإسلام ما استطاعا، فأنزل الله فيهما ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾ الآية. وقال عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى، فى قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ قال: هو كعب بن الأشرف.

وقال ابن أبى حاتم: أخبرنا أبى أخبرنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهرى، أخبرنى عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك، عن أبيه أن كعب بن الأشرف اليهودى كان شاعرًا، وكان يهجو النبى ﷺ، وفيه أنزل الله ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾ إلى قوله ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾، وقال الضحاك: عن ابن عباس، أن رسولاً أميًا يخبرهم بما فى أيديهم من الكتب والرسل والآيات، ثم يصدق بذلك كله مثل تصديقهم، ولكنهم جحدوا ذلك كفرًا وحسدًا وبغيًا، وكذلك قال الله تعالى: ﴿كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ يقول من بعد ما أضاء لهم الحق، لم يجهلوا منه شيئًا، ولكن الحسد حملهم على الجحود، فعيرهم ووبخهم ولامهم أشد الملامة، وشرع لنبيه ﷺ وللمؤمنين، ما هم عليه من التصديق والإيمان والإقرار بما أنزل الله عليهم، وما أنزل من قبلهم، بكرامته وثوابه الجزيل ومعونته لهم وقال الربيع بن أنس ﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ من قبل أنفسهم، وقال أبو العالية ﴿مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾، من بعد ما تبين أن محمدًا رسول الله، يجدونه مكتوبًا عندهم فى التوراة والإنجيل، فكفروا به حسدًا وبغيًا، إذ كان من غيرهم، وكذا قال قتادة والربيع بن أنس السدى، وقوله: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ [آل عمران: ١٨٦] الآية، قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله، ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾، نسخ ذلك قوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، وقوله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ٢٩]، إلى قوله ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]، فنسخ هذا عفوه عن المشركين، وكذا قال أبو العالية والربيع بن أنس وقتادة والسدى، إنها منسوخة بآية السيف، ويرشد إلى ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾، وقال ابن أبى حاتم[1] حدثنا أبى: أخبرنا أبو اليمان أخبرنا شعيب، عن الزهرى، أخبرنى عروة بن الزبير أن أسامة بن زيد أخبره قال: كان رسول الله ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب، كما أمرهم الله ويصبرون على الأذى. قال الله تعالى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وكان رسول الله ﷺ، يتأول من العفو ما أمره الله به، حتى أذن الله فيهم بالقتل، فقتل الله به من قتل من صناديد قريش، وهذا إسناده صحيح ولم أره فى شىء من الكتب الستة، ولكن له أصل فى الصحيحين عن أسامة بن زيد.

وَقَوْلُه تَعَالَى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾، يحثهم تعالى على الاشتغال بما ينفعهم، وتعود عليهم عاقبته يوم القيامة، من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، حتى يمكن لهم الله النصر فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ

---

(١) صحيح: أخرجه ابن أبى حاتم (١/٢٠٦)، والحديث أصله في الصحيحين: البخاري (٤٥٦٦)، ومسلم، (١٧٩٨)، وانظر فقه السيرة للألباني، ص (٢٣٨).

﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر: ٥٢]، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، يعنى أنه تعالى لا يغفل عن عمل عامل، ولا يضيع لديه سواء كان خيرًا أو شرًا، فإنه سيجازى كل عامل بعمله. وقال أبو جعفر بن جرير: فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، هذا الخبر من الله للذين خاطبهم بهذه الآيات من المؤمنين، إنهم مهما فعلوا من خير أو شر، سرًا وعلانية، فهو به بصير لا يخفى عليه منه شىء، فيجزيهم بالإحسان خيرًا، وبالإساءة مثلها، وهذا الكلام وإن كان قد خرج مخرج الخبر، فإن فيه وعدًا ووعيدًا وأمرًا وزجرًا، وذلك أنه أعلم القوم، أنه بصير بجميع أعمالهم، ليجدوا فى طاعته إذ كان ذلك مذخورًا لهم عنده، حتى يثيبهم عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، وليحذروا معصيته، قال: وأما قوله ﴿بَصِيرٌ﴾ فإنه مبصر، صرف إلى بصير، كما صرف مبدع إلى بديع، ومؤلم إلى أليم، والله أعلم. وقال ابن أبى حاتم: أخبرنا أبو زرعة، أخبرنا ابن بكير، حدثنى ابن لهيعة، عن يزيد بن أبى حبيب عن أبى الخير عن عقبة بن عامر، قال: سمعت رسول الله ﷺ، وهو يقرأ هذه الآية: سميع بصير، يقول «بكل شىء بصير».

﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

يبين تعالى اغترار اليهود والنصارى بما هم فيه، حيث ادعت كل طائفة من اليهود والنصارى، أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتها، كما أخبر الله عنهم فى سورة المائدة، أنهم قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨] فأكذبهم الله تعالى بما أخبرهم أنه معذبهم بذنوبهم، ولو كانوا كما ادعوا، لما كان الأمر كذلك، وكما تقدم من دعواهم، أنه لن تمسهم النار إلا أيامًا معدودة، ثم ينتقلون إلى الجنة، ورد عليهم تعالى فى ذلك، وهكذا قال لهم فى هذه الدعوى التى ادعوها بلا دليل ولا حجة ولا بينة، فقال: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾، وقال أبو العالية: أمانى تمنوها على الله بغير حق وكذا قال قتادة والربيع بن أنس ثم قال تعالى ﴿قُلْ﴾ أى يا محمد ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ قال أبو العالية ومجاهد والسدى والربيع بن أنس: حجتكم، وقال قتادة بينتكم على ذلك: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، أى فيما تدعونه، ثم قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، أى من أخلص العمل لله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ [آل عمران: ٢٠] الآية، وقال أبو العالية والربيع ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ يقول: من أخلص لله وقال سعيد بن جبير: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أخلص ﴿وَجْهَهُۥ﴾، قال دينه ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أى اتبع فيه الرسول ﷺ، فإن للعمل المتقبل شرطين: أحدهما أن يكون صوابًا خالصًا لله وحده، والآخر أن يكون صوابًا موافقًا للشريعة، فمتى كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يتقبل، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»، رواه مسلم[1]

(١) أخرجه مسلم، (١٧١٨).

من حديث عائشة عنه عليه الصلاة والسلام، فعمل الرهبان ومن شابههم، وإن فرض أنهم مخلصون فيه لله، فإنه لا يتقبل منهم، حتى يكون ذلك متابعًا للرسول ﷺ، المبعوث إليهم وإلى الناس كافة، وفيهم وأمثالهم قال الله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ [الغاشية: ٢-٥] وروى عن أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه، أنه تأولها فى الرهبان كما سيأتى، وأما إن كان العمل موافقًا للشريعة، فى الصورة الظاهرة، ولكن لم يخلص عامله القصد لله، فهو أيضًا مردود على فاعله، وهذا حال المرائين والمنافقين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٤-٧] ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠] وقال فى هذه الآية الكريمة: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، وقوله: ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، ضمن لهم تعالى على ذلك تحصيل الأجور، وآمنهم مما يخافونه من المحذور، ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلونه، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما مضى مما يتركونه، كما قال سعيد بن جبير، ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ يعنى فى الآخرة، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يعنى لا يحزنون للموت.

وَقَوْلُه تَعَالَى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، بين به تعالى تناقضهم وتباغضهم وتعاديهم وتعاندهم، كما قال محمد بن إسحاق: حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس، قال: لما قدم أهل نجران من النصارى، على رسول الله ﷺ، أتتهم أحبار يهود فتنازعوا عند رسول الله ﷺ، فقال رافع بن حريمله: ما أنتم على شىء، وكفر بعيسى وبالإنجيل، وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود: ما أنتم على شىء، وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة، فأنزل الله فى ذلك من قولهما: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، قال: إن كلا يتلو فى كتابه تصديق من كفر به، أن يكفر اليهود بعيسى وعندهم التوراة، فيها ما أخذ الله عليهم على لسان موسى بالتصديق بعيسى وفى الإنجيل ما جاء به عيسى بتصديق موسى، وما جاء من التوراة من عند الله وكل يكفر بما فى يد صاحبه، وقال مجاهد فى تفسير هذه الآية: قد كانت أوائل اليهود والنصارى على شىء، وقال قتادة: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ قال بلى، وقد كانت أوائل النصارى على شىء ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا، ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ قال: بلى، قد كانت أوائل اليهود على شىء، ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا، وعنه رواية أخرى كقول أبى العالية والربيع بن أنس فى تفسير هذه الآية: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ هؤلاء أهل الكتاب الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ، وهذا القول يقتضى، أن كلا من الطائفتين صدقت فيما رمت به الطائفة الأخرى، ولكن ظاهر سياق الآية يقتضى ذمهم فيما قالوه، مع علمهم بخلاف ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، أى وهم يعلمون شريعة

التوراة والإنجيل، كل منهما قد كانت مشروعة فى وقت، ولكنهم تجاحدوا فيما بينهم عنادًا وكفرًا ومقابلة للفاسد، كما تقدم عن ابن عباس ومجاهد وقتادة فى الرواية الأولى عنه فى تفسيرها، والله أعلم، وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾، بين بهذا جهل اليهود والنصارى فيما تقابلوا من القول وهذا من باب الإيماء والإشارة. وقد اختلف فيمن عنى بقوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فقال الربيع بن أنس وقتادة ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قالا: وقالت النصارى مثل قول اليهود وقيلهم.

وقال ابن جريج: قلت لعطاء من هؤلاء الذين لا يعلمون؟ قال أمم كانت قبل اليهود والنصارى وقبل التوراة والإنجيل وقال السدى كذلك ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فهم العرب، قالوا ليس محمد على شىء، واختار أبو جعفر بن جرير أنها عامة تصلح للجميع، وليس ثم دليل قاطع يعين واحدًا من هذه الأقوال، والحمل على الجميع أولى، والله أعلم وقوله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، أى أنه تعالى يجمع بينهم يوم المعاد، ويفصل بينهم بقضائه العدل، الذى لا يجور فيه ولا يظلم مثقال ذرة، وهذه الآية كقوله تعالى فى سورة الحج: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧]، وكما قال تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [سبأ: ٢٦].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾

اختلف المفسرون فى المراد من الذين منعوا مساجد الله وسعوا فى خرابها، على قولين: أحدهما ما رواه العوفى فى تفسيره عن ابن عباس، فى قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ قال: هم النصارى وقال مجاهد: هم النصارى كانوا يطرحون فى بيت المقدس الأذى ويمنعون الناس أن يصلوا فيه، وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن قتادة فى قوله: ﴿وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَا﴾. قال هو بختنصر وأصحابه، خرب بيت المقدس، وأعانه على ذلك النصارى. وقال سعيد عن قتادة: قال أولئك أعداء الله، النصارى حملهم بغض اليهود على أن أعانوا بختنصر البابلى المجوسى على تخريب بيت المقدس، وقال السدى: كانوا ظاهروا بختنصر على خراب بيت المقدس، حتى خربه وأمر أن تطرح فيه الجيف، وإنما أعانه الروم على خرابه، من أجل أن بنى إسرائيل قتلوا يحيى بن زكريا، وروى نحوه عن الحسن البصرى.

(القول الثانى)، ما رواه ابن جرير: حدثنى يونس بن عبد الأعلى حدثنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد فى قوله ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَا﴾، قال: هؤلاء المشركون الذين حالوا بين رسول الله ﷺ يوم الحديبية، وبين أن يدخلوا مكة، حتى نحر هديه بذى طوى، وهادنهم وقال لهم: «ما كان أحد يصد عن هذا البيت، وقد كان الرجل، يلقى قاتل أبيه وأخيه فلا يصده» فقالوا: لا يدخل علينا من قتل آباءنا يوم بدر وفينا باق، وفى قوله: ﴿وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَا﴾ قال إذ قطعوا من يعمرها بذكره ويأتيها للحج والعمرة. وقال ابن أبى حاتم ذكر عن سلمة قال: قال محمد بن إسحاق: حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس، أن قريشًا منعوا

النبى ﷺ الصلاة عند الكعبة فى المسجد الحرام، فأنزل الله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾، ثم اختار ابن جرير القول الأول، واحتج بأن قريشًا لم تسعَ فى خراب الكعبة، وأما الروم فسعوا فى تخريب بيت المقدس.

(قُلْتُ) والذى يظهر، والله أعلم، القول الثانى كما قاله ابن زيد. وروى عن ابن عباس، لأن النصارى إذا منعت اليهود الصلاة فى بيت المقدس، كان دينهم أقوم من دين اليهود، وكانوا أقرب منهم، ولم يكن ذكر الله من اليهود مقبولاً إذ ذاك، لأنهم لعنوا من قبل على لسان داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، وأيضًا فإنه تعالى، لما وجه الذم فى حق اليهود والنصارى، شرع فى ذم المشركين الذين أخرجوا الرسول ﷺ: وأصحابه من مكة، ومنعوهم من الصلاة فى المسجد الحرام، وأما اعتماده على أن قريشًا لم تسعَ فى خراب الكعبة، فأى خراب أعظم مما فعلوا؟ أخرجوا عنها رسول الله ﷺ وأصحابه، واستحوذوا عليها بأصنامهم وأندادهم وشركهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٧-١٨] وقال تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥] فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨]، فإذا كان من هو كذلك مطرودًا منها مصدودًا عنها، فأى خراب لها أعظم من ذلك؟ وليس المراد بعمارتها زخرفتها وإقامة صورتها فقط، إنما عمارتها بذكر الله فيها وإقامة شرعه فيها، ورفعها عن الدنس والشرك. وقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾، هذا خبر معناه الطلب، أى لا تمكنوا هؤلاء إذ قدرتم عليهم من دخولها، إلا تحت الهدنة والجزية، ولهذا لما فتح رسول الله ﷺ مكة، أمر من العام القابل فى سنة تسع أن ينادى برحاب منى: «**ألا لا يحجن بعد العام مشرك، ولا يطوفن بالبيت عريان، ومن كان له أجل فأجله إلى مدته**»[1]، وهذا إذا كان تصديقًا وعملاً بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨]، وقال بعضهم: ما كان ينبغى لهم أن يدخلوا مساجد الله إلا خائفين، على حال التهيب وارتعاد الفرائص من المؤمنين، أن يبطشوا بهم فضلاً أن يستولوا عليها ويمنعوا المؤمنين منها، والمعنى ما كان الحق والواجب إلا ذلك، لولا ظلم الكفرة وغيرهم وقيل إن هذا بشارة من الله للمسلمين، أنه سيظهرهم على المسجد الحرام وعلى سائر المساجد، وأنه يذل المشركين لهم، حتى لا يدخل المسجد الحرام أحد منهم، إلا خائفًا يخاف أن يُؤخذ فيعاقب أو يقتل، إن لم يسلم. وقد أنجز الله هذا الوعد، كما تقدم من منع المشركين من دخول المسجد الحرام، وأوصى رسول الله ﷺ، أن لا يبقى بجزيرة العرب دينان، وأن يجلى

(١) أخرجه البخاري، (٤٦٥٥)، ومسلم (١٣٤٧)، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

اليهود والنصارى منها، ولله الحمد والمنة. وما ذاك إلا تشريف أكناف المسجد الحرام، وتطهير البقعة التى بعث الله فيها رسوله إلى الناس كافة، بشيرًا ونذيرًا، صلوات الله وسلامه عليه، وهذا هو الخزى لهم فى الدنيا، لأن الجزاء من جنس العمل، فكما صدوا المؤمنين عن المسجد الحرام، صدوا عنه، وكما أجلوهم من مكة أجلوا عنها، ﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ على ما انتهكوا من حرمة البيت، وامتهنوه من نصب الأصنام حوله، ودعاء غير الله عنده، والطواف به عرْيًا وغير ذلك من أفاعيلهم التى يكرهها الله ورسوله، وأما من فسر بيت المقدس، فقال كعب الأحبار: إن النصارى لما ظهروا على بيت المقدس خربوه، فلما بعث الله محمدًا ﷺ أنزل عليه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ الآية، فليس فى الأرض نصرانى يدخل بيت المقدس إلا خائفًا، وقال السدى: فليس فى الأرض رومى يدخله اليوم إلا وهو خائف أن يضرب عنقه، أو قد أخيف بأداء الجزية، فهو يؤديها. وقال قتادة: لا يدخلون المساجد إلا مسارقة.

(قُلْتُ) وهذا لا ينفى أن يكون داخلاً فى معنى عموم الآية، فإن النصارى لما ظلموا بيت المقدس بامتهان الصخرة، التى كانت تصلى إليها اليهود، عوقبوا شرعًا وقدرًا بالذلة فيه، إلا فى أحيان من الدهر أشحن بهم بيت المقدس وكذلك اليهود لما عصوا الله فيه أيضًا، أعظم من عصيان النصارى، كانت عقوبتهم أعظم، والله أعلم. وفسر هؤلاء الخزى فى الدنيا. بخروج المهدى عند السدى وعكرمة ووائل بن داود، وفسره قتادة بأداء الجزية عن يد وهم صاغرون، والصحيح أن الخزى فى الدنيا أعم من ذلك كله، وقد ورد الحديث بالاستعاذة من خزى الدنيا وعذاب الآخرة، كما قال الإمام أحمد [1]: أخبرنا الهيثم بن خارجة، أخبرنا محمد بن أيوب بن ميسرة بن حلبس، سمعت أبى يحدث عن بشر بن أرطاة، قال كان رسول الله ﷺ يدعو: **«اللّهم أحسن عاقبتنا فى الأمور كلها وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة»** وهذا حديث حسن، وليس فى شىء من الكتب الستة، وليس لصحابيه وهو بشر بن أرطاة حديث سواه، وسوى حديث لا تقطع الأيدى فى الغزو [2].

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾

وهذا، والله أعلم، فيه تسلية للرسول ﷺ وأصحابه، الذين أخرجوا من مكة، وفارقوا مسجدهم ومصلاهم، وقد كان رسول الله ﷺ، يصلى بمكة إلى بيت المقدس والكعبة بين يديه، فلما قدم المدينة، وجه إلى بيت المقدس ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا، ثم صرفه الله إلى الكعبة بعد، ولهذا يقول تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾، قال أبو عبيد القاسم بن سلام فى كتاب الناسخ والمنسوخ: أخبرنا حجاج بن محمد أخبرنا ابن جريج وعثمان بن عطاء، عن عطاء عن ابن عباس قال: أول ما نسخ لنا من القرآن فيما ذكر لنا، والله أعلم، شأن القبلة. قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ فاستقبل رسول الله ﷺ، فصلى نحو بيت المقدس وترك البيت

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد (١٧١٧٦)، انظر السلسلة الضعيفة (٢٩٠٧).

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٤٠٨)، والترمذي (١٤٥٠)، والنسائي (٤٩٧٩)، والدارمي (٢٤٩٢)، انظر صحيح سنن أبي داود.

العتيق، ثم صرفه إلى بيته العتيق ونسخها. فقال ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٥٠] وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال: كان أول ما نسخ من القرآن القبلة [١]، وذلك أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة، وكان أهلها اليهود، أمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهرًا، وكان رسول الله ﷺ يحب قبلة إبراهيم، وكان يدعو وينظر إلى السماء، فأنزل الله ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ [البقرة: ١٤٤] إلى قوله ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤] فارتاب من ذلك اليهود، وقالوا: ﴿مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢]، فأنزل الله: ﴿قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ [البقرة: ١٤٢]، وقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ وقال عكرمة عن ابن عباس ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ قال: قبلة الله أينما توجهت شرقًا أو غربًا، وقال مجاهد ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ حيثما كنتم فلكم قبلة تستقبلونها الكعبة، وقال ابن أبى حاتم بعد رواية الأثر المتقدم عن ابن عباس فى نسخ القبلة عن عطاء عنه، وروى عن أبى العالية والحسن وعطاء الخراسانى وعكرمة وقتادة والسدى وزيد بن أسلم نحو ذلك، وقال ابن جرير وقال آخرون: بل أنزل الله هذه الآية قبل أن يفرض التوجه إلى الكعبة، وإنما أنزلها ليعلم نبيه ﷺ وأصحابه، أن لهم التوجه بوجوههم للصلاة حيث شاءوا من نواحى المشرق والمغرب، لأنهم لا يوجهون وجوههم وجهًا من ذلك وناحية، إلا كان جل ثناؤه فى ذلك الوجه وتلك الناحية، لأن له تعالى المشارق والمغارب وأنه لا يخلو منه مكان كما قال تعالى: ﴿وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧]، قالوا: ثم نسخ ذلك بالفرض الذى فرض عليهم التوجه إلى المسجد الحرام هكذا قال.

وفى قوله «وأنه تعالى لا يخلو منه مكان»، إن أراد علمَه تعالى فصحيح، فإن علمه تعالى محيط بجميع المعلومات، وأما ذاته تعالى فلا تكون محصورة فى شىء من خلقه، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

قال ابن جرير: وقال آخرون: بل نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ، إذنًا من الله أن يصلى المتطوع، حيث توجه من شرق أو غرب، فى مسيره فى سفره، وفى حال المسايفة وشدة الخوف. حدثنا أبو كريب، أخبرنا ابن إدريس، حدثنا عبد الملك هو ابن أبى سليمان، عن سعيد بن جبير عن ابن عمر، أنه كان يصلى حيث توجهت به راحلته، ويذكر أن رسول الله ﷺ، كان يفعل ذلك ويتأول هذه الآية ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾، ورواه مسلم والترمذى والنسائى [٢] وابن أبى حاتم وابن مردويه، من طرق عن عبد الملك بن أبى سليمان به، وأصله فى الصحيحين، من حديث ابن عمر وعامر بن ربيعة، من غير ذكر الآية. وفى صحيح البخارى [٣] من حديث نافع عن ابن عمر، وأنه كان

---

(١) صحيح لغيره، أخرجه ابن أبي حاتم (١/ ٢١٢)، والبيهقي في سننه، (٢/ ١٢)، والواحدي في «أسباب النزول»، (ص٢٤)، والحديث بمعناه في سنن النسائي (٣٤٩٩)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وانظر صحيح سنن النسائي.

(٢) أخرجه مسلم، (٧٠٠)، والترمذي (٢٩٥٨)، والنسائي (٧٤٣).

(٣) أخرجه البخاري (٤٥٣٥).

إذا سئل عن صلاة الخوف وصفها، ثم قال: فإن كان خوف أشد من ذلك، صلوا رجالاً قيامًا على أقدامهم وركبانًا مستقبلى القبلة وغير مستقبليها قال نافع: ولا أرى ابن عمر ذكر ذلك إلا عن النبى ﷺ.

(مسألة) ولم يفرق الشافعى فى المشهور عنه، بين سفر المسافة وسفر العدوى، فالجميع عنه يجوز التطوع فيه على الراحلة، وهو قول أبى حنيفة خلافًا لمالك وجماعته، واختار أبو يوسف وأبو سعيد الإصطخرى، التطوع على الدابة فى المصر، وحكاه أبو يوسف عن أنس بن مالك رضى الله عنه، واختاره أبو جعفر الطبرى، حتى للماشى أيضًا. قال ابن جرير وقال آخرون: بل نزلت الآية هذه فى قوم عميت عليهم القبلة، فلم يعرفوا شطرها فصلوا على أنحاء مختلفة، فقال الله تعالى: لى المشارق والمغارب فأين وليتم وجوهكم فهنالك وجهى وهو قبلتكم فيعلمكم بذلك أن صلاتكم ماضية. حدثنا محمد بن إسحاق الأهوازى، أخبرنا أبو أحمد الزبيرى أخبرنا أبو الربيع السمان، عن عاصم بن عبيد الله عن عبد الله بن عامر بن ربيعة، عن أبيه قال: كنا مع رسول الله ﷺ، فى ليلة سوداء مظلمة فنزلنا منزلاً، فجعل الرجل يأخذ الأحجار فيعمل مسجدًا يصلى فيه، فلما أن أصبحنا إذ نحن قد صلينا إلى غير القبلة، فقلنا يا رسول الله لقد صلينا ليلتنا هذه لغير القبلة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ الآية[1]، ثم رواه عن سفيان بن وكيع عن أبيه عن أبى الربيع السمان بنحوه. ورواه الترمذى عن محمود بن غيلان عن وكيع وابن ماجه عن يحيى بن حكيم عن أبى داود عن أبى الربيع السمان، ورواه ابن أبى حاتم عن الحسن بن محمد بن الصباح، عن سعيد بن سليمان عن أبى الربيع السمان، واسمه أشعث بن سعيد البصرى، وهو ضعيف الحديث، وقال الترمذى: هذا حديث حسن، وليس إسناده بذاك ولا نعرفه إلا من حديث الأشعث السمان، وأشعث يضعف فى الحديث. قلت وشيخه عاصم أيضًا ضعيف. قال البخارى منكر الحديث. وقال ابن معين: ضعيف لا يحتج به. وقال ابن حبان: متروك، والله أعلم.

وقد روى من طريق آخر، عن جابر فقال الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسير هذه الآية: أخبرنا إسماعيل بن على بن إسماعيل، أخبرنا الحسن بن على بن شبيب، حدثنى أحمد بن عبد الله بن الحسن، قال: وجدت فى كتاب أبى أخبرنا عبد الملك العرزمى عن عطاء عن جابر قال: بعث رسول الله ﷺ سرية كنت فيها فأصابتنا ظلمة، فلم نعرف القبلة، فقالت طائفة منا: قد عرفنا القبلة هى ههنا قبل الشمال فصلوا وخطوا خطوطًا فلما أصبحوا وطلعت الشمس أصبحت تلك الخطوط لغير القبلة، فلما قفلنا من سفرنا سألنا النبى ﷺ فسكت وأنزل الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ ثم رواه من حديث محمد بن عبيد الله العرزمى عن عطاء عن جابر به، وقال الدارقطنى قرئ على عبد الله بن عبد العزيز وأنا أسمع حدثكم داود بن عمرو أخبرنا محمد بن يزيد الواسطى عن محمد بن سالم عن عطاء عن جابر، قال: كنا مع رسول الله ﷺ فى مسير فأصابنا غيم فتحيرنا فاختلفنا فى القبلة فصلى كل رجل منا على حدة وجعل أحدنا يخط بين يديه لنعلم أمكنتنا فذكرنا ذلك للنبى ﷺ، فلم يأمرنا بالإعادة، وقال: قد أجزأت صلاتكم، ثم قال الدارقطنى: كذا قال عن

(١) حسن: أخرجه الترمذي (٣٤٥)، وابن ماجه، (١٠٢٠)، انظر صحيح جامع الترمذي.

محمد بن سالم، وقال غيره عن محمد بن عبيد الله العرزمى عن عطاء وهما ضعيفان، ورواه ابن مردويه أيضًا من حديث الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ بعث سرية فأخذتهم ضبابة فلم يهتدوا إلى القبلة فصلوا لغير القبلة ثم استبان لهم بعد أن طلعت الشمس أنهم صلوا لغير القبلة، فلما جاءوا إلى رسول الله ﷺ حدثوه فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ وهذه الأسانيد فيها ضعف، ولعله يشد بعضها بعضًا، وأما إعادة الصلاة لمن تبين له خطؤه ففيها قولان للعلماء وهذه دلائل على عدم القضاء، والله أعلم.

قال ابن جرير: وقال آخرون: بل نزلت هذه الآية بسبب النجاشى كما حدثنا محمد بن بشار، أخبرنا معاذ بن هشام حدثنى أبى عن قتادة أن النبى ﷺ، قال: إن أخًا لكم قد مات، فصلوا عليه، قالوا نصلى على رجل ليس بمسلم؟ قال: فنزلت ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٩٩] قال قتادة: فقالوا إنه كان لا يصلى إلى القبلة، فأنزل الله ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ وهذا غريب، والله أعلم، وقد قيل: إنه كان يصلى إلى بيت المقدس قبل أن يبلغه الناسخ إلى الكعبة، كما حكاه القرطبى عن قتادة، وذكر القرطبى أنه لما مات صلى عليه رسول الله ﷺ فأخذ بذلك من ذهب إلى الصلاة على الغائب، قال: وهذا خاص عند أصحابنا من ثلاثة أوجه - أحدهما - أنه عليه السلام، شاهده حين سُوِّى عليه طويت له الأرض. الثانى أنه لما لم يكن عنده من يصلى عليه صلى عليه واختاره ابن العربى قال القرطبى: ويبعد أن يكون ملك مسلم ليس عنده أحد من قومه على دينه، وقد أجاب ابن العربى عن هذا لعلهم لم يكن عندهم شرعية الصلاة على الميت. وهذا جواب جيد. الثالث أنه عليه الصلاة والسلام إنما صلى عليه ليكون ذلك كالتأليف لبقية الملوك، والله أعلم.

وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسير هذه الآية من حديث أبى معشر عن محمد بن عمرو بن علقمة عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «ما بين المشرق والمغرب قبلة لأهل المدينة وأهل الشام وأهل العراق» وله مناسبة ههنا وقد أخرجه الترمذى [1] وابن ماجه من حديث أبى معشر واسمه نجيح بن عبد الرحمن السدى المدنى به «ما بين المشرق والمغرب قبلة» وقال الترمذى وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة وتكلم بعض أهل العلم فى أبى معشر من قبل حفظه، ثم قال الترمذى: حدثنى الحسن بن بكر المروزى، أخبرنا المعلى بن منصور أخبرنا عبد الله بن جعفر المخرمى، عن عثمان بن محمد بن الأخنس عن أبى سعيد المقبرى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «ما بين المشرق والمغرب قبلة» ثم قال الترمذى: هذا صحيح، وحكى عن البخارى أنه قال: هذا أقوى من حديث أبى معشر وأصح، قال الترمذى: وقد روى عن غير واحد من الصحابة «ما بين المشرق والمغرب قبلة» منهم عمر بن الخطاب وعلى وابن عباس رضى الله عنهم أجمعين. وقال ابن عمر: إذا جعلت المغرب عن يمينك والمشرق عن يسارك فما بينهما قبلة، إذا استقبلت القبلة، ثم قال ابن مردويه: حدثنا على بن أحمد بن عبد الرحمن أخبرنا يعقوب بن يوسف مولى بنى هاشم، أخبرنا شعيب بن أيوب أخبرنا ابن نمير عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال:

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٤٢)، انظر صحيح جامع الترمذي.

«ما بين المشرق والمغرب قبلة» وقد رواه الدارقطني والبيهقي: وقال المشهور عن ابن عمر عن عمر رضي الله عنهما قوله قال ابن جرير ويحتمل فأينما تولوا وجوهكم في دعائكم لي فهنالك وجهي أستجيب لكم دعاءكم، كما حدثنا القاسم، أخبرنا الحسين حدثني حجاج قال، قال ابن جريج، قال مجاهد لما نزلت ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] قالوا إلى أين، فنزلت ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ قال ابن جرير: ومعنى قوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ يسع خلقه كلهم بالكفاية والجود والإفضال، وأما قوله ﴿عَلِيمٌ﴾ فإنه يعني عليم بأعمالهم ما يغيب عنه منها شيء ولا يعزب عن علمه بل هو بجميعها عليم.

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة والتي تليها على الرد على النصارى عليهم لعائن الله وكذا من أشبههم من اليهود ومن مشركي العرب ممن جعل الملائكة بنات الله فأكذب الله جميعهم في دعواهم وقولهم إن لله ولدًا، فقال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أي تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علوًا كبيرًا ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي ليس الأمر كما افتروا وإنما له ملك السموات والأرض ومن فيهنّ وهو المتصرف فيهم وهو خالقهم ورازقهم ومقدّرهم ومسخّرهم ومسيّرهم ومصرّفهم كما يشاء والجميع عبيد له وملك له فكيف يكون له ولد منهم والولد إنما يكون متولدًا من شيئين متناسبين وهو تبارك وتعالى ليس له نظير ولا مشارك في عظمته وكبريائه ولا صاحبة له فكيف يكون له ولد؟ كما قال تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١] وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٨-٩٥] وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١-٤].

فقرر تعالى في هذه الآيات الكريمة أنه السيد العظيم الذي لا نظير له ولا شبيه له وأن جميع الأشياء غيره مخلوقة له مربوبة فكيف يكون له منها ولد؟ ولهذا قال البخاري في تفسير هذه الآية من البقرة: أخبرنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب عن عبد الله بن أبي الحسين، حدثنا نافع بن جبير هو ابن مطعم عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «**قال الله تعالى كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فيزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي فقوله أن لي ولدًا فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولدًا**» انفرد به البخاري[1] من هذا الوجه وقال ابن مردويه حدثنا أحمد بن كامل أخبرنا محمد بن إسماعيل الترمذي، أخبرنا محمد بن إسحاق بن محمد الغروي أخبرنا مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ويقول الله تعالى كذبني ابن آدم وما ينبغي له أن يكذبني وشتمني وما ينبغي له أن يشتمني، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني. وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولدًا. وأنا الله الأحد الصمد ﴿لَمْ يَلِدْ

(١) أخرجه البخاري، (٤٤٨٢).

وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾» وفي الصحيحين [١] عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولدًا وهو يرزقهم ويعافيهم» وقوله: ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ قال ابن أبي حاتم: أخبرنا أبو سعيد الأشج، أخبرنا أسباط عن مطرف عن عطية عن ابن عباس قال: ﴿قَانِتُونَ﴾ مصلين، وقال عكرمة وأبو مالك: ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ مقرون له بالعبودية، وقال سعيد بن جبير: ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾، يقول الإخلاص، وقال الربيع بن أنس: يقول: ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ أي: قائم يوم القيامة، وقال السدي: ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ أي: مطيعون يوم القيامة، وقال خصيف عن مجاهد: ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ قال: مطيعون، قال كن إنسانًا فكان، وقال: كن حمارًا فكان، وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ مطيعون، قال: طاعة الكافر في سجود ظله وهو كاره، وهذا القول عن مجاهد وهو اختيار ابن جرير يجمع الأقوال كلها وهو أن القنوت والطاعة والاستكانة إلى الله وهو شرعي وقدري كما قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

وقد روى حديث فيه بيان القنوت في القرآن ما هو المراد به، كما قال ابن أبي حاتم: أخبرنا يوسف بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث أن دراجًا أبا السمح حدثه عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال: «**كل حرف من القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة**»، وكذا رواه الإمام أحمد [٢]: عن حسن بن موسى عن ابن لهيعة عن دراج بإسناده مثله، ولكن في هذا الإسناد ضعف لا يعتمد عليه، ورفع هذا الحديث منكر، وقد يكون من كلام الصحابي أو من دونه، وكثيرًا ما يأتي بهذا الإسناد تفاسير فيها نكارة فلا يغتر بها فإن السند ضعيف، والله أعلم.

وَقَوْلُه تَعَالَى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما على غير مثال سبق قال مجاهد والسدي: وهو مقتضى اللغة، ومنه يقال للشيء المحدث بدعة، كما جاء في صحيح مسلم [٣]: فإن كل محدثة بدعة، والبدعة على قسمين: تارة تكون بدعة شرعية، كقوله: «**فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة**»، وتارة تكون بدعة لغوية، كقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عن جمعه إياهم على صلاة التراويح واستمرارهم: نعمت البدعة هذه [٤]، وقال ابن جرير: وبديع السموات والأرض مبدعهما، وإنما هو مفعل فصرف إلى فعيل، كما صرف المؤلم إلى الأليم، والمسمع إلى السميع، ومعنى المبدع المنشئ والمحدث، ما لا يسبقه إلى إنشاء مثله وإحداثه أحد، قال: ولذلك سمي المبتدع في الدين، مبتدعًا لإحداثه فيه، ما لم يسبق إليه غيره، وكذلك كل محدث قولاً أو فعلاً، لم يتقدم فيه متقدم، فإن العرب تسميه مبتدعًا، ومن ذلك قول أعشى بن ثعلبة في مدح هوذة بن علي الحنفي:

يدعى إلى قول سادات الرجال إذا ... أبدوا له الحزم أو ما شاءه ابتدعا

أي يحدث ما شاء، قال ابن جرير: فمعنى الكلام سبحان الله أن يكون له ولد، وهو مالك ما في السموات والأرض تشهد له جميعها بدلالتها عليه بالوحدانية، وتقر له بالطاعة، وهو بارئها وخالقها

---

(١) أخرجه البخاري، (٦٠٩٩)، ومسلم (٢٨٠٤)، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) **ضعيف**: أخرجه أحمد (١١٣١٤)، انظر السلسلة الضعيفة، (٤١٠٥).

(٣) أخرجه مسلم، (٨٦٧)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه البخاري، (٢٠١٠).

وموجدها، من غير أصل ولا مثال احتذاها عليه، وهذا إعلام من الله لعباده، أن ممن يشهد له بذلك المسيح، الذى أضافوا إلى الله بنوته، وإخبار منه لهم، أن الذى ابتدع السموات والأرض من غير أصل، وعلى غير مثال، هو الذى ابتدع المسيح عيسى، من غير والد بقدرته، وهذا من ابن جرير رحمه الله كلام جيد وعبارة صحيحة. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ يبين بذلك تعالى كمال قدرته وعظيم سلطانه، وأنه إذا قدر أمرًا وأراد كونه، فإنما يقول له كن، أى: مرة واحدة فيكون، أى: فيوجد، على وفق ما أراد كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠] وقال الشاعر:

إذا ما أراد أمرًا فإنما ... يقول له كن قوله فيكون

ونبه بذلك أيضًا، على أن خلق عيسى بكلمة كن فكان كما أمره الله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾

قال محمد بن إسحاق: حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس، قال: قال رافع بن حريملة لرسول الله ﷺ: يا محمد إن كنت رسولاً من الله كما تقول، فقل لله فيكلمنا حتى نسمع كلامه فأنزل الله فى ذلك من قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾.

وقال مجاهد: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾، قال النصارى تقوله، وهو اختيار ابن جرير، قال: لأن السياق فيهم، وفى ذلك نظر، وحكى القرطبى: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾، أى: يخاطبنا بنبوتك يا محمد.

(قُلْتُ): وهو ظاهر السياق، والله أعلم، وقال أبو العالية والربيع بن أنس وقتادة والسدى فى تفسير هذه الآية: هذا قول كفار العرب ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾، قال: هم اليهود والنصارى، ويؤيد هذا القول، وأن القائلين ذلك هم مشركو العرب، قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤] الآية، قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١] الآية، وقوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ [المدثر: ٥٢] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على كفر مشركى العرب وعتوهم وعنادهم وسؤالهم ما لا حاجة لهم به، إنما هو الكفر والمعاندة، كما قال من قبلهم من الأمم الخالية من أهل الكتابين وغيرهم، كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ

لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، وقوله تعالى: ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أى أشبهت قلوب مشركى العرب قلوب من تقدمهم فى الكفر والعناد والعتو، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٣] الآية، وقوله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، أى قد أوضحنا الدلالات على صدق الرسل، بما لا يحتاج معها إلى سؤال آخر وزيادة أخرى لمن أيقن وصدق واتبع الرسل، وفهم ما جاءوا به عن الله تبارك وتعالى، وأما من ختم الله على قلبه وسمعه، وجعل على بصره غشاوة، فأولئك قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۙ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبى أخبرنا عبد الرحمن بن صالح أخبرنا عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الفزارى، عن شيبان النحوى، أخبرنى قتادة عن عكرمة عن ابن عباس عن النبى ﷺ، قال: «أنزلت على ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، قال: بشيرًا بالجنة ونذيرًا من النار»، وقوله: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ قراءة أكثرهم ولا تسأل بضم التاء، على الخبر وفى قراءة أبى بن كعب، وما تسأل، وفى قراءة ابن مسعود ولن تسأل عن أصحاب الجحيم، نقلها ابن جرير، أى: لا نسألك عن كفر من كفر بك كقوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، وكقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١-٢٢] الآية، وكقوله تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥] وأشباه ذلك من الآيات، وقرأ آخرون: ولا تَسْأَلُ عن أصحاب الجحيم بفتح التاء على النهى، أى: لا تسأل عن حالهم، كما قال عبد الرزاق: أخبرنا الثورى عن موسى بن عبيدة عن محمد بن كعب القرظى، قال: قال رسول الله ﷺ: «ليت شعرى ما فعل أبواى ليت شعرى ما فعل أبواى ليت شعرى ما فعل أبواى؟» فنزلت: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾، فما ذكرهما حتى توفاه الله عز وجل، ورواه ابن جرير عن أبى كريب عن وكيع عن موسى بن عبيدة، وقد تكلموا فيه عن محمد بن كعب بمثله، وقد حكاه القرطبى، عن ابن عباس ومحمد بن كعب، قال القرطبى: وهذا كما يقال لا تسأل عن فلان، أى: قد بلغ فوق ما تحسب، وقد ذكرنا فى التذكرة أن الله أحيا له أبويه حتى آمنا به، وأجبنا عن قوله: «إن أبى وأباك فى النار».

(قُلْتُ): والحديث المروى فى حياة أبويه عليه السلام، ليس فى شىء من الكتب الستة ولا غيرها، وإسناده ضعيف، والله أعلم.

ثم قال ابن جرير: وحدثنى القاسم أخبرنا الحسين حدثنى حجاج عن ابن جريج، أخبرنى داود بن أبى عاصم به، أن النبى ﷺ قال ذات يوم: «أين أبواى»[1]؟ فنزلت: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۙ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾، وهذا مرسل كالذى قبله، وقد رد ابن جرير هذا القول المروى، عن محمد بن كعب القرظى وغيره فى ذلك، لاستحالة الشك من الرسول ﷺ فى أمر أبويه، واختار القراءة الأولى، وهذا الذى سلكه ههنا فيه نظر، لاحتمال أن هذا كان فى حال استغفاره لأبويه، قبل أن يعلم

(١) سيأتي ذكرها في سورة التوبة، الآية (١١٣- ١١٤).

أمرهما، فلما علم ذلك تبرأ منهما، وأخبر عنهما أنهما من أهل النار، كما ثبت هذا فى الصحيح، ولهذا أشباه كثيرة ونظائر ولا يلزم ما ذكر ابن جرير، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد : أخبرنا موسى بن داود حدثنا فليح بن سليمان، عن هلال بن على عن عطاء بن يسار، قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص، فقلت: أخبرنى عن صفة رسول الله ﷺ فى التوراة فقال: أجل والله إنه لموصوف فى التوراة بصفته فى القرآن يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وحرزًا للأميين، وأنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل، لا فظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا لا إله إلا الله فيفتح به أعينًا عميًا وآذانًا صمًا وقلوبًا غلفًا. انفرد بإخراجه البخارى[1]، فرواه فى البيوع عن محمد بن سنان عن فليح به، وقال تابعه عبد العزيز بن أبى سلمة عن هلال: وقال سعيد بن هلال عن عطاء عن عبد الله بن سلام، ورواه فى التفسير عن عبد الله عن عبد العزيز بن أبى سلمة، عن هلال عن عطاء عن عبد الله بن عمرو بن العاص به فذكر نحوه، فعبد الله هذا هو ابن صالح، كما صرح به فى كتاب الأدب، وزعم ابن مسعود الدمشقى أنه عبد الله بن رجاء، وقد رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسير هذه الآية من البقرة، عن أحمد بن الحسن بن أيوب عن محمد بن أحمد بن البراء، عن المعافى بن سليمان عن فليح به وزاد: قال عطاء: ثم لقيت كعب الأحبار فسألته، فما اختلفا فى حرف إلا أن كعبًا قال بلغته: أعينًا عمومى، وآذانًا صمومى، وقلوبًا غلوفًا.

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾

قال ابن جرير: يعنى بقوله جل ثناؤه: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ وليست اليهود يا محمد ولا النصارى براضية عنك أبدًا، فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم، وأقبل على طلب رضا الله فى دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ أى: قل يا محمد إن هدى الله الذى بعثنى به هو الهدى، يعنى هو الدين المستقيم الصحيح الكامل الشامل، قال قتادة فى قوله: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ قال: خصومة علمها الله محمدًا ﷺ وأصحابه يخاصمون بها أهل الضلالة، قال قتادة: وبلغنا أن رسول الله ﷺ كان يقول: **«لا تزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق، ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله»**[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٢١٢٥).

(٢) روى هذا الحديث عن غير واحد من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ومنهم:
حديث جابر. أخرجه مسلم، (١٥٦)، وأحمد، (١٤٣١٠)،
حديث ثوبان: أخرجه مسلم، (١٩٢٠)، وابن ماجه، (٣٩٥٢).
حديث عقبة بن عامر: أخرجه مسلم، (١٩٢٤).
حديث المغيرة بن شعبة: أخرجه البخاري (٣٦٤٠)، ومسلم (١٩٢١).
حديث معاذ بن جبل: أخرجه البخاري (٧٤٦٠)، ومسلم (١٠٣٧).

(قُلْتُ): هذا الحديث مخرج فى الصحيح عن عبد الله بن عمرو، ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ فيه تهديد ووعيد شديد للأمة، عن اتباع طرائق اليهود والنصارى بعد ما علموا من القرآن والسنة، عياذًا بالله من ذلك فإن الخطاب مع الرسول والأمر لأمته وقد استدل كثير من الفقهاء بقوله: ﴿حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ﴾ حيث أفرد الملة على أن الكفر كله ملة واحدة، كقوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] فعلى هذا لا يتوارث المسلمون والكفار، وكل منهم يرث قرينه سواء كان من أهل دينه أم لا، لأنهم كلهم ملة واحدة وهذا مذهب الشافعى وأبى حنيفة وأحمد فى رواية عنه، وقال فى الرواية الأخرى كقول مالك، إنه لا يتوارث أهل ملتين شتى، كما جاء فى الحديث، والله أعلم. وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة: هم اليهود والنصارى، وهو قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير، وقال سعيد عن قتادة: هم أصحاب رسول الله ﷺ، وقال ابن أبى حاتم: أخبرنا أبى أخبرنا إبراهيم بن موسى وعبد الله بن عمران الأصبهانى، قال: أخبرنا يحيى بن يمان حدثنا أسامة بن زيد، عن أبيه عن عمر بن الخطاب ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ قال: إذا مر بذكر الجنة سأل الله الجنة، وإذا مر بذكر النار تعوذ بالله من النار، وقال أبو العالية: قال ابن مسعود: والذى نفسى بيده إن حق تلاوته أن يحل حلاله، ويحرم حرامه، ويقرأه كما أنزله الله، ولا يحرف الكلم عن مواضعه، ولا يتأول منه شيئًا على غير تأويله، وكذا رواه عبد الرزاق، عن معمر عن قتادة ومنصور بن المعتمر عن ابن مسعود، قال السدى عن أبى مالك عن ابن عباس فى هذه الآية قال: يحلون حلاله ويحرمون حرامه ولا يحرفونه عن مواضعه.

قال ابن أبى حاتم: وروى عن ابن مسعود نحو ذلك، وقال الحسن البصرى: يعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه، ويكلون ما أشكل عليهم إلى عالمه، وقال ابن أبى حاتم: أخبرنا أبو زرعة أخبرنا إبراهيم بن موسى أخبرنا ابن أبى زائدة أخبرنا داود بن أبى هند، عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ قال: يتبعونه حق اتباعه، ثم قرأ: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ [الشمس: ٢] يقول: اتبعها قال: وروى عن عكرمة وعطاء ومجاهد وأبى رزين وإبراهيم النخعى نحو ذلك. وقال سفيان الثورى: أخبرنا زبيد عن مرة عن عبد الله بن مسعود، فى قوله: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ قال: يتبعونه حق اتباعه، قال القرطبى: وروى نصر بن عيسى عن مالك عن نافع عن ابن عمر عن النّبى ﷺ فى قوله: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ قال: «يتبعونه حق اتباعه»[1] ثم قال فى إسناده غير واحد من المجهولين فيما ذكره الخطيب إلا أن معناه صحيح. وقال أبو موسى الأشعرى: من يتبع القرآن يهبط به على رياض الجنة. وعن عمر بن الخطاب: هم الذين إذا مروا بآية رحمة سألوها من الله، وإذا مروا بآية عذاب استعاذوا منها، قال: وقد روى هذا المعنى عن النّبى ﷺ أنه كان إذا مرّ بآية رحمة سأل، وإذا مرّ بآية عذاب تعوذ[2]،

---

(١) **ضعيف:** قال ابن كثير: في إسناده غير واحد من المجهولين إلا أن معناه صحيح قلت: ثبت ذلك عن ابن عباس، رواه ابن أبي حاتم بإسناد صحيح، وانظر اقتضاء العلم العمل، ص (٧٧).

(٢) **صحيح:** أخرجه أبو داود (٨٧١)، والترمذي (٢٦٢)، والنسائي (١٠٠٨)، من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، انظر صحيح سنن أبي داود.

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ خبر عن ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ أى: من أقام كتابه من أهل الكتب المنزلة على الأنبياء المتقدمين حق إقامته، آمن بما أرسلتك به يا محمد، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦] الآية، ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨] أى: إذا أقمتموها حق الإقامة وآمنتم بها حق الإيمان وصدقتم ما فيها من الأخبار بمبعث محمد ﷺ ونعته وصفته والأمر باتباعه ونصره ومؤازرته، قادكم ذلك إلى الحق واتباع الخير فى الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] الآية، وقال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٨] أى: إن كان ما وعدنا به من شأن محمد ﷺ لواقعًا، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٢-٥٥] وقال تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠] ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧] وفى الصحيح[1]: «والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة، يهودى ولا نصرانى ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار».

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

قد تقدم نظير هذه الآية فى صدر السورة وكررت ههنا للتأكيد والحث على اتباع الرسول النبى الأمى الذى يجدون صفته فى كتبهم نعته واسمه وأمره وأمته فحذرهم من كتمان هذا، وكتمان ما أنعم به عليهم وأمرهم أن يذكروا نعمة الله عليهم من النعم الدنيوية والدينية ولا يحسدوا بنى عمهم من العرب على ما رزقهم الله من إرسال الرسول الخاتم منهم، ولا يحملهم ذلك الحسد على مخالفته وتكذيبه والحيد عن موافقته، صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين.

ثلاثة أرباع الحزب ٢

﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾

يقول تعالى منبهًا على شرف إبراهيم خليله عليه السلام وأن الله تعالى جعله إمامًا للناس يقتدى به فى التوحيد حين قام بما كلفه الله تعالى به من الأوامر والنواهى، ولهذا قال: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ﴾ أى: واذكر يا محمد لهؤلاء المشركين وأهل الكتابين الذين ينتحلون ملة إبراهيم وليسوا عليها وإنما الذى هو عليها مستقيم فأنت والذين معك من المؤمنين، اذكر لهؤلاء ابتلاء الله إبراهيم أى: اختباره له بما كلفه به من الأوامر والنواهى ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أى: قام بهن كلهن كما قال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ

(١) أخرجه مسلم، (١٥٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾[النجم: ٣٧] أى: وفى جميع ما شرع له فعمل به صلوات الله عليه وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[النحل: ١٢٠-١٢٣] وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[الأنعام: ١٦١]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[آل عمران: ٦٧-٦٨]، وقوله تعالى: ﴿بِكَلِمَٰتٍ﴾ أى: بشرائع وأوامر ونواه، فإن الكلمات تطلق، ويراد بها الكلمات القدرية كقوله تعالى عن مريم عليها السلام: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾[التحريم: ١٢] وتطلق، ويراد بها الشرعية، كقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾[الأنعام: ١١٥] أى: كلماته الشرعية، وهى إما خبر صدق، وإما طلب عدل إن كان أمرًا أو نهيًا، ومن ذلك هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾، أى: قام بهن ﴿قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ أى: جزاء على ما فعل، كما قام بالأوامر وترك الزواجر جعله الله للناس قدوة، وإمامًا يقتدى به ويحتذى حذوه.

وقد اختلف فى تعيين الكلمات التى اختبر الله بها إبراهيم الخليل عليه السلام، فروى عن ابن عباس فى ذلك روايات، فقال عبد الرزاق، عن معمر عن قتادة قال ابن عباس: ابتلاه الله بالمناسك، وكذا رواه أبو إسحاق السبيعى عن التميمى عن ابن عباس. وقال عبد الرزاق أيضًا، أخبرنا معمر عن ابن طاووس عن أبيه عن ابن عباس ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ﴾، قال: ابتلاه بالطهارة خمس فى الرأس وخمس فى الجسد، فى الرأس قص الشارب والمضمضة والاستنشاق والسواك وفرق الرأس، وفى الجسد تقليم الأظفار وحلق العانة والختان ونتف الإبط وغسل أثر الغائط والبول بالماء، قال ابن أبى حاتم: وروى عن سعيد بن المسيب ومجاهد والشعبى والنخعى، وأبى صالح وأبى الجلد نحو ذلك.

(قُلْتُ): وقريب من هذا ما ثبت فى صحيح مسلم[1] عن عائشة رضى الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «عشر من الفطرة: قص الشارب وإعفاء اللحية والسواك واستنشاق الماء وقص الأظفار وغسل البراجم ونتف الإبط وحلق العانة وانتقاص الماء، قال مصعب ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة». قال وكيع: انتقاص الماء يعنى الاستنجاء، وفى الصحيحين[2] عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «الفطرة خمس: الختان والاستحداد وقص الشارب وتقليم الأظفار ونتف الإبط»، ولفظه لمسلم. وقال ابن أبى حاتم: أنبأنا يونس بن عبد الأعلى قراءة، أخبرنا ابن وهب، أخبرنى ابن لهيعة عن ابن هبيرة عن ابن حنش بن عبد الله الصنعانى عن ابن عباس أنه كان يقول فى تفسير هذه الآية: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ قال: عشر ست فى الإنسان وأربع فى المشاعر، فأما التى فى الإنسان حلق العانة، ونتف الإبط والختان، وكان ابن هبيرة يقول: هؤلاء الثلاثة واحدة، وتقليم الأظفار وقص الشارب والسواك وغسل يوم الجمعة، والأربعة التى فى المشاعر: الطواف والسعى بين الصفا والمروة ورمى الجمار والإفاضة. وقال داود بن أبى هند عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال: ما ابتلى بهذا الدين أحد فقام به كله إلا إبراهيم، قال الله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ قلت

(١) أخرجه مسلم، (٢٦١).
(٢) أخرجه البخاري، (٥٨٨٩)، ومسلم، (٢٥٧).

له: وما الكلمات التى ابتلى الله إبراهيم بهن فأتمهن؟ قال: الإسلام ثلاثون سهمًا منها عشر آيات فى براءة ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ [التوبة: ١١٢] إلى آخر الآية، وعشر آيات فى أول سورة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١]، و ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١] وعشر آيات فى الأحزاب: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] إلى آخر الآية فأتمهن كلهن فكتبت له براءة، قال الله: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧] هكذا رواه الحاكم وأبو جعفر بن جرير وأبو محمد بن أبى حاتم بأسانيدهم إلى داود بن أبى هند وهذا لفظ ابن أبى حاتم وقال محمد بن إسحاق عن محمد بن أبى محمد عن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس قال: الكلمات التى ابتلى الله بهن إبراهيم فأتمهن، فراق قومه فى الله حين أمر بمفارقتهم، ومحاجته نمروذ فى الله حين وقفه على ما وقفه عليه من خطر الأمر الذى فيه خلافه، وصبره على قذفه إياه فى النار ليحرقوه فى الله على هول ذلك من أمرهم، والهجرة بعد ذلك من وطنه وبلاده فى الله حين أمره بالخروج عنهم وما أمره به من الضيافة والصبر عليها بنفسه وماله، وما ابتلى به من ذبح ابنه حين أمره بذبحه فلما مضى على ذلك من الله كله وأخلصه للبلاء، قال الله له: ﴿أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١] على ما كان من خلاف الناس وفراقهم. وقال ابن أبى حاتم: أخبرنا أبو سعيد الأشج أخبرنا إسماعيل بن علية عن أبى رجاء عن الحسن، يعنى البصرى ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ قال: ابتلاه بالكوكب فرضى عنه، وابتلاه بالقمر فرضى عنه، وابتلاه بالشمس فرضى عنه، وابتلاه بالهجرة فرضى عنه، وابتلاه بالختان فرضى عنه، وابتلاه بابنه فرضى عنه وقال ابن جرير: أخبرنا بشر بن معاذ أخبرنا يزيد بن زريع، أخبرنا سعيد عن قتادة قال: كان الحسن يقول: أى والله لقد ابتلاه بأمر فصبر عليه، ابتلاه بالكوكب والشمس والقمر، فأحسن فى ذلك وعرف أن ربه دائم لا يزول، فوجه وجهه للذى فطر السموات والأرض حنيفًا، وما كان من المشركين، ثم ابتلاه بالهجرة، فخرج من بلاده وقومه، حتى لحق بالشام مهاجرًا إلى الله، ثم ابتلاه بالنار قبل الهجرة، فصبر على ذلك، وابتلاه بذبح ابنه والختان، فصبر على ذلك، وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عمن سمع الحسن يقول فى قوله: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ﴾ قال: ابتلاه الله بذبح ولده وبالنار وبالكوكب والقمر والشمس، وقال أبو جعفر بن جرير: أخبرنا ابن بشار أخبرنا سلم بن قتيبة، أخبرنا أبو هلال عن الحسن ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ﴾، قال: ابتلاه بالكوكب وبالشمس والقمر، فوجده صابرًا، وقال العوفى فى تفسيره عن ابن عباس: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ فمنهن ﴿قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ ومنهن ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧] ومنهن الآيات فى شأن المنسك والمقام الذى جعل لإبراهيم والرزق الذى رزق ساكنوا البيت، ومحمد بعث فى دينهما وقال ابن أبى حاتم: أخبرنا الحسن بن محمد بن الصباح، أخبرنا شبابة عن ورقاء عن ابن أبى نجيح عن مجاهد، فى قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ قال الله لإبراهيم: إنى مبتليك بأمر فما هو؟ قال: تجعلنى للناس إمامًا؟ قال: نعم، قال: ومن ذريتى؟ قال: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، قال: تجعل البيت مثابة للناس؟ قال: نعم، قال: وأمنًا؟ قال: نعم، قال: وتجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك؟ قال: نعم، قال: وترزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله؟ قال: نعم، قال ابن أبي نجيح: سمعته من عكرمة فعرضته على مجاهد فلم ينكره، وهكذا رواه ابن جرير من غير وجه عن ابن

أبى نجيح عن مجاهد، وقال سفيان الثورى عن ابن أبى نجيح عن مجاهد، ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ قال: ابتلى بالآيات التى بعدها ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ﴾ قال: الكلمات ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ وقوله: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة:١٢٥] وقوله: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة:١٢٥] وقوله: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ الآية [البقرة: ١٢٥]، وقوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ الآية [البقرة: ١٢٧]، قال: فذلك كله من الكلمات التى ابتلى بهن إبراهيم، وقال السدى: الكلمات التى ابتلى بهن إبراهيم ربه: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٧-١٢٨] إلى ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وقال القرطبى: وفى الموطأ وغيره، عن يحيى بن سعيد أنه سمع سعيد بن المسيب يقول: إبراهيم عليه السلام أول من اختتن وأول من ضاف الضيف، وأول من قلم أظفاره، وأول من قص الشارب، وأول من شاب فلما رأى الشيب، قال: ما هذا؟ قال: وقار، قال: يا رب زدنى وقارًا. وذكر ابن أبى شيبة عن سعد بن إبراهيم عن أبيه قال: أول من خطب على المنابر إبراهيم عليه السلام، قال غيره: وأول من برّد البريد وأول من ضرب بالسيف، وأول من استاك، وأول من استنجى بالماء، وأول من لبس السراويل، وروى عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أتخذ المنبر فقد اتخذه أبى إبراهيم، وإن أتخذ العصا فقد اتخذها أبى إبراهيم».

(قُلْتُ): هذا حديث لا يثبت، والله أعلم. ثم شرع القرطبى يتكلم على ما يتعلق بهذه الأشياء من الأحكام الشرعية.

قال أبو جعفر بن جرير: ما حاصله: أنه يجوز أن يكون المراد بالكلمات جميع ما ذكر وجائز أن يكون بعض ذلك ولا يجوز الجزم بشىء منها أنه المراد على التعيين إلا بحديث أو إجماع، قال: ولم يصح فى ذلك خبر بنقل الواحد ولا بنقل الجماعة الذى يجب التسليم له. قال: غير أنه قد روى عن النّبى ﷺ فى نظير معنى ذلك خبران أحدهما ما حدثنا به أبو كريب، أخبرنا رشدين بن سعد، حدثنى أبان بن فائد عن سهل بن معاذ بن أنس قال: كان النّبى ﷺ يقول: **«ألا أخبركم لم سمى الله إبراهيم خليله، ﴿ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧]؟ لأنه كان يقول كلما أصبح وكلما أمسى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٧-١٨] إلى آخر الآية»**(١) قال: والآخر منهما: ما حدثنا به أبو كريب، أخبرنا الحسن عن عطية، أخبرنا إسرائيل عن جعفر بن الزبير عن القاسم عن أبى أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧] قال: «أتدرون ما وفى؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «وفى عمل يومه أربع ركعات فى النهار» ورواه آدم فى تفسيره عن حماد بن سلمة وعبد بن حميد عن يونس بن محمد عن حماد بن سلمة عن جعفر بن الزبير به، ثم

(١) **موضوع**: أخرجه أحمد، (١٥١٩٧)، وفيه أبان بن فائد: قال ابن حبان: منكر الحديث، يتفرد عن سهل بن معاذ بنسخة كلها موضوعة. وسهل بن معاذ ضعفه بعضهم، وقال ابن حبان: لا يعتبر حديثه ما كان من رواية أبان بن فائد، ورشدين بن سعد: ضعيف.

شرع ابن جرير يضعف هذين الحديثين، وهو كما قال: فإنه لا يجوز روايتهما إلا ببيان ضعفهما، وضعفهما من وجوه عديدة، فإن كلاً من السندين مشتمل على غير واحد من الضعفاء مع ما فى متن الحديث مما يدل على ضعفه، والله أعلم. ثم قال ابن جرير: ولو قال قائل: إن الذى قاله مجاهد وأبو صالح والربيع بن أنس أولى بالصواب من القول الذى قاله غيرهم كان مذهبًا لأن قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ وقوله: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ [البقرة: ١٢٥] الآية، وسائر الآيات التى هى نظير ذلك كالبيان عن الكلمات التى ذكر الله أنه ابتلى بهن إبراهيم، .

(قُلْتُ): والذى قاله أولاً من أن الكلمات تشمل جميع ما ذكر أقوى من هذا الذى جوزه من قول مجاهد ومن قال مثله لأن السياق يعطى غير ما قالوه، والله أعلم.

وقوله قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لما جعل الله إبراهيم إمامًا سأل الله أن تكون الأئمة من بعده من ذريته فأجيب إلى ذلك وأخبر أنه سيكون من ذريته ظالمون وأنه لا ينالهم عهد الله ولا يكونون أئمة فلا يقتدى بهم، والدليل على أنه أجيب إلى طلبته قوله تعالى فى سورة العنكبوت: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧] فكل نبى أرسله الله، وكل كتاب أنزله الله بعد إبراهيم ففى ذريته صلوات الله وسلامه عليه وأما قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فقد اختلفوا فى ذلك. فقال خصيف عن مجاهد فى قوله: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قال: إنه سيكون فى ذريتك ظالمون، وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قال: لا يكون لى إمام ظالم، وفى رواية: لا أجعل إمامًا ظالمًا يقتدى به. وقال سفيان عن منصور عن مجاهد فى قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قال: لا يكون إمام ظالم يقتدى به. وقال ابن أبى حاتم أخبرنا أبى أخبرنا مالك بن إسماعيل أخبرنا شريك عن منصور عن مجاهد فى قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ قال أما من كان منهم صالحًا فأجعله إمامًا يقتدى به، وأما من كان ظالمًا فلا ولا نعمة عين. وقال سعيد بن جبير ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ المراد به المشرك لا يكون إمام ظالم، يقول لا يكون إمام مشرك، وقال ابن جريج عن عطاء قال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ قال ومن ذريتى فأبى أن يجعل من ذريته إمامًا ظالمًا، قلت لعطاء ما عهده؟ قال أمره، وقال ابن أبى حاتم أخبرنا عمرو بن ثور القيسارى فيما كتب إلى أخبرنا الفريابى حدثنا إسرائيل حدثنا سماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس، قال: قال الله لإبراهيم ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ فأبى أن يفعل ثم قال ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وقال محمد بن إسحاق عن محمد بن أبى محمد عن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يخبره أنه كائن فى ذريته ظالم لا ينال عهده ولا ينبغى أن يوليه شيئًا من أمره وإن كان من ذرية خليله، ومحسن ستنفذ فيه دعوته وتبلغ له فيه ما أراد من مسألته. وقال العوفى عن ابن عباس ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قال يعنى: لا عهد لظالم عليك فى ظلمه أن تطيعه فيه، وقال ابن جرير حدثنا المثنى حدثنا إسحاق أخبرنا عبد الرحمن بن عبد الله عن إسرائيل عن مسلم الأعور عن مجاهد عن ابن عباس قال ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قال ليس للظالمين عهد وإن عاهدته أنقضه وروى عن مجاهد وعطاء ومقاتل بن حيان نحو ذلك، وقال الثورى عن هارون بن عنترة عن أبيه قال ليس لظالم عهد، وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة فى قوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قال لا ينال عهد الله فى الآخرة

الظالمين فأما فى الدنيا فقد ناله الظالم فآمن به وأكل وعاش، وكذا قال إبراهيم النخعى وعطاء والحسن وعكرمة، وقال الربيع بن أنس عهد الله الذى عهد إلى عباده دينه يقول لا ينال دينه الظالمين، ألا ترى أنه قال: ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٣] يقول ليس كل ذريتك يا إبراهيم على الحق، وكذا روى عن أبى العالية وعطاء ومقاتل بن حيان وقال جويبر عن الضحاك لا ينال طاعتى عدوّ لى يعصينى ولا أنحلها إلا وليًا يطيعنى. وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه: أخبرنا عبد الرحمن بن محمد بن حامد أخبرنا أحمد بن عبد الله بن سعيد الأسدى، حدثنا سليم بن سعيد الدامغانى، أخبرنا وكيع عن الأعمش عن سعد بن عبيدة عن أبى عبد الرحمن السلمى عن على بن أبى طالب عن النبى ﷺ قال: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قال لا طاعة إلا فى المعروف[1]، وقال السدى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يقول عهدى نبوتى - فهذه أقوال مفسرى السلف فى هذه الآية، على ما نقله ابن جرير وابن أبى حاتم رحمهما الله تعالى واختار ابن جرير أن هذه الآية وإن كانت ظاهرة فى الخبر، أنه لا ينال عهد الله بالإمامة ظالمًا، ففيها إعلام من الله لإبراهيم الخليل عليه السلام، أنه سيوجد من ذريتك من هو ظالم لنفسه كما تقدم عن مجاهد وغيره. والله أعلم. وقال ابن خويز منداد المالكى: الظالم لا يصلح أن يكون خليفة ولا حاكمًا ولا مفتيًا ولا شاهدًا ولا راويًا.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ۖ وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ﴾

قال العوفى: عن ابن عباس قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ يقول: لا يقضون فيه وطرًا، يأتونه ثم يرجعون إلى أهليهم ثم يعودون إليه، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: مثابة للناس يقول يثوبون، رواهما ابن جرير. وقال ابن أبى حاتم: أخبرنا أبى أخبرنا عبد الله بن رجاء، أخبرنا إسرائيل عن مسلم عن مجاهد عن ابن عباس، فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ قال: يثوبون إليه ثم يرجعون، قال وروى عن أبى العالية وسعيد بن جبير، فى رواية وعطاء ومجاهد والحسن وعطية والربيع بن أنس والضحاك نحو ذلك، وقال ابن جرير: حدثنى عبد الكريم ابن أبى عمير حدثنى الوليد بن مسلم، قال: قال أبو عمرو يعنى الأوزاعى، حدثنى عبدة بن أبى لبابة فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ قال لا ينصرف عنه منصرف، وهو يرى أنه قد قضى منه وطرًا، وحدثنى يونس عن ابن وهب قال: قال ابن زيد ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ قال يثوبون إليه من البلدان كلها ويأتونه، وما أحسن ما قاله الشاعر فى هذا المعنى أورده القرطبى:

جعل البيت مثابًا لهم ... ليس منه الدهر يقضون الوطر

وقال سعيد بن جبير فى الرواية الأخرى وعكرمة وقتادة وعطاء الخراسانى ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ أى مجمعًا ﴿وَأَمْنًا﴾ قال الضحاك عن ابن عباس: أى أمنًا للناس. وقال أبو جعفر الرازى: عن الربيع بن أنس عن أبى العالية ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ يقول وأمنًا من العدو وأن يجعل فيه السلاح، وقد كانوا فى الجاهلية يتخطف الناس من حولهم وهم آمنون لا يسبون، وروى عن مجاهد وعطاء والسدى وقتادة والربيع بن أنس قالوا: من دخله كان آمنًا.

---

(١) صحيح: عزاه السيوطى فى «الدر المنثور» (١/ ٢٨٨) إلى وكيع وابن مردويه ورجاله ثقات، والحديث بمعناه عند البخاري (٤٣٤٠)، وعند مسلم (١٨٤٠).

ومضمون ما فسر به هؤلاء الأئمة هذه الآية أن الله تعالى يذكر شرف البيت وما جعله موصوفًا به شرعًا وقدرًا، من كونه مثابة للناس، أى جعله محلاً تشتاق إليه الأرواح، وتحن إليه، ولا تقضى منه وطرًا ولو ترددت إليه كل عام استجابة من الله تعالى، لدعاء خليله إبراهيم عليه السلام، فى قوله ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾[إبراهيم: ٣٧]، إلى أن قال: ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾[إبراهيم: ٤٠] ويصفه تعالى بأنه جعله آمنًا من دخله أمن، ولو كان قد فعل ما فعل ثم دخله كان آمنًا، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كان الرجل يلقى قاتل أبيه أو أخيه فيه، فلا يعرض له، كما وصف فى سورة المائدة فى قوله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾[المائدة: ٩٧] أى يدفع عنهم بسبب تعظيمها السوء، كما قال ابن عباس: لو لم يحج الناس هذا البيت، لأطبق الله السماء على الأرض، وما هذا الشرف إلا لشرف بانيه أولاً، وهو خليل الرحمن، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾[الحج: ٢٦]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾[آل عمران: ٩٦-٩٧] وفى هذه الآية الكريمة، نبه على مقام إبراهيم مع الأمر بالصلاة عنده. فقال ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾، وقد اختلف المفسرون فى المراد بالمقام ما هو، فقال ابن أبى حاتم: أخبرنا عمرو بن شبة النميرى، حدثنا أبو خلف، يعنى عبد الله بن عيسى، أخبرنا داود بن أبى هند عن مجاهد عن ابن عباس ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ قال: مقام إبراهيم الحرم كله وروى عن مجاهد وعطاء مثل ذلك، وقال أيضًا أخبرنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا حجاج عن ابن جريج، قال: سألت عطاء عن ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ فقال سمعت ابن عباس قال: أما مقام إبراهيم الذى ذكر ههنا، فمقام إبراهيم هذا الذى فى المسجد، ثم قال: ومقام إبراهيم يعد كثير مقام إبراهيم الحج كله، ثم فسره لى عطاء فقال: التعريف وصلاتان بعرفة، والمشعر، ومنى، ورمى الجمار، والطواف بين الصفا والمروة، فقلت أفسره ابن عباس؟ قال لا. ولكن قال مقام إبراهيم الحج كله. قلت: أسمعت ذلك لهذا أجمع؟ قال: نعم سمعته منه. وقال سفيان الثورى عن عبد الله بن مسلم، عن سعيد بن جبير ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ قال: الحجر مقام إبراهيم نبى الله قد جعله الله رحمة، فكان يقوم عليه ويناوله إسماعيل الحجارة، ولو غسل رأسه كما يقولون لاختلف رجلاه. وقال السدى: المقام الحجر الذى وضعته زوجة إسماعيل تحت قدم إبراهيم حتى غسلت رأسه. حكاه القرطبى وضعفه ورجحه غيره، وحكاه الرازى فى تفسيره عن الحسن البصرى وقتادة والربيع بن أنس. وقال ابن أبى حاتم: أخبرنا الحسن بن محمد بن الصباح، أخبرنا عبد الوهاب بن عطاء عن ابن جريج، عن جعفر بن محمد عن أبيه، سمع جابرًا يحدث عن حجة النبى ﷺ، قال: لما طاف النبى ﷺ، قال له عمر: هذا مقام أبينا؟ قال: نعم، قال: أفلا نتخذه مصلى؟ فأنزل الله عز وجل ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾[1]، وقال عثمان بن أبى شيبة: أخبرنا أبو أسامة عن زكريا، عن أبى إسحاق، عن أبى ميسرة، قال: قال عمر: قلت: يا رسول الله هذا مقام خليل ربنا؟ قال: نعم، قال: أفلا نتخذه مصلى؟ فنزلت ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾، وقال ابن مردويه: أخبرنا دعلج بن أحمد، أخبرنا غيلان بن

(١) أخرجه البخاري، (٤٠٢)، وأحمد (١٥٨).

عبد الصمد، أخبرنا مسروق بن المرزبان، أخبرنا زكريا بن أبى زائدة عن أبى إسحاق، عن عمرو بن ميمون، عن عمر بن الخطاب، أنه مر بمقام إبراهيم فقال: يا رسول الله أليس نقوم بمقام خليل ربنا؟ قال: بلى، قال: أفلا نتخذه مصلى؟ فلم يلبث إلا يسيرًا حتى نزلت ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾، وقال ابن مردويه: أخبرنا على بن أحمد بن محمد القزوينى، أخبرنا على بن الحسين، حدثنا الجنيد، أخبرنا هشام بن خالد، أخبرنا الوليد عن مالك بن أنس، عن جعفر بن محمد عن أبيه، عن جابر، قال: لما وقف رسول الله ﷺ يوم فتح مكة عند مقام إبراهيم، قال له عمر: يا رسول الله هذا مقام إبراهيم الذى قال الله ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾، قال: نعم، قال الوليد: قلت لمالك: هكذا حدثك واتخذوا؟ قال: نعم هكذا وقع فى هذه الرواية وهو غريب، وقد روى النسائى من حديث الوليد بن مسلم نحوه، وقال البخارى: باب قوله ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ مثابة يثوبون يرجعون، حدثنا مسدد، أخبرنا يحيى عن حميد، عن أنس بن مالك، قال: قال عمر بن الخطاب: وافقت ربى فى ثلاث أو وافقنى ربى فى ثلاث، قلت: يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى فنزلت ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾، وقلت: يا رسول الله، يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية الحجاب. قال: وبلغنى معاتبة النبى ﷺ بعض نسائه، فدخلت عليهن فقلت: إن انتهيتن أو ليبدلن الله رسوله خيرًا منكن حتى أتت إحدى نسائه، قالت: يا عمر، أما فى رسول الله ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت، فأنزل الله ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ [التحريم: ٥] الآية، وقال ابن أبى مريم: أخبرنا يحيى بن أيوب، حدثنى حميد، قال: سمعت أنسًا عن عمر رضى الله عنهما، هكذا ساقه البخارى ههنا، وعلق الطريق الثانية عن شيخه سعيد بن الحكم المعروف بابن أبى مريم المصرى، وقد تفرد بالرواية عنه البخارى من بين أصحاب الكتب الستة، وروى عنه الباقون بواسطة، وغرضه من تعليق هذا الطريق ليبين فيه اتصال إسناد الحديث، وإنما لم يسنده لأن يحيى بن أبى أيوب الغافقى فيه شىء، كما قال الإمام أحمد فيه هو سيئ الحفظ، والله أعلم. وقال الإمام أحمد: حدثنا هشيم، أخبرنا حميد عن أنس، قال: قال عمر رضى الله عنه: وافقت ربى عز وجل فى ثلاث، قلت: يا رسول الله، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، فنزلت ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾، وقلت: يا رسول الله، إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر، فلو أمرتهن أن يحتجبن، فنزلت آية الحجاب. واجتمع على رسول الله ﷺ نساؤه فى الغيرة، فقلت لهن: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ [التحريم: ٥]، فنزلت كذلك، ثم رواه أحمد عن يحيى وابن أبى عدى كلاهما عن حميد، عن أنس عن عمر، أنه قال: وافقت ربى فى ثلاث أو وافقنى ربى فى ثلاث، فذكره. وقد رواه البخارى عن عمرو وابن عون والترمذى عن أحمد بن منيع والنسائى، عن يعقوب بن إبراهيم الدورقى وابن ماجه، عن محمد بن الصباح، كلهم عن هشيم بن بشير به. ورواه الترمذى أيضًا عن عبد بن حميد، عن حجاج بن منهال، عن حماد بن سلمة والنسائى، عن هناد عن يحيى بن أبى زائدة كلاهما، عن حميد وهو ابن تيرويه الطويل به. وقال الترمذى: حسن صحيح.

ورواه الإمام على بن المدينى عن زيد بن زريع، عن حميد به، وقال: هذا من صحيح الحديث وهو بصرى، ورواه الإمام مسلم بن حجاج فى صحيحه بسند آخر ولفظ آخر، فقال: أخبرنا عقبة بن

مكرم، أخبرنا سعيد بن عامر عن جويرية بن أسماء، عن نافع، عن ابن عمر عن عمر، قال: وافقت ربى فى ثلاث: فى الحجاب، وفى أسارى بدر، وفى مقام إبراهيم. وقال أبو حاتم الرازى: أخبرنا محمد بن عبد الله الأنصارى، أخبرنا حميد الطويل عن أنس بن مالك، قال: قال عمر بن الخطاب: وافقنى ربى فى ثلاث أو وافقت ربى فى ثلاث، قلت يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، فنزلت ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾، وقلت: يا رسول الله لو حجبت النساء، فنزلت آية الحجاب، والثالثة: لما مات عبد الله بن أبى، جاء رسول الله ﷺ ليصلى عليه، قلت: يارسول الله تصلى على هذا الكافر المنافق؟ فقال: إنهًا عنك يا ابن الخطاب، فنزلت ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٨٤] وهذا إسناد صحيح أيضًا، ولا تعارض بين هذا ولا هذا بل الكل صحيح ومفهوم العدد إذا عارضه منطوق قدم عليه، والله أعلم، وقال ابن جريج: أخبرنى جعفر بن محمد عن أبيه، عن جابر: أن رسول الله ﷺ رمل ثلاثة أشواط ومشى أربعًا حتى إذا فرغ عمد إلى مقام إبراهيم فصلى خلفه ركعتين، ثم قرأ ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ وقال ابن جرير: حدثنا يوسف بن سليمان، أخبرنا حاتم بن إسماعيل، أخبرنا جعفر بن محمد عن أبيه، عن جابر، قال: استلم رسول الله ﷺ الركن فرمل ثلاثًا ومشى أربعًا ثم نفذ إلى مقام إبراهيم فقرأ ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ فجعل المقام بينه وبين البيت، فصلى ركعتين، وهذا قطعة من الحديث الطويل الذى رواه مسلم فى صحيحه من حديث حاتم بن إسماعيل [(١)]، وروى البخارى [(٢)] بسنده عن عمرو بن دينار، قال: سمعت ابن عمر يقول: قدم رسول الله ﷺ فطاف بالبيت سبعًا وصلى خلف المقام ركعتين، فهذا كله مما يدل على أن المراد بالمقام إنما هو الحجر الذى كان إبراهيم عليه السلام يقوم عليه لبناء الكعبة، لما ارتفع الجدار أتاه إسماعيل عليه السلام به ليقوم فوقه ويناوله الحجارة فيضعها بيده لرفع الجدار، وكلما كمل ناحية انتقل إلى الناحية الأخرى يطوف حول الكعبة، وهو واقف عليه كلما فرغ من جدار نقله إلى الناحية التى تليها، وهكذا حتى تم بناء جدران الكعبة كما سيأتى بيانه فى قصة إبراهيم وإسماعيل فى بناء البيت من رواية ابن عباس عند البخارى، وكانت آثار قدميه ظاهرة فيه، ولم يزل هذا معروفًا تعرفه العرب فى جاهليتها، ولهذا قال أبو طالب فى قصيدته المعروفة اللامية:

وموطئ إبراهيم فى الصخر رطبة على قدميه حافيًا غير ناعل

وقد أدرك المسلمون ذلك فيه أيضًا كما قال عبد الله بن وهب: أخبرنى يونس بن يزيد عن ابن شهاب: أن أنس بن مالك حدثهم، قال: رأيت المقام فيه أصابعه عليه السلام وأخمص قدميه، غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم، وقال ابن جرير: أخبرنا بشر بن معاذ أخبرنا يزيد بن زريع، أخبرنا سعيد عن قتادة ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ إنما أمروا أن يصلوا عنده ولم يؤمروا بمسحه. وقد تكلفت هذه الأمة شيئًا ما تكلفته الأمم قبلها، ولقد ذكر لنا من رأى أثر عقبه وأصابعه فيه فما زالت هذه الأمة يمسحونه حتى اخلولق وانمحى.

(قُلْتُ) وقد كان هذا المقام ملصقًا بجدار الكعبة قديمًا ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلى الحجر يمنة الداخل من الباب فى البقعة المستقلة هناك، وكان الخليل عليه السلام لما فرغ من بناء

(١) أخرجه مسلم، (١٢١٨). (٢) أخرجه البخاري، (٣٩٥).

البيت وضعه إلى جدار الكعبة أو أنه انتهى عنده البناء فتركه هناك ولهذا، والله أعلم، أمر بالصلاة هناك عند الفراغ من الطواف، وناسب أن يكون عند مقام إبراهيم حيث انتهى بناء الكعبة فيه، وإنما أخره عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضى الله عنه أحد الأئمة المهديين والخلفاء الراشدين الذين أمرنا باتباعهم، وهو أحد الرجلين اللذين قال فيهما رسول الله ﷺ «اقتدوا باللذين من بعدى أبى بكر وعمر» وهو الذى نزل القرآن بوفاقه فى الصلاة عنده، ولهذا لم ينكر ذلك أحد من أصحابه رضى الله عنهم أجمعين، قال عبد الرزاق عن ابن جريج: حدثنى عطاء وغيره من أصحابنا، قال: أول من نقله عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وقال عبد الرزاق أيضًا عن معمر، عن حميد الأعرج، عن مجاهد، قال: أول من أخر المقام إلى موضعه الآن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وقال الحافظ أبو بكر أحمد بن على بن الحسين البيهقى: أخبرنا أبو الحسين بن الفضل القطان، أخبرنا القاضى أبو بكر أحمد بن كامل، حدثنا أبو إسماعيل محمد بن إسماعيل السلمى، حدثنا أبو ثابت، حدثنا الدراوردى عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رضى الله عنها: أن المقام كان زمان رسول الله ﷺ، وزمان أبى بكر رضى الله عنه، ملتصقًا بالبيت، ثم أخره عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وهذا إسناد صحيح مع ما تقدم، وقال ابن أبى حاتم: أخبرنا أبى أخبرنا ابن أبى عمر العدنى قال: قال سفيان، يعنى ابن عيينة وهو إمام المكيين فى زمانه: كان المقام من سقع البيت على عهد رسول الله ﷺ، فحوله عمر إلى مكانه بعد النبى ﷺ وبعد قوله ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ قال: ذهب السيل به بعد تحويل عمر إياه من موضعه هذا، فرده عمر إليه، وقال سفيان: لا أدرى كم بينه وبين الكعبة قبل تحويله، وقال سفيان لا أدرى أكان لاصقًا بها أم لا؟ فهذه الآثار متعاضدة على ما ذكرناه، والله أعلم، وقد قال الحافظ أبو بكر بن مردويه: أخبرنا ابن عمر وهو أحمد بن محمد بن حكيم، أخبرنا محمد بن عبد الوهاب بن أبى تمام، أخبرنا آدم هو ابن أبى إياس فى تفسيره، أخبرنا شريك عن إبراهيم بن المهاجر عن مجاهد، قال: قال عمر بن الخطاب: يا رسول الله لو صلينا خلف المقام، فأنزل الله ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ فكان المقام عند البيت، فحوله رسول الله ﷺ إلى موضعه هذا. قال مجاهد: وكان عمر يرى الرأى فينزل به القرآن، هذا مرسل عن مجاهد، وهو مخالف لما تقدم من رواية عبد الرزاق عن معمر، عن حميد الأعرج، عن مجاهد: أن أول من أخر المقام إلى موضعه الآن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وهذا أصح من طريق ابن مردويه مع اعتضاد هذا بما تقدم، والله أعلم.

﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾

قال الحسن البصرى: قوله ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ قال: أمرهما الله أن يطهراه من الأذى والنجس، ولا يصيبه من ذلك شىء، وقال ابن جريج: قلت لعطاء: ما عهده؟ قال: أمره. وقال

عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ أى أمرناه كذا، قال: والظاهر أن هذا الحرف إنما عدى بإلى لأنه فى معنى تقدمنا وأوحينا، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس قوله ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ﴾ قال: من الأوثان، وقال مجاهد وسعيد بن جبير ﴿طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ أن ذلك من الأوثان والرفث وقول الزور والرجس. قال ابن أبى حاتم، وروى عن عبيد بن عمير وأبى العالية وسعيد بن جبير ومجاهد وعطاء وقتادة ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ﴾ أى بلا إله إلا الله من الشرك، وأما قوله تعالى: ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ فالطواف بالبيت معروف وعن سعيد بن جبير أنه قال فى قوله تعالى ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ يعنى من أتاه من غربة ﴿وَٱلْعَٰكِفِينَ﴾ المقيمين فيه، وهكذا روى عن قتادة والربيع بن أنس، أنهما فسرا العاكفين بأهله المقيمين فيه، كما قال سعيد بن جبير، وقال يحيى القطان عن عبد الملك هو ابن أبى سليمان، عن عطاء فى قوله ﴿وَٱلْعَٰكِفِينَ﴾ قال: من انتابه من الأمصار فأقام عنده وقال لنا ونحن مجاورون أنتم من العاكفين، وقال وكيع عن أبى بكر الهذلى، عن عطاء، عن ابن عباس، قال: إذا كان جالسًا فهو من العاكفين، وقال ابن أبى حاتم: أخبرنا أبى، أخبرنا موسى بن إسماعيل، أخبرنا حماد بن سلمة، أخبرنا ثابت، قال: قلنا لعبد الله بن عبيد بن عمير: ما أرانى إلا مكلم الأمير أن أمنع الذين ينامون فى المسجد الحرام، فإنهم يجنبون ويحدثون. قال: لا تفعل، فإن ابن عمر سئل عنهم فقال: هم العاكفون. ورواه عبد بن حميد عن سليمان بن حرب عن حماد بن سلمة به.

(قُلْتُ) وقد ثبت فى الصحيح [1] أن ابن عمر كان ينام فى مسجد الرسول ﷺ وهو عزب، وأما قوله تعالى: ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ فقال وكيع عن أبى بكر الهذلى، عن عطاء عن ابن عباس: والركع السجود، قال: إذا كان مصليًا فهو من الركع السجود، وكذا قال عطاء وقتادة. قال ابن جرير رحمه الله: فمعنى الآية، وأمرنا إبراهيم وإسماعيل بتطهير بيتى للطائفين، والتطهير الذى أمرنا به فى البيت هو تطهيره من الأصنام وعبادة الأوثان فيه ومن الشرك، ثم أورد سؤالاً فقال: فإن قيل: فهل كان قبل بناء إبراهيم عند البيت شىء من ذلك الذى أمر بتطهيره منه وأجاب بوجهين:

(أحدهما) أنه أمرهما بتطهيره مما كان يعبد عنده زمان قوم نوح من الأصنام والأوثان، ليكون ذلك سنة لمن بعدهما، إذ كان الله تعالى قد جعل إبراهيم إمامًا يقتدى به، كما قال عبد الرحمن بن زيد ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ﴾ قال: من الأصنام التى يعبدون، التى كان المشركون يعظمونها.

(قُلْتُ) وهذا الجواب مفرع على أنه كان يعبد عنده أصنام قبل إبراهيم عليه السلام، ويحتاج إثبات هذا إلى دليل عن المعصوم محمد ﷺ.

(الجواب الثانى) أنه أمرهما أن يخلصا فى بنائه لله وحده لا شريك له، فيبنياه مطهرًا من الشرك والريب، كما قال جل ثناؤه: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ [التوبة: ١٠٩] قال: فكذلك قوله: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ﴾ أى ابنياه على طهر من الشرك بى والريب، كما قال السدى ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ﴾ ابنيا بيتى للطائفين، وملخص هذا الجواب أن الله تعالى أمر إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أن يبنيا الكعبة على اسمه وحده لا شريك له للطائفين به، والعاكفين عنده، والمصلين إليه من الركع السجود، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا

(١) أخرجه البخاري، (٤٤٠).

لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ الآيات [الحج: ٢٦-٢٧]

وقد اختلف الفقهاء أيهما أفضل الصلاة عند البيت أو الطواف به؟ فقال مالك رحمه الله، الطواف به لأهل الأمصار أفضل. وقال الجمهور: الصلاة أفضل مطلقًا، وتوجيه كل منهما يذكر فى كتاب الأحكام، والمراد من ذلك الرد على المشركين الذين كانوا يشركون بالله عند بيته المؤسس على عبادته وحده لا شريك له، ثم مع ذلك يصدون أهله المؤمنين عنه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥] ثم ذكر أن البيت إنما أسس لمن يعبد الله وحده لا شريك له إما بطواف أو صلاة، فذكر فى سورة الحج أجزاءها الثلاثة: قيامها وركوعها وسجودها، ولم يذكر العاكفين لأنه تقدم ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ [الحج: ٢٥] وفى هذه الآية الكريمة ذكر الطائفين والعاكفين، واكتفى بذكر الركوع والسجود عن القيام، لأنه قد علم أنه لا يكون ركوع ولا سجود إلا بعد قيام، وفى ذلك أيضًا رد على من لا يحجه من أهل الكتابين اليهود والنصارى، لأنهم يعتقدون فضيلة إبراهيم الخليل وإسماعيل، ويعلمون أنه بنى هذا البيت للطواف فى الحج والعمرة وغير ذلك وللاعتكاف والصلاة عنده، وهم لا يفعلون شيئًا من ذلك، فكيف يكونون مقتدين بالخليل وهم لا يفعلون ما شرع الله له؟ وقد حج البيت موسى بن عمران وغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، كما أخبر بذلك المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤].

وتقدير الكلام إذا ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ أى تقدمنا بوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ أى طهراه من الشرك والريب، وابنياه خالصًا لله معقلًا للطائفين والعاكفين والركع السجود، وتطهير المساجد مأخوذ من هذه الآية الكريمة، ومن قوله تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ﴾ [النور: ٣٦] ومن السنة من أحاديث كثيرة من الأمر بتطهيرها وتطييبها وغير ذلك من صيانتها من الأذى والنجاسات وما أشبه ذلك.

ولهذا قال عليه السلام «**إنما بنيت المساجد لما بنيت له**»(١) وقد جمعت فى ذلك جزءًا على حدة، ولله الحمد والمنة، وقد اختلف الناس فى أول من بنى الكعبة، فقيل: الملائكة قبل آدم، روى هذا عن أبى جعفر الباقر محمد بن على بن الحسين، ذكره القرطبى وحكى لفظه، وفيه غرابة، وقيل: آدم عليه السلام، رواه عبد الرزاق عن ابن جريج، عن عطاء وسعيد بن المسيب وغيرهم: أن آدم بناه من خمسة أجبل: من حراء وطور سيناء وطور زيتا وجبل لبنان والجودى، وهذا غريب أيضًا. وروى عن ابن عباس وكعب الأحبار وقتادة وعن وهب بن منبه: أن أول من بناه شيث عليه السلام، وغالب من يذكر هذه إنما يأخذه من كتب أهل الكتاب، وهى مما لا يصدق ولا يكذب ولا يعتمد عليها بمجردها، وأما إذا صح حديث فى ذلك فعلى الرأس والعين.

وَقَوْلُه تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ قال الإمام أبو جعفر بن جرير: أخبرنا ابن بشار قال: أخبرنا عبد الرحمن بن مهدى، أخبرنا

(١) أخرجه مسلم، (٥٦٩)، من حديث بريدة رضي الله عنه.

سفيان عن أبى الزبير، عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن إبراهيم حرم بيت الله وأمنه، وإنى حرمت المدينة ما بين لابتيها فلا يصاد صيدها ولا يقطع عضاهها» وهكذا رواه النسائى عن محمد بن بشار، عن بندار به، وأخرجه مسلم [١] عن أبى بكر بن أبى شيبة وعمرو بن الناقد كلاهما عن أبى أحمد الزبيرى عن سفيان الثورى، وقال ابن جرير أيضًا: أخبرنا أبو كريب وأبو السائب، قالا: حدثنا ابن إدريس، وأخبرنا أبو كريب، أخبرنا عبد الرحيم الرازى، قالا جميعًا: سمعنا أشعث عن نافع، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن إبراهيم كان عبد الله وخليله، وإنى عبد الله ورسوله، وإن إبراهيم حرم مكة، وإنى حرمت المدينة ما بين لابتيها: عضاهها وصيدها، لا يحمل فيها سلاح لقتال، ولا يقطع منها شجرة إلا لعلف بعير**» وهذه الطريق غريبة ليست فى شىء من الكتب الستة، وأصل الحديث فى صحيح مسلم [٢] من وجه آخر عن أبى هريرة رضى الله عنه، قال: كان الناس إذا رأوا أول الثمر، جاءوا به إلى رسول الله ﷺ، فإذا أخذه رسول الله ﷺ قال: «اللَّهم بارك لنا فى ثمرنا، وبارك لنا فى مدينتنا، وبارك لنا فى صاعنا، وبارك لنا فى مدنا، اللَّهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك، وإنى عبدك ونبيك، وإنه دعاك لمكة، وإنى أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة، ومثله معه» ثم يدعو أصغر وليد فيعطيه ذلك الثمر وفى لفظ «بركة مع بركة» ثم يعطيه أصغر من يحضره من الولدان - لفظ مسلم.

ثم قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا قتيبة بن سعيد، أخبرنا بكر بن مضر عن ابن الهاد، عن أبى بكر بن محمد، عن عبد الله بن عمرو بن عثمان، عن رافع بن خديج، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن إبراهيم حرم مكة، وإنى أحرم ما بين لابتيها**» انفرد بإخراجه مسلم، فرواه عن قتيبة عن بكر بن مضر به، ولفظه كلفظه سواء، وفى الصحيحين [٣] عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ لأبى طلحة: «التمس لى غلامًا من غلمانكم يخدمنى» فخرج بى أبو طلحة يردفنى وراءه، فكنت أخدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كلما نزل، وقال فى الحديث: ثم أقبل حتى إذا بدا له أحد قال: «هذا جبل يحبنا ونحبه» فلما أشرف على المدينة قال: «اللَّهم إنى أحرم ما بين جبليها مثلما حرم إبراهيم مكة، اللَّهم بارك لهم فى مدهم وصاعهم» وفى لفظ لهما «اللَّهم بارك لهم فى مكيالهم، وبارك لهم فى صاعهم، وبارك لهم فى مدهم» زاد البخارى يعنى أهل المدينة ولهما [٤] أيضًا عن أنس أن رسول الله ﷺ، قال: «اللَّهم اجعل بالمدينة ضعفى ما جعلته بمكة من البركة» وعن عبد الله بن زيد بن عاصم رضى الله عنه، عن النبى ﷺ: «إن إبراهيم حرم مكة ودعا لها، وحرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة، ودعوت لها فى مدها وصاعها مثل ما دعا إبراهيم لمكة» رواه البخارى وهذا لفظه، ولمسلم [٥] ولفظه أن رسول الله ﷺ، قال: «إن إبراهيم حرم مكة ودعا لأهلها، وإنى حرمت المدينة

---

(١) أخرجه مسلم، (١٣٦٢)، والنسائي في «الكبرى» (٢/ ٤٨٧)، برقم (٤٢٨٤)، وابن جرير في التفسير، (١/ ٥٤٢). وللحديث شاهد بنحو مشابه، أخرجه مسلم، (١٣٧٤)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. وأخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١/ ٥٤٢).

(٢) أخرجه مسلم، (١٣٧٣).

(٣) أخرجه البخاري، (٢٨٩٣)، ومسلم، (١٣٦٥).

(٤) أخرجه البخاري، (١٨٨٥)، ومسلم (١٣٦٩).

(٥) أخرجه البخاري (٢١٢٩)، ومسلم، (١٣٦٠)

كما حرم إبراهيم مكة، وإنى دعوت لها فى صاعها ومدها بمثل ما دعا به إبراهيم لأهل مكة» وعن أبى سعيد رضى الله عنه عن النبى ﷺ، قال: «اللَّهم إن إبراهيم حرم مكة فجعلها حرامًا، وإنى حرمت المدينة حرامًا ما بين مأزميها، أن لا يهراق فيها دم ولا يحمل فيها سلاح لقتال، ولا يخبط فيها شجرة إلا لعلف، اللَّهم بارك لنا فى مدينتنا، اللَّهم بارك لنا فى صاعنا، اللَّهم بارك لنا فى مدنا، اللَّهم اجعل مع البركة بركتين» الحديث، رواه مسلم[١]، والأحاديث فى تحريم المدينة كثيرة، وإنما أوردنا منها ما هو متعلق بتحريم إبراهيم عليه السلام لمكة، لما فى ذلك من مطابقة الآية الكريمة. وتمسك بها من ذهب إلى أن تحريم مكة إنما كان على لسان إبراهيم الخليل، وقيل: إنها محرمة منذ خلقت مع الأرض، وهذا أظهر وأقوى، والله أعلم.

وقد وردت أحاديث أخر تدل على أن الله تعالى حرم مكة قبل خلق السموات والأرض كما جاء فى الصحيحين[٢] عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحلّ القتال فيه لأحد قبلى، ولم يحلّ لى إلا ساعة من نهار فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا من عرّفها ولا يختلى خلاها» فقال العباس: يا رسول الله: إلا الإذخر، فإنه لقينهم ولبيوتهم، فقال: «إلا الإذخر» وهذا لفظ مسلم، ولهما عن أبى هريرة نحو من ذلك، ثم قال البخارى بعد ذلك: وقال أبان بن صالح، عن الحسن بن مسلم، عن صفية بنت شيبة: سمعت النبى ﷺ مثله، وهذا الذى علقه البخارى رواه الإمام أبو عبد الله بن ماجه[٣] عن محمد بن عبد الله بن نمير، عن يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق، عن أبان بن صالح، عن الحسن بن مسلم بن يناق، عن صفية بنت شيبة، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يخطب عام الفتح، فقال: «يا أيها الناس، إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهى حرام إلى يوم القيامة لا يعضد شجرها، ولا ينفر صيدها، ولا يأخذ لقطتها إلا منشد» فقال العباس: إلا الإذخر، فإنه للبيوت والقبور، فقال رسول الله ﷺ: «إلا الإذخر» وعن أبى شريح العدوى أنه قال لعمرو بن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة: إئذن لى أيها الأمير أن أحادثك قولاً قام به رسول الله ﷺ الغد من يوم الفتح، سمعته أذناى، ووعاه قلبى، وأبصرته عيناى حين تكلم به - إنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا، ولا يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم. وإنما أذن لى فيها ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب» فقيل لأبى شريح: ما قال لك عمرو؟ قال: أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح، إن الحرم لا يعيذ عاصيًا ولا فارًا بدمٍ ولا فارًا بخربة، رواه البخارى ومسلم[٤] وهذا لفظه.

---

(١) أخرجه مسلم، (١٣٧٤).

(٢) أخرجه البخاري (١٨٣٤)، ومسلم (١٣٥٣)، ورواية أبي هريرة أخرجها البخاري، (٢٤٣٤)، ومسلم، (١٣٥٥).

(٣) حسن: أخرجه ابن ماجه، (٣١٠٩)، انظر صحيح سنن ابن ماجه.

(٤) أخرجه البخاري (١٨٣٥)، ومسلم (١٣٥٤).

فإذا علم هذا فلا منافاة بين هذه الأحاديث الدالة على أن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، وبين الأحاديث الدالة على أن إبراهيم عليه السلام حرمها، لأن إبراهيم بلغ عن الله حكمه فيها وتحريمه إياها وأنها لم تزل بلدًا حرامًا عند الله قبل بناء إبراهيم عليه السلام لها، كما أنه قد كان رسول الله ﷺ مكتوبًا عند الله خاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل فى طينته، ومع هذا قال إبراهيم عليه السلام ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ الآية [البقرة: ١٢٩]، وقد أجاب الله دعاءه بما سبق فى علمه وقدره. ولهذا جاء فى الحديث أنهم قالوا: يا رسول الله، أخبرنا عن بدء أمرك. فقال: «**دعوة أبى إبراهيم عليه السلام، وبشرى عيسى ابن مريم، ورأت أمى كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام**»[1] أى أخبرنا عن بدء ظهور أمرك، كما سيأتى قريبًا إن شاء الله.

وأما مسألة تفضيل مكة على المدينة كما هو قول الجمهور، أو المدينة على مكة كما هو مذهب مالك وأتباعه، فتذكر فى موضع آخر بأدلتها إن شاء الله وبه الثقة. وقوله تعالى إخبارًا عن الخليل أنه قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ أى من الخوف أى لا يرعب أهله، وقد فعل الله ذلك شرعًا وقدرًا، كقوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧] وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧] إلى غير ذلك من الآيات، وقد تقدمت الأحاديث فى تحريم القتال فيه. وفى صحيح مسلم[2] عن جابر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يحل لأحد أن يحمل بمكة السلاح**» وقال فى هذه السورة ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ أى اجعل هذه البقعة بلدًا آمنًا وناسب هذا لأنه قبل بناء الكعبة. وقال تعالى فى سورة إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ وناسب هذا هناك لأنه، والله أعلم، كأنه وقع دعاء مرة ثانية بعد بناء البيت واستقرار أهله به، وبعد مولد إسحاق الذى هو أصغر سنًا من إسماعيل بثلاث عشرة سنة، ولهذا قال فى آخر الدعاء ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

وَقَوْلُه تَعَالَى: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ قال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى بن كعب ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ قال: هو قول الله تعالى، وهذا قول مجاهد وعكرمة، وهو الذى صوبه ابن جرير رحمه الله. قال: وقرأ آخرون: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ فجعلوا ذلك من تمام دعاء إبراهيم، كما رواه أبو جعفر عن الربيع عن أبى العالية قال: كان ابن عباس يقول ذلك قول إبراهيم، يسأل ربه أن من كفر فأمتعه قليلًا، وقال أبو جعفر عن ليث بن أبى سليم عن مجاهد ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا﴾ يقول، ومن كفر فأرزقه قليلًا أيضًا ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ قال محمد بن إسحاق: لما عنّ لإبراهيم الدعوة على من أبى الله أن يجعل له الولاية انقطاعًا إلى الله ومحبته، وفراقًا لمن خالف أمره وإن كانوا من ذريته، حين عرف أنه كائن منهم ظالم لا يناله عهده بخبر الله له بذلك، قال الله تعالى: ومن كفر فإنى أرزق البر

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٢١٧٥٨)، من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، انظر السلسلة الصحيحة (١٥٤٥).

(٢) أخرجه مسلم (١٣٥٦).

والفاجر وأمتعه قليلاً، وقال حاتم بن إسماعيل عن حميد الخراط، عن عمار الذهنى، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ قال ابن عباس: كان إبراهيم يحجرها على المؤمنين دون الناس فأنزل الله: ومن كفر أيضًا أرزقهم كما أرزق المؤمنين، أأخلق خلقًا لا أرزقهم؟ أمتعهم قليلاً ثم أضطرهم إلى عذاب النار وبئس المصير، ثم قرأ ابن عباس ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠] رواه ابن مردويه، وروى عن عكرمة ومجاهد نحو ذلك أيضًا، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩-٧٠] وقوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۖ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٣-٢٤] وقوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٣-٣٥].

وقوله: ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أى ثم ألجئه بعد متاعه فى الدنيا وبسطنا عليه من ظلها إلى عذاب النار وبئس المصير، ومعناه أن الله تعالى ينظرهم ويمهلهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر كقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا ۖ وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٤٨] وفى الصحيحين [١] «لا أحدَ أصبرُ على أذًى سمعَه من الله؛ إنهم يجعلون له ولدًا وهو يرزقهم ويعافيهم» وفى الصحيح [٢] أيضًا «إن الله ليُمْلِى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢] وقرأ بعضهم «ومن كفر فَأُمْتِعُهُ قليلاً» الآية، جعله من تمام دعاء إبراهيم وهى قراءة شاذة مخالفة للقراء السبعة، وتركيب السياق يأبى معناها، والله أعلم، فإن الضمير فى قال: راجع إلى الله تعالى فى قراءة الجمهور، والسياق يقتضيه، وعلى هذه القراءة الشاذة يكون الضمير فى قال عائدًا على إبراهيم، وهذا خلاف نظم الكلام، والله سبحانه هو العلام.

وأما قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فالقواعد جمع قاعدة وهى السارية والأساس، يقول تعالى: واذكر يا محمد لقومك بناء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام البيت ورفعهما القواعد منه، وهما يقولان ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ وحكى القرطبى وغيره عن أبى وابن مسعود أنهما كانا يقرآن ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

(قُلْتُ) ويدل على هذا قولهما بعده ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ الآية، فهما فى عمل صالح، وهما يسألان الله تعالى أن يتقبل منهما، كما روى ابن أبى حاتم من حديث محمد بن

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣)، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

يزيد بن خنيس المكى عن وهيب بن الورد أنه قرأ ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ ثم يبكى ويقول: يا خليل الرحمن ترفع قوائم بيت الرحمن وأنت مشفق أن لا يتقبل منك. وهذا كما حكى الله تعالى عن حال المؤمنين الخلص فى قوله ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟﴾ أى يعطون ما أعطوا من الصدقات والنفقات والقربات ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠] أى خائفة أن ألاّ يتقبل منهم، كما جاء به الحديث الصحيح عن عائشة عن رسول الله ﷺ كما سيأتى فى موضعه. وقال بعض المفسرين: الذى كان يرفع القواعد هو إبراهيم والداعى إسماعيل، والصحيح أنهما كانا يرفعان ويقولان كما سيأتى بيانه. وقد روى البخارى هنا حديثا سنورده ثم نتبعه بآثار متعلقة بذلك، قال البخارى[1] رحمه الله حدثنا عبد الله بن محمد، أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن أيوب السختيانى وكثير بن كثير بن عبد المطلب بن أبى وداعة - يزيد أحدهما على الآخر - عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضى الله عنهما، قال: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل اتخذت منطقًا ليعفّى أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهى ترضعه، حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك ووضع عندهما جرابًا فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفا إبراهيم منطلقًا فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى ليس فيه أنيس؟ ولا شىء؟ فقالت له ذلك مرارًا، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت: آلله أمرك بذا؟ قال: نعم: قالت: إذًا لا يضيعنا. ثم رجعت. فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهذه الدعوات ورفع يديه، فقال ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧] حتى بلغ يشكرون وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفذ ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوى - أو قال: يتلبط - فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها، فقامت عليه ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدًا، فلم تر أحدًا، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادى: رفعت طرف درعها ثم سعت سعى الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادى، ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحدًا، فلم تر أحدا، ففعلت ذلك سبع مرات، قال عبد الله ابن عباس: قال النبى ﷺ: «فلذلك سعى الناس بينهما» فلما أشرفت على المروة سمعت صوتًا فقالت «صه» - تريد نفسها - ثم تسمعت فسمعت أيضًا، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث فإذا هى بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه، أو قال: بجناحه، حتى ظهر الماء، فجعلت تحوطه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء فى سقائها وهو يفور بعد ما تغرف.

قال ابن عباس[2]: قال النبى ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم - أو قال: لو لم تغرف من الماء - لكانت زمزم عينًا معينًا» قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافى الضيعة، فإن ههنا بيتًا لله يبنيه هذا الغلام وأبوه وإن الله لا يضيع أهله، وكان البيت مرتفعًا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جُرهَم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء، فنزلوا فى أسفل مكة، فرأوا طائرًا عائدًا، فقالوا: إن هذا الطائر

(١) أخرجه البخاري، (٣٣٦٤).
(٢) أخرجه البخاري (٢٣٦٨).

ليدور على ماء، لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء، فأرسلوا جريًا أو جريين، فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبرهم بالماء، فأقبلوا، قال: وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم، ولكن لا حق لكم فى الماء عندنا، قالوا: نعم، قال ابن عباس: قال النبى ﷺ: «فألفى ذلك أم إسماعيل وهى تحب الأنس» فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، وشب الغلام وتعلم العربية منهم، وأنفسهم وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم، وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل ليطالع تركته فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغى لنا، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بشر، نحن فى ضيق وشدة، فشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام، وقولى له يغير عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل، كأنه أنس شيئًا، فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرته، وسألنى كيف عيشنا؟ فأخبرته أننا فى جهد وشدة، قال: فهل أوصاك بشىء؟ قالت: نعم، أمرنى أن أقرأ عليك السلام، ويقول غير عتبة بابك، قال: ذاك أبى وقد أمرنى أن أفارقك، فالحقى بأهلك، وطلقها وتزوج منهم بأخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد، فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه، فقالت: خرج يبتغى لنا، قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله عز وجل، قال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم، قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء. قال: اللَّهم بارك لهم فى اللحم والماء، قال النبى ﷺ: «ولم يكن لهم يومئذ حب ولو كان لهم لدعا لهم فيه» قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام ومريه يثبت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه، فسألنى عنك فأخبرته، فسألنى كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا بخير، قال: فأوصاك بشىء؟ قالت: نعم، وهو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك، قال: ذاك أبى وأنت العتبة، أمرنى أن أمسكك، ثم لبث عنهم ما شاء الله، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبرى نبلاً له تحت دوحة قريبًا من زمزم، فلما رآه قام إليه، وصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد، ثم قال: يا إسماعيل، إن الله أمرنى بأمر، قال: فاصنع ما أمرك ربك، قال: وتعيننى؟ قال: وأعينك، قال: فإن الله أمرنى أن أبنى ههنا بيتًا، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها، قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة وإبراهيم يبنى، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام عليه، وهو يبنى وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، قال: فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، ورواه عبد بن حميد عن عبد الرزاق به مطولاً، ورواه ابن أبى حاتم عن أبى عبد الله بن حماد الطبرانى، وابن جرير[1] عن أحمد بن ثابت الرازى، كلاهما عن عبد الرزاق به مختصرًا.

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره، (١/ ١٥٥)، وفيه أبو إسحاق -مدلس - وقد عنعنه، ومؤمل بن إسماعيل: سيئ الحفظ، والصحيح ما تقدم من رواية ابن عباس. ورواية علي أخرجها ابن جرير في تفسيره، (٤/ ٧)، وقد ذكره ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» ولم يذكر عنه شيئًا، وقد وثقه العجلي في «معرفة الثقات»، (١/ ٣٣٠).

وقال أبو بكر بن مردويه: أخبرنا إسماعيل بن على بن إسماعيل، أخبرنا بشر بن موسى، أخبرنا أحمد بن محمد الأزرقى، أخبرنا مسلم بن خالد الزنجى عن عبد الملك بن جريج، عن كثير بن كثير، قال: كنت أنا وعثمان بن أبى سليمان وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبى حسين فى ناس مع سعيد بن جبير فى أعلى المسجد ليلاً، فقال سعيد بن جبير: سلونى قبل أن لا ترونى، فسألوه عن المقام، فأنشأ يحدثهم عن ابن عباس، فذكر الحديث بطوله.

ثم قال البخارى: حدثنا عبد الله بن محمد، أخبرنا أبو عامر عبد الملك بن عمرو، أخبرنا إبراهيم بن نافع عن كثير بن كثير، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: لما كان بين إبراهيم وبين أهله ما كان، خرج بإسماعيل وأم إسماعيل ومعهم شنة فيها ماء، فجعلت أم إسماعيل تشرب من الشنة فيدر لبنها على صبيها، حتى قدم مكة، فوضعهما تحت دوحة ثم رجع إبراهيم إلى أهله، فاتبعته أم إسماعيل حتى بلغوا كداء، نادته من ورائه: يا إبراهيم، إلى من تتركنا؟ قال: إلى الله، قالت: رضيت بالله، قال: فرجعت فجعلت تشرب من الشنة ويدر لبنها على صبيها، حتى لما فنى الماء قالت: لو ذهبت فنظرت لعلى أحس أحدًا، فذهبت فصعدت الصفا، فنظرت هل تحس أحدًا، فلم تحس أحدًا فلما بلغت الوادى سعت حتى أتت المروة وفعلت ذلك أشواطًا حتى أتمت سبعًا، ثم قالت: لو ذهبت فنظرت ما فعل الصبى، فذهبت فنظرت فإذا هو على حاله كأنه ينشغ للموت، فلم تقرها نفسها، فقالت: لو ذهبت فنظرت لعلى أحس أحدًا، فذهبت فصعدت الصفا، فنظرت ونظرت هل تحس أحدًا فلم تحس أحدًا حتى أتمت سبعًا، ثم قالت: لو ذهبت فنظرت ما فعل، فإذا هى بصوت فقالت: أغث إن كان عندك خير، فإذا جبريل عليه السلام، قال: فقال بعقبه: هكذا، وغمز عقبه على الأرض، قال: فانبثق الماء، فدهشت أم إسماعيل، فجعلت تحفر، قال: فقال أبو القاسم ﷺ: «لو تركته لكان الماء ظاهرًا» قال: فجعلت تشرب من الماء ويدر لبنها على صبيها، قال فمر ناس من جرهم ببطن الوادى، فإذا هم بطير كأنهم أنكروا ذلك، وقالوا: ما يكون الطير إلا على ماء فبعثوا رسولهم، فنظر فإذا هو بالماء، فأتاهم فأخبرهم، فأتوا إليها، فقالوا: يا أم إسماعيل، أتأذنين لنا أن نكون معك ونسكن معك؟ فبلغ ابنها ونكح منهم امرأة، قال: ثم إنه بدا لإبراهيم ﷺ فقال لأهله: إنى مطلع تركتى، قال: فجاء فسلم، فقال: أين إسماعيل؟ قالت امرأته: ذهب يصيد، قال: قولى له إذا جاء: غيّر عتبة بابك، فلما أخبرته، قال: أنت ذاك فاذهبى إلى أهلك، قال: ثم إنه بدا لإبراهيم فقال: إنى مطلع تركتى، قال: فجاء فقال: أين إسماعيل؟ فقالت امرأته: ذهب يصيد، فقالت: ألا تنزل فتطعم وتشرب؟ فقال، ما طعامكم، وما شرابكم؟ قالت: طعامنا اللحم، وشرابنا الماء، قال: اللَّهم بارك لهم فى طعامهم وشرابهم، قال: فقال أبو القاسم ﷺ «بركة بدعوة إبراهيم»، قال: ثم إنه بدا لإبراهيم ﷺ فقال لأهله: إنى مطلع تركتى، فجاء فوافق إسماعيل من وراء زمزم يصلح نبلاً له، فقال: يا إسماعيل، إن ربك عز وجل أمرنى أن أبنى له بيتًا: فقال: أطع ربك عز وجل، قال: إنه قد أمرنى أن تعينى عليه، فقال: إذن أفعل - أو كما قال - قال: فقام فجعل إبراهيم يبنى وإسماعيل يناوله الحجارة، ويقولان ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ قال: حتى ارتفع البناء وضعف الشيخ عن نقل الحجارة، فقام على حجر المقام فجعل يناوله الحجارة ويقولان ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ

﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ هكذا رواه من هذين الوجهين فى كتاب الأنبياء.

والعجب أن الحافظ أبا عبد الله الحاكم رواه فى كتابه المستدرك عن أبى العباس الأصم عن محمد بن سنان القزاز عن أبى على عبيد الله بن عبد المجيد الحنفى عن إبراهيم بن نافع به، وقال، صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه كذا قال، وقد رواه البخارى كما ترى من حديث إبراهيم بن نافع، وكأن فيه اختصارًا فإنه لم يذكر فيه شأن الذبح، وقد جاء فى الصحيح أن قرنى الكبش كانا معلقين بالكعبة، وقد جاء أن إبراهيم عليه السلام كان يزور أهله بمكة على البراق سريعًا ثم يعود إلى أهله بالبلاد المقدسة، والله أعلم، إنما فيه مرفوع أماكن صرح بها ابن عباس عن النبى ﷺ.

وقد ورد عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب فى هذا السياق ما يخالف بعض هذا، كما قال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار ومحمد بن المثنى، قالا: أخبرنا مؤمل، أخبرنا سفيان عن أبى إسحاق، عن حارثة بن مضرب، عن على بن أبى طالب، قال: لما أمر إبراهيم ببناء البيت خرج معه إسماعيل وهاجر، قال: فلما قدم مكة رأى على رأسه فى موضع البيت مثل الغمامة فيه مثل الرأس فكلمه قال: يا إبراهيم، ابن على ظلى، أو قال: على قدرى، ولا تزد ولا تنقص، فلما بنى خرج وخلف إسماعيل وهاجر، فقالت هاجر: يا إبراهيم، إلى من تكلنا؟ قال: إلى الله، قالت: انطلق فإنه لا يضيعنا، قال: فعطش إسماعيل عطشًا شديدًا، قال فصعدت هاجر إلى الصفا، فنظرت فلم تر شيئًا، حتى أتت المروة فلم تر شيئًا، ثم رجعت إلى الصفا فنظرت فلم تر شيئًا، ففعلت ذلك سبع مرات، فقالت: يا إسماعيل مت حيث لا أراك، فأتته وهو يفحص برجله من العطش، فناداها جبريل فقال لها: من أنت؟ قالت: أنا هاجر أم ولد إبراهيم، قال: فإلى من وكلكما؟ قالت: وكلنا إلى الله، قال: وكلكما إلى كاف، قال: ففحص الأرض بأصبعه، فنبعت زمزم فجعلت تحبس الماء، فقال: دعيه فإنها رواء، ففى هذا السياق أنه بنى البيت قبل أن يفارقها، وقد يحتمل أنه كان محفوظًا أن يكون أولا وضع له محوطًا وتحجيرًا لا أنه بناه إلى أعلاه، حتى كبر إسماعيل فبنياه معًا كما قال الله تعالى.

ثم قال ابن جرير: أخبرنا هناد بن السرى، حدثنا أبو الأحوص عن سماك عن خالد بن عرعرة: أن رجلاً قام إلى على رضى الله عنه، فقال: ألا تخبرنى عن البيت، أهو أول بيت وضع فى الأرض؟ فقال: لا، ولكنه أول بيت وضع فى البركة مقام إبراهيم، ومن دخله كان آمنًا، وإن شئت أنبأتك كيف بنى: إن الله أوحى إلى إبراهيم أن ابن لى بيتًا فى الأرض، فضاق إبراهيم بذلك ذرعًا فأرسل الله السكينة وهى ريح خجوج ولها رأسان، فاتبع أحدهما صاحبه حتى انتهت إلى مكة فتطورت على موضع البيت كطى الجحفة، وأمر إبراهيم أن يبنى حيث تستقر السكينة، فبنى إبراهيم وبقى الحجر فذهب الغلام يبغى شيئًا، فقال إبراهيم: أبغنى حجرًا كما آمرك، قال: فانطلق الغلام يلتمس له حجرًا فأتاه به فوجده قد ركب الحجر الأسود فى مكانه، فقال: يا أبت من أتاك بهذا الحجر؟ قال: أتانى به من لم يتكل على بنائك، جاء به جبريل عليه السلام من السماء فأتماه.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرى، أخبرنا سفيان عن بشر بن عاصم، عن سعيد بن المسيب عن كعب الأحبار، قال: كان البيت غثاءة على الماء قبل أن يخلق الله الأرض بأربعين عامًا، ومنه دحيت الأرض. قال سعيد: وحدثنا على بن أبى طالب: أن إبراهيم أقبل من أرض

أرمينية ومعه السكينة تدله على تبوء البيت كما تتبوأ العنكبوت بيتًا، قال: فكشفت عن أحجار لا يطيق الحجر إلا ثلاثون رجلاً، فقلت: يا أبا محمد فإن الله يقول: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾[البقرة: ١٢٧] قال: كان ذلك بعد، وقال السدى: إن الله عز وجل أمر إبراهيم أن يبنى البيت هو وإسماعيل، ابنيا بيتى للطائفين والعاكفين والركع والسجود. فانطلق إبراهيم حتى أتى مكة فقام هو وإسماعيل وأخذا المعاول لا يدريان أين البيت، فبعث الله ريحًا يقال لها الريح الخجوج، لها جناحان ورأس فى صورة حية، فكشفت لهما حول الكعبة عن أساس البيت الأول، واتبعاها بالمعاول يحفران حتى وضعا الأساس، فذلك حين يقول تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾، ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾[الحج: ٢٦] فلما بنيا القواعد فبلغا مكان الركن، قال إبراهيم لإسماعيل: يا بنى، اطلب لى حجرًا حسنًا أضعه ههنا. قال: يا أبت إنى كسلان لغب، قال: علىّ ذلك، فانطلق يطلب له حجرًا فجاءه بحجر فلم يرضه فقال: ائتنى بحجر أحسن من هذا فانطلق يطلب له حجرًا، وجاءه جبريل بالحجر الأسود من الهند، وكان أبيض ياقوتة بيضاء مثل الثغامة، وكان آدم هبط به من الجنة فاسود من خطايا الناس، فجاءه إسماعيل بحجر فوجده عند الركن، فقال: يا أبت من جاءك بهذا؟ قال: جاء به من هو أنشط منك، فبنيا وهما يدعوان الكلمات التى ابتلى إبراهيم ربه، فقال ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ وفى هذا السياق ما يدل على أن قواعد البيت كانت مبنية قبل إبراهيم، وإنما هدى إبراهيم إليها وبوئ لها، وقد ذهب إلى هذا ذاهبون، كما قال الإمام عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن أيوب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾ قال، القواعد التى كانت قواعد البيت قبل ذلك، وقال عبد الرزاق أيضًا: أخبرنا هشام بن حسان عن سوار ختن عطاء، عن عطاء بن أبى رباح، قال: لما أهبط الله آدم من الجنة كانت رجلاه فى الأرض ورأسه فى السماء، يسمع كلام أهل السماء ودعاءهم يأنس إليهم، فهابت الملائكة حتى شكت إلى الله فى دعائها وفى صلاتها، فخفضه الله تعالى إلى الأرض، فلما فقد ما كان يسمع منهم استوحش، حتى شكا ذلك إلى الله فى دعائه وفى صلاته، فوجه إلى مكة فكان موضع قدميه قرية، وخطوه مفازة، حتى انتهى إلى مكة وأنزل الله ياقوتة من ياقوت الجنة، فكانت على موضع البيت الآن، فلم يزل يطوف به حتى أنزل الله الطوفان، فرفعت تلك الياقوتة، حتى بعث الله إبراهيم عليه السلام فبناه، ذلك قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾[الحج: ٢٦] وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن جريج عن عطاء، قال: قال آدم: إنى لا أسمع أصوات الملائكة، فقال: بخطيئتك، ولكن اهبط إلى الأرض فابن لى بيتًا ثم احفف به كما رأيت الملائكة تحف ببيتى الذى فى السماء فيزعم الناس أنه بناه من خمسة أجبل: من حراء وطور زيتا وطور سيناء وحبل لبنان والجودى، وكان ربضه من حراء، فكان هذا بناء آدم حتى بناه إبراهيم عليه السلام بعد، وهذا صحيح إلى عطاء ولكن فى بعضه نكارة، والله أعلم.

وقال عبد الرزاق أيضًا: أخبرنا معمر عن قتادة، قال: وضع الله البيت مع آدم حين أهبط الله آدم إلى الأرض، وكان مهبطه بأرض الهند، وكان رأسه فى السماء ورجلاه فى الأرض، فكانت الملائكة تهابه، فنقص إلى ستين ذراعًا، فحزن آدم إذ فقد أصوات الملائكة وتسبيحهم، فشكا ذلك إلى الله عز وجل، فقال الله: يا آدم إنى أهبطت لك بيتًا تطوف به كما يطاف حول عرشى، وتصلى عنده كما يُصلّى

عند عرشي، فانطلق إليه آدم، فخرج ومدّ له في خطوه، فكان بين كل خطوتين مفازة، فلم تزل تلك المفازة بعد ذلك، فأتى آدم البيت فطاف به ومن بعده من الأنبياء.

وقال ابن جرير [١]: أخبرنا ابن حميد، أخبرنا يعقوب القمي، عن حفص بن حميد، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال، وضع الله البيت على أركان الماء على أربعة أركان قبل أن تخلق الدنيا بألفي عام، ثم دحيت الأرض من تحت البيت. وقال محمد بن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي نجيح عن مجاهد وغيره من أهل العلم: إن الله لما بوأ إبراهيم مكان البيت خرج إليه من الشام أو خرج معه إسماعيل وأمه هاجر وإسماعيل طفل صغير يرضع، وحملوا فيما حدثني على البراق، ومعه جبريل يدله على موضع البيت ومعالم الحرم، خرج معه جبريل، فكان لا يمر بقرية إلا قال: أبهذه أمرت يا جبريل؟ فيقول جبريل: امضه، حتى قدم به مكة، وهي إذ ذاك عضاه وسلم وسمر، وبها أناس يقال لهم: العماليق خارج مكة وما حولها، والبيت يومئذ ربوة حمراء مدرة، فقال إبراهيم لجبريل: أههنا أمرت أن أضعهما؟ قال: نعم، فعمد بهما إلى موضع الحجر فأنزلهما فيه، وأمر هاجر أم إسماعيل أن تتخذ فيه عريشًا، فقال ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾[إبراهيم: ٣٧] إلى قوله: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾[إبراهيم: ٣٧] وقال عبد الرزاق: أخبرنا هشام بن حسان، أخبرني حميد، عن مجاهد، قال: خلق الله موضع هذا البيت قبل أن يخلق شيئًا بألفي سنة، وأركانه في الأرض السابعة، وكذا قال ليث بن أبي سليم عن مجاهد: القواعد في الأرض السابعة، وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، أخبرنا عمرو بن رافع أخبرنا عبد الوهاب بن معاوية عن عبد المؤمن بن خالد، عن علياء بن أحمر: إن ذا القرنين قدم مكة، فوجد إبراهيم وإسماعيل يبنيان قواعد البيت من خمسة أجبل. فقال: ما لكما ولأرضنا؟ فقال: نحن عبدان مأموران، أمرنا ببناء هذه الكعبة. قال: فهاتا بالبينة على ما تدعيان. فقامت خمسة أكبش فقلن: نحن نشهد أن إبراهيم وإسماعيل عبدان مأموران أمرا ببناء هذه الكعبة. فقال: قد رضيت وسلمت، ثم مضى، وذكر الأزرقي في تاريخ مكة أن ذا القرنين طاف مع إبراهيم عليه السلام بالبيت، وهذا يدل على تقدم زمانه، والله أعلم.

وقال البخاري [٢] رحمه الله: قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ﴾ الآية، القواعد: أساسه، واحدها قاعدة، والقواعد من النساء واحدتها قاعدة. حدثنا إسماعيل: حدثني مالك عن ابن شهاب، عن سالم بن عبد الله أن عبد الله بن محمد بن أبي بكر أخبر عبد الله بن عمر عن عائشة زوج النبي ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «ألم ترى أن قومك حين بنوا البيت اقتصروا على قواعد إبراهيم؟» فقلت: يا رسول الله، ألا تردها على قواعد إبراهيم؟ قال «لولا حدثان قومك بالكفر» فقال عبد الله بن عمر: لئن كانت عائشة سمعت هذا من رسول الله ﷺ ما أرى رسول الله ﷺ ترك استلام الركنين الذين يليان الحجر، إلا أن البيت لم يتمم على قواعد إبراهيم عليه السلام. وقد رواه في الحج عن القعنبي، وفي أحاديث الأنبياء عن عبد الله بن يوسف ومسلم، عن يحيى بن يحيى، ومن

---

(١) الروايات المذكورة عن عطاء بن أبي رباح: «ونزول آدم» وعن قتادة: «وعدم سماعه لصوت الملائكة، وبنائه للبيت»، أخرجها ابن جرير في «تفسيره» (١/ ٥٤٧) وكلها روايات مرسلة وفيها نكارة كما قال ابن كثير.

(٢) أخرجه البخاري (١٢٦).

حديث ابن وهب والنسائى من حديث عبد الرحمن بن القاسم كلهم عن مالك به. ورواه مسلم أيضًا من حديث نافع قال: سمعت عبد الله بن أبى بكر بن أبى قحافة، يحدث عبد الله بن عمر عن عائشة، عن النبى ﷺ، قال: «**لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية أو قال: بكفر - لأنفقت كنز الكعبة فى سبيل الله، ولجعلت بابها بالأرض ولأدخلت فيها الحجر**» وقال البخارى: أخبرنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن الأسود، قال: قال لى ابن الزبير: كانت عائشة تسر إليك حديثًا كثيرًا، فما حدثتك فى الكعبة؟ قال: قلت: قالت لى: قال النبى ﷺ: «**يا عائشة لولا قومك حديث عهدهم - فقال ابن الزبير - بكفر لنقضت الكعبة، فجعلت لها بابين: بابًا يدخل منه الناس، وبابًا يخرجون منه**» ففعله ابن الزبير، انفرد بإخراجه البخارى فرواه هكذا فى كتاب العلم من صحيحه، وقال مسلم[1] فى صحيحه: حدثنا يحيى بن يحيى، أخبرنا أبو معاوية عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، قالت: قال لى رسول الله ﷺ: «**ولولا حداثة عهد قومك بالكفر لنقضت الكعبة ولجعلتها على أساس إبراهيم، فإن قريشًا حين بنت البيت استقصرت، ولجعلت لها خلفًا**» قال: وحدثنا أبو بكر بن أبى شيبة، وأبو كريب، قالا: أخبرنا ابن نمير عن هشام بهذا الإسناد انفرد به مسلم، قال: وحدثنى محمد بن حاتم، حدثنى محمد ابن مهدى، أخبرنا سليم بن حيان عن سعيد يعنى ابن ميناء، قال: سمعت عبد الله بن الزبير يقول: حدثتنى خالتى، يعنى عائشة رضى الله عنها، قالت: قال النبى ﷺ «يا عائشة لولا قومك حديثو عهد بشرك، لهدمت الكعبة فألزقتها بالأرض، ولجعلت لها بابًا شرقيًا، وبابًا غربيًا، وزدت فيها ستة أذرع من الحجر فإن قريشًا اقتصرتها حيث بنت الكعبة» انفرد به أيضًا.

(ذكر بناء قريش الكعبة بعد إبراهيم الخليل عليه السلام بمدد طويلة وقبل مبعث رسول الله ﷺ بخمس سنين)

وقد نقل معهم فى الحجارة وله من العمر خمس وثلاثون سنة صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين. قال محمد بن إسحاق بن يسار فى السيرة: ولما بلغ رسول الله ﷺ خمسًا وثلاثون سنة، اجتمعت قريش لبنيان الكعبة، وكانوا يهمون بذلك ليسقفوها ويهابون هدمها، وإنما كانت رضمًا فوق القامة فأرادوا رفعها وتسقيفها وذلك أن نفرًا سرقوا كنز الكعبة، وإنما كان يكون فى بئر فى جوف الكعبة، وكان الذى وجد عنده الكنز دويك مولى بنى مليح بن عمرو من خزاعة، فقطعت قريش يده، ويزعم الناس أن الذين سرقوه وضعوه عند دويك، وكان البحر قد رمى بسفينة إلى جدة لرجل من تجار الروم، فتحطمت، فأخذوا خشبها فأعدوه لتسقيفها، وكان بمكة رجل قبطى نجار، فهيأ لهم فى أنفسهم بعض ما يصلحها، وكانت حية تخرج من بئر الكعبة التى كانت تطرح فيها ما يهدى لها كل يوم فتتشرف على جدار الكعبة وكانت مما يهابون، وذلك أنه كان لا يدنو منها أحد إلا احزألت وكشت وفتحت فاها، فكانوا يهابونها، فبينا هى يومًا تشرف على جدار الكعبة كما كانت تصنع، بعث الله إليها طائرًا فاختطفها فذهب بها، فقالت قريش: إنا لنرجو أن يكون الله قد رضى ما أردنا، عندنا عامل رفيق، وعندنا خشب، وقد كفانا الله الحية، فلما أجمعوا أمرهم فى هدمها وبنيانها، قام أبو وهب بن

(١) أخرجه مسلم (١٣٣٣).

عمرو بن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم، فتناول من الكعبة حجرًا فوثب من يده حتى رجع إلى موضعه، فقال: يا معشر قريش، لا تدخلوا فى بنيانها من كسبكم إلا طيبا، لا يدخل فيها مهر بغى، ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من الناس، قال ابن إسحاق: والناس ينتحلون هذا الكلام للوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، قال: ثم إن قريشًا تجزأت الكعبة، فكان شق الباب لبنى عبد مناف وزهرة، وكان ما بين الركن الأسود والركن اليمانى لبنى مخزوم وقبائل من قريش انضموا إليهم، وكان ظهر الكعبة لبنى جمح وسهم، وكان شق الحجر لبنى عبد الدار بن قصى ولبنى أسد بن عبد العزى بن قصى ولبنى عدى بن كعب بن لؤى وهو الحطيم، ثم إن الناس هابوا هدمها وفرقوا منه، فقال الوليد بن المغيرة، أنا أبدءوكم فى هدمها، فأخذ المعول ثم قام عليها وهو يقول: اللّهم لم ترع، اللّهم إنا لا نريد إلا الخير، ثم هدم من ناحية الركنين فتربص الناس تلك الليلة، وقالوا: ننظر، فإن أصيب لم نهدم منها شيئًا، ورددناها كما كانت، وإن لم يصبه شىء فقد رضى الله ما صنعنا، فأصبح الوليد من ليلته غاديًا على عمله، فهدم وهدم الناس معه، حتى إذا انتهى الهدم بهم إلى الأساس، أساس إبراهيم عليه السلام، أفضوا إلى حجارة خضر كالأسنة آخذ بعضها بعضًا، قال: فحدثنى بعض من يروى الحديث: أن رجلًا من قريش ممن كان يهدمها، أدخل عتلة بين حجرين منها ليقلع بها أيضًا أحدهما، فلما تحرك الحجر انتفضت مكة بأسرها، فانتهوا عن ذلك الأساس.

قال ابن إسحاق: ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها، كل قبيلة تجمع على حدة، ثم بنوها حتى بلغ البنيان موضع الركن، يعنى الحجر الأسود، فاختصموا فيه كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، حتى تحاوروا وتخالفوا وأعدوا للقتال، فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دمًا، ثم تعاقدوا هم وبنو عدى بن كعب بن لؤى على الموت، وأدخلوا أيديهم فى ذلك الدم فى تلك الجفنة فسموا «لعقة الدم» فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمسًا، ثم إنهم اجتمعوا فى المسجد فتشاوروا وتناصفوا، فزعم بعض أهل الرواية أن أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، وكان عامئذ أسن قريش كلهم، قال: يا معشر قريش، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم فيه، ففعلوا، فكان أول داخل رسول الله ﷺ، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين رضينا، هذا محمد. فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر قال ﷺ: هلم إلى ثوبًا، فأتى به فأخذ الركن، يعنى الحجر الأسود، فوضعه فيه بيده، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعًا، ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده ﷺ ثم بنى عليه، وكانت قريش تسمى رسول الله ﷺ قبل أن ينزل الوحى الأمين فلما فرغوا من البنيان وبنوها على ما أرادوا، قال الزبير بن عبد المطلب، فيما كان من أمر الحية التى كانت قريش تهاب بنيان الكعبة لها:

عجبت لما تصوبت العقاب ... إلى الثعبان وهى لها اضطراب
وقد كانت يكون لها كشيش ... وأحيانًا يكون لها وثاب
إذا قمنا إلى التأسيس شدت ... تهيبنا البناء وقد تهاب
فلما إن خشينا الرجز جاءت ... عقاب تتلئب لها انصباب
فضمتها إليها ثم خلت ... لنا البنيان ليس له حجاب

فقمنا حاشدين إلى بناء ... لنا منه القواعد والتراب
غداة نرفع التأسيس منه ... وليس على مساوينا ثياب
أعز به المليك بنى لؤى ... فليس لأصله منهم ذهاب
وقد حشدت هناك بنو عدى ... ومرة قد تقدمها كلاب
فبوأنا المليك بذاك عزًا ... وعند الله يلتمس الثواب

قال ابن إسحاق: وكانت الكعبة على عهد النبى ﷺ ثمانى عشر ذراعًا، وكانت تكسى القباطى، ثم كسيت بعد البرود، وأول من كساها الديباج الحجاج بن يوسف.

(**قُلْتُ**) ولم تزل على بناء قريش حتى احترقت فى أول إمارة عبد الله بن الزبير بعد سنة ستين وفى آخر ولاية يزيد بن معاوية، لما حاصروا ابن الزبير، فحينئذٍ نقضها ابن الزبير إلى الأرض وبناها على قواعد إبراهيم عليه السلام، وأدخل فيها الحجر، وجعل لها بابًا شرقيًا وبابًا غربيًا ملصقين بالأرض كما سمع ذلك من خالته عائشة أم المؤمنين عن رسول الله ﷺ ولم تزل كذلك مدة إمارته حتى قتله الحجاج، فردها إلى ما كانت عليه بأمر عبد الملك بن مروان له بذلك، كما قال مسلم بن الحجاج فى صحيحه: أخبرنا هناد بن السرى، أخبرنا ابن أبى زائدة، أخبرنا ابن أبى سليمان عن عطاء، قال: لما احترق البيت زمن يزيد بن معاوية حين غزاها أهل الشام، فكان من أمره ما كان، تركه ابن الزبير حتى قدم الناس الموسم، يريد أن يحزبهم أو يجيرهم على أهل الشام، فلما صدر الناس قال: يا أيها الناس، أشيروا على فى الكعبة أنقضها ثم أبنى بناءها، أو أصلح ما وهى منها؟ قال ابن عباس: فإنى قد خرق لى رأى فيها، أرى أن تصلح ما وهَى منها، وتدع بيتًا أسلم الناس عليه، وأحجارًا أسلم الناس عليها، وبعث عليها ﷺ، فقال ابن الزبير: لو كان أحدهم احترق بيته ما رضى حتى يجدده، فكيف بيت ربكم عز وجل؟ إنى مستخير ربى ثلاثًا، ثم عازم على أمرى، فلما مضت ثلاث، أجمع رأيه على أن ينقضها فتحاماها الناس أن ينزل بأول الناس يصعد فيه أمر من السماء، حتى صعده رجل فألقى منه حجارة، فلما لم يره الناس أصابه شىء تتابعوا فنقضوه حتى بلغوا به الأرض، فجعل ابن الزبير أعمدة يستر عليها الستور حتى ارتفع بناؤه، وقال ابن الزبير: إنى سمعت عائشة رضى الله عنها تقول إن النبى ﷺ قال: «**لولا أن الناس حديث عهدهم بكفر، وليس عندى من النفقة ما يقوينى على بنائه لكنت أدخلت فيه من الحجر خمسة أذرع، ولجعلت له بابًا يدخل الناس منه، وبابًا يخرجون منه**» قال: فأنا أجد ما أنفق، ولست أخاف الناس، قال: فزاد فيه خمسة أذرع من الحجر حتى أبدى له أسًا، فنظر الناس إليه، فبنى عليه البناء، وكان طول الكعبة ثمانية عشر ذراعًا فلما زاد فيه استقصره فزاد فى طوله عشرة أذرع وجعل له بابين: أحدهما يدخل منه، والآخر يخرج منه. فلما قتل ابن الزبير، كتب الحجاج إلى عبد الملك يستجيزه بذلك ويخبره أن ابن الزبير قد وضع البناء على أس نظر إليه العدول من أهل مكة: فكتب إليه عبد الملك: إنا لسنا من تلطيخ ابن الزبير فى شىء، أما ما زاده فى طوله فأقره، وأما ما زاد فيه من الحجر فرده إلى بنائه، وسد الباب الذى فتحه، فنقضه وأعاده إلى بنائه، وقد رواه النسائى فى سننه عن هناد، عن يحيى بن أبى زائدة، عن عبد الملك بن أبى سليمان، عن عطاء، عن ابن الزبير عن عائشة بالمرفوع منه، ولم يذكر القصة وقد كانت السنة إقرارًا ما فعله عبد الله بن

الزبير رضى الله عنهما، لأنه هو الذى ودّه رسول الله ﷺ، ولكن خشى أن تنكره قلوب بعض الناس لحداثة عهدهم بالإسلام وقرب عهدهم من الكفر، ولكن خفيت هذه السنة على عبد الملك بن مروان، ولهذا لما تحقق ذلك عن عائشة أنها روت ذلك عن رسول الله ﷺ: قال: وددنا أنا تركناه وما تولى، كما قال مسلم: حدثنى محمد بن حاتم، حدثنا محمد بن بكر، أخبرنا ابن جريج: سمعت عبد الله بن عبيد بن عمير والوليد بن عطاء يحدثان عن الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة، قال عبد الله بن عبيد: وفد الحارث بن عبد الله على عبد الملك بن مروان فى خلافته، فقال عبد الملك: ما أظن أبا خبيب، يعنى ابن الزبير، سمع من عائشة ما كان يزعم أنه سمعه منها، قال الحارث: بلى، أنا سمعته منها. قال: سمعتها تقول ماذا؟ قال: قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إن قومك استقصروا من بنيان البيت، ولولا حداثة عهدهم بالشرك أعدت ما تركوا منه، فإن بدا لقومك من بعدى أن يبنوه، فهلمى لأريك ما تركوه منه**» فأراها قريبًا من سبعة أذرع، هذا حديث عبد الله بن عبيد بن عمير، وزاد عليه الوليد بن عطاء قال النبى ﷺ: «**ولجعلت لها بابين موضوعين فى الأرض: شرقيًا وغربيًا، وهل تدرين لم كان قومك رفعوا بابها**» قالت: لا. قال: «**تعززًا أن لا يدخلها إلا من أرادوا، فكان الرجل إذا هو أراد أن يدخلها يدعونه حتى يرتقى، حتى إذا كاد أن يدخل دفعوه فسقط**» قال عبد الملك: فقلت للحارث: أنت سمعتها تقول هذا؟ قال: نعم، قال فنكت ساعة بعصاه، ثم قال: وددت أنى تركته وما تحمل. قال مسلم: وحدثنا محمد بن عمرو بن جبلة، حدثنا أبو عاصم (ح)، وحدثنا عبد بن حميد، أخبرنا عبد الرزاق كلاهما عن ابن جريج بهذا الإسناد مثل حديث أبى بكر، قال: وحدثنا محمد بن حاتم، حدثنا عبد الله بن بكر السهمى، حدثنا حاتم بن أبى صغيرة عن أبى قزعة: أن عبد الملك بن مروان بينما هو يطوف بالبيت إذ قال: قاتل الله ابن الزبير حيث يكذب على أم المؤمنين، يقول سمعتها تقول: قال رسول الله ﷺ: «**يا عائشة لولا حدثان قومك بالكفر لنقضت الكعبة حتى أزيد فيها من الحجر. فإن قومك قصروا فى البناء**» فقال الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة: لا تقل هذا يا أمير المؤمنين، فإنى سمعت أم المؤمنين تحدث هذا. قال: لو كنت سمعته قبل أن أهدمه لتركته على ما بنى ابن الزبير، فهذا الحديث كالمقطوع به إلى عائشة أم المؤمنين، لأنه قد روى عنها من طرق صحيحة متعددة عن الأسود بن يزيد والحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن محمد بن أبى بكر وعروة بن الزبير، فدل هذا على صواب ما فعله ابن الزبير، فلو ترك لكان جيدًا، ولكن بعدما رجع الأمر إلى هذا الحال، فقد كره بعض العلماء أن يغير عن حاله كما ذكر عن أمير المؤمنين هارون الرشيد أو أبيه المهدى أنه سأل الإمام مالكًا عن هدم الكعبة وردها إلى ما فعله ابن الزبير. فقال له مالك: يا أمير المؤمنين، لا تجعل كعبة الله ملعبة للملوك لا يشاء أحد أن يهدمها إلا هدمها، فترك ذلك الرشيد، نقله عياض والنووى ولا تزال - والله أعلم - هكذا إلى آخر الزمان، إلى أن يخربها ذو السويقتين من الحبشة، كما ثبت ذلك فى الصحيحين [1] عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «**يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة**» أخرجاه، وعن ابن عباس عن النبى ﷺ «**كأنى**

(١) أخرجه البخاري (١٥٩١)، ومسلم، (٢٩٠٩).

به أسود أفحج يقلعها حجرًا حجرًا» رواه البخارى[١] ، وقال الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده[٢] : أخبرنا أحمد بن عبد الملك الحرانى، أخبرنا محمد بن سلمة عن ابن إسحاق عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة، ويسلبها حليتها، ويجردها من كسوتها، ولكأنى أنظر إليه أصيلع أفيدع يضرب عليها بمسحاته ومعوله» - الفدع: زيغ بين القدم وعظم الساق - وهذا، والله أعلم، إنما يكون بعد خروج يأجوج ومأجوج، لما جاء فى صحيح البخارى[٣] عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ «ليحجن البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج» .

وقوله تعالى حكاية لدعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ قال ابن جرير: يعنيان بذلك واجعلنا مستسلمين لأمرك، خاضعين لطاعتك، ولا نشرك معك فى الطاعة أحدًا سواك، ولا فى العبادة غيرك، وقال ابن أبى حاتم: أخبرنا أبى، أخبرنا إسماعيل عن رجاء بن حيان الحصنى القرشى، أخبرنا معقل بن عبيد الله عن عبد الكريم ﴿وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ قال: مخلصين لك، ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ قال: مخلصة، وقال أيضًا: أخبرنا على بن الحسين، أخبرنا المقدمى، أخبرنا سعيد بن عامر عن سلام بن أبى مطيع فى هذه الآية ﴿وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ﴾ قال: كانا مسلمين، ولكنهما سألاه الثبات. وقال عكرمة ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ قال الله: قد فعلت، ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ قال الله: قد فعلت. وقال السدى ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ يعنيان العرب. قال ابن جرير: والصواب أنه يعم العرب وغيرهم، لأن من ذرية إبراهيم بنى إسرائيل، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩] .

(قُلْتُ) وهذا الذى قاله ابن جرير لا ينفيه السدى، فإن تخصيصهم بذلك لا ينفى من عداهم، والسياق إنما هو العرب، ولهذا قال بعده ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: ١٢٩] الآية. والمراد بذلك محمد ﷺ ، وقد بعث فيهم كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢] ومع هذا لا ينفى رسالته إلى الأحمر والأسود لقوله تعالى ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] وغير ذلك من الأدلة القاطعة، وهذا الدعاء من إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام كما أخبرنا الله تعالى عن عباده المتقين المؤمنين فى قوله ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤] وهذا القدر مرغوب فيه شرعًا، فإن من تمام محبة عبادة الله تعالى أن يحب أن يكون من صلبه من يعبد الله وحده لا شريك له. ولهذا لما قال الله تعالى لإبراهيم عليه السلام ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤] قال ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى الظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] وهو قوله ﴿وَاجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] وقد ثبت فى صحيح مسلم[٤] عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ ، أنه قال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو

---

(١) أخرجه البخاري، (١٥٩٥).
(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٧٠١٣)، ورجاله ثقات.
(٣) أخرجه البخاري، (١٥٩٣).
(٤) أخرجه مسلم، (١٦٣١)، أثر مجاهد.

له» ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ قال ابن جريج عن عطاء ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ أخرجها لنا علمناها، وقال مجاهد ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ مذابحنا. وروى عن عطاء أيضًا وقتادة نحو ذلك. وقال سعيد بن منصور [١]: أخبرنا عتاب بن بشير عن خصيف، عن مجاهد، قال: قال إبراهيم ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ فأتاه جبرائيل فأتى به البيت، فقال: ارفع القواعد، فرفع القواعد وأتم البنيان ثم أخذ بيده فأخرجه فانطلق به إلى الصفا، قال: هذا من شعائر الله، ثم انطلق به إلى المروة، فقال: وهذا من شعائر الله، ثم انطلق به نحو منى، فلما كان من العقبة إذا إبليس قائم عند الشجرة، فقال: كبر وارمه، فكبر ورماه، ثم انطلق إبليس فقام عند الجمرة الوسطى، فلما جاز به جبريل وإبراهيم قال له: كبر وارمه، فكبر ورماه، فذهب الخبيث إبليس وكان الخبيث أراد أن يدخل فى الحج شيئًا، فلم يستطع، فأخذ بيد إبراهيم حتى أتى به المشعر الحرام، فقال: هذا المشعر الحرام، فأخذ بيد إبراهيم حتى أتى به عرفات، قال: قد عرفت ما أريتك؟ قالها ثلاث مرات، قال: نعم. وروى عن أبى مجلز وقتادة نحو ذلك، وقال أبو داود الطيالسى [٢]: أخبرنا حماد بن سلمة عن أبى العاصم الغنوى، عن أبى الطفيل، عن ابن عباس، قال: إن إبراهيم لما أرى أوامر المناسك، عرض له الشيطان عند المسعى، فسابقه إبراهيم ثم انطلق به جبريل حتى أتى به منى، قال: هذا مناخ الناس، فلما انتهى إلى جمرة العقبة تعرض له الشيطان، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم أتى به إلى الجمرة الوسطى فعرض له الشيطان، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ثم أتى به الجمرة القصوى فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب فأتى به جمعًا، فقال: هذا المشعر، ثم أتى به عرفة، فقال: هذه عرفة، فقال له جبريل: أعرفت؟.

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾

يقول تعالى إخبارًا عن تمام دعوة إبراهيم لأهل الحرم أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم، أى من ذرية إبراهيم، وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قدر الله السابق فى تعيين محمد صلوات الله وسلامه عليه رسولاً فى الأميين إليهم وإلى سائر الأعجميين من الإنس والجن، كما قال الإمام أحمد [٣]: أخبرنا عبد الرحمن بن مهدى عن معاوية بن صالح، عن سعيد بن سويد الكلبى، عن عبد الأعلى بن هلال السلمى، عن العرباض بن سارية، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنى عند الله لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل فى طينته، وسأنبئكم بأول ذلك، دعوة أبى إبراهيم، وبشارة عيسى بى، ورؤيا أمى التى رأت، وكذلك أمهات النبيين يرين**» وكذلك رواه ابن وهب والليث وكاتبه عبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح وتابعه أبو بكر بن أبى مريم عن سعيد بن سويد به، وقال الإمام أحمد أيضًا: أخبرنا أبو النضر،

---

(١) أثر مجاهد: أخرجه سعيد بن منصور في «سننه» (٢/ ٦١٥)، برقم (٢٢٠)، وفيه خصيف بن عبد الرحمن، صدوق سيئ الحفظ، والراوي عنه عتاب بن بشير، ولا بأس به إلا في رواية عن خصيف فإنها منكرة، وهذا منها. . أثر ابن عباس: أخرجه الطيالسي في «المسند»، (١/ ٣٥١)، برقم (٢٦٩٧)، وفيه أبو عاصم الغنوى، قال الحافظ في «التقريب»: مقبول، أي عند المتابعة، وقال أبو حاتم: أعرفه، ووثقه ابن معين، وكذا الذهبي.

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد، (١٦٧٠٠)، انظر مشكاة المصابيح (٥٧٥٩).

(٣) سبق تخريجه.

أخبرنا الفرج، أخبرنا لقمان بن عامر، قال: سمعت أبا أمامة قال: قلت يا رسول الله: ما كان أول بدء أمرك؟ قال: «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى بي. ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام» والمراد أن أول من نوه بذكره وشهره في الناس إبراهيم عليه السلام، ولم يزل ذكره في الناس مذكورًا مشهورًا سائرًا حتى أفصح باسمه خاتم الأنبياء بني إسرائيل نسبًا، وهو عيسى ابن مريم عليه السلام، حيث قام في بني إسرائيل خطيبًا، وقال ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦] ولهذا قال في هذا الحديث دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى ابن مريم. وقوله: ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام، قيل كان منامًا رأته حين حلمت به، وقصته على قومها، فشاع فيهم واشتهر بينهم، وكان ذلك توطئة وتخصيص الشام بظهور نوره إشارة إلى استقرار دينه ونبوته ببلاد الشأم، ولهذا تكون الشأم في آخر الزمان معقلاً للإسلام وأهله، وبها ينزل عيسى ابن مريم إذا نزل بدمشق بالمنارة الشرقية البيضاء منها، ولهذا جاء في الصحيحين[1] «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك» وفي صحيح البخاري «وهم بالشام» قال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ يعني أمة محمد ﷺ، فقيل له: قد استجيب لك، وهو كائن في آخر الزمان، وكذا قال السدي وقتادة، وقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ يعني القرآن، ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ يعني السنة، قاله الحسن وقتادة ومقاتل بن حيان وأبو مالك وغيرهم، وقيل: الفهم في الدين ولا منافاة، ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يعني طاعة الله والإخلاص وقال محمد بن إسحاق ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ قال يعلمهم الخير فيفعلوه والشر فيتقوه، ويخبرهم برضا الله عنهم إذا أطاعوه ليستكثروا من طاعته ويجتنبوا ما يسخطه من معصيته، وقوله ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي العزيز الذي لا يعجزه شيء، وهو قادر على كل شيء الحكيم في أفعاله وأقواله، فيضع الأشياء في محالها لعلمه وحكمته وعدله.

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾

يقول تبارك وتعالى ردًا على الكفار فيما ابتدعوه وأحدثوه من الشرك بالله، المخالف لملة إبراهيم الخليل إمام الحنفاء، فإنه جرد توحيد ربه تبارك وتعالى فلم يدعُ معه غيره ولا أشرك به طرفة عين، وتبرأ من كل معبود سواه خالف في ذلك سائر قومه حتى تبرأ من أبيه، فقال ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٨-٧٩] وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٧] وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤] وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ

(١) سبق تخريجه.

مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٢] ولهذا وأمثاله قال تعالى: قال الله تعالى ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ [البقرة: ١٣٠] عن طريقته ومنهجه فيخالفها ويرغب عنها: ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠]. أى ظلم نفسه بسفهه وسوء تدبيره بتركه الحق إلى الضلال حيث خالف طريق من اصطفى فى الدنيا للهداية والرشاد من حداثة سنه إلى أن اتخذه الله خليلاً، وهو فى الآخرة من الصالحين السعداء، فمن ترك طريقه هذا ومسلكه وملته، واتبع طريق الضلالة والغى، فأى سفه أعظم من هذا؟ أم أى ظلم أكبر من هذا؟ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، قال أبو العالية وقتادة: نزلت هذه الآية فى اليهود، أحدثوا طريقًا ليست من عند الله، وخالفوا ملة إبراهيم فيما أحدثوه، ويشهد لصحة هذا القول قول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧-٦٨].

وقوله تعالى ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ أى أمره الله بالإخلاص والاستسلام والانقياد، فأجاب إلى ذلك شرعًا وقدرًا، وقوله ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ أى وصى بهذه الملة، وهى الإسلام لله، أو يعود الضمير على الكلمة وهى قوله ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لحرصهم عليها ومحبتهم لها، حافظوا عليها إلى حين الوفاة، ووصوا أبناءهم بها من بعدهم كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ [الزخرف: ٢٨] وقد قرأ بعض السلف ويعقوب بالنصب عطفًا على بنيه، كأن إبراهيم وصى بنيه وابن ابنه يعقوب بن إسحاق وكان حاضرًا ذلك، وقد ادعى القشيرى فيما حكاه القرطبى عنه أن يعقوب إنما ولد بعد وفاة إبراهيم، ويحتاج مثل هذا إلى دليل صحيح، والظاهر، والله أعلم، أن إسحاق ولد له يعقوب فى حياة الخليل وسارة، لأن البشارة وقعت بهما فى قوله ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] وقد قرئ بنصب يعقوب ههنا على نزع الخافض، فلو لم يوجد يعقوب فى حياتهما لما كان لذكره من بين ذرية إسحاق كبير فائدة، وأيضًا فقد قال الله تعالى فى سورة العنكبوت: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧] الآية، وقال فى الآية الأخرى ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢] وهذا يقتضى أنه وجد فى حياته، وأيضًا فإنه بانى بيت المقدس، كما نطقت بذلك الكتب المتقدمة، وثبت فى الصحيحين [١] من حديث أبى ذر قلت: يا رسول الله، أى مسجد وضع أول؟ قال: «المسجد الحرام» قلت: ثم أى؟ قال «بيت المقدس»، قلت: كم بينهما؟ قال «أربعون سنة» الحديث، فزعم ابن حبان أن بين سليمان الذى اعتقد أنه بانى بيت المقدس - وإنما كان جدّده بعد خرابه وزخرفه - وبين إبراهيم أربعين سنة، وهذا مما أنكر على ابن حبان، فإن المدة بينهما تزيد على ألوف السنين، والله أعلم، وأيضًا فإن وصية يعقوب لبنيه سيأتى ذكرها قريبًا، وهذا يدل على أنه ههنا من جملة الموصين. وقوله ﴿يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أى أحسنوا فى حال الحياة، والزموا هذا ليرزقكم الله الوفاة عليه، فإن المرء يموت غالبًا على ما كان عليه، ويبعث على ما مات عليه، وقد أجرى الله الكريم عادته بأنه من قصد الخير وفق له ويسر عليه، ومن نوى

(١) أخرجه البخاري (٣٤٢٥) ومسلم، (٥٢٠).

صالحًا ثبت عليه. وهذا لا يعارض ما جاء فى الحديث الصحيح «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها. وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»[١] لأنه قد جاء فى بعض روايات هذا الحديث ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وبعمل أهل النار فيما يبدو للناس[٢]، وقد قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-١٠].

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾

يقول تعالى محتجًا على المشركين من العرب أبناء إسماعيل وعلى الكفار من بنى إسرائيل - وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام - بأن يعقوب لما حضرته الوفاة، وصى بنيه بعبادة الله وحده لا شريك له، فقال لهم ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ وهذا من باب التغليب، لأن إسماعيل عمه، قال النحاس: والعرب تسمى العم أبًا، نقله القرطبى، وقد استدل بهذه الآية الكريمة من جعل الجد أبًا وحجب به الإخوة، كما هو قول الصديق، حكاه البخارى عنه من طريق ابن عباس وابن الزبير، ثم قال البخارى: ولم يختلف عليه، وإليه ذهبت عائشة أم المؤمنين، وبه يقول الحسن البصرى وطاووس وعطاء، وهو مذهب أبى حنيفة وغير واحد من السلف والخلف، وقال مالك والشافعى وأحمد فى المشهور عنه أنه يقاسم الإخوة، وحكى ذلك عن عمر وعثمان وعلى وابن مسعود وزيد بن ثابت وجماعة من السلف والخلف، واختاره صاحبا أبى حنيفة القاضى أبو يوسف ومحمد بن الحسن، ولتقريرها موضع آخر، وقوله ﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ أى نوحده بالألوهية ولا نشرك به شيئًا غيره، ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ أى مطيعون خاضعون، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣] والإسلام هو ملة الأنبياء قاطبة وإن تنوعت شرائعهم واختلفت مناهجهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، والآيات فى هذا كثيرة والأحاديث فمنها قوله ﷺ «نحن معشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد»[٣] وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ أى مضت، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ أى إن السلف الماضين من آبائكم من الأنبياء والصالحين لا ينفعكم انتسابكم إليهم إذا لم تفعلوا خيرًا يعود نفعه عليكم، فإن لهم أعمالهم التى عملوها ولكم أعمالكم ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وقال أبو العالية والربيع وقتادة ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ يعنى إبراهيم وإسحاق ويعقوب والأسباط ولهذا جاء فى الأثر: «من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه»[٤].

(١) أخرجه البخاري، (٣٣٣٢)، ومسلم، (٢٦٤٣).
(٢) أخرجه البخاري (٤٢٠٧)، ومسلم، (١١٢) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.
(٣) أخرجه البخاري، (٣٤٤٣)، ومسلم، (٢٣٥٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٤) جزء من حديث أخرجه مسلم، (٢٦٩٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾

قال محمد بن إسحاق: حدثنى محمد بن أبى محمد، حدثنى سعيد بن جبير أو عكرمة، عن ابن عباس، قال: قال عبد الله بن صوريا الأعور لرسول الله ﷺ: ما الهدى إلا ما نحن عليه، فاتبعنا يا محمد تهتد، وقالت النصارى مثل ذلك، فأنزل الله عز وجل ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾ وقوله ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [1] أى لا نريد ما دعوتمونا إليه من اليهودية والنصرانية بل نتبع ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أى مستقيمًا، قاله محمد بن كعب القرظى وعيسى بن جارية، وقال خصيف عن مجاهد مخلصا، وروى على بن أبى طلحة عن ابن عباس حاجًا، وكذا روى عن الحسن والضحاك وعطية والسدى، وقال أبو العالية: الحنيف الذى يستقبل البيت بصلاته، ويرى أن حجه عليه إن استطاع إليه سبيلا. وقال مجاهد والربيع بن أنس: حنيفًا أى متبعًا. وقال أبو قلابة: الحنيف الذى يؤمن بالرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم، وقال قتادة: الحنيفية شهادة أن لا إله إلا الله، يدخل فيها تحريم الأمهات والبنات والخالات والعمات وما حرم الله عز وجل والختان.

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾

أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمد ﷺ مفصلا وما أنزل على الأنبياء المتقدمين مجملا، ونص على أعيان من الرسل، وأجمل ذكر بقية الأنبياء، وأن لا يفرقوا بين أحد منهم بل يؤمنوا بهم كلهم، ولا يكونوا كمن قال الله فيهم ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١] الآية، وقال البخارى [2]: حدثنا محمد بن بشار، أخبرنا عثمان بن عمرة، أخبرنا على بن المبارك عن يحيى بن أبى كثير، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن، عن أبى هريرة، قال: كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ «**لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا**». وقد روى مسلم وأبو داود والنسائى [3] من حديث عثمان بن حكيم عن سعيد بن يسار عن ابن عباس، قال: كان رسول الله ﷺ أكثر ما يصلى الركعتين اللتين قبل الفجر بـ: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٣٦] الآية، والأخرى بـ ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢]، وقال أبو العالية والربيع وقتادة: الأسباط بنو يعقوب اثنا عشر رجلًا، ولد كل رجل منهم أمة من الناس، فسموا الأسباط. وقال الخليل بن أحمد وغيره: الأسباط فى بنى إسرائيل كالقبائل فى بنى إسماعيل.

وقال الزمخشرى فى الكشاف: الأسباط حفدة يعقوب ذرارى أبنائه الاثنى عشر وقد نقله الرازى عنه وقرره ولم يعارضه وقال البخارى: الأسباط قبائل فى بنى إسرائيل، وهذا يقتضى أن المراد بالأسباط

---

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره»، (١/ ٥٦٤)، وفيه محمد بن أبي محمد وهو مجهول.

(٢) أخرجه البخاري، (٤٤٨٥).

(٣) أخرجه مسلم (٧٢٧)، وأبو داود (١٢٥٩)، والنسائي (٩٤٤).

ههنا شعوب بنى إسرائيل، وما أنزل الله من الوحى على الأنبياء الموجودين منهم، كما قال موسى لهم ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ [المائدة: ٢٠] الآية، وقال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا﴾ [الأعراف: ١٦٠] قال القرطبى: وسموا الأسباط من السبط، وهو التتابع، فهم جماعة، وقيل أصله من السبط، بالتحريك، وهو الشجر، أى فى الكثرة بمنزلة الشجر. الواحدة سبطة قال الزجاج: ويبين لك هذا ما حدثنا محمد بن جعفر الأنبارى، حدثنا أبو نجيد الدقاق، حدثنا الأسود بن عامر، حدثنا إسرائيل عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: كل الأنبياء من بنى إسرائيل إلا عشرة: إدريس ونوح وهود وصالح وشعيب وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل ومحمد عليهم الصلاة والسلام، قال القرطبى: والسبط الجماعة والقبيلة الراجعون إلى أصل واحد، وقال قتادة: أمر الله المؤمنين أن يؤمنوا به ويصدقوا بكتبه كلها وبرسله. وقال سليمان بن حبيب: إنما أمرنا أن نؤمن بالتوارة والإنجيل، ولا نعمل بما فيهما.

وقال ابن أبى حاتم [1]: أخبرنا محمد بن محمد بن مصعب الصورى، أخبرنا مؤمل، أخبرنا عبيد الله بن أبى حميد عن أبى المليح، عن معقل بن يسار، قال: قال رسول الله ﷺ **«آمنوا بالتوراة والزبور والإنجيل وليسعكم القرآن»**.

﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

يقول تعالى: فإن آمنوا، يعنى الكفار من أهل الكتاب وغيرهم، بمثل ما آمنتم به يا أيها المؤمنون من الإيمان بجميع كتب الله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم ﴿فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ أى فقد أصابوا الحق وأرشدوا إليه ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أى عن الحق إلى الباطل بعد قيام الحجة عليهم ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾، أى فسينصرك عليهم ويظفرك بهم ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

قال ابن أبى حاتم: قرأ على يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرنا زياد بن يونس، حدثنا نافع بن أبى نعيم، قال: أرسل إلى بعض الخلفاء مصحف عثمان بن عفان ليصلحه، قال زياد: فقلت له: إن الناس ليقولون إن مصحفه كان فى حجره حين قتل فوقع الدم على ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فقال نافع: بصرت عينى بالدم على هذه الآية، وقد تقدم، وقوله ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾، قال الضحاك عن ابن عباس: دين الله، وكذا روى عن مجاهد وأبى العالية وعكرمة وإبراهيم والحسن وقتادة والضحاك وعبد الله بن كثير وعطية العوفى والربيع بن أنس والسدى نحو ذلك وانتصاب صبغة الله إما على الإغراء كقوله ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] أى الزموا ذلك عليكموه، وقال بعضهم: بدلاً من قوله: ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنعام: ١٦١] وقال سيبويه: هو مصدر مؤكد انتصب عن قوله: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٦] كقوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ٣٦] وقد ورد فى حديث رواه ابن أبى حاتم وابن مردويه من رواية أشعث بن إسحاق عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس أن نبى الله ﷺ قال **«إن بنى إسرائيل قالوا: يا موسى، هل يصبغ ربك؟ فقال: اتقوا الله. فناداه ربه: يا موسى سألوك هل يصبغ ربك؟ فقل: نعم،**

---

(١) أخرجه أبو حاتم في «المجروحين» (٢/ ٦٥)، برقم (٦١١)، وفيه عبيد الله بن أبي حميد وهو منكر الحديث.

أنا أصبغ الألوان: الأحمر والأبيض والأسود، والألوان كلها من صبغى»[1] وأنزل الله على نبيه ﷺ ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ كذا وقع فى رواية ابن مردويه مرفوعًا، وهو فى رواية ابن أبى حاتم موقوف وهو أشبه إن صح إسناده والله أعلم.

﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾

يقول الله تعالى مرشدًا نبيه صلوات الله وسلامه عليه إلى درء مجادلة المشركين: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ﴾ أى تناظروننا فى توحيد الله والإخلاص له والانقياد واتباع أوامره وترك زواجره ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ المتصرف فينا وفيكم المستحق لإخلاص الإلهية له وحده لا شريك له ﴿وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ أى نحن برآء منكم ومما تعبدون وأنتم براء منا، كما قال فى الآية الأخرى ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾[يونس: ٤١] وقال تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾[آل عمران: ٢٠] إلى آخر الآية، وقال تعالى إخبارًا عن إبراهيم ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ﴾[الأنعام: ٨٠] إلى آخر الآية، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾[البقرة: ٢٥٨] الآية، وقال فى هذه الآية الكريمة ﴿وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ أى نحن براء منكم كما أنتم براء منا، ونحن له مخلصون أى فى العبادة والتوجه، ثم أنكر تعالى عليهم فى دعواهم أن إبراهيم ومن ذكر بعده من الأنبياء والأسباط، كانوا على ملتهم إما اليهودية وإما النصرانية، فقال: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ يعنى بل الله أعلم، وقد أخبر أنهم لم يكونوا هودًا ولا نصارى كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[آل عمران: ٦٧] الآية والتى بعدها، وقوله ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ قال الحسن البصرى: كانوا يقرءون فى كتاب الله الذى أتاهم إن الدين الإسلام وإن محمدًا رسول الله وإن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، كانوا برآء من اليهودية والنصرانية فشهدوا لله بذلك، وأقروا على أنفسهم لله، فكتموا شهادة الله عندهم من ذلك، وقوله ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ تهديد ووعيد شديد، أى أن علمه محيط بعلمكم وسيجزيكم عليه. ثم قال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ أى قد مضت، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ أى لهم أعمالهم ولكم أعمالكم ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وليس يغنى عنكم انتسابكم إليهم من غير متابعة منكم لهم، ولا تغتروا بمجرد النسبة إليهم حتى تكونوا منقادين مثلهم لأوامر الله واتباع رسله الذين بعثوا مبشرين ومنذرين، فإنه من كفر بنبى واحد، فقد كفر بسائر الرسل ولا سيما بسيد الأنبياء وخاتم المرسلين ورسول رب العالمين إلى جميع الإنس والجن من المكلفين صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر أنبياء الله أجمعين.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية بإسناده، (٤/ ٢٧٦)، وفيه جعفر بن أبي المغيرة، قال ابن منده: ليس بالقوي في سعيد بن جبير، وبهذا يتبين ضعف الإسناد مرفوعًا وموقوفًا.

﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾

قيل: المراد بالسفهاء - ههنا مشركوا العرب، قاله الزجاج، وقيل: أحبار يهود، قاله مجاهد، وقيل: المنافقون، قاله السدى، والآية عامة فى هؤلاء كلهم، والله أعلم. قال البخارى: أخبرنا أبو نعيم، سمع زهيرًا عن أبى إسحاق، عن البراء رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرًا، أو سبعة عشر شهرًا، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت، وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر، وصلى معه قوم فخرج رجل ممن كان يصلى معه، فمر على أهل المسجد وهم راكعون، قال: أشهد بالله لقد صليت مع النبى ﷺ قبل مكة، فداروا كما هم قبل البيت، وكان الذى مات على القبلة قبل أن تحول قبل البيت رجالا قتلوا لم ندر ما نقول فيهم، فأنزل الله ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ انفرد به البخارى من هذا الوجه، ورواه مسلم [1] من وجه آخر، وقال محمد بن إسحاق: حدثنى إسماعيل بن أبى خالد عن أبى إسحاق، عن البراء، قال: كان رسول الله ﷺ يصلى نحو بيت المقدس، ويكثر النظر إلى السماء ينتظر أمر الله، فأنزل الله ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤] فقال رجل من المسلمين: وددنا لو علمنا من مات منا قبل أن نصرف إلى القبلة، وكيف بصلاتنا نحو بيت المقدس، فأنزل الله ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ وقال السفهاء من الناس، وهم أهل الكتاب: ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها، فأنزل الله ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ إلى آخر الآية، وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا الحسن بن عطية، حدثنا إسرائيل عن أبى إسحاق عن البراء، قال: كان رسول الله ﷺ قد صلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهرًا، أو سبعة عشر شهرًا وكان يحب أن يوجه نحو الكعبة، فأنزل الله ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤] قال: فوجه نحو الكعبة وقال السفهاء من الناس وهم اليهود ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ فأنزل الله ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: إن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة أمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهرًا وكان رسول الله ﷺ يحب قبلة إبراهيم، فكان يدعو الله وينظر إلى السماء، فأنزل الله عز وجل: ﴿فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: ١٤٤] أى نحوه، فارتاب من ذلك اليهود وقالوا: ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها؟ فأنزل الله ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وقد جاء فى هذا الباب أحاديث كثيرة، وحاصل الأمر أنه قد كان رسول الله ﷺ أمر باستقبال الصخرة من بيت المقدس، فكان بمكة يصلى بين الركنين،

(١) أخرجه البخاري، (٤٤٨٦)، ومسلم، (٥٢٥).

فتكون بين يديه الكعبة وهو مستقبل صخرة بيت المقدس، فلما هاجر إلى المدينة تعذر الجمع بينهما، فأمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس، قاله ابن عباس والجمهور، ثم اختلف هؤلاء، هل كان الأمر به بالقرآن أو بغيره على قولين؟ وحكى القرطبى فى تفسيره عن عكرمة وأبى العالية والحسن البصرى: أن التوجه إلى بيت المقدس كان باجتهاده عليه السلام، والمقصود: أن التوجه إلى بيت المقدس بعد مقدمه ﷺ المدينة، واستمر الأمر على ذلك بضعة عشر شهرًا وكان يكثر الدعاء والابتهال أن يوجه إلى الكعبة التى هى قبلة إبراهيم عليه السلام، فأجيب إلى ذلك وأمر بالتوجه إلى البيت العتيق، فخطب رسول الله ﷺ الناس فأعلمهم بذلك، وكان أول صلاة صلاها إليها صلاة العصر، كما تقدم فى الصحيحين من رواية البراء، ووقع عند النسائى من رواية أبى سعيد بن المعلى أنها الظهر، وقال: كنت أنا وصاحبى أول من صلى إلى الكعبة، وذكر غير واحد من المفسرين وغيرهم: أن تحويل القبلة نزل على رسول الله وقد صلى ركعتين من الظهر، وذلك فى مسجد بنى سلمة، فسمى مسجد القبلتين، وفى حديث نويلة بنت مسلم: أنهم جاءهم الخبر بذلك وهم فى صلاة الظهر، قالت: فتحول الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال، ذكره الشيخ أبو عمر بن عبد البر النمرى، وأما أهل قباء فلم يبلغهم الخبر إلى صلاة الفجر اليوم الثانى، كما جاء فى الصحيحين [1] عن ابن عمر رضى الله عنهما، أنه قال: بينما الناس بقباء فى صلاة الصبح، إذ جاءهم آت فقال: إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة. وفى هذا دليل على أن الناسخ لا يلزم حكمه إلا بعد العلم به، وإن تقدم نزوله وإبلاغه، لأنهم لم يؤمروا بإعادة العصر والمغرب والعشاء، والله أعلم. ولما وقع هذا، حصل لبعض الناس من أهل النفاق والريب والكفرة من اليهود ارتياب، وزيغ عن الهدى وتخبيط وشك، وقالوا ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ أى قالوا: ما لهؤلاء تارة يستقبلون كذا وتارة يستقبلون كذا؟ فأنزل الله جوابهم فى قوله ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ أى الحكم والتصرف والأمر كله لله ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥] و﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧] أى الشأن كله فى امتثال أوامر الله، فحيثما وجهنا توجهنا، فالطاعة فى امتثال أمره ولو وجهنا فى كل يوم مرات إلى جهات متعددة: فنحن عبيده وفى تصرفه، وخدامه حيثما وجهنا توجهنا، وهو تعالى له بعبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه وأمته عناية عظيمة إذ هداهم إلى قبلة إبراهيم خليل الرحمن، وجعل توجههم إلى الكعبة المبنية على اسمه تعالى وحده لا شريك له أشرف بيوت الله فى الأرض، إذ هى بناء إبراهيم الخليل عليه السلام ولهذا قال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

وقد روى الإمام أحمد [2] عن على بن عاصم عن حصين بن عبد الرحمن، عن عمرو بن قيس، عن محمد بن الأشعث، عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ، يعنى فى أهل الكتاب: «**إنهم لا يحسدوننا على شىء كما يحسدوننا على يوم الجمعة التى هدانا الله لها وضلوا عنها، وعلى القبلة التى هدانا الله لها وضلوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام: آمين**».

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠٣)، ومسلم (٥٢٦).

(٢) صحيح: وقد سبق تخريجه.

وَقَوْلُه تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ يقول تعالى: إنما حولناكم إلى قبلة إبراهيم عليه السلام، واخترناها لكم لنجعلكم خيار الأمم لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم، لأن الجميع معترفون لكم بالفضل، والوسط ههنا الخيار، والأجود كما يقال: قريش أوسط العرب نسبًا ودارًا، أى خيرها، وكان رسول الله ﷺ وسطًا فى قومه، أى أشرفهم نسبًا، ومنه الصلاة الوسطى التى هى أفضل الصلوات وهى العصر، كما ثبت فى الصحاح وغيرها: ولما جعل الله هذه الأمة وسطًا، خصها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨] وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ **«يدعى نوح يوم القيامة، فيقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيدعى قومه فيقال لهم: هل بلغكم فيقولون: ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد، فيقال لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، قال فذلك قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قال: والوسط العدل، فتدعون فتشهدون له بالبلاغ ثم أشهد عليكم»** رواه البخارى والترمذى والنسائى وابن ماجه[1] من طرق عن الأعمش، وقال الإمام أحمد[2] أيضًا: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن أبى صالح، عن أبى سعيد الخدرى، قال: قال رسول الله ﷺ **«يجىء النبى يوم القيامة ومعه الرجلان وأكثر من ذلك، فيدعى قومه، فيقال: هل بلغكم هذا؟ فيقولون: لا فيقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم، فيقال: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فيدعى بمحمد وأمته، فيقال لهم: هل بلغ هذا قومه؟ فيقولون: نعم، فيقال: وما علمكم؟ فيقولون: جاءنا نبينا فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا، فذلك قوله عز وجل ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قال: عدلاً ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾»** وقال أحمد[3] أيضًا: حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن أبى صالح عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ فى قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قال عدلاً. وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه وابن أبى حاتم[4]، من حديث عبد الواحد بن زياد عن أبى مالك الأشجعى عن المغيرة بن عتيبة بن نهاس، حدثنى مكاتب لنا عن جابر بن عبد الله عن النبى ﷺ قال: **«أنا وأمتى يوم القيامة على كوم مشرفين على الخلائق، ما من الناس أحد إلا ود أنه منا وما من نبى كذبه قومه إلا ونحن نشهد أنه قد بلغ رسالة ربه عز وجل»**، وروى الحاكم فى مستدركه[5] وابن مردويه أيضًا، واللفظ له من حديث مصعب بن ثابت عن محمد بن كعب القرظى عن جابر بن عبد الله قال: شهد رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري، (٤٤٨٧)، والترمذي، (٢٩٦١)، وابن ماجه، (٤٢٨٤)، وأحمد، (١٠٨٩١).

(٢) صحيح: أخرجه أحمد، (١١١٦٤)، انظر صحيح الجامع الصغير، (٨٠٣٣).

(٣) صحيح: أخرجه أحمد، (١٠٦٨٤)، انظر صحيح جامع الترمذي، (٢٩٦١).

(٤) عزاه السيوطي في «الدر المنثور»، (١/ ٣٤٩)، إلى ابن جرير (٢/ ٨)، وابن أبي حاتم وابن مردويه وفيه جهالة الراوي عن جابر.

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك، (٢/ ٢٩٤)، برقم (٣٠٦١)، وفيه مصعب بن ثابت، قال عنه ابن معين: ضعيف، ليس بشيء وقال أحمد: أراه ضعيف الحديث، وقال أبو حاتم الرازي: صدوق، كثير الغلط، ليس بالقوي، وقال ابن حبان: انفرد بالمناكير عن المشاهير.

جنازة فى بنى سلمة وكنت إلى جانب رسول الله ﷺ فقال بعضهم: والله يا رسول الله لنعم المرء كان، لقد كان عفيفًا مسلمًا وكان... وأثنوا عليه خيرًا، فقال رسول الله ﷺ: «أنت بما تقول». فقال الرجل: الله يعلم بالسرائر، فأما الذى بدا لنا منه فذاك، فقال النبى ﷺ: «وجبت وجبت»، ثم شهد جنازة فى بنى حارثة وكنت إلى جانب رسول الله ﷺ فقال بعضهم: يا رسول الله بئس المرء كان إن كان لفظًا غليظًا فأثنوا عليه شرًا، فقال رسول الله ﷺ لبعضهم: «أنت بالذى تقول». فقال الرجل: الله أعلم بالسرائر، فأما الذى بدا لنا منه فذاك. فقال رسول الله ﷺ: «وجبت». قال مصعب بن ثابت: فقال لنا عند ذلك محمد بن كعب: صدق رسول الله ﷺ ثم قرأ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ ثم قال الحاكم: هذا صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس بن محمد حدثنا داود بن أبى الفرات عن عبد الله بن بريدة عن أبى الأسود أنه قال: أتيت المدينة فوافقتها وقد وقع بها مرض فهم يموتون موتًا ذريعًا، فجلست إلى عمر بن الخطاب فمرت به جنازة فأثنى على صاحبها خيرًا، فقال: وجبت وجبت، ثم مر بأخرى فأثنى عليها شرًا، فقال عمر: وجبت. فقال أبو الأسود: ما وجبت يا أمير المؤمنين قال، قلت كما قال رسول الله ﷺ «أيما مسلم شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة» قال: فقلنا وثلاثة قال: فقال «وثلاثة» قال: فقلنا واثنان: قال «واثنان». ثم لم نسأله عن الواحد.

وكذا رواه البخارى والترمذى والنسائى[1] من حديث داود بن أبى الفرات به. وقال ابن مردويه حدثنا أحمد بن عثمان بن يحيى حدثنا أبو قلابة الرقاشى، حدثنى أبو الوليد حدثنا نافع بن عمر حدثنى أمية بن صفوان عن أبى بكر بن أبى زهير الثقفى عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ بالبناوة يقول: «يوشك أن تعلموا خياركم من شراركم» قالوا: بم يا رسول الله؟ قال: «بالثناء الحسن والثناء السيئ أنتم شهداء الله فى الأرض»، ورواه ابن ماجه عن أبى بكر بن أبى شيبة عن يزيد بن هارون، ورواه الإمام أحمد[2] عن يزيد بن هارون وعبد الملك بن عمر وشريح عن نافع عن ابن عمر به.

وَقَوْلُه تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ يقول تعالى: إنما شرعنا لك يا محمد التوجه أولاً إلى بيت المقدس، ثم صرفناك عنه إلى الكعبة ليظهر حال من يتبعك ويطيعك، ويستقبل معك حيثما توجهت ممن ينقلب على عقبه، أى مرتدًا عن دينه وإن كانت لكبيرة، أى هذه الفعلة وهو صرف التوجه عن بيت المقدس إلى الكعبة، أى وإن كان هذا لأمرًا عظيمًا فى النفوس إلا على الذين هدى الله قلوبهم وأيقنوا بتصديق الرسول، وأن كل ما جاء به فهو الحق الذى لا مرية فيه، وأن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد فله أن يكلف عباده بما شاء وينسخ ما يشاء، وله الحكمة التامة والحجة البالغة فى جميع ذلك بخلاف الذين فى قلوبهم مرض، فإنه كلما حدث أمر أحدث لهم شكًا كما يحصل للذين آمنوا إيقان وتصديق، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٤-

---

(١) أخرجه البخاري، (١٣٦٨)، والترمذي، (١٠٥٩)، والنسائي، (١٩٣٤)، وأحمد (١٤٠).

(٢) حسن: أخرجه ابن ماجه، (٤٢٢١)، وأحمد (٢٧٠٩٨)، انظر صحيح سنن ابن ماجه.

١٢٥]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤] وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢] ولهذا كان من ثبت على تصديق الرسول ﷺ واتباعه فى ذلك وتوجه حيث أمره الله من غير شك ولا ريب من سادات الصحابة، وقد ذهب بعضهم إلى أن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار هم الذين صلوا إلى القبلتين. وقال البخارى[1] فى تفسير هذه الآية: حدثنا مسدد حدثنا يحيى عن سفيان عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال: بينا الناس يصلون الصبح فى مسجد قباء إذ جاء رجل فقال: قد أنزل على النبى ﷺ قرآن وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها، فتوجهوا إلى الكعبة. وقد رواه مسلم من وجه آخر عن ابن عمر ورواه الترمذى[2] من حديث سفيان الثورى وعنده أنهم كانوا ركوعًا فاستداروا كما هم إلى الكعبة وهم ركوع، وكذا رواه مسلم من حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس مثله، وهذا يدل على كمال طاعتهم لله ولرسوله وانقيادهم لأوامر الله عز وجل رضى الله عنهم أجمعين.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ أى صلاتكم إلى بيت المقدس قبل ذلك ما كان يضيع ثوابها عند الله، وفى الصحيح من حديث أبى إسحاق السبيعى عن البراء قال: مات قوم كانوا يصلون نحو بيت المقدس، فقال الناس: ما حالهم فى ذلك؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ ورواه الترمذى عن ابن عباس وصححه، وقال ابن إسحاق: حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ أى بالقبلة الأولى وتصديقكم نبيكم واتباعه إلى القبلة الأخرى، أى ليعطيكم أجرهما جميعًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وقال الحسن البصرى ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ أى ما كان الله ليضيع محمدًا ﷺ وانصرافكم معه حيث انصرف، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وفى الصحيح[3] أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبى قد فرق بينها وبين ولدها فجعلت كلما وجدت صبيًا من السبى أخذته فألصقته بصدرها وهى تدور على ولدها، فلما وجدته ضمته إليها وألقمته ثديها، فقال رسول الله ﷺ «أترون هذه طارحة ولدها فى النار وهى تقدر على أن لا تطرحه» ؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: «فوالله لله أرحم بعباده من هذه بولدها».

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: كان أول ما نسخ من القرآن القبلة، وذلك أن رسول الله ﷺ، لما هاجر إلى المدينة وكان أكثر أهلها اليهود فأمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهرًا، وكان يحب قبلة إبراهيم فكان يدعو إلى الله

(١) أخرجه البخاري، (٤٤٨٨)، ومسلم، (٥٢٦)، ورواية الترمذي صحيحة، أخرجها الترمذي. (٣٤٠) انظر صحيح جامع الترمذي.
(٢) صحيح: انظر جامع الترمذي، (٢٩٦٤)، وانظر صحيح جامع الترمذي.
(٣) أخرجه البخاري، (٥٩٩٩)، ومسلم، (٢٧٥٤).

وينظر إلى السماء فأنزل الله ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ إلى قوله: ﴿فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ فارتابت من ذلك اليهود وقالوا: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهُمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ [البقرة: ١٤٢] وقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥] وقال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وروى ابن مردويه من حديث القاسم العمرى عن عمه عبيد الله بن عمر عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس قال: كان النبى ﷺ إذا سلم من صلاته إلى بيت المقدس رفع رأسه إلى السماء، فأنزل الله ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ إلى الكعبة إلى الميزاب يؤم به جبرائيل عليه السلام.

وروى الحاكم فى مستدركه من حديث شعبة عن يعلى بن عطاء عن يحيى بن قمطة قال: رأيت عبد الله بن عمرو جالسًا فى المسجد الحرام بإزاء الميزاب فتلى هذه الآية، ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ قال نحو ميزاب الكعبة. ثم قال صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ورواه ابن أبى حاتم عن الحسن بن عرفة عن هشام عن يعلى بن عطاء به. وهكذا قال غيره وهو أحد قولى الشافعى رضى الله عنه، إن الغرض إصابة عين الكعبة، والقول الآخر وعليه الأكثرون: أن المراد المواجهة، كما رواه الحاكم من حديث محمد بن إسحاق عن عمير بن زياد الكندى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ قال شطره قبله، ثم قال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وهذا قول أبى العالية ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة والربيع بن أنس وغيرهم. وكما تقدم فى الحديث الآخر «ما بين المشرق والمغرب قبلة» وقال القرطبى [1]: روى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**البيت قبلة لأهل المسجد والمسجد قبلة لأهل الحرم والحرم قبلة لأهل الأرض فى مشارقها ومغاربها من أمتى**» وقال أبو نعيم الفضل بن دكين: حدثنا زهير عن أبى إسحاق عن البراء أن النبى ﷺ صلى قبل بيت المقدس ستة عشر شهرًا، أو سبعة عشر شهرًا، وكان يعجبه قبلته قبل البيت؟ وأنه صلى صلاة العصر وصلى معه قوم، فخرج رجل ممن كان يصلى معه فمر على أهل المسجد وهم راكعون فقال: أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله ﷺ قبل مكة فداروا كما هم قبل البيت.

وقال عبد الرزاق [2]: أخبرنا إسرائيل عن أبى إسحاق عن البراء قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة صلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يحول نحو الكعبة، فنزلت ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ فصرف إلى الكعبة وروى النسائى [3] عن أبى سعيد بن المعلى قال: كنا نغدو إلى المسجد على عهد رسول الله ﷺ فنصلى فيه فمررنا يومًا ورسول الله ﷺ قاعد على المنبر، فقلت: لقد حدث أمر فجلست، فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية:

---

(١) ضعيف: أورده القرطبي في تفسيره، (٢/ ١٥٩)، انظر السلسلة الضعيفة، (٤٣٥١).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رواية أبي سعيد بن المعلى «وأن أول صلاة صلاها بعد تحول القبلة صلاة الظهر»، عزاها إلى النسائي في «الكبرى» كما في التحفة، (٩/ ٣١٨)، وفيه مروان بن عثمان، وهو ضعيف.

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ حتى فرغ من الآية، فقلت لصاحبى تعال نركع ركعتين قبل أن ينزل رسول الله ﷺ، فنكون أول من صلى، فتوارينا فصليناها. ثم نزل النبى ﷺ وصلى للناس الظهر يومئذ، وكذا روى ابن مردويه عن ابن عمر: أن أول صلاة صلاها رسول الله ﷺ إلى الكعبة صلاة الظهر وإنها الصلاة الوسطى، والمشهور أن أول صلاة صلاها إلى الكعبة صلاة العصر ولهذا تأخر الخبر عن أهل قباء إلى صلاة الفجر، وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه [1]: حدثنا سليمان بن أحمد حدثنا الحسين بن إسحاق التسترى، حدثنا رجاء بن محمد السقطى حدثنا إسحاق بن إدريس حدثنا إبراهيم بن جعفر، حدثنى أبى عن جدته أم أبيه نويلة بنت مسلم قالت: صلينا الظهر أو العصر فى مسجد بنى حارثة فاستقبلنا مسجد إيلياء فصلينا ركعتين، ثم جاء من يحدثنا أن رسول الله ﷺ قد استقبل البيت الحرام فتحول النساء مكان الرجال والرجال مكان النساء، فصلينا السجدتين الباقيتين ونحن مستقبلون البيت الحرام، فحدثنى رجل من بنى حارثة أن النبى ﷺ قال: «أولئك رجال يؤمنون بالغيب» وقال ابن مردويه أيضًا، حدثنا محمد بن على بن دحيم حدثنا أحمد بن حازم حدثنا مالك بن إسماعيل النهدى حدثنا قيس عن زياد بن علاقة عن عمارة بن أوس قال: بينما نحن فى الصلاة نحو بيت المقدس ونحن ركوع إذ نادى مناد بالباب: إن القبلة قد حولت إلى الكعبة، قال فأشهد على إمامنا أنه انحرف فتحول هو والرجال والصبيان وهم ركوع نحو الكعبة [2]، وقوله: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ أمر تعالى باستقبال الكعبة من جميع جهات الأرض شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا، ولا يستثنى من هذا شىء سوى النافلة فى حال السفر فإنه يصليها حيثما توجه قالبه وقلبه نحو الكعبة، وكذا فى حال المسايفة فى القتال يصلى على كل حال. وكذا من جهل جهة القبلة يصلى باجتهاده وإن كان مخطئًا فى نفس الأمر، لأن الله تعالى لا يكلف نفسًا إلا وسعها.

(مسألة) وقد استدل المالكية بهذه الآية على أن المصلى ينظر أمامه لا إلى موضع سجوده كما ذهب إليه الشافعى وأحمد وأبو حنيفة، قال المالكية بقوله: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ فلو نظر إلى موضع سجوده لاحتاج أن يتكلف ذلك بنوع من الانحناء وهو ينافى كمال القيام، وقال بعضهم: ينظر المصلى فى قيامه إلى صدره. وقال شريك القاضى: ينظر فى حال قيامه إلى موضع سجوده كما قال جمهور الجماعة، لأنه أبلغ فى الخضوع وآكد فى الخشوع وقد ورد به الحديث، وأما فى حال ركوعه فإلى موضع قدميه، وفى حال سجوده إلى موضع أنفه وفى حال قعوده إلى حجره.

وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أى واليهود الذين أنكروا استقبالكم وانصرافكم عن بيت المقدس، يعلمون أن الله تعالى سيوجهك إليها بما فى كتبهم عن أنبيائهم من النعت والصفة لرسول الله ﷺ وأمته، وما خصه الله تعالى به وشرفه من الشريعة الكاملة العظيمة، ولكن أهل الكتاب يتكاتمون ذلك بينهم حسدًا وكفرًا وعنادًا ولهذا تهددهم تعالى بقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

---

(١) سبق تخريجه، وهو ضعيف.

(٢) أخرجه أبو يعلى في «المسند»، ٣/ ٧٩)، برقم (١٥٠٩)، وفيه قيس بن الربيع، وهو صدوق تغير لما كبر وأدخل عليه ابنه ما ليس من حديثه فحدث به.

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

يخبر تعالى عن كفر اليهود وعنادهم ومخالفتهم ما يعرفونه من شأن رسول الله ﷺ ، وأنه لو أقام عليهم كل دليل على صحة ما جاءهم به لما اتبعوه وتركوا أهواءهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧] ولهذا قال ههنا ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ﴾ وقوله ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ إخبار عن شدة متابعة الرسول ﷺ لما أمره الله تعالى به وأنه كما هم مستمسكون بآرائهم وأهوائهم، فهو أيضًا مستمسك بأمر الله وطاعته واتباع مرضاته، وأنه لا يتبع أهواءهم فى جميع أحواله ولا كونه متوجهًا إلى بيت المقدس لكونها قبلة اليهود، وإنما ذلك عن أمر الله تعالى، ثم حذر تعالى عن مخالفة الحق الذى يعلمه العالم إلى الهوى، فإن العالم الحجة عليه أقوم من غيره، ولهذا قال مخاطبًا للرسول والمراد به الأمة ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾

يخبر تعالى أن علماء أهل الكتاب، يعرفون صحة ما جاءهم به الرسول ﷺ كما يعرف أحدهم ولده، والعرب كانت تضرب المثل فى صحة الشىء بهذا، كما جاء فى الحديث. أن رسول الله ﷺ قال لرجل معه صغير **«ابنك هذا»**؟ قال: نعم يا رسول الله أشهد به، قال **«أما إنه لا يخفى عليك ولا تخفى عليه»**[1] قال القرطبى: ويروى عن عمر أنه قال لعبد الله بن سلام: أتعرف محمدًا كما تعرف ولدك؟ قال، نعم وأكثر، نزل الأمين من السماء على الأمين فى الأرض بنعته فعرفته، وإنى لا أدرى ما كان من أمه.

(قُلْتُ) وقد يكون المراد ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ من بين أبناء الناس كلهم، لا يشك أحد ولا يمترى فى معرفة ابنه إذا رآه من أبناء الناس كلهم. ثم أخبر تعالى أنهم مع هذا التحقق والإتقان العلمى ﴿لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ أى ليكتمون الناس ما فى كتبهم من صفة النبى ﷺ ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، ثم ثبت تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين وأخبرهم بأن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق الذى لا مرية فيه ولا شك، فقال: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾.

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

قال العوفى عن ابن عباس: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة: ١٤٨] يعنى بذلك أهل الأديان، يقول لكل قبيلة قبلة يرضونها ووجهة الله حيث توجه المؤمنون. وقال أبو العالية: لليهودى وجهة هو

(١) صحيح: أخرجه أبو داود، (٤٤٩٥)، انظر صحيح سنن أبي داود.

موليها، وللنصرانى وجهة هو موليها، وهداكم أنتم أيتها الأمة إلى القبلة التى هى القبلة. وروى عن مجاهد وعطاء والضحاك والربيع بن أنس والسدى نحو هذا، وقال مجاهد فى الرواية الأخرى، والحسن أمر كل قوم أن يصلوا إلى الكعبة، وقرأ ابن عباس وأبو جعفر الباقر وابن عامر «ولكل وجهة هو مولاها»، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٤٨] وقال ههنا ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أى هو قادر على جمعكم من الأرض وإن تفرقت أجسادكم وأبدانكم.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

هذا أمر ثالث من الله تعالى باستقبال المسجد الحرام من جميع أقطار الأرض، قد اختلفوا فى حكمة هذا التكرار ثلاث مرات، فقيل، تأكيد لأنه أول ناسخ وقع فى الإسلام على ما نص فيه ابن عباس وغيره، وقيل: بل هو منزل على أحوال، فالأمر الأول لمن هو مشاهد الكعبة، والثانى لمن هو فى مكة غائبًا عنها، والثالث لمن هو فى بقية البلدان، هكذا وجهه فخر الدين الرازى. وقال القرطبى: الأول لمن هو بمكة، والثانى لمن هو فى بقية الأمصار، والثالث لمن خرج فى الأسفار، ورجح هذا الجواب القرطبى، وقيل: إنما ذكر ذلك لتعلقه بما قبله أو بعده من السياق، فقال: أولا ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ [البقرة: ١٤٤] إلى قوله ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٤] فذكر فى هذا المقام إجابته إلى طلبته وأمره بالقبلة التى كان يود التوجه إليها ويرضاها، وقال فى الأمر الثانى، ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فذكر أنه الحق من الله وارتقاءه المقام الأول، حيث كان موافقًا لرضا الرسول ﷺ فبين أنه الحق أيضًا من الله يحبه ويرتضيه، وذكر فى الأمر الثالث حكمة قطع حجة المخالف من اليهود الذين كانوا يتحججون باستقبال الرسول إلى قبلتهم وقد كانوا يعلمون بما فى كتبهم أنه سيصرف إلى قبلة إبراهيم عليه السلام إلى الكعبة، وكذلك مشركو العرب انقطعت حجتهم لما صرف الرسول ﷺ عن قبلة اليهود إلى قبلة إبراهيم التى هى أشرف، وقد كانوا يعظمون الكعبة وأعجبهم استقبال الرسول إليها، وقيل غير ذلك من الأجوبة عن حكمة التكرار، وقد بسطها الرازى وغيره، والله أعلم. وقوله، ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ أى: أهل الكتاب فإنهم يعلمون من صفة هذه الأمة التوجه إلى الكعبة، فإذا فقدوا ذلك من صفتها ربما احتجوا بها على المسلمين، ولئلا يحتجوا بموافقة المسلمين إياهم فى التوجه إلى بيت المقدس، وهذا أظهر، قال أبو العالية: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ يعنى به أهل الكتاب حين قالوا: صرف محمد إلى الكعبة. وقالوا: اشتاق الرجل إلى بيت أبيه ودين قومه وكان حجتهم على النبى ﷺ انصرافه إلى البيت الحرام، أن قالوا،

سيرجع إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا، قال ابن أبى حاتم: وروى عن مجاهد وعطاء والضحاك والربيع بن أنس وقتادة والسدى نحو هذا، وقال هؤلاء فى قوله ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ يعنى مشركى قريش. ووجه بعضهم حجة الظلمة وهى داحضة، أن قالوا: إن هذا الرجل يزعم أنه على دين إبراهيم فإن كان توجهه إلى بيت المقدس على ملة إبراهيم، فلم رجع عنه والجواب أن الله تعالى اختار له التوجه إلى بيت المقدس، أولا لما له تعالى فى ذلك من الحكمة، فأطاع ربه تعالى فى ذلك ثم صرفه إلى قبلة إبراهيم وهى الكعبة، فامتثل أمر الله فى ذلك أيضًا، فهو صلوات الله وسلامه عليه مطيع لله فى جميع أحواله لا يخرج عن أمر الله طرفة عين وأمته تبع له، وقوله، ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾ أى لا تخشوا شبه الظلمة المتعنتين وأفردوا الخشية لى، فإنه تعالى هو أهل أن يخشى منه، وقوله: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ﴾ عطف على ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾، أى، لأتم نعمتى عليكم فيما شرعت لكم من استقبال الكعبة، لتكمل لكم الشريعة من جميع وجوهها ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أى إلى ما ضلت عنه الأمم هديناكم إليه وخصصناكم به، ولهذا كانت هذه الأمة أشرف الأمم وأفضلها.

﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾

يذكر تعالى عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمد ﷺ إليهم يتلو عليهم آيات الله مبينات، ويزكيهم، أى، يطهرهم من رذائل الأخلاق ودنس النفوس وأفعال الجاهلية، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ويعلمهم الكتاب، وهو القرآن، والحكمة وهى السنة، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، فكانوا فى الجاهلية الجهلاء يسفهون بالعقول الغراء، فانتقلوا ببركة رسالته، ويمن سفارته، إلى حال الأولياء، وسجايا العلماء. فصاروا أعمق الناس علمًا، وأبرهم قلوبًا، وأقلهم تكلفًا، وأصدقهم لهجة. وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤] الآية، وذم من لم يعرف قدر هذه النعمة، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨] قال ابن عباس: يعنى بنعمة الله محمدًا ﷺ، ولهذا ندب الله المؤمنين إلى الاعتراف بهذه النعمة ومقابلتها بذكره وشكره، وقال: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ قال مجاهد، فى قوله: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ يقول: كما فعلت فاذكرونى، قال عبد الله بن وهب: عن هشام بن سعد عن زيد بن أسلم أن موسى عليه السلام قال: يا رب كيف أشكرك؟ قال له ربه: «تذكرنى ولا تنسانى، فإذا ذكرتنى فقد شكرتنى، وإذا نسيتنى فقد كفرتنى» قال الحسن البصرى وأبو العالية والسدى والربيع بن أنس: إن الله يذكر من ذكره ويزيد من شكره ويعذب من كفره، وقال بعض السلف فى قوله تعالى، ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢] قال، هو أن يطاع فلا يعصى ويذكر فلا ينسى ويشكر فلا يكفر، وقال ابن أبى حاتم، حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، أخبرنا يزيد بن هارون، أخبرنا عمارة الصيدلانى، أخبرنا مكحول الأزدى، قال: قلت لابن عمر: أرأيت قاتل النفس وشارب الخمر والسارق والزانى يذكر الله، وقد قال الله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾؟ قال: إذا ذكر الله هذا ذكره الله بلعنته حتى يسكت، وقال الحسن البصرى فى قوله:

﴿فَاذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ قال: اذكرونى فيما افترضت عليكم أذكركم فيما أوجبت لكم على نفسى، وعن سعيد بن جبير: اذكرونى بطاعتى أذكركم بمغفرتى، وفى رواية، برحمتى. وعن ابن عباس فى قوله: ﴿فَاذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ قال: ذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه. وفى الحديث الصحيح[1]: «يقول الله تعالى من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ومن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه». قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر عن قتادة عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: يا ابن آدم، إن ذكرتنى فى نفسك ذكرتك فى نفسى، وإن ذكرتنى فى ملأ ذكرتك فى ملأ من الملائكة - أو قال، فى ملأ خير منه - وإن دنوت منى شبرًا دنوت منك ذراعًا، وإن دنوت منى ذراعًا دنوت منك باعًا، وإن أتيتنى تمشى أتيتك هرولة»، صحيح الإسناد أخرجه البخارى[2] من حديث قتادة، وعنده قال قتادة: الله أقرب بالرحمة، وقوله: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ أمر الله تعالى بشكره ووعد على شكره بمزيد الخير فقال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾[إبراهيم: ٧] وقال الإمام أحمد[3]: حدثنا روح، حدثنا شعبة عن الفضيل بن فضالة - رجل من قيس - حدثنا أبو رجاء العطاردى، قال: خرج علينا عمران بن حصين وعليه مطرف من خز لم نره عليه قبل ذلك ولا بعده، فقال، إن رسول الله ﷺ قال، «من أنعم الله عليه نعمة فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على خلقه»، وقال روحٌ - مرةً -: «على عبده».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٣ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ۝١٥٤﴾

لما فرغ تعالى من بيان الأمر بالشكر، شرع فى بيان الصبر والإرشاد والاستعانة بالصبر والصلاة، فإن العبد إما أن يكون فى نعمة فيشكر عليها، أو فى نقمة فيصبر عليها كما جاء فى الحديث «عجبًا للمؤمن لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيرًا له: إن أصابته سراء فشكر كان خيرًا له وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرًا له»[4]، وبين تعالى أن أجود ما يستعان به على تحمل المصائب الصبر والصلاة كما تقدم فى قوله: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾[البقرة: ٤٥]، وفى الحديث أن رسول الله ﷺ كان إذا حزبه أمر صلى، والصبر صبران فصبر على ترك المحارم والمآثم وصبر على فعل الطاعات والقربات، والثانى أكثر ثوابًا لأنه المقصود. وأما الصبر الثالث وهو الصبر على المصائب والنوائب، فذاك أيضًا واجب كالاستغفار من المعايب، كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الصبر فى بابين: الصبر لله بما أحب وإن ثقل على الأنفس والأبدان، والصبر لله عما كره وإن نازعت إليه الأهواء، فمن كان هكذا فهو من الصابرين الذين يسلم عليهم إن شاء الله، وقال على بن الحسين زين العابدين: إذا جمع الله الأولين والآخرين ينادى مناد، أين الصابرون ليدخلوا الجنة قبل الحساب؟ قال: فيقوم عنق من الناس فتتلقاهم الملائكة فيقولون: إلى أين يا بنى آدم؟ فيقولون: إلى

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).
(٢) أخرجه البخاري، (٧٥٣٦)، وأحمد (١١٩٩٧)، واللفظ له.
(٣) صحيح: أخرجه أحمد، (١٩٤٣٢)، انظر مشكاة المصابيح، (٤٣٧٩).
(٤) أخرجه مسلم، (٢٩٩٩)، من حديث صهيب الرومي رضي الله عنه.

الجنة، فيقولون: قبل الحساب؟ قالوا: نعم، قالوا: ومن أنتم؟ قالوا: نحن الصابرون، قالوا: وما كان صبركم؟ قالوا: صبرنا على طاعة الله وصبرنا عن معصية الله حتى توفانا الله، قالوا: أنتم كما قلتم ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين.

(قُلْتُ) ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] وقال سعيد بن جبير: الصبر اعتراف العبد لله بما أصاب منه، واحتسابه عند الله رجاء ثوابه وقد يجزع الرجل وهو متجلد لا يرى منه إلا الصبر.

وَقَوْلُه تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ﴾، يخبر تعالى أن الشهداء فى برزخهم أحياء يرزقون، كما جاء فى صحيح مسلم[1]: أن أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت ثم تأوى إلى قناديل معلقة تحت العرش، فاطلع عليهم ربك إطلاعة، فقال: ماذا تبغون؟ فقالوا: يا ربنا وأى شىء نبغى، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك؟ ثم عاد عليهم بمثل هذا فلما رأوا أنهم لا يتركون من أن يسألوا، قالوا: نريد أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل فى سبيلك حتى نقتل فيك مرة أخرى - لما يرون من ثواب الشهادة - فيقول الرب جل جلاله: إنى كتبت أنهم إليها لا يرجعون. وفى الحديث الذى رواه الإمام أحمد[2] عن الإمام الشافعى عن الإمام مالك عن الزهرى عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**نسمة المؤمن طائر تعلق فى شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه**» ففيه دلالة لعموم المؤمنين أيضًا وإن كان الشهداء قد خصصوا بالذكر فى القرآن تشريفًا وتكريمًا وتعظيمًا.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

أخبرنا تعالى أنه يبتلى عباده، أى يختبرهم ويمتحنهم كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١] فتارة بالسراء وتارة بالضراء من خوف وجوع كما قال تعالى: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ [النحل: ١١٢] فإن الجائع والخائف كل منهما يظهر ذلك عليه، ولهذا قال لباس الجوع والخوف. وقال هنا: ﴿بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ﴾ أى بقليل من ذلك ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ أى ذهاب بعضها ﴿وَٱلْأَنفُسِ﴾ كموت الأصحاب والأقارب والأحباب ﴿وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أى لا تغل الحدائق والمزارع كعادتها. قال بعض السلف: فكانت بعض النخيل لا تثمر غير واحدة، وكل هذا وأمثاله مما يختبر الله به عباده فمن صبر أثابه ومن قنط أحل به عقابه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ وقد حكى بعض المفسرين أن المراد من الخوف ههنا خوف الله، وبالجوع صيام رمضان، وبنقص الأموال الزكاة، والأنفس الأمراض، والثمرات الأولاد، وفى هذا نظر، والله أعلم، ثم بين تعالى من الصابرون الذين شكرهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ أى

---

(١) أخرجه مسلم، (١٨٨٧)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه أحمد، (١٥٢٥١)، انظر صحيح الجامع الصغير، (٢٣٧٣).

تسلوا بقولهم هذا عما أصابهم وعلموا أنهم ملك لله يتصرف فى عبيده بما يشاء، وعلموا أنه لا يضيع لديه مثقال ذرة يوم القيامة فأحدث لهم ذلك اعترافهم بأنهم عبيده وأنهم إليه راجعون فى الدار الآخرة. ولهذا أخبر تعالى عما أعطاهم على ذلك، فقال: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ أى ثناء من الله عليهم. قال سعيد بن جبير: أى أمنة من العذاب ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: نعم العدلان ونعمت العلاوة ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ فهذان العدلان ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ فهذه العلاوة وهى ما توضع بين العدلين وهى زيادة فى الحمل فكذلك هؤلاء أعطوا ثوابهم وزيدوا أيضًا.

وقد ورد فى ثواب الاسترجاع وهو قول ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ عند المصائب أحاديث كثيرة. فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا يونس بن محمد حدثنا ليث يعنى ابن سعد عن يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهاد عن عمرو بن أبى عمرو، عن المطلب عن أم سلمة قالت: أتانى أبو سلمة يومًا من عند رسول الله ﷺ فقال: لقد سمعت من رسول الله ﷺ قولاً سررت به. قال: «لا يصيب أحدًا من المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيبته ثم يقول: اللَّهم أجرنى فى مصيبتى وأخلف لى خيرًا منها، إلا فعل ذلك به» ، قالت أم سلمة: فحفظت ذلك منه، فلما توفى أبو سلمة استرجعت وقلت: اللَّهم أجرنى فى مصيبتى وأخلف لى خيرًا منها، ثم رجعت إلى نفسى، فقلت: من أين لى خير من أبى سلمة؟ فلما انقضت عدتى استأذن على رسول الله ﷺ وأنا أدبغ إهابًا لى فغسلت يدى من القرظ وأذنت له، فوضعت له وسادة أدم حشوها ليف فقعد عليها فخطبنى إلى نفسى، فلما فرغ من مقالته قلت: يا رسول الله ما بى أن لا يكون بك الرغبة، لكنى امرأة فى غيرة شديدة فأخاف أن ترى منى شيئًا يعذبنى الله به، وأنا امرأة قد دخلت فى السن وأنا ذات عيال، فقال: **«أما ما ذكرت من الغيرة فسوف يذهبها الله عز وجل عنك وأما ما ذكرت من السن فقد أصابنى مثل الذى أصابك وأما ما ذكرت من العيال فإنما عيالك عيالى»** قالت: فقد سلمت لرسول الله ﷺ ، فتزوجها رسول الله ﷺ فقالت أم سلمة بعد: أبدلنى الله بأبى سلمة خيرًا منه: رسول الله ﷺ ، وفى صحيح مسلم[1] عنها أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ اللَّهم أجرنى فى مصيبتى وأخلف لى خيرًا منها إلا آجره الله فى مصيبته وأخلف له خيرًا منها» قالت: فلما توفى أبو سلمة قلت: كما أمرنى رسول الله ﷺ فأخلف الله لى خيرًا منه رسول الله ﷺ . وقال الإمام أحمد[2]: حدثنا يزيد وعباد بن عباد قالا: حدثنا هشام بن أبى هشام حدثنا عباد بن زياد عن أمه عن فاطمة ابنة الحسين عن أبيها الحسين بن على عن النبى ﷺ قال: **«ما من مسلم ولا مسلمة يصاب بمصيبة فيذكرها وإن طال عهدها - وقال عباد قدم عهدها - فيحدث لذلك استرجاعًا إلا جدد الله له عن ذلك فأعطاه مثل أجرها يوم أصيب»** . ورواه ابن ماجه[3] فى سننه عن أبى بكر بن أبى شيبة عن وكيع عن هشام بن زياد عن أمه عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها. وقد رواهإسماعيل بن علية ويزيد بن هارون عن هشام بن

---

(١) أخرجه مسلم، (٩١٨)، وأحمد، (٢٦٠٩٥)، من حديث أم سلمة، رضي الله عنها.

(٢) ضعيف: أخرجه أحمد، (١٧٣٦)، انظر مشكاة المصابيح، (١٧٥٩).

(٣) ضعيف جدًا: أخرجه ابن ماجه، (١٦٠٠)، انظر ضعيف سنن ابن ماجه.

زياد عن أبيه (كذا) عن فاطمة عن أبيها. وقال الإمام أحمد[١] أنا يحيى بن إسحاق السالحينى أنا حماد بن سلمة عن أبى سنان قال: دفنت ابنًا لى فإنى لفى القبر إذ أخذ بيدى أبو طلحة يعنى الخولانى فأخرجنى وقال لى: ألا أبشرك؟ قلت: بلى. قال: حدثنى الضحاك بن عبد الرحمن بن عرزب عن أبى موسى قال: قال رسول الله ﷺ «قال الله: يا ملك الموت قبضت ولد عبدى؟ قبضت قرة عينه وثمرة فؤاده؟ قال: نعم. قال: فماذا قال؟ قال: حمدك واسترجع. قال: «ابنو له بيتًا فى الجنة وسموه بيت الحمد» ثم رواه عن على بن إسحاق عن عبد الله بن المبارك فذكره. وهكذا رواه الترمذى[٢] عن سويد بن نصر عن ابن المبارك به، وقال: حسن غريب واسم أبى سنان: عيسى بن سنان.

ربع الحزب ٣

﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾

قال الإمام أحمد[٣]: حدثنا سليمان بن داود الهاشمى أنا إبراهيم بن سعد عن الزهرى عن عروة عن عائشة، قال: قلت أرأيت قول الله تعالى. ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ﴾؟ قلت: فوالله ما على أحد جناح أن لا يتطوف بهما، فقالت عائشة بئسما قلت يا ابن أختى إنها لو كانت على ما أولتها عليه كانت فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما، ولكنها إنما أنزلت أن الأنصار كانوا قبل أن يسلموا كانوا يهلون لمناة الطاغية التى كانوا يعبدونها عند المشلل، وكان من أهل لها يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة، فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، إنا كنا نتحرج أن نطوف بالصفا والمروة فى الجاهلية. فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ﴾ قالت عائشة: ثم قد سن رسول الله ﷺ الطواف بهما فليس لأحد أن يدع الطواف بهما أخرجاه فى الصحيحين[٤].

وفى رواية عن الزهرى أنه قال: فحدثت بهذا الحديث أبا بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام. فقال: إن هذا العلم ما كنت سمعته، ولقد سمعت رجالاً من أهل العلم يقولون: إن الناس - إلا من ذكرت عائشة - كانوا يقولون: إن طوافنا بين هذين الحجرين من أمر الجاهلية. وقال آخرون من الأنصار: إنما أمرنا بالطواف بالبيت، ولم نؤمر بالطواف بين الصفا والمروة فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ﴾ قال أبو بكر بن عبد الرحمن: فلعلها نزلت فى هؤلاء وهؤلاء. ورواه البخارى من حديث مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة بنحو ما تقدم. ثم قال البخارى: حدثنا محمد بن يوسف حدثنا سفيان عن عاصم بن سليمان قال: سألت أنسًا عن الصفا والمروة، قال: كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية، فلما جاء الإسلام أمسكنا عنهما فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ﴾، وذكر القرطبى فى تفسيره عن ابن عباس قال: كانت الشياطين تفرق بين الصفا

---

(١) أخرجه أحمد، (١٩٢٢٦)، وفي سنده يحيى بن إسحاق (أبي سنان) ضعفه ابن حنبل وابن معين، وقال أبو زرعة الرازي مخلِّط، ضعيف الحديث، ووثقه ابن حبان، وأبو طلحة جهله الذهبي.

(٢) حسن: أخرجه الترمذي، (١٠٢١)، انظر صحيح جامع الترمذي.

(٣) أخرجه أحمد (٢٤٥٨٨)، ورجاله ثقات.

(٤) أخرجه البخاري، (١٦٤٣)، ومسلم، (١٢٧٧).

والمروة الليل كله وكانت بينهما آلهة، فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله ﷺ عن الطواف بينهما، فنزلت هذه الآية. وقال الشعبى: كان أساف على الصفا وكانت نائلة على المروة، وكانوا يستلمونها فتحرجوا بعد الإسلام من الطواف بينهما فنزلت هذه الآية.

(قُلْتُ) ذكر محمد بن إسحاق فى كتاب السيرة أن أسافًا ونائلة كانا بشرين، فزنيا داخل الكعبة فمسخا حجرين فنصبتهما قريش تجاه الكعبة ليعتبر بهما الناس، فلما طال عهدهما عبدا، ثم حولا إلى الصفا والمروة، فنصبا هنالك فكان من طاف بالصفا والمروة يستلمهما، ولهذا يقول أبو طالب فى قصيدته المشهورة:

وحيث ينيخ الأشعرون ركابهم لمفضى السيول من أساف ونائل

وفى صحيح مسلم[1] من حديث جابر الطويل، وفيه أن رسول الله ﷺ لما فرغ من طوافه بالبيت عاد إلى الركن فاستلمه، ثم خرج من باب الصفا وهو يقول ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ ثم قال: «أبدأ بما بدأ الله به» وفى رواية النسائى «ابدأوا بما بدأ الله به» وقال الإمام أحمد[2]: حدثنا شريح حدثنا عبد الله بن المؤمل عن عطاء بن أبى رباح عن صفية بنت شيبة عن حبيبة بنت أبى تجراة قالت: رأيت رسول الله ﷺ يطوف بين الصفا والمروة والناس بين يديه وهو وراءهم وهو يسعى، حتى أرى ركبتيه من شدة السعى يدور به إزاره وهو يقول: «اسعوا فإن الله كتب عليكم السعى» ثم رواه الإمام أحمد[3] عن عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن واصل مولى أبى عيينة عن موسى بن عبيدة عن صفية بنت شيبة، أن امرأة أخبرتها أنها سمعت النبى ﷺ بين الصفا والمروة يقول: «كتب عليكم السعى فاسعوا» وقد استدل بهذا الحديث على مذهب من يرى أن السعى بين الصفا والمروة ركن فى الحج، كما هو مذهب الشافعى ومن وافقه، ورواية عن أحمد وهو المشهور عن مالك. وقيل أنه واجب وليس بركن، فإن تركه عمدًا أو سهوًا جبره بدم، وهو رواية عن أحمد وبه يقول طائفة، وقيل بل مستحب، وإليه ذهب أبو حنيفة والثورى والشعبى وابن سيرين، وروى عن أنس وابن عمر وابن عباس، وحُكِيَ عن مالك فى العُتْبِيَّة.

قال القرطبى: واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ والقول الأول أرجح لأنه عليه السلام طاف بينهما، وقال: «لتأخذوا عنى مناسككم»[4] فكل ما فعله فى حجته تلك واجب لا بد من فعله فى الحج، إلا ما خرج بدليل، والله أعلم، وقد تقدم قوله عليه السلام «اسعوا فإن الله كتب عليكم السعى» فقد بين الله تعالى أن الطواف بين الصفا والمروة من شعائر الله، أى مما شرع الله تعالى لإبراهيم فى مناسك الحج، وقد تقدم فى حديث ابن عباس، أن أصل ذلك مأخوذ من طواف هاجر وترددها بين الصفا والمروة فى طلب الماء لولدها لما نفذ ماؤهما وزادهما حين تركهما إبراهيم عليه السلام هنالك، وليس عندهما أحد من الناس، فلما خافت على ولدها الضيعة هنالك، ونفذ ما عندهما، قامت تطلب

---

(١) جزء من حديث طويل أخرجه مسلم، (١٢١٨)، والنسائي، (٢٩٦٢).

(٢) أخرجه أحمد، (٢٦٨٢٢)، وفي سنده عبد الله بن المؤمل، ضعفه بعضهم ووثقه آخرون.

(٣) أخرجه أحمد، (٢٦٩١٧٧)، وفي سنده موسى بن عبيد وهو ضعيف.

(٤) أخرجه مسلم، (١٢٩٧)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

الغوث من الله عز وجل، فلم تزل تتردد فى هذه البقعة المشرفة بين الصفا والمروة، متذللة خائفة وجلة مضطرة فقيرة إلى الله عز وجل، حتى كشف الله كربتها، وآنس غربتها، وفرج شدتها، وأنبع لها زمزم التى ماؤها «طعام طعم، وشفاء سقم» فالساعى بينهما ينبغى له أن يستحضر فقره وذله وحاجته إلى الله، فى هداية قلبه وصلاح حاله وغفران ذنبه. وأن يلتجئ إلى الله عز وجل، لتفريج ما هو به من النقائص والعيوب، وأن يهديه إلى الصراط المستقيم، وأن يثبته عليه إلى مماته وأن يحوله من حاله الذى هو عليه من الذنوب والمعاصى، إلى حال الكمال والغفران والسداد والاستقامة كما فعل بهاجر عليها السلام.

وقوله ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ قيل زاد فى طوافه بينهما على قدر الواجب، ثامنة وتاسعة ونحو ذلك، وقيل يطوف بينهما فى حجة تطوع أو عمرة تطوع، وقيل: المراد تطوع خيرًا فى سائر العبادات، حكى ذلك الرازى، وعزى الثالث إلى الحسن البصرى، والله أعلم، وقوله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ أى يثيب على القليل بالكثير، عليم بقدر الجزاء فلا يبخس أحدًا ثوابه، و ﴿لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾

هذا وعيد شديد لمن كتم ما جاء به الرسل من الدلالات البينة على المقاصد الصحيحة، والهدى النافع للقلوب من بعد ما بينه الله تعالى لعباده من كتبه التى أنزلها على رسله، قال أبو العالية: نزلت فى أهل الكتاب، كتموا صفة محمد ﷺ، ثم أخبر أنهم يلعنهم كل شىء على صنيعهم ذلك، فكما أن العالم يستغفر له كل شىء حتى الحوت فى الماء، والطير فى الهواء، فهؤلاء بخلاف العلماء، فيلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون، وقد ورد فى الحديث المسند من طرائق يشد بعضها بعضًا عن أبى هريرة وغيره أن رسول الله ﷺ، قال: «**من سئل عن علم فكتمه، ألجم يوم القيامة بلجام من نار**»[1] والذى فى الصحيح[2] عن أبى هريرة أنه قال: لولا آية فى كتاب الله، ما حدثت أحدًا شيئًا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ﴾ الآية، وقال ابن أبى حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا عمار بن محمد عن ليث بن أبى سليم عن المنهال بن عمرو، عن زاذان أبى عمرو، عن البراء بن عازب، قال: كنا مع النبى ﷺ فى جنازة، فقال: «**إن الكافر يضرب ضربة بين عينيه، يسمعها كل دابة غير الثقلين، فتلعنه كل دابة سمعت صوته، فذلك قول الله تعالى، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ يعنى دواب الأرض**» ورواه ابن ماجة[3] عن محمد بن الصباح، عن عامر بن محمد به، وقال عطاء بن أبى رباح:

---

(١) صحيح: وقد سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري، (١١٨).

(٣) ضعيف: أخرجه ابن ماجه بنحوه، (٤٠٢١)، وانظر ضعيف سنن ابن ماجه.

كل دابة والجن والإنس، وقال مجاهد: إذا أجدبت الأرض، قال البهائم: هذا من أجل عصاة بنى آدم، لعن الله عصاة بنى آدم، وقال أبو العالية والربيع بن أنس وقتادة ﴿وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ يعنى تلعنهم الملائكة والمؤمنون، وقد جاء فى الحديث أن العالم يستغفر له كل شىء، حتى الحيتان فى البحر [١]، وجاء فى هذه الآية أن كاتم العلم يلعنه الله والملائكة والناس أجمعون واللاعنون أيضًا، وهم كل فصيح وأعجمى، إما بلسان المقال، أو الحال، أو لو كان له عقل ويوم القيامة والله أعلم. ثم استثنى الله تعالى من هؤلاء من تاب إليه، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟﴾ أى رجعوا عما كانوا فيه وأصلحوا أعمالهم وبينوا للناس ما كانوا يكتمونه ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وفى هذا دلالة على أن الداعية إلى كفر، أو بدعة إذا تاب إلى الله تاب الله عليه: وقد ورد أن الأمم السابقة لم تكن التوبة تقبل من مثل هؤلاء منهم ولكن هذا من شريعة نبى التوبة ونبى الرحمة صلوات الله وسلامه عليه، ثم أخبر تعالى عمن كفر به واستمر به الحال إلى مماته بأنّ ﴿عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أى فى اللعنة التابعة لهم إلى يوم القيامة ثم المصاحبة فهم فى نار جهنم التى ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ فيها أى لا ينقص عما هم فيه ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أى لا يغير عنهم ساعة واحدة ولا يفتر بل هو متواصل دائم فنعوذ بالله من ذلك. قال أبو العالية وقتادة إن الكافر يوقف يوم القيامة فيلعنه الله ثم يلعنه الملائكة، ثم يلعنه الناس أجمعون.

وقال أبو العالية وقتاده: إن الكافر يوقف يوم القيامة فيلعنه الله، ثم تلعنه الملائكة، ثم يلعنه الناس أجمعون.

(فصل) لا خلاف فى جواز لعن الكفار، وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ومن بعده من الأئمة، يلعنون الكفرة فى القنوت وغيره، فأما الكافر المعين، فقد ذهب جماعة من العلماء إلى أنه لا يلعن لأنا لا ندرى بما يختم الله له، واستدل بعضهم بالآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾﴾ وقالت طائفة أخرى: بل يجوز لعن الكافر المعين، واختاره الفقيه أبو بكر بن العربى المالكى ولكنه احتج بحديث فيه ضعف، واستدل غيره بقوله عليه السلام فى قصة الذى كان يؤتى به سكران فيحده، فقال رجل لعنه الله: ما أكثر ما يؤتى به، فقال رسول الله ﷺ «لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله» [٢] فدل على أن من لا يحب الله ورسوله يلعن، والله أعلم.

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾

يخبر تعالى عن تفرده بالإلهية، وأنه لا شريك له ولا عديل، له، بل هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لا إله إلا هو، وأنه الرحمن الرحيم وقد تقدم تفسير هذين الاسمين فى أول الفاتحة، وفى الحديث [٣] عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد بن السكن عن رسول الله ﷺ، أنه قال «اسم الله الأعظم فى هاتين الآيتين ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ و﴿الٓمٓ ۚ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ

(١) صحيح: أخرجه أبو داود، (٣٦٤١)، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، وانظر صحيح سنن أبي داود.
(٢) أخرجه البخاري، (٦٧٨٠)، من حديث عمر بن الخطاب، رضي الله عنه.
(٣) حسن: أخرجه أبو داود، (١٤٩٦)، والترمذي، (٣٤٧٨)، وابن ماجه، (٣٨٥٥)، وأحمد، (٢٧٠٦٤)، انظر صحيح سنن أبي داود.

﴿ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ١-٢]» ثم ذكر الدليل على تفرده بالإلهية بتفرده بخلق السموات والأرض وما فيهما وما بين ذلك مما ذرأ وبرأ من المخلوقات الدالة على وحدانيته، فقال:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تلك فى ارتفاعها ولطافتها واتساعها وكواكبها السيارة والثوابت ودوران فلكها - وهذه الأرض فى كثافتها وانخفاضها وجبالها وبحارها وقفارها ووهادها وعمرانها وما فيها من المنافع، واختلاف الليل والنهار. هذا يجيء ثم يذهب ويخلفه الآخر ويعقبه، لا يتأخر عنه لحظة، كما قال تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠] وتارة يطول هذا ويقصر هذا، وتارة يأخذ هذا من هذا ثم يتقارضان، كما قال تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾ [الحج: ٦١] أى يزيد من هذا فى هذا ومن هذا فى هذا، ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ أى فى تسخير البحر بحمل السفن من جانب إلى جانب لمعايش الناس والانتفاع بما عند أهل ذلك الإقليم، ونقل هذا إلى هؤلاء وما عند أولئك إلى هؤلاء ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٣٣-٣٦] إلى قوله: ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ أى على اختلاف أشكالها وألوانها ومنافعها وصغرها وكبرها، وهو يعلم ذلك كله ويرزقه، لا يخفى عليه شىء من ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦] ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ أى فتارة تأتى بالرحمة، وتارة تأتى بالعذاب، وتارة تأتى مبشرة بين يدى السحاب، وتارة تسوقه، وتارة تجمعه، وتارة تفرقه، وتارة تصرفه، ثم تارة تأتى من الجنوب وهى الشامية، وتارة تأتى من ناحية اليمن وتارة صبا، وهى الشرقية التى تصدم وجه الكعبة، وتارة دبورًا وهى غربية تنفذ من ناحية دبر الكعبة. وقد صنف الناس فى الرياح والمطر والأنواء كتبًا كثيرة فيما يتعلق بلغاتها وأحكامها، وبسط ذلك يطول ههنا، والله أعلم، ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أى سائر بين السماء والأرض، مسخر إلى ما يشاء الله من الأراضى والأماكن، كما يصرفه تعالى: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أى فى هذه الأشياء دلالات بينة على وحدانية الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه: أخبرنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا أبو سعيد الدشتكى، حدثنى أبى عن أبيه، عن أشعث بن إسحاق، عن جعفر بن أبى المغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: أتت قريش محمدًا ﷺ فقالوا: يا محمد، إنا نريد أن تدعو ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبًا فنشترى به الخيل والسلاح، فنؤمن بك ونقاتل معك، قال: «**أوثقوا لى لئن دعوت ربى فجعل لكم**

الصفا ذهبًا لتؤمنن بى» فأوثقوا له، فدعا ربه، فأتاه جبريل فقال: إن ربك قد أعطاهم الصفا ذهبًا على أنهم إن لم يؤمنوا بك عذبهم عذابًا لم يعذبه أحدًا من العالمين، قال محمد ﷺ: «رب لا بل دعنى وقومى فلأدعهم يومًا بيوم»، فأنزل الله هذه الآية: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ الآية [1]، ورواه ابن أبى حاتم من وجه آخر عن جعفر بن أبى المغيرة به، وزاد فى آخره: وكيف يسألونك الصفا وهم يرون من الآيات ما هو أعظم من الصفا؟ وقال ابن أبى حاتم [2] أيضًا: حدثنا أبى، حدثنا أبو حذيفة، حدثنا شبل عن ابن أبى نجيح، عن عطاء، قال: نزلت على النبى ﷺ بالمدينة ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ فقال كفار قريش بمكة: كيف يسع الناس إله واحد؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ إلى قوله: ﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فبهذا يعلمون أنه إله واحد، وأنه إله كل شىء، وخالق كل شىء. وقال وكيع بن الجراح: حدثنا سفيان عن أبيه، عن أبى الضحى، قال: لما نزلت ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ إلى آخر الآية، قال المشركون: إن كان هكذا، فليأتنا بآية، فأنزل الله عز وجل ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ إلى قوله: ﴿يَعْقِلُونَ﴾ رواه آدم ابن أبى إياس عن أبى جعفر هو الرازى، عن سعيد بن مسروق والد سفيان، عن أبى الضحى به.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾

يَذْكر تعالى حال المشركين به فى الدنيا وما لهم فى الدار الآخرة حيث جعلوا له أندادًا أى أمثالاً ونظراء، يعبدونهم معه ويحبونهم كحبه، وهو الله لا إله إلا هو، ولا ضد له، ولا ندّ له، ولا شريك معه. وفى الصحيحين [3] عن عبد الله بن مسعود، قال: قلت: يا رسول الله، أى الذنب أعظم؟ قال «أن تجعل لله ندًا وهو خلقك» وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ ولحبهم لله وتمام معرفتهم به وتوقيرهم وتوحيدهم له، لا يشركون به شيئًا بل يعبدونه وحده، ويتوكلون عليه، ويلجأون فى جميع أمورهم إليه. ثم توعد تعالى المشركين به الظالمين لأنفسهم بذلك، فقال ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ قال بعضهم: تقدير الكلام، لو عاينوا العذاب لعلموا حينئذ أن القوة لله جميعًا، أى أن الحكم له وحده لا شريك له، وأن جميع الأشياء تحت قهره وغلبته وسلطانه ﴿وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ كما قال ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ [الفجر: ٢٥-٢٦] يقول لو يعلمون ما يعاينونه هنالك

---

(١) صحيح: أخرجه الطبراني في «الكبير»، (١٢/ ١٢) برقم (١٢٣٢٢)، وانظر صحيح السيرة النبوية، ص (١٥٣).
(٢) عزاه السيوطي في «الدر المنثور»، (١/ ٣٩٥)، لابن جرير (٢/ ٦١)، وابن المنذر، وابن أبي حاتم (١/ ٢٧٢/ ١٤٦٢)، عن عطاء ولا يصح لإرساله.
(٣) أخرجه البخاري، (٤٧٦١)، ومسلم، (٨٦).

وما يحل بهم من الأمر الفظيع المنكر الهائل على شركهم وكفرهم لانتهوا عما هم فيه من الضلال ثم أخبر عن كفرهم بأوثانهم وتبرى المتبوعين من التابعين، فقال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ تبرأت منهم الملائكة الذين كانوا يزعمون أنهم يعبدونهم فى الدار الدنيا، فيقول الملائكة: ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: ٦٣] ويقولون: ﴿سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبا: ٤١]، والجن أيضًا تتبرأ منهم، ويتنصلون من عبادتهم لهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥-٦] وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١-٨٢] وقال الخليل لقومه ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبا: ٣١-٣٣]

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢] وقوله: ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ أى عاينوا عذاب الله وتقطعت بهم الحيل وأسباب الخلاص ولم يجدوا عن النار معدلاً ولا مصرفًا. قال عطاء عن ابن عباس ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ قال المودة، وكذا قال مجاهد فى رواية ابن أبى نجيح، وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾ أى لو أن لنا عودة إلى الدار الدنيا حتى نتبرأ من هؤلاء ومن عبادتهم، فلا نلتفت إليهم بل نوحد الله وحده بالعبادة، وهم كاذبون فى هذا بل: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨] كما أخبر تعالى عنهم بذلك، ولهذا قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ أى تذهب وتضمحل كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨] الآية، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً﴾ الآية [النور: ٣٩]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾

لما بين تعالى أنه لا إله إلا هو، وأنه المستقل بالخلق، شرع يبين أنه الرزاق لجميع خلقه، فذكر فى مقام: الامتنان أنه أباح لهم أن يأكلوا مما فى الأرض فى حال كونه حلالاً من الله طيبًا، أى مستطابًا فى

نفسه غير ضار للأبدان ولا للعقول، ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان وهى طرائقه ومسالكه فيما أضلّ أتباعه فيه من تحريم البحائر والسوائب والوصائل ونحوها، مما كان زينه لهم فى جاهليتهم، كما فى حديث عياض بن حمّار الذى فى صحيح مسلم [١] عن رسول الله ﷺ أنه قال «**يقول الله تعالى: إن كل ما أمنحه عبادى فهو لهم حلال - وفيه - وإنى خلقت عبادى حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم**» وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه [٢]: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا محمد بن عيسى بن شيبة المصرى، حدثنا الحسن بن عبد الرحمن الاحتياطى، حدثنا أبو عبد الله الجوزجانى رفيق إبراهيم بن أدهم، حدثنا ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس، قال تليت هذه الآية عند النبى ﷺ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ فقام سعد بن أبى وقاص فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة، فقال «**يا سعد أطب مطعمك، تكن مستجاب الدعوة، والذى نفس محمد بيده، إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه ما يتقبل منه أربعين يومًا، وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به**». وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ تنفير عنه وتحذير منه، كما قال: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦] وقال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠] وقال قتادة والسدى فى قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾: كل معصية لله فهى من خطوات الشيطان، وقال عكرمة: هى نزغات الشيطان، وقال مجاهد: خطاه أو قال خطاياه، وقال أبو مجلز: هى النذور فى المعاصى، وقال الشعبى: نذر رجل أن ينحر ابنه، فأفتاه مسروق بذبح كبش، وقال: هذا من خطوات الشيطان، وقال أبو الضحى عن مسروق أتى عبد الله بن مسعود بضرع وملح، فجعل يأكل فاعتزل رجل من القوم فقال ابن مسعود: ناولوا صاحبكم، فقال: لا أريده، فقال: أصائم أنت؟ قال: لا، قال: فما شأنك؟ قال: حرمت أن آكل ضرعًا أبدًا، فقال ابن مسعود: هذا من خطوات الشيطان، فاطعم وكفّر عن يمينك، رواه ابن أبى حاتم، وقال أيضًا: حدثنا أبى، حدثنا حسان بن عبد الله المصرى عن سليمان التيمى، عن أبى رافع، قال: غضبت يومًا على امرأتى، فقالت: هى يومًا يهودية ويومًا نصرانية، وكل مملوك لها حر إن لم تطلق امرأتك، فأتيت عبد الله بن عمر فقال: إنما هذه من خطوات الشيطان، وكذلك قالت زينب بنت أم سلمة، وهى يومئذ أفقه امرأة فى المدينة، وأتيت عاصمًا وابن عمر فقالا مثل ذلك: وقال عبد بن حميد: حدثنا أبو نعيم عن شريك، عن عبد الكريم، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: ما كان من يمين أو نذر فى غضب، فهو من خطوات الشيطان، وكفارته كفارة يمين. وقال سعيد بن داود في تفسيره، حدثنا عباد بن عبادة المهلبي عن عاصم الأحول عن عكرمة في رجل قال لغلامه: إن لم أجلدك مائة صوت فامرأتك طالق: قال: لا يجلد غلامه ولا تطلق امرأته إنه من خطوات الشيطان. وقوله: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ أى إنما يأمركم عدوكم الشيطان بالأفعال السيئة، وأغلظ منها الفاحشة كالزنا ونحوه، وأغلظ من ذلك وهو القول على الله بلا علم، فيدخل فى هذا كل كافر وكل مبتدع أيضًا.

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم، (٢٨٦٥).

(٢) ضعيف جدًا: أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦/ ٣١١)، برقم (٦٤٩٥)، انظر السلسلة الضعيفة، (١٨١٢).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾

يقول تعالى: وإذا قيل لهؤلاء الكفرة من المشركين: اتبعوا ما أنزل الله على رسوله، واتركوا ما أنتم عليه من الضلال والجهل، قالوا فى جواب ذلك: بل نتبع ما ألفينا، أى وجدنا عليه آباءنا، أى من عبادة الأصنام والأنداد، قال الله تعالى منكرًا عليهم: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ﴾ أى الذين يقتدون بهم ويقتفون أثرهم ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أى ليس لهم فهم ولا هداية. وروى ابن إسحاق عن محمد بن أبى محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أنها نزلت فى طائفة من اليهود دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام، فقالوا: بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، فأنزل الله هذه الآية، ثم ضرب لهم تعالى مثلاً. كما قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾ [النحل: ٦٠] فقال ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى فيما هم فيه من الغى والضلال والجهل كالدواب السارحة التى لا تفقه ما يقال لها بل إذا نعق بها راعيها، أى دعاها إلى ما يرشدها لا تفقه ما يقول ولا تفهمه بل إنما تسمع صوته فقط. هكذا روى عن ابن عباس وأبى العالية ومجاهد وعكرمة وعطاء والحسن وقتادة وعطاء الخراسانى والربيع بن أنس نحو هذا. وقيل: إنما هذا مثل ضرب لهم فى دعائهم الأصنام التى لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل شيئًا واختاره ابن جرير، والأول أولى، لأن الأصنام لا تسمع شيئًا ولا تعقله ولا تبصره ولا بطش لها ولا حياة فيها. وقوله ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ أى صم عن سماع الحق، بكم لا يتفوهون به، عمى عن رؤية طريقه ومسلكه ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أى لا يعلمون شيئًا ولا يفهمونه. كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾

يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين بالأكل من طيبات ما رزقهم تعالى، وأن يشكروه تعالى على ذلك إن كانوا عبيده، والأكل من الحلال سبب لتقبل الدعاء والعبادة، كما أن الأكل من الحرام يمنع قبول الدعاء والعبادة. كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد (١): حدثنا أبو النضر، حدثنا الفضيل بن مرزوق عن عدى بن ثابت، عن أبى حازم، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام، وغذى بالحرام فأنى يستجاب لذلك؟» ورواه مسلم فى صحيحه

(١) حسن - أخرجه أحمد، (٨١٤٨)، انظر صحيح الترغيب والترهيب، (١٧١٧).

والترمذى [١] من حديث فضيل بن مرزوق. ولما امتن تعالى عليهم برزقه وأرشدهم إلى الأكل من طيبه، ذكر أنه لم يحرم عليهم من ذلك إلا الميتة، وهى التى تموت حتف أنفها من غير تذكية وسواء كانت منخنقة أو موقوذة أو مترديه أو نطيحة أو قد عدا عليها السبع، وقد خصص الجمهور من ذلك ميتة البحر لقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ﴾ [المائدة: ٩٦] على ما سيأتى إن شاء الله، وحديث العنبر فى الصحيح وفى المسند والموطأ والسنن [٢] قوله عليه السلام فى البحر «هو الطهور ماؤه الحل ميتته» وروى الشافعى وأحمد وابن ماجه والدارقطنى [٣] حديث ابن عمر مرفوعًا «أحل لنا ميتتان ودمان السمك والجراد والكبد والطحال» وسيأتى تقرير ذلك إن شاء الله فى سورة المائدة.

(مسألة) ولبن الميتة وبيضها المتصل بها نجس عند الشافعى وغيره. لأنه جزء منها. وقال مالك فى رواية: هو طاهر إلا أنه ينجس بالمجاورة، وكذلك أنفحة الميتة فيها الخلاف والمشهور عندهم أنها نجسة، وقد أوردوا على أنفسهم أكل الصحابة من جبن المجوس، فقال القرطبى فى التفسير ههنا يخالط اللبن منها يسير، ويعف عن قليل النجاسة إذا خالط الكثير من المائع وقد روى ابن ماجه [٤] من حديث سيف بن هارون عن سليمان التيمى، عن أبى عثمان النهدى، عن سلمان رضى الله عنه: سئل رسول الله ﷺ عن السمن والجبن والفراء، فقال «**الحلال ما أحل الله فى كتابه، والحرام ما حرم الله فى كتابه، وما سكت عنه فهو مما عفا عنه**» وكذلك حرم عليهم لحم الخنزير سواء ذكى أو مات حتف أنفه، ويدخل شحمه فى حكم لحمه إما تغليبًا أو أن اللحم يشمل ذلك أو بطريق القياس على رأى وكذلك حرم عليهم ما أهل به لغير الله، وهو ما ذبح على غير اسمه تعالى من الأنصاب والأنداد والأزلام ونحو ذلك مما كانت الجاهلية ينحرون له. وذكر القرطبى عن ابن عطية أنه نقل عن الحسن البصرى: أنه سئل عن امرأة عملت عرسًا للعبها فنحرت فيه جزورًا، فقال: لا تؤكل لأنها ذبحت لصنم، وأورد القرطبى عن عائشة رضى الله عنها: أنها سئلت عما يذبحه العجم لأعيادهم فيهدون منه للمسلمين فقالت: ما ذبح لذلك اليوم فلا تأكلوا منه، وكلوا من أشجارهم ثم أباح تعالى تناول ذلك عند الضرورة والاحتياج إليها عند فقد غيرها من الأطعمة، فقال ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ أى فى غير بغى ولا عدوان وهو مجاوزة الحد ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أى فى أكل ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وقال مجاهد: فمن اضطر غير باغ ولا عاد، قاطعًا للسبيل أو مفارقًا للأئمة، أو خارجًا فى معصية الله، فله الرخصة، ومن خرج باغيًا أو عاديًا أو فى معصية الله، فلا رخصة له وإن اضطر إليه، وكذا روى عن سعيد بن جبير.

وقال سعيد فى رواية عنه ومقاتل بن حيان: غير باغ يعنى غير مستحله، وقال السدى: غير باغ،

---

(١) أخرجه مسلم، (١٠١٥)، والترمذي، (٢٩٨٩).

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود، (٨٣)، والترمذي (٦٩)، والنسائي، (٣٣٢)، وابن ماجه، (٣٨٦)، وأحمد، (٧١٩٢)، ومالك، (٤٣)، والدارمي، (٧٢٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، انظر صحيح سنن أبي داود.

(٣) صحيح: أخرجه ابن ماجه، (٣٣١٤)، وأحمد، (٥٦٩٠)، والشافعي في «المسند»، (١/ ٣٤٠)، والدارقطني، (٤/ ٢٧١)، برقم (٢٥)، انظر صحيح سنن ابن ماجه.

(٤) حسن: أخرجه ابن ماجه، (٣٣٦٧)، وانظر صحيح سنن ابن ماجه.

يبتغى فيه شهوته، وقال آدم بن أبى إياس: حدثنا ضمرة عن عثمان بن عطاء وهو الخراسانى، عن أبيه، فى قوله ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ قال: لا يشوى من الميتة ليشتهيه، ولا يطبخه، ولا يأكل إلا العلقة، ويحمل معه ما يبلغه الحلال، فإذا بلغه ألقاه، وهو قوله ﴿وَلَا عَادٍ﴾ ويقول لا يعدو به الحلال، وعن ابن عباس: لا يشبع منها، وفسره السدى بالعدوان، وعن ابن عباس ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ قال ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ فى الميتة ولا عاد فى أكله، وقال قتادة: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾، قال: غير باغ فى الميتة أى فى أكله أن يتعدى حلالا إلى حرام وهو يجد عنه مندوحة، وحكى القرطبى عن مجاهد فى قوله: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾، أى أكره على ذلك بغير اختياره.

(مسألة) ذكر القرطبي إذا وجد المضطر ميتة وطعام الغير بحيث لا قطع فيه ولا أذى، فإنه لا يحل له أكل الميتة بل يأكل طعام الغير بغير خلاف - كذا قال - ثم قال: وإذا أكله، والحالة هذه، هل يضمن أو لا؟ فيه قولان هما روايتان عن مالك، ثم أورد من سنن ابن ماجه [1] من حديث شعبة عن أبى إياس جعفر بن أبى وحشية: سمعت عباد بن شرحبيل العنزى قال: أصابتنا عامًا مخمصة، فأتيت المدينة، فأتيت حائطًا، فأخذت سنبلاً ففركته وأكلته، وجعلت منه فى كسائى، فجاء صاحب الحائط فضربنى وأخذ ثوبى، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال للرجل **«ما أطعمته إذ كان جائعًا ولا ساعيًا، ولا علمته إذ كان جاهلاً»** فأمره فرد إليه ثوبه، فأمر له بوسق من طعام أو نصف وسق، إسناد صحيح قوى جيد وله شواهد كثيرة: من ذلك حديث عمرو بن شعيب عن أبيه، عن جده: سئل رسول الله ﷺ عن الثمر المعلق، فقال **«من أصاب منه من ذى حاجة بفيه غير متخذ خبنة، فلا شىء عليه»** [2] الحديث. وقال مقاتل بن حيان فى قوله: ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: فيما أكل من اضطرار، وبلغنا - والله أعلم - أنه لا يزاد على ثلاث لقم، وقال سعيد بن جبير: غفور لما أكل من الحرام، رحيم إذ أحل له الحرام فى الاضطرار.

وقال وكيع: أخبرنا الأعمش عن أبى الضحى، عن مسروق، قال: من اضطر فلم يأكل ولم يشرب ثم مات، دخل النار، وهذا يقتضى أن أكل الميتة للمضطر عزيمة لا رخصة، قال أبو الحسن الطبرى المعروف بالكيا الهراسى رفيق الغزالى فى الاشتغال، وهذا هو الصحيح عندنا، كالإفطار للمريض ونحو ذلك.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ يعنى اليهود الذين كتموا صفة محمد ﷺ فى كتبهم التى بأيديهم مما تشهد له بالرسالة والنبوة، فكتموا ذلك لئلا تذهب رياستهم وما

(١) صحيح: أخرجه ابن ماجه، (٢٢٩٨)، وانظر صحيح سنن ابن ماجه.

(٢) حسن: أخرجه أبو داود، (١٧١٠)، والترمذي (١٢٨٩)، والنسائي، (٤٩٥٨)، انظر صحيح سنن أبي داود.

كانوا يأخذونه من العرب من الهدايا والتحف على تعظيمهم إياهم، فخشوا - لعنهم الله - إن أظهروا ذلك أن يتبعه الناس ويتركوهم، فكتموا ذلك إبقاء على ما كان يحصل لهم من ذلك وهو نزر يسير، فباعوا أنفسهم بذلك واعتاضوا عن الهدى واتباع الحق وتصديق الرسول والإيمان بما جاء عن الله، بذلك النزر اليسير، فخابوا وخسروا فى الدنيا والآخرة، أما فى الدنيا فإن الله أظهر لعباده صدق رسوله بما نصبه وجعله معه من الآيات الظاهرات والدلائل القاطعات، فصدقه الذين كانوا يخافون أن يتبعوه، وصاروا عونًا له على قتالهم، وباءوا بغضب على غضب، وذمهم الله فى كتابه فى غير موضع فمن ذلك هذه الآية الكريمة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ وهو عرض الحياة الدنيا ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ أى إنما يأكلون ما يأكلونه فى مقابلة كتمان الحق، نارًا تأجج فى بطونهم يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠] وفى الحديث الصحيح[1] عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**الذى يأكل أو يشرب فى آنية الذهب والفضة إنما يجرجر فى بطنه نار جهنم**».

وقوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وذلك لأنه تعالى غضبان عليهم، لأنهم كتموا وقد علموا، فاستحقوا الغضب، فلا ينظر إليهم ولا يزكيهم، أى يثنى عليهم ويمدحهم بل يعذبهم عذابًا أليمًا، وقد ذكر ابن أبى حاتم وابن مردويه، ههنا حديث الأعمش عن أبى حازم، عن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ «**ثلاثة لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر**»[2].

ثم قال تعالى مخبرا عنهم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ أى اعتاضوا عن الهدى، وهو نشر ما فى كتبهم من صفة الرسول وذكر مبعثه والبشارة به من كتب الأنبياء واتباعه وتصديقه، استبدلوا عن ذلك واعتاضوا عنه الضلالة وهو تكذيبه والكفر به وكتمان صفاته فى كتبهم ﴿وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ﴾ أى اعتاضوا عن المغفرة بالعذاب، وهو ما تعاطوه من أسبابه المذكورة، وقوله تعالى: ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ يخبر تعالى أنهم فى عذاب شديد عظيم هائل، يتعجب من رآهم فيها من صبرهم على ذلك مع شدة ما هم فيه من العذاب والنكال والأغلال، عياذًا بالله من ذلك،

وقيل: معنى قوله: ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أى فما أدومهم لعمل المعاصى التى تفضى بهم إلى النار، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ أى إنما استحقوا هذا العذاب الشديد لأن الله تعالى أنزل على رسوله محمد ﷺ وعلى الأنبياء قبله كتبه بتحقيق الحق وإبطال الباطل، وهؤلاء اتخذوا آيات الله هزوا، فكتابهم أمرهم بإظهار العلم ونشره فخالفوه وكذبوه، وهذا الرسول الخاتم يدعوهم إلى الله تعالى ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وهم يكذبونه ويخالفونه ويجحدونه ويكتمون صفته، فاستهزؤا بآيات الله المنزلة على رسله، فلهذا استحقوا العذاب والنكال، ولهذا قال ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري، (٥٦٣٤)، ومسلم، (٢٠٦٥)، واللفظ له.

(٢) أخرجه مسلم، (١٠٧)، وابن أبي حاتم (١/ ٢٨٦) برقم (١٥٣٦).

نصف الحزب ٣

﴿۞ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة على جمل عظيمة وقواعد عميمة، وعقيدة مستقيمة، كما قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عبيد بن هشام الحلبى، حدثنا عبيد الله بن عمرو عن عامر بن شفى، عن عبد الكريم، عن مجاهد، عن أبى ذر: أنه سأل رسول الله ﷺ: ما الإيمان؟ فتلا عليه ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ﴾ إلى آخر الآية، قال: ثم سأله أيضًا، فتلاها عليه، ثم سأله فقال: «**إذا عملت حسنة أحبها قلبك، وإذا عملت سيئة أبغضها قلبك**»[1] وهذا منقطع، فإن مجاهدًا لم يدرك أبا ذر، فإنه مات قديمًا، وقال المسعودى: حدثنا القاسم بن عبد الرحمن قال: جاء رجل إلى أبى ذر، فقال: ما الإيمان؟ فقرأ عليه هذه الآية ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ﴾ حتى فرغ منها، فقال الرجل: ليس عن البر سألتك، فقال أبو ذر: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فسأله عما سألتنى عنه فقرأ عليه هذه الآية فأبى أن يرضى كما أبيت أن ترضى فقال له رسول الله ﷺ وأشار بيده «**المؤمن إذا عمل حسنة سرته ورجا ثوابها، وإذا عمل سيئة أحزنته وخاف عقابها**»[2] ورواه ابن مردويه. وهذا أيضا منقطع، والله أعلم.

وأما الكلام على تفسير هذه الآية، فإن الله تعالى لما أمر المؤمنين أولاً بالتوجه إلى بيت المقدس ثم حولهم إلى الكعبة، شق ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب وبعض المسلمين، فأنزل الله تعالى بيان حكمته فى ذلك وهو أن المراد إنما هو طاعة الله عز وجل، وامتثال أوامره، والتوجه حيثما وجّه واتباع ما شرع، فهذا هو البر والتقوى والإيمان الكامل، وليس فى لزوم التوجه إلى جهة من المشرق أو المغرب بر ولا طاعة إن لم يكن عن أمر الله وشرعه، ولهذا قال ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية، كما قال فى الأضاحى والهدايا ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]

وقال العوفى عن ابن عباس فى هذه الآية: ليس البر أن تصلوا ولا تعملوا، فهذا حين تحول من مكة إلى المدينة ونزلت الفرائض والحدود، فأمر الله بالفرائض والعمل بها، وروى عن الضحاك ومقاتل نحو ذلك، وقال أبو العالية: كانت اليهود تقبل قبل المغرب، وكانت النصارى تقبل قبل المشرق، فقال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ يقول: هذا كلام الإيمان وحقيقته العمل، وروى عن الحسن والربيع بن أنس مثله وقال مجاهد ولكن البر ما ثبت فى القلوب من طاعة الله عز وجل، وقال الضحاك ولكن البر والتقوى أن تؤدوا الفرائض على وجوهها وقال الثورى: ﴿وَلَٰكِنَّ

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك»، (٢/ ٢٩٩)، برقم (٣٠٧٧)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٢) أخرجه محمد بن نصر في «تعظيم قدر الصلاة»، (١/ ٤١٦)، برقم (٤٠٨)، وفي سنده المسعودي قد اختلط، وإسناده منقطع.

﴿ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ الآية قال: هذه أنواع البر كلها، وصدق رحمه الله، فإن من اتصف بهذه الآية، فقد دخل فى عرى الإسلام كلها، وأخذ بمجامع الخير كله، وهو الإيمان بالله وأنه لا إله إلا هو، وصدق بوجود الملائكة الذين هم سفرة بين الله ورسله (والكتاب) وهو اسم جنس يشمل الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء، حتى ختمت بأشرفها وهو القرآن المهيمن على ما قبله من الكتب الذى انتهى إليه كل خير، واشتمل على كل سعادة فى الدنيا والآخرة ونسخ به كل ما سواه من الكتب قبله، وآمن بأنبياء الله كلهم من أولهم إلى خاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، وقوله ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ أى أخرجه وهو محب له راغب فيه، نص على ذلك ابن مسعود وسعيد بن جبير وغيرهما من السلف والخلف، كما ثبت فى الصحيحين [1] من حديث أبى هريرة مرفوعًا «**أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تأمل الغنى وتخشى الفقر**» وقد روى الحاكم فى مستدركه [2] من حديث شعبة والثورى عن منصور، عن زبيد، عن مرة، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ «﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ **أن تعطيه وأنت صحيح شحيح، تأمل العيش وتخشى الفقر**» ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(**قُلْتُ**) وقد رواه وكيع عن الأعمش، وسفيان عن زبيد، عن مرة، عن ابن مسعود موقوفًا، وهو أصح، والله أعلم، وقال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٨-٩] وقال تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] وقوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] نمط آخر أرفع من هذا، وهو أنهم آثروا بما هم مضطرون إليه وهؤلاء أعطوا وأطعموا ما هم محبون له وقوله: ﴿ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وهم قرابات الرجل وهم أولى من أعطى من الصدقة كما ثبت فى الحديث «**الصدقة على المساكين صدقة، وعلى ذى الرحم اثنتان: صدقة وصلة** [3]»، فهم أولى الناس بك وبرك وإعطائك» وقد أمر الله تعالى بالإحسان إليهم فى غير موضع من كتابه العزيز ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ هم الذين لا كاسب لهم، وقد مات آباؤهم وهم ضعفاء صغار دون البلوغ والقدرة على التكسب، وقد قال عبد الرزاق: أنبأنا معمر عن جويبر، عن الضحاك عن النزال بن سبرة، عن على، عن رسول الله ﷺ قال: «**لا يتم بعد حلم**» [4] ﴿وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾ وهم الذين لا يجدون ما يكفيهم فى قوتهم وكسوتهم وسكناهم، فيعطون ما تسد به حاجتهم وخلتهم، وفى

---

(١) أخرجه البخاري، (١٤١٩)، ومسلم، (١٠٣٢).

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك»، (٢/ ٢٩٩)، برقم (٣٠٧٨)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٣) **صحيح**: أخرجه النسائي، (٢٥٨٢)، وابن ماجه، (١٨٤٤)، وأحمد، (١٥٧٩٤)، والدارمي، (١٦٨٠)، من حديث سلمان بن عامر رضي الله عنه، انظر صحيح سنن النسائي.

(٤) **حسن لغيره**: أورده ابن الجوزي في «العلل المتناهية»، (٢/ ٦٤١)، وقد صححه الشيخ الألباني في «إرواء الغليل»، (١٢٤٤)، وأورد له طريقين غير هذا الطريق، ولا يخلو كل منهما من مقال وضعف، وأورد له شاهدًا من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما بأسانيد ضعيفة وعن ابن عباس موقوفًا، وثم شواهد أخرى أوردها الهيثمي في «المجمع»، (٤/ ٢٢٦)، من حديث أنس ومن حديث حنظلة وفي أسانيدها ضعف أيضًا، ورواه الشهاب في «مسنده»، (٨٣٩)، مرسلاً.

الصحيحين [١] عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ، قال: «**ليس المسكين بهذا الطواف الذى ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان، ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه**»، ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهو المسافر المجتاز الذى قد فرغت نفقته فيعطى ما يوصله إلى بلده، وكذا الذى يريد سفرًا فى طاعة فيعطى ما يكفيه فى ذهابه وإيابه، ويدخل فى ذلك الضيف، كما قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس أنه قال: ابن السبيل هو الضيف الذى ينزل بالمسلمين، وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وأبو جعفر الباقر والحسن وقتادة والضحاك والزهرى والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان ﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾ وهم الذين يتعرضون للطلب فيعطون من الزكوات والصدقات، كما قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع وعبد الرحمن قالا: حدثنا سفيان عن مصعب بن محمد، عن يعلى بن أبى يحيى، عن فاطمة بنت الحسين، عن أبيها - قال عبد الرحمن: حسين بن على - قال: قال رسول الله ﷺ «**للسائل حق وإن جاء على فرس**» رواه أبو داود [٢] ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ وهم المكاتبون الذين لا يجدون ما يؤدونه فى كتابتهم، وسيأتى الكلام على كثير من هذه الأصناف فى آية الصدقات من براءة إن شاء الله تعالى.

وقد قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا يحيى بن عبد الحميد، حدثنا شريك عن أبى حمزة عن الشعبى، حدثتنى فاطمة بنت قيس، أنها سألت رسول الله ﷺ: أفى المال حق سوى الزكاة؟ قالت: فتلا على ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ ورواه ابن مردويه من حديث آدم بن إياس ويحيى بن عبد الحميد كلاهما عن شريك عن أبى حمزة عن الشعبى عن فاطمة بنت قيس، قالت: قال رسول الله ﷺ «فى المال حق سوى الزكاة» ثم قرأ ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ - إلى قوله - ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ وأخرجه ابن ماجه والترمذى [٣]، وضعف أبا حمزة ميمونًا الأعور، وقد رواه سيار وإسماعيل بن سالم عن الشعبى، وقوله ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أى وأتم أفعال الصلاة فى أوقاتها بركوعها وسجودها وطمأنينتها وخشوعها على الوجه الشرعى المرضى، وقوله: ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يحتمل أن يكون المراد به زكاة النفس وتخليصها من الأخلاق الدنيئة الرذيلة كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩-١٠] وقول موسى لفرعون ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٨-١٩] وقوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت: ٦-٧] ويحتمل أن يكون المراد زكاة المال، كما قاله سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان، ويكون المذكور من إعطاء هذه الجهات والأصناف المذكورين، إنما هو التطوع والبر والصلة، ولهذا تقدم فى الحديث عن فاطمة بنت قيس إن فى المال حقًا سوى الزكاة، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟﴾، كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ [الرعد: ٢٠] وعكس هذه الصفة النفاق كما صح فى الحديث «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان**» [٤] وفى الحديث الآخر: «**إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم**

---

(١) أخرجه البخاري، (٤٥٣٩)، ومسلم، (١٠٣٩).

(٢) ضعيف: أخرجه أبو داود، (١٦٦٥)، وأحمد (١٧٣٢)، انظر ضعيف سنن أبي داود.

(٣) ضعيف: أخرجه الترمذي (٦٦٠)، وابن ماجه، (١٧٨٩)، انظر ضعيف جامع الترمذي.

(٤) أخرجه البخاري، (٣٣)، ومسلم، (٥٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فجر»[1] وقوله: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ أى فى حال الفقر وهو البأساء، وفى حال المرض والأسقام وهو الضراء ﴿وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ أى فى حال القتال والتقاء الأعداء، قاله ابن مسعود وابن عباس وأبو العالية ومرة الهمدانى ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والربيع بن أنس والسدى ومقاتل بن حيان وأبو مالك والضحاك وغيرهم، وإنما نصب ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على المدح والحث على الصبر فى هذه الأحوال لشدته وصعوبته والله أعلم، وهو المستعان وعليه التكلان، وقوله ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾، أى هؤلاء الذين اتصفوا بهذا الصفات هم الذين صدقوا فى إيمانهم، لأنهم حققوا الإيمان القلبى بالأقوال والأفعال، فهؤلاء هم الذين صدقوا ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ لأنهم اتقوا المحارم وفعلوا الطاعات.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

يقول تعالى: كتب عليكم العدل فى القصاص أيها المؤمنون، حركم بحركم، وعبدكم بعبدكم، وأنثاكم بأنثاكم، ولا تتجاوزوا وتعتدوا كما اعتدى من قبلكم وغيروا حكم الله فيهم، وسبب ذلك قريظة والنضير، كانت بنو النضير قد غزت قريظة فى الجاهلية وقهروهم، فكان إذا قتل النضرى القرظى لا يقتل به، بل يفادى بمائة وسق من التمر، وإذا قتل القرظى النضرى قتل، وإن فادوه فدوه بمائتى وسق من التمر ضعف دية القرظى، فأمر الله بالعدل فى القصاص، ولا يتبع سبيل المفسدين المحرفين المخالفين لأحكام الله فيهم كفرًا وبغيًا، فقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ وذكر فى سبب نزولها ما رواه الإمام أبو محمد بن أبى حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير حدثنى عبد الله بن لهيعة، حدثنى عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير فى قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾، يعنى إذا كان عمدًا الحر بالحر، وذلك أن حيين من العرب اقتتلوا فى الجاهلية قبل الإسلام بقليل، فكان بينهم قتل وجراحات حتى قتلوا العبيد والنساء، فلم يأخذ بعضهم من بعض حتى أسلموا، فكان أحد الحيين يتطاول على الآخر فى العدة والأموال، فحلفوا أن لا يرضوا حتى يقتل بالعبد منا الحر منهم، والمرأة منا الرجل منهم، فنزل فيهم ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ منها منسوخة نسختها ﴿ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس قوله: ﴿وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ وذلك أنهم كانوا لا يقتلون الرجل بالمرأة، ولكن يقتلون الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة، فأنزل الله: النفس بالنفس والعين بالعين، فجعل الأحرار فى القصاص سواء فيما بينهم من العمد رجالهم ونساؤهم فى النفس وفيما دون النفس، وجعل العبيد مستويين فيما بينهم من العمد فى النفس وفيما دون النفس رجالهم ونساؤهم، وكذلك روى عن أبى مالك أنها منسوخة بقوله: ﴿ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥].

(مسألة) ذهب أبو حنيفة إلى أن الحر يقتل بالعبد لعموم آية المائدة، وإليه ذهب الثورى وابن أبى

(١) أخرجه البخاري، (٣٤)، ومسلم، (٥٨)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

ليلى وداود، وهو مروى عن على وابن مسعود وسعيد بن المسيب وإبراهيم النخعى وقتادة والحكم، قال البخارى وعلى بن المدينى وإبراهيم النخعى و الثورى فى رواية عنه: ويقتل السيد بعبده، لعموم حديث الحسن عن سمرة «ومن قتل عبده قتلناه، ومن جدع عبده جدعناه، ومن خصاه خصيناه»[1] وخالفهم الجمهور فقالوا: لا يقتل الحر بالعبد، لأن العبد سلعة لو قتل خطأ لم يجب فيه دية، وإنما تجب فيه قيمته ولأنه لا يقاد بطرفه ففى النفس بطريق الأولى، وذهب الجمهور إلى أن المسلم لا يقتل بالكافر، لما ثبت فى البخارى[2] عن على، قال: قال رسول الله ﷺ «ولا يقتل مسلم بكافر» ولا يصح حديث ولا تأويل يخالف هذا، وأما أبو حنيفة فذهب إلى أنه يقتل به لعموم آية المائدة.

(مسألة) قال الحسن وعطاء: لا يقتل الرجل بالمرأة لهذه الآية، وخالفم الجمهور لآية المائدة ولقوله عليه السلام: «المسلمون تتكافأ دماؤهم»[3] وقال الليث: إذا قتل الرجل امرأته لا يقتل بها خاصة.

(مسألة) ومذهب الأئمة الأربعة والجمهور أن الجماعة يقتلون بالواحد، قال عمر فى غلام قتله سبعة فقتلهم، وقال: لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم ولا يعرف له فى زمانه مخالف من الصحابة، وذلك كالإجماع، وحكى عن الإمام أحمد رواية: أن الجماعة لا يقتلون بالواحد، ولا يقتل بالنفس إلا نفس واحدة، وحكاه ابن المنذر عن معاذ وابن الزبير وعبد الملك بن مروان والزهرى وابن سيرين وحبيب بن أبى ثابت، ثم قال ابن المنذر: وهذا أصح، ولا حجة لمن أباح قتل الجماعة، وقد ثبت عن ابن الزبير ما ذكرناه، وإذا اختلف الصحابة فسبيله النظر، وقوله: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ قال مجاهد عن ابن عباس: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ فالعفو أن يقبل الدية فى العمد، وكذا روى عن أبى العالية وأبى الشعثاء ومجاهد وسعيد بن جبير وعطاء والحسن وقتادة ومقاتل بن حيان وقال الضحاك عن ابن عباس: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ يعنى: فمن ترك له من أخيه شىء يعنى أخذ الدية بعد استحقاق الدم، وذلك العفو، ﴿فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ يقول: فعلى الطالب اتباع بالمعروف إذا قبل الدية، ﴿وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ يعنى من القاتل من غير ضرر ولا معك يعنى المدافعة، وروى الحاكم من حديث سفيان عن عمرو، عن مجاهد، عن ابن عباس: ويؤدى المطلوب بإحسان وكذا قال سعيد بن جبير وأبو الشعثاء جابر بن زيد والحسن وقتادة وعطاء الخراسانى والربيع بن أنس والسدى ومقاتل بن حيان.

(مسألة) قال مالك رحمه الله فى رواية ابن القاسم عنه وهو المشهور، وأبو حنيفة وأصحابه، والشافعى وأحمد فى أحد قوليه: ليس لولى الدم أن يعفو على الدية إلا برضا القاتل: وقال الباقون: له أن يعفو عليها وإن لم يرض.

---

(١) ضعيف: أخرجه أبو داود (٤٥١٥)، والترمذي، (١٤١٤)، والنسائي، (٤٧٣٦)، وابن ماجه، (٢٦٦٣) وأحمد، (١٩٦٨٥)، والدارمي، (٢٣٥٨)، انظر ضعيف سنن أبي داود.

(٢) أخرجه البخاري، (١١١).

(٣) حسن صحيح: أخرجه أبو داود، (٢٧٥١)، وابن ماجه، (٢٦٨٥)، وأحمد، (٦٧٥٨)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، انظر صحيح سنن أبي داود.

(مسألة) وذهب طائفة من السلف إلى أنه ليس للنساء عفو، منهم الحسن وقتادة والزهرى وابن شبرمة والليث والأوزاعى، وخالفهم الباقون، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ يقول تعالى: إنما شرع لكم أخذ الدية فى العمد تخفيفًا من الله عليكم ورحمة بكم مما كان محتومًا على الأمم قبلكم من القتل أو العفو، كما قال سعيد بن منصور: حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار، أخبرنى مجاهد عن ابن عباس قال: كتب على بنى إسرائيل القصاص فى القتلى، ولم يكن فيهم العفو، فقال الله لهذه الأمة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾ فالعفو أن يقبل الدية فى العمد ذلك تخفيف مما كتب على بنى إسرائيل ﴿مَنْ كان قبلكم ﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ وقد رواه غير واحد عن عمرو، وأخرجه ابن حبان فى صحيحه عن عمرو بن دينار، ورواه جماعة عن مجاهد عن ابن عباس بنحوه.

وقال قتادة ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ رحم الله هذه الأمة وأطعمهم الدية ولم تحل لأحد قبلهم فكان أهل التوراة إنما هو القصاص وعفو ليس بينهم أرش وكان أهل الإنجيل إنما هو عفو أمروا به وجعل لهذه الأمة القصاص والعفو والأرش، وهكذا روى عن سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان والربيع بن أنس نحو هذا.

وقوله: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يقول تعالى: فمن قتل بعد أخذ الدية أو قبولها، فله عذاب من الله أليم موجع شديد، وهكذا روى عن ابن عباس ومجاهد وعطاء وعكرمة والحسن وقتادة والربيع بن أنس والسدى ومقاتل بن حيان أنه هو الذى يقتل بعد أخذ الدية، كما قال محمد بن إسحاق عن الحارث بن فضيل، عن سفيان بن أبى العوجاء، عن أبى شريح الخزاعى، أن النبى ﷺ قال: «**من أصيب بقتل أو خبل فإنه يختار إحدى ثلاث: إما أن يقتص، وإما أن يعفو، وإما أن يأخذ الدية، فإن أراد الرابعة، فخذوا على يديه، ومن اعتدى بعد ذلك فله نار جهنم خالدًا فيها**» رواه أحمد[1]، وقال سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن الحسن عن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا أعافى رجلًا قتل بعد أخذ الدية**»[2] يعنى لا أقبل منه الدية، بل أقتله.

وقوله ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ يقول تعالى: وفى شرع القصاص لكم، وهو قتل القاتل حكمة عظيمة وهى بقاء المهج وصونها، لأنه إذا علم القاتل أنه يقتل انكف عن صنيعه، فكان فى ذلك حياة للنفوس، وفى الكتب المتقدمة: القتل أنفى للقتل فجاءت هذه العبارة فى القرآن أفصح وأبلغ وأوجز ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ قال أبو العالية: جعل الله القصاص حياة، فكم من رجل يريد أن يقتل فتمنعه مخافة أن يقتل. وكذا روى عن مجاهد وسعيد بن جبير وأبى مالك والحسن وقتادة والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان ﴿يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ يقول: يا أولى العقول والأفهام والنهى، لعلكم تنزجرون وتتركون محارم الله ومآثمه، والتقوى اسم جامع لفعل الطاعات وترك المنكرات.

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد، (١٥٩٤٠)، انظر ضعيف الجامع الصغير، (٥٤٣٣).

(٢) ضعيف: أخرجه أبو داود، (٤٥٠٧)، وأحمد، (١٤٤٩٥)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، انظر ضعيف سنن أبي داود.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة على الأمر بالوصية للوالدين والأقربين، وقد كان ذلك واجبًا على أصح القولين قبل نزول آية المواريث، فلما نزلت آية الفرائض نسخت هذه، وصارت المواريث المقدرة فريضة من الله يأخذها أهلوها حتمًا من غير وصية ولا تحمل منة الموصى، ولهذا جاء فى الحديث الذى فى السنن[1] وغيرها عن عمرو بن خارجة قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب وهو يقول «**إن الله قد أعطى كل ذى حق حقه، فلا وصية لوارث**» وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم بن علية عن يونس بن عبيد عن محمد بن سيرين، قال: جلس ابن عباس فقرأ سورة البقرة حتى أتى هذه الآية ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ فقال: نسخت هذه الآية وكذا رواه سعيد بن منصور، عن هشيم، عن يونس به، ورواه الحاكم فى مستدركه، وقال: صحيح على شرطهما، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله ﴿ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ قال: كان لا يرث مع الوالدين غيرهما إلا وصية للأقربين، فأنزل الله آية الميراث، فبين ميراث الوالدين وأقر وصية الأقربين فى ثلث مال الميت، وقال ابن أبى حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا حجاج بن محمد، أخبرنا ابن جريج وعثمان بن عطاء عن عطاء، عن ابن عباس، فى قوله ﴿ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾: نسختها هذه الآية ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: ٧] ثم قال ابن أبى حاتم، وروى عن ابن عمر وأبى موسى وسعيد بن المسيب والحسن ومجاهد وعطاء وسعيد بن جبير ومحمد بن سيرين وعكرمة وزيد بن أسلم والربيع بن أنس وقتادة والسدى ومقاتل بن حيان وطاووس وإبراهيم النخعى وشريح والضحاك والزهرى: أن هذا الآية منسوخة، نسختها آية الميراث والعجب من أبى عبد الله محمد بن عمر الرازى رحمه الله، كيف حكى فى تفسيره الكبير عن أبى مسلم الأصفهانى أن هذه الآية غير منسوخة وإنما هى مفسرة بآية المواريث، ومعناه كتب عليكم ما أوصى الله به من توريث الوالدين والأقربين من قوله ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ﴾ [النساء: ١١] قال: وهو قول أكثر المفسرين والمعتبرين من الفقهاء: قال: ومنهم من قال: إنها منسوخة فيمن يرث ثابتة فيمن لا يرث، وهو مذهب ابن عباس والحسن ومسروق وطاووس والضحاك ومسلم بن يسار والعلاء بن زياد.

(قُلْتُ) وبه قال أيضًا سعيد بن جبير والربيع بن أنس وقتادة ومقاتل بن حيان، ولكن على قول هؤلاء لا يسمى هذا نسخًا فى اصطلاحنا المتأخر، لأن آية المواريث إنما رفعت حكم بعض أفراد ما دل عليه عموم آية الوصاية، لأن الأقربين أعم ممن يرث ومن لايرث، فرفع حكم من يرث بما عين له، وبقى الآخر على ما دلت عليه الآية الأولى، وهذا إنما يتأتى على قول بعضهم: إن الوصاية فى ابتداء

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي، (٢١٢١)، والنسائي، (٣٦٤١)، وابن ماجه بنحوه، (٢٧١٢)، وكذا أحمد، (١٧٦١٥)، وأخرجه الدارمي، (٣٢٦٠)، انظر صحيح جامع الترمذي.

الإسلام إنما كانت ندبًا حتى نسخت، فأما من يقول: إنها كانت واجبة وهو الظاهر من سياق الآية، فيتعين أن تكون منسوخة بآية الميراث كما قاله أكثر المفسرين والمعتبرين من الفقهاء، فإن وجوب الوصية للوالدين والأقربين الوارثين منسوخ بالإجماع، بل منهى عنه للحديث المتقدم **«إن الله قد أعطى كل ذى حق حقه فلا وصية لوارث»** فآية الميراث حكم مستقل ووجوب من عند الله لأهل الفروض والعصبات، يرفع بها حكم هذه بالكلية، بقى الأقارب الذين لا ميراث لهم يستحب له أن يوصى لهم من الثلث استئناسًا بآية الوصية وشمولها، ولما ثبت فى الصحيحين[1] عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ **«ما حق امرئ مسلم له شيء يوصى فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده»** قال ابن عمر: ما مرت على ليلة منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك إلا وعندى وصيتى والآيات والأحاديث بالأمر ببرّ الأقارب والإحسان إليهم كثيرة جدًا، وقال عبد بن حميد فى مسنده[2]: أخبرنا عبد الله عن مبارك بن حسان، عن نافع قال: قال عبد الله: قال رسول الله ﷺ: **«يقول الله تعالى: يا ابن آدم ثنتان لم يكن لك واحدة منهما: جعلت لك نصيبًا فى مالك حين أخذت بكظمك لأطهرك به وأزكيك، وصلاة عبادى عليك بعد انقضاء أجلك»**.

وقوله: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ أى مالاً[3]، قاله ابن عباس ومجاهد وعطاء وسعيد بن جبير وأبو العالية وعطية العوفى والضحاك والسدى والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان وقتادة وغيرهم، ثم منهم من قال: الوصية مشروعة سواء قل المال أو كثر كالوراثة ومنهم من قال: إنما يوصى إذا ترك مالاً جليلاً، ثم اختلفوا فى مقداره، فقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرى، أخبرنا سفيان عن هشام بن عروة عن أبيه، قال لعلى رضى الله عنه: إن رجلاً من قريش قد مات وترك ثلثمائة دينار أو أربعمائة ولم يوص؟ قال: ليس بشيء إنما قال الله ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ وقال أيضًا: وحدثنا هارون بن إسحاق الهمدانى، حدثنا عبدة يعنى ابن سليمان، عن هشام بن عروة عن أبيه: أن عليًا دخل على رجل من قومه يعوده، فقال له: أوصِ؟ فقال له على: إنما قال الله ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ﴾ إنما تركت شيئًا يسيرًا فاتركه لولدك، وقال الحاكم: إن أبان حدثنى عن عكرمة عن ابن عباس ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ قال ابن عباس: من لم يترك ستين دينارًا لم يترك خيرًا، قال الحاكم: قال طاووس: لم يترك خيرًا من لم يترك ثمانين دينارًا، وقال قتادة: كان يقال: ألفًا فما فوقها. وقوله ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أى بالرفق والإحسان، كما قال ابن أبى حاتم: حدثنا الحسن بن أحمد، حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن بشار، حدثنى سرور بن المغيرة عن عباد بن منصور عن الحسن قوله ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ فقال: نعم الوصية حق على كل مسلم أن يوصى إذا حضر الموت بالمعروف غير المنكر، والمراد بالمعروف أن يوصى لأقربيه وصية لا تجحف بورثته من غير إسراف ولا تقتير، كما ثبت فى الصحيحين[4] أن سعدًا قال: يا

---

(١) أخرجه البخاري، (٢٧٣٨)، ومسلم، (١٦٢٧).

(٢) في نسخ الآية ﴿ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ بآية الميراث. صحيح: أخرجه ابن جرير، (٢/١١٨)، من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وفيه انقطاع وهو الطريق الأول الذي أورده ابن كثير.
وأما الطريق الثاني فأخرجه البخاري، (٢٧٤٧)، والدارمي، (٣٢٦٢).

(٣) ضعيف: عزاه المصنف لعبد بن حميد في مسنده وساقه بسنده، وفيه مبارك بن حسان: لين الحديث.

(٤) أخرجه البخاري، (٣٩٣٦) ومسلم، (١٦٢٨).

رسول الله، إن لى مالاً ولا يرثنى إلا ابنة لى، أفأوصى بثلثى مالى؟ قال: «لا» قال: فبالشطر؟ قال «لا» قال: فالثلث؟ قال «الثلث والثلث كثير، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس»، وفى صحيح البخارى [١] أن ابن عباس قال: لو أن الناس غضوا من الثلث إلى الربع، فإن رسول الله ﷺ قال «الثلث والثلث كثير» وروى الإمام أحمد [٢] عن أبى سعيد مولى بنى هاشم عن زياد بن عبيد بن حنظلة سمعت حنظلة بن جذيم بن حنيفة: أن جده حنيفة أوصى ليتيم فى حجره بمائة من الإبل، فشق ذلك على بنيه فارتفعوا إلى رسول الله ﷺ فقال حنيفة: إنى أوصيت ليتيم لى بمائة من الإبل كنا نسميها المطية، فقال: النبى ﷺ «لا، لا، لا، الصدقة خمس وإلا فعشر وإلا فخمس عشرة وإلا فعشرون وإلا فخمس وعشرون وإلا فثلاثون وإلا فخمس وثلاثون فإن كثرت فأربعون» وذكر الحديث بطوله.

وقوله ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾﴾ يقول تعالى: فمن بدّل الوصية وحرفها، فغير حكمها وزاد فيها أو نقص، ويدخل فى ذلك الكتمان لها بطريق الأولى ﴿فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾ قال ابن عباس وغير واحد: وقد وقع أجر الميت على الله، وتعلق الإثم بالذين بدلوا ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أى قد اطلع على ما أوصى به الميت وهو عليم بذلك وبما بدّله الموصى إليهم، وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا﴾ قال ابن عباس وأبو العالية ومجاهد والضحاك والربيع بن أنس والسدى: الجنف الخطأ، وهذا يشمل أنواع الخطأ كلها بأن زادوا وارثًا بواسطة أو وسيلة، كما إذا أوصى ببيعة الشىء الفلانى محاباة أو أوصى لابن ابنته ليزيدها أو نحو ذلك من الوسائل، إما مخطئًا غير عامد بل بطبعه وقوة شفقته من غير تبصر، أو متعمدًا آثمًا فى ذلك، فللوصى والحالة هذه، أن يصلح القضية ويعدل فى الوصية على الوجه الشرعى، ويعدل عن الذى أوصى به الميت إلى ما هو أقرب الأشياء إليه وأشبه الأمور به جمعًا بين مقصود الموصى والطريق الشرعى، وهذا الإصلاح والتوفيق، ليس من التبديل فى شىء، ولهذا عطف هذا فبينه على النهى عن ذلك، ليعلم أن هذا ليس من ذلك بسبيل، والله أعلم.

وقد قال ابن أبى حاتم [٣]: حدثنا العباس بن الوليد بن مزيد قراءة، أخبرنى أبى عن الأوزاعى، قال الزهرى: حدثنى عروة عن عائشة عن النبى ﷺ أنه قال «يرد من صدقة الجانف فى حياته ما يرد من وصية المجنف عند موته» وهكذا رواه أبو بكر بن مردويه من حديث العباس بن الوليد به، قال ابن أبى حاتم: وقد أخطأ فيه الوليد بن مزيد، وهذا الكلام إنما هو عن عروة فقط، وقد رواه الوليد بن مسلم عن الأوزاعى فلم يجاوز به عروة، وقال ابن مردويه أيضًا: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا إبراهيم بن يوسف، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا عمر بن المغيرة عن داود بن أبى هند، عن عكرمة،

---

(١) أخرجه البخاري، (٢٧٤٣).

(٢) حسن: أخرجه أحمد، (٢٠١٤٢)، وقال الهيثمي في «المجمع»، (٣/ ١٣)، (٩/ ٤٠٨): إسناده حسن.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم، (١/ ٣٠٢)، برقم (١٦١٨)، لكنه عقب بعد ذلك عن أبيه قال: أخطأ الوليد بن مزيد في هذا الحديث وهذا الكلام عن عروة فقط، أي أنه موقوف، وكذا قال أبو داود في «مراسيله» (١/ ١٧٦)، برقم (١٩٤): لا يصح هذا الحديث، لا يصح رفعه.

عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال: «الجنف فى الوصية من الكبائر»[١] وهذا فى رفعه أيضًا نظر، وأحسن ما ورد فى هذا الباب ما قال عبد الرزاق[٢]: حدثنا معمر عن أشعث بن عبد الله، عن شهر بن حوشب، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة، فإذا أوصى حاف فى وصيته، فيختم له بشر عمله فيدخل النار. وإن الرجل ليعمل بعمل الشر سبعين سنة، فيعدل فى وصيته، فيختم له بخير عمله، فيدخل الجنة» قال أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ الآية [البقرة: ٢٢٩].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾

يقول تعالى مخاطبًا للمؤمنين من هذه الآية، وآمرًا لهم بالصيام وهو الإمساك عن الطعام والشراب والوقاع، بنية خالصة لله عز وجل لما فيه من زكاة النفوس وطهارتها وتنقيتها من الأخلاط الرديئة والأخلاق الرذيلة، وذكر أنه كما أوجبه عليهم فقد أوجبه على من كان قبلهم فلهم فيه أسوة، وليجتهد هؤلاء فى أداء هذا الفرض أكمل مما فعله أولئك، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ الآية [المائدة: ٤٨]، ولهذا قال هاهنا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ لأن الصوم فيه تزكية للبدن وتضييق لمسالك الشيطان، ولهذا ثبت فى الصحيحين[٣] «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» ثم بين مقدار الصوم وأنه ليس فى كل يوم، لئلا يشق على النفوس فتضعف عن حمله وأدائه بل فى أيام معدودات. وقد كان هذا فى ابتداء الإسلام، يصومون من كل شهر ثلاثة أيام، ثم نسخ ذلك بصوم شهر رمضان كما سيأتى بيانه. وقد روى أن الصيام كان أولاً كما كان عليه الأمم قبلنا من كل شهر ثلاثة أيام عن معاذ وابن مسعود وابن عباس وعطاء وقتادة والضحاك بن مزاحم وزاد: لم يزل هذا مشروعًا من زمان نوح إلى أن نسخ الله ذلك بصيام شهر رمضان. وقال عباد بن منصور عن الحسن البصرى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ فقال: نعم، والله لقد كتب الصيام على كل أمة قد خلت، كما كتبه علينا شهرًا كاملاً وأيامًا معدودات عددًا معلومًا، وروى عن

---

(١) ضعيف: لكنه صحيح عن ابن عباس موقوفًا، أما المرفوع فأخرجه ابن أبي حاتم، (٣/ ٨٨٩)، برقم (٤٩٤٣)، وابن جرير، (٤/ ٢٨٩)، والعقيلي في «الضعفاء»، (٣/ ١٨٩)، برقم (١١٨٣)، والبيهقي، (٦/ ٢٧١)، برقم (١٢٣٦٦)، وانظر ضعيف الترغيب والترهيب، (١٠٣٩)، وأما الموقوف فأسانيده صحيحة، أخرجه ابن أبي حاتم (٣/ ٨٨٩)، وابن جرير في «التفسير»، (٤/ ٢٨٨)، والبيهقي، (٦/ ٢٧١)، برقم (١٢٣٦٧).

(٢) ضعيف، أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٩/ ٨٨)، برقم (١٦٤٥٥)، انظر ضعيف الجامع الصغير، (١٤٥٧).

(٣) أخرجه البخاري (١٩٠٥)، ومسلم، (١٤٠٠)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

السدى نحوه. وروى ابن أبى حاتم[١] من حديث أبى عبد الرحمن المقرى، حدثنى سعيد بن أبى أيوب، حدثنى عبد الله بن الوليد عن أبى الربيع رجل من أهل المدينة، عن عبد الله بن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «صيام رمضان كتبه الله على الأمم قبلكم» فى حديث طويل اختصر منه ذلك. وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عمن حدثه عن ابن عمر قال: أنزلت ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ كتب عليهم إذا صلى أحدهم العتمة ونام، حرم عليه الطعام والشراب والنساء إلى مثلها[٢]، قال ابن أبى حاتم وروى عن ابن عباس وأبى العالية وعبد الرحمن بن أبى ليلى ومجاهد وسعيد بن جبير ومقاتل بن حيان والربيع بن أنس وعطاء الخراسانى نحو ذلك، وقال عطاء الخراسانى عن ابن عباس ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يعنى بذلك أهل الكتاب، وروى عن الشعبى والسدى وعطاء الخراسانى مثله، ثم بين حكم الصيام على ما كان عليه الأمر فى ابتداء الإسلام فقال ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أى المريض والمسافر لا يصومان فى حال المرض والسفر، لما فى ذلك من المشقة عليهما بل يفطران ويقضيان بعدة ذلك من أيام أخر، وأما الصحيح المقيم الذى يطيق الصيام فقد كان مخيرًا بين الصيام وبين الإطعام، إن شاء صام وإن شاء أفطر وأطعم عن كل يوم مسكينًا، فإن أطعم أكثر من مسكين عن كل يوم فهو خير، وإن صام فهو أفضل من الإطعام، قاله ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وطاووس ومقاتل بن حيان وغيرهم من السلف، ولهذا قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

وقال الإمام أحمد[٣]: حدثنا أبو النضر، حدثنا المسعودى حدثنا عمرو بن مرة عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن معاذ بن جبل رضى الله عنه، قال: أحيلت الصلاة ثلاثة أحوال، وأحيل الصيام ثلاثة أحوال، فأما أحوال الصلاة فإن النبى ﷺ، قدم المدينة وهو يصلى سبعة عشر شهرًا إلى بيت المقدس، ثم إن الله عز وجل أنزل عليه: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ [البقرة: ١٤٤] الآية، فوجهه الله إلى مكة هذا حول، قال: وكانوا يجتمعون للصلاة ويؤذن بها بعضهم بعضًا، حتى نقسوا أو كادوا ينقسون، ثم إن رجلاً من الأنصار يقال له عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنى رأيت فيما يرى النائم، ولو قلت إنى لم أكن نائمًا لصدقت، إنى بينا أنا بين النائم واليقظان إذ رأيت شخصًا عليه ثوبان أخضران فاستقبل القبلة، فقال: الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله - مثنى - حتى فرغ من الأذان، ثم أمهل ساعة ثم قال مثل الذى قال غير أنه يزيد فى ذلك قد قامت الصلاة مرتين قال رسول الله ﷺ: «عَلِّمْهَا بلالاً فليؤذن بها» فكان بلال أول من أذن بها، قال: وجاء عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال: يا رسول الله، قد طاف بى مثل الذى طاف به، غير أنه سبقنى فهذان حالان، قال: وكانوا يأتون الصلاة وقد سبقهم النبى ﷺ

---

(١) ضعيف: أخرجه ابن أبي حاتم، (١/ ٣٠٤)، برقم (١٦٢٥)، وقال الحافظ في «الفتح»، (٨/ ١٧٨)، في إسناده مجهول.

(٢) ضعيف: أخرجه ابن أبي حاتم، (١/ ٣٠٥)، برقم (١٦٢٧) وفي إسناده مجهول.

(٣) صحيح: أخرجه أحمد، (٢١٦١٨)، انظر الثمر المستطاب، (١/ ١٥٥).

ببعضها، فكان الرجل يشير إلى الرجل إذن كم صلى؟ فيقول: واحدة أو اثنتين فيصليهما، ثم يدخل مع القوم فى صلاتهم، قال: فجاء معاذ فقال: لا أجده على حال أبدًا إلا كنت عليها، ثم قضيت ما سبقنى، قال: فجاء وقد سبقه النبى ﷺ ببعضها، قال: فثبت معه فلما قضى رسول الله ﷺ قام فقضى، فقال رسول الله ﷺ «إنه قد سن لكم معاذ فهكذا فاصنعوه» فهذه ثلاثة أحوال، وأما أحوال الصيام فإن رسول الله ﷺ، قدم المدينة فجعل يصوم من كل شهر ثلاثة أيام وصام عاشوراء، ثم إن الله فرض عليه الصيام، وأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ إلى قوله ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ﴾ فكان من شاء صام ومن شاء أطعم مسكينا، فأجزأ ذلك عنه، ثم إن الله عز وجل أنزل الآية الآخرى ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥] إلى قوله ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾ [البقرة: ١٨٥] فأثبت الله صيامه على المقيم الصحيح، ورخص فيه للمريض والمسافر، وثبت الإطعام للكبير الذى لا يستطيع الصيام، فهذان حالان، قال: وكانوا يأكلون ويشربون ويأتون النساء ما لم يناموا، فإذا ناموا امتنعوا، ثم إن رجلاً من الأنصار يقال له صرمة، كان يعمل صائمًا حتى أمسى فجاء إلى أهله فصلى العشاء ثم نام، فلم يأكل ولم يشرب حتى أصبح فأصبح صائمًا، فرآه رسول الله ﷺ وقد جهد جهدًا شديدًا، فقال «**ما لى أراك قد جهدت جهدًا شديدًا؟**» قال: يا رسول الله، إنى عملت أمس فجئت حين جئت، فألقيت نفسى فنمت، فأصبحت صائمًا، قال: وكان عمر قد أصاب من النساء بعد ما نام فأتى النبى ﷺ فذكر له ذلك، فأنزل الله عز وجل: ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ﴾ - إلى قوله - ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ﴾ [البقرة: ١٨٧] وأخرجه أبو داود فى سننه، والحاكم فى مستدركه[١] من حديث المسعودى به، وقد أخرجه البخارى ومسلم[٢] من حديث الزهرى عن عروة عن عائشة أنها قالت: كان عاشوراء يصام، فلما نزل فرض رمضان، كان من شاء صام ومن شاء أفطر، وروى البخارى عن ابن عمر وابن مسعود مثله.

وَقَوْلُه تَعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ﴾ كما قال معاذ رضى الله عنه: كان فى ابتداء الأمر من شاء صام، ومن شاء أفطر وأطعم عن كل يوم مسكينًا، وهكذا روى البخارى[٣] عن سلمة بن الأكوع أنه قال لما نزلت ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ﴾: كان من أراد أن يفطر يفادى حتى نزلت الآية التى بعدها فنسختها، وروى أيضًا من حديث عبيد الله عن نافع عن ابن عمر

---

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود، (٥٠٦)، والحاكم في «المستدرك»، (٢/ ٣٠١)، برقم (٣٠٨٥)، انظر صحيح سنن أبى داود.

(٢) أخرجه البخاري، (٤٥٠٢)، ومسلم، (١١٢٥).
رواية ابن مسعود أخرجها البخاري، (٤٥٠٣).
رواية ابن عمر أخرجها، البخاري، (٤٥٠١).

(٣) **في بيان نسخ الآية**: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ...﴾:
أما حديث معاذ فقد تقدم.
وأما حديث سلمة: فأخرجه البخاري، (٤٥٠٧).
وأما حديث ابن عمر: فأخرجه البخاري، (٤٥٠٦).

قال: هى منسوخة، وقال السدى عن مرة عن عبد الله، قال لما نزلت هذه الآية ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ قال: يقول ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ أى يتجشمونه، قال عبد الله: فكان من شاء صام، ومن شاء أفطر وأطعم مسكينًا ﴿فَمَن تَطَوَّعَ﴾ يقول: أطعم مسكينًا آخر ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فكانوا كذلك حتى نسختها ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾[البقرة: ١٨٥] وقال البخارى[1] أيضًا: أخبرنا إسحاق، حدثنا روح، حدثنا زكريا بن إسحاق، حدثنا عمرو بن دينار عن عطاء: سمع ابن عباس: يقرأ ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ قال ابن عباس: ليست منسوخة، هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فيطعمان مكان كل يوم مسكينًا، وهكذا روى غير واحد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس نحوه.

وقال أبو بكر بن أبى شيبة: حدثنا عبد الرحيم بن سليمان عن أشعث بن سوار، عن عكرمة عن ابن عباس، قال: نزلت هذه الآية ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ فى الشيخ الكبير الذى لا يطيق الصوم، ثم ضعف فرخص له أن يطعم مكان كل يوم مسكينًا، وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه: حدثنا محمد بن أحمد، حدثنا الحسين بن بهرام المخزومى، حدثنا وهب بن بقية، حدثنا خالد بن عبد الله عن ابن أبى ليلى، قال: دخلت على عطاء فى رمضان وهو يأكل، فقال: قال ابن عباس: نزلت هذه الآية ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾[البقرة:١٨٤] فكان من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم مسكينًا ثم نسخت الأولى إلى فنسخت الأولى إلى الكبير الفانى إن شاء أطعم عن كل يوم مسكينًا وأفطر - فحاصل الأمر أن النسخ ثابت فى حق الصحيح المقيم بإيجاب الصيام عليه بقوله ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾[البقرة: ١٨٥] وأما الشيخ الفانى الهرم الذى لا يستطيع الصيام، فله أن يفطر ولا قضاء عليه، لأنه ليست له حال يصير إليها يتمكن فيها من القضاء، ولكن هل يجب عليه إذا أفطر أن يطعم عن كل يوم مسكينًا إذا كان ذا جدة؟ فيه قولان للعلماء:

أحدهما: لا يجب عليه إطعام لأنه ضعيف عنه لسنه، فلم يجب عليه فدية كالصبى، لأن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها وهو أحد قولى الشافعى.

والثانى: وهو الصحيح وعليه أكثر العلماء، أنه يجب عليه فدية عن كل يوم، كما فسره ابن عباس وغيره من السلف على قراءة من قرأ ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ أى يتجشمونه، كما قاله ابن مسعود وغيره، وهو اختيار البخارى فإنه قال: وأما الشيخ الكبير إذا لم يطق الصيام، فقد أطعم أنس بعد ما كبر عامًا أو عامين عن كل يوم، مسكينًا، خبزًا ولحمًا وأفطر. وهذا الذى علقه البخارى قد أسنده الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده[2] فقال: حدثنا عبد الله بن معاذ، حدثنا أبى، حدثنا عمران عن أيوب بن أبى تميمة، قال: ضعف أنس عن الصوم، فصنع جفنة من ثريد، فدعا ثلاثين مسكينًا فأطعمهم، ورواه عبد بن حميد عن روح بن عبادة، عن عمران، عن أيوب به. ورواه عبد أيضًا من حديث ستة من أصحاب أنس عن أنس بمعناه، ومما يلتحق بهذا المعنى الحامل والمرضع إذا خافتا

---

(١) أخرجه البخاري، (٤٥٠٥).

(٢) أخرجه أبو يعلى في «مسنده»، (٧/ ٢٠٤)، برقم (٤١٩٤)، وقال الهيثمي في «المجمع»، (٣/ ١٦٤): رواه الطبراني في «الكبير» ورجاله رجال الصحيح. ولفظ الهيثمي عن قتادة.

على أنفسهما أو ولديهما، ففيهما خلاف كثير بين العلماء، فمنهم من قال: يفطران ويفديان ويقضيان، وقيل: يفديان فقط ولا قضاء، وقيل يجب القضاء بلا فدية، وقيل: يفطران ولا فدية ولا قضاء، وقد بسطنا هذه المسألة مستقصاة فى كتاب الصيام الذى أفردناه، ولله الحمد والمنة.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾

يمدح تعالى شهر الصيام من بين سائر الشهور بأن اختاره من بينهن لإنزال القرآن العظيم، وكما اختصه بذلك قد ورد الحديث بأنه الشهر الذى كانت الكتب الإلهية تنزل فيه على الأنبياء، قال الإمام أحمد بن حنبل[1] رحمه الله: حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم، حدثنا عمران أبو العوام عن قتادة، عن أبى المليح، عن واثلة يعنى ابن الأسقع: أن رسول الله ﷺ، قال «**أنزلت صحف إبراهيم فى أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان، والإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان، وأنزل الله القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان**» وقد روى من حديث جابر بن عبد الله وفيه: أن الزبور أنزل لاثنتى عشرة خلت من رمضان، والإنجيل لثمانى عشرة، والباقى كما تقدم، رواه ابن مردويه، وأما الصحف والتوراة والزبور والإنجيل، فنزل كل منها على النبى الذى أنزل عليه جملة واحدة، وأما القرآن فإنما نزل جملة واحدة إلى بيت العزة من السماء الدنيا، وكان ذلك فى شهر رمضان فى ليلة القدر منه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾[القدر: ١] وقال ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾[الدخان: ٣] ثم نزل بعده مفرقًا بحسب الوقائع على رسول الله ﷺ، هكذا روى من غير وجه عن ابن عباس، كما قال إسرائيل عن السدى، عن محمد بن أبى المجالد، عن مقسم، عن ابن عباس: أنه سأل عطية بن الأسود فقال: وقع فى قلبى الشك، قول الله تعالى: ﴿شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن﴾ وقوله ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾[الدخان: ٣] وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] وقد أنزل فى شوال، وفى ذى القعدة، وفى ذى الحجة، وفى المحرم وصفر وشهر ربيع، فقال ابن عباس: إنه أنزل فى رمضان فى ليلة القدر وفى ليلة مباركة جملة واحدة، ثم أنزل على مواقع النجوم ترتيلاً فى الشهور والأيام، رواه ابن أبى حاتم وابن مردويه وهذا لفظه، وفى رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس قال، أنزل القرآن فى النصف من شهر رمضان إلى سماء الدنيا، فجعل فى بيت العزة، ثم أنزل على رسول الله ﷺ فى عشرين سنة لجواب كلام الناس، وفى رواية عكرمة عن ابن عباس، قال: نزل القرآن فى شهر رمضان فى ليلة القدر، إلى هذه السماء الدنيا جملة واحدة، وكان الله يحدث لنبيه ما يشاء ولا يجىء المشركون بمثل يخاصمون به إلا جاءهم الله بجوابه، وذلك قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾[الفرقان: ٣٢-٣٣].

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد، (١٦٥٣٦)، انظر صحيح السيرة النبوية، ص (٩٠).

قال فخر الدين الرازي: ويحتمل أنه كان ينزل في كل ليلة قدر ما يحتاج الناس إلى إنزاله إلى مثله من اللوح إلى سماء الدنيا وتوقف هل هذا أولى أو الأول وهذا الذي جعله احتمالا للقرطبي رحمه الله عن مقاتل بن حيان وحكى الإجماع على أن القرآن نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في سماء الدنيا وحكى الرازي عن سفيان بن عيينة وغيره أن المراد بقوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة:١٨٥] أي فضله أو وجوب صومه وهذا غريب جدًّا.

وقوله: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ هذا مدح للقرآن الذى أنزله الله هدى لقلوب العباد ممن آمن به وصدقه واتبعه ﴿وَبَيِّنَٰتٍ﴾ أى دلائل وحجج بينة واضحة جلية لمن فهمها وتدبرها دالة على صحة ما جاء به من الهدى المنافى للضلال، والرشد المخالف للغى، ومفرقًا بين الحق والباطل والحلال والحرام، وقد روى عن بعض السلف: أنه كره أن يقال إلا شهر رمضان، ولا يقال رمضان، قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا محمد بن بكار بن الريان، حدثنا أبو معشر عن محمد بن كعب القرظى وسعيد هو المقبرى عن أبى هريرة قال: لا تقولوا رمضان فإن رمضان اسم من أسماء الله تعالى ولكن قولوا شهر رمضان[1] - قال ابن أبى حاتم وقد روى عن مجاهد ومحمد بن كعب نحو ذلك، ورخص فيه ابن عباس وزيد بن ثابت، .

(قُلْتُ) أبو معشر هو نجيح بن عبد الرحمن المدنى إمام المغازى والسير، ولكن فيه ضعف، وقد رواه ابنه محمد عنه فجعله مرفوعًا عن أبى هريرة، وقد أنكره عليه الحافظ ابن عدى، وهو جدير بالإنكار، فإنه متروك، وقد وهم فى رفع هذا الحديث، وقد انتصر البخارى[2] رحمه الله فى كتابه لهذا فقال: باب يقال رمضان وساق أحاديث فى ذلك منها «من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا، غفر له ما تقدم من ذنبه» ونحو ذلك، وقوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ هذا إيجاب حتم على من شهد استهلال الشهر، أى كان مقيمًا فى البلد حين دخل شهر رمضان، وهو صحيح فى بدنه أن يصوم لا محالة، ونسخت هذه الآية الإباحة المتقدمة لمن كان صحيحًا مقيمًا أن يفطر ويفدى بإطعام مسكين عن كل يوم كما تقدم بيانه، ولما حتّم الصيام أعاد ذكر الرخصة للمريض وللمسافر أن يفطر بشرط القضاء، فقال ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ معناه: ومن كان به مرض فى بدنه يشق عليه الصيام معه أو يؤذيه، أو كان على سفر، أى فى حالة السفر، فله أن يفطر، فإذا أفطر فعليه عدة ما أفطره فى السفر من الأيام، ولهذا قال ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ أى إنما رخص لكم فى الفطر فى حال المرض والسفر مع تحتمه فى حق المقيم الصحيح تيسيرًا عليكم ورحمة بكم.

وههنا مسائل تتعلق بهذه الآية:

(إحداها) أنه قد ذهب طائفة من السلف إلى أن من كان مقيمًا فى أول الشهر ثم سافر فى أثنائه، فليس له الإفطار بعذر السفر والحالة هذه لقوله ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ وإنما يباح الإفطار

(١) ضعيف: أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٧/ ٥٣)، وقال: لا أعلم يروى عن أبي معشر بهذا الإسناد.
قلت: وعلته أبو معشر هذا. ضعفه النسائي ويحيى، وغيرهما، وقد اضطرب في حديثه. فرواه مرفوعًا كما تقدم، ورواه موقوفًا عن أبي هريرة، أخرجه ابن أبي حاتم (١/ ٣١٠)، برقم (١٦٤٨).
(٢) أخرجه البخاري، (٣٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

لمسافر استهل الشهر وهو مسافر، وهذا القول غريب، نقله أبو محمد بن حزم فى كتابه المحلى عن جماعة من الصحابة والتابعين، وفيما حكاه عنهم نظر، والله أعلم، فإنه قد ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ أنه خرج فى شهر رمضان لغزوة الفتح، فسار حتى بلغ الكديد ثم أفطر، وأمر الناس بالفطر، أخرجه صاحبا الصحيح [١].

(الثانية) ذهب آخرون من الصحابة والتابعين إلى وجوب الإفطار فى السفر لقوله ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ والصحيح قول الجمهور أن الأمر فى ذلك على التخيير وليس بحتم، لأنهم كانوا يخرجون مع رسول الله ﷺ فى شهر رمضان، قال: فمنا الصائم ومنا المفطر، فلم يعب الصائم على المفطر، ولا المفطر على الصائم [٢]، فلو كان الإفطار هو الواجب لأنكر عليهم الصيام، بل الذى ثبت من فعل رسول الله ﷺ أنه كان فى مثل هذه الحالة صائمًا لما ثبت فى الصحيحين [٣] عن أبى الدرداء، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ فى شهر رمضان فى حر شديد حتى إن كان أحدنا ليضع يده على رأسه من شدة الحر وما فينا صائم إلا رسول الله ﷺ وعبد الله بن رواحة.

(الثالثة) قالت طائفة منهم الشافعى: الصيام فى السفر أفضل من الإفطار لفعل النبى ﷺ كما تقدم، وقالت طائفة. بل الإفطار أفضل أخذًا بالرخصة ولما ثبت عن رسول الله ﷺ أنه سئل عن الصوم فى السفر، فقال: «من أفطر فحسن، ومن صام فلا جناح عليه» [٤] وقال فى حديث آخر [٥] «عليكم برخصة الله التى رخص لكم» وقالت طائفة: هما سواء لحديث عائشة أن حمزة بن عمرو الأسلمى قال: يا رسول الله، إنى كثير الصيام أفأصوم فى السفر؟ فقال: «**إن شئت فصم، وإن شئت فأفطر**» وهو فى الصحيحين [٦]، وقيل: إن شق الصيام فالإفطار أفضل، لحديث جابر أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً قد ظلل عليه فقال: «**ما هذا؟**» قالوا: صائم، فقال: «**ليس من البر الصيام فى السفر**» أخرجاه [٧]، فأما إن رغب عن السنة ورأى أن الفطر مكروه إليه، فهذا يتعين عليه الإفطار، ويحرم عليه الصيام، والحالة هذه لما جاء فى مسند الإمام أحمد وغيره عن ابن عمر وجابر وغيرهما: من لم يقبل رخصة الله كان عليه من الإثم مثل جبال عرفة.

(الرابعة) القضاء هل يجب متتابعًا أو يجوز فيه التفريق فيه قولان:

(أحدهما): أنه يجب التتابع لأن القضاء يحكى الأداء.

(والثانى) لا يجب التتابع بل إن شاء فرق وإن شاء تابع، وهذا قول جمهور السلف والخلف، وعليه ثبتت الدلائل لأن التتابع إنما وجب فى الشهر لضرورة أدائه فى الشهر، فأما بعد انقضاء رمضان، فالمراد صيام أيام عدة ما أفطر، ولهذا قال تعالى: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ ثم قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ

---

(١) أخرجه البخاري، (١٩٤٤)، ومسلم، (١١١٣)، من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.
(٢) أخرجه مسلم، (١١١٦)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
(٣) أخرجه البخاري (١٩٤٥)، ومسلم، (١١٢٢).
(٤) أخرج نحوه مسلم، (١١٢١)، من حديث حمزة بن عمرو الأسلمي.
(٥) أخرجه مسلم، (١١١٥)، والنسائي، (٢٢٦٠)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.
(٦) أخرجه البخاري، (١٩٤٣)، ومسلم، (١١٢١).
(٧) أخرجه البخاري (١٩٤٦)، ومسلم، (١١١٥).

﴿بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ قال الإمام أحمد [١]: حدثنا أبو سلمة الخزاعى، حدثنا أبو هلال عن حميد بن هلال العدوى، عن أبى قتادة عن الأعرابى الذى سمع النبى ﷺ يقول «**إن خير دينكم أيسره، إن خير دينكم أيسره**» وقال أحمد أيضًا: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا عاصم بن هلال، حدثنا عامر بن عروة الفقيمى، حدثنى أبى عروة، قال: كنا ننتظر النبى ﷺ فخرج يقطر رأسه من وضوء أو غسل، فصلى، فلما قضى الصلاة جعل الناس يسألونه: علينا حرج فى كذا؟ فقال رسول الله ﷺ «**إن دين الله فى يسر**» - ثلاثًا يقولها- ورواه الإمام أبو بكر بن مردويه فى تفسير هذه الآية من حديث مسلم بن إبراهيم عن عاصم بن هلال به وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة قال: حدثنا أبو التياح سمعت أنس بن مالك يقول: إن رسول الله ﷺ قال: «**يسروا ولا تعسروا وسكنوا ولا تنفروا**» أخرجاه فى الصحيحين [٢] وفى الصحيحين [٣] أيضًا أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ وأبى موسى حين بعثهما إلى اليمن «**بشّرا ولا تنفّرا ويسّرا ولا تعسّرا وتطاوعا ولا تختلفا**» وفى السنن والمسانيد [٤] أن رسول الله ﷺ قال: «**بعثت بالحنيفية السمحة**».

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسيره: حدثنا عبد الله بن اسحاق بن إبراهيم حدثنا يحيى بن أبى طالب حدثنا عبد الوهاب بن عطاء، حدثنا أبو مسعود الجريرى عن عبد الله بن شقيق، عن محجن بن الأدرع: أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يصلى فتراءاه ببصره ساعة، فقال «أتراه يصلى صادقًا؟» قال: قلت يا رسول الله، هذا أكثر أهل المدينة صلاة، فقال رسول الله ﷺ «**لا تسمعه فتهلكه**» وقال «**إن الله إنما أراد بهذه الأمة اليسر ولم يرد بهم العسر**» ومعنى قوله ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ أى إنما أرخص لكم فى الإفطار للمرض والسفر ونحوهما من الأعذار لإرادته بكم اليسر وإنما أمركم بالقضاء لتكملوا عدة شهركم، وقوله: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ أى ولتذكروا الله عند انقضاء عبادتكم، كما قال: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠] وقال ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣]، ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠] وقال ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [ق: ٣٩-٤٠] ولهذا جاءت السنة باستحباب التسبيح والتحميد والتكبير بعد الصلوات المكتوبات، وقال ابن عباس: ما كنا نعرف انقضاء صلاة رسول الله ﷺ إلا بالتكبير، ولهذا أخذ كثير من العلماء مشروعية التكبير فى عيد الفطر من هذه الآية: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد، (١٥٥٠٦)، انظر صحيح الجامع الصغير، (٣٣٠٩).

(٢) أخرجه البخاري، (٦٩)، ومسلم، (١٧٣٤)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري، (٤٣٤٥)، ومسلم، (١٧٣٣).

(٤) أخرجه أحمد، (٢١٧٨٨)، من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، وفيه علي بن يزيد حديثه منكر، وانظر غاية المرام، (٨). قلت: وللحديث شاهد من حديث جابر بن عبد الله أخرجه الخطيب، (٧/ ٢٠٩)، وابن النجار في ذيل «تاريخ بغداد»، (١٠/ ١٤٥)، برقم (٢)، وفي إسناده ضعف أيضًا.

وله شاهد مرسل عن حبيب بن أبي ثابت، أخرجه ابن سعد في «الطبقات»، (١/ ١٩٢)، وبمجموع هذه الطرق فإن الحديث يرقى إلى التحسين إن شاء الله تعالى.

﴿هَدَىٰكُمْ﴾ حتى ذهب داود بن على الأصبهانى الظاهرى إلى وجوبه فى عيد الفطر لظاهر الأمر فى قوله: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ وفى مقابلته مذهب أبى حنيفة رحمه الله أنه لا يشرع التكبير فى عيد الفطر، والباقون على استحبابه على اختلاف فى تفاصيل بعض الفروع بينهم، وقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أى إذا قمتم بما أمركم الله من طاعته بأداء فرائضه وترك محارمه وحفظ حدوده فلعلكم أن تكونوا من الشاكرين بذلك.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

قال ابن أبي حاتم [١]: حدثنا أبى، حدثنا يحيى بن المغيرة أخبرنا جرير عن عبدة بن أبى برزة السجستاني، عن الصلت بن حكيم بن معاوية بن حيدة القشيرى عن أبيه عن جده، أن أعرابيًا قال: يا رسول الله صلى الله عليك وسلم، أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فسكت النبى ﷺ فأنزل الله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى﴾ إذا أمرتهم أن يدعونى فدعونى استجبت، ورواه ابن جرير [٢] عن محمد بن حميد الرازى، عن جرير به، ورواه ابن مردويه وأبو الشيخ الأصبهانى من حديث محمد بن أبى حميد عن جرير به، وقال عبد الرزاق أخبرنا جعفر بن سليمان عن عوف عن الحسن قال سأل أصحاب رسول الله ﷺ أين ربنا؟ فأنزل الله عز وجل ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾ الآية وقال ابن جريج عن عطاء أنه بلغه لما نزلت ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ﴾ [غافر: ٦٠] قال الناس لو نعلم أى ساعة ندعو؟ فنزلت ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفى، حدثنا خالد الحذاء عن أبى عثمان النهدى، عن أبى موسى الأشعرى، قال: كنا مع رسول الله ﷺ فى غزوة، فجعلنا لا نصعد شرفًا ولا نعلو شرفًا ولا نهبط واديًا، إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير، قال: فدنا منا، فقال «يا أيها الناس، أربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا، إنما تدعون سميعًا بصيرًا، إن الذى تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته، يا عبد الله بن قيس، ألا أعلمك كلمة من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله» أخرجاه فى الصحيحين [٣] وبقية الجماعة من حديث أبى عثمان النهدى واسمه عبد الرحمن بن على عنه بنحوه، وقال الإمام أحمد [٤]: حدثنا سليمان بن داود، حدثنا شعبة، حدثنا قتادة عن أنس رضى الله عنه: أن النبى ﷺ، قال: «يقول الله تعالى أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه إذا دعانى» وقال الإمام أحمد [٥] حدثنا على بن إسحاق، أنبأنا عبد الله، أنبأنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، حدثنا

---

(١) ضعيف: أخرجه ابن أبي حاتم، (١/ ٣٦٤)، برقم (١٦٦٧)، وابن جرير، (٢/ ١٥٨)، وفيه الصلت بن حكيم. قال الحافظ في «لسان الميزان»: مجهول.

(٢) ضعيف: أخرجه ابن جرير (٢/ ١٥٨)، وهو مرسل فالإسناد ضعيف.

(٣) أخرجه البخاري، (٢٩٩٢)، ومسلم، (٢٧٠٤)، وأحمد (١٩١٠٢).

(٤) صحيح: أخرجه أحمد، (١٣٥٢٧)، انظر السلسلة الصحيحة، (٢٩٤٢).

(٥) صحيح: أخرجه أحمد، (١٠٥٩٢)، انظر مشكاة المصابيح، (٢٢٨٥)

إسماعيل بن عبيد الله عن كريمة بنت ابن خشخاش المزنية، قالت: حدثنا أبو هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ، يقول: «قال الله تعالى أنا مع عبدى ما ذكرنى وتحركت بى شفتاه».

(قُلْتُ) وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، وقوله لموسى وهارون عليهما السلام ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] والمراد من هذا أنه تعالى لا يخيب دعاء داع، ولا يشغله عنه شيء، بل هو سميع الدعاء، ففيه ترغيب فى الدعاء، وأنه لا يضيع لديه تعالى، كما قال الإمام أحمد[١]: حدثنا يزيد، حدثنا رجل: أنه سمع أبا عثمان النهدى، يحدث عن سلمان يعنى الفارسى رضى الله عنه، عن النبى ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى ليستحيى أن يبسط العبد إليه يديه يسأله فيهما خيرًا فيردهما خائبتين» - قال يزيد: سموا لى هذا الرجل، فقالوا: جعفر بن ميمون - وقد رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه[٢] من حديث جعفر بن ميمون صاحب الأنماط به، وقال الترمذى: حسن غريب، ورواه بعضهم ولم يرفعه، قال الشيخ الحافظ أبو الحجاج المزى رحمه الله فى أطرافه، وتابعه أبو همام محمد بن الزبرقان عن سليمان التيمى، عن أبى عثمان النهدى به، وقال الإمام أحمد[٣] أيضًا: حدثنا أبو عامر، حدثنا على بن أبى المتوكل الناجى عن أبى سعيد: أن النبى ﷺ، قال «ما من مسلم يدعو الله عز وجل بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له فى الأخرى، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها» قالوا: إذًا نكثر؟ قال: «الله أكثر»، وقال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن منصور الكوسج، أنبأنا محمد بن يوسف، حدثنا ابن ثوبان عن أبيه، عن مكحول، عن جبير بن نفير: أن عبادة بن الصامت، حدثهم: أن النبى ﷺ، قال «ما على ظهر الأرض من رجل مسلم يدعو الله عز وجل بدعوة إلا آتاه الله إياها، أو كف عنه من السوء مثلها ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم» ورواه الترمذى[٤] عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى، عن محمد بن يوسف الفريابى، عن ابن ثوبان وهو عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان به، وقال: حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وقال الإمام مالك عن ابن شهاب، عن أبى عبيد مولى ابن أزهر، عن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ، قال «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول دعوت فلم يستجب لى» أخرجاه فى الصحيحين[٥] من حديث مالك به، وهذا لفظ البخارى رحمه الله وأثابه الجنة، وقال مسلم فى صحيحه: حدثنى أبو الطاهر، حدثنا ابن وهب، أخبرنى معاوية بن صالح عن ربيعة بن يزيد، عن أبى إدريس الخولانى، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ، أنه قال «لا يزال يستجاب للعبد مالم يدع بإثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل «قيل: يا رسول الله، وما الاستعجال؟ قال «يقول قد دعوت وقد دعوت، فلم أر يستجاب لى، فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء» وقال الإمام أحمد[٦]: حدثنا عبد الصمد، حدثنا أبو هلال عن قتادة، عن أنس، أن

(١) حسن: أخرجه أحمد، (٢٣٢٠٢)، انظر صحيح الجامع الصغير، (٢٠٧٠).
(٢) صحيح: أخرجه أبو داود، (١٤٨٨)، والترمذي، (٣٥٥٦)، وابن ماجه، (٣٨٦٥)، انظر صحيح سنن أبي داود.
(٣) حسن صحيح: أخرجه أحمد، (١٠٧٤٩)، انظر صحيح الترغيب والترهيب، (١٦٣٣).
(٤) حسن صحيح: أخرجه الترمذي، (٣٥٧٣)، انظر صحيح جامع الترمذي.
(٥) أخرجه البخاري، (٦٣٤٠)، ومسلم، (٢٧٣٥)، ومالك، (٤٩٥).
(٦) صحيح: أخرجه أحمد، (١٢٥٩٦)، انظر صحيح الترغيب والترهيب، (١٦٥٠).

رسول الله ﷺ قال: «لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل» قالوا: وكيف يستعجل؟ قال: «يقول قد دعوت ربى فلم يستجب لى» ، وقال الإمام أبو جعفر الطبرى فى تفسيره: حدثنى يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، حدثنى أبو صخر: أن يزيد بن عبد الله بن قسيط حدثه عن عروة بن الزبير، عن عائشة رضى الله عنها، أنها قالت: ما من عبد مؤمن يدعو الله بدعوة فتذهب حتى تعجل له فى الدنيا أو تدخر له فى الآخرة إذا لم يعجل أو يقنط، قال عروة: قلت: يا أماه كيف عجلته وقنوطه؟ قالت: يقول: سألت فلم أعط ودعوت فلم أجب. قال ابن قسيط: وسمعت سعيد بن المسيب يقول كقول عائشة سواء، وقال الإمام أحمد [١]: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا بكر بن عمرو عن أبى عبد الرحمن الجيلى عن عبد الله بن عمرو: أن رسول الله ﷺ قال «القلوب أوعية، وبعضها أوعى من بعض، فإذا سألتم الله أيهاالناس، فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة، فإنه لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل» وقال ابن مردويه [٢]: حدثنا محمد بن إسحاق بن أيوب، حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن أبى نافع بن معد يكرب ببغداد، حدثنى بن أبى نافع بن معد يكرب، قال: كنت أنا وعائشة سألت رسول الله ﷺ عن آية ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ قال: «يا رب مسألة عائشة» فهبط جبريل فقال «الله يقرؤك السلام هذا عبدى الصالح بالنية الصادقة وقلبه نقى يقول يا رب فأقول لبيك فأقضى حاجته» وهذا حديث غريب من هذا الوجه. وروى ابن مردويه [٣] من حديث الكلبى عن أبى صالح، عن ابن عباس، حدثنى جابر بن عبد الله: أن النبى ﷺ قرأ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ الآية، فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهم أمرت بالدعاء وتوكلت بالإجابة، لبيك اللَّهم لبيك، لبيك لا شريك لك، لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك، أشهد أنك فرد أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، وأشهد أن وعدك حق، ولقاءك حق، والجنة حق، والنار حق، والساعة آتية لا ريب فيها، وأنت تبعث من فى القبور» . وقال الحافظ أبو بكر البزار: وحدثنا الحسن بن يحيى الأزدى ومحمد بن يحيى القطعى، قالا: حدثنا الحجاج بن منهال، حدثنا صالح المرى عن الحسن، عن أنس، عن النبى ﷺ قال: «يقول الله تعالى يا ابن آدم واحدة لك وواحدة لى وواحدة فيما بينى وبينك، فأما التى لى فتعبدنى لا تشرك بى شيئًا وأما التى لك فما عملت من شىء أو من عمل وفيتكه وأما الذى بينى وبينك، فمنك الدعاء وعلى الإجابة» [٤]، وفى ذكره تعالى هذه الآية الباعثة على الدعاء متخللة بين أحكام الصيام، إرشاد إلى الاجتهاد فى الدعاء عند إكمال العدة، بل وعند كل فطر، كما رواه الإمام أبو داود الطيالسى فى مسنده [٥]: حدثنا أبو محمد المليكى عن عمرو، هو ابن شعيب بن محمد بن عبد الله بن عمرو، عن أبيه، عن جده عبد الله بن عمرو، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «للصائم عند إفطاره دعوة مستجابة» ، فكان عبد الله بن عمرو إذا أفطر دعا أهله

(١) ضعيف: أخرجه أحمد، (٦٦١٧)، وفي سنده ابن لهيعة وهو ضعيف.

(٢) ضعيف جدًا: فيه إسحاق بن إبراهيم قال الدارقطني: دجال.

(٣) ضعيف جدًا: عزاه السيوطي في «الدر المنثور»، (١/ ٤٧٤)، إلى ابن أبي الدنيا في «الدعاء»، وابن مردويه، والبيهقي في «الأسماء والصفات»، والأصبهاني في «الترغيب»، من طريق الكلبي وهو متروك الحديث متهم بالكذب.

(٤) ضعيف: عزاه الهيثمي في «المجمع» (١/ ٥١)، للبزار، وانظر السلسلة الضعيفة (٤١٥٢).

(٥) ضعيف: أخرجه أبو داود الطيالسي في «مسنده» (١/ ٢٩٩)، برقم (٣٣٦٣)، انظر ضعيف الجامع الصغير، (٤٧٤٧).

وولده ودعا، وقال أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه فى سننه [١]: حدثنا هشام بن عمار، أخبرناالوليد بن مسلم عن إسحاق بن عبد الله المدنى، عن عبيد الله بن أبى مليكة، عن عبد الله بن عمرو، قال: قال النبى ﷺ: «إن للصائم عند فطره دعوة ما ترد» قال عبيد الله بن أبى مليكة: سمعت عبد الله بن عمرو يقول إذا أفطر: اللَّهم إنى أسألك برحمتك التى وسعت كل شىء أن تغفر لى، وفى مسند الإمام أحمد وسنن الترمذى والنسائى وابن ماجه [٢] عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثلاثة لا ترد دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم، يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة وتفتح لها أبواب السماء، يقول بعزتى لأنصرنك ولو بعد حين»**.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

هذه رخصة من الله تعالى للمسلمين، ورفع لما كان عليه الأمر فى ابتداء الإسلام، فإنه كان إذا أفطر أحدهم إنما يحل له الأكل والشرب والجماع إلى صلاة العشاء أو ينام قبل ذلك، فمتى نام أو صلى العشاء حرم عليه الطعام والشراب والجماع إلى الليلة القابلة، فوجدوا من ذلك مشقة كبيرة، والرفث هنا هو الجماع، قاله ابن عباس وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير وطاووس وسالم بن عبد الله وعمرو بن دينار والحسن وقتادة والزهرى والضحاك وإبراهيم النخعى والسدى وعطاء الخراسانى ومقاتل بن حيان، وقوله ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والسدى ومقاتل بن حيان: يعنى هن سكن لكم وأنتم سكن لهن، وقال الربيع بن أنس: هن لحاف لكم وأنتم لحاف لهن، وحاصله: أن الرجل والمرأة كل منهما يخالط الآخر ويماسه ويضاجعه، فناسب أن يرخص لهم فى المجامعة فى ليل رمضان لئلا يشق ذلك عليهم ويحرجوا، قال الشاعر:

إذا ما الضجيعُ ثَنَى جِيدَها تداعَتْ فكانت عليه لباسا

وكان السبب فى نزول هذه الآية كما تقدم فى حديث معاذ الطويل [٣]، وقال أبو إسحاق عن

---

(١) ضعيف: أخرجه ابن ماجه، (١٧٥٣)، انظر ضعيف سنن ابن ماجه.

(٢) ضعيف: أخرجه الترمذي، (٣٥٩٨)، وابن ماجه، (١٧٥٢)، وأحمد، (٧٩٨٣)، و انظر ضعيف الترغيب والترهيب، (٥٨٣).

(٣) في سبب نزول الآية.

أولاً: رواية البراء بن عازب: أخرجها البخاري، (١٩١٥)، وأبو داود، (٢٣١٤)، والترمذي، (٢٩٦٨)، والنسائي، (٢١٦٨)، وهي أصح الروايات في سبب نزول الآية.

ثانيًا: رواية معاذ: سبق تخريجها.

ثالثًا: رواية ابن عباس: أخرجها ابن جرير، (٢/ ١٦٤، ١٦٥).

الأولى فيها انقطاع لأنها من طريق علي بن أبي طلحة.

البراء بن عازب، كان أصحاب النبى ﷺ إذا كان الرجل صائمًا فنام قبل أن يفطر لم يأكل إلى مثلها، وإن قيس بن صرمة الأنصارى كان صائمًا وكان يومه ذلك يعمل فى أرضه، فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال: هل عندك طعام؟ قالت: لا، ولكن أنطلق فأطلب لك، فغلبته عينه فنام، وجاءت امرأته، فلما رأته نائمًا قالت: خيبة لك أنمت؟ فلما انتصف النهار غشى عليه فذكر ذلك للنبى ﷺ فنزلت هذه الآية ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ - إلى قوله - ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ ففرحوا بها فرحًا شديدًا، ولفظ البخارى ههنا من طريق أبى إسحاق سمعت البراء، قال: لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله، وكان رجال يخونون أنفسهم، فينزل الله ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾ وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس، قال: كان المسلمون فى شهر رمضان إذا صلوا العشاء، حرم عليهم النساء والطعام إلى مثلها من القابلة، ثم إن أناسًا من المسلمين أصابوا من النساء والطعام فى شهر رمضان بعد العشاء، منهم عمر بن الخطاب فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾ الآية، وكذا روى العوفى عن ابن عباس.

وقال موسى بن عقبة عن كريب عن ابن عباس، قال: إن الناس كانوا قبل أن ينزل فى الصوم ما نزل فيهم، يأكلون ويشربون ويحل لهم شأن النساء، فإذا نام أحدهم لم يطعم ولم يشرب ولا يأتى أهله حتى يفطر من القابلة، فبلغنا أن عمر بن الخطاب بعد ما نام ووجب عليه الصوم وقع على أهله، ثم جاء إلى النبى ﷺ فقال: أشكو إلى الله وإليك الذى صنعت. قال: «وما صنعت» ؟ قال: إنى سولت لى نفسى، فوقعت على أهلى بعد ما نمت، وأنا أريد الصوم، فزعموا أن النبى ﷺ قال: «ما كنت خليقًا أن تفعل» فنزل الكتاب ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ وقال سعيد بن أبى عروبة عن قيس بن سعد، عن عطاء بن أبى رباح، عن أبى هريرة فى قول الله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ - إلى قوله - ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ قال: كان المسلمون قبل أن تنزل هذه الآية إذا صلوا العشاء الآخرة، حرم عليهم الطعام والشراب والنساء حتى يفطروا، وأن عمر بن الخطاب أصاب أهله بعد صلاة العشاء، وأن صرمة بن قيس الأنصارى غلبته عيناه بعد صلاة المغرب، فنام ولم يشبع من الطعام، ولم يستيقظ حتى صلى رسول الله ﷺ العشاء، فقام فأكل وشرب، فلما أصبح أتى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك، فأنزل الله عند ذلك ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ يعنى بالرفث مجامعة النساء ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ

والطريق الثانية مسلسلة بالضعفاء.

رابعًا: رواية أبي هريرة: عزاها السيوطى في «الدر المنثور» إلى ابن جرير وسندها صحيح.

خامسًا: رواية كعب بن مالك: عزاها السيوطى (١/ ٤٧٥)، إلى أحمد، (١٥٣٦٨)، وابن جرير وابن أبي حاتم، (١/ ٣١٦)، برقم (١٦٧٧). قال السيوطى: إسنادها حسن.

قلت: ولا يضر أنها من طريق ابن لهيعة فالراوي عنه ابن المبارك أحد العبادلة، لكن فيها موسى بن جبر، مستور.

سادسًا: رواية ابن أبي ليلى، أخرجها ابن جرير (٢/ ١٦٥)، وإسنادها مرسل لأن ابن أبي ليلى لم يسمع من عمر.

أَنفُسَكُمْ﴾ يعنى تجامعون النساء وتأكلون وتشربون بعد العشاء ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ﴾ يعنى جامعوهن ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ يعنى الولد ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ فكان ذلك عفوًا من الله ورحمة، وقال هشام عن حصين بن عبد الرحمن عن عبد الرحمن بن أبى ليلى، قال: قام عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فقال: يا رسول الله، إنى أردت أهلى البارحة على ما يريد الرجل أهله، فقالت: إنها قد نامت فظننتها تعتل فواقعتها، فنزل فى عمر ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ وهكذا رواه شعبة عن عمرو بن مرة عن ابن أبى ليلى به، وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنى المثنى، حدثنا سويد، أخبرنا ابن المبارك، عن ابن لهيعة، حدثنى موسى بن جبير مولى بنى سلمة، أنه سمع عبد الله بن كعب بن مالك يحدث عن أبيه قال: كان الناس فى رمضان إذا صام الرجل فأمسى فنام حرم عليه الطعام والشراب والنساء حتى يفطر من الغد، فرجع عمر بن الخطاب من عند النبى ﷺ ذات ليلة وقد سمر عنده، فوجد امرأته قد نامت فأرادها فقالت: إنى قد نمت، فقال: ما نمت، ثم وقع بها، وصنع كعب بن مالك مثل ذلك، فغدا عمر بن الخطاب إلى النبى ﷺ فأخبره فأنزل الله: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ﴾ الآية، وهكذا روى عن مجاهد وعطاء وعكرمة وقتادة وغيرهم فى سبب نزول هذه الآية فى عمر بن الخطاب ومن صنع كما صنع، وفى صرمة بن قيس، فأباح الجماع والطعام والشراب فى جميع الليل رحمة ورخصة ورفقًا.

وقوله: ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ قال أبو هريرة وابن عباس وأنس وشريح القاضى ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعطاء والربيع بن أنس والسدى وزيد بن أسلم والحكم بن عتبة ومقاتل بن حيان والحسن البصرى والضحاك وقتادة وغيرهم: يعنى الولد: وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ يعنى الجماع، وقال عمرو بن مالك البكرى عن أبى الجوزاء عن ابن عباس ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ قال: ليلة القدر، رواه ابن أبى حاتم وابن جرير. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، قال: قال قتادة: ابتغوا الرخصة التى كتب الله لكم، يقول: ما أحل الله لكم، وقال عبد الرزاق أيضًا: أخبرنا ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن عطاء بن أبى رباح، قال: قلت لابن عباس: كيف تقرأ هذه الآية ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾؟ قال: أيتهما شئت، عليك بالقراءة الأولى، واختار ابن جرير أن الآية أعم من هذا كله.

وقوله: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ أباح تعالى الأكل والشرب مع ما تقدم من إباحة الجماع فى أى الليل شاء الصائم إلى أن يتبين ضياء الصباح من سواد الليل، وعبر عن ذلك بالخيط الأبيض من الخيط الأسود، ورفع اللبس بقوله ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أبو عبد الله البخارى[1]: حدثنى ابن أبى مريم، حدثنا أبو غسان محمد بن مطرف، حدثنا أبو حازم عن سهل بن سعد، قال: أنزلت ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ ولم ينزل ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ وكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم فى رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود، فلا يزال يأكل حتى يتبين له رؤيتهما، فأنزل الله بعد ﴿مِنَ

(١) أخرجه البخاري (١٩١٧).

﴿ٱلْفَجْرِ﴾ فعلموا أنه يعنى الليل والنهار. وقال الإمام أحمد[١]: حدثنا هشيم، أخبرنا حصين عن الشعبى، أخبرنى عدى بن حاتم قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ عدت إلى عقالين: أحدهما أسود والآخر أبيض، قال: فجعلتهما تحت وسادتى، قال: فجعلت أنظر إليهما، فلما تبين لى الأبيض من الأسود أمسكت، فلما أصبحت غدوت إلى رسول الله فأخبرته بالذى صنعت، فقال «**إن وسادك إذا لعريض إنما ذلك بياض النهار من سواد الليل**» أخرجاه فى الصحيحين[٢] من غير وجه عن عدى.

ومعنى قوله: إن وسادك إذا لعريض، أى إن كان ليسع الخيطين: الخيط الأسود والأبيض المرادين من هذه الآية تحتها، فإنهما بياض النهار وسواد الليل، فيقتضى أن يكون بعرض المشرق والمغرب، وهكذا وقع فى رواية البخارى مفسرًا بهذا، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبو عوانة عن حصين، عن الشعبى، عن عدى، قال: أخذ عدى عقالاً أبيض وعقالاً أسود، حتى كان بعض الليل نظر فلم يستبينا، فلما أصبح قال يا رسول الله جعلت تحت وسادتى، قال «**إن وسادك إذا لعريض، إن كان الخيط الأبيض والأسود تحت وسادتك**» وجاء فى بعض الألفاظ «**إنك لعريض القفا**» ففسره بعضهم بالبلادة، وهو ضعيف، بل يرجع إلى هذا لأنه إذا كان وساده عريضًا فقفاه أيضًا عريض، والله أعلم. ويفسره رواية البخارى أيضًا حدثنا قتيبة حدثنا جرير عن مطرف عن الشعبى عن عدى بن حاتم قال قلت يا رسول الله ما الخيط الأبيض من الخيط الأسود، أهما الخيطان؟ قال: «**إنك لعريض القفا إن أبصرت الخيطين، ثم قال: لا بل هو سواد الليل وبياض النهار**».

وفى إباحته تعالى جواز الأكل إلى طلوع الفجر دليل على استحباب السحور لأنه من باب الرخصة والأخذ بها محبوب، ولهذا وردت السنة الثابتة عن رسول الله ﷺ بالحث على السحور ففى الصحيحين[٣] عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «**تسحروا فإن فى السحور بركة**» وفى صحيح مسلم[٤] عن عمرو بن العاص رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ «**إن فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحور**» وقال الإمام أحمد[٥]، حدثنا إسحاق بن عيسى هو ابن الطباع، حدثنا عبد الرحمن بن زيد عن أبيه، عن عطاء بن يسار، عن أبى سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ «السحور أكلة بركة فلا تدعوه، ولو أن أحدكم تجرع جرعة ماء، فإن الله وملائكته يصلون على المتسحرين» وقد ورد فى الترغيب فى السحور أحاديث كثيرة حتى ولو بجرعة ماء تشبهًا بالآكلين، ويستحب تأخيره إلى وقت انفجار الفجر، كما جاء فى الصحيحين[٦] عن أنس بن مالك، عن زيد بن ثابت قال: تسحرنا مع رسول الله ﷺ ثم قمنا إلى الصلاة، قال أنس: قلت لزيد: كم كان بين الآذان والسحور؟ قال: قدر

---

(١) أخرجه أحمد، (١٨٨٨٠)، ورجاله ثقات.
(٢) أخرجه البخاري، (٤٥٠٩)، ومسلم، (١٠٩٠).
(٣) أخرجه البخاري (١٩٢٣)، ومسلم (١٠٩٥).
(٤) أخرجه مسلم، (١٠٩٦).
(٥) حسن: أخرجه أحمد، (١١٠٠٣)، وانظر صحيح الجامع، (٣٦٨٣).
(٦) أخرجه البخاري، (١٩٢١)، ومسلم، (١٠٩٧).

خمسين آية. وقال الإمام أحمد[١]: حدثنا موسى بن داود، حدثنا ابن لهيعة، عن سالم بن غيلان، عن سليمان بن أبى عثمان، عن عدى بن حاتم الحمصى، عن أبى ذر، قال: قال رسول الله ﷺ «لا تزال أمتى بخير ما عجلوا الإفطار وأخروا السحور» وقد ورد أحاديث كثيرة أن رسول الله ﷺ سماه الغذاء المبارك[٢]، وفى الحديث الذى رواه الإمام أحمد والنسائى وابن ماجه[٣] من رواية حماد بن سلمة، عن عاصم بن بهدلة، عن زر بن حبيش عن حذيفة، قال: تسحرنا مع رسول الله ﷺ، وكان النهار إلا أن الشمس لم تطلع، وهو حديث تفرد به عاصم بن أبى النجود، قاله النسائى، وحمله على أن المراد قرب النهار، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ٢] أى قاربن انقضاء العدة فإما إمساك بمعروف أو ترك للفراق، وهذا الذى قاله هو المتعين حمل الحديث عليه أنهم تسحروا ولم يتيقنوا طلوع الفجر، حتى أن بعضهم ظن طلوعه وبعضهم لم يتحقق ذلك، وقد روى عن طائفة كثيرة من السلف، أنهم تسامحوا فى السحور عند مقاربة الفجر، روى مثل هذا عن أبى بكر وعمر وعلى وابن مسعود وحذيفة وأبى هريرة وابن عمر وابن عباس وزيد بن ثابت، وعن طائفة كثيرة من التابعين منهم محمد بن على بن الحسين وأبو مجلز وإبراهيم النخعى وأبو الضحى وأبو وائل وغيره من أصحاب ابن مسعود وعطاء والحسن والحاكم بن عيينة ومجاهد وعروة بن الزبير وأبو الشعثاء جابر بن زيد، وإليه ذهب الأعمش وجابر بن راشد، وقد حررنا أسانيد ذلك فى كتاب الصيام المفرد، ولله الحمد، وحكى أبو جعفر بن جرير فى تفسيره عن بعضهم: أنه إنما يجب الإمساك من طلوع الشمس كما يجوز الإفطار بغروبها.

(قُلْتُ) وهذا القول ما أظن أحدًا من أهل العلم يستقر له قدم عليه، لمخالفته نص القرآن فى قوله ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ وقد ورد فى الصحيحين[٤] من حديث القاسم عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يمنعكم أذان بلال عن سحوركم، فإنه ينادى بليل فكلوا واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن أم مكتوم فإنه لا يؤذن حتى يطلع الفجر» لفظ البخارى، وقال الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا محمد بن جابر عن قيس بن طلق عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال «ليس الفجر المستطيل فى الأفق ولكن المعترض الأحمر» ورواه الترمذى[٥] ولفظهما «**كلوا واشربوا ولا يهيدنكم الساطع المصعد فكلوا واشربوا حتى يعترض لكم الأحمر**».

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عبد الرحمن بن مهدى، حدثنا شعبة عن شيخ من بنى قشير، سمعت سمرة بن جندب يقول: قال رسول الله ﷺ «**لا يغرنكم نداء بلال وهذا البياض حتى**

---

(١) صحيح: دون قوله: «وأخروا السحور» أخرجه أحمد، (١٠٨٠٥)، انظر صحيح الجامع الصغير (٧٢٨٤).
(٢) صحيح: أخرجه أبو داود، (٢٣٤٤)، والنسائي، (٢١٦٣)، وأحمد (١٦٦٩٣)، من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه، انظر صحيح سنن أبي داود.
(٣) حسن: أخرجه النسائي، (٢١٥٢)، وابن ماجه، (١٦٩٥)، وأحمد، (٢٢٨٥٢)، انظر صحيح سنن النسائي.
(٤) أخرجه البخاري، (٦٢٣)، ومسلم، (١٠٩٢).
(٥) صحيح: أخرجه الترمذي، (٧٠٦)، وأحمد، (١٥٨٥٦)، انظر صحيح جامع الترمذي.

ينفجر الفجر أو يطلع الفجر»، ثم رواه من حديث شعبة وغيره، عن سواد بن حنظلة، عن سمرة، قال: قال رسول الله ﷺ «لا يمنعكم من سحوركم أذان بلال ولا الفجر المستطيل ولكنه الفجر المستطير فى الأفق»، قال: وحدثنى يعقوب بن إبراهيم بن علية عن عبد الله بن سوادة القشيرى عن أبيه، عن سمرة بن جندب، قال: قال رسول الله ﷺ «لا يغرنكم أذان بلال ولا هذا البياض - لعمود الصبح - حتى يستطير» رواه مسلم [١] فى صحيحه عن زهير بن حرب، عن إسماعيل بن إبراهيم هو ابن علية مثله سواء، وقال ابن جرير [٢]: حدثنا ابن حميد، حدثنا ابن المبارك عن سليمان التيمى، عن أبى عثمان النهدى، عن ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ «لا يمنعن أحدكم أذان بلال من سحوره، أو قال نداء بلال، فإن بلالاً يؤذن بليل أو قال ينادى لينبه نائمكم وليرجع قائمكم، وليس الفجر أن يقول هكذا وهكذا حتى يقول هكذا»، ورواه [٣] من وجه آخر عن التيمى به، وحدثنى الحسن بن الزبرقان النخعى حدثنى أبو أسامة عن محمد بن أبى ذئب، عن الحارث بن عبد الرحمن، عن محمد بن عبد الرحمن بن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «الفجر فجران فالذى كأنه ذنب السرحان لا يحرم شيئًا وإنما هو المستطير الذى يأخذ الأفق فإنه يحل الصلاة ويحرم الطعام» وهذا مرسل جيد وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن جريج عن عطاء: سمعت ابن عباس يقول: هما فجران، فأما الذى يسطع فى السماء فليس يحل ولا يحرم شيئًا، ولكن الفجر الذى يستنير على رءوس الجبال هو الذى يحرم الشراب، وقال عطاء فأما إذا سطع سطوعًا فى السماء، وسطوعه أن يذهب فى السماء طولاً، فإنه لا يحرم به شراب الصائم ولا صلاة ولا يفوت به الحج، ولكن إذا انتشر على رءوس الجبال، حرم الشراب للصيام وفات الحج، وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس وعطاء، وهكذا روى عن غير واحد من السلف رحمهم الله.

(مسألة) ومن جعله تعالى الفجر غاية لإباحة الجماع والطعام والشراب لمن أراد الصيام يستدل على أنه من أصبح جنبًا فليغتسل وليتم صومه ولا حرج عليه، وهذا مذهب الأئمة الأربعة وجمهور العلماء سلفًا وخلفًا، لما رواه البخارى ومسلم [٤] من حديث عائشة وأم سلمة رضى الله عنهما أنهما قالتا كان رسول الله ﷺ يصبح جنبًا من جماع غير احتلام ثم يغتسل ويصوم وفى حديث أم سلمة عندهما: ثم لا يفطر ولا يقضى، وفى صحيح مسلم [٥] عن عائشة، أن رجلاً قال: يا رسول الله، تدركنى الصلاة وأنا جنب فأصوم؟ فقال رسول الله ﷺ «وأنا تدركنى الصلاة وأنا جنب فأصوم» فقال: لست مثلنا يا رسول الله، فقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال «والله إنى لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقى» فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد [٦]: حدثنا عبد الرزاق عن معمر، عن همام، عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ، أنه قال «إذا نودى للصلاة صلاة الصبح وأحدكم جنب فلا يصم

---

(١) أخرجه مسلم، (١٠٩٤)، وابن جرير، (٢/ ١٧٣، ١٧٤).
(٢) أخرجه البخاري، (٦٢١)، ومسلم، (١٠٩٣).
(٣) صحيح: أخرجه ابن جرير، (٢/ ١٧٣)، انظر السلسلة الصحيحة، (٦٩٣).
(٤) أخرجه البخاري، (١٩٢٦)، ومسلم، (١١٠٩).
(٥) أخرجه مسلم، (١١١٠).
(٦) أخرجه أحمد، (٢٧٣٦٢).

يومئذ» فإنه حديث جيد الإسناد على شرط الشيخين كما ترى، وهو فى الصحيحين [١] عن أبى هريرة، عن الفضل بن عباس، عن النبى ﷺ، وفى سنن النسائى [٢] عنه عن أسامة بن زيد والفضل بن عباس ولم يرفعه: فمن العلماء من علل هذا الحديث بهذا، ومنهم من ذهب إليه، ويحكى هذا عن أبى هريرة وسالم وعطاء وهشام بن عروة والحسن البصرى، ومنهم من ذهب إلى التفرقة بين أن يصبح جنبًا نائمًا فلا عليه، لحديث عائشة وأم سلمة، أو مختارًا فلا صوم له، لحديث أبى هريرة، يحكى هذا عن عروة وطاووس والحسن، ومنهم من فرق بين الفرض فيتمه فيقضيه، وأما النفل فلا يضره، رواه الثورى عن منصور، عن إبراهيم النخعى وهو رواية عن الحسن البصرى أيضًا، ومنهم من ادعى نسخ حديث أبى هريرة بحديثى عائشة وأم سلمة، ولكن لا تاريخ معه، وادعى ابن حزم أنه منسوخ بهذه الآية وهو بعيد أيضًا إذ لا تاريخ بل الظاهر من التاريخ خلافه، ومنهم من حمل حديث أبى هريرة على نفى الكمال فلا صوم له، لحديث عائشة وأم سلمة الدالين على الجواز، وهذا المسلك أقرب الأقوال وأجمعها، والله أعلم. ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ يقتضى الإفطار عند غروب الشمس حكمًا شرعيًا، كما جاء فى الصحيحين [٣] عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إذا أقبل الليل من ههنا، وأدبر النهار من ههنا فقد أفطر الصائم» وعن سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ «لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر» أخرجاه [٤].

وقال الإمام أحمد: حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا الأوزاعى، حدثنا قرة بن عبد الرحمن عن الزهرى، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة عن النبى ﷺ «يقول الله عز وجل إن أحب عبادى إلى أعجلهم فطرًا» ورواه الترمذى [٥] من غير وجه عن الأوزاعى به، وقال: هذا حديث حسن غريب، وقال أحمد [٦] أيضًا: حدثنا عفان، حدثنا عبيد الله بن إياد، سمعت إياد بن لقيط، سمعت ليلى امرأة بشير بن الخصاصية قالت أردت أن أصوم يومين مواصلة، فمنعنى بشير وقال: إن رسول الله ﷺ نهى عنه وقال «يفعل ذلك النصارى، ولكن صوموا كما أمركم الله ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ فإذا كان الليل فأفطروا» وروى الحافظ ابن عساكر حدثنا بكر ابن سهل حدثنا عبد الله بن يوسف حدثنا يحيى بن ثور بن يزيد عن علي بن أبي طلحة عن عبد الملك بن أبي ذر أن رسول الله ﷺ واصل يومين وليلة فأتاه جبريل فقال: إن الله قد قبل وصالك ولا يحل لأحد بعدك وذلك بأن الله تعالى قال: ﴿أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾. فلا صيام بعد الليل، وأمرني بالوتر قبل الفجر، وهذا إسناد لا بأس به أورده في ترجمة عبد الملك بن أبي ذر في تاريخه. ولهذا ورد فى الأحاديث الصحيحة النهى عن الوصال وهو أن يصل يومًا بيوم ولا يأكل بينهما شيئًا، قال الإمام أحمد [٧]: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر عن الزهرى عن أبى

(١) أخرجه مسلم، (١١٠٩).
(٢) أخرجه النسائي في «الكبرى»، (٢/ ١٧٩)، برقم (٢٩٣٥).
(٣) أخرجه البخاري، (١٩٥٤)، ومسلم (١١٠٠).
(٤) أخرجه البخاري (١٩٥٧)، ومسلم، (١٠٩٨).
(٥) ضعيف: أخرجه الترمذي، (٧٠٠)، وأحمد، (٧٢٠٠)، انظر ضعيف جامع الترمذي.
(٦) صحيح: أخرجه أحمد، (٢١٤٤٨)، انظر «جلباب المرأة المسلمة» ص (١٧٧).
(٧) صحيح: أخرجه أحمد (٧٧٢٨)، انظر صحيح الجامع الصغير، (٢٤٩٩).

سلمة، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ «لا تواصلوا» قالوا: يا رسول الله إنك تواصل، قال «فإنى لست مثلكم إنى أبيت يطعمنى ربى ويسقينى» قال: فلم ينتهوا عن الوصال فواصل بهم النبى ﷺ يومين وليلتين ثم رأوا الهلال، فقال: «لو تأخر الهلال لزدتكم» كالمنكل لهم، وأخرجاه فى الصحيحين [١] من حديث الزهرى به، وكذلك أخرجا [٢] النهى عن الوصال من حديث أنس وابن عمر، وعن عائشة رضى الله عنهما، قالت: نهى رسول الله ﷺ عن الوصال رحمة لهم، فقالوا: إنك تواصل، قال: «إنى لست كهيئتكم إنى يطعمنى ربى ويسقينى» فقد ثبت النهى عنه من غير وجه وثبت أنه من خصائص النبى ﷺ وأنه كان يقوى على ذلك ويعان، والأظهر أن ذلك الطعام والشراب فى حقه إنما كان معنويًا لا حسيًا، وإلا فلا يكون مواصلاً مع الحسى، ولكن كما قال الشاعر:

لها أحاديث من ذكراك تشغلها ... عن الشراب وتلهيها عن الزاد

وأما من أحب أن يمسك بعد غروب الشمس إلى وقت السحر فله ذلك، كما فى حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ «لا تواصلوا فأيكم أراد أن يواصل فليواصل إلى السحر» قالوا: فإنك تواصل يا رسول الله ﷺ، قال «إنى لست كهيئتكم، إنى أبيت لى مطعم يطعمنى وساق يسقينى» أخرجاه فى الصحيحين [٣] أيضًا، وقال ابن جرير [٤]: حدثنا أبو كريب، حدثنا أبو نعيم، حدثنا أبو إسرائيل العبسى عن أبى بكر بن حفص، عن أم ولد حاطب بن أبى بلتعة: أنها مرت برسول الله ﷺ وهو يتسحر فدعاها إلى الطعام، فقالت: إنى صائمة، قال: وكيف تصومين. فذكرت ذلك للنبى ﷺ، فقال: «أين أنت من وصال آل محمد من السحر إلى السحر» وقال الإمام أحمد [٥]: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا إسرائيل عن عبد الأعلى، عن محمد بن على، عن على: أن النبى ﷺ كان يواصل من السحر إلى السحر، وقد روى ابن جرير عن عبد الله بن الزبير وغيره من السلف: أنهم كانوا يواصلون الأيام المتعددة، وحمله منهم على أنهم كانوا يفعلون ذلك رياضة لأنفسهم لا أنهم كانوا يفعلونه عبادة، والله أعلم. ويحتمل أنهم كانوا يفهمون من النهى أنه إرشادى من باب الشفقة، كما جاء فى حديث عائشة: رحمة لهم، فكان ابن الزبير وابنه عامر ومن سلك سبيلهم يتجشمون ذلك ويفعلونه، لأنهم كانوا يجدون قوة عليه، وقد ذكر عنهم أنهم كانوا أول ما يفطرون على السمن والصبر لئلا تتخرق الأمعاء بالطعام أولاً، وقد روى عن ابن الزبير أنه كان يواصل سبعة أيام ويصبح فى اليوم السابع أقواهم وأجلدهم، وقال أبو العالية: إنما فرض الله الصيام بالنهار، فإذا جاء بالليل فمن شاء أكل ومن شاء لم يأكل. قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ قال على بن أبى طلحة عن

(١) أخرجه البخاري (٧٢٩٩)، ومسلم، (١١٠٣).
(٢) رواية أنس: أخرجها البخاري، (١٩٦١)، ومسلم، (١١٠٤).
ورواية ابن عمر: أخرجها البخاري (١٩٦٢)، ومسلم، (١١٠٢).
ورواية عائشة: أخرجها البخاري، (١٩٦٤)، ومسلم، (١١٠٥).
(٣) أخرجه البخاري، (١٩٦٧).
(٤) أخرجه ابن جرير، (٢/ ١٧٩)، وفيه أبو إسرائيل العبسي: إسماعيل بن خليفة: صدوق سيئ الحفظ.
(٥) ضعيف: أخرجه أحمد، (١١٩٨)، وفيه عبد الأعلى بن عامر الثعلبي، قال عنه ابن حنبل: ضعيف الحديث، وقال ابن معين: ليس بذاك القوي، وقال أبو زرعة الرازي: ضعيف الحديث.

ابن عباس: هذا فى الرجل يعتكف فى المسجد فى رمضان أو فى غير رمضان، فحرم الله عليه أن ينكح النساء ليلاً أو نهارًا حتى يقضى اعتكافه وقال الضحاك كان الرجل إذا اعتكف فخرج من المسجد جامع إن شاء، فقال الله تعالى: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ أى لا تقربوهن ما دمتم عاكفين فى المسجد ولا فى غيره. وكذا قال مجاهد وقتادة وغير واحد: أنهم كانوا يفعلون ذلك حتى نزلت هذه الآية، قال ابن أبى حاتم: روى عن ابن مسعود ومحمد بن كعب ومجاهد وعطاء والحسن وقتادة والضحاك والسدى والربيع بن أنس ومقاتل، قالوا: لا يقربها وهو معتكف وهذا الذى حكاه عن هؤلاء هو الأمر المتفق عليه عند العلماء أن المعتكف يحرم عليه النساء ما دام معتكفًا فى مسجده، ولو ذهب إلى منزله لحاجة لا بد له منها فلا يحل له أن يثبت فيه إلا بمقدار ما يفرغ من حاجته تلك من قضاء الغائط أو الأكل، وليس له أن يقبل امرأته ولا أن يضمها إليه، ولا يشتغل بشىء سوى اعتكافه، ولا يعود المريض لكن يسأل عنه وهو مار فى طريقه، وللاعتكاف أحكام مفصلة فى بابها، منها ما هو مجمع عليه بين العلماء ومنها ما هو مختلف فيه، وقد ذكرنا قطعة صالحة من ذلك فى آخر كتاب الصيام، ولله الحمد والمنة، ولهذا كان الفقهاء المصنفون يتبعون كتاب الصيام بكتاب الاعتكاف اقتداء بالقرآن العظيم، فإنه نبه على ذكر الاعتكاف بعد ذكر الصوم. وفى ذكره تعالى، الاعتكاف بعد الصيام إرشاد وتنبيه على الاعتكاف فى الصيام أو فى آخر شهر الصيام، كما ثبت فى السنة عن رسول الله ﷺ أنه كان يعتكف العشر الأواخر من شهر رمضان حتى توفاه الله عز وجل، ثم اعتكف أزواجه من بعده، أخرجاه[1] من حديث عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها.

وفى الصحيحين[2] أن صفية بنت حيى كانت تزور النبى ﷺ وهو معتكف فى المسجد، فتحدثت عنده ساعة ثم قامت لترجع إلى منزلها، وكان ذلك ليلاً، فقام النبى ﷺ ليمشى معها حتى تبلغ دارها، وكان منزلها فى دار أسامة بن زيد فى جانب المدينة، فلما كان ببعض الطريق لقيه رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبى ﷺ أسرعا، وفى رواية: توواريا، أى حياء من النبى ﷺ لكون أهله معه، فقال لهما ﷺ: «على رسلكما إنها صفية بنت حيى» أى لا تسرعا واعلما أنها صفية بنت حيى أى زوجتى، فقالا: سبحان الله يا رسول الله، فقال ﷺ **«إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم، وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما شيئًا، أو قال: شرًا»** قال الشافعى رحمه الله: أراد عليه السلام أن يعلم أمته التبرى من التهمة فى محلها، لئلا يقعا فى محذور، وهما كانا أتقى لله من أن يظنا بالنبى ﷺ شيئًا، والله أعلم، ثم المراد بالمباشرة إنما هو الجماع ودواعيه من تقبيل ومعانقة ونحو ذلك، فأما معاطاة الشىء ونحوه فلا بأس به، فقد ثبت فى الصحيحين[3] عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يدنى إلى رأسه فأرجله وأنا حائض، وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة الإنسان، قالت عائشة: ولقد كان المريض يكون فى البيت، فما أسأل عنه، إلا وأنا مارة، وقوله ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أى هذا الذى بيناه وفرضناه وحددناه من الصيام وأحكامه وما أبحنا فيه وما حرمنا وذكرنا غاياته ورخصه وعزائمه، حدود الله أى

(١) أخرجه البخاري (٢٠٢٦)، ومسلم، (١١٧٣).
(٢) أخرجه البخاري (٢٠٣٥)، ومسلم، (٢١٧٥).
(٣) أخرجه البخاري (٢٠٢٩)، ومسلم (٢٩٧).

شرعها الله وبينها بنفسه، فلا تقربوها أى لا تجاوزوها وتتعدوها، وكان الضحاك ومقاتل يقولان فى قوله ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أى المباشرة فى الاعتكاف، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعنى هذه الحدود الأربعة، ويقرأ ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ - حتى بلغ - ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ قال: وكان أبى وغيره من مشيختنا يقولون هذا ويتلونه علينا: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ﴾ أى كما بين الصيام وأحكامه وشرائعه وتفاصيله كذلك يبين سائر الأحكام على لسان عبده ورسوله محمد ﷺ ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أى يعرفون كيف يهتدون وكيف يطيعون، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد: ٩].

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: هذا فى الرجل يكون عليه مال وليس عليه فيه بينة، فيجحد المال ويخاصم إلى الحكام وهو يعرف أن الحق عليه، وهو يعلم أنه آثم آكل الحرام، وكذا روى عن مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والحسن وقتادة والسدى ومقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنهم قالوا: لا تخاصم وأنت تعلم أنك ظالم، وقد ورد فى الصحيحين[1] عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ، قال «ألا إنما أنا بشر وإنما يأتينى الخصم فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له، فمن قضيت له بحق مسلم، فإنما هى قطعة من نار فليحملها أو ليذرها» فدلت هذه الآية الكريمة وهذا الحديث على أن حكم الحاكم لا يغير الشىء فى نفس الأمر، فلا يحل فى نفس الأمر حرامًا هو حرام، ولا يحرم حلالاً هو حلال وإنما هو ملزم فى الظاهر، فإن طابق فى نفس الأمر فذاك وإلا فللحاكم أجره وعلى المحتال وزره، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ أى تعلمون بطلان ما تدعونه وتروجونه فى كلامكم، قال قتادة: اعلم يا ابن آدم أن قضاء القاضى لا يحل لك حرامًا ولا يحق لك باطلاً، وإنما يقضى القاضى بنحو ما يرى وتشهد به الشهود، والقاضى بشر يخطئ ويصيب، واعلموا أن من قضى له بباطل أن خصومته لم تنقض حتى يجمع الله بينهما يوم القيامة، فيقضى على المبطل للمحق بأجود مما قضى به للمبطل على المحق فى الدنيا.

ثلاثة أرباع الحزب ٣

﴿۞ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾

قال العوفى عن ابن عباس: سأل الناس رسول الله ﷺ عن الأهلة، فنزلت هذه الآية ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ يعلمون بها حل دينهم وعدة نسائهم ووقت حجهم، وقال أبو جعفر عن الربيع، عن أبى العالية: بلغنا أنهم قالوا: يا رسول الله ﷺ لم خلقت الأهلة؟ فأنزل الله ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ﴾ يقول جعلها الله مواقيت لصوم المسلمين وإفطارهم وعدة نسائهم ومحل

(١) أخرجه البخاري (٢٤٥٨)، ومسلم (١٧١٣).

دينهم، كذا روى عن عطاء والضحاك وقتادة والسدى والربيع بن أنس نحو ذلك وقال عبد الرزاق عن عبد العزيز بن أبى رواد عن نافع عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ «جعل الله الأهلة مواقيت للناس، فصوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته، فإن غم عليكم فعدوا ثلاثين يومًا» ورواه الحاكم فى مستدركه [١] من حديث ابن أبى رواد به، وقال: كان ثقة عابدًا مجتهدًا شريف النسب فهو صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال محمد بن جابر عن قيس بن طلق عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «جعل الله الأهلة، فإذا رأيتم الهلال فصوموا، وإذا رأيتموه فأفطروا، فإن غمّ عليكم فأكملوا العدة ثلاثين» وكذا روى من حديث أبى هريرة ومن كلام على بن أبى طالب رضى الله عنه.

وقوله ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ ۚ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ قال البخارى [٢]: حدثنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن البراء، قال: كانوا إذا أحرموا فى الجاهلية، أتوا البيت من ظهره فأنزل الله ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ ۚ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ وكذا رواه أبو داود الطيالسى عن شعبة، عن أبى إسحاق، عن البراء، قال: كانت الأنصار إذا قدموا من سفرهم، لم يدخل الرجل من قبل بابه، فنزلت هذه الآية، وقال الأعمش، عن أبى سفيان، عن جابر: كانت قريش تدعى الحمس، وكانوا يدخلون من الأبواب فى الإحرام، وكانت الأنصار وسائر العرب لا يدخلون من باب فى الإحرام، فبينا رسول الله ﷺ فى بستان، إذ خرج من بابه، وخرج معه قطبة بن عامر من الأنصار فقالوا: يا رسول الله، إن قطبة بن عامر رجل تاجر، وإنه خرج معك من الباب، فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: رأيتك فعلته، ففعلت كما فعلت، فقال: إنى أحمس، قال له: فإن دينى دينك. فأنزل الله ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ ۚ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ رواه ابن أبى حاتم، ورواه العوفى عن ابن عباس بنحوه، وكذا روى عن مجاهد والزهرى وقتادة وإبراهيم النخعى والسدى والربيع بن أنس.

وقال الحسن البصرى: كان أقوام من أهل الجاهلية إذا أراد أحدهم سفرًا، وخرج من بيته يريد سفره الذى خرج له، ثم بدا له بعد خروجه أن يقيم ويدع سفره، لم يدخل البيت من بابه ولكن يتسوره من قبل ظهره، فقال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ الآية، وقال محمد بن كعب: كان الرجل إذا اعتكف لم يدخل منزله من باب البيت، فأنزل الله هذه الآية، وقال عطاء بن أبى رباح: كان أهل يثرب إذا رجعوا من عيدهم دخلوا منازلهم من ظهورها، ويرون أن ذلك أدنى إلى البر، فقال الله ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ ولا يرون أن ذلك أدنى إلى البر وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أى اتقوا الله، فافعلوا ما أمركم به واتركوا ما نهاكم عنه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ غدًا إذا وقفتم بين يديه فيجازيكم على التمام والكمال.

---

(١) صحيح: أخرجه الحاكم (١/ ٥٨٤)، برقم (١٥٣٩)، وصححه. وقد أورده ابن كثير من طريق عبد الرزاق لعله في «تفسيره» وإسناده صحيح من حديث ابن عمر، أما حديث طلق فأخرجه أحمد، يتقوى برواية ابن عمر السابقة.

(٢) أخرجه البخاري (٤٥١٢)، والطيالسي في «مسنده»، (١/ ٩٨)، برقم (٧١٧)، وابن أبي حاتم (١/ ٣٢٣)، برقم (١٧٠٩)، وابن جرير (٢/ ١٨٦).

﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾

قال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية فى قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ قال: هذه أول آية نزلت فى القتال بالمدينة، فلما نزلت كان رسول الله ﷺ يقاتل من قاتله، ويكف عمن كف عنه، حتى نزلت سورة براءة، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، حتى قال: هذه منسوخة بقوله: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] وفى هذا نظر، لأن قوله ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ إنما هو تهييج وإغراء بالأعداء الذين همتهم قتال الإسلام وأهله، أى كما يقاتلونكم فاقتلوهم أنتم، كما قال: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦] ولهذا قال فى الآية: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أى لتكون همتكم منبعثة على قتالهم، كما همتهم منبعثة على قتالكم، وعلى إخراجهم من بلادهم التى أخرجوكم منها قصاصًا. وقد حكي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أن أول آية نزلت في القتال بعد الهجرة ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ [الحج: ٣٩] وهو الأشهر وبه ورد الحديث. وقوله: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ أى قاتلوا فى سبيل الله، ولا تعتدوا فى ذلك ويدخل فى ذلك ارتكاب المناهى، كما قاله الحسن البصرى: من المثلة والغلول وقتل النساء والصبيان والشيوخ، الذين لا رأى لهم ولا قتال فيهم، والرهبان وأصحاب الصوامع، وتحريق الأشجار، وقتل الحيوان لغير مصلحة، كما قال ذلك ابن عباس وعمر بن عبد العزيز ومقاتل بن حيان وغيرهم، ولهذا جاء فى صحيح مسلم [(١)]، عن بريدة أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اغزوا فى سبيل الله وقاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الوليد ولا أصحاب الصوامع» رواه الإمام أحمد [(٢)] وعن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث جيوشه قال «اخرجوا باسم الله قاتلوا فى سبيل الله من كفر بالله لا تعتدوا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع» رواه الإمام أحمد [(٣)]، ولأبى داود [(٤)] عن أنس مرفوعًا نحوه، وفى الصحيحين [(٥)] عن ابن عمر قال: وجدت امرأة فى بعض مغازى النبى ﷺ مقتولة، فأنكر رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان.

وقال الإمام أحمد [(٦)]: حدثنا مصعب بن سلام، حدثنا الأجلح عن قيس بن أبى مسلم، عن

(١) أخرجه مسلم، (١٧٣١).

(٢) صحيح: أخرجه أحمد، (٢٢٥٢١)، وانظر «مشكاة المصابيح»، (٣٩٢٩).

(٣) أخرجه أحمد، (٢٧٢٣)، وفي سنده ابن أبي حبيبة، ضعفه بعضهم ووثقه آخرون، وبقية رجاله ثقات، ويشهد له الحديث السابق.

(٤) ضعيف: أخرجه أبو داود، (٢٦١٤)، وانظر ضعيف سنن أبي داود.

(٥) أخرجه البخاري (٣٠١٤)، ومسلم (١٧٤٤).

(٦) أخرجه أحمد، (٢٢٩٥٢)، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٥/ ٢٣٢)، وقال: رواه أحمد وفيه الأحلج الكندى وهو ثقة وقد ضعف، وبقية رجاله ثقات.

ربعى بن حراش، قال: سمعت حذيفة يقول: ضرب لنا رسول الله ﷺ أمثالاً واحدًا وثلاثة وخمسة وسبعة وتسعة، وأحد عشر، فضرب لنا رسول الله ﷺ منها مثلاً وترك سائرها، قال «إن قومًا كانوا أهل ضعف ومسكنة قاتلهم أهل تجبر وعداوة، فأظهر الله أهل الضعف عليهم، فعمدوا إلى عدوهم فاستعملوهم وسلطوهم، فأسخطوا الله عليهم إلى يوم القيامة» هذا حديث حسن الإسناد، ومعناه أن هؤلاء الضعفاء لما قدروا على الأقوياء فاعتدوا عليهم فاستعملوهم فيما لا يليق بهم، أسخطوا الله عليهم بسبب هذا الاعتداء، والأحاديث والآثار فى هذا كثيرة جدًا. ولما كان الجهاد فيه إزهاق النفوس وقتل الرجال، نبه تعالى على أن ما هم مشتملون عليه من الكفر بالله والشرك به والصد عن سبيله، أبلغ وأشد وأعظم وأطم من القتل، ولهذا قال: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ قال أبو مالك: أى ما أنتم مقيمون عليه أكبر من القتل.

وقال أبو العالية ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك والربيع بن أنس فى قوله ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾، يقول الشرك أشد من القتل، وقوله: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ كما جاء فى الصحيحين[1] «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، ولم يحل إلا ساعة من نهار وإنها ساعتى هذه، حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شجره ولا يختلى خلاه، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ، فقولوا إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم»، يعنى بذلك صلوات الله وسلامه عليه قتاله أهله يوم فتح مكة، فإنه فتحها عنوة وقتلت رجال منهم عند الخندمة، وقيل صلحًا لقوله «من أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن»[2] وقد حكى القرطبي رحمه الله أن النهى عن القتال عند المسجد الحرام منسوخ قال قتادة: نسخها قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] قال مقاتل بن حيان: نسخها قوله: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]. وقوله: ﴿حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يقول تعالى: ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام إلا أن يبدءوكم بالقتال فيه، فلكم حينئذ قتالهم وقتلهم دفعًا للصائل، كما بايع النبى ﷺ أصحابه يوم الحديبية تحت الشجرة على القتال، لما تألبت عليه بطون قريش ومن والاهم من أحياء ثقيف والأحابيش عامئذ، ثم كف الله القتال بينهم فقال ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٢٤] وقال ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥] وقوله: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾﴾ أى فإن تركوا القتال فى الحرم وأنابوا إلى الإسلام والتوبة، فإن الله يغفر ذنوبهم ولو كانوا قد قتلوا المسلمين فى حرم الله فإنه تعالى لا يتعاظمه ذنب أن يغفره لمن تاب منه إليه، ثم أمر الله تعالى بقتال الكفار ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾، أى شرك قاله ابن عباس وأبو العالية ومجاهد والحسن وقتادة والربيع ومقاتل بن حيان والسدى وزيد بن أسلم ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ أى يكون دين الله هو الظاهر العالى على سائر الأديان، كما ثبت فى

(١) أخرجه البخاري (١٨٣٤)، ومسلم، (١٣٥٣).

(٢) أخرجه مسلم، (١٧٨٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الصحيحين [١] عن أبى موسى الأشعرى قال: سئل النبى ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء، أى ذلك فى سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله» وفى الصحيحين [٢] «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله».

وقوله: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يقول تعالى فإن انتهوا عما هم فيه من الشرك وقتال المؤمنين فكفوا عنهم، فإن من قاتلهم بعد ذلك فهو ظالم ولا عدوان إلا على الظالمين، وهذا معنى قول مجاهد أن لا يقاتل إلا من قاتل أو يكون تقديره فإن انتهوا تخلصوا من الظلم وهو الشرك، فلا عدوان عليهم بعد ذلك، والمراد بالعدوان ههنا المعاقبة والمقاتلة كقوله: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤] وقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٦] ولهذا قال عكرمة وقتادة: الظالم الذى أبى أن يقول لا إله إلا الله، وقال البخارى [٣]: قوله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ الآية، حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عبد الوهاب حدثنا عبيد الله عن نافع، عن ابن عمر قال: أتاه رجلان فى فتنة ابن الزبير فقالا: إن الناس ضيعوا وأنت ابن عمر وصاحب النبى ﷺ فما يمنعك أن تخرج؟ فقال يمنعنى أن الله حرم دم أخى، قالا: ألم يقل الله ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾؟ فقال: قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة، وحتى يكون الدين لغير الله، وزاد عثمان بن صالح عن ابن وهب، أخبرنى فلان وحيوة بن شريح عن بكر بن عمر المغافرى، أن بكير بن عبد الله حدثه عن نافع، أن رجلاً أتى ابن عمر فقال: يا أبا عبد الرحمن ما حملك على أن تحج عامًا وتقيم عامًا وتترك الجهاد فى سبيل الله عز وجل، وقد علمت ما رغب الله فيه؟ فقال: يا ابن أخى بنى الإسلام على خمس: الإيمان بالله ورسوله والصلوات الخمس وصيام رمضان وأداء الزكاة وحج البيت. قالوا: يا أبا عبد الرحمن، ألا تسمع ما ذكر الله فى كتابه، ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۚ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩] ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ قال فعلنا على عهد رسول الله ﷺ وكان الإسلام قليلاً، فكان الرجل يفتن فى دينه إما قتلوه أو عذبوه، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة، قال فما قولك فى على وعثمان؟ قال: أما عثمان فكان الله عفا عنه، وأما أنتم فكرهتم أن يعفو عنه، وأما على فابن عمّ رسول الله ﷺ وختنه، فأشار بيده، فقال: هذا بيته حيث ترون.

﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾

قال عكرمة [٤]: عن ابن عباس والضحاك والسدى وقتادة ومقسم والربيع بن أنس وعطاء وغيرهم،

(١) أخرجه البخاري (١٢٣)، ومسلم، (١٩٠٤).
(٢) أخرجه البخاري (٢٥)، ومسلم، (٢٢)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
(٣) أخرجه البخاري، (٤٥١٥).
(٤) في سبب نزول الآية [وفيه صد المشركين لرسول الله ﷺ]. أخرجه ابن جرير، (٢/ ١٩٦)، وابن أبي حاتم نحوه، (١/ ٣٢٩)، من طريق ابن عباس وإسناده صحيح.

لما سار رسول الله ﷺ، معتمرًا فى سنة ست من الهجرة وحبسه المشركون عن الدخول والوصول إلى البيت وصدوه بمن معه من المسلمين، فى ذى القعدة وهو شهر حرام حتى قاضاهم على الدخول من قابل، فدخلها فى السنة الآتية هو ومن كان معه من المسلمين، وأقصه الله منهم، فنزلت فى ذلك هذه الآية: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ﴾ [البقرة: ١٩٤] وقال الإمام أحمد [١]: حدثنا إسحاق بن عيسى حدثنا ليث بن سعد عن أبى الزبير عن جابر بن عبد الله، قال: لم يكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يغزو فى الشهر الحرام، إلا أن يغزى وتغزوا، فإذا حضره أقام حتى ينسلخ. هذا إسناد صحيح: ولهذا لما بلغ النبى ﷺ، وهو مخيم بالحديبية أن عثمان قتل، وكان قد بعثه فى رسالة إلى المشركين، بايع أصحابه وكانوا ألفًا وأربعمائة تحت الشجرة، على قتال المشركين، فلما بلغه أن عثمان لم يقتل، كف عن ذلك وجنح إلى المسالمة والمصالحة، فكان ما كان. وكذلك لما فرغ من قتال هوازن يوم حنين، وتحصن فلهم بالطائف، عدل إليها فحاصرها، ودخل ذو القعدة وهو محاصر لها بالمنجنيق، واستمر عليه إلى كمال أربعين يومًا كما ثبت فى الصحيحين عن أنس، فلما كثر القتل فى أصحابه انصرف عنها ولم تفتح، ثم كر راجعًا إلى مكة واعتمر من الجعرانة حيث قسم غنائم حنين، وكانت عمرته هذه فى ذى القعدة أيضًا، عام ثمان صلوات الله وسلامه عليه وقوله: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أمر بالعدل حتى فى المشركين، كما قال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٦] وقال: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] وروى على بن أبى طلحة، عن ابن عباس أن قوله: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، نزلت بمكة حيث لا شوكة ولا جهاد، ثم نسخ بآية القتال بالمدينة [٢]، وقد رد هذا القول ابن جرير، وقال: بل الآية مدنية بعد عمرة القضية وعزا ذلك إلى مجاهد رحمه الله، وقد أطلق ههنا الاعتداء على الاقتصاص من باب المقابلة كما قال عمرو بن كلثوم:

ألا لا يجهلن أحد علينا ... فنجهل فوق جهل الجاهلينا

قال ابن دريد:

لى استواء إن موالى استووا ... لى التواء إن تعادي التوا

وقال غيره:

ولي فرس للحلم بالحلم ملجم ... ولى فرس للجهل بالجهل مرج

ومن رام تقويمي فإنى مقوم ... ومن رام تعويجي فإني معوج

وقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أمر لهم بطاعة الله وتقواه، وإخبار بأنه تعالى مع الذين اتقوا بالنصر والتأييد فى الدنيا والآخرة.

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (١٤٣٠٣)، وصححه ابن كثير بعد إيراده للحديث وكذا صححه الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٦٩).

(٢) ضعيف: عزاه السيوطى في «الدر المنثور»، (١/ ٤٩٨)، إلى أبي داود في «الناسخ والمنسوخ»، وابن جرير، (٢/ ١٩٩)، وابن أبي حاتم، (١/ ٣٢٩)، برقم (١٧٤٠)، وإسناده ضعيف للانقطاع بين علي بن أبي طلحة وابن عباس.

﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾

قال البخاري [١] : حدثنا إسحاق أخبرنا النضر، أخبرنا شعبة عن سليمان، سمعت أبا وائل عن حذيفة ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ قال: نزلت فى النفقة، ورواه ابن أبى حاتم عن الحسن بن محمد بن الصباح عن أبى معاوية عن الأعمش به، مثله قال وروى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعطاء والضحاك والحسن وقتادة والسدى ومقاتل بن حيان نحو ذلك، وقال الليث بن سعد عن يزيد بن أبى حبيب عن أسلم أبى عمران قال: حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى خرقه، ومعنا أبو أيوب الأنصارى، فقال ناس: ألقى بيده إلى التهلكة، فقال أبو أيوب نحن أعلم بهذه الآية، إنما نزلت فينا، صحبنا رسول الله ﷺ وشهدنا معه المشاهد ونصرناه، فلما فشا الإسلام وظهر، اجتمعنا معشر الأنصار نجيًا فقلنا: قد أكرمنا الله بصحبة نبيه ﷺ ونصره، حتى فشا الإسلام وكثر أهله، وكنا قد آثرناه على الأهلين والأموال والأولاد، وقد وضعت الحرب أوزارها فنرجع إلى أهلينا وأولادنا، فنقيم فيهما، فنزل فينا ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾، فكانت التهلكة فى الإقامة فى الأهل والمال وترك الجهاد. رواه أبو داود والترمذى والنسائى وعبد بن حميد، فى تفسيره، وابن أبى حاتم وابن جرير وابن مردويه والحافظ أبو يعلى فى مسنده، وابن حبان فى صحيحه والحاكم فى مستدركه [٢]، كلهم من حديث يزيد بن أبى حبيب به، وقال الترمذى حسن صحيح غريب، وقال الحاكم على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

ولفظ أبى داود عن أسلم أبى عمران: كنا بالقسطنطينية وعلى أهل مصر عقبة بن عامر، وعلى أهل الشام رجل يُريدُ فضالة بن عبيد، فخرج من المدينة صف عظيم من الروم، فصففنا لهم فحمل رجل من المسلمين على الروم حتى دخل فيهم، ثم خرج إلينا فصاح الناس إليه، فقالوا سبحان الله ألقى بيده إلى التهلكة فقال أبو أيوب: يا أيها الناس، إنكم لتتأولون هذه الآية على غير التأويل وإنما نزلت فينا معشر الأنصار، إنا لما أعز الله دينه وكثر ناصروه، قلنا فيما بيننا: لو أقبلنا على أموالنا فأصلحناها، فأنزل الله هذه الآية، وقال أبو بكر بن عياش عن أبى إسحاق السبيعى، قال: قال رجل للبراء بن عازب، إن حملت على العدو وحدى فقتلونى، أكنت ألقيت بيدى إلى التهلكة؟ قال: لا، قال الله لرسوله: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ [النساء: ٨٤] وإنما هذه فى النفقة، رواه ابن مردويه وأخرجه الحاكم فى مستدركه، من حديث إسرائيل عن أبى إسحاق به، وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ورواه الترمذى وقيس بن الربيع عن أبى إسحاق عن البراء، فذكره وقال بعد قوله ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ [النساء: ٨٤]، ولكن التهلكة أن يذنب الرجل الذنب فيلقى بيده إلى التهلكة ولا يتوب، وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو صالح، كاتب الليث، حدثنى الليث، حدثنا عبد الرحمن بن خالد بن مسافر عن ابن شهاب عن أبى بكر بن نمير بن عبد الرحمن بن الحارث بن

(١) أخرجه البخاري (٤٥١٦).

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود، (٢٥١٢)، والترمذي (٢٩٧٢)، والنسائي في «الكبرى»، (٦/ ٢٩٩)، برقم (١١٠٢٩)، وابن أبي حاتم (١/ ٣٣٠)، وابن جرير في «التفسير»، (٢/ ٢٠٤)، والحاكم في «المستدرك»، (٢/ ٣٠٢)، برقم (٣٠٨٨)، انظر صحيح الترغيب والترهيب، (١٣٨٨).

هشام أن عبد الرحمن الأسود بن عبد يغوث، أخبره أنهم حاصروا دمشق فانطلق رجل من أزد شنوءة، فأسرع إلى العدو وحده ليستقبل، فعاب ذلك عليه المسلمون، ورفعوا حديثه إلى عمرو بن العاص، فأرسل إليه عمرو فرده.

وقال عمرو: قال الله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾، وقال عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، فى قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾، قال: ليس ذلك فى القتال، إنما هو فى النفقة أن تمسك بيدك عن النفقة فى سبيل الله ولا تلق بيدك إلى التهلكة، قال حماد بن سلمة، عن داود، عن الشعبى عن الضحاك بن أبى جبيرة، قال: كانت الأنصار يتصدقون وينفقون من أموالهم، فأصابتهم سنة فأمسكوا عن النفقة فى سبيل الله، فنزلت: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ وقال الحسن البصرى ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ قال: هو البخل، وقال سماك بن حرب عن النعمان بن بشير، فى قوله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾، أن يذنب الرجل الذنب فيقول: لا يغفر لى، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ رواه ابن مردويه، وقال ابن أبى حاتم، وروى عن عبيدة السلمانى والحسن وابن سيرين وأبى قلابة نحو ذلك، يعنى نحو قول النعمان بن بشير، أنها فى الرجل يذنب الذنب فيعتقد أنه لا يغفر له، فيلقى بيده إلى التهلكة، أى يستكثر من الذنوب فيهلك. ولهذا روى على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: التهلكة عذاب الله.

وقال ابن أبى حاتم وابن جرير، جميعًا حدثنا يونس حدثنا ابن وهب، أخبرنى أبو صخر عن القرظى محمد بن كعب، أنه كان يقول فى هذه الآية: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ قال: كان القوم فى سبيل الله، فيتزود الرجل، فكان أفضل زادًا من الآخر، أنفق البائس من زاده حتى لا يبقى من زاده شىء، أحب أن يواسى صاحبه فأنزل الله ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾، وبه قال ابن وهب أيضًا: أخبرنى عبد الله بن عياش عن زيد بن أسلم فى قول الله ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ وذلك أن رجالاً يخرجون فى بعوث يبعثها رسول الله ﷺ، بغير نفقة، فإما أن يقطع بهم وإما كانوا عيالاً، فأمرهم الله أن يستنفقوا مما رزقهم الله ولا يلقوا بأيديهم إلى التهلكة والتهلكة أن يهلك رجال من الجوع والعطش أو من المشى. وقال لمن بيده فضل ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾. ومضمون الآية الأمر بالإنفاق فى سبيل الله، فى سائر وجوه القربات ووجوه الطاعات، وخاصة صرف الأموال فى قتال الأعداء، وبذلها فيما يقوى به المسلمون على عدوهم، والإخبار عن ترك فعل ذلك بأنه هلاك ودمار لمن لزمه واعتاده، ثم عطف بالأمر بالإحسان، وهو أعلى مقامات الطاعة، فقال: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾

لما ذكر تعالى أحكام الصيام، وعطف بذكر الجهاد، شرع فى بيان المناسك فأمر بإتمام الحج

والعمرة، وظاهر السياق إكمال أفعالهما بعد الشروع فيهما، ولهذا قال بعده: فإن أحصرتم، أى صددتم عن الوصول إلى البيت، ومنعتم من إتمامهما، ولهذا اتفق العلماء، على أن الشروع فى الحج والعمرة ملزم، سواء قيل بوجوب العمرة أو باستحبابها، كما هما قولان للعلماء، وقد ذكرناهما بدلائلهما فى كتابنا الأحكام، مستقصى ولله الحمد والمنة، وقال شعبة: عن عمرو بن مرة، عن عبد الله بن سلمة، عن على أنه قال فى هذه الآية: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾، قال: أن تحرم من دويرة أهلك، وكذا قال ابن عباس وسعيد بن جبير وطاووس، وعن سفيان الثورى أنه قال فى هذه الآية: إتمامها أن تحرم من أهلك، لا تريد إلا الحج والعمرة وتهل من الميقات، ليس أن تخرج لتجارة ولا لحاجة، حتى إذا كنت قريبًا من مكة، قلت لو حججت أو اعتمرت، وذلك يجزئ، ولكن التمام أن تخرج له ولا تخرج لغيره.

وقال مكحول: إتمامهما إنشاؤهما جميعًا من الميقات، وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن الزهرى، قال: بلغنا أن عمر قال فى قول الله ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ من تمامهما أن تفرد كل واحد منهما من الآخر، وأن تعتمر فى غير أشهر الحج، إن الله تعالى يقول: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقال هشام عن ابن عون: سمعت القاسم بن محمد يقول: إن العمرة فى أشهر الحج ليست بتامة، فقيل له: فالعمرة فى المحرم؟ قال: كانوا يرونها تامة، وكذا روى عن قتادة بن دعامة رحمهما الله، وهذا القول فيه نظر لأنه قد ثبت أن رسول الله ﷺ، اعتمر أربع عمر، كلها فى ذى القعدة، عمرة الحديبية فى ذى القعدة سنة ست، وعمرة القضاء فى ذى القعدة سنة سبع، وعمرة الجعرانة فى ذى القعدة سنة ثمان وعمرته التى مع حجته أحرم بهما معًا فى ذى القعدة سنة عشر وما اعتمر فى غير ذلك بعد هجرته، ولكن قال لأم هانئ: «عمرة فى رمضان تعدل حجة معى»[1]، وما ذاك إلا لأنها قد عزمت على الحج معه عليه السلام، فاعتاقت عن ذلك بسبب الطهر، كما هو مبسوط فى الحديث عند البخارى ونص سعيد بن جبير على أنه من خصائصها، والله أعلم.

وقال السدى فى قوله: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ أى أقيموا الحج والعمرة، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾، يقول: من أحرم بحج أو بعمرة فليس له أن يحل، حتى يتمهما تمام الحج، يوم النحر إذا رمى جمرة العقبة، وطاف بالبيت وبالصفا والمروة فقد حل. وقال قتادة عن زرارة، عن ابن عباس أنه قال: الحج عرفة، والعمرة الطواف، وكذا روى الأعمش عن إبراهيم عن علقمة فى قوله: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾، قال: هى قراءة عبد الله وأتموا الحج والعمرة إلى البيت لا يجاوز بالعمرة البيت. قال إبراهيم: فذكرت ذلك لسعيد بن جبير، فقال كذلك قال ابن عباس. وقال سفيان عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة أنه قال: وأقيموا الحج والعمرة إلى البيت، وكذا روى الثورى أيضًا، عن إبراهيم عن منصور عن إبراهيم، أنه قرأ: وأقيموا الحج والعمرة إلى البيت. وقرأ الشعبى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ برفع العمرة، وقال: ليست بواجبة. وروى عنه خلاف ذلك، وقد وردت أحاديث[2] كثيرة من طرق متعددة، عن أنس وجماعة من الصحابة، أن

(١) أخرجه البخاري (١٨٦٣)، ومسلم (١٢٥٦).

(٢) أحاديث جمعه بين الحج والعمرة في إحرامه ﷺ كثيرة ثابتة في الصحيحين وغيرهما.

رسول الله ﷺ، جمع فى إحرامه بحج وعمرة، وثبت عنه فى الصحيح[١] أنه قال لأصحابه: «من كان معه هدى فليهل بحج وعمرة»، وقال فى الصحيح[٢] أيضًا: «دخلت العمرة فى الحج إلى يوم القيامة».

وقد روى الإمام أبو محمد بن أبى حاتم فى سبب نزول هذه الآية حديثًا غريبًا، فقال: حدثنا على بن الحسين، حدثنا أبو عبد الله الهروى، حدثنا غسان الهروى، حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن عطاء عن صفوان بن أمية، أنه قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ متضمخ بالزعفران، عليه جبة، فقال: كيف تأمرنى يا رسول الله فى عمرتى قال: فأنزل الله ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ فقال رسول الله ﷺ «أين السائل عن العمرة» ؟ فقال: ها أنا ذا، فقال له «ألق عنك ثيابك ثم اغتسل واستنشق ما استطعت، ثم ما كنت صانعًا فى حجك فاصنعه فى عمرتك» هذا حديث غريب وسياق عجيب، والذى ورد فى الصحيحين[٣] عن يعلى بن أمية فى قصة الرجل الذى سأل النبى ﷺ وهو بالجعرانة، فقال: كيف ترى فى رجل أحرم بالعمرة وعليه جبة وخلوق؟ فسكت رسول الله ﷺ، ثم جاءه الوحى ثم رفع رأسه فقال: أين السائل؟ فقال ها أنا ذا، فقال «أما الجبة فانزعها، وأما الطيب الذى بك فاغسله، ثم ما كنت صانعًا فى حجك فاصنعه فى عمرتك» ولم يذكر فيه الغسل والاستنشاق، ولا ذكر نزول هذه الآية، وهو عن يعلى بن أمية لا صفوان بن أمية، فالله أعلم.

وقوله ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ ذكروا أن هذه الآية نزلت فى سنة ست، أى عام الحديبية حين حال المشركون بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبين الوصول إلى البيت، وأنزل الله فى ذلك سورة الفتح بكمالها، وأنزل لهم رخصة أن يذبحوا ما معهم من الهدى، وكان سبعين بدنة، وأن يحلقوا رءوسهم وأن يتحللوا من إحرامهم، فعند ذلك أمرهم عليه السلام أن يحلقوا رءوسهم وأن يتحللوا، فلم يفعلوا انتظارًا للنسخ، حتى خرج فحلق رأسه ففعل الناس، وكان منهم من قصر رأسه ولم يحلقه، فلذلك قال ﷺ «رحم الله المحلقين» قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ فقال فى الثالثة «والمقصرين»[٤]، وقد كانوا اشتركوا فى هديهم ذلك كل سبعة فى بدنة، وكانوا ألفًا وأربعمائة، وكان منزلهم بالحديبية خارج الحرم، وقيل بل كانوا على طرف الحرم، فالله أعلم، ولهذا اختلف العلماء: هل يختص الحصر بالعدو فلا يتحلل إلا من حصره عدو لا مرض ولا غيره على قولين، فقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرى، حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار عن ابن عباس، وابن طاووس عن أبيه عن ابن عباس، وابن أبى نجيح عن ابن عباس، أنه قال: لا حصر إلا حصر العدو، فأما من أصابه مرض أو وجع أو ضلال فليس عليه شىء، إنما قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ﴾ فليس الأمن حصرًا، قال: وروى عن ابن عمر وطاووس والزهرى وزيد بن أسلم نحو ذلك، والقول الثانى: إن الحصر أعم من أن يكون بعدو أو مرض أو ضلال، وهو التوهان عن الطريق أو نحو ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري (١٥٥٦)، ومسلم (١٢١١)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه مسلم، (١٢١٨)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه البخاري (٤٩٨٥)، ومسلم (١١٨٠).

(٤) أخرجه البخاري (١٧٢٧)، ومسلم (١٣٠١)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

قال الإمام أحمد [١] : حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا حجاج بن الصواف عن يحيى بن أبى كثير، عن عكرمة، عن الحجاج بن عمرو الأنصارى، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «من كسر أو وجع أو عرج فقد حل وعليه حجة أخرى» قال: فذكرت ذلك لابن عباس وأبى هريرة فقالا: صدق، وأخرجه أصحاب الكتب الأربعة من حديث يحيى بن أبى كثير به، وفى رواية لأبى داود وابن ماجه: من عرج أو كسر أو مرض، فذكر معناه. ورواه ابن أبى حاتم عن الحسن بن عرفة، عن إسماعيل بن علية، عن الحجاج بن أبى عثمان الصواف به، ثم قال: وروى عن ابن مسعود وابن الزبير وعلقمة وسعيد بن المسيب وعروة بن الزبير ومجاهد والنخعى وعطاء ومقاتل بن حيان أنهم قالوا: الإحصار من عدو أو مرض أو كسر وقال الثورى الإحصار من كل شىء آذاه وثبت فى الصحيحين [٢] عن عائشة أن رسول الله ﷺ دخل على ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب، فقالت: يا رسول الله إنى أريد الحج وأنا شاكية، فقال «حجى واشترطى أن محلى حيث حبستنى» ورواه مسلم [٣] عن ابن عباس بمثله، فذهب من ذهب من العلماء إلى صحة الاشتراط فى الحج لهذا الحديث، وقد علق الإمام محمد بن إدريس الشافعى القول بصحة هذا المذهب على صحة هذا الحديث، قال البيهقى وغيره من الحفاظ: وقد صح ولله الحمد.

وقوله: ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ قال الإمام مالك: عن جعفر بن محمد عن أبيه، عن على بن أبى طالب، أنه كان يقول: ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ شاة، وقال ابن عباس: الهدى من الأزواج الثمانية من الإبل والبقر والمعز والضأن، وقال الثورى عن حبيب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس فى قوله ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ قال: شاة، وكذا قال عطاء ومجاهد وطاووس وأبو العالية ومحمد بن على بن الحسين وعبد الرحمن بن القاسم والشعبى والنخعى والحسن وقتادة والضحاك ومقاتل بن حيان وغيرهم: مثل ذلك، وهو مذهب الأئمة الأربعة، وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد الأحمر عن يحيى بن سعيد عن القاسم عن عائشة وابن عمر: أنهما كانا لا يريان ما استيسر من الهدى إلا من الإبل والبقر. قال: وروى عن سالم والقاسم وعروة بن الزبير وسعيد بن جبير نحو ذلك

(قُلْتُ) والظاهر أن مستند هؤلاء فيما ذهبوا إليه قصة الحديبية، فإنه لم ينقل عن أحد منهم أنه ذبح فى تحلله ذلك شاة، وإنما ذبحوا الإبل والبقر، ففى الصحيحين عن جابر، قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك فى الإبل والبقر كل سبعة منا فى بقرة، وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن ابن طاووس عن أبيه، عن ابن عباس فى قوله ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ قال: بقدر يسارته، وقال العوفى، عن ابن عباس: إن كان موسرًا فمن الإبل، وإلا فمن البقر، وإلا فمن الغنم. وقال هشام بن عروة عن أبيه ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ قال: إنما ذلك فيما بين الرخص والغلاء، والدليل على صحة قول الجمهور فيما ذهبوا إليه من إجزاء ذبح الشاة فى الإحصار أن الله أوجب ذبح ما استيسر من الهدى أى مهما تيسر مما يسمى

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (١٨٦٢)، وابن ماجه (٣٠٧٧)، وأحمد (١٥٣٠٤).
(٢) أخرجه البخاري، (٥٠٨٩)، ومسلم (١٢٠٧).
(٣) أخرجه مسلم (١٢٠٨).

هديًا، والهدى من بهيمة الأنعام، وهى الإبل والبقر والغنم، كما قاله الحبر البحر ترجمان القرآن وابن عم رسول الله ﷺ، وقد ثبت فى الصحيحين [١] عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت: أهدى النبى ﷺ مرة غنمًا.

وقوله ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ معطوف على قوله ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ وليس معطوفًا على قوله ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ كما زعمه ابن جرير رحمه الله، لأن النبى ﷺ وأصحابه عام الحديبية لما حصرهم كفار قريش عن الدخول إلى الحرم، حلقوا وذبحوا هديهم خارج الحرم، فأما فى حال الأمن والوصول إلى الحرم فلا يجوز الحلق ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ ويفرغ الناسك من أفعال الحج والعمرة إن كان قارنًا، أو من فعل أحدهما إن كان مفردًا أو متمتعًا، كما ثبت فى الصحيحين [٢] عن حفصة أنها قالت: يا رسول الله، ما شأن الناس حلوا من العمرة، ولم تحل أنت من عمرتك؟ فقال «إنى لبدت رأسى وقلدت هديى، فلا أحل حتى أنحر».

وقوله ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ قال البخارى [٣]: حدثنا آدم، حدثنا شعبة عن عبد الرحمن بن الأصبهانى، سمعت عبد الله بن معقل قال: قعدت إلى كعب بن عجرة فى هذا المسجد - يعنى مسجد الكوفة - فسألته عن فدية من صيام، فقال: حملت إلى النبى ﷺ، والقمل يتناثر على وجهى، فقال «ما كنت أرى أن الجهد بلغ بك هذا، أما تجد شاة»؟ قلت: لا، قال: «صم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين، لكل مسكين نصف صاع من طعام، واحلق رأسك» فنزلت فى خاصة وهى لكم عامة وقال الإمام أحمد [٤]: حدثنا إسماعيل، حدثنا أيوب عن مجاهد، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى، عن كعب بن عجرة، قال: أتى على النبى ﷺ وأنا أُوقد تحت قدر والقمل يتناثر على وجهى، أو قال حاجبى، فقال «يؤذيك هوام رأسك»؟ قلت: نعم، قال «فاحلقه، وصم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين، أو انسك نسيكة» قال أيوب: لا أدرى بأيتهن بدأ، وقال أحمد [٥] أيضًا: حدثنا هشيم، حدثنا أبو بشر عن مجاهد، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى، عن كعب بن عجرة، قال: كنا مع رسول الله ﷺ بالحديبية ونحن محرمون وقد حصره المشركون، وكانت لى وفرة، فجعلت الهوام تساقط على وجهى، فمر على النبى ﷺ فقال: «أيؤذيك هوام رأسك»؟ فأمره أن يحلق قال: ونزلت هذه الآية ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ وكذا رواه عثمان عن شعبة عن أبى بشر وهو جعفر بن إياس به، وعن شعبة عن الحكم عن عبد الرحمن بن أبى ليلى به وعن شعبة عن داود عن الشعبى عن كعب بن عجرة نحوه ورواه الإمام مالك عن حميد بن قيس، عن مجاهد، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى، عن كعب بن عجرة، فذكره نحوه، وقال سعد بن إسحاق بن كعب بن عجرة عن أبان بن صالح، عن الحسن البصرى: أنه سمع كعب بن عجرة يقول: فذبحت شاة، ورواه ابن مردويه، وروى أيضًا من حديث عمر بن قيس وهو

---

(١) أخرجه البخاري (١٧٠١)، ومسلم (١٣٢١).
(٢) أخرجه البخاري (١٥٦٦)، ومسلم (١٢٢٩).
(٣) أخرجه البخاري (١٨١٦).
(٤) أخرجه أحمد (١٧٦٤١)، ورجاله ثقات.
(٥) أخرجه أحمد (١٧٦٣٥)، ورجاله ثقات غير أن هشيمًا يدلس.

ضعيف عن عطاء عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ «النسك شاة، والصيام ثلاثة أيام، والطعام فرق بين ستة»[١] وكذا روى عن علي ومحمد بن كعب وعكرمة وإبراهيم ومجاهد وعطاء والسدى والربيع بن أنس، وقال ابن أبي حاتم[٢]: أخبرنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا عبد الله بن وهب أن مالك بن أنس حدثه عن عبد الكريم بن مالك الجزرى، عن مجاهد، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن كعب بن عجرة: أنه كان مع رسول الله ﷺ فآذاه القمل في رأسه، فأمره رسول الله ﷺ أن يحلق رأسه، وقال: «صم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين، مدين مدين لكل إنسان، أو أنسك شاة، أي ذلك فعلت أجزأ عنك» وهكذا روى ليث بن أبي سليم عن مجاهد، عن ابن عباس في قوله ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ قال: إذا كان أو فأيه أخذت أجزأ عنك، قال ابن أبي حاتم: وروى عن مجاهد وعكرمة وعطاء وطاووس والحسن وحميد الأعرج وإبراهيم والنخعي والضحاك نحو ذلك. .

(قُلْتُ) وهو مذهب الأئمة الأربعة، وعامة العلماء أنه يخير في هذا المقام، إن شاء صام وإن شاء تصدق بفرق، وهو ثلاثة آصع لكل مسكين نصف صاع وهو مدان، وإن شاء ذبح شاة وتصدق بها على الفقراء أي ذلك فعل أجزأه، ولما كان لفظ القرآن في بيان الرخصة جاء بالأسهل فالأسهل ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ ولما أمر النبي ﷺ كعب بن عجرة بذلك، أرشده إلى الأفضل فالأفضل، فقال: أنسك شاة، أو أطعم ستة مساكين، أو صم ثلاثة أيام[٣]، فكل حسن في مقامه، ولله الحمد والمنة.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا أبو بكر بن عياش، قال: ذكر الأعمش، قال: سأل إبراهيم سعيد بن جبير عن هذه الآية ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ فأجابه بقول يحكم عليه طعام، فإن كان عنده اشترى شاة، وإن لم يكن قومت الشاة دراهم وجعل مكانها طعام فتصدق، وإلا صام لكل نصف صاع يومًا، قال إبراهيم: كذلك سمعت علقمة يذكر، قال: لما قال لي سعيد بن جبير: من هذا ما أظرفه؟ قال: قلت: هذا إبراهيم، فقال: ما أظرفه كان يجالسنا، قال: فذكرت ذلك لإبراهيم قال: فلما قلت: يجالسنا انتفض منها، وقال ابن جرير أيضًا: حدثنا ابن أبي عمران، حدثنا عبيد الله بن معاذ عن أبيه، عن أشعث، عن الحسن في قوله ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ قال: إذا كان بالمحرم أذى من رأسه، حلق وافتدى بأي هذه الثلاثة شاء، والصيام عشرة أيام، والصدقة على عشرة مساكين، كل مسكين مكوكين: مكوكًا من تمر، ومكوكًا من بر، والنسك شاة، وقال قتادة عن الحسن وعكرمة في قوله ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ قال: إطعام عشرة مساكين، وهذان القولان من سعيد بن جبير وعلقمة والحسن وعكرمة، قولان غريبان فيهما نظر، لأنه قد ثبتت السنة في حديث كعب بن عجرة الصيام ثلاثة أيام لا ستة، أو إطعام ستة مساكين، أو نسك شاة، وأن ذلك على التخيير كما دل عليه سياق القرآن، وأما هذا الترتيب فإنما هو معروف في قتل الصيد كما هو نص القرآن وعليه أجمع الفقهاء هناك بخلاف هذا، والله أعلم. وقال هشيم: أخبرنا ليث عن طاووس أنه كان يقول: ما

---

(١) إسناده ضعيف: كما ذكر ابن كثير لأن فيه عمر بن قيس وهو ضعيف، وكذا عطاء الخراساني لم يسمع من ابن عباس، لكن أصل معناه صحيح من حديث كعب بن عجرة في إحدى رواياته، راجع تخريج الحديث السابق.

(٢) صحيح: أخرجه ابن أبي حاتم (١/ ٣٣٩)، برقم (١٧٨٥)، وانظر صحيح سنن النسائي (٢٨٥١).

(٣) هو أحد روايات حديث كعب بن عجرة.

كان من دم أو طعام فبمكة، وما كان من صيام فحيث شاء، وكذا قال مجاهد وعطاء والحسن، وقال هشيم: أخبرنا حجاج وعبد الملك وغيرهما عن عطاء أنه كان يقول: ما كان من دم فبمكة، وما كان من طعام وصيام فحيث شاء، وقال هشيم: أخبرنا يحيى بن سعيد عن يعقوب بن خالد، أخبرنا أبو أسماء مولى ابن جعفر، قال: حج عثمان بن عفان ومعه علي والحسين بن علي فارتحل عثمان، قال أبو أسماء وكنت مع ابن جعفر فإذا نحن برجل نائم وناقته عند رأسه، قال: فقلت: أيها النائم، فاستيقظ فإذا الحسين بن علي، قال: فحمله ابن جعفر حتى أتينا به السقيا، قال: فأرسل إلى علي ومعه أسماء بنت عميس، قال: فمرضناه نحوًا من عشرين ليلة، قال: قال علي للحسين ما الذي تجد؟ قال: فأومأ بيده إلى رأسه، قال: فأمر به علي فحلق رأسه، ثم دعا ببدنة فنحرها فإن كانت هذه الناقة عن الحلق، ففيه أنه نحرها دون مكة. وإن كانت عن التحلل فواضح.

وقوله ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ أي فإذا تمكنتم من أداء المناسك فمن كان منكم متمتعًا بالعمرة إلى الحج، وهو يشمل من أحرم بهما، أو أحرم بالعمرة أولاً، فلما فرغ منها أحرم بالحج، وهذا هو التمتع الخاص، وهو المعروف في كلام الفقهاء، والتمتع العام يشمل القسمين، كما دلت عليه الأحاديث الصحاح، فإن من الرواة من يقول: تمتع رسول الله ﷺ وآخر يقول: قرن ولا خلاف أنه ساق هديًا، وقال تعالى: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ أي فليذبح ما قدر عليه من الهدى، وأقله شاة، وله أن يذبح البقر، لأن رسول الله ﷺ ذبح عن نسائه البقر[1]، وقال الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ ذبح البقر عن نسائه وكن متمتعات، رواه أبو بكر بن مردويه، وفي هذا دليل على مشروعية التمتع، كما جاء في الصحيحين[2] عن عمران بن حصين، قال: نزلت آية المتعة في كتاب الله وفعلناها مع رسول الله ﷺ، ثم لم ينزل قرآن يحرمها ولم ينه عنها، حتى مات، قال رجل برأيه ما شاء. قال البخاري يقال إنه عمر، وهذا الذي قاله البخاري[3] قد جاء مصرحًا به أن عمر كان ينهى الناس عن التمتع ويقول: إن نأخذ بكتاب الله فإن الله يأمر بالتمام، يعني قوله ﴿وَأَتِمُّوا ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ وفي نفس الأمر لم يكن عمر رضي الله عنه ينهى عنها محرمًا لها، إنما كان ينهى عنها ليكثر قصد الناس للبيت حاجين ومعتمرين، كما قد صرح به رضي الله عنه.

وقوله ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ يقول تعالى: فمن لم يجد هديًا فليصم ثلاثة أيام في الحج، أي في أيام المناسك، قال العلماء: والأولى أن يصومها قبل عرفة في العشر، قاله، عطاء، أو من حين يحرم قاله ابن عباس وغيره لقوله في الحج، ومنهم من يجوز صيامها من أول شوال، قاله طاووس ومجاهد وغير واحد، وجوز الشعبي صيام يوم عرفة وقبله يومين، وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير والسدي وعطاء وطاووس والحكم والحسن وحماد وإبراهيم وأبو جعفر الباقر والربيع ومقاتل بن حيان، وقال العوفي عن ابن عباس: إذا لم يجد هديًا فعليه صيام ثلاثة أيام في

---

(١) أخرجه البخاري (١٧٠٩)، ومسلم، (١٢١١)، من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٢) أخرجه البخاري (٤٥١٨)، ومسلم (١٢٢٦).
(٣) أخرجه البخاري بمعناه (١٧٢٤).

الحج قبل يوم عرفة، فإذا كان يوم عرفة الثالث، فقد تم صومه، وسبعة إذا رجع إلى أهله، وكذا روى أبو إسحاق عن وبرة عن ابن عمر قال: يصوم يومًا قبل التروية، ويوم التروية، ويوم عرفة وكذا روى جعفر بن محمد عن أبيه، عن على أيضًا: فلو لم يصمها أو بعضها قبل العيد، فهل يجوز أن يصومها فى أيام التشريق؟ فيه قولان للعلماء وهما للإمام الشافعى أيضًا، القديم منهما: أنه يجوز له صيامها لقول عائشة وابن عمر فى صحيح البخارى: لم يرخص فى أيام التشريق أن يصمن إلا لمن لا يجد الهدى هكذا رواه مالك عن الزهرى عن عروة عن عائشة وعن سالم عن ابن عمر وقد روى من غير وجه عنهما، ورواه سفيان عن جعفر بن محمد عن أبيه عن على، أنه كان يقول: من فاته صيام ثلاثة أيام فى الحج، صامهن أيام التشريق، وبهذا يقول عبيد بن عمير الليثى وعكرمة والحسن البصرى وعروة بن الزبير، وإنما قالوا ذلك لعموم قوله ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ﴾ والجديد من القولين أنه لا يجوز صيامها أيام التشريق لما رواه مسلم[1] عن نبيشة الهذلى رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ «أيام التشريق أيام أكل وشرب، وذكر الله عز وجل».

وقوله ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ فيه قولان: (أحدهم) إذا رجعتم إلى رحالكم، ولهذا قال مجاهد: هى رخصة إذا شاء صامها فى الطريق، وكذا قال عطاء بن أبى رباح. والقول (الثانى) إذا رجعتم إلى أوطانكم، قال عبد الرزاق: أخبرنا الثورى عن يحيى بن سعيد عن سالم، سمعت ابن عمر قال: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ قال: إذا رجع إلى أهله، وكذا روى عن سعيد بن جبير وأبى العالية ومجاهد وعطاء وعكرمة والحسن وقتادة والزهرى والربيع بن أنس، وحكى على ذلك أبو جعفر بن جرير الإجماع، وقد قال البخارى[2]: حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا الليث عن عقيل، عن ابن شهاب، عن سالم بن عبد الله، أن ابن عمر قال: تمتع رسول الله ﷺ فى حجة الوداع بالعمرة إلى الحج، وأهدى فساق معه الهدى من ذى الحليفة، فأهل بعمرة، ثم أهل بالحج، فتمتع الناس مع رسول الله ﷺ، وبدأ رسول الله ﷺ بالعمرة إلى الحج، فكان من الناس من أهدى فساق الهدى، ومنهم من لم يهد، فلما قدم النبى ﷺ مكة قال للناس: **«من كان منكم أهدى فإنه لا يحل بشىء حرم منه حتى يقضى حجه ومن لم يكن منكم أهدى فليطف بالبيت وبالصفا والمروة وليقصر وليحلل ثم ليهل بالحج، فمن لم يجد هديًا فليصم ثلاثة أيام فى الحج، وسبعة إذا رجع إلى أهله»** وذكر تمام الحديث. قال الزهرى: وأخبرنى عروة عن عائشة بمثل ما أخبرنى سالم عن أبيه، والحديث مخرج فى الصحيحين من حديث الزهرى به، وقوله ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ قيل: تأكيد، كما تقول العرب: رأيت بعينى، وسمعت بأذنى، وكتبت بيدى، وقال الله تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾[الأنعام: ٣٨] وقال ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾[العنكبوت: ٤٨] وقال ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾[الأعراف: ١٤٢] وقيل: معنى كاملة الأمر بإكمالها وإتمامها، اختاره ابن جرير، وقيل معنى كاملة أى مجزئة عن الهدى، قال هشيم عن عباد بن راشد عن الحسن البصرى فى قوله ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ قال: من الهدى.

---

(١) أخرجه مسلم (١١٤١).

(٢) أخرجه البخاري (١٦٩٢)، ومسلم (١٢٢٨).

وقوله ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ قال ابن جرير: واختلف أهل التأويل فيمن عنى بقوله ﴿لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ بعد إجماع جميعهم على أن أهل الحرم معنيون به وأنه لا متعة لهم، فقال بعضهم: عنى بذلك أهل الحرم خاصة دون غيرهم، حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان هو الثورى قال ابن عباس: هم أهل الحرم، وكذا روى ابن المبارك عن الثورى، وزاد الجماعة عليه، وقال قتادة: ذكر لنا أن ابن عباس كان يقول: يا أهل مكة، لا متعة لكم، أحلت لأهل الآفاق وحرمت عليكم، إنما يقطع أحدكم واديًا، أو قال: يجعل بينه وبين الحرم واديًا، ثم يهل بعمرة، وقال عبد الرزاق: حدثنا معمر عن ابن طاووس عن أبيه، قال: المتعة للناس لا لأهل مكة، من لم يكن أهله من الحرم. وكذا قول الله عز وجل ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ قال: وبلغنى عن ابن عباس مثل قول طاووس، وقال آخرون: هم أهل الحرم ومن بينه وبين المواقيت، كما قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن عطاء، قال: من كان أهله دون المواقيت فهو كأهل مكة لا يتمتع، وقال عبد الله بن المبارك عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن مكحول فى قوله ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ قال: من كان دون الميقات وقال ابن جريج عن عطاء ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ قال: عرفة ومزدلفة وعُرَنَة وضجنان والرجيع، وقال عبد الرزاق: حدثنا معمر سمعت الزهرى يقول من كان أهله على يوم أو نحوه تمتع، وفى رواية عنه: اليوم واليومين، واختار ابن جرير فى ذلك مذهب الشافعى أنهم أهل الحرم، ومن كان منه على مسافة لا يقصر فيها الصلاة، لأن من كان كذلك يعد حاضرًا لا مسافرًا، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أى فيما أمركم ونهاكم ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أى لمن خالف أمره وارتكب ما عنه زجره.

﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾

اختلف أهل العربية فى قوله ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ﴾ فقال بعضهم: تقديره الحج حج أشهر معلومات، فعلى هذا التقدير يكون الإحرام بالحج فيها أكمل من الإحرام فيما عداها وإن كان ذاك صحيحًا، والقول بصحة الإحرام بالحج فى جميع السنة مذهب مالك وأبى حنيفة وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه، وبه يقول إبراهيم النخعى والثورى والليث بن سعد واحتج لهم بقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩] وبأنه أحد النسكين، فصح الإحرام به فى جميع السنة كالعمرة. وذهب الشافعى رحمه الله، إلى أنه لا يصح الإحرام بالحج إلا فى أشهره، فلو أحرم به قبلها لم ينعقد إحرامه به وهل ينعقد عمرة؟ فيه قولان عنه. والقول بأنه لا يصح الإحرام بالحج إلا فى أشهره مروى عن ابن عباس وجابر، وبه يقول عطاء وطاووس ومجاهد رحمهم الله، والدليل عليه قوله ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ﴾ وظاهره التقدير الآخر الذى ذهب إليه النحاة، وهو أن وقت الحج أشهر معلومات فخصصه بها من بين سائر شهور السنة، فدل على أنه لا يصح قبلها كميقات الصلاة.

وقال الشافعى رحمه الله: أخبرنا مسلم بن خالد عن ابن جريج، أخبرنى عمر بن عطاء عن عكرمة،

عن ابن عباس أنه قال: لا ينبغي لأحد أن يحرم بالحج إلا في شهور الحج من أجل قول الله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ وكذا رواه ابن أبي حاتم عن أحمد بن يحيى بن مالك السوسي عن حجاج بن محمد الأعور، عن ابن جريج به، ورواه ابن مردويه في تفسيره من طريقين عن حجاج بن أرطاة، عن الحاكم بن عتيبة، عن مقسم عن ابن عباس أنه قال: من السنة أن لا يحرم بالحج إلا في أشهر الحج، وقال ابن خزيمة في صحيحه [1]: حدثنا أبو كريب، حدثنا أبو خالد الأحمر عن شعبة، عن الحكم، عن مقسم، عن ابن عباس، قال: لا يحرم بالحج إلا في أشهر الحج، فإن من سنة الحج أن يحرم في أشهر الحج، وهذا إسناد صحيح، وقول الصحابي من السنة كذا في حكم المرفوع عند الأكثرين، ولا سيما قول ابن عباس تفسيرًا للقرآن وهو ترجمانه. وقد ورد فيه حديث مرفوع، قال ابن مردويه [2]: حدثنا عبد الباقي، حدثنا نافع، حدثنا الحسن بن المثنى، حدثنا أبو حذيفة، حدثنا سفيان عن أبي الزبير، عن جابر، عن النبي ﷺ أنه قال «لا ينبغي لأحد أن يحرم بالحج إلا في أشهر الحج» وإسناده لا بأس به، لكن رواه الشافعي والبيهقي من طرق عن ابن جريج، عن أبي الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يسأل: أيهلّ بالحج قبل أشهر الحج؟ فقال: لا، وهذا الموقوف أصح وأثبت من المرفوع، ويبقى حينئذٍ مذهب صحابي يتقوى بقول ابن عباس من السنة: أن لا يحرم بالحج إلا في أشهره، والله أعلم.

وقوله ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ قال البخاري: قال ابن عمر: هي شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة، وهذا الذي علقه البخاري بصيغة الجزم، رواه ابن جرير موصولاً، حدثنا أحمد بن حازم بن أبي برزة، حدثنا أبو نعيم، حدثنا ورقاء عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ قال: شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة، إسناد صحيح، وقد رواه الحاكم أيضًا في مستدركه عن الأصم، عن الحسن بن علي بن عفان، عن عبد الله بن نمير، عن عبد الله عن نافع، عن ابن عمر فذكره وقال: هو على شرط الشيخين.

(قُلْتُ) وهو مروي عن عمر وعلي وابن مسعود وعبد الله بن الزبير وابن عباس وعطاء وطاووس ومجاهد وإبراهيم النخعي والشعبي والحسن وابن سيرين ومكحول وقتادة والضحاك بن مزاحم والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان، وهو مذهب الشافعي وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل وأبي يوسف وأبي ثور رحمهم الله، واختار هذا القول ابن جرير، قال: وصح إطلاق الجمع على شهرين وبعض الثالث للتغليب، كما يقول العرب: رأيته العام ورأيته اليوم، وإنما وقع ذلك في بعض العام واليوم ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٠٣] وإنما تعجل في يوم ونصف يوم، وقال الإمام مالك بن أنس والشافعي في القديم: هي شوال وذو القعدة وذو الحجة بكماله، وهو رواية عن ابن عمر أيضًا.

قال ابن جرير: حدثنا أحمد بن إسحاق، حدثنا أبو أحمد، حدثنا شريك عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد، عن ابن عمر، قال: شوال وذو القعدة وذو الحجة، وقال ابن أبي حاتم في تفسيره: حدثنا

---

(١) صحيح: أخرجه ابن خزيمة (٤/ ١٦٢)، برقم (٢٥٩٦)، وقد صححه ابن كثير وهو في حكم المرفوع.

(٢) أخرجه مرفوعًا وموقوفًا، والمرفوع من طريق أبي الزبير ولم يصرح بالسماع وهو مدلس، لكن يشهد لصحته حديث ابن عباس السابق.

يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، أخبرنى ابن جريج، قال: قلت لنافع: أسمعت عبد الله بن عمر يسمى شهور الحج. قال: نعم، كان عبد الله يسمى شوالا وذا القعدة وذا الحجة، قال ابن جريج: وقال ذلك ابن شهاب وعطاء وجابر بن عبد الله صاحب النبى ﷺ، وهذا إسناد صحيح إلى ابن جريج، وقد حكى هذا أيضًا عن طاووس ومجاهد وعروة بن الزبير والربيع بن أنس وقتادة، وجاء فيه حديث مرفوع لكنه موضوع، رواه الحافظ ابن مردويه[1] من طريق حصين بن مخارق، وهو متهم بالوضع، عن يونس بن عبيد عن شهر بن حوشب عن أبى أمامة، قال: قال رسول الله ﷺ «الحج أشهر معلومات: شوال وذو القعدة وذو الحجة» وهذا كما رأيت لا يصح رفعه والله أعلم، وفائدة مذهب مالك أنه إلى آخر ذى الحجة بمعنى أنه مختص بالحج، فيكره الاعتمار فى بقية ذى الحجة، لا أنه يصح الحج بعد ليلة النحر، قال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية عن الأعمش، عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب قال: قال عبد الله: الحج أشهر معلومات، ليس فيها عمرة، وهذا إسناد صحيح، قال ابن جرير: وإنما أراد من ذهب إلى أن أشهر الحج شوال وذو القعدة وذو الحجة أن هذه الأشهر ليست أشهر العمرة إنما هى للحج وإن كان عمل الحج قد انقضى بانقضاء أيام منى، كما قال محمد بن سيرين: ما أحد من أهل العلم يشك فى أن عمرة فى غير أشهر الحج أفضل من عمرة فى أشهر الحج، وقال ابن عون: سألت القاسم بن محمد عن العمرة فى أشهر الحج فقال: كانوا لا يرونها تامة. .

(قُلْتُ) وقد ثبت عن عمر وعثمان رضى الله عنهما، أنهما كانا يحبان الاعتمار فى غير أشهر الحج وينهيان عن ذلك فى أشهر الحج، والله أعلم.

وقوله ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ أى أوجب بإحرامه حجًا، فيه دلالة على لزوم الإحرام بالحج والمضى فيه، قال ابن جرير: أجمعوا على أن المراد من الفرض ههنا الإيجاب والإلزام، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ يقول: من أحرم بحج أو عمرة، وقال عطاء: الفرض الإحرام. وكذا قال إبراهيم والضحاك وغيرهم. وقال ابن جرير: أخبرنى عمر بن عطاء عن عكرمة، عن ابن عباس أنه قال ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ فلا ينبغى أن يلبى بالحج ثم يقيم بأرض. قال ابن أبى حاتم: روى عن ابن مسعود وابن عباس وابن الزبير ومجاهد وعطاء وإبراهيم النخعى وعكرمة والضحاك وقتادة وسفيان الثورى والزهرى ومقاتل بن حيان: نحو ذلك، وقال طاووس والقاسم بن محمد: هو التلبية. وقوله ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ أى من أحرم بالحج أو العمرة فليجتنب الرفث، وهو الجماع، كما قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾[البقرة: ١٨٧] وكذلك يحرم تعاطى دواعيه من المباشرة والتقبيل ونحو ذلك، كذلك التكلم به بحضرة النساء، قال ابن جرير: حدثنى يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرنى يونس: أن نافعًا أخبره أن عبد الله بن عمر كان يقول: الرفث إتيان النساء والتكلم بذلك للرجال والنساء إذا ذكروا ذلك بأفواههم، قال ابن وهب: وأخبرنى أبو صخر عن محمد بن كعب مثله، قال ابن جرير: وحدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة

(١) أخرجه عن جماعة من الصحابة بأسانيد صحيحة، ولكن المرفوع إلى النبى ﷺ لا يصح فقد عزاه إلى ابن مردويه، وساق سنده، وفيه حصين بن مخارق: متهم بالوضع.

عن قتادة، عن رجل، عن أبى العالية الرياحى، عن ابن عباس، أنه كان يحدو وهو محرم، وهو يقول:

وهنّ يمشين بنا هميسا إن تصدق الطير ننك لميسا

وقال أبو العالية: فقلت: تكلم بالرفث وأنت محرم؟ قال: إنما الرفث ما قيل عند النساء. ورواه الأعمش عن زياد بن حصين عن أبى العالية عن ابن عباس فذكره. وقال ابن جرير أيضًا، حدثنى محمد بن بشار حدثنى ابن أبى عدى عن عوف حدثنى زياد بن حصين حدثنى أبى حصين بن قيس، قال: أصعدت مع ابن عباس فى الحج، وكنت خليلا له، فلما كان بعد إحرامنا قال ابن عباس: فأخذ بذنب بعيره فجعل يلويه ويرتجز ويقول:

وهن يمشين بنا هميسا إن تصدق الطير ننك لميسا

قال فقلت: أترفث وأنت محرم؟ فقال: إنما الرفث ما قيل عند النساء. وقال عبد الله بن طاووس عن أبيه: سألت ابن عباس عن قول الله عز وجل: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ﴾؟ قال: الرفث التعريض بذكر الجماع، وهى العرابة فى كلام العرب، وهو أدنى الرفث، وقال عطاء بن أبى رباح: الرفث: الجماع وما دونه من قول الفحش وكذا قال عمرو بن دينار وقال عطاء: كانوا يكرهون العرابة، وهو التعريض وهو محرم. وقال طاووس: هو أن يقول للمرأة إذا حللت أصبتك، وكذا قال أبو العالية، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: الرفث غشيان النساء والقبلة والغمز، وأن يعرض لها بالفحش من الكلام ونحو ذلك، وقال ابن عباس أيضًا وابن عمر: الرفث غشيان النساء وكذا قال سعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وإبراهيم وأبو العالية عن عطاء ومكحول وعطاء الخراسانى وعطاء بن يسار وعطية وإبراهيم النخعى والربيع والزهرى والسدى ومالك بن أنس ومقاتل بن حيان وعبد الكريم بن مالك والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم.

وقوله ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ قال: مقسم وغير واحد، عن ابن عباس هى المعاصى، وكذا قال عطاء ومجاهد وطاووس وعكرمة وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب والحسن وقتادة وإبراهيم النخعى والزهرى والربيع بن أنس وعطاء بن يسار وعطاء الخراسانى ومقاتل بن حيان، وقال محمد بن إسحاق عن نافع عن ابن عمر، قال: الفسوق ما أصيب من معاصى الله صيدًا أو غيره، وكذا روى ابن وهب عن يونس عن نافع أن عبد الله بن عمر كان يقول: الفسوق إتيان معاصى الله فى الحرم، وقال آخرون: الفسوق ههنا السباب قال ابن عباس وابن عمر وابن الزبير ومجاهد والسدى وإبراهيم النخعى والحسن، وقد يتمسك هؤلاء بما ثبت فى الصحيح [1] «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر» ولهذا رواه ههنا الحبر أبو محمد بن أبى حاتم من حديث سفيان الثورى عن زبيد، عن أبى وائل، عن عبد الله، عن النبى ﷺ، قال: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»، وروى من حديث عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه، ومن حديث أبى إسحاق عن محمد بن سعد عن أبيه وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الفسوق ههنا الذبح للأصنام، قال الله تعالى: ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام: ١٤٥]، وقال الضحاك: الفسوق التنابز بالألقاب، والذين قالوا: الفسوق ههنا هو جميع المعاصى الصواب معهم، كما نهى تعالى عن الظلم فى الأشهر الحرم، وإن كان فى جميع السنة منهيًا

(١) أخرجه البخاري (٤٨)، ومسلم (٦٤)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

عنه، إلا أنه فى الأشهر الحرم آكد، ولهذا قال ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦] وقال فى الحرم ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥] واختار ابن جرير أن الفسوق ههنا ارتكاب ما نهى عنه فى الإحرام من قتل الصيد وحلق الشعر وقلم الأظفار ونحو ذلك، كما تقدم عن ابن عمر، وما ذكرناه أولى، والله أعلم، وقد ثبت فى الصحيحين[1] من حديث أبى حازم عن أبى هريرة، قال قال رسول الله ﷺ: «من حج هذا البيت، فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه»

وقوله ﴿وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ فيه قولان: (أحدهما) ولا مجادلة فى وقت الحج فى مناسكه، وقد بينه الله أتم بيان، ووضحه أكمل إيضاح، كما قال وكيع عن العلاء بن عبد الكريم: سمعت مجاهدًا يقول ﴿وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ قد بين الله أشهر الحج فليس فيه جدال بين الناس. وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد ﴿وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ قال: لا شهر ينسأ ولا جدال فى الحج قد تبين ثم ذكر كيفية ما كان المشركون يصنعون فى النسىء الذى ذمهم الله به. وقال الثورى، عن عبد العزيز بن رفيع، عن مجاهد فى قوله ﴿وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ قال: قد استقام الحج. فلا جدال فيه، وكذا قال السدى. وقال هشيم: أخبرنا حجاج عن عطاء، عن ابن عباس ﴿وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ قال: المراء فى الحج. وقال عبد الله بن وهب: قال مالك: قال الله تعالى: ﴿وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ فالجدال فى الحج - والله أعلم - أن قريشًا كانت تقف عند المشعر الحرام بالمزدلفة، وكانت العرب وغيرهم يقفون بعرفة، وكانوا يتجادلون يقول هؤلاء: نحن أصوب ويقول هؤلاء: نحن أصوب، فهذا فيما نرى، والله أعلم، وقال ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كانوا يقفون مواقف مختلفة يتجادلون كلهم يدعى أن موقفه موقف إبراهيم، فقطعه الله حين أعلم نبيه بالمناسك، وقال ابن وهب: عن أبى صخر، عن محمد بن كعب، قال: كانت قريش إذا اجتمعت بمنى قال هؤلاء: حجنا أتم من حجكم، وقال هؤلاء: حجنا أتم من حجكم، وقال حماد بن سلمة، عن جبير بن حبيب، عن القاسم بن محمد أنه قال: الجدال فى الحج أن يقول بعضهم: الحج غدًا، ويقول بعضهم: الحج اليوم، وقد اختار ابن جرير مضمون هذه الأقوال، وهو قطع التنازع فى مناسك الحج، والله أعلم.

(والقول الثانى) أن المراد بالجدال ههنا المخاصمة. قال ابن جرير: حدثنا عبد الحميد بن بيان، حدثنا إسحاق عن شريك، عن أبى إسحاق، عن أبى الأحوص، عن عبد الله بن مسعود فى قوله ﴿وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ قال: أن تمارى صاحبك حتى تغضبه، وبهذا الإسناد إلى أبى إسحاق عن التميمى، سألت ابن عباس، عن الجدال، قال: المراء تمارى صاحبك حتى تغضبه، وكذلك روى مقسم والضحاك عن ابن عباس وكذا قال أبو العالية وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وجابر بن زيد وعطاء الخراسانى ومكحول والسدى ومقاتل بن حيان وعمرو بن دينار والضحاك والربيع بن أنس وإبراهيم النخعى وعطاء بن يسار والحسن وقتادة والزهرى وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ﴿وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾، المراء والملاحاة حتى تغضب أخاك وصاحبك فنهى الله عن ذلك، وقال إبراهيم النخعى ﴿وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ قال: كانوا يكرهون الجدال، وقال محمد بن إسحاق، عن

(١) أخرجه البخاري (١٥٢١)، ومسلم (١٣٥٠).

نافع، عن ابن عمر، قال الجدال فى الحج السباب والمنازعة، وكذا روى ابن وهب عن يونس، عن نافع: أن ابن عمر كان يقول: الجدال فى الحج السباب والمراء والخصومات، وقال ابن أبى حاتم: وروى عن ابن الزبير والحسن وإبراهيم وطاووس ومحمد بن كعب، قالوا الجدال المراء، وقال عبد الله بن المبارك عن يحيى بن بشر، عن عكرمة ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ والجدال الغضب، أن تغضب عليك مسلمًا إلا أن تستعتب مملوكًا فتغضبه من غير أن تضربه، فلا بأس عليك إن شاء الله.

(قُلْتُ) ولو ضربه لكان جائزًا سائغًا، والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد [١]: حدثنا عبد الله بن إدريس، حدثنا محمد بن إسحاق، عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه، عن أسماء بنت أبى بكر قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ حجاجًا حتى إذا كنا بالعرج نزل رسول الله ﷺ فجلست عائشة إلى جنب رسول الله ﷺ وجلست إلى جانب أبى، وكانت زمالة أبى بكر وزمالة رسول الله ﷺ واحدة مع غلام أبى بكر، فجلس أبو بكر ينتظره إلى أن يطلع عليه، فأطلع وليس معه بعيره، فقال: أين بعيرك؟ فقال: أضللته البارحة، فقال أبو بكر: بعير تضلله؟ فطفق يضربه ورسول الله ﷺ يبتسم ويقول «انظروا إلى هذا المحرم ما يصنع» وهكذا أخرجه أبو داود وابن ماجه [٢] من حديث ابن إسحاق، ومن هذا الحديث حكى بعضهم عن بعض السلف أنه قال: من تمام الحج ضرب الجمال، ولكن يستفاد من قول النبى ﷺ عن أبى بكر رضى الله عنه «انظروا إلى هذا المحرم ما يصنع» كهيئة الإنكار اللطيف أن الأولى ترك ذلك، والله أعلم.

وقد قال الإمام عبد بن حميد فى مسنده [٣]: حدثنا عبيد الله بن موسى، عن موسى بن عبيدة، عن أخيه عبد الله بن عبيد الله، عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ «من قضى نسكه وسلم المسلمون من لسانه ويده، غفر له ما تقدم من ذنبه».

وقوله ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ لما نهاهم عن إتيان القبيح قولاً وفعلاً، حثهم على فعل الجميل وأخبرهم أنه عالم به، وسيجزيهم عليه أوفر الجزاء يوم القيامة، وقوله ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ قال العوفى، عن ابن عباس: كان أناس يخرجون من أهليهم ليست معهم أزودة، يقولون: نحج بيت الله ولا يطعمنا؟ فقال الله: تزودوا ما يكف وجوهكم عن الناس. وقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرى: حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار، عن عكرمة: أن ناسًا كانوا يحجون بغير زاد فأنزل الله ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ وكذا رواه ابن جرير عن عمرو وهو الفلاس، عن ابن عيينة، قال ابن أبى حاتم: وقد روى هذا الحديث ورقاء عن عمرو بن دينار، عن عكرمة عن ابن عباس، قال وما يرويه عن ابن عيينة أصح.

(قُلْتُ) قد وراه النسائى [٤] عن سعيد بن عبد الرحمن المخزومى، عن سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس: كان ناس يحجون بغير زاد، فأنزل الله ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ

---

(١) أخرجه أحمد (٢٦٣٧٦)، ورجاله ثقات.

(٢) حسن: أخرجه أبو داود، (١٨١٨)، وابن ماجه (٢٩٣٣).

(٣) ضعيف: أخرجه عبد بن حميد في «مسنده» (١/ ٣٨٨)، برقم (١١٥٠)، وانظر ضعيف الجامع (٥٧٩٣).

(٤) أخرجه النسائي في «الكبرى» (٥/ ٢٤٣)، برقم (٨٧٩٠).

﴿خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ وأما حديث ورقاء فأخرجه البخارى [١] عن يحيى بن بشر، عن شبابة، وأخرجه أبو داود [٢] عن أبى مسعود أحمد بن الفرات الرازى ومحمد بن عبد الله المخزومى عن شبابة عن ورقاء عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس، قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون: نحن المتوكلون، فأنزل الله ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ ورواه عبد بن حميد فى تفسيره عن شبابة، ورواه ابن حبان فى صحيحه من حديث شبابة به، وروى ابن جرير [٣] وابن مردويه من حديث عمرو بن عبد الغفار عن نافع، عن ابن عمر، قال: كانوا إذا أحرموا ومعهم أزوادهم رموا بها واستأنفوا زادًا آخر، فأنزل الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ فنهوا عن ذلك وأمروا أن يتزودوا الدقيق والسويق والكعك، وكذا قال ابن الزبير وأبو العالية ومجاهد وعكرمة والشعبى والنخعى وسالم بن عبد الله وعطاء الخراسانى وقتادة والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان، وقال سعيد بن جبير: فتزودوا الدقيق والسويق والكعك، وقال وكيع بن الجراح فى تفسيره: حدثنا سفيان عن محمد بن سوقة عن سعيد بن جبير ﴿وَتَزَوَّدُوا۟﴾ قال الخشكنانج والسويق، قال وكيع أيضًا، حدثنا إبراهيم المكى عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد، عن ابن عمر، قال: إن من كرم الرجل طيب زاده فى السفر، وزاد فيه حماد بن سلمة عن أبى ريحانة أن ابن عمر كان يشترط على من صحبه الجودة.

وقوله ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ لما أمرهم بالزاد للسفر فى الدنيا أرشدهم إلى زاد الآخرة، وهو استصحاب التقوى إليها، كما قال ﴿وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦] لما ذكر اللباس الحسى نبه مرشدًا إلى اللباس المعنوى، وهو الخشوع والطاعة والتقوى، وذكر أنه خير من هذا وأنفع، قال عطاء الخراسانى فى قوله ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ يعنى زاد الآخرة.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى [٤]: حدثنا عبدان، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا مروان بن معاوية عن إسماعيل، عن قيس، عن جرير بن عبد الله، عن النبى ﷺ قال «من يتزود فى الدنيا ينفعه فى الآخرة» وقال مقاتل بن حيان لما نزلت هذه الآية ﴿وَتَزَوَّدُوا۟﴾: قام رجل من فقراء المسلمين فقال: يا رسول الله، ما نجد ما نتزوده، فقال رسول الله ﷺ «تزود ما تكفّ به وجهك عن الناس، وخير ما تزودتم التقوى» رواه ابن أبى حاتم [٥]، وقوله ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ يقول: واتقوا عقابى ونكالى وعذابى لمن خالفنى ولم يأتمر بأمرى، يا ذوى العقول والأفهام.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾﴾

قال البخاري [٦]: حدثنا محمد، أخبرنى ابن عيينة عن عمرو، عن ابن عباس، قال: كانت عكاظ

---

(١) أخرجه البخاري (١٥٢٤).

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود (١٧٣٠)، انظر صحيح سنن أبي داود.

(٣) أخرجه ابن جرير (٢/ ٢٧٨)، ويشهد له حديث ابن عباس السابق.

(٤) **ضعيف**: أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢/ ٣٠٥)، برقم (٢٢٧١)، وانظر السلسلة الضعيفة (٤٦٦٦).

(٥) **ضعيف**: أخرجه ابن أبي حاتم (١/ ٣٥١)، برقم (١٨٤٤)، وهو معضل.

(٦) أخرجه البخاري (٤٥١٩).

ومجنة وذو المجاز أسواقًا فى الجاهلية، فتأثموا أن يتجروا فى الموسم، فنزلت ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فى مواسم الحج. وهكذا رواه عبد الرزاق وسعيد بن منصور وغير واحد عن سفيان بن عيينة به. ولبعضهم فلما جاء الإسلام تأثموا أن يتجروا، فسألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، فأنزل الله هذه الآية، وكذا رواه ابن جريج عن عمرو بن دينار عن ابن عباس، قال: كان متجر الناس فى الجاهلية عكاظ ومجنة وذو المجاز، فلما كان الإسلام كأنهم كرهوا ذلك حتى نزلت هذه الآية، وروى أبو داود [1] وغيره من حديث يزيد بن أبى زياد، عن مجاهد، عن ابن عباس، قال: كانوا يتقون البيوع والتجارة فى الموسم والحج، يقولون: أيام ذكر، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وقال ابن جرير حدثنى يعقوب بن إبراهيم حدثنا هشام أخبرنا حجاج عن عطاء عن ابن عباس أنه قال ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فى مواسم الحج، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى هذه الآية: لا حرج عليكم فى الشراء والبيع قبل الإحرام وبعده، وهكذا روى العوفى عن ابن عباس، وقال وكيع: حدثنا طلحة بن عمرو الحضرمى عن عطاء، عن ابن عباس أنه كان يقرأ «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فِى مَوَاسِمِ الحَجِّ»، ورواه عبد بن حميد عن محمد بن الفضل، عن حماد بن زيد عن عبيد الله بن أبى يزيد سمعت ابن الزبير يقرأ «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم في مواسم الحج» وهكذا فسرها مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة ومنصور بن المعتمر وقتادة وإبراهيم النخعى والربيع بن أنس وغيرهم.

وقال ابن جرير: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا شبابة بن سوار، حدثنا شعبة عن أبى أميمة، سمعت ابن عمر سئل عن الرجل يحج ومعه تجارة، فقرأ ابن عمر ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وهذا موقوف، وهو قوى جيد، وقد روى مرفوعًا، قال أحمد [2]: حدثنا أسباط، حدثنا الحسن بن عمرو الفقيمى عن أبى أمامة التيمى، قال: قلت لابن عمر: إنَّا نكرى فهل لنا من حج؟ قال: أليس تطوفون بالبيت، وتأتون المعروف، وترمون الجمار، وتحلقون رءوسكم؟ قال: قلنا: بلى، فقال ابن عمر: جاء رجل إلى النبى ﷺ، فسأله عن الذى سألتنى، فلم يجبه حتى نزل عليه جبرائيل بهذه الآية ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فدعاه النبى ﷺ، فقال «أنتم حجاج». وقال عبد الرزاق: أخبرنا الثورى عن العلاء بن المسيب، عن رجل من بنى تميم، قال: جاء رجل إلى عبد الله بن عمر، فقال: يا أبا عبد الرحمن، إنا قوم نكرى ويزعمون أنه ليس لنا حج، قال: ألستم تحرمون كما يحرمون، وتطوفون كما يطوفون، وترمون كما يرمون؟ قال: بلى، قال فأنت حاج، ثم قال ابن عمر جاء رجل إلى النبى ﷺ فسأله عما سألت عنه، فنزلت هذه الآية ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ورواه عبد بن حميد فى تفسيره عن عبد الرزاق به، وهكذا روى هذا الحديث أبو حذيفة عن الثورى مرفوعًا، وهكذا روى من غير هذا الوجه مرفوعًا.

---

(١) صحيح لغيره: أخرجه أبو داود (١٧٣١)، وابن جرير (٢/ ٢٨٤)، انظر صحيح سنن أبي داود.

(٢) أخرجه أحمد (٦٣٩٨)، ورجاله ثقات.

فقال ابن أبى حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا عباد بن العوام عن العلاء بن المسيب عن أبى أمامة التيمى، قال: قلت لابن عمر: إنا أناس نكرى فى هذا الوجه إلى مكة، وإن أناسًا يزعمون أنه لا حج لنا، فهل ترى لنا حجًا؟ قال: ألستم تحرمون وتطوفون بالبيت وتقضون المناسك؟ قال: قلت: بلى، قال «فأنتم حجاج» ثم قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فسأله عن الذى سألت فلم يدر ما يعود عليه، أو قال: فلم يرد شيئًا حتى نزلت ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فدعا الرجل فتلاها عليه، وقال «أنتم حجاج» وكذا رواه مسعود بن سعد وعبد الواحد بن زياد وشريك القاضى عن العلاء بن المسيب مرفوعًا.

وقال ابن جرير: حدثنى طليق بن محمد الواسطى، حدثنا أسباط هو ابن محمد، أخبرنا الحسن بن عمرو هو الفقيمى عن أبى أمامة التيمى، قال: قلت لابن عمر: إنا قوم نكرى، فهل لنا حج؟ فقال: أليس تطوفون بالبيت، وتأتون بالمعروف، وترمون الجمار، وتحلقون رءوسكم؟ قلنا: بلى، قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فسأله عن الذى سألتنى عنه، فلم يدر ما يقول له حتى نزل جبريل عليه السلام بهذه الآية ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ إلى آخر الآية، وقال النبى ﷺ «أنتم حجاج» وقال ابن جرير: حدثنى أحمد بن إسحاق، حدثنا أبو أحمد، حدثنا مندل عن عبد الرحمن بن المهاجر عن أبى صالح مولى عمرو قال: قلت: يا أمير المؤمنين، كنتم تتجرون فى الحج؟ قال: وهل كانت معايشهم إلا فى الحج؟.

وَقَوْلُه تَعَالَى: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ إنما صرف عرفات وإن كان علمًا على مؤنث، لأنه فى الأصل جمع كمسلمات ومؤمنات، سمى به بقعة معينة فروعى فيه الأصل فصرف، اختاره ابن جرير، وعرفة موضع الوقوف فى الحج، وهى عمدة أفعال الحج، ولهذا روى الإمام أحمد وأهل السنن[1] بإسناد صحيح عن الثورى عن بكير عن عطاء عن عبد الرحمن بن يعمر الديلى، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحج عرفات - ثلاثًا - فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك، وأيام منى ثلاثة، فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه، ومن تأخر فلا إثم عليه» ووقت الوقوف من الزوال يوم عرفة إلى طلوع الفجر الثانى من يوم النحر، لأن النبى ﷺ وقف فى حجة الوداع بعد أن صلى الظهر إلى أن غربت الشمس، وقال «لتأخذوا عنى مناسككم»[2] وقال فى هذا الحديث «فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك» وهذا مذهب مالك وأبى حنيفة والشافعى، رحمهم الله، وذهب الإمام أحمد إلى أن وقت الوقوف من أول يوم عرفة، واحتجوا بحديث الشعبى عن عروة بن مضرس بن حارثة بن لام الطائى، قال: أتيت رسول الله ﷺ بالمزدلفة حين خرج إلى الصلاة فقلت: يا رسول الله، إنى جئت من جبل طيئ، أكللت راحلتى، وأتعبت نفسى، والله ما تركت من جبل إلا وقفت عليه، فهل لى من حج؟ فقال رسول الله ﷺ: «من شهد صلاتنا هذه، فوقف معنا حتى ندفع وقد وقف بعرفة قبل ذلك ليلًا أو نهارًا، فقد تم حجه وقضى تفثه»

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (١٩٤٩)، والترمذي (٨٨٩)، والنسائي (٣٠٤٤)، وابن ماجه (٣٠١٥)، وأحمد (١٨٢٩٧)، والدارمي (١٨٨٧)، انظر المشكاة (٢٧١٤).

(٢) أخرجه مسلم (١٢٩٧)، وأحمد (١٤٣٠٨)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

رواه الإمام أحمد وأهل السنن[١]، وصححه الترمذى، ثم قيل: إنما سميت عرفات لما رواه عبد الرزاق: أخبرنى ابن جريج، قال: قال ابن المسيب: قال على بن أبى طالب: بعث الله جبريل عليه السلام إلى إبراهيم ﷺ فحج به، حتى إذا أتى عرفة قال: عرفت، وكان قد أتاها مرة قبل ذلك، فلذلك سميت عرفة وقال ابن المبارك عن عبد الملك بن أبى سليمان، عن عطاء، قال: إنما سميت عرفة لأن جبريل كان يرى إبراهيم المناسك فيقول: عرفت عرفت، فسميت عرفات، وروى نحوه عن ابن عباس وابن عمر وأبى مجلز، فالله أعلم، وتسمى عرفات المشعر الحرام، والمشعر الأقصى، وإلال على وزن هلال، ويقال للجبل فى وسطها: جبل الرحمة، قال أبو طالب فى قصيدته المشهورة:

وبالمشعر الأقصى إذا قصدوا له إلال إلى تلك الشراج القوابل

وقال ابن أبى حاتم[٢]: حدثنا حماد بن الحسن بن عنبسة، حدثنا أبو عامر عن زمعة هو ابن صالح، عن سلمة -وهو بن وهرام، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يقفون بعرفة حتى إذا كانت الشمس على رءوس الجبال كأنها العمائم على رءوس الرجال دفعوا، فأخر رسول الله ﷺ الدفعة من عرفة حتى غربت الشمس ورواه ابن مردويه من حديث زمعة بن صالح وزاد: ثم وقف بالمزدلفة وصلى الفجر بغلس، حتى إذا أسفر كل شىء وكان فى الوقت الآخر، دفع، وهذا حسن الإسناد، وقال ابن جريج عن محمد بن قيس عن المسور بن مخرمة، قال: خطبنا رسول الله ﷺ وهو بعرفات، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال «أما بعد - وكان إذا خطب خطبة قال: أما بعد - فإن هذا اليوم الحج الأكبر، ألا وإن أهل الشرك والأوثان كانوا يدفعون فى هذا اليوم قبل أن تغيب الشمس إذا كانت الشمس فى رءوس الجبال كأنها عمائم الرجال فى وجهها، وإنا ندفع بعد أن تغيب الشمس، وكانوا يدفعون من المشعر الحرام بعد أن تطلع الشمس إذا كانت الشمس فى رءوس الجبال كأنها عمائم الرجال فى وجوهها، وإنا ندفع قبل أن تطلع الشمس مخالفًا هدينا هدى أهل الشرك» ، هكذا رواه ابن مردويه، وهذا لفظه، والحاكم فى مستدركه[٣]، كلاهما من حديث عبد الرحمن بن المبارك العيشى عن عبد الوارث بن سعيد عن ابن جريج.

وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، وقد صح وثبت بما ذكرناه سماع المسور من رسول الله ﷺ : لا كما يتوهمه بعض أصحابنا أنه من له رؤية بلا سماع، وقال وكيع، عن شعبة، عن إسماعيل بن رجاء الزبيدى، عن المعرور بن سويد، قال: رأيت عمر رضى الله عنه حين دفع عن عرفة كأنى أنظر إليه رجل أصلع على بعير له يوضع وهو يقول: إنا وجدنا الإفاضة هى الإيضاع، وفى حديث جابر بن عبد الله الطويل الذى فى صحيح مسلم، قال فيه: فلم يزل واقفًا - يعنى بعرفة - حتى غربت الشمس، وبدت الصفرة قليلاً حتى غاب القرص، وأردف أسامة خلفه،

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (١٩٥٠)، والترمذي (٨٩١)، والنسائي (٣٠٣٩)، وابن ماجه (٣٠١٦)، وأحمد (١٥٧٧٥)، والدارمي (١٨٨٨)، وانظر صحيح سنن أبي داود.

(٢) حسن: أخرجه ابن أبى حاتم (٢/ ٣٥٢)، برقم (١٨٤٩).

(٣) صحيح: أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٠٤)، برقم (٣٠٩٧)، ورجاله ثقات لولا أن ابن جريج عنعنه وهو مدلس، لكن يشهد له الرواية السابقة، وصححه الحاكم على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

ودفع رسول الله ﷺ وقد شنق للقصواء الزمام حتى إن رأسها ليصيب مورك رحله، ويقول بيده اليمنى: «أيها الناس السكينة السكينة» كلما أتى جبلاً من الجبال أرخى لها قليلاً حتى تصعد حتى أتى المزدلفة، فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين، ولم يسبح بينهما شيئًا، ثم اضطجع حتى طلع الفجر فصلى الفجر، حتى تبين له الصبح بأذان وإقامة، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام، فاستقبل القبلة، فدعا الله وكبره وهلله ووحده، فلم يزل واقفًا حتى أسفر جدًا، فدفع قبل أن تطلع الشمس، وفي الصحيحين [1] عن أسامة بن زيد أنه سئل: كيف كان يسير رسول الله ﷺ حين دفع؟ قال: كان يسير العنق، فإذا وجد فجوة نص. والعنق هو انبساط السير، والنص فوقه، وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا أبو محمد ابن بنت الشافعي فيما كتب إلى عن أبيه أو عمه، عن سفيان بن عيينة قوله ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾ وهي الصلاتين جميعًا.

وقال أبو إسحاق السبيعي، عن عمرو بن ميمون: سألت عبد الله بن عمرو عن المشعر الحرام، فسكت حتى إذا هبطت أيدي رواحلنا بالمزدلفة، قال: أين السائل عن المشعر الحرام، هذا المشعر الحرام، وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الزهري، عن سالم، قال: قال ابن عمر: المشعر الحرام المزدلفة كلها. وقال هشيم، عن حجاج، عن نافع، عن ابن عمر: أنه سئل عن قوله ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾ قال: فقال: هذا الجبل وما حوله. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن المغيرة، عن إبراهيم، قال: فرآهم ابن عمر يزدحمون على قزح، فقال: علام يزدحم هؤلاء، كل ههنا مشعر. وروى عن ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد والسدي والربيع بن أنس والحسن وقتادة أنهم قالوا: هو ما بين الجبلين. وقال ابن جريج: قلت لعطاء: أين المزدلفة؟ قال: إذا أفضت من مأزمي عرفة فذلك إلى محسر، قال: وليس المأزمان مأزمي عرفة من المزدلفة، ولكن مفضاهما، قال: فقف بينهما إن شئت، قال: وأحب أن تقف دون قزح هلم إلينا من أجل طريق الناس.

(قُلْتُ) والمشاعر هي المعالم الظاهرة، وإنما سميت المزدلفة المشعر الحرام، لأنها داخل الحرم، وهل الوقوف بها ركن في الحج لا يصح إلا به، كما ذهب إليه طائفة من السلف وبعض أصحاب الشافعي منهم القفال وابن خزيمة لحديث عروة بن مضرس؟ أو واجب كما هو أحد قولي الشافعي يجبر بدم؟ أو مستحب لا يجب بتركه شيء كما هو القول الآخر؟ في ذلك ثلاثة أقوال للعلماء لبسطها موضع آخر غير هذا، والله أعلم [2]. وقال عبد الله بن المبارك، عن سفيان الثوري، عن زيد بن أسلم أن رسول الله ﷺ، قال «عرفة كلها موقف، وارفعوا عن عرنة، وجمع كلها موقف إلا محسرًا» هذا حديث مرسل، وقد قال الإمام أحمد [3]: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا سعيد بن عبد العزيز حدثني

(١) أخرجه البخاري (١٦٦٦)، ومسلم (١٢٨٦).

(٢) انظر ما بعده.

(٣) صحيح: من غير هذه الطرق، فالطريق الأول: مرسل كما ذكر ابن كثير، والثاني: من طريق سليمان بن موسى، وهو منقطع، أخرجه أحمد (١٦٣٠٩).

ورواية سويد التي أشار إليها عند الطبراني في الكبير (٢/ ١٣٨)، برقم (١٥٨٣)، وقد وصلها كما ذكر ابن كثير، وسويد لا يحتج به إذا انفرد، والوليد بن مسلم مدلس تدليس التسوية.

قلت: لكن للحديث شواهد:

سليمان بن موسى عن جبير بن مطعم، عن النبى ﷺ، قال «كل عرفات موقف، وارفعوا عن عرنة، وكل مزدلفة موقف، وارفعوا عن محسر، وكل فجاج مكة منحر، وكل أيام التشريق ذبح» وهذا أيضًا منقطع، فإن سليمان بن موسى هذا، وهو الأشدق، لم يدرك جبير بن مطعم، ولكن رواه الوليد بن مسلم وسويد بن عبد العزيز عن سعيد بن عبد العزيز، عن سليمان، فقال الوليد، عن جبير بن مطعم عن أبيه، وقال سويد عن نافع بن جبير بن مطعم عن أبيه عن النبى ﷺ فذكره، والله أعلم، وقوله ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ تنبيه لهم على ما أنعم الله به عليهم من الهداية والبيان والإرشاد إلى مشاعر الحج على ما كان عليه من الهداية إبراهيم الخليل عليه السلام، ولهذا قال ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ قيل: من قبل هذا الهدى وقبل القرآن وقبل الرسول، والكل متقارب ومتلازم وصحيح.

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾

ثم - ههنا - لعطف خبر على خبر وترتيبه عليه، كأنه تعالى أمر الواقف بعرفات أن يدفع إلى المزدلفة ليذكر الله عند المشعر الحرام، وأمره أن يكون وقوفه مع جمهور الناس بعرفات، كما كان جمهور الناس يصنعون، يقفون بها إلا قريشًا فإنهم لم يكونوا يخرجون من الحرم فيقفون فى طرف الحرم عند أدنى الحل، ويقولون: نحن أهل الله فى بلدته وقطان بيته، قال البخارى[1]: حدثنا على بن عبد الله، حدثنا محمد بن حازم، حدثنا هشام، عن أبيه، عن عائشة، قالت: كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة، وكانوا يسمون الحمس، وسائر العرب يقفون بعرفات، فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه ﷺ أن يأتى عرفات ثم يقف بها ثم يفيض منها، فذلك قوله ﴿مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ وكذا قال ابن عباس ومجاهد وعطاء وقتادة والسدى وغيرهم، واختاره ابن جرير وحكى عليه الإجماع رحمهم الله، وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان عن عمرو عن مجاهد عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه، قال: أضللت بعيرًا لى بعرفة فذهبت أطلبه، فإذا النبى ﷺ واقف، قلت: إن هذا من الحمس ما شأنه ههنا؟ أخرجاه فى الصحيحين[2]، ثم رواه البخارى من حديث موسى بن عقبة، عن كريب، عن ابن عباس: ما يقتضى أن المراد بالإفاضة ههنا هى الإفاضة من المزدلفة إلى منى لرمى الجمار، فالله أعلم، وحكاه ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم فقط. قال: والمراد بالناس إبراهيم عليه السلام، وفى رواية عند الإمام، قال ابن جرير: ولولا إجماع الحجة على خلافه لكان هو الأرجح.

وقوله ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ كثيرًا ما يأمر الله بذكره بعد قضاء العبادات، ولهذا ثبت فى صحيح مسلم[3] أن رسول الله ﷺ، كان إذا فرغ من الصلاة يستغفر الله ثلاثًا، وفى

منها: ما أخرجه الحاكم (١/ ٦٣٣)، برقم (١٦٩٧) عن ابن عباس وصححه على شرط مسلم وأخرجه البيهقي في «الكبرى» (٥/ ١١٥)، برقم (٩٢٤٢).

ومنها: ما أخرجه مالك (٨٨٤)، بلاغًا من محمد بن المنكدر، قال ابن عبد البر وصله عبد الرزاق عن معمر عن محمد بن المنكدر عن أبي هريرة.

ومنها: عن جابر نحوه، (١٩٣٧)، وابن ماجه (٣٠٤٨)، وإسناده حسن.

(١) أخرجه البخاري (٤٥٢٠).
(٢) أخرجه البخاري (١٦٦٤)، ومسلم (١٢٢٠).
(٣) أخرجه مسلم (٥٩١)، من حديث ثوبان رضي الله عنه.

الصحيحين [١] أنه ندب إلى التسبيح والتحميد والتكبير ثلاثًا وثلاثين. وقد روى ابن جرير ههنا حديث عباس بن مرداس السلمى، فى استغفاره ﷺ لأمته عشية عرفة [٢]، وقد أوردناه فى جزء جمعناه فى فضل يوم عرفة، وأورد ابن مردويه ههنا الحديث الذى رواه البخارى [٣] عن شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللَّهم أنت ربى، لا إله إلا أنت، خلقتنى وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك على، وأبوء بذنبى، فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، من قالها فى ليلة فمات فى ليلته دخل الجنة، ومن قالها فى يومه فمات دخل الجنة»، وفى الصحيحين [٤] عن عبد الله بن عمرو أن أبا بكر قال: يا رسول الله، علمنى دعاء أدعو به فى صلاتى، فقال «قل اللَّهم إنى ظلمت نفسى ظلمًا كثيرًا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لى مغفرة من عندك، وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم» والأحاديث فى الاستغفار كثيرة.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ۚ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾

يأمر تعالى بذكره والإكثار منه بعد قضاء المناسك وفراغها، وقوله ﴿كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ اختلفوا فى معناه، فقال ابن جريج عن عطاء: هو كقول الصبى أبه أمه، يعنى كما يلهج الصبى بذكر أبيه وأمه، فكذلك أنتم فالهجوا بذكر الله بعد قضاء النسك، وكذا قال الضحاك والربيع بن أنس، وروى ابن جرير [٥] من طريق العوفى عن ابن عباس نحوه، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: كان أهل الجاهلية يقفون فى الموسم فيقول الرجل منهم: كان أبى يطعم ويحمل الحمالات، ويحمل الديات، ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم، فأنزل الله على محمد ﷺ ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾، قال ابن أبى حاتم: وروى السدى، عن أنس بن مالك وأبى وائل وعطاء بن أبى رباح فى أحد قوليه وسعيد بن جبير وعكرمة فى أحد رواياته، ومجاهد والسدى وعطاء الخراسانى والربيع بن أنس والحسن وقتادة ومحمد بن كعب ومقاتل بن حيان نحو ذلك، وهكذا حكاه ابن جرير عن جماعة والله أعلم، والمقصود منه الحث على كثرة الذكر لله عز وجل، ولهذا كان انتصاب قوله، ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ على التمييز، تقديره كذكركم آباءكم أو أشد ذكرًا، وأو - ههنا - لتحقيق المماثلة فى الخبر كقوله ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾[البقرة: ٧٤] وقوله ﴿يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾[النساء: ٧٧] ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾[الصافات: ١٤٧] ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾[النجم: ٩] فليست

---

(١) أخرجه البخاري (٨٤٣)، ومسلم (٥٩٥).

(٢) ضعيف: أخرجه ابن جرير (٤/ ٢٩٤) وفيه كتانة بن عباس وعبد الله بن كتانة كلاهما مجهول، وعبد القاهر بن السري: فيه ضعف.

(٣) أخرجه البخاري (٦٣٠٦). (٤) أخرجه البخاري (٨٣٤)، مسلم (٢٧٠٥).

(٥) ضعيف: أخرجه ابن أبي حاتم (٢/ ٣٥٥)، برقم (١٨٧٠)، وفيه جعفر بن أبي المغيرة: وهو ضعيف في روايته عن سعيد بن جبير.

ههنا للشك قطعًا، وإنما هى لتحقيق المخبر عنه كذلك أو أزيد منه، ثم إنه تعالى أرشد إلى دعائه بعد كثرة ذكره فإنه مظنة الإجابة، وذم من لا يسأله إلا فى أمر دنياه وهو معرض عن أخراه، فقال ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ أى من نصيب ولا حظ، وتضمن هذا الذم والتنفير عن التشبه بمن هو كذلك.

قال سعيد بن جبير، عن ابن عباس: كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف فيقولون: اللَّهم اجعله عام غيث، وعام خصب، وعام ولاد حسن، لا يذكرون من أمر الآخرة شيئًا، فأنزل الله فيهم ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ وكان يجيء بعدهم آخرون من المؤمنين فيقولون ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ فأنزل الله ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾ ولهذا مدح من يسأله الدنيا والآخرة، فقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ فجمعت هذه الدعوة كل خير فى الدنيا وصرفت كل شر، فإن كل الحسنة فى الدنيا تشمل كل مطلوب دنيوى من عافية، ودار رحبة، وزوجة حسنة، ورزق واسع، وعلم نافع، وعمل صالح، ومركب هنئ، وثناء جميل إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عبارات المفسرين، ولا منافاة بينها، فإنها كلها مندرجة فى الحسنة فى الدنيا، وأما الحسنة فى الآخرة، فأعلى ذلك دخول الجنة وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر فى العرصات، وتيسير الحساب وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة، وأما النجاة من النار فهو يقتضى تيسير أسبابه فى الدنيا من اجتناب المحارم والآثام وترك الشبهات والحرام.

وقال القاسم أبو عبد الرحمن: من أعطي قلبًا شاكرًا، ولسانًا ذاكرًا، وجسدًا صابرًا، فقد أوتي فى الدنيا حسنة، وفى الآخرة حسنة، ووقى عذاب النار. ولهذا وردت السنة بالترغيب فى هذا الدعاء، فقال البخارى[1]: حدثنا أبو معمر، حدثنا عبد الوارث عن عبد العزيز، عن أنس بن مالك، قال: كان النبى ﷺ يقول: «اللَّهم ربنا آتنا فى الدنيا حسنة، وفى الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار» وقال الإمام أحمد[2]: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا عبد العزيز بن صهيب، قال: سأل قتادة أنسًا: أى دعوة كان أكثر ما يدعوها النبى ﷺ؟ قال: يقول «اللَّهم ربنا آتنا فى الدنيا حسنة، وفى الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار» وكان أنس إذا أراد أن يدعو بدعوة دعا بها، وإذا أراد أن يدعو بدعاء دعا بها ورواه مسلم، وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو نعيم، حدثنا عبد السلام بن شداد يعنى أبا طالوت، قال: كنت عند أنس بن مالك، فقال له ثابت: إن إخوانك يحبون أن تدعو لهم، فقال: «اللَّهم آتنا فى الدنيا حسنة، وفى الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار» وتحدثوا ساعة، حتى إذا أرادوا القيام قال: يا أبا حمزة، إن إخوانك يريدون القيام، فادع الله لهم، فقال: أتريدون أن أشقق لكم الأمور إذا آتاكم الله فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة، ووقاكم عذاب النار، فقد آتاكم الخير كله[3].

وقال أحمد أيضًا: حدثنا محمد بن أبى عدى عن حميد عن ثابت، عن أنس: أن رسول الله ﷺ عاد رجلًا من المسلمين قد صار مثل الفرخ، فقال له رسول الله ﷺ «هل تدعو الله بشىء أو تسأله إياه؟

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٢٢).

(٢) أخرجه أحمد (١١٥٧٠) ورجاله ثقات.

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٨٨).

قال: نعم، كنت أقول اللَّهم ما كنت معاقبى به فى الآخرة فعجله لى فى الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: سبحان الله لا تطيقه أو لا تستطيقه، فهلا قلت ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ قال: فدعا الله فشفاه» ، انفرد بإخراجه مسلم[١] ، فرواه من حديث ابن أبى عدى به.

وقال الإمام الشافعى[٢]: أخبرنا سعيد بن سالم القداح عن ابن جريج، عن يحيى بن عبيد مولى السائب، عن أبيه، عن عبد الله بن السائب: أنه سمع النبى ﷺ يقول فيما بين الركن اليمانى - ركن بنى جمح - والركن الأسود: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ ورواه الثورى عن ابن جريج كذلك. وروى ابن ماجه[٣] عن أبى هريرة عن النبى ﷺ نحو ذلك، وفى سنده ضعف، والله أعلم. وقال ابن مردويه[٤]: حدثنا عبد الباقى، أخبرنا أحمد بن القاسم بن مساور، حدثنا سعيد بن سليمان عن إبراهيم بن سليمان عن عبد الله بن هرمز، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «ما مررت على الركن إلا رأيت عليه ملكًا يقول آمين، فإذا مررتم عليه فقولوا ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾» وقال الحاكم فى مستدركه: حدثنا أبو زكريا العنبرى، حدثنا محمد بن عبد السلام، حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا جرير عن الأعمش، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، قال: جاء رجل إلى ابن عباس فقال. إنى أجرت نفسى من قوم على أن يحملونى، ووضعت لهم من أجرتى على أن يدعونى أحج معهم، أفيجزى ذلك؟ فقال: أنت من الذين قال الله: ﴿أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾ ثم قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

حزب ٤

﴿۞ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

قال ابن عباس: الأيام المعدودات أيام التشريق، والأيام المعلومات أيام العشر، وقال عكرمة ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ﴾ يعنى التكبير فى أيام التشريق بعد الصلوات المكتوبات الله أكبر الله أكبر. وقال الإمام أحمد[٥]: حدثنا وكيع، حدثنا موسى بن على عن أبيه، قال: سمعت عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «يوم عرفة، ويوم النحر، وأيام التشريق، عيدنا أهل الإسلام، وهى أيام أكل وشرب» ، وقال أحمد[٦] أيضًا: حدثنا هشام، أخبرنا خالد، عن أبى المليح، عن نبيشة الهذلى قال: قال رسول الله ﷺ: «أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله» ورواه مسلم[٧] أيضًا، وتقدم

---

(١) أخرجه أحمد (١١٦٣٨)، ورجاله ثقات.

(٢) صحيح: أخرجه الشافعي في «المسند» (١/ ١٢٧)، وفيه تصريح ابن جريج بالسماع.

(٣) رواية أبي هريرة: ضعيفة، أخرجها ابن ماجه (٢٩٥٧)، وانظر ضعيف سنن ابن ماجه.

(٤) ضعيف: عزاه في «الدر المنثور» (١/ ٥٥٩) إلى ابن مردويه وإسناده ضعيف، فيه عبد الله بن هرمز، قال الحافظ: ضعيف، وله شاهد من حديث أبي هريرة عند ابن ماجه (٢٩٥٧)، لكنه ضعيف جدًا لا يقوى به.

(٥) صحيح: أخرجه أحمد، (١٦٩٢٨)، وانظر صحيح الجامع، (٨١٩٢).

(٦) صحيح: أخرجه أحمد (٢٠١٩٨)، انظر صحيح الجامع (٢٦٨٩).

(٧) أخرجه مسلم (١١٤١).

حديث جبير بن مطعم «عرفة كلها موقف، وأيام التشريق كلها ذبح» [١] وتقدم أيضًا حديث عبد الرحمن بن يعمر الديلى «وأيام منى ثلاثة فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه» [٢].

وقال ابن جرير [٣]: حدثنا يعقوب بن إبراهيم وخلاد بن أسلم قالا: حدثنا هشام عن عمرو بن أبى سلمة، عن أبيه، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أيام التشريق أيام طعم وذكر الله» وحدثنا خلاء بن أسلم، حدثنا روح، حدثنا صالح، حدثنى ابن شهاب عن سعيد بن المسيب، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ بعث عبد الله بن حذافة يطوف فى منى: «لا تصوموا هذه الأيام فإنها أيام أكل وشرب وذكر الله عز وجل» [٤] وحدثنا يعقوب حدثنا هشيم عن سفيان بن حسين عن الزهرى قال: بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن حذافة فنادى فى أيام التشريق فقال «إن هذه أيام أكل وشرب وذكر الله إلا من كان عليه صوم من هدى» [٥] زيادة حسنة ولكن مرسلة، وبه قال هشيم عن عبد الملك بن أبى سليمان، عن عمرو بن دينار أن رسول الله ﷺ بعث بشر بن سحيم فنادى فى أيام التشريق فقال: «إن هذه أيام أكل وشرب وذكر الله» [٦] وقال هشيم عن ابن أبى ليلى، عن عطاء، عن عائشة قالت: نهى رسول الله ﷺ عن صوم أيام التشريق، قال: «وهى أيام أكل وشرب وذكر الله» [٧] وقال محمد بن إسحاق عن حكيم بن حكيم، عن مسعود بن الحكم الزرقى، عن أمه قالت: لكأنى أنظر إلى علىّ على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء حتى وقف على شعب الأنصار وهو يقول: يا أيها الناس، إنها ليست بأيام صيام، إنما هى أيام أكل وشرب وذكر الله [٨]، وقال مقسم عن ابن عباس: الأيام المعدودات أيام التشريق أربعة أيام: يوم النحر، وثلاثة أيام بعده، وروى عن ابن عمر وابن الزبير وأبى موسى وعطاء ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبى مالك وإبراهيم النخعى ويحيى بن أبى كثير والحسن وقتادة والسدى والزهرى والربيع بن أنس والضحاك ومقاتل بن حيان وعطاء الخراسانى ومالك بن أنس وغيرهم مثل ذلك.

وقال على بن أبى طالب: هى ثلاثة: يوم النحر ويومان بعده اذبح فى أيهن شئت، **وأفضلها أولها**، والقول الأول هو المشهور، وعليه دلّ ظاهر الآية الكريمة حيث قال ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ﴾ فدل على ثلاثة بعد النحر ويتعلق بقوله ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾ ذكر الله الأضاحى وقد تقدم، وأن الراجح فى ذلك مذهب الشافعى رحمه الله وهو أن وقت الأضحية

---

(١) سبق تخريجه. (٢) سبق تخريجه.

(٣) صحيح: أخرجه ابن جرير (٢/ ٣٠٤)، وانظر السلسلة الصحيحة (١٢٨٢).

(٤) حسن لغيره: أخرجه أحمد (١٥٦٠٨).

(٥) حسن: لشواهده، أخرجه ابن جرير (٢/ ٣٠٥)، وهو مرسل وفيه سفيان بن حسين ثقة إلا أنهم ضعفوه في الزهري، لكن يشهد للحديث ما تقدم، وأما الجملة الأخيرة: (إلا من كان عليه صوم هدي) فيشهد لها حديث عائشة وابن عمر عند البخاري (١٩٩٨).

(٦) وصله ابن جرير في «تفسيره» من حديث رجل من أصحاب النبي ﷺ، ويشهد له ما تقدم.

(٧) صحيح: أخرجه ابن جرير (٢/ ٣٠٤)، وشواهده ما تقدم.

(٨) أخرجه أحمد (٧١٠)، وفي سنده مجهول.

من يوم النحر إلى آخر أيام التشريق ويتعلق به أيضًا الذكر المؤقت خلف الصلوات، والمطلق فى سائر الأحوال وفى وقته أقوال للعلماء أشهرها الذى عليه العمل أنه من صلاة الصبح يوم عرفة إلى صلاة العصر من آخر أيام التشريق، وهو آخر النفر الآخر، وقد جاء فيه حديث رواه الدارقطنى [١] لكن لا يصح مرفوعًا، والله أعلم وقد ثبت أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يكبر فى قبته فيكبر أهل السوق بتكبيره حتى ترتج منى تكبيرًا ويتعلق بذلك أيضًا التكبير وذكر الله عند رمى الجمرات كل يوم من أيام التشريق وقد جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود وغيره [٢]: إنما جعل الطواف بالبيت والسعى بين الصفا والمروة ورمى الجمار لإقامة ذكر الله عز وجل. ولما ذكر الله تعالى النفر الأول والثانى وهو تفرق الناس من موسم الحج إلى سائر الأقاليم والآفاق بعد اجتماعهم فى المشاعر والموقف، قال ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ كما قال ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٩].

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾

قال السُّدِّيُّ [٣]: نزلت فى الأخنس بن شريق الثقفى، جاء إلى رسول الله ﷺ، وأظهر الإسلام وفى باطنه خلاف ذلك، وعن ابن عباس، أنها نزلت فى نفر من المنافقين تكلموا فى خبيب وأصحابه الذين قتلوا بالرجيع وعابوهم، فأنزل الله فى ذم المنافقين ومدح خبيب وأصحابه ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ وقيل: بل ذلك عام فى المنافقين كلهم وفى المؤمنين كلهم، وهذا قول قتادة ومجاهد والربيع بن أنس وغير واحد، وهو الصحيح، وقال ابن جرير: حدثنى يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرنى الليث بن سعد عن خالد بن يزيد عن سعيد بن أبى هلال، عن القرظى، عن نوف وهو البكالى وكان ممن يقرأ الكتب، قال: إنى لأجد صفة ناس من هذه الأمة فى كتاب الله المنزل: قوم يحتالون على الدنيا بالدين، ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمرّ من الصبر، يلبسون للناس مسوك الضأن، وقلوبهم قلوب الذئاب، يقول الله تعالى: فعلى يجترئون وبى يغترون، حلفت بنفسى لأبعثن عليهم فتنة تترك الحليم فيها حيران.

قال القرظى: تدبرتها فى القرآن فإذا هم المنافقون فوجدتها ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ﴾ الآية، وحدثنى محمد بن أبى معشر: أخبرنى أبو معشر نجيح، قال:

(١) ضعيف: أخرجه الدارقطني (٢/ ٤٩)، برقم (٢٧)، وفيه عمرو بن شحر، قال الفلاس: واهٍ، وقال البخاري وأبو حاتم: منكر الحديث، وجابر الجعفي: ضعيف.

(٢) ضعيف: أخرجه أبو داود (١٨٨٨)، والترمذي (٩٠٢)، وأحمد (٢٣٨٣٠)، والدارمي (١٨٥٣)، من حديث عائشة رضي الله عنها، انظر ضعيف سنن أبي داود.

(٣) تنبيه: ما أورده ابن كثير في سبب نزول الآية (٢٠٤)، عن نوف البكالي ومحمد بن كعب القرظي كلها موقوفات فلا يحكم بصحة ما ذكر وأما قول ابن كثير: «وما قاله القرظي حسن صحيح فمقصوده معناه».

سمعت سعيدًا المقبرى يذاكر محمد بن كعب القرظى، فقال سعيد: إن فى بعض الكتب: إن عبادًا ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمر من الصبر، لبسوا للناس مسوك الضأن من اللين، يجترئون الدنيا بالدين، قال الله تعالى، على تجترئون وبى تغترون؟ وعزتى لأبعثن عليهم فتنة تترك الحليم منهم حيران، فقال محمد بن كعب هذا فى كتاب الله، فقال سعيد: وأين هو من كتاب الله؟ قال: قول الله ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الآية، فقال سعيد: قد عرفت فيمن أنزلت هذه الآية؟ فقال محمد بن كعب، إن الآية تنزل فى الرجل ثم تكون عامة بعد، وهذا الذى قاله القرظى، حسن صحيح، وأما قوله ﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ﴾ فقرأه ابن محيصن «وَيَشْهَدُ اللَّهُ» بفتح الياء وضم الجلالة ﴿عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ﴾ ومعناها أن هذا وإن أظهر لكم الحيل لكن الله يعلم من قلبه القبيح كقوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] وقراءة الجمهور بضم الياء ونصب الجلالة، ﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ﴾ ومعناه أنه يظهر للناس الإسلام ويبارز الله بما فى قلبه من الكفر والنفاق كقوله تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ الآية [النساء: ١٠٨]، هذا معنى ما رواه ابن إسحاق عن محمد بن أبى محمد، عن عكرمة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، وقيل: معناه أنه إذا أظهر للناس الإسلام حلف وأشهد الله لهم أن الذى فى قلبه موافق للسانه، وهذا المعنى صحيح، وقاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير وعزاه إلى ابن عباس وحكاه عن مجاهد، والله أعلم. وقوله ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ الألد فى اللغة الأعوج ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧] أى عوجًا، وهكذا المنافق فى حال خصومته، يكذب ويزور عن الحق ولا يستقيم معه، بل يفترى ويفجر، كما ثبت فى الصحيح[1] عن رسول الله ﷺ أنه قال «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».

وقال البخارى[2]: حدثنا قبيصة، حدثنا سفيان عن ابن جريج، عن ابن أبى مليكة عن عائشة ترفعه، قال «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم» قال: وقال عبد الله بن يزيد: حدثنا سفيان، حدثنا ابن جريج عن ابن أبى مليكة عن عائشة عن النبى ﷺ، قال «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم» وهكذا رواه عبد الرزاق عن معمر فى قوله ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ عن ابن جريج، عن ابن أبى مليكة، عن عائشة عن النبى ﷺ، قال «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم».

وقوله ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ أى هو أعوج المقال سيء الفعال، فذلك قوله وهذا فعله، كلامه كذب، واعتقاده فاسد، وأفعاله قبيحة، والسعى - ههنا - هو القصد، كما قال إخبارًا عن فرعون ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٢-٢٦] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩] أى اقصدوا واعمدوا ناوين بذلك صلاة الجمعة، فإن السعى الحسى إلى الصلاة منهى عنه بالسنة النبوية «إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون، وأتوها وعليكم السكينة والوقار» فهذا المنافق ليس له همة إلا الفساد فى الأرض وإهلاك الحرث، وهو محل نماء الزروع والثمار والنسل، وهو نتاج الحيوانات الذين لا قوام للناس إلا بهما

(١) سبق تخريجه.
(٢) أخرجه البخاري (٢٤٥٧).

وقال مجاهد: إذا سعى فى الأرض إفسادًا، منع الله القطر فهلك الحرث والنسل ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ أى لا يحب من هذه صفته، ولا من يصدر منه ذلك.

وقوله ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ أى إذا وعظ هذا الفاجر فى مقاله وفعاله، وقيل له اتق الله وانزع عن قولك وفعلك وارجع إلى الحق، امتنع وأبى وأخذته الحمية والغضب بالإثم، أى بسبب ما اشتمل عليه من الآثام، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٧٢] ولهذا قال فى هذه الآية ﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أى هى كافيته عقوبة فى ذلك وقوله ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ﴾ لما أخبر عن المنافقين بصفاتهم الذميمة، ذكر صفات المؤمنين الحميدة فقال ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ﴾ قال ابن عباس وأنس وسعيد بن المسيب وأبو عثمان النهدى وعكرمة وجماعة: نزلت فى صهيب بن سنان الرومى وذلك أنه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة، منعه الناس أن يهاجر بماله، وإن أحب أن يتجرد منه ويهاجر فعل، فتخلص منهم وأعطاهم ماله، فأنزل الله فيه هذه الآية، فتلقاه عمر بن الخطاب وجماعة إلى طرف الحرة وقالوا له: ربح البيع فقال: وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم وما ذاك؟ فأخبره أن الله أنزل فيه هذه الآية، ويروى أن رسول الله ﷺ قال له «ربح البيع صهيب»[1] قال ابن مردويه: حدثنا محمد بن إبراهيم، حدثنا محمد بن عبد الله بن رسته، حدثنا سليمان بن داود، حدثنا جعفر بن سليمان الضبى، حدثنا عوف عن أبى عثمان النهدى عن صهيب، قال: لما أردت الهجرة من مكة إلى النبى ﷺ قالت لى قريش يا صهيب قدمت إلينا، ولا مال لك وتخرج أنت ومالك والله لا يكون ذلك أبدًا، فقلت لهم: أرأيتم إن دفعت إليكم مالى تخلون عنى؟ قالوا: نعم، فدفعت إليهم مالى، فخلوا عنى، فخرجت حتى قدمت المدينة، فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال «ربح صهيب ربح صهيب» مرتين، وقال حماد بن سلمة عن على بن زيد عن سعيد بن المسيب، قال: أقبل صهيب مهاجرًا نحو النبى ﷺ فاتبعه نفر من قريش، فنزل عن راحلته وانثل ما فى كنانته، ثم قال: يا معشر قريش قد علمتم أنى من أرماكم رجلًا، وأنتم والله لا تصلون إلى حتى أرمى بكل سهم فى كنانتى، ثم أضرب بسيفى ما بقى فى يدى منه شىء، ثم افعلوا ما شئتم وإن شئتم دللتكم على مالى وقنيتى بمكة وخليتم سبيلى، قالوا: نعم، فلما قدم على النبى ﷺ قال «ربح البيع» قال ونزلت ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾ وأما الأكثرون فحملوا ذلك على أنها نزلت فى كل مجاهد فى سبيل الله كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١] ولما حمل هشام بن عامر بين الصفين أنكر عليه بعض الناس، فرد عليهم عمر بن الخطاب وأبو هريرة وغيرهما، وتلوا هذه الآية ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾.

---

(١) صحيح: هكذا عزاه لابن مردويه، وأخرجه ابن سعد، (٢/ ٢٢٧)، من طريق عوف به، وإسناده صحيح، وله شواهد كثيرة مرسلة، انظر «الدر المنثور» (١/ ٥٧٥- ٥٧٦).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٠٩﴾

يقول الله تعالى آمرًا عباده المؤمنين به المصدقين برسوله أن يأخذوا بجميع عرى الإسلام وشرائعه، والعمل بجميع أوامره، وترك جميع زواجره، ما استطاعوا من ذلك، قال العوفى، عن ابن عباس ومجاهد وطاووس والضحاك وعكرمة وقتادة والسدى وابن زيد فى قوله ﴿ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ﴾ يعنى الإسلام. وقال الضحاك، عن ابن عباس وأبو العالية والربيع بن أنس ﴿ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ﴾ يعنى الطاعة. وقال قتادة أيضًا: الموادعة. وقوله ﴿كَآفَّةٗ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وأبو العالية وعكرمة والربيع بن أنس والسدى ومقاتل بن حيان وقتادة والضحاك جميعًا، وقال مجاهد: أى اعملوا بجميع الأعمال ووجوه البر.

وزعم عكرمة أنها نزلت فى نفر ممن أسلم من اليهود وغيرهم كعبد الله بن سلام وأسد بن عبيد وثعلبة وطائفة استأذنوا رسول الله ﷺ فى أن يسبتوا وأن يقوموا بالتوراة ليلًا، فأمرهم الله بإقامة شعائر الإسلام والاشتغال بها عما عداها، وفى ذكر عبد الله بن سلام مع هؤلاء نظر، إذ يبعد أن يستأذن فى إقامة السبت وهو مع تمام إيمانه يتحقق نسخه ورفعه وبطلانه والتعويض عنه بأعياد الإسلام.

ومن المفسرين من يجعل قوله ﴿كَآفَّةٗ﴾ حالاً من الداخلين أى ادخلوا فى الإسلام كلكم والصحيح الأول وهو أنهم أمروا كلهم أن يعملوا بجميع شعب الإيمان وشرائع الإسلام وهى كثيرة جدًا ما استطاعوا منها، كما قال ابن أبى حاتم: أخبرنا على بن الحسين، أخبرنا أحمد بن الصباح، أخبرنى الهيثم بن يمان، حدثنا إسماعيل بن زكريا، حدثنى محمد بن عون عن عكرمة عن ابن عباس ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ كذا قرأها بالنصب، يعنى مؤمنى أهل الكتاب، فإنهم كانوا مع الإيمان بالله مستمسكين ببعض أمور التوراة والشرائع التى أنزلت فيهم، فقال الله ﴿ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ يقول: ادخلوا فى شرائع دين محمد ﷺ ولا تدعوا منها شيئًا وحسبكم الإيمان بالتوراة وما فيها، وقوله ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ أى اعملوا بالطاعات واجتنبوا ما يأمركم به الشيطان فـ ﴿إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٩]، و ﴿إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦] ولهذا قال ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ قال مطرف: أغش عباد الله لعبيد الله الشيطان.

وقوله: ﴿فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ أى عدلتم عن الحق بعد ما قامت عليكم الحجج، فاعلموا أن الله عزيز أى فى انتقامه لا يفوته هارب ولا يغلبه غالب حكيم فى أحكامه ونقضه وإبرامه، ولهذا قال أبو العالية وقتادة والربيع بن أنس: عزيز فى نقمته حكيم فى أمره.

وقال محمد بن إسحاق: العزيز فى نصره ممن كفر به إذا شاء الحكيم فى عذره وحجته إلى عباده.

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٢١٠﴾

يقول تعالى مهددًا للكافرين بمحمد صلوات الله وسلامه عليه ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يعنى يوم القيامة لفصل القضاء بين الأولين والآخرين، فيجزى كل عامل بعمله

إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ كما قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر: ٢١-٢٣] وقال ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ﴾ الآية [الأنعام: ١٥٨].

وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير - ههنا - حديث الصور[1] بطوله من أوله عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ، وهو حديث مشهور ساقه غير واحد من أصحاب المسانيد وغيرهم، وفيه: أن الناس إذا اهتموا لموقفهم في العرصات تشفعوا إلى ربهم بالأنبياء واحدًا واحدًا من آدم فمن بعده فكلهم يحيد عنها حتى ينتهوا إلى محمد ﷺ، فإذا جاءوا إليه قال «أنا لها أنا لها» فيذهب فيسجد لله تحت العرش، ويشفع عند الله في أن يأتي بفصل القضاء بين العباد فيشفعه الله ويأتي في ظلل من الغمام بعد ما تنشق السماء الدنيا وينزل من فيها من الملائكة، ثم الثانية، ثم الثالثة، إلى السابعة، وينزل حملة العرش والكروبيون، قال: وينزل الجبار عز وجل في ظلل من الغمام والملائكة، ولهم زجل من تسبيحهم يقولون: سبحان ذي الملك والملكوت، سبحان ذي العزة والجبروت، سبحان الحي الذي لا يموت، سبحان الذي يميت الخلائق ولا يموت، سبوح قدوس رب الملائكة والروح، سبوح قدوس سبحان ربنا الأعلى، سبحان ذي السلطان والعظمة، سبحانه سبحانه أبدًا أبدًا، وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مردويه - ههنا - أحاديث فيها غرابة، والله أعلم.

فمنها ما رواه من حديث المنهال بن عمرو عن أبي عبيدة بن عبد الله بن ميسرة، عن مسروق، عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ، قال «يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قيامًا شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء، وينزل الله في ظلل من الغمام من العرش إلى الكرسي»[2].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا أبو بكر بن عطاء بن مقدم، حدثنا معتمر بن سليمان، سمعت عبد الجليل القيسي يحدث عن عبد الله بن عمرو ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ الآية. قال: يهبط حين يهبط وبينه وبين خلقه سبعون ألف حجاب، منها النور والظلمة والماء فيصوت الماء في تلك الظلمة صوتًا تنخلع له القلوب. قال: وحدثنا أبي، حدثنا محمد بن الوزير الدمشقي، حدثنا الوليد. قال: سألت زهير بن محمد عن قول الله ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ قال: ظلل من الغمام منظوم من الياقوت، مكلل بالجوهر والزبرجد. وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد في ظلل من الغمام، قال: هو غير السحاب ولم يكن قط إلا لبني إسرائيل في تيههم حين تاهوا، وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يقول: والملائكة يجيئون في ظلل من الغمام، والله تعالى يجيء فيما يشاء،

---

(١) **ضعيف**: أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢/ ٣٣٠)، وهو حديث طويل، مداره على إسماعيل بن رافع، وهو ضعيف جدًا، وضعف الحديث عبد الحق والبيهقي، وهذا لا يعني أن جميع ألفاظه ضعيفة، بل بعض جمله ثابتة في أحاديث أخرى صحيحة.

(٢) **صحيح**: أخرجه الطبراني في «الكبير» (٩/ ٣٥٧)، برقم (٩٨٦٣)، انظر صحيح الترغيب والترهيب (٣٥٩١).

وهى فى بعض القراءات «هَلْ يَنظُرونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّه والملائكة في ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ» وهى كقوله ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا﴾.

﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَالَّذِينَ اتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾

يقول تعالى مخبرًا عن بنى إسرائيل: كم شاهدوا مع موسى من آية بينة أى حجة قاطعة بصدقه فيما جاءهم به، كيده وعصاه وفلقه البحر وضرب الحجر، وما كان من تظليل الغمام عليهم فى شدة الحر، ومن إنزال المن والسلوى، وغير ذلك من الآيات الدالات على وجود الفاعل المختار، وصدق من جرت هذه الخوارق على يديه، ومع هذا أعرض كثير منهم عنها وبدلوا نعمة الله كفرًا، أى استبدلوا بالإيمان بها الكفر بها والإعراض عنها ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ كما قال تعالى إخبارًا عن كفار قريش ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٨-٢٩] ثم أخبر تعالى عن تزيينه الحياة الدنيا للكافرين الذين رضوا بها، واطمأنوا إليها وجمعوا الأموال ومنعوها عن مصارفها التى أمروا بها، مما يرضى الله عنهم وسخروا من الذين آمنوا، الذين أعرضوا عنها، وأنفقوا ما حصل لهم منها فى طاعة ربهم، وبذلوه ابتغاء وجه الله، فلهذا فازوا بالمقام الأسعد والحظ الأوفر يوم معادهم، فكانوا فوق أولئك فى محشرهم ومنشرهم ومسيرهم ومأواهم، فاستقروا فى الدرجات فى أعلى عليين، وخلد أولئك فى الدركات فى أسفل سافلين، ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أى يرزق من يشاء من خلقه ويعطيه عطاء كثيرًا جزيلًا بلا حصر ولا تعداد فى الدنيا والآخرة، كما جاء فى الحديث «ابن آدم أنفق أنفق عليك»[1] وقال النبى ﷺ «أنفق بلالاً ولا تخش من ذى العرش إقلالاً»[2] وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ [سبأ: ٣٩].

وفى الصحيح[3] «أن ملكين ينزلان من السماء صبيحة كل يوم فيقول أحدهما: اللَّهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللَّهم أعط ممسكًا تلفًا» وفى الصحيح[4] «يقول ابن آدم: مالى مالى. وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، وما لبست فابليت، وما تصدقت فأمضيت، وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس» وفى مسند الإمام أحمد[5] عن النبى ﷺ أنه قال «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له».

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٨٤)، ومسلم، (٩٩٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠/ ١٥٥)، برقم (١٠٣٠٠)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، انظر صحيح الجامع (١٥١٢).

(٣) أخرجه البخاري (١٤٤٢)، ومسلم، (١٠١٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم (٢٩٥٨)، من حديث عبد الله بن الشخير رضي الله عنه.

(٥) ضعيف: أخرجه أحمد (١٨٨٤)، من حديث عائشة رضي الله عنها، انظر ضعيف الترغيب والترهيب (١٨٨٤).

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾

قال ابن جرير (١): حدثنا محمد بن بشار، حدثنا أبو داود، أخبرنا همام عن قتادة عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: كان بين نوح وآدم عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، قال: وكذلك هي في قراءة عبد الله «كان الناس أمة واحدة فاختلفوا». ورواه الحاكم في مستدركه من حديث بندار عن محمد بن بشار ثم قال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، كذا روى أبو جعفر الرازي عن أبي العالية عن أبي بن كعب أنه كان يقرؤها «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فاختلفوا فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ» وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن قتادة في قوله ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ قال: كانوا على الهدى جميعًا فاختلفوا ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ فكان أول من بعث نوحًا. وهكذا قال مجاهد، كما قال ابن عباس أولاً. وقال العوفي عن ابن عباس ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ يقول: كانوا كفارًا ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ والقول الأول عن ابن عباس أصح سندًا ومعنى، لأن الناس كانوا على ملة آدم حتى عبدوا الأصنام، فبعث الله إليهم نوحًا عليه السلام، فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ أي من بعد ما قامت الحجج عليهم، وما حملهم على ذلك إلا البغي من بعضهم على بعض ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وقال عبد الرزاق (٢): حدثنا معمر عن سليمان الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة في قوله: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ﴾ الآية، قال: قال النبي ﷺ: «نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، نحن أول الناس دخولاً الجنة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تبع فغدًا لليهود وبعد غد للنصارى» ثم رواه عبد الرزاق عن معمر، عن ابن طاووس، عن أبيه، عن أبي هريرة. وقال ابن وهب، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه في قوله ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ﴾ فاختلفوا في يوم الجمعة، فاتخذ اليهود يوم السبت، والنصارى يوم الأحد، فهدى الله أمة محمد ﷺ ليوم الجمعة واختلفوا في القبلة فاستقبلت النصارى المشرق واليهود بيت المقدس فهدى الله أمة محمد للقبلة واختلفوا في الصلاة، فمنهم من يركع ولا يسجد، ومنهم من يسجد ولا يركع، ومنهم من يصلي وهو يتكلم، ومنهم من يصلي وهو يمشي، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك، واختلفوا في الصيام، فمنهم من يصوم بعض النهار،

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢/ ٣٣٤)، والحاكم في «المستدرك»، (٢/ ٥٩٦)، برقم (٤٠٠٩)، ورجاله ثقات، وصححه الحاكم على شرط البخاري ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه أحمد من هذا الطريق (٧٦٤٩)، ورجاله ثقات.

ومنهم من يصوم عن بعض الطعام، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك. واختلفوا فى إبراهيم عليه السلام، فقالت اليهود: كان يهوديًا، وقالت: النصارى كان نصرانيًا، وجعله الله حنيفًا مسلمًا، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك. واختلفوا فى عيسى عليه السلام، فكذبت به اليهود وقالوا لأمه بهتانًا عظيمًا، وجعلته النصارى إلهًا وولدًا، وجعله الله روحه وكلمته، فهدى الله أمة محمد ﷺ للحق من ذلك، وقال الربيع بن أنس فى قوله ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ﴾ أى عند الاختلاف أنهم كانوا على ما جاءت به الرسل قبل الاختلاف، أقاموا على الإخلاص لله عز وجل وحده، وعبادته لا شريك له، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، فأقاموا على الأمر الأول الذى كان قبل الاختلاف واعتزلوا الاختلاف وكانوا شهداء على الناس يوم القيامة شهداء على قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب وآل فرعون، أن رسلهم قد بلغوهم، وأنهم قد كذبوا رسلهم، وفى قراءة أبى بن كعب: «وليكونوا شهداء على الناس يوم القيامة والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم». وكان أبو العالية يقول فى هذه الآية: المخرج من الشبهات والضلالات والفتن.

وقوله ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ أى بعلمه بهم وبما هداهم له، قاله ابن جرير ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ أى من خلقه ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أى وله الحكمة والحجة البالغة، وفى صحيح البخارى ومسلم[1] عن عائشة: أن رسول الله ﷺ، كان إذا قام من الليل يصلى يقول: «اللَّهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم» وفى الدعاء المأثور: «اللَّهم أرنا الحق حقًا، وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا، وارزقنا اجتنابه، ولا تجعله ملتبسًا علينا فنضل، واجعلنا للمتقين إمامًا»

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾

يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ قبل أن تبتلوا وتخبروا وتمتحنوا كما فعل بالذين من قبلكم من الأمم، ولهذا قال ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾ وهى الأمراض والأسقام والآلام والمصائب والنوائب. قال ابن مسعود وابن عباس وأبو العالية ومجاهد وسعيد بن جبير ومرة الهمدانى والحسن وقتادة والضحاك والربيع والسدى ومقاتل بن حيان ﴿ٱلْبَأْسَآءُ﴾ الفقر ﴿وَٱلضَّرَّآءُ﴾ السقم ﴿وَزُلْزِلُوا۟﴾ خوفًا من الأعداء زلزالاً شديدًا، وامتحنوا امتحانًا عظيمًا، كما جاء فى الحديث الصحيح[2] عن خباب بن الأرت، قال: قلنا: يا رسول الله، ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ فقال: «إن من كان قبلكم كان أحدهم يوضع المنشار على مفرق رأسه فيخلص إلى قدميه لا يصرفه ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه، لا يصرفه ذلك عن دينه» ثم قال «والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم قوم تستعجلون» وقال الله تعالى: ﴿الٓمٓ ۚ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ

(١) أخرجه مسلم (٧٧٠).
(٢) أخرجه البخاري (٣٨٥٢).

فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣] وقد حصل من هذا جانب عظيم للصحابة رضى الله تعالى عنهم فى يوم الأحزاب، كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ الآيات [الأحزاب: ١٠-١٢]. ولما سأل هرقل أبا سفيان هل قاتلتموه؟ قال: نعم. قال فكيف كانت الحرب بينكم؟ قال سجالاً، يدال علينا وندال عليه. قال: كذلك الرسل تبتلى ثم تكون لها العاقبة [١]. وقوله ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أى سنتهم كما قال تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف: ٨] وقوله ﴿وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ أى يستفتحون على أعدائهم ويدعون بقرب الفرج والمخرج عند ضيق الحال والشدة، قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ كما قال ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦] وكما تكون الشدة ينزل من السراء مثلها، ولهذا قال ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ وفى حديث أبى رزين «عجب ربك من قنوط عباده وقرب غيثه، فينظر إليهم قنطين، فيظل يضحك يعلم أن فرجهم قريب» [٢] الحديث.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾

قال مقاتل بن حيان: هذه الآية فى نفقة التطوع. وقال السدى: نسختها الزكاة، وفيه نظر، ومعنى الآية: يسألونك كيف ينفقون؟ قاله ابن عباس ومجاهد فبين لهم تعالى ذلك، فقال ﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أى اصرفوها فى هذه الوجوه. كما جاء الحديث «أمك وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك أدناك» [٣] وتلا ميمون بن مهران هذه الآية، ثم قال: هذه مواضع النفقة ما ذكر فيها طبلاً ولا مزمارًا ولا تصاوير الخشب ولا كسوة الحيطان. ثم قال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ أى مهما صدر منكم من فعل معروف، فإن الله يعلمه وسيجزيكم على ذلك أوفر الجزاء، فإنه لا يظلم أحدًا مثقال ذرة.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾

هذا إيجاب من الله تعالى للجهاد على المسلمين أن يكفوا شر الأعداء عن حوزة الإسلام، وقال الزهرى: الجهاد واجب على كل أحد غزا أو قعد، فالقاعد عليه إذا استعين أن يعين، وإذا استغيث أن يغيث، وإذا استنفر أن ينفر، وإن لم يحتج إليه قعد.

(قُلْتُ) ولهذا ثبت فى الصحيح [٤] «من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو، مات ميتة جاهلية»

---

(١) أخرجه البخاري (٧).

(٢) ضعيف: أخرجه ابن ماجه (١٨١)، انظر ضعيف سنن ابن ماجه.

(٣) أخرجه أحمد (٧٠٦٨)، ورجاله ثقات من حديث أبي رمثة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم (١٩١٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقال عليه السلام يوم الفتح: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا»[١] وقوله ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ أى شديد عليكم ومشقة وهو كذلك، فإنه إما أن يقتل أو يجرح مع مشقة السفر ومجالدة الأعداء. ثم قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أى لأن القتال يعقبه النصر والظفر على الأعداء والاستيلاء على بلادهم وأموالهم وذراريهم وأولادهم. ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ وهذا عام فى الأمور كلها قد يحب المرء شيئًا وليس له فيه خيرة ولا مصلحة، ومن ذلك القعود عن القتال قد يعقبه استيلاء العدو على البلاد والحكم. ثم قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أى هو أعلم بعواقب الأمور منكم، وأخبر بما فيه صلاحكم فى دنياكم وأخراكم، فاستجيبوا له وانقادوا لأمره، لعلكم ترشدون.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾

قال ابن أبي حاتم[٢]: حدثنا أبى، حدثنا محمد بن أبى بكر المقدمى، حدثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه، حدثنى الحضرمى عن أبى السوار، عن جندب بن عبد الله، أن رسول الله ﷺ بعث رهطًا، وبعث عليهم أبا عبيدة بن الجراح، فلما ذهب ينطلق بكى صبابة إلى رسول الله ﷺ فجلس فحبسه فبعث عليهم مكانه عبد الله بن جحش، وكتب له كتابًا وأمره أن لا يقرأ الكتاب حتى يبلغ مكان كذا وكذا، وقال «لا تكرهن أحدًا على السير معك من أصحابك» فلما قرأ الكتاب استرجع، وقال: سمعًا وطاعة لله ولرسوله، فخبرهم الخبر وقرأ عليهم الكتاب، فرجع رجلان وبقى بقيتهم، فلقوا ابن الحضرمى فقتلوه، ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجب أو من جمادى، فقال المشركون للمسلمين: قتلتم فى الشهر الحرام، فأنزل الله ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ الآية، وقال السدى[٣] عن أبى مالك وعن أبى صالح، عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ الآية، وذلك أن رسول الله ﷺ بعث سرية، وكانوا سبعة نفر عليهم عبد الله بن جحش الأسدى، وفيهم عمار بن ياسر وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وسعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان السلمى حليف لبنى نوفل، وسهيل بن بيضاء وعامر بن فهيرة وواقد بن عبد الله

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٨٣)، ومسلم (١٣٥٣)، من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) حسن: أخرجه ابن أبي حاتم (٢/ ٣٨٤)، برقم (٢٠٢٢)، وصحح إسناده السيوطى في «الدر المنثور» (١/ ٦٠٠).

(٣) أوردها من عدة روايات، أطولها رواية ابن إسحاق من رواية عروة بن الزبير وهذا مرسل صحيح ولكن مجموع الروايات مع الحديث السابق يدل على أصل القصة وصحتها والله أعلم.

اليربوعى حليف لعمر بن الخطاب، وكتب لابن جحش كتابًا وأمره أن لا يقرأه حتى ينزل بطن نخلة، فلما نزل بطن نخلة فتح الكتاب فإذا فيه «أن سر حتى تنزل بطن نخلة» فقال لأصحابه: من كان يريد الموت فليمض وليوص، فإننى موص وماض لأمر رسول الله ﷺ، فسار، فتخلف عنه سعد بن أبى وقاص وعتبة، أضلا راحلة لهما فأتيا بحران يطلبانها، وسار ابن جحش إلى بطن نخلة، فإذا هو بالحكم بن كيسان والمغيرة بن عثمان وعمرو بن الحضرمى وعبد الله بن المغيرة، وانفلت المغيرة، وقتل عمرو، قتله واقد بن عبد الله، فكانت أول غنيمة غنمها أصحاب رسول الله ﷺ، فلما رجعوا إلى المدينة بأسيرين وما أصابوا من المال، أراد أهل مكة أن يفادوا الأسيرين. فقال النبي ﷺ: «حتى ننظر ما فعل صاحبانا» فلما رجع سعد وصاحبه وفادى بالأسيرين ففجر عليه المشركون. وقالوا: إن محمدًا يزعم أنه يتبع طاعة الله وهو أول من استحل الشهر الحرام وقتل صاحبنا فى رجب، فقال المسلمون: إنما قتلناه فى جمادى، وقتل فى أول ليلة من رجب وآخر ليلة من جمادى، وغمد المسلمون سيوفهم حين دخل شهر رجب، وأنزل الله يعير أهل مكة ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ لا يحل وما صنعتم أنتم يا معشر المشركين أكبر من القتل فى الشهر الحرام حين كفرتم بالله وصددتم عن محمد ﷺ وأصحابه، وإخراج أهل المسجد الحرام منه حين أخرجوا محمدًا ﷺ وأصحابه أكبر من القتل عند الله.

وقال العوفى عن ابن عباس ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ وذلك أن المشركين صدوا رسول الله ﷺ وردوه عن المسجد فى شهر حرام، قال: ففتح الله على نبيه فى شهر حرام من العام المقبل، فعاب المشركون على رسول الله ﷺ القتال فى شهر حرام، فقال الله ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ من القتال فيه، وأن محمدًا ﷺ بعث سرية، فلقوا عمرو بن الحضرمى وهو مقبل من الطائف فى آخر ليلة من جمادى وأول ليلة من رجب وأن أصحاب محمد ﷺ، كانوا يظنون أن تلك الليلة من جمادى وكانت أول رجب، ولم يشعروا، فقتله رجل منهم وأخذوا ما كان معه، وإن المشركين أرسلوا يعيرونه بذلك.

فقال الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ﴾ إخراج أهل المسجد الحرام أكبر من الذى أصاب أصحاب محمد ﷺ، والشرك أشد منه، وهكذا روى أبو سعيد البقال عن عكرمة، عن ابن عباس، أنها نزلت فى سرية عبد الله بن جحش وقتل عمرو بن الحضرمى، وقال محمد بن إسحاق: حدثنى محمد بن السائب الكلبى عن أبى صالح، عن ابن عباس، وقال: نزل فيما كان من مصاب عمرو بن الحضرمى ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ﴾ إلى آخر الآية.

وقال عبد الملك بن هشام راوى السيرة، عن زياد بن عبد الله البكائى، عن محمد بن إسحاق بن يسار المدنى رحمه الله، فى كتاب السيرة له، إنه قال: وبعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش بن رباب الأسدى فى رجب مقفله من بدر الأولى، وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد، وكتب له كتابًا وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين، ثم ينظر فيه فيمضى كما أمره به، ولا يستكره من أصحابه أحدًا، وكان أصحاب عبد الله بن جحش من المهاجرين، ثم من بنى

عبد شمس بن عبد مناف أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف، ومن حلفائهم: عبد الله بن جحش، وهو أمير القوم، وعكاشة بن محصن بن حرثان أحد بنى أسد بن خزيمة حليف لهم، ومن بنى نوفل بن عبد مناف عتبة بن غزوان بن جابر حليف لهم ومن بنى زهرة بن كلاب سعد بن أبى وقاص ومن بنى كعب عدى بن عامر بن ربيعة، حليف لهم، من غير ابن وائل، وواقد بن عبد الله بن عبد مناف بن عزير بن ثعلبة بن يربوع، أحد بنى تميم حليف لهم، وخالد بن البكير أحد بنى سعد بن ليث حليف لهم، ومن بنى الحارث بن فهر: سهيل بن بيضاء، فلما سار عبد الله بن جحش يومين، فتح الكتاب فنظر فإذا فيه: إذا نظرت فى كتابى هذا، فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف ترصد بها قريشًا وتعلم لنا من أخبارهم، فلما نظر عبد الله بن جحش الكتاب، قال: سمعًا وطاعة، ثم قال لأصحابه: قد أمرنى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أن أمضى إلى نخلة أرصد بها قريشًا حتى آتيه منهم بخبر، وقد نهانى أن أستكره أحدًا منكم، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع، فأما أنا فماض لأمر رسول الله ﷺ، فمضى معه أصحابه لم يتخلف عنه منهم أحد، فسلك على الحجاز حتى إذا كان بمعدن فوق الفرع يقال له بحران، أضلّ سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان بعيرًا لهما كانا يتعقبانه فتخلفا عليه فى طلبه، ومضى عبد الله بن جحش وبقية أصحابه حتى نزل نخلة، فمرت به عير لقريش تحمل زبيبًا وأدمًا وتجارة من تجارة قريش، فيها عمرو بن الحضرمى، واسم الحضرمى عبد الله بن عباد أحد الصدف وعثمان بن عبد الله بن المغيرة وأخوه نوفل بن عبد الله المخزوميان والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة، فلما رآهم القوم هابوهم، وقد نزلوا قريبًا منهم، فأشرف لهم عكاشة بن محصن، وكان قد حلق رأسه، فلما رأوه أمنوا وقالوا: عمار لا بأس عليكم منهم، وتشاور القوم فيهم، وذلك فى آخر يوم من رجب، فقال القوم: والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم، فليمتنعن منكم، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم فى الشهر الحرام، فتردد القوم وهابوا الإقدام عليهم، ثم شجعوا أنفسهم عليهم، وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم وأخذ ما معهم، فرمى واقد بن عبد الله التميمى عمرو بن الحضرمى بسهم فقتله، واستأسر عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان، وأفلت القوم نوفل بن عبد الله فأعجزهم، وأقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالعير والأسيرين حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة.

قال ابن إسحاق: وقد ذكر بعض آل عبد الله بن جحش أن عبد الله قال لأصحابه: إن لرسول الله ﷺ مما غنمنا الخمس، وذلك قبل أن يفرض الله الخمس من المغانم، فعزل لرسول الله ﷺ خمس العير، وقسم سائرها بين أصحابه، قال ابن إسحاق: فلما قدموا على رسول الله ﷺ، قال: «ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام» فوقف العير والأسيرين، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئًا، فلما قال ذلك رسول الله ﷺ، أسقط فى أيدى القوم، وظنوا أنهم قد هلكوا، وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا، وقالت قريش: قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال فقال من يرد عليه من المسلمين ممن كان بمكة إنما أصابوا ما أصابوا فى شعبان.

وقالت اليهود: تفاءلوا بذلك على رسول الله ﷺ عمرو بن الحضرمى قتله واقد بن عبد الله، عمرو عمرت الحرب، والحضرمى حضرت الحرب، وواقد بن عبد الله وقدت الحرب، فجعل الله عليهم ذلك لا لهم، فلما أكثر الناس فى ذلك أنزل الله على رسول الله ﷺ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ أى إن كنتم قتلتم فى الشهر الحرام، فقد صدوكم عن سبيل الله مع الكفر به، وعن المسجد الحرام وإخراجكم منه وأنتم أهله ﴿أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ من قتل من قتلتم منهم ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ أى قد كانوا يفتنون المسلم فى دينه حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه، فذلك أكبر عند الله من القتل ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟﴾ أى ثم هم مقيمون على أخبث ذلك وأعظمه، غير تائبين ولا نازعين، قال ابن إسحاق: فلما نزل القرآن بهذا من الأمر وفرج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الشدة، قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم العير والأسيرين، وبعثت إليه قريش فى فداء عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان، فقال رسول الله ﷺ: «لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا» يعنى سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان، فإنا نخشاكم عليهما، إن تقتلوهما نقتل صاحبيكم، فقدم سعد وعتبة، ففداهما رسول الله ﷺ منهم، فأما الحكم بن كيسان فأسلم وحسن إسلامه، وأقام عند رسول الله ﷺ حتى قتل يوم بئر معونة شهيدًا، وأما عثمان بن عبد الله فلحق بمكة فمات بها كافرًا، قال ابن إسحاق: فلما تجلى عن عبد الله بن جحش وأصحابه ما كان حين نزل القرآن طمعوا فى الأجر فقالوا: يا رسول الله، أنطمع أن تكون لنا غزوة نعطى فيها أجر المجاهدين؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ فوضعهم الله من ذلك على أعظم الرجاء، قال ابن إسحاق، والحديث فى هذا عن الزهرى ويزيد بن رومان، عن عروة، وقد روى يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير قريبًا من هذا السياق، وروى موسى بن عقبة، عن الزهرى نفسه نحو ذلك، وروى شعيب بن أبى حمزة عن الزهرى عن عروة بن الزبير نحوًا من هذا أيضًا، وفيه فكان ابن الحضرمى أول قتيل قتل بين المسلمين والمشركين، فركب وفد من كفار قريش حتى قدموا على رسول الله ﷺ بالمدينة، فقالوا: أيحل القتال فى الشهر الحرام؟ فأنزل الله ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ الآية، وقد استقصى ذلك الحافظ أبو بكر البيهقى فى كتاب دلائل النبوة، ثم قال ابن هشام، عن زياد، عن ابن إسحاق: وقد ذكر عن بعض آل عبد الله أن عبد الله قسم الفىء بين أهله، فجعل أربعة أخماسه لمن أفاءه، وخمسًا على الله ورسوله، فوقع على ما كان عبد الله بن جحش صنع فى تلك العير.

قال ابن هشام: وهى أول غنيمة غنمها المسلمون، وعمرو بن الحضرمى أول من قتل المسلمون، وعثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان أول من أسر المسلمون، قال ابن إسحاق: فقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى غزوة عبد الله بن جحش، ويقال: بل عبد الله بن جحش قالها حين قالت قريش: قد أحل محمد وأصحابه الشهر الحرام فسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه المال وأسروا فيه الرجال، قال ابن هشام: هى لعبد الله بن جحش:

تعدون قتلا فى الحرام عظيمة وأعظم منه لو يرى الرشد راشد

صدودكم عما يقول محمد ... وكفر به والله راء وشاهد
وإخراجكم من مسجد الله أهله ... لئلا يرى لله فى البيت ساجد
فإنا وإن عيرتمونا بقتله ... وأرجف بالإسلام باغ وحاسد
سقينا من ابن الحضرمى رماحنا ... بنخلة لما أوقد الحرب واقد
دما وابن عبد الله عثمان بيننا ... ينازعه غلّ من القيد عاند

ربع الحزب ٤

﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾

قال الإمام أحمد (١): حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا إسرائيل عن أبى إسحاق عن أبى ميسرة، عن عمر أنه قال: لما نزل تحريم الخمر، قال: اللَّهم بين لنا فى الخمر بيانًا شافيًا، فنزلت هذه الآية التى فى البقرة ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ فدعى عمر، فقرئت عليه فقال: اللَّهم بين لنا فى الخمر بيانًا شافيًا، فنزلت الآية التى فى النساء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء: ٤٣] فكان منادى رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة نادى: أن لا يقربن الصلاة سكران، فدعى عمر، فقرئت عليه فقال: اللَّهم بين لنا فى الخمر بيانًا شافيًا، فنزلت الآية التى فى المائدة، فدعى عمر، فقرئت عليه فلما بلغ ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١] قال عمر: انتهينا انتهينا. هكذا رواه أبو داود والترمذى والنسائى (٢) من طرق عن إسرائيل عن أبى إسحاق، وكذا رواه ابن أبى حاتم (٣) وابن مردويه من طريق الثورى عن أبى إسحاق، عن أبى ميسرة واسمه عمرو بن شرحبيل الهمدانى الكوفى، عن عمر وليس له عنه سواه، لكن قد قال أبو زرعة: لم يسمع منه، والله أعلم. وقال على بن المدينى: هذا إسناد صالح صحيح، وصححه الترمذى، وزاد ابن أبى حاتم بعد قوله انتهينا، إنها تذهب المال وتذهب العقل، وسيأتى هذا الحديث أيضًا مع ما رواه أحمد من طريق أبى هريرة أيضًا عند قوله فى سورة المائدة ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠] الآيات، فقوله ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ أما الخمر، فكما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه: أنه كل ما خامر العقل، كما سيأتى بيانه فى سورة المائدة، وكذا الميسر وهو القمار.

وقوله ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ أما إثمهما فهو فى الدين، وأما المنافع فدنيوية من حيث إن فيها نفع البدن وتهضيم الطعام وإخراج الفضلات وتشحيذ بعض الأذهان ولذة الشدة المطربة التى فيها، كما قال حسان بن ثابت فى جاهليته:

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٣٨٠)، انظر صحيح سنن النسائي (٥٥٤٠).
(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٣٦٧٠)، والترمذي (٣٠٤٩)، والنسائي (٥٥٤٠)، انظر صحيح سنن أبي داود.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٢/ ٣٨٨)، برقم (٢٠٤٤).

ونشربها فتتركنا ملوكًا وأسدًا لا ينهنهنا اللقاء

وكذا بيعها والانتفاع بثمنها، وما كان يقمشه بعضهم من الميسر فينفقه على نفسه أو عياله، ولكن هذه المصالح لا توازى مضرته ومفسدته الراجحة، لتعلقها بالعقل والدين، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾، ولهذا كانت هذه الآية ممهدة لتحريم الخمر على البتات، ولم تكن مصرحة بل معرضة، ولهذا قال عمر رضى الله عنه لما قرئت عليه: اللَّهم بين لنا فى الخمر بيانًا شافيًا، حتى نزل التصريح بتحريمها فى سورة المائدة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١] ويأتى الكلام على ذلك فى سورة المائدة إن شاء الله تعالى وبه الثقة، قال ابن عمر والشعبى ومجاهد وقتادة والربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إن هذه أول آية نزلت فى الخمر ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾، ثم نزلت الآية التى فى سورة النساء، ثم نزلت الآية التى فى المائدة فحرمت الخمر.

قوله ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ قرئ بالنصب وبالرفع وكلاهما حسن متجه قريب. قال ابن أبى حاتم [(١)]: حدثنا أبى، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبان، حدثنا يحيى، أنه بلغه أن معاذ بن جبل وثعلبة أتيا رسول الله ﷺ، فقالا: يا رسول الله، إن لنا أرقاء وأهلين من أموالنا فأنزل الله ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ وقال الحكم عن مقسم عن ابن عباس ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ قال: ما يفضل عن أهلك، كذا روى عن ابن عمر ومجاهد وعطاء وعكرمة وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب والحسن وقتادة والقاسم وسالم وعطاء الخراسانى والربيع بن أنس وغير واحد، أنهم قالوا فى قوله ﴿قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ يعنى الفضل، وعن طاووس: اليسير من كل شىء. وعن الربيع أيضًا: أفضل مالك وأطيبه والكل يرجع إلى الفضل. وقال عبد بن حميد فى تفسيره: حدثنا هوذة بن خليفة، عن عوف، عن الحسن، فى الآية ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ قال، ذلك ألا يجهد مالك ثم تقعد تسأل الناس، ويدل على ذلك ما رواه ابن جرير [(٢)]: حدثنا على بن مسلم، حدثنا أبو عاصم عن ابن عجلان، عن المقبرى، عن أبى هريرة، قال: قال رجل: يا رسول الله، عندى دينار، قال «أنفقه على نفسك» قال: عندى آخر، قال: «أنفقه على أهلك» قال: عندى آخر: قال «أنفقه على ولدك» قال: عندى آخر، قال «فأنت أبصر»، وقد رواه مسلم [(٣)] فى صحيحه وأخرجه مسلم [(٤)] أيضًا عن جابر، أن رسول الله ﷺ قال لرجل «ابدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فضل شىء فلأهلك، فإن فضل شىء عن أهلك فلذى قرابتك، فإن فضل عن ذى قرابتك شىء فهكذا وهكذا». وعنده [(٥)] عن أبى هريرة رضى الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، واليد العليا خير من اليد

---

(١) ضعيف: أخرجه ابن أبي حاتم، (٢/ ٣٨٩)، وإسناده منقطع.

(٢) صحيح: أخرجه ابن جرير (٢/ ٣٦٦)، انظر «المشكاة» (١٩٤٠).

(٣) لم أقف عليه عند مسلم، ولكن أخرجه بسند حسن أبو داود، (١٦١٩)، والنسائي (٢٥٣٥)، وأحمد (٧٣٧١)، انظر صحيح سنن أبي داود.

(٤) أخرجه مسلم (٩٩٧).

(٥) أخرجه مسلم (١٠٤٢).

السفلى، وابدأ بمن تعول» وفى الحديث أيضًا «ابن آدم إنك إن تبذل الفضل خير لك، وإن تمسكه شر لك، ولا تلام على كفاف»[١] ثم قد قيل إنها منسوخة بآية الزكاة، كما رواه على بن أبى طلحة والعوفى عن ابن عباس، وقاله عطاء الخراسانى والسدى، وقيل مبينة بآية الزكاة، قاله مجاهد وغيره، وهو أوجه.

وقوله ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ أى كما فصل لكم هذه الأحكام وبينها وأوضحها كذلك يبين لكم سائر الآيات فى أحكامه ووعده ووعيده، لعلكم تتفكرون فى الدنيا والآخرة. قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: يعنى فى زوال الدنيا وفنائها، وإقبال الآخرة وبقائها. وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا على بن محمد الطنافسى، حدثنا أبو أسامة عن الصعق التميمى، قال: شهدت الحسن وقرأ هذه الآية من البقرة ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ قال: هى والله لمن تفكر فيها ليعلم أن الدنيا دار بلاء ثم دار فناء، وليعلم أن الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء، وهكذا قال قتادة وابن جريج وغيرهما، وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة: لتعلموا فضل الآخرة على الدنيا. وفى رواية عن قتادة: فآثروا الآخرة على الأولى.

وقد ذكرنا عند قوله تعالى: في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] آثارًا كثيرة عن السلف في معنى التفكير والاعتبار.

وقوله ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ الآية، قال ابن جرير[٢]: حدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا جرير عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: لما نزلت ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٣٤] و ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠] انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه، فجعل يفضل له الشىء من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم. وهكذا رواه أبو داود والنسائى وابن أبى حاتم وابن مردويه والحاكم فى مستدركه من طرق عن عطاء بن السائب به. وكذا رواه على بن أبى طلحة عن ابن عباس، وكذا رواه السدى عن أبى مالك وعن أبى صالح، عن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسعود بمثله، وهكذا ذكر غير واحد فى سبب نزول هذه الآية كمجاهد وعطاء والشعبى وابن أبى ليلى وقتادة وغير واحد من السلف والخلف، قال وكيع بن الجراح: حدثنا هشام الدستوائى، عن حماد، عن إبراهيم، قال: قالت عائشة رضى الله عنها: إنى لأكره أن يكون مال اليتيم عندى على حدة، حتى أخلط طعامه بطعامى، وشرابه بشرابى، فقوله ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ أى على حدة، ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ أى وإن خلطتم طعامكم بطعامهم وشرابكم بشرابهم فلا بأس عليكم، لأنهم إخوانكم فى الدين، ولهذا قال ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٣٦)، من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه.

(٢) حسن: أخرجه ابن جرير (٢/ ٣٦٩ -٣٧٠)، وانظر صحيح سنن أبي داود.

﴿ٱلْمُصْلِحِ﴾ أى يعلم من قصده ونيته الإفساد أو الإصلاح، وقوله ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أى ولو شاء الله لضيق عليكم وأحرجكم، ولكنه وسع عليكم، وخفف عنكم، وأباح لكم مخالطتهم بالتى هى أحسن، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[الأنعام: ١٥٢] بل جوز الأكل منه للفقير بالمعروف، إما بشرط ضمان البدل لمن أيسر، أو مجانًا كما سيأتى بيانه فى سورة النساء، إن شاء الله وبه الثقة.

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾

هذا تحريم من الله عز وجل على المؤمنين، أن يتزوجوا المشركات من عبدة الأوثان، ثم إن كان عمومها مرادًا، وأنه يدخل فيها كل مشركة من كتابية ووثنية، فقد خص من ذلك نساء أهل الكتاب بقوله ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾[المائدة: ٥] قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾[البقرة: ٢٢١]: استثنى الله من ذلك نساء أهل الكتاب، وهكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير ومكحول والحسن والضحاك وزيد بن أسلم والربيع بن أنس وغيرهم. وقيل: بل المراد بذلك المشركون من عبدة الأوثان، ولم يرد أهل الكتاب بالكلية، والمعنى قريب من الأول، والله أعلم. فأما ما رواه ابن جرير[(١)]: حدثنى عبيد بن آدم بن أبى إياس العسقلانى، حدثنا أبى، حدثنى عبد الحميد بن بهرام الفزارى، حدثنا شهر بن حوشب، قال: سمعت عبد الله بن عباس يقول: نهى رسول الله ﷺ عن أصناف النساء، إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات وحرم كل ذات دين غير الإسلام.

قال الله عز وجل: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾[المائدة: ٥] وقد نكح طلحة بن عبد الله يهودية، ونكح حذيفة بن اليمان نصرانية، فغضب عمر بن الخطاب غضبًا شديدًا حتى هم أن يسطو عليهما فقالا نحن نطلق يا أمير المؤمنين ولا تغضب فقال: لئن حل طلاقهن لقد حل نكاحهن، ولكنى أنتزعهن منكم صغرة قمأة، فهو حديث غريب جدًا، وهذا الأثر غريب عن عمر أيضًا، قال أبو جعفر بن جرير رحمه الله: بعد حكايته الإجماع على إباحة تزويج الكتابيات، وإنما كره عمر ذلك لئلا يزهد الناس فى المسلمات أو لغير ذلك من المعانى. كما حدثنا أبو كريب[(٢)]، حدثنا ابن إدريس، حدثنا الصلت بن بهرام عن شقيق، قال: تزوج حذيفة يهودية، فكتب إليه عمر: خلّ سبيلها، فكتب إليه: أتزعم أنها حرام، فأخلى سبيلها؟ فقال: لا أزعم أنها حرام، ولكنى أخاف أن تعاطوا المومسات منهن، وهذا إسناد صحيح، وروى الخلال عن محمد بن إسماعيل، عن وكيع، عن الصلت، نحوه،

---

(١) ضعيف: فيه شهر بن حوشب، وهو كثير الإرسال والأوهام، والحديث أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢/ ٣٧٧).

(٢) صحيح: عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٦١٥) إلى عبد الرزاق، وابن جرير (٢/ ٣٧٧).

وقال ابن جرير: حدثني موسى بن عبد الرحمن المسروقي، حدثنا محمد بن بشر، حدثنا سفيان بن سعيد عن يزيد بن أبي زياد، عن زيد بن وهب، قال: قال عمر بن الخطاب: المسلم يتزوج النصرانية، ولا يتزوج النصراني المسلمة، قال: وهذا أصح إسنادًا من الأول[١]، ثم قال: وقد حدثنا تميم بن المنتصر، أخبرنا إسحاق الأزرقي عن شريك، عن أشعث بن سوار، عن الحسن، عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ «نتزوج نساء أهل الكتاب ولا يتزوجون نساءنا» ثم قال: وهذا الخبر وإن كان في إسناده ما فيه، فالقول به لإجماع الجميع من الأمة عليه، كذا قال ابن جرير رحمه الله. وقد قال ابن أبي حاتم[٢]: حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي، حدثنا وكيع عن جعفر بن برقان، عن ميمون بن مهران، عن ابن عمر، أنه كره نكاح أهل الكتاب، وتأول ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾. وقال البخاري[٣]: وقال ابن عمر: لا أعلم شركًا أعظم من أن تقول: ربها عيسى، وقال أبو بكر الخلال الحنبلي: حدثنا محمد بن أبي هارون، حدثنا إسحاق بن إبراهيم وأخبرني محمد بن علي، حدثنا صالح بن أحمد، أنهما سألا أبا عبد الله أحمد بن حنبل عن قول الله ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ قال: مشركات العرب الذين يعبدون الأصنام. وقوله ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾.

قال السدي[٤]: نزلت في عبد الله بن رواحة، كانت له أمة سوداء فغضب عليها فلطمها، ثم فزع فأتى رسول الله ﷺ فأخبره خبرهما، فقال له «ما هي؟» قال: تصوم وتصلي، وتحسن الوضوء، وتشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، فقال «يا أبا عبد الله هذه مؤمنة». فقال: والذي بعثك بالحق لأعتقنها ولأتزوجنها، ففعل، فطعن عليه ناس من المسلمين وقالوا: نكح أمته وكانوا يريدون أن ينكحوا إلى المشركين، وينكحوهم رغبة في أحسابهم، فأنزل الله ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ وقال عبد بن حميد[٥]: حدثنا جعفر بن عون حدثنا عبد الرحمن بن زياد الإفريقي عن عبد الله بن يزيد، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ، قال «لا تنكحوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن، ولا تنكحوهن على أموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن، وأنكحوهن على الدين، فلأمة سوداء خرماء ذات دين أفضل» والإفريقي ضعيف، وقد ثبت في الصحيحين[٦] عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، قال «تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين، تربت يداك» ولمسلم[٧] عن

---

(١) ضعيف: أخرجه ابن جرير (٢/ ٣٧٨)، وفيه أشعث بن سوار، قال الحافظ: ضعيف، وكذلك لم يثبت سماع الحسن من جابر.

(٢) صحيح: أخرجه ابن أبي حاتم (٢/ ٣٩٨)، برقم (٢٠٩٩)، وانظر ما بعده.

(٣) أخرجه البخاري (٥٢٨٥).

(٤) ضعيف: أخرجه الواحدي في «أسباب النزول»، ص (٦٥) من طريق السدي، عن أبي مالك، عن ابن عباس، وهذا إسناد ضعيف.

(٥) ضعيف: أخرجه عبد بن حميد في «مسنده» (١/ ١٣٣)، برقم (٣٢٨)، انظر ضعيف الترغيب والترهيب (١٢٠٩).

(٦) أخرجه البخاري (٥٠٩٠)، ومسلم (١٤٦٦).

(٧) أخرجه مسلم (٧١٥).

جابر مثله، وله[١] عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال «الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة» وقوله: ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟﴾ أى لا تزوجوا الرجال المشركين النساء المؤمنات، كما قال تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾[الممتحنة: ١٠] ثم قال تعالى: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ أى ولرجل مؤمن - ولو كان عبدًا حبشيًا - خير من مشرك، وإن كان رئيسًا سريًا ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أى معاشرتهم ومخالطتهم، تبعث على حب الدنيا واقتنائها وإيثارها على الدار الآخرة، وعاقبة ذلك وخيمة ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ﴾ أى بشرعه وما أمر به وما نهى عنه ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾

قال الإمام أحمد[٢]: حدثنا عبد الرحمن بن مهدى، حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت، عن أنس: أن اليهود كانت إذا حاضت المرأة منهم لم يواكلوها ولم يجامعوها فى البيوت فسأل أصحاب النبى ﷺ، فأنزل الله عز وجل ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ حتى فرغ من الآية، فقال رسول الله ﷺ «اصنعوا كل شىء إلا النكاح» فبلغ ذلك اليهود فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئًا، إلا خالفنا فيه، فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر، فقالا: يا رسول الله، إن اليهود قالت: كذا وكذا، أفلا نجامعهن؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أن قد وجد عليهما، فخرجا فاستقبلهما هدية من لبن إلى رسول الله ﷺ، فأرسل فى آثارهما فسقاهما فعرفا أن لم يجد عليهما، رواه مسلم[٣] من حديث حماد بن زيد بن سلمة، فقوله ﴿فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾ يعنى الفرج، لقوله «اصنعوا كل شىء إلا النكاح» ولهذا ذهب كثير من العلماء أو أكثرهم، إلى أنه يجوز مباشرة الحائض فيما عدا الفرج، قال أبو داود[٤] أيضًا: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد عن أيوب، عن عكرمة، عن بعض أزواج النبى ﷺ، كان إذا أراد من الحائض شيئًا يلقى على فرجها ثوبًا.

وقال أبو داود أيضًا[٥]: حدثنا القعنبى، حدثنا عبد الله يعنى ابن عمر بن غانم، عن عبد الرحمن يعنى ابن زياد، عن عمارة بن غراب أن عمة له حدثته أنها سألت عائشة قالت: إحدانا تحيض وليس لها ولزوجها فراش إلا فراش واحد، قالت: أخبرك بما صنع رسول الله ﷺ، دخل فمضى إلى مسجده، قال أبو داود: تعنى مسجد بيتها فما انصرف حتى غلبتنى عينى فأوجعه البرد فقال «ادنى منى» فقلت: إنى حائض، فقال «اكشفى عن فخذيك» فكشفتُ فخذى، فوضع خده وصدره على فخذى وحنيت

(١) أخرجه مسلم (١٤٦٧).
(٢) صحيح: أخرجه أحمد (١١٩٤٥)، وانظر جلباب المرأة المسلمة، ص (١٦٥).
(٣) أخرجه مسلم (٣٠٢).
(٤) صحيح: أخرجه أبو داود، (٥٧٢)، انظر صحيح سنن أبي داود.
(٥) ضعيف: أخرجه أبو داود (٢٧٠)، انظر ضعيف سنن أبي داود.

عليه حتى دفئ ونام ﷺ ، وقال أبو جعفر بن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا عبد الوهاب، حدثنا أيوب عن كتاب أبى قلابة، أن مسروقًا ركب إلى عائشة فقال: السلام على النبى وعلى أهله، فقالت عائشة: مرحبًا مرحبًا، فأذنوا له فدخل فقال: إنى أريد أن أسألك عن شىء وأنا أستحى، فقالت: إنما أنا أمك وأنت ابنى، فقال: ما للرجل من امرأته وهى حائض؟ فقالت له: كل شىء إلا فرجها. ورواه أيضًا عن حميد بن مسعدة، عن يزيد بن زريع، عن عيينة بن عبد الرحمن بن جوشن، عن مروان الأصفر، عن مسروق قال: قلت لعائشة: ما يحل للرجل من امرأته إذا كانت حائضًا؟ قالت: كل شىء إلا الجماع. وهذا قول ابن عباس ومجاهد والحسن وعكرمة، وروى ابن جرير أيضًا عن أبى كريب عن ابن أبى زائدة، عن حجاج، عن ميمون بن مهران، عن عائشة، قالت له: ما فوق الإزار.

(قُلْتُ) ويحل مضاجعتها ومواكلتها بلا خلاف، قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ، يأمرنى فأتزر وأنا حائض، وكان يتكئ فى حجرى وأنا حائض فيقرأ القرآن [١]. وفى الصحيح [٢] عنها، قالت: كنت أتعرق العرق وأنا حائض فأعطيه النبى ﷺ، فيضع فمه فى الموضع الذى وضعت فمى فيه، وأشرب الشراب فأناوله فيضع فمه فى الموضع الذى كنت أشرب منه، وقال أبو داود [٣]: حدثنا مسدد، حدثنا يحيى عن جابر بن صبيح، سمعت خلاسًا الهجرى قال: سمعت عائشة تقول: كنت أنا ورسول الله ﷺ فى الشعار الواحد وأنا حائض طامث، فإن أصابه منى شىء غسل مكانه لم يعده وإن أصابه - يعنى ثوبه - شىء غسل مكانه لم يعده وصلى فيه، فأما ما رواه أبو داود [٤] حدثنا سعيد بن عبد الجبار، حدثنا عبد العزيز يعنى ابن محمد، عن أبى اليمان، عن أم ذرة، عن عائشة أنها قالت: كنت إذا حضت نزلت عن المثال على الحصير، فلم نقرب رسول الله ﷺ ولم ندن منه حتى نطهر، فهو محمول على التنزه والاحتياط.

وقال آخرون: إنما تحل له مباشرتها فيما عدا ما تحت الإزار، كما ثبت فى الصحيحين [٥] عن ميمونة بنت الحارث الهلالية قالت: كان النبى ﷺ إذا أراد أن يباشر امرأة من نسائه أمرها فاتزرت وهى حائض، وهذا لفظ البخارى، ولهما [٦] عن عائشة نحوه، وروى الإمام أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجه [٧] من حديث العلاء، عن حزام بن حكيم، عن عمه عبد الله بن سعد الأنصارى أنه سأل رسول الله ﷺ: ما يحل لى من امرأتى وهى حائض؟ قال: ما فوق الإزار. ولأبى داود [٨] أيضًا عن معاذ بن جبل، قال: سألت رسول الله ﷺ عما يحل لى من امرأتى وهى حائض؟ قال: ما فوق الإزار

---

(١) أخرجه البخاري، (٢٩٧)، ومسلم (٣٠١).
(٢) أخرجه مسلم، (٣٠٠)، من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٣) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٦٩)، انظر صحيح سنن أبي داود.
(٤) ضعيف: أخرجه أبو داود (٢٧١)، انظر ضعيف سنن أبي داود.
(٥) أخرجه البخاري (٣٠٣)، ومسلم (٢٩٤).
(٦) أخرجه البخاري (٣٠٢)، ومسلم (٢٩٣).
(٧) صحيح: أخرجه أبو داود (٢١٢)، والترمذي (١٣٣)، وابن ماجه، نحوه (٦٥١)، وأحمد (١٨٥٢٨)، وانظر صحيح سنن أبي داود.
(٨) ضعيف: أخرجه أبو داود (٢١٣)، انظر ضعيف سنن أبي داود.

والتعفف عن ذلك أفضل» وهو رواية عن عائشة كما تقدم وابن عباس وسعيد بن المسيب وشريح.

فهذه الأحاديث وما شابهها حجة من ذهب إلى أنه يحل ما فوق الإزار منها، وهو أحد القولين فى مذهب الشافعى رحمه الله، الذى رجحه كثير من العراقيين وغيرهم، ومأخذهم أنه حريم الفرج فهو حرام لئلا يتوصل إلى تعاطى ما حرم الله عز وجل الذى أجمع العلماء على تحريمه وهو المباشرة فى الفرج، ثم من فعل ذلك فقد أثم، فيستغفر الله ويتوب إليه، وهل يلزمه مع ذلك كفارة أم لا؟ فيه قولان: (أحدهما) نعم، لما رواه الإمام أحمد وأهل السنن[1] عن ابن عباس عن النبى ﷺ فى الذى يأتى امرأته وهى حائض، يتصدق بدينار أو نصف دينار، وفى لفظ للترمذى «إذا كان دمًا أحمر فدينار، وإن كان دمًا أصفر فنصف دينار» وللإمام أحمد أيضًا عنه أن رسول الله ﷺ، جعل فى الحائض تصاب دينارًا، فإن أصابها وقد أدبر الدم عنها ولم تغتسل، فنصف دينار. (والقول الثانى) وهو الصحيح الجديد من مذهب الشافعى وقول الجمهور أنه لا شىء فى ذلك، بل يستغفر الله عز وجل لأنه لم يصح عندهم رفع هذا الحديث، فإنه قد روى مرفوعًا كما تقدم، وموقوفًا وهو الصحيح عند كثير من أئمة الحديث، فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ تفسير قوله ﴿فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾ ونهى عن قربانهن بالجماع ما دام الحيض موجودًا، ومفهومه حله إذا انقطع. وقد قال به طائفه من السلف. قال القرطبى: وقال مجاهد وعكرمة وطاوس: الدم يحلها لزوجها ولكن بأن تتوضأ.

قال الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل فيما أملاه فى الطاعة: وقوله ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ﴾ الآية، الطهر يدل على أن يقربها، فلما قالت ميمونة وعائشة: كانت إحدانا إذا حاضت اتزرت ودخلت مع رسول الله ﷺ فى شعاره، دل ذلك على أنه إنما أراد الجماع.

وقوله ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ فيه ندب وإرشاد إلى غشيانهن بعد الاغتسال وذهب ابن حزم إلى وجوب الجماع بعد كل حيضة لقوله ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ وليس له فى ذلك مستند، لأن هذا أمر بعد الحظر. وفيه أقوال لعلماء الأصول منهم من يقول إنه على الوجوب كالمطلق، هؤلاء يحتاجون إلى جواب ابن حزم، ومنهم من يقول: إنه للإباحة، ويجعلون تقدم النهى عليه قرينة صارفة له من الوجوب، وفيه نظر، والذى ينهض عليه الدليل أنه يرد عليه الحكم إلى ما كان عليه الأمر قبل النهى، فإن كان واجبًا، فواجب كقوله ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥] أو مباحًا فمباح كقوله ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟﴾ [المائدة: ٢] ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠] وعلى هذا القول تجتمع الأدلة، وقد حكاه الغزالى وغيره، فاختاره بعض أئمة المتأخرين وهو الصحيح، وقد اتفق العلماء على أن المرأة إذا انقطع حيضها لا تحل حتى تغتسل بالماء أو تتيمم إن تعذر ذلك عليها بشرطه، إلا أن أبا حنيفة رحمه الله يقول، فيما إذا انقطع دمها لأكثر الحيض وهو عشرة أيام عنده: أنها تحل بمجرد الانقطاع ولا تفتقر إلى غسل، والله أعلم، ولا يصح لأقل من ذلك المزيد في حلها من الغسل ويدخل عليها وقت صلاة إلا أن تكون دمثه فيدخل لمجرد انقطاعه والله

(١) صحيح: أخرجه أبو داود، (٢٦٤)، والترمذي (١٣٦)، والنسائي (٣٧٠)، وابن ماجه، (٦٥٠)، وأحمد (٢٠٣٣)، والدارمي (١١٠٧)، وانظر صحيح سنن أبي داود.

أعلم. وقال ابن عباس ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ أى من الدم ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ أى بالماء، وكذا قال مجاهد وعكرمة والحسن ومقاتل بن حيان والليث بن سعد وغيرهم.

وقوله ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: يعنى الفرج. قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ يقول: فى الفرج ولا تعدوه إلى غيره، فمن فعل شيئًا من ذلك فقد اعتدى. وقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ أى تعتزلوهن، وفيه دلالة حينئذ على تحريم الوطء فى الدبر، كما سيأتى تقريره قريبًا إن شاء الله تعالى. وقال أبو رزين وعكرمة والضحاك وغير واحد ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ يعنى طاهرات غير حيّض، ولهذا قال ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ أى من الذنب وإن تكرر غشيانه ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ أى المتنزهين عن الأقذار والأذى، وهو ما نهوا عنه من إتيان الحائض أو فى غير المأتى.

وقوله ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ قال ابن عباس: الحرث موضع الولد ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ أى كيف شئتم، مُقْبلة ومدبرة فى صمام واحد كما ثبتت بذلك الأحاديث قال البخارى [1]: حدثنا أبو نعيم حدثنا سفيان بن المنكدر قال: سمعت جابرًا قال: كانت اليهود تقول: إذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول، فنزلت ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ ورواه مسلم وأبو داود [2] من حديث سفيان الثورى به. وقال ابن أبى حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرنى مالك بن أنس وابن جريج وسفيان بن سعيد الثورى: أن محمد بن المنكدر حدثهم: أن جابر بن عبد الله أخبره أن اليهود قالوا للمسلمين: من أتى امرأة وهى مدبرة جاء الولد أحول، فأنزل الله ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ قال ابن جريج فى الحديث: فقال رسول الله ﷺ «مقبلة ومدبرة إذا كان ذلك فى الفرج» وفى حديث بهز بن حكيم بن معاوية بن حيدة القشيرى، عن أبيه، عن جده، أنه قال: يا رسول الله، نساؤنا ما نأتى منها وما نذر؟ قال «حرثك ائت حرثك أنى شئت، غير أن لا تضرب الوجه، ولا تقبح ولا تهجر إلا فى البيت» الحديث، رواه أحمد وأهل السنن [3].

(حديث آخر) - قال ابن أبى حاتم [4] حدثنا يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرنى ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب، عن عامر بن يحيى، عن حنش بن عبد الله، عن عبد الله بن عباس، قال: أتى ناس من حمير إلى رسول الله ﷺ، فسألوه عن أشياء، فقال له رجل: إنى أحب النساء فكيف ترى فى ذلك؟ فأنزل الله ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ ورواه الإمام أحمد [5]، حدثنا يحيى بن غيلان، حدثنا رشدين، حدثنى الحسن بن ثوبان عن عامر بن يحيى المعافرى عن حنش، عن ابن عباس، قال: أنزلت هذه الآية ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ فى أناس من الأنصار أتوا النبى ﷺ فسألوه، فقال النبى ﷺ «ائتها على كل حال إذا كان فى الفرج».

(١) أخرجه البخاري (٤٥٢٨).

(٢) أخرجه مسلم (١٤٣٥)، وأبو داود (٢١٦٣).

(٣) حسن صحيح: أخرجه أبو داود (٢١٤٣)، وأحمد (١٩٥٤١)، وانظر صحيح سنن أبي داود.

(٤) صحيح: عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٦٢٩)، إلى ابن أبي حاتم (٢/ ٤٠٤)، برقم (٢١٣٠)، ورجاله ثقات، ولا يضر أن بالإسناد ابن لهيعة، فالراوي عنه عبد الله بن وهب عند ابن أبي حاتم، وروايته عنه صحيحة.

(٥) أخرجه أحمد (٢٤١٠)، وفي سنده رشدين بن سعد وهو ضعيف.

(حديث آخر) - قال أبو جعفر الطحاوى فى كتابه مشكل الحديث[١] : حدثنا أحمد بن داود بن موسى، حدثنا يعقوب بن كاسب، حدثنا عبد الله بن نافع عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبى سعيد الخدرى، أن رجلاً أصاب امرأة فى دبرها، فأنكر الناس عليه ذلك، فأنزل الله ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ الآية، ورواه ابن جرير عن يونس، عن يعقوب، ورواه الحافظ أبو يعلى الموصلى عن الحارث بن شريح، عن عبد الله بن نافع به.

(حديث آخر) - قال الإمام أحمد[٢] : حدثنا عفان، حدثنا وهيب، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم عن عبد الله بن سابط، قال: دخلت على حفصة بنت عبد الرحمن بن أبى بكر، فقلت: إنى لسائلك عن أمر وأنا أستحى أن أسألك، قالت: فلا تستحى يا ابن أخى، قال: عن إتيان النساء فى أدبارهن؟ قالت: حدثتنى أم سلمة أن الأنصار كانوا يجبون النساء وكانت اليهود تقول: إنه من جبى امرأته، كان ولده أحول، فلما قدم المهاجرون المدينة نكحوا فى نساء الأنصار فجبوهن، فأبت امرأة أن تطيع زوجها وقالت: لن تفعل ذلك حتى آتى رسول الله ﷺ ، فدخلت على أم سلمة فذكرت لها ذلك، فقالت: اجلسى حتى يأتى رسول الله ﷺ ، فلما جاء رسول الله ﷺ ، استحت الأنصارية أن تسأل رسول الله ﷺ ، فخرجت فسألته أم سلمة، فقال: ادعى «الأنصارية» فدعتها، فتلا عليها هذه الآية ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ «صمامًا واحدًا» . ورواه الترمذى[٣] عن بندار، عن ابن مهدى، عن سفيان، عن أبى خثيم به، وقال حسن.

(قُلْتُ) وقد روى من طريق حماد بن أبى حنيفة عن أبيه، عن ابن خثيم، عن يوسف بن ماهك، عن حفصة أم المؤمنين أن امرأة أتتها، فقالت: إن زوجى يأتينى مجبية ومستقبلة فكرهته، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فقال «لا بأس إذا كان فى صمام واحد» .

(حديث آخر) - قال الإمام أحمد[٤] : حدثنا حسن، حدثنا يعقوب يعنى القمى، عن جعفر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: جاء عمر بن الخطاب إلى رسول الله ﷺ ، فقال: يا رسول الله هلكت، قال ما الذى أهلكك؟ قال: حولت رحلى البارحة، قال، فلم يرد عليه شيئًا. قال: فأوحى الله إلى رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ فقال: «أقبل وأدبر واتق الدبر والحيضة». ورواه الترمذى[٥] عن عبد بن حميد، عن حسن بن موسى الأشيب به، وقال: حسن غريب.

وقال الإمام أحمد رضي الله عنه: حدثنا يحيى بن غيلان حدثنا رشدين حدثني الحسن بن ثوبان عن عامر بن يحيى المعافري عن حنش عن ابن عباس قال: أنزلت هذه الآية ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾[البقرة

---

(١) حسن: أخرجه الطحاوي في «مشكل الآثار» (٣/ ٤٠)، ورجاله ثقات، عدا يعقوب بن كاسب، فهو صدوق يهم.

(٢) أخرجه أحمد (٢٦٠٦١)، ورجاله ثقات عدا عبد الله بن خثيم: صدوق.

(٣) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٩٧٩)، انظر صحيح جامع الترمذي.

(٤) حسن: أخرجه أحمد (٢٦٩٨)، انظر آداب الزفاف، ص (٣١).

(٥) حسن: أخرجه الترمذي (٢٩٨٠)، انظر صحيح جامع الترمذي.

:٢٢٣] في أناس من الأنصار أتوا النبي ﷺ فسألوه فقال النبي ﷺ: «ائتها على كل حال إذا كان في الفرج».

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا الحارث بن شريح، حدثنا عبد الله بن نافع، حدثنا هشام بن سعد عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد، قال: أتفر رجل امرأته على عهد رسول الله ﷺ فقالوا: أتفر فلان امرأته، فأنزل الله عز وجل: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾. قال أبو داود [١]: حدثنا عبد العزيز بن يحيى أبو الأصبغ، قال: حدثني محمد يعني ابن سلمة، عن محمد بن إسحاق، عن أبان بن صالح، عن مجاهد عن ابن عباس، قال: إن ابن عمر قال - والله يغفر له - أوهم وإنما كان هذا الحي من الأنصار، وهم أهل وثن مع هذا الحي من يهود، وهم أهل كتاب، وكانوا يرون لهم فضلاً عليهم في العلم، فكانوا يقتدون كثيرًا من فعلهم، وكان من أمر أهل الكتاب لا يأتون النساء إلا على حرف وذلك أستر ما تكون المرأة، فكان هذا الحي من الأنصار قد أخذوا بذلك من فعلهم، وكان هذا الحي من قريش يشرحون النساء شرحًا منكرًا، ويتلذذون بهن مقبلات ومدبرات ومستلقيات، فلما قدم المهاجرون المدينة، تزوج رجل منهم امرأة من الأنصار، فذهب يصنع بها ذلك، فأنكرته عليه، وقالت: إنما كنا نؤتى على حرف، فاصنع ذلك، وإلا فاجتنبني، فسرى أمرهما فبلغ رسول الله ﷺ، فأنزل الله ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ أي مقبلات ومدبرات ومستلقيات يعني بذلك موضع الولد، تفرد به أبو داود، ويشهد له بالصحة ما تقدم له من الأحاديث ولا سيما رواية أم سلمة، فإنها مشابهة لهذا السياق، وقد روى هذا الحديث الحافظ أبو القاسم الطبراني [٢] من طريق محمد بن إسحاق، عن أبان بن صالح، عن مجاهد، قال، عرضت المصحف على ابن عباس من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كل آية منه، وأسأله عنها، حتى انتهيت إلى هذه الآية ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ فقال ابن عباس: إن هذا الحي من قريش كانوا يشرحون النساء بمكة ويتلذذون بهن، فذكر القصة بتمام سياقها، وقول ابن عباس إن ابن عمر - والله يغفر له - أوهم، كأنه يشير إلى ما رواه البخاري [٣]: حدثنا إسحاق حدثنا النضر بن شميل، أخبرنا ابن عون عن نافع، قال، كان ابن عمر إذا قرأ القرآن لم يتكلم حتى يفرغ منه، فأخذت عنه يومًا فقرأ سورة البقرة حتى انتهى إلى مكان قال: أتدري فيم أنزلت؟ قلت: لا. قال: أنزلت في كذا وكذا، ثم مضى، وعن عبد الصمد قال، حدثني أبي، حدثنا أيوب عن نافع، عن ابن عمر ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ قال: أن يأتيها في... هكذا رواه البخاري، وقد تفرد به من هذا الوجه.

وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عون عن نافع، قال قرأت ذات يوم ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ فقال ابن عمر أتدري فيم نزلت؟ قلت: لا. قال: نزلت في إتيان النساء في أدبارهن. وحدثني أبو قلابة. حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث، حدثني أبي عن أيوب، عن نافع،

---

(١) حسن: أخرجه أبو داود، (٢١٦٤)، انظر صحيح سنن أبي داود.

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١١/ ٧٧)، برقم (١١٠٩٧)، وقد صرح ابن إسحاق بالسماع في رواية الحاكم وغيرها وانتفى تدليسه.

(٣) أخرجه البخاري (٤٥٢٧)، والرواية التي بعدها أخرجها ابن جرير (٢/ ٣٩٤).

عن ابن عمر ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ قال: فى الدبر. وروى من حديث مالك عن نافع عن ابن عمر ولا يصح. وروى النسائى [١] عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، عن أبى بكر بن أبى أويس، عن سليمان بن بلال، عن زيد بن أسلم، عن ابن عمر، أن رجلاً أتى امرأته فى دبرها فوجد فى نفسه من ذلك وجدًا شديدًا، فأنزل الله ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾.

قال أبو حاتم الرازى، لو كان هذا عند زيد بن أسلم عن ابن عمر، لما أولع الناس بنافع، وهذا تعليل منه لهذا الحديث. وقد رواه عبد الله بن نافع عن داود بن قيس، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن ابن عمر، فذكره، وهذا الحديث محمول على ما تقدم وهو أنه يأتيها فى قبلها من دبرها، لما رواه النسائى عن على بن عثمان النفيلى عن سعيد بن عيسى، عن الفضل بن فضالة عن عبد الله بن سليمان الطويل، عن كعب بن علقمة، عن أبى النضر، أنه أخبره أنه قال لنافع مولى ابن عمر، أنه قد أكثر عليك القول، أنك تقول عن ابن عمر أنه أفتى أن تؤتى النساء فى أدبارهن، قال: كذبوا على، ولكن سأحدثك كيف كان الأمر، إن ابن عمر عرض المصحف يومًا وأنا عنده حتى بلغ ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ فقال: يا نافع، هل تعلم من أمر هذه الآية؟ قلت: لا. قال، إنا كنا معشر قريش نجبى النساء، فلما دخلنا المدينة ونكحنا نساء الأنصار أردن منها مثل ما كنا نريد، فإذا هن قد تكرهن ذلك وأعظمنه وكانت نساء الأنصار قد أخذن بحال اليهود إنما يؤتين على جنوبهن، فأنزل الله ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ وهذا إسناد صحيح، وقد رواه ابن مردويه عن الطبرانى، عن الحسين بن إسحاق، عن زكريا بن يحيى الكاتب العمرى، عن مفضل بن فضالة، عن عبد الله بن عياش، عن كعب بن علقمة، فذكره، وقد روينا عن ابن عمر خلاف ذلك صريحًا، وأنه لا يباح ولا يحل كما سيأتى، وإن كان قد نسب هذا القول إلى طائفة من فقهاء المدينة وغيرهم، وعزاه بعضهم إلى الإمام مالك فى كتاب السر، وأكثر الناس ينكر أن يصح ذلك عن الإمام مالك رحمه الله. وقد وردت الأحاديث المروية من طرق متعددة بالزجر عن فعله وتعاطيه، فقال الحسن بن عرفة: حدثنا إسماعيل بن عياش عن سهيل بن أبى صالح، عن محمد بن المنكدر، عن جابر، قال: قال رسول الله ﷺ «استحيوا إن الله لا يستحيى من الحق، لا يحل أن تأتوا النساء فى حشوشهن» [٢]. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان عن عبد الله بن شداد، عن خزيمة بن ثابت، أن رسول الله ﷺ نهى أن يأتى الرجل امرأته فى دبرها.

(طريق أخرى) قال أحمد: حدثنا يعقوب، سمعت أبى يحدث عن يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهاد، أن عبيد الله بن الحصين الوالبى حدثه أن عبد الله الواقفى، حدثه أن خزيمة بن ثابت الخطمى،

---

(١) أخرجه النسائي في «الكبرى» (٥/ ٣١٥)، برقم (٨٩٧٨)، وقد صحح إسناده الحافظ ابن كثير، وهذا الذي ينبغي أن يحمل عليه ما تقدم من كلام ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) صحيح: أخرجه الدارقطني (٣/ ٢٨٨)، برقم (١٦٠)، من طريق الحسن بن عرفة، وفيه إسماعيل بن عياش الحمصي: صدوق في روايته عن أهل بلده، ولكن شيخه في هذه الرواية (سهيل): مدني، فالإسناد ضعيف، لكن يشهد له الرواية التي بعده من حديث خزيمة بن ثابت، أخرجه النسائي في «الكبرى» (٥/ ٣١٦)، برقم (٨٩٨٢)، وابن ماجه، (١٩٢٤)، وأحمد (٢١٣٥٨)، وفيه هرمي بن عبد الله: مستور، إلا أن له متابعات فقد أخرجه أحمد (٢١٣٥١)، والنسائي في «الكبرى» من طرق عن خزيمة.

حدثه أن رسول الله ﷺ ، قال «استحيوا إن الله لا يستحيى من الحق لا تأتوا النساء فى أعجازهن» رواه النسائى وابن ماجه من طرق عن خزيمة بن ثابت وفى إسناده اختلاف كثير.

(حديث آخر) قال أبو عيسى الترمذى والنسائى [١]: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد الأحمر عن الضحاك بن عثمان، عن مخرمة بن سليمان عن كريب، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ «لا ينظر الله إلى رجل أتى رجلًا أو امرأة فى الدبر» ثم قال الترمذى: هذا حديث حسن غريب، وهكذا أخرجه ابن حبان فى صحيحه، وصححه ابن حزم أيضًا، ولكن رواه النسائى أيضًا عن هناد، عن وكيع، عن الضحاك به موقوفًا. وقال عبد الله: أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر عن ابن طاووس، عن أبيه، أن رجلًا سأل ابن عباس عن إتيان المرأة فى دبرها، قال: تسألنى عن الكفر، إسناده صحيح، وكذا رواه النسائى من طريق ابن المبارك عن عكرمة به نحوه، وقال عبد أيضًا فى تفسيره: حدثنا إبراهيم بن الحاكم عن أبيه عن عكرمة، قال، جاء رجل إلى ابن عباس وقال: كنت آتى أهلى فى دبرها، وسمعت قول الله ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ فظننت أن ذلك لى حلال، فقال: يا لكع إنما قوله: ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ قائمة وقاعدة ومقبلة ومدبرة فى أقبالهن لا تعدوا ذلك إلى غيره.

(حديث آخر) قال الإمام أحمد [٢]: حدثنا عبد الصمد، حدثنا همام حدثنا قتادة عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أن النبى ﷺ ، قال: «الذى يأتى امرأته فى دبرها هى اللوطية الصغرى» وقال عبد الله بن أحمد: حدثنى هدبة، حدثنا همام، قال: سئل قتادة عن الذى يأتى امرأته فى دبرها، فقال قتادة: أخبرنا عمرو بن شعيب عن أبيه، عن جده، أن النبى ﷺ ، قال: «هى اللوطية الصغرى». قال قتادة: وحدثنى عقبة بن وساج عن أبى الدرداء قال وهل يفعل ذلك إلا كافر وقد روى هذا الحديث يحيى بن سعيد القطان عن سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة، عن أبى أيوب، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قوله، وهذا أصح، والله أعلم. وكذلك رواه عبد بن حميد عن يزيد بن هارون، عن حميد الأعرج، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو موقوفًا من قوله [٣].

(طريق أخرى) قال جعفر الفريابى: حدثنا قتيبة حدثنا ابن لهيعة عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، عن أبى عبد الرحمن الحبلى، عن عبد الله بن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ «سبعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم، ويقول ادخلوا النار مع الداخلين: الفاعل، والمفعول به، والناكح يده، وناكح البهيمة، وناكح المرأة فى دبرها، وجامع بين المرأة وابنتها، والزانى بحليلة جاره، ومؤذى جاره حتى يلعنه» ابن لهيعة وشيخه ضعيفان.

(حديث آخر) قال الإمام أحمد [٤]: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا سفيان عن عاصم، عن عيسى بن

---

(١) حسن: أخرجه الترمذي (١١٦٦)، والنسائي في «الكبرى» (٥/ ٣٢٠)، برقم (٩٠٠١)، وابن حبان، (١٠/ ٢٦٦)، برقم (٤٤١٨)، وانظر «المشكاة» (٣١٩٥).

(٢) حسن: أخرجه أحمد (٦٩٢٨)، انظر صحيح الترغيب والترهيب، (٢٤٢٥).

(٣) ضعيف: أخرجه الديلمي في «الفردوس»، (٢/ ٣٣٢)، برقم (٣٤٩٧)، من حديث أنس وابن عمرو رضي الله عنهم، وانظر السلسلة الضعيفة (٣١٩).

(٤) حسن لغيره: في إسناده عيسى بن حطان، وشيخه مسلم بن سلام، كلاهما قال عنه الحافظ: مقبول.
قلت: يشهد له الروايات المذكورة في الباب.

حطان، عن مسلم بن سلام، عن على بن طلق، قال: نهى رسول الله ﷺ أن تؤتى النساء فى أدبارهن، فإن الله لا يستحيى من الحق، وأخرجه أحمد أيضًا عن أبى معاوية وأبو عيسى الترمذى من طريق أبى معاوية أيضًا، عن عاصم الأحول به، وفيه زيادة، وقال: هو حديث حسن، ومن الناس من يورد هذا الحديث فى مسند على بن أبى طالب كما وقع فى مسند الإمام أحمد بن حنبل، والصحيح أنه على بن طلق.

(حديث آخر) قال الإمام أحمد[١]: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر عن سهيل بن أبى صالح، عن الحارث بن مخلد، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ، قال «إن الذى يأتى امرأته فى دبرها لا ينظر الله إليه». وقال أحمد[٢] أيضًا حدثنا عفان، حدثنا وهيب، حدثنا سهيل عن الحارث بن مخلد، عن أبى هريرة يرفعه، قال رسول الله ﷺ «لا ينظر الله إلى رجل جامع امرأته فى دبرها»، وكذا رواه ابن ماجه من طريق سهيل وقال أحمد[٣] أيضًا: حدثنا وكيع عن سهيل بن أبى صالح. عن الحارث بن مخلد، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ «ملعون من أتى امرأته فى دبرها»، وهكذا رواه أبو داود[٤] والنسائى من طريق وكيع به.

(طريق أخرى) قال الحافظ أبو نعيم الأصبهانى: أخبرنا أحمد بن القاسم بن الريان، حدثنا أبو عبد الرحمن النسائى، حدثنا هناد ومحمد بن إسماعيل واللفظ له، قالا: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان عن سهيل بن أبى صالح، عن أبيه، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ «ملعون من أتى امرأة فى دبرها» ليس هذا الحديث هكذا فى سنن النسائى، وإنما الذى فيه عن سهيل عن الحارث بن مخلد كما تقدم، قال شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبى: ورواية أحمد بن القاسم بن الريان هذا الحديث بهذا السند، وهم منه وقد ضعفوه.

(طريق أخرى) - رواها مسلم بن خالد الزنجى عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ، قال «ملعون من أتى النساء فى أدبارهن» ومسلم بن خالد فيه كلام، والله أعلم.

(طريق أخرى) - رواها الإمام أحمد وأهل السنن[٥] من حديث حماد بن سلمة عن حكيم الأثرم، عن أبى تميمة الهجيمى، عن أبى هريرة، أن رسول الله ﷺ، قال «من أتى حائضًا أو امرأة فى دبرها أو كاهنًا فصدقه، فقد كفر بما أنزل على محمد» وقال الترمذى: ضعف البخارى هذا الحديث، والذى قاله البخارى فى حديث الترمذى عن أبى تميمة: لا يتابع على حديثه.

(طريق أخرى) - قال النسائى[٦]: حدثنا عثمان بن عبد الله، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن من كتابه عن عبد الملك بن محمد الصنعانى، عن سعيد بن عبد العزيز، عن الزهرى، عن أبى سلمة

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٧٦٢٧)، وانظر «المشكاة» (٣١٩٤).
(٢) صحيح: أخرجه أحمد (٨٣٢٧)، وانظر صحيح الجامع (٧٨٠٢).
(٣) صحيح: أخرجه أحمد (٩٤٤٠)، وانظر صحيح الجامع (٥٨٨٩).
(٤) حسن: أخرجه أبو داود (٢١٦٢)، والنسائي في «الكبرى»، (٥/ ٣٢٣)، برقم (٩٠١٥)، انظر صحيح سنن أبي داود.
(٥) صحيح: أخرجه أبو داود، (٣٩٠٤)، والترمذي (١٣٥)، وابن ماجه (٦٣٩)، وأحمد (٩٠٣٥)، والدارمي (١١٣٦)، وانظر صحيح الترغيب والترهيب (٢٤٣٣).
(٦) ضعيف: من حديث أبي هريرة، لكن الحديث صحيح عن غيره.

رضى الله عنه، عن أبى هريرة عن النبى ﷺ ، قال «استحيوا من الله حق الحياء لا تأتوا النساء فى أدبارهن» تفرد به النسائى من هذا الوجه. قال حمزة بن محمد الكنانى الحافظ: هذا حديث منكر باطل من حديث الزهرى ومن حديث أبى سلمة ومن حديث سعيد فإن كان عبد الملك سمعه من سعيد، فإنما سمعه بعد الاختلاط، وقد رواه الترمذى عن أبى سلمة أنه كان ينهى عن ذلك، فأما عن أبى هريرة عن النبى ﷺ ، فلا، انتهى كلامه، وقد أجاد وأحسن الانتقاد، إلا أن عبد الملك بن محمد الصنعانى لا يعرف أنه اختلط، ولم يذكر ذلك أحد غير حمزة عن الكنانى وهو ثقة، ولكن تكلم فيه دحيم وأبو حاتم وابن حبان، وقال: لا يجوز الاحتجاج به، والله أعلم. وقد تابعه زيد بن يحيى بن عبيد عن سعيد بن عبد العزيز. وروى من طريقين آخرين عن أبى سلمة، ولا يصح منها شىء.

(طريق أخرى) - قال النسائى: حدثنا إسحاق بن منصور، حدثنا عبد الرحمن بن مهدى، عن سفيان الثورى، عن ليث بن أبى سليم، عن مجاهد، عن أبى هريرة، قال: إتيان الرجال النساء فى أدبارهن كفر، ثم رواه عن بندار عن عبد الرحمن به قال: من أتى امرأة فى دبرها فتلك كفر هكذا رواه النسائى من طريق الثورى عن ليث، عن مجاهد، عن أبى هريرة موقوفًا، وكذا رواه من طريق على بن بذيمة عن مجاهد، عن أبى هريرة موقوفًا، ورواه بكر بن خنيس عن ليث، عن مجاهد، عن أبى هريرة عن النبى ﷺ ، قال: «من أتى شيئًا من الرجال والنساء فى الأدبار فقد كفر» والموقف أصح، وبكر بن خنيس ضعفه غير واحد من الأئمة، وتركه آخرون.

(حديث آخر) - قال محمد بن أبان البلخى: حدثنا وكيع، حدثنى زمعة بن صالح عن ابن طاووس، عن أبيه، وعن عمرو بن دينار، عن عبد الله بن يزيد بن الهاد، قالا: قال عمر بن الخطاب: قال رسول الله ﷺ «إن الله لا يستحيى من الحق، لا تأتوا النساء فى أدبارهن» وقد رواه النسائى، حدثنا سعيد بن يعقوب الطالقانى عن عثمان بن اليمان عن زمعة بن صالح، عن ابن طاووس عن أبيه، عن ابن الهاد، عن عمر، قال: لا تأتوا النساء فى أدبارهن وحدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا يزيد بن أبى حكيم عن زمعة بن صالح، عن عمرو بن دينار، عن طاووس، عن عبد الله بن الهاد الليثى، قال: قال عمر رضى الله عنه: استحيوا من الله فإن الله لا يستحيى من الحق، لا تأتوا النساء فى أدبارهن، والموقوف أصح.

(حديث آخر) - قال الإمام أحمد[1]: حدثنا غندر ومعاذ بن معاذ، قالا: حدثنا شعبة عن عاصم الأحول عن عيسى بن حطان، عن مسلم بن سلام، عن طلق بن يزيد أو يزيد بن طلق، عن النبى ﷺ قال «إن الله لا يستحيى من الحق، لا تأتوا النساء فى أستاههن» وكذا رواه غير واحد عن شعبة، ورواه عبد الرزاق عن معمر، عن عاصم الأحول، عن عيسى بن حطان، عن مسلم بن سلام، عن طلق بن على، والأشبه أنه على بن طلق كما تقدم، والله أعلم.

(حديث آخر) - قال أبو بكر الأثرم فى سننه: حدثنا أبو مسلم الجرمى، حدثنا أخو أنيس بن إبراهيم، أن أباه إبراهيم بن عبد الرحمن بن القعقاع أخبره عن أبيه أبى القعقاع، عن ابن مسعود عن

---

(١) ضعيف: أخرجه الترمذي (١١٦٤)، انظر ضعيف جامع الترمذي.

النبى ﷺ ، قال «محاش النساء حرام» [١] وقد رواه إسماعيل بن علية وسفيان الثورى وشعبة وغيرهم عن أبى عبد الله الشقرى واسمه سلمة بن تمام ثقة ، عن أبى القعقاع عن ابن مسعود موقوفًا وهو أصح .

(طريق أخرى) - قال ابن عدى [٢] : حدثنا أبو عبد الله المحاملى ، حدثنا سعيد بن يحيى الأموى ، حدثنا محمد بن حمزة ، عن زيد بن رفيع ، عن أبى عبيدة ، عن عبد الله ، قال : قال رسول الله ﷺ «لا تأتوا النساء فى أعجازهن» محمد بن حمزة هو الجزرى وشيخه فيهما مقال . وقد روى من حديث أبى بن كعب والبراء بن عازب وعقبة بن عامر وأبى ذر وغيرهم ، وفى كل منها مقال لا يصح معه الحديث ، والله أعلم . وقال الثورى ، عن الصلت بن بهرام ، عن أبى المعتمر ، عن أبى جويرية ، قال : سأل رجل عليًا عن إتيان المرأة فى دبرها ، فقال : سفلت ، سفل الله بك ، ألم تسمع قول الله عز وجل : ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف : ٨٠] .

وقد تقدم قول ابن مسعود وأبى الدرداء وأبى هريرة وابن عباس وعبد الله بن عمرو فى تحريم ذلك وهو الثابت بلا شك عن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما أنه يحرمه . قال أبو محمد عبد الرحمن بن عبد الله الدارمى فى مسنده [٣] : حدثنا عبد الله بن صالح ، حدثنا الليث عن الحارث بن يعقوب ، عن سعيد بن يسار أبى الحباب ، قال : قلت : لابن عمر : ما تقول فى الجوارى أيحمض لهن؟ قال : وما التحميض؟ فذكر الدبر ، فقال : وهل يفعل ذلك أحد من المسلمين؟ وكذا رواه ابن وهب وقتيبة عن الليث به وهذا إسناد صحيح ونص صريح منه بتحريم ذلك . فكل ما ورد عنه مما يحتمل ويحتمل فهو مردود إلى هذا الحكم .

قال ابن جرير [٤] : حدثنى عبد الرحمن بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم ، حدثنا أبو زيد أحمد بن عبد الرحمن بن أحمد بن أبى الغمر ، حدثنى عبد الرحمن بن القاسم عن مالك بن أنس ، أنه قيل له : يا أبا عبد الله ، إن الناس يروون عن سالم بن عبد الله أنه قال : كذب العبد أو العلج على أبى عبد الله قال مالك أشهد على يزيد بن رومان أنه أخبرنى عن سالم بن عبد الله عن ابن عمر مثل ما قال نافع . فقيل له فإن الحارث بن يعقوب يروى عن أبى الحباب سعيد بن يسار أنه سأل ابن عمر فقال له يا أبا عبد الرحمن إنا نشترى الجوارى أفنحمض لهن؟ فقال وما التحميض؟ فذكر له الدبر ، فقال : ابن عمر : أف أف! وهل يفعل ذلك مؤمن ، أو قال مسلم؟ فقال مالك : أشهد على ربيعة لأخبرنى عن أبى الحباب عن ابن عمر مثل ما قال نافع . وروى النسائى [٥] عن الربيع بن سليمان ، عن

---

(١) حسن لغيره : المرفوع عزاه للأثرم فى سننه ، وأخرجه الدولابي في «الكنى» (٢/ ٨٥) ، والموقوف أخرجه ابن أبي شيبة (٣/ ٥٣٠) ، برقم (١٦٨٠٧) ، والبيهقي في «الكبرى» (٧/ ١٩٩) ، برقم (١٣٩٠٧) .
وكلا المرفوع والموقوف ضعيف لجهالة أبي القعقاع الجرمي لكن يشهد لمعنى الحديث حديث سمرة بن جندب .
عزاه الحافظ في «المطالب العالية» (١٦٣١) إلى مسند الحارث بن أبي أسامة وفيه الخليل بن زكريا وهو ضعيف .
ويشهد لمعناه أيضًا الأحاديث المذكورة في الباب .

(٢) أخرجه ابن عدي في «الكامل» ، (٣/ ٢٠٥) قال الحافظ في «التلخيص» (٣/ ١٨١) ، وإسناده واهٍ ويشهد للحديث ما تقدم من الروايات السابقة .

(٣) صحيح : أخرجه الدارمي (١١٤٣) .

(٤) أخرجه ابن جرير (٢/ ٣٩٤) ، من حديث أنس بن مالك .

(٥) صحيح : أخرجه النسائي في «الكبرى» (٥/ ٣١٥) ، برقم (٨٩٧٩) .

أصبغ بن الفرج الفقيه، حدثنا عبد الرحمن بن القاسم، قال: قلت لمالك: إن عندنا بمصر الليث بن سعد يحدث عن الحارث بن يعقوب عن سعيد بن يسار قال: قلت لابن عمر إنا نشترى الجوارى أفنحمض لهن؟ قال: وما التحميض؟ قلت: نأتيهن فى أدبارهن فقال أف أف أو يعمل هذا مسلم؟ فقال لى مالك فأشهد على ربيعة لحدثنى عن سعيد بن يسار، أنه سأل ابن عمر، فقال: لا بأس به. وروى النسائى أيضًا من طريق يزيد بن رومان، عن عبيد الله بن عبد الله: أن ابن عمر كان لا يرى بأسًا أن يأتى الرجل المرأة فى دبرها. وروى معن بن عيسى عن مالك أن ذلك حرام.

وقال أبو بكر بن زياد النيسابورى: حدثنى إسماعيل بن حسين، حدثنى إسرائيل بن روح، سألت مالك بن أنس: ما تقول فى إتيان النساء فى أدبارهن؟ قال: ما أنتم إلا قوم عرب، هل يكون الحرث إلا موضع الزرع، لا تعدوا الفرج، قلت: يا أبا عبد الله، إنهم يقولون إنك تقول ذلك. قال: يكذبون على يكذبون على، فهذا هو الثابت عنه، وهو قول أبى حنيفة والشافعى وأحمد بن حنبل وأصحابهم قاطبة، وهو قول سعيد بن المسيب وأبى سلمة وعكرمة وطاووس وعطاء وسعيد بن جبير وعروة بن الزبير ومجاهد بن جبر والحسن وغيرهم من السلف، أنهم أنكروا ذلك أشد الإنكار، ومنهم من يطلق على فعله الكفر وهو مذهب جمهور العلماء، وقد حكى فى هذا شىء عن بعض فقهاء المدينة حتى حكوه عن الإمام مالك، وفى صحته نظر، قال الطحاوى: روى أصبغ بن الفرج عن عبد الرحمن بن القاسم، قال: ما أدركت أحدًا أقتدى به فى دينى يشك أنه حلال، يعنى وطء المرأة فى دبرها، ثم قرأ ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ ثم قال: فأى شىء أبين من هذا؟ هذه حكاية الطحاوى، وقد روى الحاكم والدارقطنى والخطيب البغدادى عن الإمام مالك من طرق ما يقتضى إباحة ذلك، ولكن فى الأسانيد ضعف شديد، وقد استقصاها شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبى فى جزء جمعه فى ذلك، والله أعلم.

وقال الطحاوى: حكى لنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، أنه سمع الشافعى يقول: ما صح عن النبى ﷺ فى تحليله ولا تحريمه شىء والقياس أنه حلال وقد روى ذلك أبو بكر الخطيب عن أبى سعيد الصيرفى عن أبى العباس الأصم سمعت محمد بن عبد الله بن عبد الحكم سمعت الشافعى يقول، فذكره، قال أبو نصر الصباغ: كان الربيع يحلف بالله الذى لا إله إلا هو، لقد كذب - يعنى ابن عبد الحكم - على الشافعى فى ذلك، لأن الشافعى نص على تحريمه فى ستة كتب من كتبه، والله أعلم.

وقوله ﴿وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ﴾ أى من فعل الطاعات مع امتثال ما أنهاكم عنه من ترك المحرمات، ولهذا قال ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ﴾ أى فيحاسبكم على أعمالكم جميعها ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أى المطيعين لله فيما أمرهم، التاركين ما عنه زجرهم. وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنى محمد بن كثير عن عبد الله بن واقد، عن عطاء، قال: أراه عن ابن عباس ﴿وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ﴾ قال: تقول بسم الله التسمية عند الجماع، وقد ثبت فى صحيح البخارى[1] عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتى أهله، قال: باسم الله، اللَّهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد فى ذلك، لن يضره الشيطان أبدًا».

(١) أخرجه البخاري (١٤١).

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾

يقول تعالى: لا تجعلوا أيمانكم بالله تعالى مانعة لكم من البر وصلة الرحم إذا حلفتم على تركها، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢] فالاستمرار على اليمين آثم لصاحبها من الخروج منها بالتكفير، كما قال البخاري [١]: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر عن همام بن منبه، قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة عن النبي ﷺ قال «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة» وقال رسول ﷺ «والله لأن يلجّ أحدكم بيمينه في أهله آثم له عند الله من أن يعطى كفارته التي افترض الله عليه» وهكذا رواه مسلم [٢] عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق به، ورواه أحمد عنه به، ثم قال البخاري [٣]: حدثنا إسحاق بن منصور، حدثنا يحيى بن صالح، حدثنا معاوية هو ابن سلام، عن يحيى وهو ابن أبي كثير، عن عكرمة عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ «من استلجّ في أهله بيمين فهو أعظم إثمًا، ليس تغني الكفارة» وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ قال: لا تجعلن عرضة ليمينك أن لا تصنع الخير، ولكن كفر عن يمينك واصنع الخير، وكذا قال مسروق والشعبي وإبراهيم النخعي ومجاهد وطاووس وسعيد بن جبير وعطاء وعكرمة ومكحول والزهري والحسن وقتادة ومقاتل بن حيان والربيع بن أنس والضحاك وعطاء الخراساني والسدي رحمهم الله، ويؤيد ما قاله هؤلاء الجمهور ما ثبت في الصحيحين [٤] عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إني والله إن شاء الله، لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرًا منها إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها» وثبت فيهما [٥] أيضًا أن رسول الله ﷺ، قال لعبد الرحمن بن سمرة «يا عبد الرحمن بن سمرة، لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها، وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرًا منها فأت الذي هو خير، وكفر عن يمينك» وروى مسلم [٦] عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ، قال «من حلف على يمين فرأى غيرها خيرًا منها فليكفر عن يمينه، وليفعل الذي هو خير» وقال الإمام أحمد [٧]: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا خليفة بن خياط، حدثني عمرو بن شعيب عن أبيه، عن جده، أن رسول الله ﷺ، قال «من حلف على يمين فرأى غيرها خيرًا منها، فتركها كفارتها» ورواه أبو داود [٨] من طريق أبي عبيد الله بن الأخنس عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، قال: قال رسول الله ﷺ «ولا نذر ولا يمين فيما لا يملك ابن آدم، ولا في معصية الله، ولا في قطيعة رحم، ومن

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٢٤).
(٢) أخرجه مسلم (١٦٥٥).
(٣) البخاري (٦٦٢٦).
(٤) البخاري (٣١٣٣)، ومسلم (١٦٤٩).
(٥) البخاري (٦٦٢٢)، ومسلم (١٦٥٢) من حديث عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه.
(٦) مسلم: (١٦٥٠).
(٧) أحمد (٦٦٩٧).
(٨) حسن: دون قوله (ومن حلف على يمين فرأى غيرها. . .إلخ) أبو داود (٣٢٧٤)، انظر صحيح سنن أبي داود.

حلف على يمين فرأى غيرها خيرًا منها فليدعها وليأت الذى هو خير، فإن تركها كفارتها» ثم قال أبو داود: والأحاديث عن النبى ﷺ كلها «فليكفر عن يمينه» وهى الصحاح.

وقال ابن جرير [(١)]: حدثنا على بن سعيد الكندى، حدثنا على بن مسهر عن حارثة بن محمد، عن عمرة، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ «من حلف على يمين قطيعة رحم ومعصية فبره أن يحنث فيها ويرجع عن يمينه» وهذا حديث ضعيف لأن حارثة هذا هو ابن أبى الرجال محمد بن عبد الرحمن متروك الحديث ضعيف عند الجميع، ثم روى ابن جرير عن ابن عباس وسعيد بن المسيب ومسروق والشعبى أنهم قالوا: لا يمين فى معصية ولا كفارة عليها.

وقوله: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾ أى لا يعاقبكم ولا يلزمكم بما صدر منكم من الأيمان اللاغية، وهى التى لا يقصدها الحالف بل تجرى على لسانه عادة من غير تعقيد ولا تأكيد، كما ثبت فى الصحيحين [(٢)] من حديث الزهرى عن حميد بن عبد الرحمن عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال: «من حلف فقال فى حلفه باللات والعزى، فليقل لا إله إلا الله» فهذا قاله لقوم حديثى عهد بجاهلية، قد أسلموا وألسنتهم قد ألفت ما كانت عليه من الحلف باللات من غير قصد، فأمروا أن يتلفظوا بكلمة الإخلاص كما تلفظوا بتلك الكلمة من غير قصد لتكون هذه بهذه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ الآية، وفى الآية الأخرى ﴿بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ﴾ [المائدة: ٨٩].

قال أبو داود [(٣)] (باب لغو اليمين) حدثنا حميد بن مسعدة الشامى، حدثنا حسان يعنى ابن إبراهيم، حدثنا إبراهيم يعنى الصائغ، عن عطاء: فى اللغو فى اليمين، قال: قالت عائشة: إن رسول الله ﷺ قال «اللغو فى اليمين هو كلام الرجل فى بيته: كلا والله، وبلى والله» ثم قال أبو داود: رواه دواد بن أبى الفرات عن إبراهيم الصائغ، عن عطاء عن عائشة موقوفًا، ورواه الزهرى وعبد الملك ومالك بن مغول كلهم عن عطاء عن عائشة موقوفًا أيضًا.

ورواه الزهري، وعبد الملك، ومالك بن مغول، كلهم عن عطاء عن عائشة موقوفًا أيضًا.

(قُلْتُ) وكذا رواه ابن جريج وابن أبى ليلى عن عطاء عن عائشة موقوفًا، ورواه ابن جرير عن هناد عن وكيع وعبدة وأبى معاوية عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة فى قوله ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾ لا والله وبلى والله، ثم رواه عن محمد بن حميد عن سلمة، عن ابن إسحاق، عن هشام، عن أبيه عنها، وبه عن ابن إسحاق عن الزهرى عن القاسم عنها، وبه عن ابن إسحاق عن ابن أبى نجيح عن عطاء عنها، وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن الزهرى عن عروة عن عائشة فى قوله ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾ قالت: هم القوم يتدارءون فى الأمر، فيقول هذا: لا والله، بلى والله، وكلا والله، يتدارءون فى الأمر لا تعقد عليه قلوبهم، وقد قال ابن أبى حاتم: حدثنا هارون بن إسحاق الهمدانى، حدثنا عبدة يعنى ابن سليمان، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة فى قول الله ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾ قالت: هو قول الرجل: لا والله، وبلى والله. وحدثنا أبى، حدثنا أبو صالح كاتب

---

(١) ابن جرير (٢/ ٤١١)، وفي سنده حارثة بن محمد بن أبي الرجال: ضعيف.

(٢) البخاري (٦١٠٧)، ومسلم (١٦٤٧).

(٣) صحيح مرفوع: أبو داود (٣٢٥٤)، انظر صحيح سنن أبي داود. والموقوف منه أخرجه البخاري (٤٦١٣).

الليث، حدثنى ابن لهيعة عن أبى الأسود عن عروة، قال: كانت عائشة تقول: إنما اللغو فى المزاحة والهزل، وهو قول الرجل: لا والله، وبلى والله، فذاك لا كفارة فيه، إنما الكفارة فيما عقد عليه قلبه أن يفعله ثم لا يفعله، ثم قال ابن أبى حاتم: وروى عن ابن عمر وابن عباس فى أحد قوليه، والشعبى وعكرمة فى أحد قوليه، وعروة بن الزبير وأبى صالح والضحاك فى أحد قوليه، وأبى قلابة والزهرى نحو ذلك.

(الوجه الثانى) قرئ على يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرنى الثقة عن ابن شهاب عن عروة، عن عائشة أنها كانت تتأول هذه الآية، يعنى قوله ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾ وتقول: هو الشىء يحلف عليه أحدكم لا يريد منه إلا الصدق فيكون على غير ما حلف عليه، ثم قال: وروى عن أبى هريرة وابن عباس فى أحد قوليه، وسليمان بن يسار وسعيد بن جبير ومجاهد فى أحد قوليه، وإبراهيم النخعى فى أحد قوليه، والحسن وزرارة بن أوفى وأبى مالك وعطاء الخراسانى وبكر بن عبد الله، وأحد قولى عكرمة وحبيب بن أبى ثابت والسدى ومكحول ومقاتل وطاووس وقتادة والربيع بن أنس ويحيى بن سعيد وربيعة نحو ذلك. وقال ابن جرير [1] حدثنا محمد بن موسى الجرشى، حدثنا عبد الله بن ميمون المرادى، حدثنا عوف الأعرابى عن الحسن بن أبى الحسن قال: مر رسول الله ﷺ بقوم ينتصلون، يعنى يرمون، ومع رسول الله ﷺ رجل من أصحابه، فقام رجل من القوم فقال: أصبت والله، وأخطأت والله، فقال الذى مع النبى ﷺ للنبى ﷺ: حنث الرجل يا رسول الله، قال «كلا أيمان الرماة لغو لا كفارة فيها ولا عقوبة» هذا مرسل حسن عن الحسن. وقال ابن أبى حاتم: وروى عن عائشة القولان جميعًا، حدثنا عصام بن رواد، أنبأنا آدم، حدثنا شيبان عن جابر، عن عطاء بن أبى رباح، عن عائشة، قالت: هو قوله: لا والله، وبلى والله، وهو يرى أنه صادق ولا يكون كذلك.

(أقوال أخر) - قال عبد الرزاق، عن هشيم عن مغيرة، عن إبراهيم: هو الرجل يحلف على الشىء ثم ينساه. وقال زيد بن أسلم: هو قول الرجل أعمى الله بصرى إن لم أفعل كذا وكذا، أخرجنى الله من مالى إن لم آتك غدًا، فهو هذا. قال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا مسدد بن خالد، حدثنا خالد، حدثنا عطاء عن طاووس، عن ابن عباس، قال: لغو اليمين أن تحلف وأنت غضبان. وأخبرنى أبى: حدثنا أبو الجماهر، حدثنا سعيد بن بشير، حدثنى أبو بشر عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: لغو اليمين أن تحرم ما أحل الله لك فذلك ما ليس عليك فيه كفارة، وكذا روى عن سعيد بن جبير.

وقال أبو داود [2] (باب اليمين فى الغضب) حدثنا محمد بن المنهال، أنبأنا يزيد بن زريع، حدثنا حبيب المعلم عن عمرو بن شعيب، عن سعيد بن المسيب: أن أخوين من الأنصار كان بينهما ميراث، فسأل أحدهما صاحبه القسمة، فقال: إن عدت تسألنى عن القسمة فكل ما لى فى رتاج الكعبة، فقال له عمر: إن الكعبة غنية عن مالك، كفر عن يمينك، وكلم أخاك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يمين

(١) مرسل: ابن جرير (٢/ ٤١٢).
(٢) ضعيف: أبو داود (٣٢٧٢)، انظر ضعيف سنن أبي داود.

عليك ولا نذر فى معصية الرب عز وجل، ولا فى قطيعة الرحم، ولا فيما لا تملك» . وقوله ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: هو أن يحلف على الشىء وهو يعلم أنه كاذب، قال مجاهد وغيره، وهى كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ﴾ الآية [المائدة: ٨٩] . ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أى غفور لعباده حليم عليهم.

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾

الإيلاء الحلف، فإذا حلف الرجل أن لا يجامع زوجته مدة، فلا يخلو إما أن يكون أقل من أربعة أشهر أو أكثر منها، فإن كانت أقل، فله أن ينتظر انقضاء المدة ثم يجامع امرأته، وعليها أن تصبر وليس لها مطالبته بالفيئة فى هذه المدة، وهذا كما ثبت فى الصحيحين[1] عن عائشة أن رسول الله ﷺ، آلى من نسائه شهرًا فنزل لتسع وعشرين، وقال «الشهر تسع وعشرون» ولهما عن عمر بن الخطاب نحوه، فأما إن زادت المدة على أربعة أشهر فللزوجة مطالبة الزوج عند انقضاء أربعة أشهر، إما أن يفىء أى يجامع، وإما أن يطلق فيجبره الحاكم على هذا، وهذا لئلا يضر بها، ولهذا قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ أى يحلفون على ترك الجماع عن نسائهم، فيه دلالة على أن الإيلاء يختص بالزوجات دون الإماء كما هو مذهب الجمهور ﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ أى ينتظر الزوج أربعة أشهر من حين الحلف، ثم يوقف ويطالب بالفيئة أو الطلاق، ولهذا قال ﴿فَإِن فَآءُو﴾ أى رجعوا إلى ما كانوا عليه وهو كناية عن الجماع، قاله ابن عباس ومسروق والشعبى وسعيد بن جبير وغير واحد ومنهم ابن جرير رحمه الله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لما سلف من التقصير فى حقهن بسبب اليمين، قوله ﴿فَإِن فَآءُو فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فيه دلالة لأحد قولى العلماء، وهو القديم عن الشافعى أن المولى إذا فاء بعد الأربعة الأشهر أنه لا كفارة عليه، ويعتضد بما تقدم فى الحديث عند الآية التى قبلها عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، أن رسول الله ﷺ، قال: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيرًا منها، فتركها كفارتها» كما رواه أحمد وأبو داود والترمذى[2]، والذى عليه الجمهور وهو الجديد من مذهب الشافعى أن عليه التكفير لعموم وجوب التكفير على كل حالف، كما تقدم أيضًا فى الأحاديث الصحاح، والله أعلم.

وقوله ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾ فيه دلالة على أن الطلاق لا يقع بمجرد مضى الأربعة أشهر، كقول الجمهور من المتأخرين، وذهب آخرون إلى أنه يقع بمضى أربعة أشهر تطليقة، وهو مروى بأسانيد صحيحة عن عمر وعثمان وعلى وابن مسعود وابن عباس وابن عمر وزيد بن ثابت، وبه يقول ابن سيرين ومسروق والقاسم وسالم والحسن وأبو سلمة وقتادة وشريح القاضى وقبيصة بن ذؤيب وعطاء وأبو سلمة بن عبد الرحمن وسليمان بن طرخان التيمى وإبراهيم النخعى والربيع بن أنس والسدى، ثم قيل: إنها تطلق بمضى الأربعة أشهر طلقة رجعية، قاله سعيد بن المسيب وأبو بكر بن عبد الرحمن بن

---

(١) مسلم (١٠٨٣)، من حديث عائشة رضي الله عنها.
أما ما هو في الصحيحين فهو من حديث أم سلمة، أخرجه البخاري (١٩١٠)، ومسلم (١٠٨٥).
(٢) سبق تخريجه.

الحارث بن هشام ومكحول وربيعة والزهرى ومروان بن الحكم، وقيل: إنها تطلق طلقة بائنة، روى عن على وابن مسعود وعثمان وابن عباس وابن عمر وزيد بن ثابت، وبه يقول عطاء وجابر بن زيد ومسروق وعكرمة والحسن وابن سيرين ومحمد بن الحنفية وإبراهيم وقبيصة بن ذؤيب وأبو حنيفة والثورى والحسن بن صالح، فكل من قال: إنها تطلق بمضى الأربعة أشهر أوجب عليها العدة، إلا ما روى عن ابن عباس وأبى الشعثاء: أنها إن كانت حاضت ثلاث حيض فلا عدة عليها، وهو قول الشافعى، والذى عليه الجمهور من المتأخرين أن يوقف فيطالب إما بهذا وإما بهذا ولا يقع عليها بمجرد مضيها طلاق، وروى مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر أنه قال: إذا آلى الرجل من امرأته لم يقع عليه طلاق وإن مضت أربعة أشهر حتى يوقف، فإما أن يطلق وإما أن يفىء، وأخرجه البخارى.

وقال الشافعى رحمه الله: أخبرنا سفيان بن عيينة عن يحيى بن سعيد، عن سليمان بن يسار، قال: أدركت بضعة عشر من أصحاب النبى ﷺ كلهم يوقف المولى، قال الشافعى: وأقل ذلك ثلاثة عشر، ورواه الشافعى عن على رضى الله عنه أنه يوقف المولى، ثم قال: وهكذا نقول، وهو موافق لما رويناه عن عمر وابن عمر وعائشة وعثمان وزيد بن ثابت وبضعة عشر من أصحاب النبى ﷺ، هكذا قال الشافعى رحمه الله. قال ابن جرير: حدثنا ابن أبى مريم، حدثنا يحيى بن أيوب، عن عبيد الله بن عمر، عن سهيل بن أبى صالح، عن أبيه، قال: سألت اثنى عشر رجلاً من الصحابة عن الرجل يولى من امرأته، فكلهم يقول: ليس عليه شىء حتى تمضى الأربعة أشهر فيوقف، فإن فاء وإلا طلق، ورواه الدارقطنى من طريق سهيل.

(قُلْتُ) وهو مروى عن عمر وعثمان وعلى وأبى الدرداء وعائشة أم المؤمنين وابن عمر وابن عباس، وبه يقول سعيد بن المسيب وعمر بن عبد العزيز ومجاهد وطاووس ومحمد بن كعب والقاسم، وهو مذهب مالك والشافعى وأحمد بن حنبل وأصحابهم رحمهم الله، وهو اختيار ابن جرير أيضًا، وهو قول الليث وإسحاق بن راهويه وأبى عبيد وأبى ثور وداود، وكل هؤلاء قالوا: إن لم يفئ ألزم بالطلاق، فإن لم يطلق طلق عليه الحاكم، والطلقة تكون رجعية، له رجعتها فى العدة، وانفرد مالك بأن قال، لا يجوز له رجعتها حتى يجامعها فى العدة وهذا غريب جدًا.

وقد ذكر الفقهاء وغيرهم فى مناسبة تأجيل المولى بأربعة أشهر، الأثر الذى رواه الإمام مالك بن أنس رحمه الله فى الموطأ، عن عبد الله بن دينار، قال: خرج عمر بن الخطاب من الليل، فسمع امرأة تقول:

تطاول هذا الليل واسود جانبه ... وأرقنى أن لا خليل ألاعبه

فوالله لولا الله أنى أراقبه ... لحرك من هذا السرير جوانبه

فسأل عمر ابنته حفصة رضى الله عنها: كم أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها؟ فقالت: ستة أشهر أو أربعة أشهر، فقال عمر: لا أحبس أحدًا من الجيوش أكثر من ذلك وقال محمد بن إسحاق، عن السائب بن جبير مولى ابن عباس وكان قد أدرك أصحاب النبى ﷺ، قال: ما زلت أسمع حديث عمر أنه خرج ذات ليلة يطوف بالمدينة، وكان يفعل ذلك كثيرًا إذ مر بامرأة من نساء العرب مغلقة بابها، تقول:

تطاول هذا الليل وازور جانبه ... وأرّقنى أن لا ضجيع ألاعبه
ألاعبه طورًا وطورًا كأنما ... بدا قمرًا فى ظلمة الليل حاجبه
يسر به من كان يلهو بقربه ... لطيف الحشا لا يحتويه أقاربه
فوالله لولا الله لا شىء غيره ... لنقض من هذا السرير جوانبه
ولكننى أخشى رقيبًا موكلا ... بأنفاسنا لا يفتر الدهر كاتبه
مخافة ربى والحياء يصدنى ... وإكرام بعلى أن تنال مراكبه

ثم ذكر بقية ذلك، كما تقدم أو نحوه، وقد روى هذا من طرق وهو من المشهورات.

﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾

هذا أمر من الله سبحانه وتعالى للمطلقات المدخول بهن من ذوات الأقراء، بأن يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء، أى بأن تمكث إحداهن بعد طلاق زوجها لها ثلاثة قروء، ثم تتزوج إن شاءت، وقد أخرج الأئمة الأربعة من هذا العموم الأمة إذا طلقت، فإنها تعتد عندهم بقرأين لأنها على النصف من الحرة، والقرء لا يتبعض فكمل لها قرآن، ولما رواه ابن جرير [١] عن مظاهر بن أسلم المخزومى المدنى، عن القاسم، عن عائشة، أن رسول الله ﷺ، قال: «طلاق الأمة تطليقتان، وعدتها حيضتان» رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه [٢]، ولكن مظاهر هذا ضعيف بالكلية، وقال الحافظ الدارقطنى وغيره: الصحيح أنه من قول القاسم بن محمد نفسه، ورواه ابن ماجه [٣] من طريق عطية العوفى عن ابن عمر مرفوعًا، قال الدارقطنى: والصحيح ما رواه سالم ونافع عن ابن عمر قوله، وهكذا روى عن عمر بن الخطاب. قالوا: ولم يعرف بين الصحابة خلاف، وقال بعض السلف: بل عدتها كعدة الحرة لعموم الآية، ولأن هذا أمر جبلى، فكان الحرائر والإماء فى هذا سواء، حكى هذا القول الشيخ أبو عمر بن عبد البر، عن محمد بن سيرين وبعض أهل الظاهر وضعفه. وقد قال ابن أبى حاتم [٤]: حدثنا أبى حدثنا أبو اليمان، حدثنا إسماعيل، يعنى ابن عياش، عن عمرو بن مهاجر، عن أبيه، أن أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية، قالت: طلقت على عهد رسول الله ﷺ، ولم يكن للمطلقة عدة، فأنزل الله عز وجل حين طلقت أسماء العدة للطلاق، فكانت أول من نزلت فيها العدة للطلاق يعنى ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾، وهذا حديث غريب من هذا الوجه. وقد اختلف السلف والخلف والأئمة فى المراد بالأقراء ما هو على قولين:

---

(١) أخرجه من هذا الطريق الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٢٢٣)، برقم (٢٨٢٢)، وقال الحاكم: الحديث صحيح ولم يخرجاه.
قلت: وفي سنده مظاهر بن أسلم: اختلفوا فيه.
(٢) ضعيف: أبو داود (٢١٨٩)، والترمذي (١١٨٢)، وابن ماجه (٢٠٨٠)، انظر ضعيف سنن أبي داود.
(٣) ضعيف: ابن ماجه (٢٠٧٩)، انظر ضعيف سنن ابن ماجه.
(٤) حسن: ابن أبي حاتم (٢/ ٤١٤)، برقم (٢١٨٦).

(أحدهما) أن المراد بها الأطهار، وقال مالك فى الموطأ عن ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة أنها قالت انتقلت حفصة بنت عبد الرحمن بن أبى بكر حين دخلت فى الدم من الحيضة الثالثة، قال الزهرى: فذكرت ذلك لعمرة بنت عبد الرحمن، فقالت: صدق عروة، وقد جادلها فى ذلك ناس فقالوا: إن الله تعالى يقول فى كتابه ﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾.

فقالت عائشة: صدقتم، وتدرون ما الأقراء؟ إنما الأقراء الأطهار، وقال مالك، عن ابن شهاب: سمعت أبا بكر بن عبد الرحمن يقول: ما أدركت أحدًا من فقهائنا إلا وهو يقول ذلك، يريد قول عائشة.

وقال مالك عن نافع، عن عبد الله بن عمر، أنه كان يقول: إذا طلق الرجل امرأته، فدخلت فى الدم من الحيضة الثالثة فقد برئت منه وبرئ منها، وقال مالك: وهو الأمر عندنا وروى مثله عن ابن عباس وزيد بن ثابت وسالم والقاسم وعروة وسليمان بن يسار، وأبى بكر بن عبد الرحمن وأبان بن عثمان وعطاء بن أبى رباح وقتادة والزهرى وبقية الفقهاء السبعة وهو مذهب مالك والشافعى وغير واحد وداود وأبى ثور، وهو رواية عن أحمد واستدلوا عليه بقوله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١] أى فى الأطهار ولما كان الطهر الذى يطلق فيه محتسبًا، دل على أنه أحد الأقراء الثلاثة المأمور بها ولهذا قال هؤلاء: إن المعتدة تنقضى عدتها وتبين من زوجها بالطعن فى الحيضة الثالثة، وأقل مدة تصدق فيها المرأة فى انقضاء عدتها اثنان وثلاثون يومًا ولحظتان، واستشهد أبو عبيد وغيره على ذلك بقول الشاعر وهو الأعشى:

ففى كل عام أنت جاشم غزوة تشد لأقصاها عزيم عزائكا
مورثة مالاً وفى الأصل رفعة لما ضاع فيها من قروء نسائكا

يمدح أميرًا من أمراء العرب آثر الغزو على المقام، حتى ضاعت أيام الطهر من نسائه لم يواقعهن فيه.

(القول الثانى) - أن المراد بالأقراء، الحيض، فلا تنقضى العدة حتى تطهر من الحيضة الثالثة، زاد آخرون: وتغتسل منها، وأقل وقت تصدق فيه المرأة فى انقضاء عدتها ثلاثة وثلاثون يومًا ولحظة، قال الثورى: عن منصور عن إبراهيم عن علقمة قال: كنا عند عمر بن الخطاب رضى الله عنه فجاءته امرأة فقالت: إن زوجى فارقنى بواحدة أو اثنتين فجاءنى وقد وضعت مائي وقد نزعت ثيابى وأغلقت بابى، فقال عمر لعبد الله بن مسعود: أراها امرأته ما دون أن تحل لها الصلاة قال: وأنا أرى ذلك، وهكذا روى عن أبى بكر الصديق وعمر وعثمان وعلى وأبى الدرداء وعبادة بن الصامت وأنس بن مالك وابن مسعود ومعاذ، وأبى بن كعب وأبى موسى الأشعرى وابن عباس وسعيد بن المسيب وعلقمة والأسود وإبراهيم ومجاهد وعطاء وطاووس وسعيد بن جبير وعكرمة ومحمد بن سيرين والحسن وقتادة والشعبى والربيع ومقاتل بن حيان والسدى ومكحول والضحاك وعطاء الخراسانى أنهم قالوا: الأقراء الحيض وهذا مذهب أبى حنيفة وأصحابه وأصح الروايتين عن الإمام. أحمد بن حنبل، وحكى عنه الأثرم أنه قال: الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: الأقراء الحيض، وهو مذهب الثورى والأوزاعى وابن أبى ليلى وابن شبرمة والحسن بن صالح ابن حى وأبى عبيد وإسحاق بن راهويه،

ويؤيد هذا ما جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود والنسائى[١] من طريق المنذر بن المغيرة عن عروة بن الزبير عن فاطمة بنت أبى حبيش، أن رسول الله ﷺ قال لها «دعى الصلاة أيام أقرائك» فهذا لو صح لكان صريحًا فى أن القرء هو الحيض، ولكن المنذر هذا قال فيه أبو حاتم: مجهول ليس بمشهور وذكره ابن حبان فى الثقات، وقال ابن جرير: أصل القرء فى كلام العرب الوقت لمجيء الشيء المعتاد مجيئه فى وقت معلوم ولإدبار الشيء المعتاد إدباره لوقت معلوم وهذه العبارة تقتضى أن يكون مشتركًا بين هذا وهذا، وقد ذهب إليه بعض الأصوليين، والله أعلم. وهذا قول الأصمعى أن القرء هو الوقت.

وقال أبو عمرو بن العلاء: العرب تسمى الحيض قرءًا، وتسمى الطهر قرءًا وتسمى الطهر والحيض جميعًا قرءًا. وقال الشيخ أبو عمر بن عبد البر لا يختلف أهل العلم بلسان العرب والفقهاء أن القرء يراد به الحيض، ويراد به الطهر، وإنما اختلفوا فى المراد من الآية ما هو على قولين. - وقوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ أى من حبل أو حيض، قاله ابن عباس وابن عمر ومجاهد والشعبى والحكم بن عيينة والربيع بن أنس والضحاك وغير واحد، وقوله: ﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ تهديد لهن على خلاف الحق، دل هذا على أن المرجع فى هذا إليهن لأنه أمر لا يعلم إلا من جهتهن ويتعذر إقامة البينة غالبًا على ذلك، فرد الأمر إليهن وتوعدن فيه لئلا يخبرن بغير الحق، إما استعجالاً منها لانقضاء العدة أو رغبة منها فى تطويلها لما لها فى ذلك من المقاصد، فأمرت أن تخبر بالحق فى ذلك من غير زيادة ولا نقصان.

وقوله: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ أى وزوجها الذى طلقها أحق بردها، ما دامت فى عدتها، إذا كان مراده بردها الإصلاح والخير، وهذا فى الرجعيات، فأما المطلقات البوائن، فلم يكن حال نزول هذه الآية مطلقة بائن، وإنما كان ذلك لما حصروا فى الطلقات الثلاث، فأما حال نزول هذه الآية، فكان الرجل أحق برجعة امرأته وإن طلقها مائة مرة، فلما قصروا فى الآية التى بعدها على ثلاث تطليقات، صار للناس مطلقة بائن، وغير بائن وإذا تأملت هذا، تبين لك ضعف ما سلكه بعض الأصوليين من استشهادهم على مسألة عود الضمير، هل يكون مخصصًا لما تقدمه من لفظ العموم أم لا بهذه الآية الكريمة، فإن التمثيل بها غير مطابق لما ذكروه، والله أعلم.

وقوله ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أى ولهن على الرجال من الحق مثل ما للرجال عليهن، فليؤد كل واحد منهما إلى الآخر، ما يجب عليه بالمعروف، كما ثبت فى صحيح مسلم[٢] عن جابر، أن رسول الله ﷺ، قال فى خطبته فى حجة الوداع «فاتقوا الله فى النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه، فإن فعلن ذلك

(١) صحيح: الدارقطني (١/ ٢١٢)، برقم (٣٦)، ورجاله ثقات إلا أنه من طريق حبيب بن أبي ثابت عن عروة وهو لم يسمع منه شيئًا فالإسناد منقطع.
وللحديث شواهد أخرى مثل ما أخرجه أبو داود بسند صحيح (٢٧٤)، والبيهقي (١/ ٣٣٢)، برقم (١٤٧٣)، انظر صحيح سنن أبي داود.
وبهذا يترجح القول بأن القرء هو الحيض.
(٢) مسلم: (١٢١٨).

فاضربوهن ضربًا غير مبرح، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف» وفى حديث بهز بن حكيم عن معاوية بن حيدة القشيرى عن أبيه عن جده أنه قال: يا رسول الله ما حق زوجة أحدنا؟ قال «أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلا فى البيت»[1] وقال وكيع، عن بشير بن سليمان، عن عكرمة عن ابن عباس، قال: إنى لأحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تتزين لى المرأة، لأن الله يقول ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ ورواه ابن جرير وابن أبى حاتم، وقوله: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨] أى فى الفضيلة فى الخلق والخلق والمنزلة وطاعة الأمر والإنفاق والقيام بالمصالح والفضل فى الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤]. وقوله ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أى عزيز فى انتقامه ممن عصاه وخالف أمره، حكيم فى أمره وشرعه وقدره.

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾

هذه الآية الكريمة رافعة لما كان عليه الأمر فى ابتداء الإسلام من أن الرجل كان أحق برجعة امرأته وإن طلقها مائة مرة ما دامت فى العدة، فلما كان هذا فيه ضرر على الزوجات قصرهم الله إلى ثلاث طلقات، وأباح الرجعة فى المرة والثنتين، وأبانها بالكلية فى الثالثة، فقال ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ قال أبو داود رحمه الله فى سننه (باب نسخ المراجعة بعد الطلقات الثلاث). حدثنا أحمد بن محمد المروزى، حدثنى على بن الحسين بن واقد عن أبيه، عن يزيد النحوى، عن عكرمة، عن ابن عباس ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾ الآية، وذلك أن الرجل كان إذا طلق امرأته فهو أحق برجعتها وإن طلقها ثلاثًا، فنسخ ذلك فقال ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ الآية، ورواه النسائى عن زكريا بن يحيى عن إسحاق بن إبراهيم عن على بن الحسين به.

وقال ابن أبى حاتم[2]: حدثنا هارون بن إسحاق، حدثنا عبدة يعنى ابن سليمان، عن هشام بن عروة، عن أبيه، أن رجلًا قال لامرأته: لا أطلقك أبدًا ولا آويك أبدًا، قالت: كيف ذلك؟ قال: أطلق حتى إذا دنا أجلك راجعتك، فأتت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فذكرت ذلك له، فأنزل الله عز وجل ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾، وهكذا رواه ابن جرير فى تفسيره من طريق جرير بن عبد الحميد وابن إدريس، ورواه عبد بن حميد فى تفسيره عن جعفر بن عون، كلهم عن هشام عن أبيه، قال: كان

---

(١) حسن صحيح: أبو داود (٢١٤٢)، وابن ماجه (١٨٥٠)، وأحمد (١٩٥٢٣)، انظر صحيح سنن أبي داود.

(٢) ضعيف: ابن أبي حاتم (٢/ ٤١٨)، برقم (٢٢٠٦)، وابن جرير (٢/ ٤٥٦)، وحديث عروة مرسل.

وبسند ضعيف: أخرجه الترمذي (١١٩٢)، وكذا الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٠٧)، برقم (٣١٠٦)، انظر ضعيف جامع الترمذي.

الرجل أحق برجعة امرأته وإن طلقها ما شاء ما دامت فى العدة، وإن رجلاً من الأنصار غضب على امرأته، فقال: والله لا آويك ولا أفارقك، قالت: وكيف ذلك؟ قال: أطلقك، فإذا دنا أجلك راجعتك، ثم أطلقك فإذا دنا أجلك راجعتك فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأنزل الله عز وجل ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ قال: فاستقبل الناس الطلاق من كان طلق ومن لم يكن طلق. وقد رواه أبو بكر بن مردويه من طريق محمد بن سليمان عن يعلىَ بن شبيب مولى الزبير، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة فذكره بنحو ما تقدم. ورواه الترمذى عن قتيبة، عن يعلى بن شبيب به، ثم رواه عن أبى كريب، عن ابن إدريس، عن هشام. عن أبيه مرسلاً، وقال: هذا أصح. ورواه الحاكم فى مستدركه من طريق يعقوب بن حميد بن كاسب عن يعلى بن شبيب به، وقال: صحيح الإسناد[1]. ثم قال ابن مردويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا إسماعيل بن عبد الله، حدثنا محمد بن حميد، حدثنا سلمة بن الفضل عن محمد بن إسحاق، عن هشام بن عروة، عن عائشة، قالت: لم يكن للطلاق وقت يطلق الرجل امرأته ثم يراجعها ما لم تنقض العدة، وكان بين رجل من الأنصار وبين أهله بعض ما يكون بين الناس، فقال: والله لأتركنك لا أيمًا ولا ذات زوج، فجعل يطلقها حتى إذا كادت العدة أن تنقضى راجعها، ففعل ذلك مرارًا، فأنزل الله عز وجل فيه ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ فوقت الطلاق ثلاثًا لا رجعة فيه بعد الثالثة حتى تنكح زوجًا غيره. وهكذا روى عن قتادة مرسلاً، ذكره السدى وابن زيد وابن جرير كذلك، واختار أن هذا تفسير هذه الآية.

وقوله ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ أى إذا طلقتها واحدة أو اثنتين، فأنت مخير فيها ما دامت عدتها باقية بين أن تردها إليك ناويًا الإصلاح بها والإحسان إليها، وبين أن تتركها حتى تنقضى عدتها فتبين منك وتطلق سراحها محسنًا إليها، لا تظلمها من حقها شيئًا ولا تضار بها. وقال على بن أبى طلحة. عن ابن عباس، قال: إذا طلق الرجل امرأته تطليقتين، فليتق الله فى ذلك، أى فى الثالثة، فإما أن يمسكها بمعروف فيحسن صحابتها، أو يسرحها بإحسان فلا يظلمها من حقها شيئًا. وقال ابن أبى حاتم[2]: أخبرنا يونس بن عبد الأعلى قراءة، أخبرنا ابن وهب، أخبرنى سفيان الثورى، حدثنى إسماعيل بن سميع، قال: سمعت أبا رزين يقول: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيت قول الله عز وجل ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ أين الثالثة؟ قال: «التسريح بإحسان» ورواه عبد بن حميد فى تفسيره ولفظه: أخبرنا يزيد بن أبى حكيم عن سفيان عن إسماعيل بن سميع، أن أبا رزين الأسدى يقول: قال رجل: يا رسول الله، أرأيت قول الله ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ فأين الثالثة؟ قال «التسريح بإحسان الثالثة» ورواه الإمام أحمد أيضًا. وهكذا رواه سعيد بن منصور عن خالد بن عبد الله، عن إسماعيل بن زكريا وأبى معاوية، عن إسماعيل بن سميع، عن أبى رزين به وهكذا رواه ابن مردويه أيضًا من طريق قيس بن الربيع عن إسماعيل بن سميع عن أبى رزين به مرسلاً ورواه ابن مردويه أيضًا من طريق عبد الواحد بن زياد، عن إسماعيل بن سميع، عن أنس بن مالك، عن

---

(١) ضعيف: ابن أبي حاتم (٢/ ٤١٩)، برقم (٢٢١٠)، وابن جرير (٢/ ٤٥٨)، وهو مرسل.
(٢) انظر ما قبله.

النبى ﷺ، فذكره [١]، ثم قال: حدثنا عبد الله بن أحمد بن عبد الرحيم، حدثنا أحمد بن يحيى، حدثنا عبيد الله بن جرير بن جبلة، حدثنا ابن أبى عائشة، حدثنا حماد بن سلمة عن قتادة، عن أنس بن مالك، قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، ذكر الله الطلاق مرتين، فأين الثالثة؟ قال: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَٰنٍ﴾.

وقوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا﴾ أى لا يحل لكم أن تضاجروهن وتضيقوا عليهن، ليفتدين منكم بما أعطيتموهن من الأصدقة أو ببعضه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ [النساء: ١٩] فأما إن وهبته المرأة شيئًا عن طيب نفس منها، فقد قال تعالى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ [النساء: ٤] وأما إذا تشاقق الزوجان، ولم تقم المرأة بحقوق الرجل وأبغضته ولم تقدر على معاشرته، فلها أن تفتدى منه بما أعطاها، ولا حرج عليها فى بذلها له، ولا حرج عليه فى قبول ذلك منها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ الآية، فأما إذا لم يكن لها عذر، وسألت الافتداء منه، فقد قال ابن جرير [٢]: حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الوهاب ح وحدثنى يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن علية، قالا جميعًا: حدثنا أيوب عن أبى قلابة، عمن حدثه عن ثوبان، أن رسول الله ﷺ، قال «أيما امرأة سألت زوجها طلاقها فى غير ما بأس، فحرام عليها رائحة الجنة». وهكذا رواه الترمذى عن بندار، عن عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفى به، وقال حسن: قال ويروى عن أيوب، عن أبى قلابة، عن أبى أسماء، عن ثوبان، ورواه بعضهم عن أيوب بهذا الإسناد ولم يرفعه. وقال الإمام أحمد [٣]: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا حماد بن زيد عن أيوب عن أبى قلابة، قال: وذكر أبا أسماء وذكر ثوبان، قال: قال رسول الله ﷺ «أيما امرأة سألت زوجها الطلاق فى غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة». وهكذا رواه أبو داود وابن ماجه وابن جرير [٤] من حديث حماد بن زيد به.

(طريق أخرى) - قال ابن جرير: حدثنى يعقوب بن إبراهيم، حدثنا المعتمر بن سليمان، عن ليث بن أبى إدريس، عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ، عن النبى ﷺ أنه قال: «أيما امرأة سألت زوجها الطلاق فى غير ما بأس حرم الله عليها رائحة الجنة» وقال: «المختلعات هن المنافقات». ثم رواه ابن جرير والترمذى [٥] جميعًا، عن أبى كريب، عن مزاحم بن داود بن علية، عن أبيه، عن ليث هو ابن أبى سليم، عن أبى الخطاب، عن أبى زرعة، عن أبى إدريس، عن ثوبان، قال: قال رسول الله ﷺ «المختلعات هن المنافقات». ثم قال الترمذى: غريب من هذا الوجه وليس إسناده بالقوى.

(حديث آخر) - قال ابن جرير [٦]: حدثنا أبو كريب، حدثنا حفص بن بشر، حدثنا قيس بن

(١) الدارقطني (٤/ ٤)، برقم (٢)، وقد صححه ابن القطان كما في «التعليق المغني» على الدارقطني.
(٢) صحيح: ابن جرير (٢/ ٤٦٨).
(٣) صحيح: أحمد (٢١٩٣٤)، انظر صحيح الجامع (٢٧٠٦).
(٤) صحيح: أبو داود (٢٢٢٦)، وابن ماجه (٢٠٥٥)، وابن جرير (٢/ ٤٦٨)، انظر صحيح سنن أبي داود.
(٥) صحيح: الترمذي (١١٨٦)، وابن جرير (٢/ ٤٦٧)، انظر صحيح جامع الترمذي.
(٦) ضعيف: ابن جرير (٢/ ٤٦٧)، وفيه أشعث بن سوار وقيس بن الربيع، وكلاهما ضعيف.

الربيع، عن أشعث بن سوار، عن الحسن، عن ثابت بن يزيد، عن عقبة بن عامر، قال: قال رسول الله ﷺ «إن المختلعات المنتزعات هن المنافقات» غريب من هذا الوجه ضعيف.

(حديث آخر) - قال الإمام أحمد[١]: حدثنا عفان، حدثنا وهيب، حدثنا أيوب عن الحسن، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ «المختلعات والمنتزعات هن المنافقات».

(حديث آخر) - قال ابن ماجه[٢]: حدثنا بكر بن خلف أبو بشر، حدثنا أبو عاصم عن جعفر بن يحيى بن ثوبان، عن عمه عمارة بن ثوبان، عن عطاء عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال «لا تسأل امرأة زوجها الطلاق في غير كنهه، فتجد ريح الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عامًا». ثم قد قال طائفة كثيرة من السلف وأئمة الخلف: إنه لا يجوز الخلع إلا أن يكون الشقاق والنشوز من جانب المرأة فيجوز للرجل حينئذ قبول الفدية، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ قالوا: فلم يشرع الخلع إلا في هذه الحالة، فلا يجوز في غيرها إلا بدليل، والأصل عدمه، وممن ذهب إلى هذا ابن عباس وطاووس وإبراهيم وعطاء والحسن والجمهور حتى قال مالك والأوزاعي: لو أخذ منها شيئًا وهو مضار لها، وجب رده إليها، وكان الطلاق رجعيًا قال مالك: وهو الأمر الذي أدركت الناس عليه، وذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه يجوز الخلع في حال الشقاق وعند الاتفاق بطريق الأولى والأحرى، وهذا قول جميع أصحابه قاطبة، وحكى الشيخ أبو عمر بن عبد البر في كتاب الاستذكار له عن بكر بن عبد الله المزني، أنه ذهب إلى أن الخلع منسوخ بقوله: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٢٠] ورواه ابن جرير عنه، وهذا قول ضعيف ومأخذ مردود على قائله، وقد ذكر ابن جرير رحمه الله أن هذه الآية نزلت في شأن ثابت بن قيس بن شماس وامرأته حبيبة بنت عبد الله بن أبي بن سلول، ولنذكر طرق حديثها واختلاف ألفاظه، قال الإمام مالك في موطئه[٣]، عن يحيى بن سعيد، عن عمرة بنت عبد الرحمن بن سعيد بن زرارة: أنها أخبرته عن حبيبة بنت سهل الأنصاري، أنها كانت تحت ثابت بن قيس بن شماس، وأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، خرج إلى الصبح، فوجد حبيبة بنت سهل عند بابه في الغلس، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «من هذه؟» قالت: أنا حبيبة بنت سهل. «فقال ما شأنك» ؟ فقالت: لا أنا ولا ثابت بن قيس لزوجها، فلما جاء زوجها ثابت بن قيس قال له رسول الله ﷺ «هذه حبيبة بنت سهل قد ذكرت ما شاء الله أن تذكر» فقالت حبيبة: يا رسول الله كل ما أعطاني عندي، فقال رسول الله ﷺ «خذ منها» فأخذ منها وجلست في أهلها. وهكذا رواه الإمام أحمد[٤] عن عبد الرحمن بن مهدي عن مالك بإسناده مثله، ورواه أبو داود[٥] عن القعنبي عن مالك والنسائي[٦] عن محمد بن مسلمة عن ابن القاسم عن مالك.

---

(١) صحيح: أحمد (٩٠٩٤)، انظر السلسلة الصحيحة (٦٣٢).
(٢) ضعيف: ابن ماجه (٢٠٥٤)، انظر ضعيف سنن ابن ماجه. ومعنى الحديث صحيح كما تقدم.
(٣) صحيح: مالك (١١٩٨).
(٤) أحمد (٢٦٨٩٨)، ورجاله ثقات.
(٥) صحيح: أبو داود (٢٢٢٧)، انظر صحيح سنن أبي داود.
(٦) صحيح: النسائي (٣٤٦٢)، انظر صحيح سنن النسائي.

(حديث آخر) - عن عائشة، قال أبو داود وابن جرير: حدثنا محمد بن معمر، حدثنا أبو عامر، حدثنا أبو عمرو السدوسى عن عبد الله بن أبى بكر، عن عمرة، عن عائشة، أن حبيبة بنت سهل كانت تحت ثابت بن قيس بن شماس فضربها فانكسر بعضها، فأتت رسول الله ﷺ بعد الصبح فاشتكته إليه، فدعا رسول الله ﷺ ثابتًا، فقال «خذ بعض مالها وفارقها» قال: ويصلح ذلك يا رسول الله؟ قال «نعم» قال إنى أصدقتها حديقتين فهما بيدها، فقال النبى ﷺ «خذهما وفارقها» ففعل، وهذا لفظ ابن جرير وأبو عمرو السدوسى هو سعيد بن سلمة بن أبى الحسام.

(حديث آخر) فيه، عن ابن عباس رضى الله عنه، قال البخارى[١]: حدثنا أزهر بن جميل، أخبرنا عبد الوهاب الثقفى، حدثنا خالد عن عكرمة، عن ابن عباس، أن امرأة ثابت بن قيس بن شماس، أتت النبى ﷺ فقالت: يا رسول الله ما أعيب عليه فى خلق ولا دين، ولكن أكره الكفر فى الإسلام، فقال رسول الله ﷺ «أتردين إليه حديقته» ؟ قالت: نعم، قال رسول الله ﷺ «اقبل الحديقة وطلقها تطليقة» . وكذا رواه النسائى عن أزهر بن جميل بإسناده مثله، ورواه البخارى[٢] أيضًا به، عن إسحاق الواسطى، عن خالد هو ابن عبد الله الطحان، عن خالد هو ابن مهران الحذاء، عن عكرمة، به نحوه، وهكذا رواه البخارى[٣] أيضًا من طرق عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس وفى بعضها أنها قالت: لا أطيقه يعنى بغضًا. وهذا الحديث من إفراد البخارى من هذا الوجه، ثم قال: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد عن أيوب، عن عكرمة أن جميلة رضى الله عنها - كذا قال - والمشهور أن اسمها حبيبة كما تقدم، قال الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره: حدثنا موسى بن هارون، حدثنا أزهر بن مروان الرقاشي. حدثنى عبد الأعلى، حدثنا سعيد عن قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس، أن جميلة بنت سلول أتت النبى ﷺ، فقالت: والله ما أعتب على ثابت بن قيس فى دين ولا خلق، ولكننى أكره الكفر فى الإسلام ولا أطيقه بغضًا، فقال لها النبى ﷺ «تردين عليه حديقته؟» . قالت: نعم فأمره النبى ﷺ أن يأخذ ما ساق ولا يزداد، وقد رواه ابن مردويه فى تفسيره عن موسى بن هارون، حدثنا أزهر بن مروان، حدثنا عبد الأعلى مثله، وهكذا رواه ابن ماجه عن أزهر بن مروان بإسناده مثله سواء، وهو إسناد جيد مستقيم، وقال ابن جرير[٤]: حدثنا ابن حميد، حدثنا يحيى بن واضح، حدثنا الحسين بن واقد عن ثابت، عن عبد الله بن رباح، عن جميلة بنت عبد الله بن أبى بن سلول، أنها كانت تحت ثابت بن قيس فنشزت عليه، فأرسل إليها النبى ﷺ فقال «يا جميلة ما كرهت من ثابت؟» . قالت: والله ما كرهت منه دينًا ولا خلقًا، إلا أنى كرهت دمامته، فقال لها، «أتردين عليه الحديقة؟» . قالت: نعم، فردت الحديقة، وفرق بينهما. وقال ابن جرير أيضًا[٥]: حدثنامحمد بن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر بن سليمان، قال: قرأت على فضيل عن أبى جرير، أنه سأل عكرمة هل كان للخلع أصل؟ قال: كان ابن عباس يقول: إن أول خلع كان فى الإسلام فى أخت عبد الله بن أبى، أنها أتت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله لا يجمع رأسى ورأسه شيء أبدًا، إنى رفعت جانب الخباء فرأيته

---

(١) البخاري (٥٢٧٣).
(٢) البخاري (٥٢٧٥).
(٣) البخاري (٥٢٧٧).
(٤) ابن جرير (٢/ ٤٦٢).
(٥) ابن جرير (٢/ ٤٦١)، ورجاله ثقات.

قد أقبل فى عدة، فإذا هو أشدهم سوادًا وأقصرهم قامة، وأقبحهم وجهًا، فقال زوجها: يا رسول الله، إنى قد أعطيتها أفضل مالى حديقة لى، فإن ردت على حديقتى، قال «ما تقولين»؟ قالت: نعم وإن شاء زدته، قال: ففرق بينهما.

(حديث آخر) - قال ابن ماجه[1]: حدثنا أبو كريب، حدثنا أبو خالد الأحمر عن حجاج، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده، قال: كانت حبيبة بنت سهل تحت ثابت بن قيس بن شماس، وكان رجلاً دميمًا، فقالت يا رسول الله، والله لولا مخافة الله إذا دخل على بصقت فى وجهه، فقال رسول الله ﷺ «أتردين إليه حديقته»؟ قالت: نعم، فردت عليه حديقته، قال: ففرق بينهما رسول الله ﷺ.

وقد اختلف الأئمة رحمهم الله فى أنه هل يجوز للرجل أن يفاديها بأكثر مما أعطاها، فذهب الجمهور إلى جواز ذلك لعموم قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن علية، أخبرنا أيوب عن كثير مولى ابن سمرة أن عمر أتى بامرأة ناشز، فأمر بها إلى بيت كثير الزبل، ثم دعا بها فقال: كيف وجدت؟ فقالت: ما وجدت راحة منذ كنت عنده إلا هذه الليلة التى كنت حبستنى، فقال لزوجها: اخلعها ولو من قرطها، ورواه عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن كثير مولى ابن سمرة فذكر مثله، وزاد فحبسها فيه ثلاثة أيام، قال سعيد بن أبى عروبة عن قتادة، عن حميد بن عبد الرحمن: أن امرأة أتت عمر بن الخطاب، فشكت زوجها، فأباتها فى بيت الزبل، فلما أصبحت قال لها: كيف وجدت مكانك؟ قالت: ما كنت عنده ليلة أقر لعينى من هذه الليلة. فقال: خذ ولو عقاصها، وقال البخارى: وأجاز عثمان الخلع دون عقاص رأسها، وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، أن الربيع بنت معوذ بن عفراء حدثته، قالت: كان لى زوج يقل على الخير إذا حضرنى، ويحرمنى إذا غاب عنى، قالت: فكانت منى زلة يومًا فقلت له: أختلع منك بكل شىء أملكه، قال: نعم، قالت: ففعلت، قالت: فخاصم عمى معاذ بن عفراء إلى عثمان بن عفان، فأجاز الخلع وأمره أن يأخذ عقاص رأسى فما دونه، أو قالت: ما دون عقاص الرأس، ومعنى هذا أنه يجوز أن يأخذ منها كل ما بيدها من قليل وكثير ولا يترك لها سوى عقاص شعرها، وبه يقول ابن عمر وابن عباس ومجاهد وعكرمة وإبراهيم النخعى وقبيصة بن ذؤيب والحسن بن صالح وعثمان البتى، وهذا مذهب مالك والليث والشافعى وأبى ثور، واختاره ابن جرير.

وقال أصحاب أبى حنيفة: إن كان الإضرار من قبلها، جاز أن يأخذ منها ما أعطاها، ولا يجوز الزيادة عليه، فإن ازداد جاز فى القضاء، وإن كان الإضرار من جهته لم يجز أن يأخذ منها شيئًا، فإن أخذ، جاز فى القضاء. وقال الإمام أحمد وأبو عبيد وإسحاق بن راهويه: لا يجوز أن يأخذ أكثر مما أعطاها، وهذا قول سعيد بن المسيب وعطاء وعمرو بن شعيب والزهرى وطاووس والحسن والشعبى وحماد بن أبى سليمان والربيع بن أنس، وقال معمر والحكم: كان على يقول: لا يأخذ من المختلعة فوق ما أعطاها، وقال الأوزاعى: القضاة لا يجيزون أن يأخذ منها أكثر مما ساق إليها.

(قُلْتُ): ويستدل لهذا القول بما تقدم من رواية قتادة عن عكرمة، عن ابن عباس فى قصة ثابت بن

(١) ضعيف: ابن ماجه (٢٠٥٧)، ولكن الحديث صحيح.

قيس، فأمره رسول الله ﷺ أن يأخذ منها الحديقة ولا يزداد، وبما روى عبد بن حميد[1] حيث قال: أخبرنا قبيصة عن سفيان، عن ابن جريج، عن عطاء، أن النبى ﷺ، كره أن يأخذ منها أكثر مما أعطاها، يعنى المختلعة، وحملوا معنى الآية على معنى ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِۦ﴾ أى من الذى أعطاها لتقدم قوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِۦ﴾ أى من ذلك، وهكذا كان يقرؤها الربيع بن أنس «فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ منه» رواه ابن جرير، لهذا قال بعده ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

(فصل) قال الشافعى: اختلف أصحابنا فى الخلع، فأخبرنا سفيان عن عمرو بن دينار، عن طاووس، عن ابن عباس فى رجل طلق امرأته تطليقتين ثم اختلعت منه بعد، يتزوجها إن شاء، لأن الله تعالى يقول: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ - قرأ إلى - ﴿أَن يَتَرَاجَعَآ﴾ قال الشافعى: وأخبرنا سفيان عن عمرو، عن عكرمة، قال: كل شىء أجازه المال فليس بطلاق، وروى غير الشافعى عن سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن طاووس، عن ابن عباس: أن إبراهيم بن سعد بن أبى وقاص سأله قال: رجل طلق امرأته تطليقتين ثم اختلعت منه، أيتزوجها؟ قال: نعم، ليس الخلع بطلاق، ذكر الله الطلاق فى أول الآية وآخرها، والخلع فيما بين ذلك، فليس الخلع بشىء، ثم قرأ ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ وقرأ: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ وهذا الذى ذهب إليه ابن عباس رضى الله عنهما من أن الخلع ليس بطلاق وإنما هو فسخ، هو رواية عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان وابن عمر، وهو قول طاووس وعكرمة، وبه يقول أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وأبو ثور وداود بن على الظاهرى، وهو مذهب الشافعى فى القديم، وهو ظاهر الآية الكريمة، والقول الثانى فى الخلع: أنه طلاق بائن إلا أن ينوى أكثر من ذلك، قال مالك، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن جهمان مولى الأسلميين، عن أم بكر الأسلمية: أنها اختلعت من زوجها عبد الله بن خالد بن أسيد فأتيا عثمان بن عفان فى ذلك، فقال: تطليقة إلا أن تكون سميت شيئًا فهو ما سميت، قال الشافعى: ولا أعرف جهمان، وكذا ضعف أحمد بن حنبل هذا الأثر، والله أعلم.

وقد روى نحوه عن عمر وعلى وابن مسعود وابن عمر، وبه يقول سعيد بن المسيب والحسن وعطاء وشريح والشعبى وإبراهيم وجابر بن زيد، وإليه ذهب مالك وأبو حنيفة وأصحابه والثورى والأوزاعى وأبو عثمان البتى والشافعى فى الجديد، غير أن الحنفية عندهم أنه متى نوى المخالع تطليقة أو اثنتين أو أطلق، فهو واحدة بائنة، وإن نوى ثلاثا فثلاث، وللشافعى قول آخر فى الخلع، وهو أنه متى لم يكن بلفظ الطلاق، وعرى عن البينة، فليس هو بشىء بالكلية.

(مسألة) وذهب مالك وأبو حنيفة والشافعى وأحمد وإسحاق بن راهويه فى رواية عنهما، وهى المشهورة، إلى أن المختلعة عدتها عدة المطلقة بثلاثة قروء، إن كانت ممن تحيض، وروى ذلك عن عمر وعلى وابن عمر، وبه يقول سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار وعروة وسالم وأبو سلمة وعمر بن عبد العزيز وابن شهاب والحسن والشعبى وإبراهيم النخعى وأبو عياض وخلاس بن عمر

(١) مرسل: أخرجه من هذا الطريق البيهقي في «الكبرى» (٧/ ٣١٤)، برقم (١٤٦٢٤).

وقتادة وسفيان الثورى والأوزاعى والليث بن سعد وأبو عبيد. قال الترمذى: وهو قول أكثر أهل العلم من الصحابة وغيرهم، ومأخذهم فى هذا أن الخلع طلاق، فتعتد كسائر المطلقات، والقول الثانى أنها تعتد بحيضة واحدة تستبرئ بها رحمها. قال ابن أبى شيبة. حدثنا يحيى بن سعيد عن نافع، عن ابن عمر: أن الربيع اختلعت من زوجها، فأتى عمها عثمان رضى الله عنه، فقال: تعتد بحيضة. قال: وكان ابن عمر يقول: تعتد ثلاث حيض، حتى قال هذا عثمان، فكان ابن عمر يفتى به، ويقول: عثمان خيرنا وأعلمنا. وحدثنا عبدة عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر، قال: عدة المختلعة حيضة. وحدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربى، عن ليث، عن طاووس، عن ابن عباس، قال: عدتها حيضة، وبه يقول عكرمة وأبان بن عثمان وكل من تقدم ذكره ممن يقول أن الخلع فسخ يلزمه القول بهذا واحتجوا لذلك بما رواه أبو داود والترمذى[1] حيث قال: كل واحد منهما: حدثنا محمد بن عبد الرحيم البغدادى، حدثنا على بن بحر، أخبرنا هشام بن يوسف عن معمر، عن عمرو بن مسلم، عن عكرمة، عن ابن عباس، أن امرأة ثابت بن قيس اختلعت من زوجها على عهد النبى ﷺ، فأمرها النبى ﷺ أن تعتد بحيضة، ثم قال الترمذى: حسن غريب، وقد رواه عبد الرزاق[2] عن معمر، عن عمرو بن مسلم عن عكرمة مرسلاً.

(حديث آخر) - قال الترمذى[3]: حدثنا محمود بن غيلان، حدثنا الفضل بن موسى عن سفيان، حدثنا محمد بن عبد الرحمن، وهو مولى آل طلحة، عن سليمان بن يسار، عن الربيع بنت معوذ بن عفراء، أنها اختلعت على عهد رسول الله ﷺ، فأمرها النبى ﷺ، أو أمرت أن تعتد بحيضة قال الترمذى: الصحيح أنها أمرت أن تعتد بحيضة.

(طريق أخرى) - قال ابن ماجه[4]: حدثنا على بن سلمة النيسابورى، حدثنا يعقوب بن إبراهيم بن سعد، حدثنا أبى عن ابن إسحاق، أخبرنى عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت عن الرّبيّع بنت معوذ بن عفراء، قال: قلت لها: حدثينى حديثك، قالت: اختلعت من زوجى، ثم جئت عثمان فسألت عثمان: ماذا على من العدة؟ قال: لا عدة عليك إلا أن يكون حديث عهد بك، فتمكثين عنده حتى تحيضى حيضة، قالت: وإنما اتبع فى ذلك قضاء رسول الله ﷺ فى مريم المغالية، وكانت تحت ثابت بن قيس، فاختلعت منه وقد روى ابن لهيعة عن أبى الأسود، عن أبى سلمة ومحمد بن عبد الرحمن بن ثوبان عن الربيع بنت معوذ، قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يأمر امرأة ثابت بن قيس حين اختلعت منه أن تعتد بحيضة.

(مسألة) وليس للمخالع أن يراجع المختلعة فى العدة بغير رضاها عن الأئمة الأربعة وجمهور العلماء، لأنها قد ملكت نفسها بما بذلت له من العطاء. وروى عن عبد الله بن أبى أوفى وماهان

---

(١) صحيح: أبو داود (٢٢٢٩)، والترمذي (١١٨٥)، انظر صحيح سنن أبي داود.

(٢) الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٢٢٤)، برقم (٢٨٢٦)، من طريق عبد الرزاق عن معمر عن عمرو بن مسلم عن عكرمة مرسلاً.

(٣) صحيح: الترمذي (١١٨٥)، انظر صحيح جامع الترمذي.

(٤) حسن صحيح: ابن ماجه (٢٠٥٨)، انظر صحيح سنن ابن ماجه.

الحنفى وسعيد بن المسيب والزهرى أنهم قالوا: إن رد إليها الذى أعطاها جاز له رجعتها فى العدة بغير رضاها، وهو اختيار أبى ثور رحمه الله. وقال سفيان الثورى: إن كان الخلع بغير لفظ الطلاق فهو فرقة ولا سبيل له عليها، وإن كان يسمى طلاقًا فهو أملك لرجعتها ما دامت فى العدة، وبه يقول داود بن على الظاهرى، واتفق الجميع على أن للمختلع أن يتزوجها فى العدة، وحكى الشيخ أبو عمر بن عبد البر عن فرقة: أنه لا يجوز له ذلك كما لا يجوز لغيره، وهو قول شاذ مردود.

(مسألة) وهل له أن يوقع عليها طلاقًا آخر فى العدة؟ فيه ثلاثة أقوال للعلماء: (أحدها) ليس له ذلك، لأنها قد ملكت نفسها وبانت منه، وبه يقول ابن عباس وابن الزبير وعكرمة وجابر بن زيد والحسن البصرى والشافعى وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وأبو ثور. (والثانى) قال مالك: إن أتبع الخلع طلاقًا من غير سكوت بينهما، وقع، وإن سكت بينهما، لم يقع، قال ابن عبد البر: وهذا يشبه ما ورى عن عثمان رضى الله عنه. (والثالث) أنه يقع عليها الطلاق بكل حال ما دامت فى العدة، وهو قول أبى حنيفة وأصحابه والثورى والأوزاعى، وبه يقول سعيد بن المسيب وشريح وطاووس وإبراهيم والزهرى والحاكم والحكم وحماد بن أبى سليمان، وروى ذلك عن ابن مسعود وأبى الدرداء، وقال ابن عبد البر: وليس ذلك بثابت عنهما.

وقوله ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أى هذه الشرائع التى شرعها لكم. هى حدوده فلا تتجاوزوها، كما ثبت فى الحديث الصحيح «إن الله حد حدودًا فلا تعتدوها، وفرض فرائض فلا تضيعوها، وحرم محارم فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تسألوا عنها»[1]. وقد يستدل بهذه الآية من ذهب إلى أن جمع الطلقات الثلاث بكلمة واحدة حرام، كما هو مذهب المالكية ومن وافقهم، وإنما السنة عندهم أن يطلق واحدة لقوله ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ ثم قال ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ويقوون ذلك بحديث محمود بن لبيد الذى رواه النسائى[2] فى سننه حيث قال: حدثنا سليمان بن داود، أخبرنا ابن وهب عن مخرمة بن بكير، عن أبيه، عن محمود بن لبيد، قال: أخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعًا، فقام غضبان ثم قال «أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم» ؟ حتى قام رجل فقال: يا رسول الله، ألا أقتله - فيه انقطاع..

وَقَوْلُه تَعَالَى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ أى أنه إذا طلق الرجل امرأته طلقة ثالثة بعد ما أرسل عليها الطلاق مرتين، فإنها تحرم عليه ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾، أى حتى يطأها زوج آخر فى نكاح صحيح، فلو وطئها واطئ فى غير نكاح ولو فى ملك اليمين، لم تحل للأول، لأنه ليس بزوج، وهكذا لو تزوجت ولكن لم يدخل بها الزوج لم تحل للأول، واشتهر بين كثير من الفقهاء عن سعيد بن المسيب رحمه الله أنه يقول: يحصل المقصود من تحليلها للأول بمجرد العقد على الثانى،

---

(١) ضعيف موقوف: البيهقي في «الكبرى» (١٠/ ١٢)، برقم (١٩٥٠٩)، انظر ضعيف الجامع (١٥٩٧)، والمرفوع منه حسن لغيره: أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ١٢٩)، برقم (٧١١٤)، انظر تخريج الطحاوية: ص (٣٣٨). كلٌّ من حديث أبي ثعلبة الخشنى رضي الله عنه.

(٢) ضعيف: النسائي (٣٤٠١)، انظر ضعيف سنن النسائي.

وفى صحته عنه نظر، على أن الشيخ أبا عمر بن عبد البر قد حكاه عنه فى الاستذكار، والله أعلم. وقد قال أبو جعفر بن جرير [١] رحمه الله: حدثنا ابن بشار حدثنا محمد بن جعفر عن شعبة، عن علقمة بن مرثد، عن سالم بن رزين عن سالم بن عبد الله، عن سعيد بن المسيب، عن ابن عمر، عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم، فى الرجل يتزوج المرأة فيطلقها قبل أن يدخل بها البتة، فيتزوجها زوج آخر، فيطلقها قبل أن يدخل بها، أترجع إلى الأول؟ قال «لا، حتى تذوق عسيلته ويذوق عسيلتها» هكذا وقع فى رواية ابن جرير، وقد رواه الإمام أحمد [٢] فقال: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة عن علقمة بن مرثد، قال: سمعت سالم بن رزين يحدث عن سالم بن عبد الله يعنى ابن عمر، عن سعيد بن المسيب، عن ابن عمر، عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم، فى الرجل تكون له المرأة فيطلقها ثم يتزوجها رجل فيطلقها قبل أن يدخل بها، فترجع إلى زوجها الأول، فقال رسول الله ﷺ «حتى تذوق العسيلة» وهكذا رواه النسائى [٣] عن عمرو بن على الفلاس وابن ماجه [٤]، عن محمد بن بشار بندار، كلاهما عن محمد بن جعفر غندر، عن شعبة به، كذلك فهذا من رواية سعيد بن المسيب عن ابن عمر مرفوعًا على خلاف ما يحكى عنه، فبعيد أن يخالف ما رواه بغير مستند، والله أعلم. وقد روى أحمد أيضًا والنسائى وابن جرير [٥] هذا الحديث من طريق سفيان الثورى عن علقمة بن مرثد، عن رزين بن سليمان الأحمدى، عن ابن عمر، قال: سئل النبى ﷺ عن الرجل يطلق امرأته ثلاثًا، فيتزوجها آخر، فيغلق الباب، ويرخى الستر، ثم يطلقها قبل أن يدخل بها، هل تحل للأول؟ قال «لا، حتى تذوق العسيلة»، وهذا لفظ أحمد، وفى رواية لأحمد: سليمان بن رزين.

(حديث آخر) - قال الإمام أحمد [٦]: حدثنا عفان، حدثنا محمد بن دينار، حدثنا يحيى بن يزيد الهنائى عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ سئل عن رجل كانت تحته امرأة فطلقها ثلاثًا، فتزوجت بعده رجلًا فطلقها قبل أن يدخل بها، أتحل لزوجها الأول؟ فقال رسول الله ﷺ «لا، حتى يكون الآخر قد ذاق من عسيلتها وذاقت من عسيلته». وهكذا رواه ابن جرير [٧] عن محمد بن إبراهيم الأنماطى عن هشام بن عبد الملك، حدثنا محمد بن دينار، فذكره.

(قُلتُ) ومحمد بن دينار بن صندل أبو بكر الأزدى ثم الطائى البصرى ويقال له ابن أبى الفرات، اختلفوا فيه، فمنهم من ضعفه، ومنهم من قواه وقبله وحسن له، وذكر أبو داود أنه تغير قبل موته، فالله أعلم.

(حديث آخر) - قال ابن جرير [٨]: حدثنا عبيد بن آدم بن أبى إياس العسقلانى، حدثنا أبى، حدثنا شيبان، حدثنا يحيى بن أبى كثير، عن أبى الحارث الغفارى عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ،

---

(١) صحيح: ابن جرير (٢/ ٤٧٧ - ٤٧٨). (٢) صحيح: أحمد (٥٥٤٦).
(٣) صحيح: النسائي (٣٤١٤)، وانظر صحيح سنن النسائي.
(٤) صحيح: ابن ماجه (١٩٣٣)، وانظر صحيح سنن ابن ماجه.
(٥) صحيح: النسائي (٣٤١٥)، وأحمد (٤٧٦٢)، وابن جرير (٢/ ٤٧٨)، انظر صحيح سنن النسائي.
(٦) أحمد (١٣٦١٠)، ورجاله ثقات إلا أن محمد بن دينار الطاحي فيه كلام لا يضر.
(٧) ابن جرير (٢/ ٤٧٧) وفيه محمد بن دينار.
(٨) ابن جرير (٢/ ٤٧٦).

فى المرأة يطلقها زوجها ثلاثًا، فتتزوج غيره فيطلقها قبل أن يدخل بها، فيريد الأول أن يراجعها. قال «لا، حتى يذوق الآخر عسيلتها» ثم رواه من وجه آخر عن شيبان وهو ابن عبد الرحمن به - وأبو الحارث غير معروف.

(حديث آخر) - قال ابن جرير[١]: حدثنا يحيى عن عبيد الله، حدثنا القاسم عن عائشة: أن رجلًا طلق امرأته ثلاثًا، فتزوجت زوجًا، فطلقها قبل أن يمسها، فسئل رسول الله ﷺ: أتحل للأول؟ فقال «لا، حتى يذوق من عسيلتها كما ذاق الأول» أخرجه البخارى ومسلم والنسائى[٢] من طرق عن عبيد الله بن عمر العمرى عن القاسم بن عبد الرحمن بن أبى بكر عن عمته عائشة به.

(طريق أخرى) - قال ابن جرير[٣]: حدثنا عبيد الله بن إسماعيل الهبارى وسفيان بن وكيع وأبو هشام الرفاعى، قالوا: حدثنا أبو معاوية عن الأعمش، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة قالت: سئل النبى ﷺ عن رجل طلق امرأته، فتزوجت رجلًا غيره، فدخل بها ثم طلقها قبل أن يواقعها، أتحل لزوجها الأول؟ فقال رسول الله ﷺ «لا تحل لزوجها الأول حتى يذوق الآخر عسيلتها وتذوق عسيلته»، وكذا رواه أبو داود[٤] عن مسدد والنسائى[٥] عن أبى كريب، كلاهما عن أبى معاوية وهو محمد بن حازم الضرير به.

(طريق أخرى) - قال مسلم[٦] فى صحيحه: حدثنا محمد بن العلاء الهمدانى، حدثنا أبو أسامة عن هشام، عن أبيه، عن عائشة أن رسول الله ﷺ، سئل عن المرأة يتزوجها الرجل فيطلقها، فتتزوج رجلًا فيطلقها قبل أن يدخل بها، أتحل لزوجها الأول؟ قال «لا حتى يذوق عسيلتها»، قال مسلم: وحدثنا أبو بكر بن أبى شيبة، حدثنا أبو فضيل، وحدثنا أبو كريب، حدثنا أبو معاوية جميعًا عن هشام بهذا الإسناد، وقد رواه البخارى[٧] من طريق أبى معاوية محمد بن حازم عن هشام به، وتفرد به مسلم من الوجهين الآخرين، وهكذا رواه ابن جرير[٨] من طريق عبد الله بن المبارك عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة مرفوعًا بنحوه أو مثله - وهذا إسناد جيد، وكذا رواه ابن جرير[٩] أيضًا من طريق على بن زيد بن جدعان عن امرأة أبيه أمينة أم محمد، عن عائشة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم بمثله، وهذا السياق مختصر من الحديث الذى رواه البخارى[١٠]، حدثنا عمرو بن على، حدثنا يحيى عن هشام بن عروة، حدثنى أبى عن عائشة مرفوعًا عن النبى ﷺ، وحدثنا عثمان بن أبى شيبة، حدثنا عبدة عن هشام بن عروة عن أبيه، عن عائشة، أن رفاعة القرظى تزوج امرأة ثم طلقها، فأتت النبى ﷺ فذكرت له إنه لا يأتيها وأنه ليس معه إلا مثل هدبة الثوب، فقال «لا حتى تذوقى عسيلته ويذوق

---

(١) ابن جرير (٢/ ٤٧٧).
(٢) البخاري (٥٢٦٥)، ومسلم (١٤٣٣)، والنسائي (٣٤٠٩).
(٣) ابن جرير (٢/ ٤٧٦).
(٤) صحيح: أبو داود (٢٣٠٩)، انظر صحيح سنن أبي داود.
(٥) صحيح: النسائي (٣٤٠٧)، انظر صحيح سنن النسائي.
(٦) مسلم (١٤٣٣).
(٧) البخاري (٥٢٦٥).
(٨) ابن جرير (٢/ ٤٧٦).
(٩) ابن جرير (٢/ ٤٧٧).
(١٠) البخاري (٥٣١٧).

عسيلتك» تفرد به من هذا الوجه.

(طريق أخرى) - قال الإمام أحمد [١]: حدثنا عبد الأعلى عن معمر، عن الزهرى، عن عروة، عن عائشة، قالت: دخلت امرأة رفاعة القرظى وأنا وأبو بكر عند النبى ﷺ، فقالت: إن رفاعة طلقنى البتة، وإن عبد الرحمن بن الزبير تزوجنى، وإنما عنده مثل الهدبة، وأخذت هدبة من جلبابها، وخالد بن سعيد بن العاص بالباب لم يؤذن له، فقال: يا أبا بكر، ألا تنهى هذه عما تجهر به بين يدى رسول الله ﷺ، فما زاد رسول الله ﷺ عن التبسم، فقال رسول الله ﷺ «كأنك تريدين أن ترجعى إلى رفاعة، لا حتى تذوقى عسيلته ويذوق عسيلتك»، وهكذا رواه البخارى [٢] من حديث عبد الله بن المبارك ومسلم [٣] من حديث عبد الرزاق والنسائى [٤] من حديث يزيد بن زريع، ثلاثتهم عن معمر به، وفى حديث عبد الرزاق عند مسلم، أن رفاعة طلقها آخر ثلاث تطليقات، وقد رواه الجماعة [٥] إلا أبو داود من طريق سفيان بن عيينة والبخارى [٦] من طريق عقيل ومسلم من طريق يونس بن يزيد، وعنده آخر ثلاث تطليقات، والنسائى [٧] من طريق أيوب بن موسى، ورواه صالح بن أبى الأخضر، كلهم عن الزهرى عن عروة عن عائشة به. وقال مالك، عن المسور بن رفاعة القرظى، عن الزبير بن عبد الرحمن بن الزبير: أن رفاعة بن سموال طلق امرأته تميمة بنت وهب فى عهد رسول الله ﷺ ثلاثًا، فنكحت عبد الرحمن بن الزبير فاعترض عنها فلم يستطع أن يمسها ففارقها، فأراد رفاعة بن سموال أن ينكحها وهو زوجها الأول الذى كان طلقها فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فنهاه عن تزوجها، وقال «لا تحل لك حتى تذوق العسيلة» هكذا رواه أصحاب الموطأ عن مالك، وفيه انقطاع وقد رواه إبراهيم بن طهمان وعبد الله بن وهب عن مالك، عن رفاعة، عن الزبير بن عبد الرحمن بن الزبير، عن أبيه فوصله.

(فصل) والمقصود من الزوج الثانى أن يكون راغبًا فى المرأة، قاصدًا لدوام عشرتها، كما هو المشروع من التزويج، واشترط الإمام مالك مع ذلك، أن يطأها الثانى وطئًا مباحًا، فلو وطئها وهى محرمة أو صائمة أو معتكفة أو حائض أو نفساء أو الزوج صائم أو محرم أو معتكف لم تحل للأول بهذا الوطء، وكذا لو كان الزوج الثانى ذميًا لم تحل للمسلم بنكاحه، لأن أنكحة الكفار باطلة عنده، واشترط الحسن البصرى فيما حكاه عنه الشيخ أبو عمر بن عبد البر أن ينزل الزوج الثانى وكأنه تمسك بما فهمه من قوله عليه الصلاة والسلام «حتى تذوقى عسيلته ويذوق عسيلتك» ويلزم على هذا أن تنزل المرأة أيضًا، وليس المراد بالعسيلة المنى، لما رواه الإمام أحمد [٨] والنسائى عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «ألا إن العسيلة الجماع» فأما إذا كان الثانى إنما قصده أن يحلها للأول، فهذا هو المحلل الذى وردت الأحاديث بذمه ولعنه ومتى صرح بمقصوده فى العقد بطل النكاح عند جمهور الأئمة.

(١) أحمد (٢٣٥٣٨)، ورجاله ثقات. (٢) البخاري (٦٠٨٤).
(٣) مسلم: (١٤٣٣). (٤) صحيح: النسائي (٣٤٠٩)، انظر صحيح النسائي.
(٥) البخاري (٢٦٣٩)، ومسلم (١٤٣٣)، والترمذي (١١١٨)، والنسائي (٣٢٨٣)، وابن ماجه (١٩٣٢)، وأحمد (٢٣٥٧٨)، والدارمي (٢٢٦٧).
(٦) البخاري (٥٢٦٠)، مسلم (١٤٣٣). (٧) صحيح: النسائي (٣٤٠٨)، انظر صحيح النسائي.
(٨) صحيح: أحمد (٢٣٨١٠)، وانظر إرواء الغليل (٢٠٨٣).

(ذكر الأحاديث الواردة فى ذلك)

(الحديث الأول) عن ابن مسعود رضى الله عنه. قال الإمام أحمد[١]: حدثنا الفضل بن دكين، حدثنا سفيان عن أبى قيس عن الهزيل عن عبد الله قال: لعن رسول الله ﷺ: الواشمة والمستوشمة والواصلة والمستوصلة والمحلِّل والمحلَّل له وآكل الربا وموكله. ثم رواه أحمد والترمذى والنسائى[٢] من غير وجه عن سفيان وهو الثورى عن أبى قيس واسمه عبد الرحمن بن ثروان الأزدى عن هذيل بن شرحبيل الأزدى عن عبد الله بن مسعود عن النبى ﷺ به، ثم قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح. قال: والعمل على هذا عند أهل العلم من الصحابة منهم عمر وعثمان وابن عمر، وهو قول الفقهاء من التابعين، ويروى ذلك عن على وابن مسعود وابن عباس.

(طريق أخرى) عن ابن مسعود. قال الإمام أحمد[٣]: حدثنا زكريا بن عدى، حدثنا عبيد الله عن عبد الكريم عن أبى الواصل عن ابن مسعود عن رسول الله ﷺ قال: «لعن الله المحَلِّل والمحَلَّل له».

(طريق أخرى) - روى الإمام أحمد والنسائى[٤] من حديث الأعمش عن عبد الله بن مرة عن الحارث الأعور عن عبد الله بن مسعود، قال: آكل الربا وموكله وشاهداه وكاتبه إذا علموا به، والواصلة والمستوصلة، ولاوى الصدقة والمعتدى فيها، والمرتد على عقبيه إعراضًا بعد هجرته، والمحَلِل والمحَلَّل له، ملعونون على لسان محمد ﷺ يوم القيامة.

(الحديث الثانى) عن على رضى الله عنه، قال الإمام أحمد[٥]، حدثنا عبد الرزاق أخبرنا سفيان عن جابر عن الشعبى عن الحارث عن على قال: لعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم آكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه، والواشمة والمستوشمة للحسن، ومانع الصدقة، والمحلِّل والمحلَّل له، وكان ينهى عن النوح. وكذا رواه عن غندر عن شعبة عن جابر وهو ابن يزيد الجعفى عن الشعبى عن الحارث عن على به، وكذا رواه من حديث إسماعيل بن أبى خالد وحصين بن عبد الرحمن ومجالد بن سعيد وابن عون، عن عامر الشعبى به، وقد رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه[٦] من حديث الشعبى به. ثم قال أحمد: أخبرنا محمد بن عبد الله، أخبرنا إسرائيل عن أبى إسحاق عن الحارث عن على، قال: لعن رسول الله ﷺ صاحب الربا وآكله وكاتبه وشاهده، والمحلِّل والمحلَّل له.

(الحديث الثالث) عن جابر رضى الله عنه. قال الترمذى[٧]: أخبرنا أبو سعيد الأشج، أخبرنا أشعث بن عبد الرحمن بن زبيد الإيامى، حدثنا مجالد عن الشعبى عن جابر بن عبد الله، وعن الحارث عن على: أن رسول الله ﷺ لعن المحَلِّل والمحَلَّل له، ثم قال: وليس إسناده بالقائم.

---

(١) صحيح: أحمد (٤٢٧١).

(٢) صحيح: الترمذي (١١٢٠)، والنسائي (٣٤١٦)، وأحمد (٤٢٧٢)، وانظر صحيح الترمذي.

(٣) أحمد (٤٢٩٦)، وفيه أبو واصل مجهول.

(٤) صحيح: النسائي (٥١٠٢)، وأحمد (٣٨٧١)، انظر صحيح النسائي.

(٥) أحمد (٨٤٦)، وفيه جابر بن يزيد بن الحارث: كذبوه.

(٦) صحيح: الترمذي (١١١٩)، وابن ماجه (١٩٣٥)، انظر صحيح الترمذي.

(٧) انظر ما قبله.

ومجالد ضعفه غير واحد من أهل العلم منهم أحمد بن حنبل، قال: ورواه ابن نمير عن مجالد عن الشعبى عن جابر بن عبد الله عن على، قال: وهذا وهم من ابن نمير، والحديث الأول أصح.

(الحديث الرابع) عن عقبة بن عامر رضى الله عنه. قال أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه[١]، حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح المصرى، أخبرنا أبى، سمعت الليث بن سعد يقول قال: أبو المصعب سرح وهو ابن هاعان، قال عقبة بن عامر، قال رسول الله ﷺ «ألا أخبركم بالتيس المستعار»؟ قالوا: بلى يا رسول، قال: «هو المحَلّل، لعن الله المحَلّل والمحَلّل له» تفرد به ابن ماجه، كذا رواه إبراهيم بن يعقوب الجوزجانى عن عثمان بن صالح عن الليث به، ثم قال: كانوا ينكرون على عثمان فى هذا الحديث إنكارًا شديدًا.

(قُلْتُ) عثمان هذا أحد الثقات، روى عنه البخارى فى صحيحه ثم قد تابعه غيره، فرواه جعفر الفريابى عن العباس المعروف بابن فريق، عن أبى صالح عبد الله بن صالح، عن الليث به فبرئ من عهدته، والله أعلم.

(الحديث الخامس) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال ابن ماجه[٢]: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا أبو عامر عن زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس، قال: لعن رسول الله ﷺ المحَلّل والمحَلّل له.

(طريق أخرى) - قال الإمام الحافظ خطيب دمشق أبو إسحاق إبراهيم بن يعقوب الجوزجانى السعدى: حدثنا ابن أبى مريم، حدثنا إبراهيم بن إسماعيل بن أبى حنيفة عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس قال: سئل رسول الله ﷺ عن نكاح المحَلّل، قال: «لا، إلا نكاح رغبة لا نكاح دلسة، ولا استهزاء بكتاب الله ثم يذوق عسيلتها»[٣] ويتقوى هذان الإسنادان بما رواه أبو بكر بن أبى شيبة عن حميد عن عبد الرحمن عن موسى بن أبى الفرات عن عمرو بن دينار عن النبى ﷺ بنحوه من هذا، فيتقوى كل من هذا المرسل والذى قبله بالآخر، والله أعلم.

(الحديث السادس) عن أبى هريرة رضى الله عنه. قال الإمام أحمد[٤]: حدثنا أبو عامر، حدثنا عبد الله هو ابن جعفر عن عثمان بن محمد عن المقبرى عن أبى هريرة قال: لعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المحَلّل والمحَلّل له، وهكذا رواه أبو بكر بن أبى شيبة والجوزجانى والبيهقى من طريق عبد الله بن جعفر القرشى وقد وثقه أحمد بن حنبل وعلى بن المدينى ويحيى بن معين وغيرهم، وأخرج له مسلم فى صحيحه عن عثمان بن محمد الأخنسى وثقه ابن معين عن سعيد المقبرى وهو متفق عليه.

---

(١) حسن: ابن ماجه (١٩٣٦)، انظر صحيح ابن ماجه.

(٢) صحيح: ابن ماجه (١٩٣٤)، انظر صحيح ابن ماجه.

(٣) الطبراني في «الكبير» (١١/ ٢٢٦)، برقم (١١٥٦٧)، وفيه داود بن الحصين يرويه عن عكرمة، قال الحافظ: ثقة إلا في عكرمة، وإبراهيم بن أبي حبيبة: ضعيف وحديث عمرو بن دينار مرسل.

(٤) أحمد (٨٠٨٨)، وفيه عثمان بن محمد الأخنسي. وثقه ابن معين وابن حبان وقال ابن المديني: له عن أبي هريرة أحاديث مناكير.

(الحديث السابع) عن ابن عمر رضى الله عنهما. قال الحاكم فى مستدركه[1]، حدثنا أبو العباس الأصم، حدثنا محمد بن إسحاق الصنعانى، حدثنا سعيد بن أبى مريم حدثنا أبو يمان محمد بن مطرف المدنى عن عمر بن نافع عن أبيه أنه قال: جاء رجل إلى ابن عمر فسأله عن رجل طلق امرأته ثلاثًا فتزوجها أخ له من غير مؤامرة منه ليحلها لأخيه، هل تحل للأول؟ فقال: لا إلا نكاح رغبة كنا نعد هذا سفاحًا على عهد رسول الله ﷺ، ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقد رواه الثورى عن عبد الله بن نافع عن أبيه عن ابن عمر به، وهذه الصيغة مشعرة بالرفع وهكذا روى أبو بكر بن أبى شيبة والجوزجانى وحرب الكرمانى وأبو بكر الأثرم من حديث الأعمش عن المسيب بن رافع عن قبيصة بن جابر، عن عمر أنه قال: لا أوتى بمحَلِّل ولا محَلَّل له إلا رجمتهما، وروى البيهقى من حديث ابن لهيعة عن بكير بن الأشج عن سليمان بن يسار، أن عثمان بن عفان رفع إليه رجل تزوج امرأة ليحلها لزوجها ففرق بينهما وكذا روى عن على وابن عباس وغير واحد من الصحابة رضى الله عنهم.

وقوله ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ أى الزوج الثانى بعد الدخول بها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ﴾ أى المرأة والزوج الأول ﴿إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ أى يتعاشرا بالمعروف. قال مجاهد إن ظنا أن نكاحهما على غير دلسة ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أى شرائعه وأحكامه ﴿يُبَيِّنُهَا﴾ أى يوضحها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

وقد اختلف الأئمة رحمهم الله فيما إذا طلق الرجل امرأته طلقة أو طلقتين وتركها حتى انقضت عدتها، ثم تزوجت بآخر، فدخل بها ثم طلقها فانقضت عدتها، ثم تزوجها الأول، هل تعود إليه بما بقى من الثلاث، كما هو مذهب مالك والشافعى وأحمد بن حنبل، وهو قول طائفة من الصحابة رضى الله عنهم، أو يكون الزوج الثانى قد هدم ما قبله من الطلاق، فإذا عادت إلى الأول تعود بمجموع الثلاث، كما هو مذهب أبى حنيفة وأصحابه رحمهم الله، وحجتهم أن الزوج الثانى إذا هدم الثلاث فلأن يهدم ما دونها بطريق الأولى والأحرى، والله أعلم.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾﴾

هذا أمر من الله، عز وجل للرجال، إذا طلق أحدهم المرأة طلاقًا له عليها فيه رجعة، أن يحسن فى أمرها إذا انقضت عدتها، ولم يبق منها إلا مقدار ما يمكنه فيه رجعتها، فإما أن يمسكها، أى يرتجعها، إلى عصمة نكاحه، بمعروف وهو أن يشهد على رجعتها، وينوى عشرتها بالمعروف، أو يسرحها، أى يتركها حتى تنقضى عدتها ويخرجها من منزله بالتى هى أحسن، من غير شقاق ولا مخاصمة ولا تقابح، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟﴾، قال ابن عباس، ومجاهد ومسروق والحسن وقتادة والضحاك والربيع ومقاتل بن حيان وغير واحد: كان الرجل يطلق المرأة، فإذا قاربت انقضاء العدة راجعها، ضرارًا لئلا تذهب إلى غيره، ثم يطلقها فتعتد، فإذا شارفت على انقضاء العدة طلق

(١) صحيح: الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٢١٧)، برقم (٢٨٠٦)، وقد صححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

لتطول عليها العدة، فنهاهم الله عن ذلك، وتوعدهم عليه، فقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ أى بمخالفته أمر الله تعالى.

وَقَوْلُه تَعَالَى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا۟﴾ قال ابن جرير [١] عند هذه الآية: أخبرنا أبو كريب، أخبرنا إسحاق بن منصور عن عبد السلام بن حرب، عن يزيد بن عبد الرحمن، عن أبى العلاء الأزدى، عن حميد بن الرحمن، عن أبى موسى، أن رسول الله ﷺ غضب على الأشعريين، فأتاه أبو موسى فقال: يا رسول الله، أغضبت على الأشعريين؟ فقال: «يقول أحدكم قد طلقت، قد راجعت، ليس هذا طلاق المسلمين، طلقوا المرأة فى قبل عدتها» ثم رواه من وجه آخر عن أبى خالد الدالانى وهو يزيد بن عبد الرحمن، وفيه كلام. وقال مسروق: هو الذى يطلق فى غير كنهه، ويضار امرأته بطلاقها وارتجاعها لتطول عليها العدة، وقال الحسن وقتادة وعطاء الخراسانى والربيع ومقاتل بن حيان: هو الرجل يطلق ويقول: كنت لاعبًا، أو يعتق أو ينكح ويقول: كنت لاعبًا، فأنزل الله ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا۟﴾ فألزم الله بذلك، وقال ابن مردويه: حدثنا إبراهيم بن محمد، حدثنا أبو أحمد الصيرفى، حدثنى جعفر بن محمد السمسار، عن إسماعيل بن يحيى عن سفيان، عن ليث، عن مجاهد، عن ابن عباس، قال: طلق رجل امرأته وهو يلعب لا يريد الطلاق، فأنزل الله ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا۟﴾ فألزمه رسول الله ﷺ الطلاق [٢].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا عصام بن رواد، حدثنا آدم، حدثنا المبارك بن فضالة عن الحسن هو البصرى، قال: كان الرجل يطلق ويقول: كنت لاعبًا ويعتق ويقول: كنت لاعبًا، وينكح ويقول: كنت لاعبًا، فأنزل الله ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا۟﴾، وقال رسول الله ﷺ: «من طلق أو أعتق أو نكح أو أنكح، جادًا أو لاعبًا، فقد جاز عليه» وكذا رواه ابن جرير [٣]، من طريق الزهرى، عن سليمان بن أرقم، عن الحسن مثله، وهذا مرسل، وقد رواه ابن مردويه، عن طريق عمرو بن عبيد، عن الحسن، عن أبى الدرداء موقوفًا عليه.

وقال أيضًا: حدثنا أحمد بن الحسن بن أيوب، حدثنا يعقوب بن أبى يعقوب، حدثنا يحيى بن عبد الحميد، حدثنا أبو معاوية عن إسماعيل بن سلمة عن الحسن عن عبادة بن الصامت فى قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا۟﴾.

قال: كان الرجل على عهد النبى ﷺ يقول للرجل: زوجتك ابنتى ثم يقول: كنت لاعبًا، ويقول:

---

(١) ابن جرير (٢/ ٤٨٣)، وفيه يزيد بن عبد الرحمن: صدوق يخطئ كثيرا، وهو مدلس وقد عنعنه، وبقية رجاله ثقات.

(٢) حسن لغيره: عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٦٨٣)، لابن مردويه، وفيه ليث بن أبي سليم، اختلط ولم تتميز أحاديثه فترك.

لكن للحديث شواهد:

منها: ما أخرجه ابن أبي حاتم (٢/ ٤٢٥)، برقم (٢٢٤٨)، عن الحسن البصرى، وإسناده مرسل صحيح إلى الحسن.

ومنها: عن عبادة بن الصامت؛ عزاه لابن مردويه وهو من طريق الحسن البصرى عن عبادة بن الصامت والحسن يرسل، وعندي أن رواية ابن عباس تتقوى بمرسل الحسن البصرى.

(٣) ابن جرير (٢/ ٤٨٢).

قد أعتقت، ويقول: كنت لاعبًا، فأنزل الله ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا۟﴾، قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من قالهن لاعبًا أو غير لاعب، فهن جائزات عليه: الطلاق والعتاق والنكاح» والمشهور فى هذا الحديث الذى رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه [١] من طريق عبد الرحمن بن حبيب بن أدرك عن عطاء عن ابن ماهك عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث جدهن جد، وهزلهن جد: النكاح والطلاق والرجعة» وقال الترمذى: حسن غريب.

وقوله ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، أى فى إرساله الرسول بالهدى والبينات إليكم: ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [البقرة: ٢٣١]، أى السنة ﴿يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ أى يأمركم وينهاكم ويتوعدكم على ارتكاب المحارم، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾، أى فيما تأتون وفيما تذرون، ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أى فلا يخفى عليه شىء من أموركم السرية والجهرية وسيجازيكم على ذلك.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: نزلت هذه الآية فى الرجل يطلق امرأته طلقة أو طلقتين، فتنقضى عدتها، ثم يبدو له أن يتزوجها وأن يراجعها، وتريد المرأة ذلك فيمنعها أولياؤها من ذلك، فنهى الله أن يمنعوها. وكذا روى العوفى عنه عن ابن عباس أيضًا، وكذا قال مسروق وإبراهيم النخعى والزهرى والضحاك: إنها أنزلت فى ذلك، وهذا الذى قالوه ظاهر من الآية، وفيها دلالة على أن المرأة لا تملك أن تزوج نفسها، وأنه لا بد فى النكاح من ولى، كما قاله الترمذى وابن جرير عند هذه الآية، كما جاء فى الحديث «لا تزوج المرأة المرأة، ولا تزوج المرأة نفسها، فإن الزانية هى التى تزوج نفسها» [٢] وفى الأثر الآخر «لا نكاح إلا بولى مرشد وشاهدى عدل» [٣] وفى هذه المسألة نزاع بين العلماء، محرر فى موضعه من كتب الفروع، وقد قررنا ذلك فى كتاب الأحكام، ولله الحمد والمنة.

وقد روى أن هذه الآية نزلت فى معقل بن يسار المزنى وأخته، فقال البخارى رحمه الله فى كتابه

---

(١) **حسن**: أبو داود (٢١٩٤)، والترمذي (١١٨٤)، وابن ماجه (٢٠٣٩)، انظر صحيح أبو داود.

(٢) **صحيح**: ابن ماجه (١٨٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. انظر صحيح سنن ابن ماجه.

(٣) ورد هذا الحديث عن غير واحد من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين منهم جابر بن عبد الله، وعمران بن حصين وعائشة رضي الله عنهم.

أما رواية جابر بن عبد الله: فعند الطبراني في «الأوسط» (٥/ ٣٦٣)، برقم (٥٥٦٤)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٤/ ٢٨٦)، رواه الطبراني في «الأوسط» من طريق محمد بن عبد الملك عن أبي الزبير فإن كان هو الواسطي الكبير فهو ثقة وإلا فلم أعرفه وبقية رجاله ثقات.

وأما حديث عمران بن حصين: صحيح: الطبراني في «الكبير» (١٨/ ١٤٢)، برقم (٢٩٩)، وقال الحافظ ابن حجر في التلخيص (٣/ ١٥٦): رواه أحمد والدارقطني والطبراني والبيهقي من حديث الحسن عنه وفي إسناده عبد الله بن محرز وهو متروك ورواه الشافعي من وجه آخر عن الحسن مرسلاً وقال الحافظ: وهذا وإن كان منقطعًا فإن أكثر أهل العلم يقولون به، وانظر الإرواء (١٨٦٠).

وأما حديث عائشة: صحيح: الدارقطني (٣/ ٢٢٧)، برقم (٢٤)، الطبراني في «الأوسط»، (٩/ ١١٧)، برقم (٩٢٩١)، وانظر صحيح الجامع (٧٥٥٧).

الصحيح عند تفسير هذه الآية: حدثنا عبيد الله بن سعيد، حدثنا أبو عامر العقدى، حدثنا عباد بن راشد، حدثنا الحسن، قال: حدثنى معقل بن يسار، قال: كانت لى أخت تخطب إلى.

قال البخارى [1]: وقال إبراهيم عن يونس، عن الحسن، حدثنى معقل بن يسار، وحدثنا أبو معمر، وحدثنا عبد الوارث، حدثنا يونس عن الحسن، أن أخت معقل بن يسار طلقها زوجها، فتركها حتى انقضت عدتها فخطبها، فأبى معقل، فنزلت ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ﴾ وهكذا رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه وابن أبى حاتم وابن جرير [2] وابن مردويه من طرق متعددة عن الحسن، عن معقل بن يسار به، وصححه الترمذى أيضًا، ولفظه عن معقل بن يسار، أنه زوج أخته رجلًا من المسلمين، على عهد رسول الله ﷺ فكانت عنده ما كانت، ثم طلقها تطليقة لم يراجعها حتى انقضت عدتها، فهويها وهويته، ثم خطبها مع الخطاب، فقال له: يا لكع بن لكع! أكرمتك بها وزوجتكها فطلقتها، والله لا ترجع إليك أبدًا آخر ما عليك، قال: فعلم الله حاجته إليها، وحاجتها إلى بعلها، فأنزل الله ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ إلى قوله ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فلما سمعها معقل قال: سمعًا لربى وطاعة ثم دعاه، فقال: أزوجك وأكرمك، زاد ابن مردويه: وكفرت عن يمينى.

وروى ابن جرير، عن ابن جريج، قال: هى جُمْل بنت يسار، كانت تحت أبى البداح. وقال سفيان الثورى، عن أبى إسحاق السبيعى، قال: هى فاطمة بنت يسار. وهكذا ذكر غير واحد من السلف، أن هذه الآية نزلت فى معقل بن يسار وأخته. وقال السدى: نزلت فى جابر بن عبد الله وابنة عم له والصحيح الأول والله أعلم.

وقوله ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أى هذا الذى نهيناكم عنه من منع الولايا أن يتزوجن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف يأتمر به، ويتعظ به، وينفعل له ﴿مَن كَانَ مِنكُمْ﴾ أيها الناس ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أى يؤمن بشرع الله، ويخاف وعيد الله وعذابه، فى الدار الآخرة، وما فيها من الجزاء ﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ أى اتباعكم شرع الله، فى رد المواليات إلى أزواجهن، وترك الحمية فى ذلك أزكى لكم وأطهر لقلوبكم ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ أى من المصالح، فيما يأمر به وينهى عنه ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أى الخيرة فيما تأتون، ولا فيما تذرون.

نصف الحزب ٤

﴿۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾

هذا إرشاد من الله تعالى للوالدات أن يرضعن أولادهن كمال الرضاعة، وهى سنتان فلا اعتبار بالرضاعة بعد ذلك، ولهذا قال: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ وذهب أكثر الأئمة إلى أنه لا يحرم من

---

(١) البخاري (٤٥٢٩).

(٢) صحيح: أبو داود (٢٠٨٧)، والترمذي (٢٩٨١)، وابن ماجه (٢٠٨٧)، وابن جرير (٢/ ٤٨٤)، وابن أبي حاتم (٢/ ٤٢٦)، برقم (٢٢٥٤).

الرضاعة إلا ما كان دون الحولين، فلو ارتضع المولود وعمره فوقهما لم يحرم. قال الترمذى[١]: (باب ما جاء أن الرضاعة لا تحرم إلا فى الصغر دون الحولين) حدثنا قتيبة، حدثنا أبو عوانة عن هشام بن عروة، عن فاطمة بنت المنذر، عن أم سلمة، قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يحرم من الرضاع إلا ما فتق الأمعاء فى الثدى وكان قبل الفطام» هذا حديث حسن صحيح، والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم، أن الرضاعة لا تحرم إلا ما كان دون الحولين، وما كان بعد الحولين الكاملين، فإنه لا يحرم شيئًا، وفاطمة بنت المنذر بن الزبير بن العوام، وهى امرأة هشام بن عروة.

(قُلْتُ) تفرد الترمذى برواية هذا الحديث ورجاله على شرط الصحيحين، ومعنى قوله «إلا ما كان فى الثدى» أى فى محال الرضاعة قبل الحولين، كما جاء فى الحديث الذى رواه أحمد[٢] عن وكيع، وغندر عن شعبة، عن عدى بن ثابت، عن البراء بن عازب، قال: لما مات إبراهيم بن النبى صلى الله عليه وآله وسلم، قال: «إن ابنى مات فى الثدى، إن له مرضعًا فى الجنة»، وهكذا أخرجه البخارى[٣] من حديث شعبة وإنما قال عليه السلام ذلك، لأن ابنه إبراهيم عليه السلام، مات وله سنة وعشرة أشهر، فقال: «إن له مرضعًا في الجنة»، يعنى تكمل رضاعه، ويؤيده ما رواه الدارقطنى[٤] من طريق الهيثم بن جميل عن سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحرم من الرضاع إلا ما كان فى الحولين» ثم قال: ولم يسنده عن ابن عيينة غير الهيثم بن جميل، وهو ثقة حافظ.

(قُلْتُ) وقد رواه الإمام مالك[٥] فى الموطأ عن ثور بن يزيد، عن ابن عباس مرفوعًا، ورواه الدراوردى عن ثور، عن عكرمة، عن ابن عباس، وزاد «وما كان بعد الحولين فليس بشىء» وهذا أصح.

وقال أبو داود الطيالسى[٦]، عن جابر، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا رضاع بعد فصال، ولا يتم بعد احتلام» وتمام الدلالة من هذا الحديث فى قوله تعالى: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى﴾ [لقمان: ١٤]، وقال ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥] والقول بأن الرضاعة لا تحرم بعد الحولين، يروى عن على وابن عباس وابن مسعود وجابر وأبى هريرة وابن عمر وأم سلمة وسعيد بن المسيب وعطاء والجمهور، وهو مذهب الشافعى وأحمد وإسحاق والثورى وأبى يوسف ومحمد ومالك فى رواية، وعنه أن مدته سنتان وشهران، وفى رواية: وثلاثة أشهر. وقال أبو حنيفة: سنتان وستة أشهر.

(١) صحيح: الترمذي (١١٥٢)، انظر صحيح جامع الترمذي.
(٢) صحيح: أحمد بنحوه (١٨١٨٩)، وانظر صحيح الجامع (٢١٨٨).
(٣) البخاري (١٣٨٢).
(٤) صحيح موقوف: الدارقطني (٤/ ١٧٤)، برقم (١٠)، ورجاله ثقات، إلا أن الحفاظ يرون أن الهيثم بن جميل وهم في رفعه، والمحفوظ وقفه: أخرجه مالك (١٢٨٠)، والبيهقي في «الكبرى» (٧/ ٤٦٢)، برقم (١٥٤٤٧).
(٥) مالك في «الموطأ» (١٢٨٠)، ورجاله ثقات.
(٦) حسن لشواهده: أبو داود الطيالسي في «مسنده» (١/ ٢٤٣)، برقم (١٧٦٧)، وإسناده ضعيف، وله شاهد من حديث علي رضي الله عنه، أخرجه الخطيب في «تاريخه» (٥/ ٢٩٩)، وفيه مجهول. وللحديث شواهد سبق تخريجها.

وقال زفر بن الهذيل: ما دام يرضع فإلى ثلاث سنين، وهذا رواية عن الأوزاعى، قال مالك: ولو فطم الصبى دون الحولين، فأرضعته امرأة بعد فصاله، لم يحرم لأنه قد صار بمنزلة الطعام، وهو رواية عن الأوزاعى، وقد روى عن عمر وعلى أنهما قالا: لا رضاع بعد فصال، فيحتمل أنهما أرادا الحولين، كقول الجمهور: سواء فطم أو لم يفطم ويحتمل أنهما أرادا الفعل كقول مالك، والله أعلم، وقد روى فى الصحيحين [١] عن عائشة رضى الله عنها، أنها كانت ترى رضاع الكبير يؤثر فى التحريم، وهو قول عطاء بن أبى رباح والليث بن سعد، وكانت عائشة تأمر بمن تختار أن يدخل عليها من الرجال لبعض نسائها، فترضعه، وتحتج فى ذلك بحديث سالم مولى أبى حذيفة حيث أمر النبى ﷺ امرأة أبى حذيفة أن ترضعه وكان كبيرًا، فكان يدخل عليها بتلك الرضاعة، وأبى ذلك سائر أزواج النبى ﷺ، ورأين ذلك من الخصائص، وهو قول الجمهور، وحجة الجمهور وهم الأئمة الأربعة، والفقهاء السبعة، والأكابر من الصحابة، وسائر أزواج رسول الله ﷺ، سوى عائشة ما ثبت فى الصحيحين [٢] عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «انظرن من إخوانكم فإنما الرضاعة من المجاعة» وسيأتى الكلام على مسائل الرضاع وفيما يتعلق برضاع الكبير، عند قوله تعالى: ﴿وَأَمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾ [النساء: ٢٣].

وقوله: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أى وعلى والد الطفل نفقة الوالدات وكسوتهن بالمعروف، أى بما جرت به عادة أمثالهن فى بلدهن من غير إسراف ولا إقتار، بحسب قدرته فى يساره، وتوسطه وإقتاره، كما قال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧] قال الضحاك: إذا طلق زوجته وله منها ولد، فأرضعت له ولده، وجب على الوالد نفقتها وكسوتها بالمعروف.

وقوله: ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا﴾ أى بأن تدفعه عنها لتضر أباه بتربيته، ولكن ليس لها دفعه إذا ولدته حتى تسقيه اللبن الذى لا يعيش بدون تناوله غالبًا، ثم بعد هذا لها دفعه عنها إذا شاءت، ولكن إن كانت مضارة لأبيه، فلا يحل لها ذلك، كما لا يحل له انتزاعه منها لمجرد الضرار لها، ولهذا قال: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ أى بأن يريد أن ينتزع الولد منها إضرارًا بها، قاله مجاهد وقتادة والضحاك والزهرى والسدى والثورى وابن زيد وغيرهم.

وَقَوْلُه تَعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ قيل: فى عدم الضرار لقريبه، قاله مجاهد والشعبى والضحاك، وقيل: عليه مثل ما على والد الطفل من الإنفاق على والدة الطفل والقيام بحقوقها وعدم الإضرار بها، وهو قول الجمهور، وقد استقصى ذلك ابن جرير فى تفسيره، وقد استدل بذلك من ذهب من الحنفية والحنبلية إلى وجوب نفقة الأقارب بعضهم على بعض، وهو مروى عن عمر بن الخطاب وجمهور السلف، ويرشح ذلك بحديث الحسن عن سمرة مرفوعًا «من ملك ذا رحم محرم، عتق عليه» [٣] وقد ذكر أن الرضاعة بعد الحولين ربما ضرت الولد إما فى بدنه أو عقله. وقال سفيان

---

(١) البخاري (٥١٠٢)، ومسلم (١٤٥٥).

(٢) البخاري (٢٦٤٧)، ومسلم (١٤٥٥).

(٣) صحيح: أبو داود (٣٩٤٩)، والترمذي (١٣٦٥)، وابن ماجه (٢٥٢٤)، وأحمد (١٩٧١٥)، وانظر صحيح سنن أبي داود.

الثورى، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة: أنه رأى امرأة ترضع بعد الحولين، فقال: لا ترضعيه.

وقوله: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أى فإن اتفق والدا الطفل على فطامه قبل الحولين، ورأيا فى ذلك مصلحة له، وتشاورا فى ذلك وأجمعا عليه، فلا جناح عليهما فى ذلك، فيؤخذ منه أن انفراد أحدهما بذلك دون الآخر لا يكفى، ولا يجوز لواحد منهما أن يستبد بذلك من غير مشاورة الآخر، قاله الثورى وغيره، وهذا فيه احتياط للطفل وإلزام للنظر فى أمره، وهو من رحمة الله بعباده حيث حجر على الوالدين فى تربية طفلهما، وأرشدهما إلى ما يصلحهما ويصلحه، كما قال فى سورة الطلاق ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ﴾[الطلاق: ٦].

وَقَوْلُه تَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم﴾ أى إذا اتفقت الوالدة والوالد على أن يستلم منها الولد إما لعذر منها أو لعذر له، فلا جناح عليهما فى بذله، ولا عليه فى قبوله منها إذا سلمها أجرتها الماضية بالتى هى أحسن، واسترضع لولده غيرها بالأجرة بالمعروف، قاله غير واحد. وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أى فى جميع أحوالكم ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أى فلا يخفى عليه شىء من أحوالكم وأقوالكم.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾

هذا أمر من الله للنساء اللاتى يتوفى عنهن أزواجهن، أن يعتددن أربعة أشهر وعشر ليال، وهذا الحكم يشمل الزوجات المدخول بهن وغير المدخول بهن بالإجماع، ومستنده فى غير المدخول بها عموم الآية الكريمة، وهذا الحديث الذى رواه الإمام أحمد وأهل السنن[1] وصححه الترمذى: أن ابن مسعود سئل عن رجل تزوج امرأة فمات عنها، ولم يدخل بها ولم يفرض لها، فترددوا إليه مرارًا فى ذلك، فقال أقول فيها برأيى، فإن يك صوابًا فمن الله، وإن يك خطأ فمنى ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه: لها الصداق كاملًا، وفى لفظ: لها صداق مثلها لا وكس ولا شطط، وعليها العدة، ولها الميراث، فقام معقل بن يسار الأشجعى فقال: سمعت رسول الله ﷺ، قضى به فى بروع بنت واشق ففرح عبد الله بذلك فرحًا شديدًا.

وفى رواية: فقام رجال من أشجع فقالوا: نشهد أن رسول الله ﷺ قضى به فى بروع بنت واشق. ولا يخرج من ذلك إلا المتوفى عنها زوجها، وهى حامل، فإن عدتها بوضع الحمل ولو لم تمكث بعده سوى لحظة لعموم قوله: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾[الطلاق: ٤] وكان ابن عباس يرى أن عليها أن تتربص بأبعد الأجلين من الوضع، أو أربعة أشهر وعشر للجمع بين الآيتين، وهذا مأخذ جيد ومسلك قوى، لولا ما ثبتت به السنة فى حديث سبيعة الأسلمية المخرج فى الصحيحين[2]

---

(١) صحيح: أحمد (١٧٩٩٢)، وأبو داود (٢١١٤)، والترمذي (١١٤٥)، والنسائي (٣٣٥٥)، وابن ماجه (١٨٩١)، والدارمي (٢٢٤٦)، انظر صحيح سنن أبي داود.

(٢) البخاري (٥٣١٩)، ومسلم (١٤٨٤).

من غير وجه، أنها توفى عنها زوجها سعد بن خولة وهى حامل، فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته، وفى رواية: فوضعت حملها بعده بليال، فلما تعلت من نفاسها، تجملت للخطاب، فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك، فقال لها: ما لى أراك متجملة لعلك ترجين النكاح؟ والله ما أنت بناكح حتى يمر عليك أربعة أشهر وعشر.

قالت سبيعة: فلما قال لى ذلك، جمعت على ثيابى حين أمسيت، فأتيت رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك، فأفتانى بأنى قد حللت حين وضعت حملى، وأمرنى بالتزويج إن بدا لى، قال أبو عمر بن عبد البر: وقد روى أن ابن عباس رجع إلى حديث سبيعة، يعنى لما احتج عليه به، قال: ويصحح ذلك عنه، أن أصحابه أفتوا بحديث سبيعة كما هو قول أهل العلم قاطبة. وكذلك يستثنى من ذلك الزوجة إذا كانت أمة، فإن عدتها على النصف من عدة الحرة، شهران وخمس ليال على قول الجمهور، لأنها لما كانت على النصف من الحرة فى الحد، فكذلك فلتكن على النصف منها فى العدة. ومن العلماء كمحمد بن سيرين وبعض الظاهرية من يسوى بين الزوجات الحرائر والإماء فى هذا المقام لعموم الآية، ولأن العدة من باب الأمور الجبلية التى تستوى فيها الخليقة، وقد ذكر سعيد بن المسيب، وأبو العالية وغيرهما، أن الحكمة فى جعل عدة الوفاة أربعة أشهر وعشرًا، لاحتمال اشتمال الرحم على حمل، فإذا انتظر به هذه المدة، ظهر إن كان موجودًا، كما جاء فى حديث ابن مسعود الذى فى الصحيحين [1] وغيرهما «إن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث إليه الملك فينفخ فيه الروح» فهذه ثلاث أربعينات بأربعة أشهر، والاحتياط بعشر بعدها لما قد ينقص بعض الشهور، ثم لظهور الحركة بعد نفخ الروح فيه، والله أعلم.

قال سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة: سألت سعيد بن المسيب: ما بال العشرة؟ قال: فيه ينفخ الروح، وقال الربيع بن أنس: قلت لأبى العالية: لم صارت هذه العشر مع الأشهر الأربعة؟ قال: لأنه ينفخ فيه الروح، رواهما ابن جرير، ومن ههنا ذهب الإمام أحمد، فى رواية عنه، إلى أن عدة أم الولد عدة الحرة ههنا، لأنها صارت فراشًا كالحرائر، وللحديث الذى رواه الإمام أحمد [2] عن يزيد بن هارون، عن سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة عن رجاء بن حيوة، عن قبيصة بن ذؤيب، عن عمرو بن العاص أنه قال: لا تلبسوا علينا سنة نبينا، عدة أم الولد، إذا توفى عنها سيدها أربعة أشهر وعشر. ورواه أبو داود عن قتيبة [3]، عن غندر، وعن ابن المثنى، عن عبد الأعلى، وابن ماجه [4] عن على بن محمد، عن الربيع، ثلاثتهم عن سعيد بن أبى عروبة، عن مطر الوراق، عن رجاء بن حيوة، عن قبيصة، عن عمرو بن العاص، فذكره. وقد روى عن الإمام أحمد أنه أنكر هذا الحديث، وقيل إن قبيصة لم يسمع عمرًا، وقد ذهب إلى القول بهذا الحديث طائفة من السلف، منهم سعيد بن المسيب ومجاهد وسعيد بن جبير، والحسن وابن سيرين وأبو عياض والزهرى وعمر بن عبد العزيز، وبه كان

(١) البخاري (٧٤٥٤)، ومسلم (٢٦٤٣). (٢) أحمد (١٧٣٤٧)، ورجاله ثقات.
(٣) صحيح: أبو داود (٢٣٠٨)، انظر صحيح سنن أبي داود.
(٤) صحيح: ابن ماجه (٢٠٨٣)، انظر صحيح سنن ابن ماجه.

يأمر يزيد بن عبد الملك بن مروان، وهو أمير المؤمنين، وبه يقول الأوزاعي وإسحاق بن راهويه وأحمد بن حنبل في رواية عنه، وقال طاووس وقتادة: عدة أم الولد إذا توفي عنها سيدها نصف عدة الحرة شهران وخمس ليال.

وقال أبو حنيفة وأصحابه، والثوري والحسن بن صالح بن حيي: تعتد بثلاث حيض، وهو قول علي وابن مسعود وعطاء وإبراهيم النخعي. وقال مالك والشافعي وأحمد في المشهور عنه: عدتها حيضة، وبه يقول ابن عمر والشعبي ومكحول والليث وأبو عبيد وأبو ثور والجمهور، وقال الليث: ولو مات وهي حائض، أجزأتها. وقال مالك: فلو كانت ممن لا تحيض، فثلاثة أشهر. وقال الشافعي والجمهور: شهر وثلاثة أحب إلي، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ يستفاد من هذا وجوب الإحداد على المتوفى عنها زوجها مدة عدتها لما ثبت في الصحيحين [1] من غير وجه عن أم حبيبة وزينب بنت جحش أمَّي المؤمنين، أن رسول الله ﷺ، قال «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث، إلا على زوج أربعة أشهر وعشرًا» وفي الصحيحين [2] أيضًا عن أم سلمة أن امرأة قالت: يا رسول الله، إن ابنتي توفي عنها زوجها وقد اشتكت عينها أفنكحلها؟ فقال «لا» كل ذلك يقول - لا - مرتين أو ثلاثًا، ثم قال: «إنما هي أربعة أشهر وعشر، وقد كانت إحداكن في الجاهلية تمكث سنة» قالت زينب بنت أم سلمة: كانت المرأة إذا توفي عنها زوجها، دخلت حفشًا ولبست شر ثيابها، ولم تمس طيبًا ولا شيئًا حتى تمر بها سنة، ثم تخرج فتعطى بعرة فترمي بها، ثم تؤتى بدابة حمار أو شاة أو طير فتفتض به. فقلما تفتض بشيء إلا مات، ومن ههنا ذهب كثيرون من العلماء إلى أن هذه الآية ناسخة للآية التي بعدها، وهي قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة: ٢٤٠] الآية، كما قاله ابن عباس وغيره، وفي هذا نظر كما سيأتي تقريره. والغرض أن الإحداد هو عبارة عن ترك الزينة من الطيب ولبس ما يدعوها إلى الأزواج من ثياب وحلى وغير ذلك، وهو واجب في عدة الوفاة قولاً واحدًا، ولا يجب في عدة الرجعية قولاً واحدًا، وهل يجب في عدة البائن فيه قولان. ويجب الإحداد على جميع الزوجات المتوفى عنهن أزواجهن، سواء في ذلك الصغيرة والآيسة والحرة والأمة والمسلمة والكافرة، لعموم الآية، وقال الثوري وأبو حنيفة وأصحابه: لا إحداد على الكافرة، وبه يقول أشهب وابن نافع من أصحاب مالك، وحجة قائل هذه المقالة قوله ﷺ «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث، إلا على زوج أربعة أشهر وعشرًا» قالوا: فجعله تعبدًا، وألحق أبو حنيفة وأصحابه والثوري الصغيرة بها لعدم التكليف، وألحق أبو حنيفة وأصحابه الأمة المسلمة لنقصها، ومحل تقرير ذلك كله في كتب الأحكام والفروع، والله الموفق للصواب.

وقوله ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي انقضت عدتهن، قاله الضحاك والربيع بن أنس، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ قال الزهري: أي على أوليائها. ﴿فِيمَا فَعَلْنَ﴾ يعني النساء اللاتي انقضت عدتهن، قال العوفي عن ابن عباس: إذا طلقت المرأة أو مات عنها زوجها، فإذا انقضت عدتها فلا جناح عليها أن تتزين وتتصنع

(١) البخاري (٥٣٣٤)، ومسلم (١٤٨٦). (٢) البخاري (٥٣٣٧)، ومسلم (١٤٨٨).

وتتعرض للتزويج، فذلك المعروف. وروى عن مقاتل بن حيان نحوه، وقال ابن جريج عن مجاهد ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ قال: النكاح الحلال الطيب، وروى عن الحسن والزهري والسدي نحو ذلك.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِيٓ أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ وَاعْلَمُوٓا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوٓا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أن تعرضوا بخطبة النساء فى عدتهن من وفاة أزواجهن من غير تصريح، قال الثورى وشعبة وجرير وغيرهم، عن منصور، عن مجاهد، عن ابن عباس فى قوله ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَآءِ﴾ قال: التعريض أن يقول: إنى أريد التزويج، وإنى أحب امرأة من أمرها ومن أمرها - يعرض لها بالقول بالمعروف - وفى رواية: وددت أن الله رزقنى امرأة، ونحو هذا، ولا ينتصب للخطبة، وفى رواية: إنى لا أريد أن أتزوج غيرك إن شاء الله، ولوددت أنى وجدت امرأة صالحة، ولا ينصب لها ما دامت فى عدتها ورواه البخارى تعليقًا فقال: وقال لى طلق بن غنام، عن زائدة، عن منصور، عن مجاهد، عن ابن عباس ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَآءِ﴾ هو أن يقول: إنى أريد التزويج، وإن النساء لمن حاجتى، ولوددت أن ييسر لى امرأة صالحة، وهكذا قال مجاهد وطاووس وعكرمة وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعى والشعبى والحسن وقتادة والزهرى ويزيد بن قسيط ومقاتل بن حيان والقاسم بن محمد وغير واحد من السلف والأئمة فى التعريض: إنه يجوز للمتوفى عنها زوجها من غير تصريح لها بالخطبة، وهكذا حكم المطلقة المبتوتة يجوز التعريض لها، كما قال النبى ﷺ لفاطمة بنت قيس[1] حين طلقها زوجها أبو عمرو بن حفص آخر ثلاث تطليقات، فأمرها أن تعتد فى بيت ابن أم مكتوم، وقال لها: فإذا حللت فآذنينى، فلما حلت، خطب عليها أسامة بن زيد مولاه، فزوجها إياه، فأما المطلقة فلا خلاف فى أنه لا يجوز لغير زوجها التصريح بخطبتها ولا التعريض لها، والله أعلم.

وقوله ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أى أضمرتم فى أنفسكم من خطبتهن، وهذا كقوله تعالى ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [القصص: ٦٩] وكقوله ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ [الممتحنة: ١] ولهذا قال ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ أى فى أنفسكم، فرفع الحرج عنكم فى ذلك. ثم قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ قال أبو مجلز وأبو الشعثاء جابر بن زيد والحسن البصرى وإبراهيم النخعى وقتادة والضحاك والربيع بن أنس وسليمان التيمى ومقاتل بن حيان والسدى: يعنى الزنا، وهو معنى رواية العوفى عن ابن عباس، واختاره ابن جرير، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ لا تقل لها: إنى عاشق وعاهدينى أن لا تتزوجى غيرى، ونحو هذا، وكذا روى عن سعيد بن جبير والشعبى وعكرمة وأبى الضحى والضحاك والزهرى ومجاهد والثورى، هو أن يأخذ ميثاقها أن لا

(١) مسلم (١٤٨٠)، من حديث فاطمة بنت قيس رضي الله عنها.

تتزوج غيره. وعن مجاهد: هو قول الرجل للمرأة: لا تفوتينى بنفسك فإنى ناكحك.

وقال قتادة: هو أن يأخذ عهد المرأة وهى فى عدتها أن لا تنكح غيره، فنهى الله عن ذلك، وقدم فيه وأحل الخطبة، والقول بالمعروف، وقال ابن زيد ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ هو أن يتزوجها فى العدة سرًا، فإذا حلت أظهر ذلك، وقد يحتمل أن تكون الآية عامة فى جميع ذلك، لهذا قال ﴿إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والسدى والثورى وابن زيد: يعنى به ما تقدم من إباحة التعريض كقوله: إنى فيك لراغب ونحو ذلك، وقال محمد بن سيرين: قلت لعبيدة: ما معنى قوله ﴿إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾؟ قال: يقول لوليها: لا تسبقنى بها، يعنى لا تزوجها حتى تعلمنى، رواه ابن أبى حاتم.

وقوله ﴿وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾ يعنى ولا تعقدوا العقدة بالنكاح حتى تنقضى العدة. قال ابن عباس ومجاهد والشعبى وقتادة والربيع بن أنس وأبو مالك وزيد بن أسلم ومقاتل بن حيان والزهرى وعطاء الخراسانى والسدى والثورى والضحاك: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾ يعنى ولا تعقدوا العقد بالنكاح حتى تنقضى العدة، وقد أجمع العلماء على أنه لا يصح العقد فى العدة. واختلفوا فيمن تزوج امرأة فى عدتها، فدخل بها، فإنه يفرق بينهما، وهل تحرم عليه أبدًا؟ على قولين: الجمهور على أنها لا تحرم عليه، بل له أن يخطبها إذا انقضت عدتها. وذهب الإمام مالك إلى أنها تحرم عليه على التأبيد، واحتج فى ذلك بما رواه عن ابن شهاب وسليمان بن يسار، أن عمر رضى الله عنه، قال: أيما امرأة نكحت فى عدتها، فإن كان زوجها الذى تزوج بها لم يدخل بها فرق بينهما، ثم اعتدت بقية عدتها من زوجها الأول، وكان خاطبًا من الخطاب، وإن كان دخل بها فرق بينهما ثم اعتدت بقية عدتها من زوجها الأول، ثم اعتدت من الآخر، ثم لم ينكحها أبدًا وقالوا: ومأخذ هذا أن الزوج لما استعجل ما أحل الله، عوقب بنقيض قصده، فحرمت عليه على التأبيد كالقاتل يحرم الميراث. وقد روى الشافعى هذا الأثر عن مالك. قال البيهقى: وذهب إليه فى القديم ورجع عنه فى الجديد، لقول على أنها تحل له.

(قُلْتُ) قال: ثم هو منقطع عن عمر. وقد روى الثورى عن أشعث، عن الشعبى، عن مسروق، أن عمر رجع عن ذلك، وجعل لها مهرها وجعلهما يجتمعان.

وقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾، توعدهم على ما يقع فى ضمائرهم من أمور النساء، وأرشدهم إلى إضمار الخير دون الشر، ثم لم يؤيسهم من رحمته، ولم يقنطهم من عائدته، فقال ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۖ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾

أباح تبارك وتعالى طلاق المرأة بعد العقد عليها، وقبل الدخول بها. قال ابن عباس وطاووس وإبراهيم والحسن البصرى: المس النكاح، بل ويجوز أن يطلقها قبل الدخول بها والفرض لها، إن كانت مفوضة وإن كان فى هذا إنكسار لقلبها، ولهذا أمر تعالى بإمتاعها وهو تعويضها عما فاتها بشىء

تعطاه من زوجها بحسب حاله، على الموسع قدره، وعلى المقتر قدره. وقال سفيان الثورى، عن إسماعيل بن أمية عن عكرمة، عن ابن عباس: قال، متعة الطلاق أعلاه الخادم، ودون ذلك الورق؛ ودون ذلك الكسوة. وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: إن كان موسرًا متعها بخادم أو نحو ذلك، وإن كان معسرًا أمتعها بثلاثة أثواب. وقال الشعبى: أوسط ذلك درع وخمار وملحفة وجلباب، قال: وكان شريح يمتع بخمسمائة. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن أيوب بن سيرين، قال: كان يمتع بالخادم أو بالنفقة أو بالكسوة. قال: ومتع الحسن بن على بعشرة آلاف، ويروى أن المرأة قالت: متاع قليل من حبيب مفارق. وذهب أبو حنيفة إلى أنه متى تنازع الزوجان فى مقدار المتعة وجب لها عليه نصف مهر مثلها. وقال الشافعى فى الجديد: لا يجبر الزوج على قدر معلوم إلا على أقل ما يقع عليه اسم المتعة، وأحب ذلك إلى أن يكون أقله ما تجزئ فيه الصلاة، وقال فى القديم: لا أعرف فى المتعة قدرًا إلا أنى أستحسن ثلاثين درهمًا، كما روى عن ابن عمر رضى الله عنهما. وقد اختلف العلماء أيضًا: هل تجب المتعة لكل مطلقة أو إنما تجب المتعة لغير المدخول بها التى لم يفرض لها، على أقوال: أحدها أنها تجب المتعة لكل مطلقة لعموم قوله تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢٤١] ولقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٨] وقد كن مفروضًا لهن ومدخولاً بهن، وهذا قول سعيد بن جبير وأبى العالية والحسن البصرى، وهو أحد قولى الشافعى ومنهم من جعله الجديد الصحيح، والله أعلم.

(والقول الثانى) أنها تجب للمطلقة إذا طلقت قبل المسيس، وإن كانت مفروضًا لها، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٩] قال شعبة وغيره، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، قال: نسخت هذه الآية التى فى الأحزاب الآية التى فى البقرة. وقد روى البخارى[1] فى صحيحه، عن سهل بن سعد وأبى أسيد. أنهما قالا: تزوج رسول الله ﷺ أميمة بنت شرحبيل، فلما أدخلت عليه، بسط يده إليها، فكأنها كرهت ذلك، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين أزرقين.

(القول الثالث) أن المتعة إنما تجب للمطلقة إذا لم يدخل بها ولم يفرض لها، فإن كان قد دخل بها، وجب لها مهر مثلها إذا كانت مفوضة وإن كان قد فرض لها وطلقها قبل الدخول، وجب لها عليه شطره، فإن دخل بها استقر الجميع، وكان ذلك عوضًا لها عن المتعة، وإنما المصابة التى لم يفرض لها ولم يدخل بها، فهذه التى دلت هذه الآية الكريمة على وجوب متعتها، هذا قول ابن عمر ومجاهد، ومن العلماء من استحبها لكل مطلقة ممن عدا المفوضة المفارقة قبل الدخول، وهذا ليس بمنكور، وعليه تحمل آية التخيير فى الأحزاب، ولهذا قال تعالى: ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦] ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢٤١] ومن العلماء من يقول: إنها مستحبة مطلقًا. قال ابن أبى حاتم: حدثنا كثير بن شهاب القزوينى، حدثنا

---

(١) البخاري (٥٢٥٧).

محمد بن سعيد بن سابق، حدثنا عمرو - يعنى ابن أبى قيس - عن أبى إسحاق، عن الشعبى، قال: ذكروا له المتعة، أيحبس فيها؟ فقرأ ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾ قال الشعبى: والله ما رأيت أحدًا حبس فيها، والله لو كانت واجبة لحبس فيها القضاة.

﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾

وهذه الآية الكريمة مما يدل على اختصاص المتعة بما دلت عليه الآية الأولى، حيث إنما أوجب فى هذه الآية نصف المهر المفروض إذا طلق الزوج قبل الدخول، فإنه لو كان ثم واجب آخر من متعة لبينها لا سيما وقد قرنها بما قبلها من اختصاص المتعة بتلك الآية، والله أعلم. وتشطير الصداق والحالة هذه أمر مجمع عليه بين العلماء، لا خلاف بينهم فى ذلك، فإنه متى كان قد سمى لها صداقًا ثم فارقها قبل دخوله بها، فإنه يجب لها نصف ما سمى من الصداق، إلا أن عند الثلاثة أنه يجب جميع الصداق إذا خلا بها الزوج وإن لم يدخل بها، وهو مذهب الشافعى فى القديم، وبه حكم الخلفاء الراشدون، لكن قال الشافعى: أخبرنا مسلم بن خالد، أخبرنا ابن جريج عن ليث بن أبى سليم، عن طاووس، عن ابن عباس أنه قال فى الرجل يتزوج المرأة فيخلو بها ولا يمسها ثم يطلقها: ليس لها إلا نصف الصداق، لأن الله يقول: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ قال الشافعى: هذا أقوى، وهو ظاهر الكتاب. قال البيهقى وليث بن أبى سليم، وإن كان غير محتج به، فقد رويناه من حديث ابن أبى طلحة عن ابن عباس فهو مقولة.

وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾ أى النساء، عما وجب لها على زوجها من النصف، فلا يجب لها عليه شىء، قال السدى عن أبى صالح عن ابن عباس فى قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾ قال: إلا أن تعفو الثيب فتدع حقها. قال الإمام أبو محمد بن أبى حاتم رحمه الله: روى عن شريح وسعيد بن المسيب وعكرمة ومجاهد والشعبى والحسن ونافع وقتادة وجابر بن زيد وعطاء الخراسانى والضحاك والزهرى ومقاتل بن حيان وابن سيرين والربيع بن أنس والسدى نحو ذلك. قال: وخالفهم محمد بن كعب القرظى فقال: ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾ يعنى الرجال، وهو قول شاذ لم يتابع عليه، انتهى كلامه.

وقوله: ﴿أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ قال ابن أبى حاتم: ذكر عن ابن لهيعة حدثنى عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده، عن النبى ﷺ، قال: «ولى عقد النكاح الزوج»[1] وهكذا أسنده ابن مردويه من حديث عبد الله بن لهيعة به، وقد أسنده ابن جرير عن ابن لهيعة، عن عمرو بن شعيب، أن رسول الله ﷺ فذكره ولم يقل عن أبيه عن جده، فالله أعلم. ثم قال ابن أبى حاتم: حدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود، حدثنا جرير يعنى ابن أبى حازم، عن عيسى يعنى ابن عاصم، قال: سمعت شريحًا يقول: سألنى على بن أبى طالب عن الذى بيده عقدة النكاح، فقلت له: هو ولى المرأة، فقال على: لا، بل هو الزوج، ثم قال: وفى إحدى الروايات عن ابن عباس وجبير بن مطعم وسعيد بن

(١) ضعيف: الدارقطني (٣/ ٢٧٩)، برقم (١٢٨)، وعلته ابن لهيعة: اختلط بعد احتراق كتبه.

المسيب وشريح فى أحد قوليه، وسعيد بن جبير ومجاهد والشعبى وعكرمة ونافع ومحمد بن سيرين والضحاك ومحمد بن كعب القرظى وجابر بن زيد وأبى مجلز والربيع بن أنس وإياس بن معاوية ومكحول ومقاتل بن حيان، أنه الزوج .

(قُلْتُ) وهذا هو الجديد من قولى الشافعى، ومذهب أبى حنيفة وأصحابه، والثورى وابن شبرمة والأوزاعى، واختاره ابن جرير، ومأخذ هذا القول أن الذى بيده عقدة النكاح حقيقة الزوج، فإن بيده عقدها وإبرامها ونقضها وانهدامها، وكما أنه لا يجوز للولى، أن يهب شيئًا من مال المولية للغير، فكذلك فى الصداق، قال: والوجه الثانى حدثنا أبى حدثنا ابن أبى مريم، حدثنا محمد بن مسلم، حدثنا عمرو بن دينار، عن ابن عباس - رضى الله عنهما - فى الذى ذكر الله بيده عقدة النكاح - قال: ذلك أبوها أو أخوها أو من لا تنكح إلا بإذنه . وروى عن علقمة والحسن وعطاء وطاووس والزهرى وربيعة وزيد بن أسلم وإبراهيم النخعى وعكرمة فى أحد قوليه، ومحمد بن سيرين فى أحد قوليه أنه الولى . وهذا مذهب مالك، وقول الشافعى فى القديم، ومأخذه أن الولى هو الذى أكسبها إياه، فله التصرف فيه بخلاف سائر مالها . وقال ابن جرير: حدثنا سعيد بن الربيع الرازى، حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار عن عكرمة، قال: أذن الله فى العفو وأمر به، فأى امرأة عفت جاز عفوها، فإن شحت وضنت عفا وليها جاز عفوه، وهذا يقتضى صحة عفو الولى وإن كانت رشيدة، وهو مروى عن شريح، لكن أنكر عليه الشعبى، فرجع عن ذلك وصار إلى أنه الزوج وكان يباهل عليه .

وقوله: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ . قال ابن جرير: قال بعضهم: خوطب به الرجال والنساء، حدثنى يونس، أنبأنا ابن وهب، سمعت ابن جريج يحدث عن عطاء بن أبى رباح، عن ابن عباس ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ قال: أقربهما للتقوى الذى يعفو، وكذا روى عن الشعبى وغيره. وقال مجاهد والنخعى والضحاك ومقاتل بن حيان والربيع بن أنس والثورى: الفضل - ههنا - أن تعفو المرأة عن شطرها أو إتمام الرجل الصداق لها، ولهذا قال ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ أى الإحسان، قاله سعيد، وقال الضحاك وقتادة والسدى وأبو وائل المعروف: يعنى لا تهملوه بل استعملوه بينكم، وقد قال أبو بكر بن مردويه [1]، حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا موسى بن إسحاق، حدثنا عقبة بن مكرم، حدثنا يونس بن بكير، حدثنا عبيد الله بن الوليد الرصافى عن عبد الله بن عبيد، عن على بن أبى طالب، أن رسول الله ﷺ قال: «ليأتين على الناس زمان عضوض، يعض المؤمن على ما فى يديه وينسى الفضل، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ شرار يبايعون كل مضطر» وقد نهى رسول الله ﷺ عن بيع المضطر وعن بيع الغرر، فإن كان عندك خير فعد به على أخيك ولا تزده هلاكًا إلى هلاكه، فإن المسلم أخو المسلم لا يحزنه ولا يحرمه [2] . وقال سفيان: عن أبى هارون، قال: رأيت عون بن عبد الله فى مجلس القرظى، فكان عون يحدثنا ولحيته ترش من البكاء، ويقول صحبت الأغنياء فكنت من أكثرهم همًا حين رأيتهم أحسن ثيابًا، وأطيب ريحًا، وأحسن مركبًا،

(١) ضعيف: عزاه لابن مردويه بسنده وفيه عبيد الله بن الوليد الرصافي: ضعيف، ويونس بن بكير: صدوق يخطئ.

(٢) ضعيف: أبو داود (٣٣٨٢)، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، انظر ضعيف سنن أبي داود.

وجالست الفقراء فاسترحت بهم، وقال ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ إذا أتاه السائل وليس عنده شيء فليدع له، رواه ابن أبي حاتم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أموركم وأحوالكم، وسيجزي كل عامل بعمله.

﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾

ويأمر تعالى بالمحافظة على الصلوات في أوقاتها وحفظ حدودها وأدائها في أوقاتها، كما ثبت في الصحيحين [١] عن ابن مسعود، قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أي العمل أفضل؟ قال: «الصلاة في وقتها». قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله». قلت: ثم أي؟ قال «برّ الوالدين»، قال: حدثني بهنّ رسول الله ﷺ ولو استزدته لزادني.

وقال الإمام أحمد [٢]: حدثنا يونس، حدثنا ليث عن عبد الله بن عمر بن حفص بن عاصم، عن القاسم بن غنام، عن جدته أم أبيه الدنيا، عن جدته أم فروة، وكانت ممن بايع رسول الله ﷺ، أنها سمعت رسول الله ﷺ ذكر الأعمال، فقال «إن أحب الأعمال إلى الله تعجيل الصلاة لأول وقتها» وهكذا رواه أبو داود والترمذي [٣]، وقال: لا نعرفه إلا من طريق العمري وليس بالقوي عند أهل الحديث، وخص تعالى من بينها بمزيد التأكيد الصلاة الوسطى، وقد اختلف السلف والخلف فيها أي صلاة هي؟ فقيل: إنها الصبح، حكاه مالك في الموطأ بلاغًا عن علي وابن عباس، وقال هشيم وابن علية وغندر وابن أبي عدي وعبد الوهاب وشريك وغيرهم عن عوف الأعرابي عن أبي رجاء العطاردي، وقال: صليت خلف ابن عباس الفجر، فقنت فيها ورفع يديه، ثم قال: هذه الصلاة الوسطى التي أمرنا أن نقوم فيها قانتين، رواه ابن جرير، ورواه أيضًا من حديث عوف عن خلاس بن عمرو، عن ابن عباس مثله سواء، وقال ابن جرير [٤]: حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا عوف عن أبي المنهال، عن أبي العالية، عن ابن عباس، أنه صلى الغداة في مسجد البصرة، فقنت قبل الركوع، وقال: هذه الصلاة الوسطى التي ذكرها الله في كتابه، فقال ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ وقال أيضًا [٥]: حدثنا محمد بن عيسى الدامغاني، أخبرنا ابن المبارك، أخبرنا الربيع بن أنس عن أبي العالية، قال: صليت خلف عبد الله بن قيس بالبصرة صلاة الغداة، فقلت لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ إلى جانبي: ما الصلاة الوسطى؟ قال: هذه الصلاة. وروى من طريق أخرى عن الربيع عن أبي العالية، أنه صلى مع أصحاب رسول الله ﷺ صلاة الغداة فلما فرغوا قال: قلت لهم: أيتهنّ الصلاة الوسطى؟ قالوا: التي قد صليتها قبل.

وقال أيضًا: حدثنا ابن بشار، حدثنا ابن عثمة عن سعيد بن بشير، عن قتادة، عن جابر بن

---

(١) سبق تخريجه، برقم (٢٣٩).
(٢) ضعيف: أحمد (٢٦٥٦٤)، انظر ضعيف الجامع (١٥٩).
(٣) صحيح: أبو داود (٤٢٦)، والترمذي (١٧٠)، انظر صحيح سنن أبي داود.
(٤) ابن جرير (٢/ ٥٦٥).
(٥) ابن جرير (٢/ ٥٦٥).

عبد الله، قال: الصلاة الوسطى صلاة الصبح[١]، وحكاه ابن أبى حاتم عن ابن عمر وأبى أمامة وأنس وأبى العالية وعبيد بن عمير وعطاء ومجاهد وجابر بن زيد وعكرمة والربيع بن أنس، ورواه ابن جرير عن عبد الله بن شداد وابن الهاد أيضًا، وهو الذى نص عليه الشافعى رحمه الله، محتجًا بقوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ والقنوت عنده فى صلاة الصبح، ونقله الدمياطي عن عمر ومعاذ وابن عباس وابن عمر وعائشة - على خلاف منهم - وأبي موسى وجابر وأنس وأبي الشعثاء وطاوس وعطاء وعكرمة ومجاهد. ومنهم من قال: هى وسطى باعتبار أنها لا تقصر، وهى بين صلاتين رباعيتين مقصورتين، وترد المغرب، وقيل: لأنها بين صلاتى ليل جهريتين وصلاتى نهار سريتين، وقيل: إنها صلاة الظهر.

قال أبو داود الطيالسى فى مسنده[٢]: حدثنا ابن أبى ذئب عن الزبرقان يعنى ابن عمرو، عن زهرة يعنى ابن معبد، قال: كنا جلوسًا عند زيد بن ثابت، فأرسلوا إلى أسامة فسألوه عن الصلاة الوسطى، فقال: هى الظهر، كان رسول الله ﷺ يصليها بالهجير، وقال أحمد[٣]: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، حدثنى عمرو بن أبى حكيم، سمعت الزبرقان يحدث عن عروة بن الزبير عن زيد بن ثابت، قال: كان رسول الله ﷺ يصلى الظهر بالهاجرة، ولم يكن يصلى صلاة أشد على أصحاب رسول الله ﷺ منها، فنزلت ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ وقال: إن قبلها صلاتين وبعدها صلاتين. ورواه أبو داود[٤] فى سننه من حديث شعبة به وقال أحمد أيضًا[٥]: حدثنا يزيد حدثنا ابن أبى ذئب عن الزبرقان أن رهطًا من قريش مر بهم زيد بن ثابت وهم مجتمعون فأرسلوا إليه غلامين لهم يسألانه عن الصلاة الوسطى، فقال: هى صلاة العصر فقام إليه رجلان منهم فسألاه، فقال: هى الظهر. ثم انصرفا إلى أسامة بن زيد فسألاه، فقال: هى الظهر، إن النبى ﷺ كان يصلى الظهر بالهجير، فلا يكون وراءه إلا الصف والصفان، والناس فى قائلتهم وفى تجارتهم، فأنزل الله ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ قال: فقال رسول الله ﷺ «لينتهين رجال أو لأحرقن بيوتهم».

والزبرقان هو ابن عمرو بن أمية الضمرى، لم يدرك أحدًا من الصحابة، والصحيح ما تقدم من روايته عن زهرة بن معبد وعروة بن الزبير. وقال شعبة وهمام عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن ابن عمر عن زيد بن ثابت، قال: الصلاة الوسطى صلاة الظهر. وقال أبو داود الطيالسى وغيره، عن شعبة: أخبرنى عمر بن سليمان من ولد عمر بن الخطاب، قال: سمعت عبد الرحمن بن أبان بن عثمان يحدث عن أبيه عن زيد بن ثابت، قال: الصلاة الوسطى هى الظهر، ورواه ابن جرير، عن زكريا بن يحيى بن أبى زائدة عن عبد الصمد، عن شعبة، عن عمر بن سليمان، عن زيد بن ثابت، قال الصلاة الوسطى هى الظهر، ورواه ابن جرير، عن زكريا بن يحيى بن أبى زائدة عن عبد الصمد، عن شعبة، عن عمر بن سليمان، عن زيد بن ثابت، فى حديث رفعه، قال «الصلاة الوسطى صلاة

---

(١) ابن جرير (٢/ ٥٦٥).
(٢) أبو داود الطيالسي (١/ ٨٧)، برقم (٦٢٨).
(٣) صحيح: أحمد (٢١٠٨٥)، انظر المشكاة (٦٣٧).
(٤) صحيح: أبو داود (٤١١)، انظر صحيح سنن أبي داود.
(٥) أحمد (٢١٢٨٥)، ورجاله ثقات.

الظهر» . وممن روى عنه أنها الظهر ابن عمر، وأبو سعيد وعائشة، على اختلاف عنهم، وهو قول عروة بن الزبير وعبد الله بن شداد بن الهاد، ورواية عن أبى حنيفة رحمهم الله، وقيل: إنها صلاة العصر. قال الترمذى والبغوى رحمهما الله: وهو قول أكثر علماء الصحابة وغيرهم. وقال القاضى الماوردى: هو قول جمهور التابعين: وقال الحافظ أبو عمر بن عبد البر: هو قول أكثر أهل الأثر. وقال أبو محمد بن عطية فى تفسيره. وهو قول جمهور الناس. وقال الحافظ أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدمياطى فى كتابه المسمى بكشف المغطى تبيين الصلاة الوسطى، وقد نص فيه: أنها العصر، وحكاه عن عمر وعلى وابن مسعود وأبى أيوب وعبد الله بن عمرو وسمرة بن جندب وأبى هريرة وأبى سعيد وحفصة وأم حبيبة وأم سلمة وعن ابن عمرو وابن عباس وعائشة على الصحيح عنهم، وبه قال عبيدة وإبراهيم النخعى ورزين وزر بن حبيش وسعيد بن جبير وابن سيرين والحسن وقتادة والضحاك والكلبى ومقاتل وعبيد بن مريم وغيرهم، وهو مذهب أحمد بن حنبل.

قال القاضى الماوردى والشافعى قال ابن المنذر: وهو الصحيح عن أبى حنيفة، وأبى يوسف ومحمد، واختاره ابن حبيب المالكى، رحمهم الله.

ذكر الدليل على ذلك - قال الإمام أحمد [١]: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن مسلم، عن شتير بن شكل، عن على، قال: قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب «شغلونا عن الصلاة الوسطى، صلاة العصر، ملأ الله قلوبهم وبيوتهم نارًا» ثم صلاها بين العشاءين المغرب والعشاء، وكذا رواه مسلم [٢] من حديث أبى معاوية محمد بن حازم الضرير، والنسائى [٣] من طريق عيسى بن يونس كلاهما عن الأعمش، عن مسلم بن صبيح عن أبى الضحى، عن شتير بن شكل بن حميد، عن على بن أبى طالب عن النبى ﷺ مثله، وقد رواه مسلم [٤] أيضًا من طريق شعبة عن الحكم بن عتيبه، عن يحيى بن الجزار عن على بن أبى طالب، وأخرجه الشيخان وأبو داود والترمذى والنسائى وغير واحد من أصحاب المساند والسنن والصحاح [٥] من طرق يطول ذكرها عن عبيدة السلمانى، عن على به، ورواه الترمذى والنسائى من طريق الحسن البصرى عن على به، قال الترمذى: ولا يعرف سماعه منه، وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن بن مهدى عن سفيان عن عاصم عن زر، قال: قلت لعبيدة: سل عليًا عن الصلاة الوسطى، فسأله، فقال: كنا نراها الفجر أو الصبح، حتى سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم الأحزاب «شغلونا عن الصلاة الوسطى، صلاة العصر، ملأ الله قبورهم وأجوافهم أو بيوتهم نارًا» ورواه ابن جرير [٦] عن بندار عن ابن مهدى به. وحديث يوم الأحزاب، وشغل المشركين رسول الله ﷺ وأصحابه عن أداء صلاة العصر يومئذ، مروى عن جماعة من الصحابة

(١) صحيح: أحمد (٦١٨)، انظر صحيح الجامع (٥٨٨٧).
(٢) مسلم: (٦٢٧).
(٣) صحيح: النسائي في «الكبرى» (١/ ١٥٢)، برقم (٣٥٨)، انظر صحيح الجامع (٥٨٨٧).
(٤) مسلم (٦٢٧).
(٥) البخاري (٢٩٣١)، ومسلم (٦٢٧)، وأبو داود (٤٠٩)، والترمذي (٢٩٨٤)، والنسائي (٤٧٣)، وأحمد (٩٩٧)، والدارمي (١٢٣٢).
(٦) من هذا الطريق أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢/ ٥٥٨).

يطول ذكرهم، وإنما المقصود رواية من نص منهم فى روايته، أن الصلاة الوسطى هى صلاة العصر. وقد رواه مسلم[١] أيضا من حديث ابن مسعود والبراء بن عازب رضى الله عنهما.

(حديث آخر) - قال الإمام أحمد[٢]: حدثنا عفان، حدثنا همام عن قتادة عن الحسن عن سمرة، أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة الوسطى صلاة العصر» وحدثنا بهز وعفان قالا: حدثنا أبان، حدثنا قتادة عن الحسن، عن سمرة أن رسول الله ﷺ قال ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ وسماها لنا أنها هى صلاة العصر، وحدثنا محمد بن جعفر وروح، قالا: حدثنا سعيد عن قتادة، عن الحسن عن سمرة بن جندب، أن رسول الله ﷺ قال «هى العصر» قال ابن جعفر: سئل عن صلاة الوسطى، ورواه الترمذى[٣] من حديث سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة، وقال: حسن صحيح، وقد سمع منه حديث آخر. وقال ابن جرير[٤]: حدثنا أحمد بن منيع، حدثنا عبد الوهاب بن عطاء، عن التيمى، عن أبى صالح، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ «الصلاة الوسطى صلاة العصر».

(طريق أخرى بل حديث آخر) قال ابن جرير: وحدثنى المثنى، حدثنا سليمان بن أحمد الجرشى الواسطى، حدثنا الوليد بن مسلم، قال: أخبرنى صدقة بن خالد، حدثنى خالد بن دهقان، عن خالد بن سيلان، عن كهيل بن حرملة، قال: سئل أبو هريرة عن الصلاة الوسطى، فقال: اختلفنا فيها كما اختلفتم فيها، ونحن بفناء بيت رسول الله ﷺ، وفينا الرجل الصالح أبو هاشم بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، فقال: أنا أعلم لكم ذلك، فقام فاستأذن على رسول الله ﷺ، فدخل عليه ثم خرج إلينا، فقال: أخبرنا أنها صلاة العصر، غريب من هذا الوجه جدًا.

(حديث آخر) - قال ابن جرير: حدثنا أحمد بن إسحاق، حدثنا أبو أحمد، حدثنا عبد السلام عن سالم مولى أبى جبير، حدثنى إبراهيم بن يزيد الدمشقى، قال: كنت جالسًا عند عبد العزيز بن مروان، فقال: يا فلان اذهب إلى فلان فقل له: أى شىء سمعت من رسول الله ﷺ فى الصلاة الوسطى؟ فقال رجل جالس: أرسلنى أبو بكر وعمر، وأنا غلام صغير، أسأله عن الصلاة الوسطى فأخذ أصبعى الصغيرة، فقال «هذه صلاة الفجر»، وقبض التى تليها، فقال «هذه الظهر»، ثم قبض الإبهام، فقال «هذه المغرب»، ثم قبض التى تليها، فقال «هذه العشاء»، ثم قال «أى أصابعك بقيت؟» فقلت: الوسطى، فقال «أى الصلاة بقيت؟» فقلت: العصر، فقال «هى العصر» غريب أيضًا جدًا.

(حديث آخر) قال ابن جرير: حدثنا محمد بن عوف الطائى حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش، حدثنى أبى حدثنى أبو ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد عن أبى مالك الأشعرى، قال: قال

---

(١) مسلم (٦٢٨)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
مسلم بنحوه (٦٣٠)، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.
(٢) صحيح: أحمد (١٩٧٤٢)، انظر صحيح الجامع (٣٨٣٥).
(٣) صحيح: الترمذي (١٨٢) انظر صحيح جامع الترمذي.
(٤) صحيح: ابن جرير (٢/ ٥٥٩). ويكفي في صحة الحديث ما تقدم.

رسول الله ﷺ «الصلاة الوسطى صلاة العصر» إسناده لا بأس به.

(حديث آخر) قال أبو حاتم بن حبان فى صحيحه: حدثنا أحمد بن يحيى بن زهير، حدثنا الجراح بن مخلد، حدثنا عمرو بن عاصم، حدثنا همام بن مورق العجلى، عن أبى الأحوص، عن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ «صلاة الوسطى صلاة العصر». وقد روى الترمذى من حديث محمد بن طلحة بن مصرف عن زبيد اليامى، عن مرة الهمدانى، عن ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ «صلاة الوسطى صلاة العصر»، ثم قال: حسن صحيح، وأخرجه مسلم فى صحيحه من طريق محمد بن طلحة به، ولفظه «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر» الحديث، فهذه نصوص فى المسألة لا تحتمل شيئًا، ويؤكد ذلك الأمر بالمحافظة عليها، وقوله ﷺ فى الحديث الصحيح من رواية الزهرى عن سالم، عن أبيه، أن رسول الله ﷺ قال «من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله»[1] وفى الصحيح[2] أيضًا من حديث الأوزاعى، عن يحيى بن أبى كثير، عن أبى قلابة عن أبى المهاجر، عن بريدة بن الحصيب، عن النبى ﷺ، قال «بكروا بالصلاة فى يوم الغيم، فإنه من ترك صلاة العصر، فقد حبط عمله» وقال الإمام أحمد[3]: حدثنا يحيى بن إسحاق، أخبرنا ابن لهيعة عن عبد الله بن هبيرة، عن أبى تميم عن أبى نضرة الغفارى، قال: صلى بنا رسول الله ﷺ فى واد من أوديتهم، يقال له الحميص، صلاة العصر، فقال «إن هذه الصلاة عرضت على الذين من قبلكم فضيعوها، ألا ومن صلاها ضعف له أجره مرتين، ألا ولا صلاة بعدها حتى تروا الشاهد» ثم قال: رواه عن يحيى بن إسحاق عن الليث عن خَيْر بن نعيم عن عبد الله بن هبيرة به، وهكذا رواه مسلم والنسائى[4] جميعًا عن قتيبة عن الليث، ورواه مسلم[5] أيضًا من حديث محمد بن إسحاق، حدثنى يزيد بن أبى حبيب كلاهما عن خير بن نعيم الحضرمى، عن عبد الله بن هبيرة السبائى به، فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد[6] أيضًا حدثنا إسحاق، أخبرنى مالك، عن زيد بن أسلم، عن القعقاع بن حكيم، عن أبى يونس مولى عائشة، قال: أمرتنى عائشة أن أكتب لها مصحفًا، قالت: إذا بلغت هذه الآية ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ فآذنى، فلما بلغتها آذنتها، فأملت على «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين» قالت: سمعتها من رسول الله ﷺ، وهكذا رواه مسلم[7] عن يحيى بن يحيى عن مالك به، وقال ابن جرير[8]: حدثنى المثنى حدثنا الحجاج، حدثنا حماد عن هشام بن عروة عن أبيه، قال: كان فى مصحف عائشة «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وهى صلاة العصر» وهكذا رواه من طريق الحسن البصرى أن رسول الله ﷺ قرأها كذلك وقد روى الإمام مالك أيضًا عن زيد بن أسلم، عن عمرو بن رافع، قال: كنت أكتب مصحفًا لحفصة زوج النبى ﷺ، فقالت: إذا بلغت هذه الآية فآذنى ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى

---

(١) مسلم (٦٢٦).
(٢) البخاري (٥٥٣).
(٣) صحيح: أحمد (٢٦٦٨٥)، انظر صحيح الترغيب والترهيب (٤٦٠).
(٤) مسلم (٨٣٠)، والنسائي (٥٢١).
(٥) انظر الحديث السابق.
(٦) صحيح: أحمد (٢٣٩٢٧)، انظر صحيح سنن أبي داود.
(٧) مسلم (٦٢٩).
(٨) ابن جرير (٢/ ٥٥٥).

ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ فلما بلغتها آذنتها، فأملت على «حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ وَقُومُوا لِلَّهِ قانتين». وهكذا رواه محمد بن إسحاق بن يسار فقال: حدثنى أبو جعفر محمد بن على ونافع مولى ابن عمر أن عمر بن رافع قال فذكر مثله وزاد كما حفظتها من النبى ﷺ.

(طريق أخرى عن حفصة) قال ابن جرير[1]: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة عن أبى بشر، عن عبد الله بن يزيد الأزدى، عن سالم بن عبد الله، أن حفصة أمرت إنسانًا أن يكتب لها مصحفًا، فقالت: إذا بلغت هذه الآية ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ فآذنى، فلما بلغ آذنها، فقالت: اكتب «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر».

(طريق أخرى) قال ابن جرير[2]: حدثنى ابن المثنى، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا عبد الله عن نافع، أن حفصة أمرت مولى لها أن يكتب لها مصحفًا، فقالت: إذا بلغت هذه الآية ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ فلا تكتبها حتى أمليها عليك كما سمعت رسول الله ﷺ يقرؤها، فلما بلغها أمرته فكتبها «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين». قال نافع: فقرأت ذلك المصحف، فوجدت فيه الواو. وكذا روى ابن جرير عن ابن عباس وعبيد بن عمير أنهما قرآ كذلك، وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا عبدة، حدثنا محمد بن عمرو، حدثنى أبو سلمة عن عمرو بن رافع مولى عمر، قال: كان فى مصحف حفصة «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين» وتقرير المعارضة أنه عطف صلاة العصر على الصلاة الوسطى بواو العطف التى تقتضى المغايرة، فدل ذلك على أنها غيرها، وأجيب عن ذلك بوجوه (أحدها) أن هذا إن روى على أنه خبر، فحديث على أصح وأصرح منه، وهذا يحتمل أن تكون الواو زائدة، كما فى قوله ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[الأنعام: ٥٥] ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾[الأنعام: ٧٥]، أو تكون لعطف الصفات لا لعطف الذوات، كقوله ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[الأحزاب: ٤٠] وكقوله ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾[الأعلى: ١-٤] وأشباه ذلك كثيرة وقال الشاعر:

إلى الملك القرم وابن الهمام ... وليث الكتيبة فى المزدحم

وقال أبو داود الأيادى:

سلط الموت والمنون عليهم ... فلهم فى صدى المقابر هام

والموت هو المنون، قال عدى بن زيد العبادى:

فقدمت الأديم لراهشيه ... فألفى قولها كذبًا ومينا

والكذب هو المين، وقد نص سيبويه شيخ النحاة على جواز قول القائل: مررت بأخيك وصاحبك، ويكون الصاحب هو الأخ نفسه، والله أعلم، وأما إن روى على أنه قرآن، فإنه لم يتواتر فلا يثبت بمثل خبر الواحد قرآن، ولهذا لم يثبته أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه فى المصحف، ولا قرأ بذلك أحد من القراء الذين تثبت الحجة بقراءتهم، لا من السبعة ولا من غيرهم.

---

(١) ابن جرير (٢/ ٥٦٣).

(٢) ابن جرير من طرق (٢/ ٥٦٣).

ثم قد روى ما يدل على نسخ هذه التلاوة المذكورة فى هذا الحديث، قال مسلم [١]: حدثنا إسحاق بن راهويه، أخبرنا يحيى بن آدم عن فضيل بن مرزوق، عن شقيق بن عقبة، عن البراء بن عازب، قال: نزلت «حافظوا على الصلوات وصلاة العصر» فقرأناها على رسول الله ﷺ ما شاء الله، ثم نسخها الله عز وجل، فأنزل ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ فقال له زاهر رجل كان مع شقيق: أفهى العصر؟ قال: قد حدثتك كيف نزلت، وكيف نسخها الله عز وجل. قال مسلم: ورواه الأشجعى عن الثورى، عن الأسود، عن شقيق.

(قُلْتُ): وشقيق هذا لم يرو له مسلم سوى هذا الحديث الواحد، والله أعلم، فعلى هذا تكون هذه التلاوة وهى تلاوة الجادة ناسخة للفظ رواية عائشة وحفصة ولمعناها إن كانت الواو دالة على المغايرة، وإلا فلفظها فقط، والله أعلم.

وقيل: إن الصلاة الوسطى هى صلاة المغرب، رواه ابن أبى حاتم عن ابن عباس، وفى إسناده نظر، فإنه رواه عن أبيه عن أبى الجماهر عن سعيد بن بشير، عن قتادة عن أبى الخليل، عن عمه، عن ابن عباس، قال: صلاة الوسطى المغرب. وحكى هذا القول ابن جرير، عن قبيصة بن ذؤيب، وحكى أيضًا عن قتادة على اختلاف عنه، ووجه هذا القول بعضهم بأنها وسطى فى العدد بين الرباعية والثنائية، وبأنها وتر المفروضات، وبما جاء فيها من الفضيلة، والله أعلم.

وقيل: إنها العشاء الأخيرة اختاره على بن أحمد الواحدى فى تفسيره المشهور، وقيل: هى واحد من الخمس لا بعينها وأبهمت فيهن، كما أبهمت ليلة القدر فى الحول أو الشهر أو العشر، ويحكى هذا القول عن سعيد بن المسيب وشريح القاضى ونافع مولى ابن عمر، والربيع بن خيثم، ونقل أيضًا عن زيد بن ثابت واختاره إمام الحرمين الجوينى فى نهايته.

وقيل: بل الصلاة الوسطى مجموع الصلوات الخمس، رواه ابن أبى حاتم عن ابن عمر، وفى صحته أيضًا نظر، والعجب أن هذا القول اختار الشيخ أبو عمرو بن عبد البر النمرى إمام ما وراء البحر، وإنها لإحدى الكبر إذ اختاره مع اطلاعه وحفظه ما لم يقم عليه دليل من كتاب ولا سنة ولا أثر. وقيل: إنها صلاة العشاء وصلاة الفجر. وقيل: بل هى صلاة الجماعة. وقيل: صلاة الجمعة. وقيل صلاة الخوف. وقيل: بل صلاة عيد الفطر.

وقيل: بل صلاة الأضحى، وقيل: الوتر. وقيل: الضحى. وتوقف فيها آخرون لما تعارضت عندهم الأدلة، ولم يظهر لهم وجه الترجيح، ولم يقع الإجماع على قول واحد، بل لم يزل النزاع فيها موجودًا من زمان الصحابة وإلى الآن.

قال ابن جرير: حدثنى محمد بن بشار وابن المثنى، قالا: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، قال: سمعت قتادة يحدث عن سعيد بن المسيب، قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ مختلفين فى الصلاة الوسطى هكذا وشبك بين أصابعه، وقد حكى فخر الدين الرازي في تفسيره قولا عن جمع من العلماء منهم زيد بن ثابت وربيع بن خيثم أنها لم يرد بيانها وإنما أريد إبهامها كما أبهمت ليلة القدر في

---

(١) مسلم (٦٣٠).

شهر رمضان وساعة الإجابة في يوم الجمعة والاسم الأعظم في أسماء الله تعالى ووقت الموت على المكلف ليكون في كل وقت مستعدًّا وكذا أبهمت الليلة ينزل فيها من السماء وباء ليحذرها الناس ويعطوا الأهبة دائما وكذا وقت الساعة استأثر الله بعلمه فلا تأتي إلا بغتة. وكل هذه الأقوال فيها ضعف بالنسبة إلى التى قبلها، وإنما المدار ومعترك النزاع فى الصبح والعصر، وقد ثبتت السنة بأنها العصر فتعين المصير إليها. وقد روى الإمام أحمد وأبو محمد عبد الرحمن بن أبى حاتم الرازى رحمهما الله فى كتاب الشافعى رحمه الله، حدثنا أبى سمعت حرملة بن يحيى التجيبى يقول: قال الشافعى، كل ما قلت فكان عن النبى ﷺ بخلاف قولى مما يصح، فحديث النبى ﷺ أولى ولا تقلدونى، وكذا روى الربيع والزعفرانى وأحمد بن حنبل عن الشافعى، وقال موسى أبو الوليد بن أبى الجارود عن الشافعى: إذا صح الحديث وقلت قولاً، فأنا راجع عن قولى وقائل بذلك، فهذا من سيادته وأمانته، وهذا نفس إخوانه من الأئمة رحمهم الله ورضى الله عنهم أجمعين آمين ومن ههنا قطع القاضى الماوردى بأن مذهب الشافعى رحمه الله، أن صلاة الوسطى هى صلاة العصر، وإن كان قد نص فى الجديد وغيره أنها الصبح لصحة الأحاديث أنها العصر، وقد وافقه على هذه الطريقة جماعة من محدثى المذهب ولله الحمد والمنة ومن الفقهاء فى المذهب من ينكر أن تكون هى العصر مذهب الشافعى، وصمموا على أنها الصبح قولاً واحدًا، قال الماوردى: ومنهم من حكى فى المسألة قولين ولتقرير المعارضات والجوابات موضع آخر غير هذا وقد أفردناه على حدة ولله الحمد والمنة.

وَقَوْلُه تَعَالَى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ أى خاشعين ذليلين مستكينين بين يديه، وهذا الأمر مستلزم ترك الكلام فى الصلاة لمنافاته إياها، ولهذا لما امتنع النبى ﷺ من الرد على ابن مسعود حين سلّم عليه وهو فى الصلاة، اعتذر إليه بذلك وقال «إن فى الصلاة لشغلاً»[1]. وفى صحيح مسلم[2] أنه ﷺ قال لمعاوية بن الحكم السلمى حين تكلم فى الصلاة «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شىء من كلام الناس، إنما هى التسبيح والتكبير وذكر الله»، وقال الإمام أحمد بن حنبل[3]: حدثنا يحيى بن سعيد، عن إسماعيل، حدثنى الحارث بن شبيل عن أبى عمرو الشيبانى، عن زيد بن أرقم، قال: كان الرجل يكلم صاحبه فى عهد النبى ﷺ فى الحاجة فى الصلاة، حتى نزلت هذه الآية ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ فأمرنا بالسكوت، رواه الجماعة[4] سوى ابن ماجه من طرق عن إسماعيل به، وقد أشكل هذا الحديث على جماعة من العلماء حيث ثبت عندهم أن تحريم الكلام فى الصلاة كان بمكة قبل الهجرة إلى المدينة وبعد الهجرة إلى أرض الحبشة، كما دل على ذلك حديث ابن مسعود الذى فى الصحيح[5]، قال: كنا نسلم على النبى ﷺ قبل أن نهاجر إلى الحبشة وهو فى الصلاة فيرد علينا، قال: فلما قدمنا سلمت عليه فلم يرد على، فأخذنى ما قرب وما بعد، فلما سلم قال «إنى لم أرد عليك إلا أنى كنت فى

---

(١) البخاري (١٢١٦)، ومسلم (٥٣٨).
(٢) مسلم: مطولاً (٥٣٧).
(٣) صحيح: أحمد (١٨٧٩٢).
(٤) البخاري (١٢٠)، ومسلم (٥٣٩)، وأبو داود (٩٤٩)، والترمذي (٤٠٥)، والنسائي (١٢١٩)، وأحمد (١٨٧٩٢).
(٥) البخاري (٣٨٧٥)، ومسلم (٥٣٨).

الصلاة، وإن الله يحدث من أمره ما يشاء، وإن مما أحدث أن لا تكلموا فى الصلاة» وقد كان ابن مسعود ممن أسلم قديمًا وهاجر إلى الحبشة، ثم قدم منها إلى مكة مع من قدم فهاجر إلى المدينة، وهذه الآية ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ مدنية بلا خلاف، فقال قائلون: إنما أراد زيد بن أرقم بقوله: كان الرجل يكلم أخاه فى حاجته فى الصلاة، الإخبار عن جنس الكلام، واستدل على تحريم ذلك بهذه الآية بحسب ما فهمه منها، والله أعلم[١].

وقال آخرون: إنما أراد أن ذلك قد وقع بالمدينة بعد الهجرة إليها، ويكون ذلك قد أبيح مرتين وحرم مرتين، كما اختار ذلك قوم من أصحابنا وغيرهم، والأول أظهر، والله أعلم، وقال الحافظ أبو يعلى: أخبرنا بشر بن الوليد، أخبرنا إسحاق بن يحيى عن المسيب، عن ابن مسعود، قال كنا يسلم بعضنا على بعض فى الصلاة، فمررت برسول الله ﷺ فسلمت عليه، فلم يرد على، فوقع فى نفسى أنه نزل فى شىء فلما قضى النبى ﷺ صلاته قال «وعليك السلام أيها المسلم ورحمة الله، إن الله عز وجل يحدث من أمره ما يشاء، إذا كنتم فى الصلاة فاقتتوا ولا تكلموا».

وقوله ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾، لما أمر تعالى عباده بالمحافظة على الصلوات والقيام بحدودها، وشدد الأمر بتأكيدها ذكر الحال الذى يشتغل الشخص فيها عن أدائها على الوجه الأكمل، وهى حال القتال والتحام الحرب، فقال ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ أى فصلوا على أى حال كان رجالاً أو ركبانًا يعنى مستقبلى القبلة وغير مستقبليها، كما قال مالك عن نافع: أن ابن عمر كان إذا سئل عن صلاة الخوف وصفها، ثم قال: فإن كان خوف أشد من ذلك صلوا رجالاً على أقدامهم، أو ركبانًا مستقبلى القبلة أو غير مستقبليها، قال نافع: لا أرى ابن عمر ذكر ذلك إلا عن النبى ﷺ، ورواه البخارى[٢] وهذا لفظ مسلم، ورواه البخارى[٣] من وجه آخر عن ابن جريج، عن موسى بن عقبة، عن نافع، عن ابن عمر عن النبى ﷺ نحوه أو قريبًا منه، ولمسلم[٤] أيضًا عن ابن عمر، قال: فإن كان خوف أشد من ذلك، فصل راكبًا أو قائمًا تومئ إيماءً، وفى حديث عبد الله بن أنيس الجهنى لما بعثه النبى ﷺ إلى خالد بن سفيان الهذلى ليقتله، وكان نحو عرفة أو عرفات، فلما واجهه حانت صلاة العصر، قال فخشيت أن تفوتنى فجعلت أصلى وأنا أومئ إيماء الحديث بطوله رواه أحمد وأبو داود[٥] بإسناد جيد، وهذا من رخص الله التى رخص لعباده ووضعه الآصار والأغلال عنهم، وقد روى ابن أبى حاتم من طريق شبيب بن بشر عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: فى هذه الآية يصلى الراكب على دابته والراجل على رجليه، قال وروى عن الحسن ومجاهد ومكحول والسدى والحكم ومالك والأوزاعى والثورى والحسن بن صالح، نحو ذلك - وزاد: ويومئ برأسه أينما توجه، ثم قال: حدثنا أبى، حدثنا غسان، حدثنا داود يعنى ابن علية عن مطرف، عن عطية، عن جابر بن عبد الله، قال: إذا كانت المسايفة فليومئ برأسه إيماءً حيث كان وجهه، فذلك قوله ﴿فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾.

---

(١) لم أقف عليه بهذا النحو.
(٢) البخاري (٤٥٣٥)، ومسلم (٨٣٩).
(٣) البخاري (٩٤٣).
(٤) مسلم: (٨٣٩).
(٥) ضعيف: أحمد (١٥٦١٧)، وأبو داود (١٢٤٩)، انظر ضعيف سنن أبي داود.

وروى عن الحسن ومجاهد وسعيد بن جبير وعطاء وعطية والحكم وحماد وقتادة نحو ذلك، وقد ذهب الإمام أحمد فيما نص عليه إلى أن صلاة الخوف تفعل فى بعض الأحيان ركعة واحدة إذا تلاحم الجيشان، وعلى ذلك ينزل الحديث الذى رواه مسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه وابن جرير [1] من حديث أبى عوانة الوضاح بن عبد الله اليشكرى - زاد مسلم والنسائى وأيوب بن عائذ - كلاهما عن بكير بن الأخنس الكوفى، عن مجاهد، عن ابن عباس، قال: فرض الله الصلاة على لسان نبيكم ﷺ فى الحضر أربعًا، وفى السفر ركعتين، وفى الخوف ركعة، وبه قال: الحسن البصرى وقتادة والضحاك وغيرهم.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا ابن مهدى عن شعبة، قال: سألت الحكم وحمادًا وقتادة عن صلاة المسايفة، فقالوا: ركعة، وهكذا روى الثورى عنهم سواء، وقال ابن جرير أيضًا: حدثنى سعيد بن عمرو السكونى، حدثنا بقية بن الوليد، حدثنا المسعودى، حدثنا يزيد الفقير عن جابر بن عبد الله، قال: صلاة الخوف ركعة. واختار هذا القول ابن جرير، وقال البخارى: (باب الصلاة عند مناهضة الحصون ولقاء العدو).

وقال الأوزاعى: إن كان تهيأ الفتح ولم يقدروا على الصلاة، صلوا إيماء كل امرئ لنفسه، فإن لم يقدروا على الإيماء أخروا الصلاة حتى ينكشف القتال، ويأمنوا فيصلوا ركعتين، فإن لم يقدروا صلوا ركعة وسجدتين، فإن لم يقدروا لا يجزيهم التكبير ويؤخرونها حتى يأمنوا. وبه قال مكحول، وقال أنس بن مالك: حضرت مناهضة حصن تستر عند إضاءة الفجر واشتد اشتعال القتال، فلم يقدروا على الصلاة، فلم نصل إلا بعد ارتفاع النهار، فصليناها ونحن مع أبى موسى، ففتح لنا. قال أنس: وما يسرنى بتلك الصلاة الدنيا وما فيها. هذا لفظ البخارى، ثم استشهد على ذلك بحديث تأخيره ﷺ صلاة العصر يوم الخندق لعذر المحاربة إلى غيبوبة الشمس، وبقوله ﷺ بعد ذلك لأصحابه لما جهزهم إلى بنى قريظة «لا يصلين أحد منكم العصر إلا فى بنى قريظة» [2] فمنهم من أدركته الصلاة فى الطريق فصلوا وقالوا: لم يرد منا رسول الله ﷺ إلا تعجيل السير، ومنهم من أدركته فلم يصل إلى أن غربت الشمس فى بنى قريظة، فلم يعنف واحدًا من الفريقين، وهذا يدل على اختيار البخارى لهذا القول، والجمهور على خلافه، ويعولون على أن صلاة الخوف على الصفة التى ورد بها القرآن فى سورة النساء، ووردت بها الأحاديث، لم تكن مشروعة فى غزوة الخندق، وإنما شرعت بعد ذلك، وقد جاء مصرحًا بهذا فى حديث أبى سعيد وغيره، وأما مكحول والأوزاعى والبخارى فيجيبون بأن مشروعية صلاة الخوف بعد ذلك لا تنافى جواز ذلك، لأن هذا حال نادر خاص، فيجوز فيه مثل ما قلنا بدليل صنيع الصحابة زمن عمر فى فتح تستر وقد اشتهر ولم ينكر، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ أى أقيموا صلاتكم كما أمرتم، فأتموا ركوعها وسجودها وقيامها وقعودها وخشوعها وهجودها ﴿كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ أى مثل ما أنعم عليكم وهداكم للإيمان وعلمكم ما ينفعكم فى الدنيا والآخرة فقابلوه بالشكر والذكر، كقوله بعد صلاة

(١) مسلم (٦٨٧)، وأبو داود (١٢٤٧)، والنسائي (١٥٣٢)، وابن ماجه (١٠٦٨)، وابن جرير (٢/ ٥٧٦).
(٢) البخاري (٩٤٦)، ومسلم (١٧٧٠)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

الخوف ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣] وستأتى الأحاديث الواردة فى صلاة الخوف وصفاتها فى سورة النساء عند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الآية [النساء: ١٠٢].

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾

قال الأكثرون: هذه الآية منسوخة بالتى قبلها، وهى قوله: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]. قال البخارى[١]: حدثنا أمية حدثنا يزيد بن زريع، عن حبيب، عن ابن أبى مليكة، قال ابن الزبير: قلت لعثمان بن عفان ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا﴾ قد نسختها الآية الأخرى، فلم تكتبها أو تدعها، قال يا ابن أخى، لا أغير شيئًا منه من مكانه. ومعنى هذا الإشكال الذى قاله ابن الزبير لعثمان: إذا كان حكمها قد نسخ بالأربعة الأشهر فما الحكمة فى إبقاء رسمها مع زوال حكمها، وبقاء رسمها بعد التى نسختها يوهم بقاء حكمها؟ فأجابه أمير المؤمنين، بأن هذا أمر توقيفى، وأنا وجدتها مثبتة فى المصحف كذلك بعدها، فأثبتها حيث وجدتها.

قال ابن أبى حاتم[٢]: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا حجاج بن محمد عن ابن جريج وعثمان بن عطاء عن عطاء، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ فكان للمتوفى عنها زوجها نفقتها وسكناها فى الدار سنة، فنسختها آية المواريث فجعل لهن الثمن أو الربع مما ترك الزوج، ثم قال: وروى عن أبى موسى الأشعرى وابن الزبير ومجاهد وإبراهيم وعطاء والحسن وعكرمة وقتادة والضحاك وزيد بن أسلم والسدى ومقاتل بن حيان وعطاء الخراسانى والربيع بن أنس أنها منسوخة.

وروى من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس[٣]، قال: كان الرجل إذا مات وترك امرأته اعتدت سنة فى بيته ينفق عليها من ماله، ثم أنزل الله بعد ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤] فهذه عدة المتوفى عنها زوجها، إلا أن تكون حاملاً، فعدتها أن تضع ما فى بطنها، وقال ﴿وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم﴾ [النساء: ١٢] فبين ميراث المرأة وترك الوصية والنفقة، قال: وروى عن مجاهد والحسن وعكرمة وقتادة والضحاك والربيع ومقاتل بن حيان، قالوا: نسختها ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]. قال: وروى عن سعيد بن المسيب، قال: نسختها التى فى الأحزاب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٤٩] الآية.

---

(١) البخاري (٤٥٣٠).

(٢) حسن لغيره: ابن أبي حاتم (٢/ ٤٥١)، برقم (٢٣٩٠)، من طريق عطاء الخراساني، عن ابن عباس وهذا إسناد منقطع، لكن يشهد له الأثر الذي بعده.

(٣) حسن لغيره: ابن أبي حاتم (٢/ ٤٥٢)، وفي إسناده انقطاع فعلي بن أبي طلحة لم يسمع من ابن عباس.

(قُلْتُ) وروى عن مقاتل وقتادة أنها منسوخة بآية الميراث، وقال البخارى: حدثنا إسحاق بن راهويه، حدثنا روح، حدثنا شبل عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا﴾ قال: كانت هذه للمعتدة، تعتد عند أهل زوجها واجب. فأنزل الله ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ قال: جعل الله تمام السنة سبعة أشهر وعشرين ليلة، وصية إن شاءت سكنت فى وصيتها، وإن شاءت خرجت، وهو قول الله ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ فالعدة كما هى واجب عليها، زعم ذلك عن مجاهد رحمه الله، وقال عطاء: قال ابن عباس: نسخت هذه الآية عدتها عند أهلها، فتعتد حيث شاءت، وهو قول الله تعالى: ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ قال عطاء: إن شاءت اعتدت عند أهلها وسكنت فى وصيتها، وإن شاءت خرجت، لقول الله ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ﴾.

قال عطاء: ثم جاء الميراث، فنسخ السكنى فتعتد حيث شاءت، ولا سكنى لها، ثم أسند البخارى عن ابن عباس مثل ما تقدم عنه بهذا القول، الذى عول عليه مجاهد وعطاء، من أن هذه الآية لم تدل على وجوب الاعتداد سنة، كما زعمه الجمهور، حتى يكون ذلك منسوخًا بالأربعة الأشهر وعشر، وإنما دلت على أن ذلك كان من باب الوصاة بالزوجات بأن يمكن من السكنى فى بيوت أزواجهن بعد وفاتهم حولاً كاملاً إن اخترن ذلك، ولهذا قال ﴿وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم﴾ أى يوصيكم الله بهن وصية كقوله ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ الآية [النساء: ١١].

وقوله: ﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٢] وقيل: إنما انتصب على معنى فلتوصوا لهن وصية وقرأ آخرون بالرفع وصية على معنى كتب عليكم وصية واختارها ابن جرير، ولا يمنعن من ذلك لقوله ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ فأما إذا انقضت عدتهن بالأربعة أشهر والعشر، أو بوضع الحمل، واخترن الخروج والانتقال من ذلك المنزل، فإنهن لا يمنعن من ذلك لقوله ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ وهذا القول له اتجاه، وفى اللفظ مساعدة له، وقد اختاره جماعة منهم الإمام أبو العباس بن تيمية ورده آخرون، منهم الشيخ أبو عمر بن عبد البر، وقول عطاء ومن تابعه، على أن ذلك منسوخ بآية الميراث، إن أرادوا ما زاد على الأربعة أشهر والعشر فمسلم، وإن أرادوا أن سكنى الأربعة أشهر وعشر لا تجب فى تركة الميت، فهذا محل خلاف بين الأئمة وهما قولان للشافعى رحمه الله، وقد استدلوا على وجوب السكنى فى منزل الزوج، بما رواه مالك[1] فى موطئه، عن سعد بن إسحاق بن كعب بن عجرة، عن عمته زينب بنت كعب بن عجرة، أن الفريعة بنت مالك بن سنان وهى أخت أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنهما، أخبرتها أنها جاءت إلى رسول الله ﷺ تسأله أن ترجع إلى أهلها فى بنى خدرة، فإن زوجها خرج فى طلب أعبد له أبقوا حتى إذا كان بطرف القدوم لحقهم فقتلوه قالت: فسألت رسول الله ﷺ أن أرجع إلى أهلى فى بنى خدرة، فإن زوجى لم يتركنى فى مسكن يملكه ولا نفقة، قالت: فقال رسول الله ﷺ «نعم» قالت: فانصرفت حتى إذا كنت فى الحجرة ناداني رسول الله ﷺ أو أمر بى فنوديت له فقال «كيف قلت» ؟ فرددت عليه القصة التى ذكرت له شأن

(١) مالك (١٢٥٤)، وانظر ما بعده.

زوجى، فقال «امكثى فى بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله» قالت: فاعتددت فيه أربعة أشهر وعشرًا، قالت: فلما كان عثمان بن عفان أرسل إلى فسألنى عن ذلك، فأخبرته فاتبعه وقضى به، وكذا رواه أبو داود والترمذى والنسائى [١] من حديث مالك به. ورواه النسائى أيضًا وابن ماجه [٢] من طرق عن سعد بن إسحاق به، وقال الترمذى: حسن صحيح.

وقوله ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾﴾ قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم لما نزل قوله تعالى: ﴿مَّتَٰعًا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦] قال رجل: إن شئت أحسنت ففعلت، وإن شئت لم أفعل، فأنزل الله هذه الآية ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾﴾ وقد استدل بهذه الآية، من ذهب من العلماء، إلى وجوب المتعة لكل مطلقة، سواء كانت مفوضة، أو مفروضًا لها، أو مطلقة قبل المسيس، أو مدخولاً بها، وهو قول عن الشافعى رحمه الله، وإليه ذهب سعيد بن جبير، وغيره من السلف، واختاره ابن جرير، ومن لم يوجبها مطلقًا، يخصص من هذا العموم مفهوم قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦] وأجاب الأولون بأن هذا من باب ذكر بعض أفراد العموم، فلا تخصيص على المشهور المنصوص، والله أعلم.

وقوله ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أى فى إحلاله وتحريمه وفروضه وحدوده، فيما أمركم ونهاكم عنه، بينه ووضحه وفسره، ولم يتركه مجملاً فى وقت احتياجكم إليه ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أى تفهمون وتتدبرون.

ثلاثة أرباع الحزب ٤

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ ۖ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾

روى عن ابن عباس أنهم كانوا أربعة آلاف، وعنه كانوا ثمانية آلاف وقال أبو صالح: تسعة آلاف، وعن ابن عباس أربعون ألفًا، وقال وهب بن منبه وأبو مالك: كانوا بضعة وثلاثين ألفًا. وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس، قال: كانوا أهل قرية يقال لها داوردان. وكذا قال السدى وأبو صالح وزاد من قبل واسط، وقال سعيد بن عبد العزيز: كانوا من أهل أذرعات، وقال ابن جريج عن عطاء قال: هذا مثل. وقال على بن عاصم: كانوا من أهل داوردان قرية على فرسخ من قبل واسط.

وقال وكيع بن الجراح فى تفسيره: حدثنا سفيان عن ميسرة بن حبيب النهدى، عن المنهال بن عمرو الأسدى، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ قال: كانوا أربعة آلاف خرجوا فرارًا من الطاعون قالوا: نأتى أرضًا ليس بها موت حتى إذا كانوا بموضع كذا وكذا قال الله لهم ﴿مُوتُوا۟﴾ فماتوا، فمر عليهم نبى من الأنبياء، فدعا ربه أن يحييهم

(١) صحيح: أبو داود (٢٣٠٠)، والترمذي (١٢٠٤)، والنسائي (٣٥٢٨)، انظر صحيح سنن أبي داود.
(٢) صحيح: النسائي (٣٥٣٠)، وابن ماجه (٢٠٣١)، انظر صحيح سنن النسائي.

فأحياهم، فذلك قوله عز وجل ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ الآية.

وذكر غير واحد من السلف، أن هؤلاء القوم، كانوا أهل بلدة فى زمان بنى إسرائيل استوخموا أرضهم، وأصابهم بها وباء شديد، فخرجوا فرارًا من الموت، هاربين إلى البرية، فنزلوا واديًا أفيح، فملؤوا ما بين عدوتيه، فأرسل الله إليهم ملكين، أحدهما من أسفل الوادى، والآخر من أعلاه، فصاحا بهم صيحة واحدة، فماتوا عن آخرهم موتة رجل واحد، فحيزوا إلى حظائر، وبنى عليهم جدران وقبور، وفنوا وتمزقوا وتفرقوا، فلما كان بعد دهر، مرّ بهم نبى من أنبياء بنى إسرائيل، يقال له حزقيل، فسأل الله أن يحييهم على يديه، فأجابه إلى ذلك، وأمره أن يقول: أيتها العظام البالية، إن الله يأمرك أن تجتمعى، فاجتمع عظام كل جسد بعضها إلى بعض، ثم أمره فنادى: أيتها العظام إن الله يأمرك أن تكتسى لحمًا وعصبًا وجلدًا، فكان ذلك وهو يشاهده، ثم أمره فنادى: أيتها الأرواح، إن الله يأمرك أن ترجع كل روح إلى الجسد الذى كانت تعمره فقاموا أحياءً ينظرون قد أحياهم الله بعد رقدتهم الطويلة وهم يقولون: سبحانك لا إله إلا أنت.

وكان فى إحيائهم عبرة ودليل قاطع على وقوع المعاد الجسمانى يوم القيامة، ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، أى فيما يريهم من الآيات الباهرة والحجج القاطعة والدلالات الدامغة ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أى لا يقومون بشكر ما أنعم الله به عليهم فى دينهم ودنياهم. وفى هذه القصة عبرة ودليل، على أنه لن يغنى حذر من قدر، وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه، فإن هؤلاء خرجوا فرارًا من الوباء، طلبًا لطول الحياة، فعوملوا بنقيض قصدهم، وجاءهم الموت سريعًا فى آن واحد. ومن هذا القبيل، الحديث الصحيح الذى رواه الإمام أحمد[1]: حدثنا إسحاق بن عيسى، أخبرنا مالك وعبد الرزاق، أخبرنا معمر كلاهما عن الزهرى عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب عن عبد الله بن الحارث بن نوفل، عن عبد الله بن عباس، أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام حتى إذا كان بسرغ، لقيه أمراء الأجناد أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه، فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام، فذكر الحديث، فجاءه عبد الرحمن بن عوف، وكان متغيبًا لبعض حاجته فقال: إن عندى من هذا علمًا، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارًا منه، وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه» فحمد الله عمر ثم انصرف، وأخرجاه فى الصحيحين[2] من حديث الزهرى به بطريق أخرى لبعضه.

قال أحمد[3]: حدثنا حجاج ويزيد العمى، قالا: أخبرنا ابن أبى ذئب عن الزهرى عن سالم عن عبد الله بن عامر بن ربيعة أن عبد الرحمن بن عوف أخبر عمر وهو فى الشام عن النبى ﷺ «أن هذا السقم عذب به الأمم قبلكم فإذا سمعتم به فى أرض، فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارًا» قال: فرجع عمر من الشام، وأخرجاه فى الصحيحين[4] من حديث مالك، عن الزهرى بنحوه.

---

(١) صحيح: أحمد (١٦٨٥)، انظر صحيح الجامع (٦١٦).
(٢) البخاري (٥٧٢٩)، ومسلم (٢٢١٩).
(٣) صحيح: أحمد (١٦٨١)، انظر السلسلة الصحيحة (٢٩٣١).
(٤) البخاري (٥٧٣٠)، ومسلم (٢٢١٩).

وقوله: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾ أى كما أن الحذر لا يغنى من القدر، كذلك الفرار من الجهاد وتجنبه، لا يقرب أجلا ولا يبعده، بل الأجل المحتوم والرزق المقسوم مقدر مقنن لا يزاد فيه ولا ينقص منه، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٧-٧٨].

وروينا عن أمير الجيوش، ومقدم العساكر، وحامى حوزة الإسلام، وسيف الله المسلول على أعدائه: أبى سليمان خالد بن الوليد رضى الله عنه، أنه قال وهو فى سياق الموت: لقد شهدت كذا وكذا موقفًا، وما من عضو من أعضائى إلا وفيه رمية أو طعنة أو ضربة وها أنا ذا أموت على فراشى كما يموت العير، فلا نامت أعين الجبناء - يعنى أنه يتألم لكونه ما مات قتيلاً فى الحرب، ويتأسف على ذلك، ويتألم أن يموت على فراشه.

وقوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾، يحث تعالى عباده على الأنفاق فى سبيل الله، وقد كرر تعالى هذه الآية فى كتابه العزيز فى غير موضع، وفى حديث[1] النزول أنه يقول تعالى: «من يقرض غير عديم ولا ظلوم».

وقال ابن أبى حاتم[2]: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا خلف بن خليفة، عن حميد الأعرج، عن عبد الله بن الحارث، عن عبد الله بن مسعود، قال: لما نزلت ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ﴾، قال أبو الدحداح الأنصارى: يا رسول الله، وإن الله عز وجل ليريد منا القرض؟ قال: «نعم يا أبا الدحداح». قال: أرنى يدك يا رسول الله. قال: فناوله يده، قال: فإنى قد أقرضت ربى عز وجل حائطى، قال: وحائط له فيه ستمائة نخلة، وأم الدحداح فيه وعيالها. قال فجاء أبو الدحداح فناداها: يا أم الدحداح. قالت: لبيك. قال: اخرجى، فقد أقرضته ربى عز وجل.

وقد رواه ابن مردويه من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه، عن عمر رضى الله عنه مرفوعًا بنحوه، وقوله: ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ روى عن عمر وغيره من السلف هو النفقة فى سبيل الله، وقيل: هو النفقة على العيال، وقيل: هو التسبيح والتقديس.

وقوله: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١] الآية، وسيأتى الكلام عليها.

وقال الإمام أحمد[3]: حدثنا يزيد، أخبرنا مبارك بن فضالة، عن على بن زيد، عن أبى عثمان النهدى، قال: أتيت أبا هريرة رضى الله عنه، فقلت له: إنه بلغنى أنك تقول إن الحسنة تضاعف ألف

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (٧٥٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) ضعيف: ابن أبي حاتم (٢/ ٤٦٠)، برقم (٢٤٣٠)، وفيه حميد بن عطاء الأعرج: ضعيف، وخلف بن خليفة: اختلط بآخره.

(٣) ضعيف: أحمد (٧٨٨٥)، انظر ضعيف الجامع (١٦٥٥).

ألف حسنة، قال: وما أعجبك من ذلك، لقد سمعته من النبى ﷺ يقول «إن الله يضاعف الحسنة ألفى ألف حسنة» هذا حديث غريب، وعلى بن زيد بن جدعان عنده مناكير، لكن رواه ابن أبى حاتم [١] من وجه آخر فقال: حدثنا أبو خلاد سليمان بن خلاد المؤدب، حدثنا يونس بن محمد المؤدب، حدثنا محمد بن عقبة الرفاعى عن زياد الجصاص عن أبى عثمان النهدى، قال: لم يكن أحد أكثر مجالسة لأبى هريرة منى، فقدم قبلى حاجًا، قال: وقدمت بعده، فإذا أهل البصرة يأثرون عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول «إن الله يضاعف الحسنة ألف ألف حسنة» فقلت: ويحكم، والله ما كان أحد أكثر مجالسة لأبى هريرة منى، فما سمعت هذا الحديث، قال: فتحملت أريد أن ألحقه فوجدته قد انطلق حاجًا، فانطلقت إلى الحج ألقاه فى هذا الحديث، فلقيته لهذا، فقلت: يا أبا هريرة، ما حديث سمعت أهل البصرة يأثرون عنك؟ قال: ما هو؟ قلت: زعموا أنك تقول: إن الله يضاعف الحسنة ألف ألف حسنة، قال: يا أبا عثمان، وما تعجب من ذا، والله يقول ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ ويقول ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨]؟ والذى نفسى بيده لقد سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «إن الله يضاعف الحسنة ألفى ألف حسنة».

وفى معنى هذا الحديث ما رواه الترمذى [٢] وغيره من طريق عمرو بن دينار، عن سالم، عن عبد الله بن عمر بن الخطاب، أن رسول الله ﷺ، قال «من دخل سوقًا من الأسواق فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير - كتب الله له ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة» [٣] الحديث.

وقال ابن أبى حاتم [٤]: حدثنا أبو زرعة إسماعيل بن إبراهيم بن بسام، حدثنا أبو إسماعيل المؤدب عن عيسى بن المسيب، عن نافع، عن ابن عمر، قال: لما نزلت ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ [البقرة: ٢٦١] إلى آخرها، فقال رسول الله ﷺ «رب زد أمتى»، فنزلت ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾. قال «رب زد أمتى»، فنزلت ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وروى ابن أبى حاتم أيضًا عن كعب الأحبار: أنه جاءه رجل فقال: إنى سمعت رجلاً يقول: من قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] مرة واحدة، بنى الله له عشرة آلاف ألف غرفة من درّ وياقوت فى الجنة، أفأصدق ذلك؟ قال: نعم، أو عجبت من ذلك؟ قال: نعم، وعشرين ألف ألف وثلاثين ألف ألف وما لا يحصى ذلك إلا الله، ثم قرأ ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ فالكثير من الله لا يحصى وقوله ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾ أى أنفقوا ولا تبالوا، فالله هو الرازق يضيق على من يشاء من عباده فى الرزق، ويوسعه على آخرين، له الحكمة البالغة فى ذلك ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أى يوم القيامة.

---

(١) ضعيف: ابن أبى حاتم (٢/ ٤٦١)، برقم (٢٤٣٤)، من طريق زياد الحصاص وهو ضعيف.
(٢) حسن: الترمذي (٣٤٢٩)، انظر صحيح جامع الترمذي.
(٣) ضعيف: ابن أبى حاتم (٢/ ٤٦١)، برقم (٢٤٣٥)، وفيه عيسى بن المسيب لم يوثقه غير ابن حبان.
(٤) عزاه المصنف لابن أبى حاتم، وانظر ما قبله.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾

قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة: هذا النبى هو يوشع بن نون قال ابن جرير: يعنى ابن أفراثيم بن يوسف بن يعقوب، وهذا القول بعيد لأن هذا كان بعد موسى بدهر طويل، وكان ذلك فى زمان داود عليه السلام، كما هو مصرح به فى القصة، وقد كان بين داود وموسى ما ينيف عن ألف سنة، والله أعلم.

وقال السدى: هو شمعون.

وقال مجاهد: هو شمويل عليه السلام، وكذا قال محمد بن إسحاق عن وهب بن منبه: وهو شمويل بن بالى بن علقمة بن ترخام بن اليهو بن تهو بن صوف بن علقمه بن ماحث بن عموحًا عمرصا بن عزريا بن صفية بن علقمة بن أبى ياشف بن قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليه السلام.

وقال وهب بن منبه وغيره: كان بنو إسرائيل بعد موسى عليه السلام على طريق الاستقامة مدة من الزمان، ثم أحدثوا الأحداث، وعبد بعضهم الأصنام، ولم يزل بين أظهرهم من الأنبياء من يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويقيمهم على منهج التوراة، إلى أن فعلوا ما فعلوا، فسلط الله عليهم أعداءهم، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وأسروا خلقًا كثيرًا، وأخذوا منهم بلادًا كثيرة، ولم يكن أحد يقاتلهم إلا غلبوه، وذلك أنهم كان عندهم التوراة، والتابوت الذى كان فى قديم الزمان، وكان ذلك موروثًا لخلفهم عن سلفهم إلى موسى الكليم عليه الصلاة والسلام، فلم يزل بهم تماديهم على الضلال حتى استلبه منهم بعض الملوك فى بعض الحروب، وأخذوا التوراة من أيديهم، ولم يبق من يحفظها فيهم إلا القليل، وانقطعت النبوة من أسباطهم، ولم يبق من سبط لاوى الذى يكون فيه الأنبياء إلا امرأة حامل من بعلها وقد قتل، فأخذوها فحبسوها فى بيت، واحتفظوا بها لعل الله يرزقها غلامًا يكون نبيًا لهم، ولم تزل المرأة تدعو الله عز وجل أن يرزقها غلامًا، فسمع الله لها ووهبها غلامًا، فسمته شمويل، أى سمع الله دعائى.

ومنهم من يقول: شمعون، وهو بمعناه، فشب ذلك الغلام، ونشأ فيهم، وأنبتها الله نباتًا حسنًا، فلما بلغ سن الأنبياء أوحى الله إليه، وأمره بالدعوة إليه وتوحيده، فدعا بنى إسرائيل، فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكًا يقاتلون معه أعداءهم، وكان الملك أيضًا قد باد فيهم.

فقال لهم النبى: فهل عسيتم إن أقام الله لكم ملكًا ألا تقاتلوا وتفوا بما التزمتم من القتال معه، ﴿قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾ أى وقد أخذت منا البلاد وسبيت الأولاد، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أى ما وفوا بما وعدوا بل نكل عن الجهاد أكثرهم، والله عليم بهم.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾

أى لما طلبوا من نبيهم أن يعين لهم ملكًا منهم، فعين لهم طالوت، وكان رجلاً من أجنادهم، ولم يكن من بيت الملك فيهم، لأن الملك كان فى سبط يهوذا، ولم يكن هذا من ذلك السبط، فلهذا قالوا: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾، أى كيف يكون ملكًا علينا ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾ أى هو مع هذا فقير لا مال له يقوم بالملك، وقد ذكر بعضهم أنه كان سقاء، وقيل: دباغًا، وهذا اعتراض منهم على نبيهم وتعنت، وكان الأولى بهم طاعة وقول معروف، ثم قد أجابهم النبى قائلاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ﴾ أى اختاره لكم من بينكم، والله أعلم به منكم، يقول: لست أنا الذى عينته من تلقاء نفسى، بل الله أمرنى به لما طلبتم منى ذلك، ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ أى وهو مع هذا، أعلم منكم، وأنبل، وأشكل منكم، وأشد قوة وصبرًا فى الحرب ومعرفة بها، أى أتم علمًا وقامة منكم، ومن ههنا ينبغى أن يكون الملك ذا علم وشكل حسن وقوة شديدة فى بدنه ونفسه ثم قال ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾ أى هو الحاكم الذى ما شاء فعل، ولا يُسأل عما يفعل، وهم يسألون لعلمه وحكمته ورأفته بخلقه، ولهذا قال ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أى هو واسع الفضل، يختص برحمته من يشاء، عليم بمن يستحق الملك ممن لا يستحقه.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾

يقول لهم نبيهم: إن علامة بركة ملك طالوت عليكم، أن يرد الله عليكم التابوت الذى كان أخذ منكم ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ قيل معناه وقار وجلالة.

قال عبد الرزاق عن معمر، عن قتادة ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ﴾ أى وقار: وقال الربيع: رحمة، وكذا روى عن العوفى، عن ابن عباس.

وقال ابن جريج: سألت عطاء عن قوله ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾؟ قال: ما تعرفون من آيات الله فتسكنون إليه، وكذا قال الحسن البصرى.

وقيل: السكينة طست من ذهب، كانت تغسل فيه قلوب الأنبياء، أعطاها الله موسى عليه السلام، فوضع فيها الألواح، ورواه السدى عن أبى مالك عن ابن عباس، وقال سفيان الثورى، عن سلمة بن كهيل، عن أبى الأحوص، عن على، قال: السكينة لها وجه كوجه الإنسان، ثم هى روح هفافة.

وقال ابن جرير، حدثنى بن المثنى، حدثنا أبو داود، حدثنا شعبة وحماد بن سلمة وأبو الأحوص، كلهم عن سماك عن خالد بن عرعرة، عن على، قال: السكينة ريح خجوج، ولها رأسان.

وقال مجاهد: لها جناحان وذنب.

وقال محمد بن إسحاق، عن وهب بن منبه: السكينة رأس هرة ميتة إذا صرخت فى التابوت بصراخ

هر، أيقنوا بالنصر، وجاءهم الفتح.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا بكار بن عبد الله، أنه سمع وهب بن منبه يقول: السكينة روح من الله تتكلم، إذا اختلفوا فى شىء تكلم، فتخبرهم ببيان ما يريدون.

وقوله ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾ قال ابن جرير: أخبرنا ابن مثنى، حدثنا أبو الوليد، حدثنا حماد عن داود بن أبى هند، عن عكرمة، عن ابن عباس، فى هذه الآية ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾ قال: عصاه، ورضاض الألواح، وكذا قال قتادة والسدى والربيع بن أنس وعكرمة، وزاد: والتوراة. قال أبو صالح ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ﴾ يعنى عصا موسى، وعصا هارون، ولوحين من التوراة، والمن. وقال عطية بن سعد: عصا موسى، وعصا هارون، وثياب موسى، وثياب هارون، ورضاض الألواح.

وقال عبد الرزاق: سألت الثورى عن قوله ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾، فقال: منهم من يقول: قفيز من منّ، ورضاض الألواح، ومنهم من يقول: العصا والنعلان.

وقوله ﴿تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ قال ابن جريج: قال ابن عباس: جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض حتى وضعته بين يدى طالوت والناس ينظرون، قال السدى: أصبح التابوت فى دار طالوت، فآمنوا بنبوة شمعون، وأطاعوا طالوت. وقال عبد الرزاق، عن الثورى، عن بعض أشياخه، جاءت به الملائكة تسوقه على عجلة على بقرة، وقيل: على بقرتين.

وذكر غيره: أن التابوت كان بأريحا، وكان المشركون لما أخذوه وضعوه فى بيت آلهتهم تحت صنمهم الكبير فأصبح التابوت على رأس الصنم فأنزلوه فوضعوه تحته، فأصبح كذلك، فسمروه تحته، فأصبح الصنم مكسور القوائم، ملقى بعيدًا، فعلموا أن هذا أمر من الله لا قبل لهم به، فأخرجوا التابوت من بلدهم، فوضعوه فى بعض القرى، فأصاب أهلها داء فى رقابهم، فأمرتهم جارية من سبى بنى إسرائيل أن يردوه إلى بنى إسرائيل حتى يخلصوا من هذا الداء، فحملوه على بقرتين فسارتا به، لا يقربه أحد إلا مات، حتى اقتربتا من بلد بنى إسرائيل، فكسرتا النيرين ورجعتا، وجاء بنو إسرائيل فأخذوه، فقيل: إنه تسلمه داود عليه السلام، وإنه لما قام إليهما حجل من فرحه بذلك، وقيل: شابان منهم، فالله أعلم وقيل: كان التابوت بقرية من قرى فلسطين يقال لها أزدرد.

وقوله ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ﴾ أى على صدقى فيما جئتكم به من النبوة، وفيما أمرتكم به من طاعة طالوت ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أى بالله واليوم الآخر.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾

يقول تعالى مخبرًا عن طالوت ملك بنى إسرائيل حين خرج فى جنوده، ومن أطاعه من ملأ بنى إسرائيل، وكان جيشه يومئذ فيما ذكره السدى ثمانين ألفًا، فالله أعلم، أنه قال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم﴾

أى مختبركم بنهر، قال ابن عباس وغيره: وهو نهر بين الأردن وفلسطين، يعنى نهر الشريعة المشهور، ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أى فلا يصحبنى اليوم فى هذا الوجه ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾، أى فلا بأس عليه، قال الله تعالى: ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

قال ابن جريج: قال ابن عباس: من اغترف منه بيده روى، ومن شرب منه لم يرو. وكذا رواه السدى عن أبى مالك، عن ابن عباس: وكذا قال قتادة وابن شوذب، وقال السدى: كان الجيش ثمانين ألفًا، فشرب منه ستة وسبعون ألفًا، وتبقى معه أربعة آلاف، كذا قال.

وقد روى ابن جرير [١] من طريق إسرائيل وسفيان الثورى ومسعر بن كدام عن أبى إسحاق السبيعى عن البراء بن عازب، قال: كنا نتحدث أن أصحاب محمد ﷺ، الذين كانوا يوم بدر ثلاثمائة وبضعة عشر على عدة أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر، وما جازه معه إلا مؤمن، ورواه البخارى [٢] عن عبد الله بن رجاء، عن إسرائيل بن يونس، عن أبى إسحاق، عن جده، عن البراء قال وكنا أصحاب محمد ﷺ نتحدث أن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر ولم يجاوز معه إلا مؤمن بضعة عشر وثلثمائة ثم رواه [٣] من حديث سفيان الثورى وزهير عن أبي إسحاق عن البراء بنحوه، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ أى استقلوا أنفسهم عن لقاء عدوهم لكثرتهم، فشجعهم علماؤهم العالمون بأن وعد الله حق، فإن النصر من عند الله ليس عن كثرة عدد ولا عدد. ولهذا قالوا ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾

أى لما واجه حزب الإيمان، وهم قليل من أصحاب طالوت، لعدوهم أصحاب جالوت، وهم عدد كثير ﴿قَالُوا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أى أنزل علينا صبرًا من عندك ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ أى فى لقاء الأعداء، وجنبنا الفرار والعجز ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أى غلبوهم وقهروهم بنصر الله لهم ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ ذكروا فى الإسرائيليات أنه قتله بمقلاع كان فى يده، رماه به فأصابه فقتله، وكان طالوت قد وعده إن قتل جالوت أن يزوجه ابنته، ويشاطره نعمته، ويشركه فى أمره، فوفى له ثم آل الملك إلى داود عليه السلام مع ما منحه الله به من النبوة العظيمة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ الذى كان بيد طالوت ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أى النبوة بعد شمويل ﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ أى مما يشاء الله من العلم

---

(١) ابن جرير (٢/ ٦٢١).
(٢) البخاري (٣٩٥٨).
(٣) البخاري (٣٩٥٧)، (٣٩٥٩).

الذى اختص به ﷻ ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ أى لولا الله يدفع عن قوم بآخرين كما دفع عن بنى إسرائيل بمقاتلة طالوت وشجاعة داود لهلكوا كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠] الآية.

وقال ابن جرير [(١)]: حدثنى أبو حميد الحمصى أحمد بن المغيرة، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا حفص بن سليمان عن محمد بن سوقة، عن وبرة بن عبد الرحمن، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة أهل بيت من جيرانه البلاء» ثم قرأ ابن عمر ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ وهذا إسناد ضعيف، فإن يحيى بن سعيد هذا، هو ابن العطار الحمصى، وهو ضعيف جدًا، ثم قال ابن جرير [(٢)]: حدثنا أبو حميد الحمصى، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا عثمان بن عبد الرحمن، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليصلح بصلاح الرجل المسلم ولده، وولد ولده، وأهل دويرته، ودويرات حوله، ولا يزالون فى حفظ الله عزّ وجل، ما دام فيهم» وهذا أيضًا غريب ضعيف لما تقدم أيضًا، وقال أبو بكر بن مردويه [(٣)]: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا على بن إسماعيل بن حماد، أخبرنا أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد، أخبرنا زيد بن الحباب، حدثنى حماد بن زيد، عن أيوب، عن أبى قلابة، عن أبى أسماء، عن ثوبان رفع الحديث، قال «لا يزال فيكم سبعة بهم تنصرون، وبهم تمطرون، وبهم ترزقون، حتى يأتى أمر الله».

وقال ابن مردويه أيضًا [(٤)]: وحدثنا محمد بن أحمد، حدثنا محمد بن جرير بن يزيد، حدثنا أبو معاذ نهار بن معاذ بن عثمان الليثى، أخبرنا زيد بن الحباب أخبرنى عمر البزار عن عنبسة الخواص عن قتادة عن أبى قلابة عن أبى الأشعث الصنعانى، عن عبادة بن الصامت، قال رسول الله ﷺ: «الأبدال فى أمتى ثلاثون، بهم ترزقون، وبهم تمطرون، وبهم تنصرون» قال قتادة، إنى لأرجو أن يكون الحسن منهم.

وقوله ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أى ذو منّ عليهم ورحمة بهم، يدفع عنهم ببعضهم بعضًا، وله الحكم والحكمة والحجة على خلقه فى جميع أفعاله وأقواله.

ثم قال تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾ أى هذه آيات الله التى قصصناها عليك من أمر الذين ذكرناهم بالحق، أى بالواقع الذى كان عليه الأمر المطابق لما بأيدى أهل الكتاب من الحق الذى يعلمه علماء بنى إسرائيل، ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وهذا توكيد وتوطئة للقسم.

---

(١) **ضعيف جدًا**: ابن جرير (٢/ ٦٣٣)، وفيه يحيى بن سعيد العطار، قال العقيلي: شامي منكر الحديث، لا يتابع على حديثه وليس بمشهور بالنقل.

(٢) **ضعيف جدًا**: ابن جرير (٢/ ٦٣٣- ٦٣٤)، وفيه يحيى بن سعيد العطار، انظر ما قبله.

(٣) **ضعيف**: عزاه المصنف لابن مردويه وفيه أبو قلابة، وهو ثقة لكنه كثير الإرسال وقد عنعنه.

(٤) **ضعيف**: فيه أبو قلابة: كثير الإرسال، وقتادة: مدلس، وقد عنعنه.

﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾

يخبر تعالى أنه فضل بعض الرسل على بعض، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥]، وقال هـهنـا ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ يعنى موسى ومحمدًا ﷺ وكذلك آدم كما ورد به الحديث المروى فى صحيح ابن حبان عن أبى ذر رضى الله عنه ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ كما ثبت فى حديث الإسراء [١] حين رأى النبى ﷺ، الأنبياء فى السماوات بحسب تفاوت منازلهم عند الله عز وجل، (فإن قيل) فما الجمع بين هذه الآية وبين الحديث الثابت فى الصحيحين [٢] عن أبى هريرة، قال استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود، فقال اليهودى فى قسم يقسمه: لا والذى اصطفى موسى على العالمين. فرفع المسلم يده، فلطم بها وجه اليهودى، فقال: أى خبيث؟ وعلى محمد ﷺ؟ فجاء اليهودى إلى النبى ﷺ، فاشتكى على المسلم، فقال رسول الله ﷺ: «لا تفضلونى على الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فأجد موسى باطشًا بقائمة العرش، فلا أدرى أفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور؟ فلا تفضلونى على الأنبياء» وفى رواية «لا تفضلوا بين الأنبياء» فالجواب من وجوه:

(أحدها) أن هذا كان قبل أن يعلم بالتفضيل، وفى هذا نظر.

(الثانى) أن هذا قاله من باب الهضم والتواضع.

(الثالث) أن هذا نهى عن التفضيل فى مثل هذه الحال التى تحاكموا فيها عند التخاصم والتشاجر.

(الرابع) لا تفضلوا بمجرد الآراء والعصبية.

(الخامس) ليس مقام التفضيل إليكم، وإنما هو إلى الله عز وجل، وعليكم الانقياد والتسليم له، والإيمان به. وقوله ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أى الحجج والدلائل القاطعات على صحة ما جاء بنى إسرائيل به من أنه عبد الله ورسوله إليهم ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ يعنى أن الله أيده بجبريل عليه السلام، ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ أى كل ذلك عن قضاء الله وقدره، لهذا قال ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾

يأمر تعالى عباده بالإنفاق مما رزقهم فى سبيله، سبيل الخير، ليدّخروا ثواب ذلك عند ربهم ومليكهم، وليبادروا إلى ذلك فى هذه الحياة الدنيا، ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ﴾ يعنى يوم القيامة ﴿لَّا بَيْعٌ

(١) سبق تخريجه.
(٢) البخاري (٣٤٠٨)، ومسلم (٢٣٧٣).

فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ أى لا يباع أحد من نفسه ولا يفادى بمال لو بذل، ولو جاء بملء الأرض ذهبًا، ولا تنفعه خلة أحد، يعنى صداقته بل ولا نسابته، كما قال ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، ﴿وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾: أى ولا تنفعهم شفاعة الشافعين.

وقوله ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ مبتدأ محصور فى خبره، أى ولا ظالم أظلم ممن وافى الله يومئذٍ كافرًا، وقد روى ابن أبى حاتم عن عطاء بن دينار أنه قال: الحمد لله الذى قال ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ولم يقل: والظالمون هم الكافرون.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾

هـذه آيـة الكرسى، ولها شأن عظيم، وقد صح الحديث عن رسول الله ﷺ بأنها أفضل آية فى كتاب الله. قال الإمام أحمد[١]: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا سفيان، عن سعيد الجريرى، عن أبى السليل، عن عبد الله بن رباح، عن أبى هو ابن كعب، أن النبى ﷺ، سأله «أى آية فى كتاب الله أعظم؟ قال الله ورسوله أعلم، فرددها مرارًا، ثم قال: آية الكرسى، قال «ليهنك العلم أبا المنذر، والذى نفسى بيده، إن لها لسانا وشفتين تقدس الملك عند ساق العرش» وقد رواه مسلم[٢] عن أبى بكر بن أبى شيبة، عن عبد الأعلى بن عبد الأعلى، عن الجريرى به، وليس عنده زيادة: والذى نفسى بيده... الخ.

(حديث آخر) عن أبى أيضًا فى فضل آية الكرسى، قال الحافظ أبو يعلى الموصلى: حدثنا أحمد بن إبراهيم الدورقى، حدثنا مبشر عن الأوزاعى، عن يحيى بن أبى كثير، عن عبدة بن أبى لبابة، عن عبد الله بن أبى بن كعب، أن أباه أخبره أنه كان له جرن فيه تمر، قال: فكان أبى يتعاهده، فوجده ينقص، قال: فحرسه ذات ليلة، فإذا هو بدابة شبيه الغلام المحتلم، قال: فسلمت عليه، فرد السلام، قال: فقلت: ما أنت؟ جنى أم إنسى؟ قال: جنى. قال: ناولنى يدك، قال فناولنى يده، فإذا يد كلب وشعر كلب، فقلت: هكذا خلق الجن. قال: لقد علمت الجن ما فيهم أشد منى. قلت: فما حملك على ما صنعت؟ قال: بلغنى أنك رجل تحب الصدقة، فأحببنا أن نصيب من طعامك. قال: فقال له أبى: فما الذى يجيرنا منكم؟ قال: هذه الآية، آية الكرسى، ثم غدا إلى النبى فأخبره، فقال النبى ﷺ صدق الخبيث»[٣] وهكذا رواه الحاكم[٤] فى مستدركه من حديث أبى داود الطيالسى، عن حرب بن شداد، عن يحيى بن أبى كثير، عن الحضرمى بن لاحق، عن محمد بن عمرو بن أبى بن كعب، عن جده به، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

---

(١) صحيح: أحمد (٢٠٧٧١)، انظر مختصر العلو.

(٢) مسلم: (٨١٠).

(٣) صحيح: النسائي في «عمل اليوم والليلة» (١/ ٥٣٣)، برقم (٩٦٠)، والحديث صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٤) صحيح: الحاكم في «المستدرك» (١/ ٧٤٩)، برقم (٢٠٦٤)، انظر «صحيح الترغيب والترهيب» (١٤٧٠).

(طريق أخر) قال الإمام أحمد [١]: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عثمان بن غياث، قال: سمعت أبا السليل، قال: كان رجل من أصحاب النبى ﷺ يحدث الناس حتى يكثروا عليه، فيصعد على سطح بيت، فيحدث الناس، قال: قال رسول الله ﷺ: «أى آية فى القرآن أعظم؟» فقال رجل ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ قال: فوضع يده بين كتفى، فوجدت بردها بين ثديى، أو قال: فوضع يده بين ثديى فوجدت بردها بين كتفى، وقال: ليهنك العلم يا أبا المنذر.

(حديث آخر) عن الأسقع البكرى. قال الحافظ أبو القاسم الطبرانى [٢]: حدثنا أبو زيد القراطيسى، حدثنا يعقوب بن أبى عباد المكى، حدثنا مسلم بن خالد، عن ابن جريج، أخبرنى عمر بن عطاء أن مولى ابن الأسقع رجل صدق، أخبره عن الأسقع البكرى، أنه سمعه يقول: إن النبى ﷺ جاءهم فى صفة المهاجرين، فسأله إنسان: أى آية فى القرآن أعظم؟ فقال النبى ﷺ: «﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾» [البقرة: ٢٥٥] حتى انقضت الآية.

(حديث آخر) - عن أنس - قال الإمام أحمد [٣]: حدثنا عبد الله بن الحارث، حدثنى سلمة بن وردان، أن أنس بن مالك، حدثه أن رسول الله ﷺ سأل رجلاً من صحابته، فقال «أى فلان هل تزوجت؟» قال: لا، وليس عندى ما أتزوج به، قال «أوليس معك ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾؟» قال: بلى، قال «ربع القرآن». قال «أليس معك ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾؟» قال: بلى. قال: «ربع القرآن». أليس معك ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾؟» قال: بلى. قال «ربع القرآن» قال «أليس معك ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾؟» قال: بلى. قال «ربع القرآن». قال «أليس معك آية الكرسى ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ قال بلى. قال «ربع القرآن».

(حديث آخر) عن أبى ذر جندب بن جنادة. قال الإمام أحمد [٤]: حدثنا وكيع بن الجراح، حدثنا المسعودى، أنبأنى أبو عمر الدمشقى، عن عبيد بن الخشخاش، عن أبى ذر رضى الله عنه، قال: أتيت النبى ﷺ وهو فى المسجد فجلست، فقال «يا أبا ذر، هل صليت؟» قلت: لا. قال «قم فصل». قال: فقمت فصليت، ثم جلست، فقال «يا أبا ذر تعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن». قال: قلت: يا رسول الله، أوَ للإنس شياطين؟ قال: نعم، قال قلت: يا رسول الله الصلاة؟ قال «خير موضوع، من شاء أقل، ومن شاء أكثر» قال: قلت: يا رسول الله فالصوم؟ قال «فرض مجزئ وعند الله مزيد» قلت: يا رسول الله فالصدقة؟ قال «أضعاف مضاعفة». قلت: يا رسول الله، فأيها أفضل؟ قال: «جهد من مقل، أو سر إلى فقير» قلت: يا رسول الله، أى الأنبياء كان أول؟ قال: «آدم» قلت: يا رسول الله، ونبى كان؟ قال: نعم نبى مكلم» قلت: يا رسول الله، كم المرسلون؟ قال: ثلاثمائة وبضعة عشر جمًا غفيرًا»، وقال مرة «وخمسة عشر» قلت: يا رسول الله، أى ما أنزل عليك أعظم؟ قال: «آية الكرسى

---

(١) أحمد (٢٠٠٦٥) في إسناده مجهول.

(٢) ضعيف: الطبراني في «الكبير» (١/ ٣٣٤)، برقم (٩٩٩)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٣٢١): رواه الطبراني وفيه راوٍ لم يسم وبقية رجاله ثقات.

(٣) ضعيف: أحمد (١٢٨٩٦)، انظر ضعيف الترغيب والترهيب (٨٩٠).

(٤) حسن لغيره: وقد تقدم أطراف منه.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ ورواه النسائى [١].

(حديث آخر) عن أبى أيوب خالد بن زيد الأنصارى رضى الله عنه وأرضاه. قال الإمام أحمد [٢]: حدثنا أبو أحمد سفيان عن ابن أبى ليلى، عن أخيه عبد الرحمن بن أبى ليلى، عن أبى أيوب، أنه كان فى سهوة له، وكانت الغول تجىء فتأخذ، فشكاها إلى النبى ﷺ، فقال «فإذا رأيتها فقل باسم الله، أجيبى رسول الله». قال: فجاءت، فقال لها، فأخذها، فقالت: إنى لا أعود، فأرسلها فجاء فقال له النبى ﷺ «ما فعل أسيرك» ؟ قال: أخذتها، فقالت: إنى لا أعود، فأرسلتها، فقال: إنها عائدة، فأخذتها مرتين أو ثلاثًا كل ذلك تقول: لا أعود، فيقول «إنها عائدة»، فأخذتها، فقالت: أرسلنى، وأعلمك شيئًا تقوله فلا يقربك شىء، آية الكرسى، فأتى النبى ﷺ. فأخبره، فقال «صدقت وهى كذوب». ورواه الترمذى [٣] فى فضائل القرآن عن بندار عن أبى أحمد الزبيرى به، وقال حسن غريب. والغول فى لغة العرب: الجان إذا تبدى فى الليل.

وقد ذكر البخارى [٤] هذه القصة عن أبى هريرة، فقال فى كتاب فضائل القرآن، وفى كتاب الوكالة، وفى صفة إبليس من صحيحه، قال عثمان بن الهيثم أبو عمرو: حدثنا عوف عن محمد بن سيرين، عن أبى هريرة، قال: وكلنى رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتانى آت فجعل يحثو من الطعام، فأخذته وقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، فقال: دعنى فإنى محتاج وعلى عيال ولى حاجة شديدة، قال: فخليت عنه فأصبحت، فقال النبى ﷺ «يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة؟» قال: قلت يا رسول الله، شكا حاجة شديدة وعيالاً، فرحمته وخليت سبيله، قال «أما إنه قد كذبك وسيعود» فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ «إنه سيعود» فرصدته، فجاء يحثو الطعام، فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ قال: دعنى فأنا محتاج وعلى عيال، لا أعود. فرحمته وخليت سبيله، فأصبحت فقال لى رسول الله ﷺ، «يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة؟» قلت: يا رسول الله، شكا حاجة وعيالاً، فرحمته وخليت سبيله.

قال «أما إنه قد كذبك وسيعود»، فرصدته الثالثة، فجاء يحثو من الطعام، فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، وهذا آخر ثلاث مرات أنك تزعم أنك لا تعود ثم تعود، فقال: دعنى أعلمك كلمات ينفعك الله بها، قلت: وما هى؟ قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ حتى تختم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح. فخليت سبيله، فأصبحت فقال لى رسول الله ﷺ «ما فعل أسيرك البارحة؟» قلت: يا رسول الله، زعم أنه يعلمنى كلمات ينفعنى الله بها، فخليت سبيله. قال «وما هى؟» قال لى: إذا أويت إلى فراشك، فاقرأ آية الكرسى من أولها حتى تختم الآية ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ وقال لى: لا يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح، وكانوا أحرص شىء على الخير، فقال النبى ﷺ «أما

---

(١) انظر ما قبله.

(٢) صحيح: أحمد (٢٣٠٨١)، انظر «صحيح الترغيب والترهيب» (١٤٦٩).

(٣) صحيح: الترمذي (٢٨٨٠)، انظر «صحيح جامع الترمذي».

(٤) البخاري (٥٠١٠).

صدقك وهو كذوب، تعلم من تخاطب من ثلاث ليال يا أبا هريرة؟» قلت: لا. قال «ذاك شيطان». كذا رواه البخارى معلقًا بصيغة الجزم، وقد رواه النسائى فى اليوم والليلة[١] عن إبراهيم بن يعقوب، عن عثمان بن الهيثم، فذكره وقد روى من وجه آخر عن أبى هريرة بسياق آخر قريب من هذا، فقال الحافظ أبو بكر بن مردويه[٢] فى تفسيره: حدثنا محمد بن عبد الله بن عمرويه الصفار، حدثنا أحمد بن زهير بن حرب، أنبأنا مسلم بن إبراهيم، أنبأنا إسماعيل بن مسلم العبدى، أنبأنا أبو المتوكل الناجى، أن أبا هريرة كان معه مفتاح بيت الصدقة، وكان فيه تمر، فذهب يومًا ففتح الباب، فوجد التمر قد أخذ منه ملء كف، ودخل يومًا آخر فإذا قد أخذ منه ملء كف، ثم دخل يومًا آخر ثالثًا، فإذا قد أخذ منه مثل ذلك، فشكا ذلك أبو هريرة إلى النبى ﷺ، فقال له النبى ﷺ: «تحب أن تأخذ صاحبك هذا؟» قال: نعم. قال «فإذا فتحت الباب فقل سبحان من سخرك محمد. فذهب ففتح الباب فقال سبحان من سخرك محمد» فإذا هو قائم بين يديه، قال: يا عدو الله، أنت صاحب هذا. قال: نعم، دعنى فإنى لا أعود، ما كنت آخذًا إلا لأهل بيت من الجن فقراء، فخلى عنه، ثم عاد الثانية، ثم الثالثة، فقلت: أليس قد عاهدتنى ألا تعود؟ لا أدعك اليوم حتى أذهب بك إلى النبى ﷺ، قال لا تفعل، فإنك إن تدعنى علمتك كلمات إذا أنت قلتها، لم يقربك أحد من الجن صغير ولا كبير، ذكر ولا أنثى، قال له: لتفعلن؟ قال: نعم. قال: ما هن؟ قال ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ قرأ آية الكرسى حتى ختمها، فتركه فذهب فلم يعد، فذكر ذلك أبو هريرة للنبى ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ «أما علمت أن ذلك كذلك» وقد رواه النسائى[٣] عن أحمد بن محمد بن عبيد الله، عن شعيب بن حرب، عن إسماعيل بن مسلم، عن أبى المتوكل، عن أبى هريرة به، وقد تقدم لأبى بن كعب كائنة مثل هذه أيضًا، فهذه ثلاث وقائع.

(قصة أخرى) قال أبو عبيد فى كتاب الغريب: حدثنا أبو معاوية، عن أبى عاصم الثقفى، عن الشعبى، عن عبد الله بن مسعود قال: خرج رجل من الإنس، فلقيه رجل من الجن فقال: هل لك أن تصارعنى؟ فإن صرعتنى علمتك آية إذا قرأتها حين تدخل بيتك لم يدخله شيطان، فصارعه فصرعه، فقال: إنى أراك ضئيلاً شخيتًا، كأن ذراعيك ذراعا كلب، أفهكذا أنتم أيها الجن كلكم، أم أنت من بينهم؟ فقال: إنى بينهم لضليع، فعاودنى فصارعه فصرعه الإنسى فقال: تقرأ آية الكرسى فإنه لا يقرؤها أحد إذا دخل بيته إلا خرج الشيطان وله خبخ كخبخ الحمار، فقيل لابن مسعود: أهو عمر؟ فقال من عسى أن يكون إلا عمر، قال أبو عبيد: الشخيب الضئيل النحيف الجسم، والخبخ بالخاء المعجمة، ويقال بالحاء المهملة الضراط[٤].

(حديث آخر) عن أبى هريرة. قال الحاكم[٥] أبو عبد الله فى مستدركه: حدثنا على بن حمشاذ،

---

(١) صحيح: النسائي في «عمل اليوم والليلة» (١/ ٥٣٢)، برقم (٩٥٩)، انظر «المشكاة» (٢١٢٣).
(٢) عزاه المصنف لابن مردويه في تفسيره، وانظر ما قبله.
(٣) النسائي في «الكبرى» (٥/ ١٣)، برقم (٨٠١٧).
(٤) الحديث من طريق الشعبي عن ابن مسعود، وروايته عنه مرسلة كما في «جامع التحصيل».
(٥) ضعيف: الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٢٨٥)، برقم (٣٠٢٦)، انظر ضعيف الترغيب والترهيب ص (١).

حدثنا سفيان حدثنا بشر بن موسى، حدثنا الحميدى حدثنا سفيان، حدثنى حكيم بن جبير الأسدى، عن أبى صالح، عن أبى هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «سورة البقرة فيها آية سيدة آى القرآن، لا تقرأ فى بيت فيه شيطان إلا خرج منه: آية الكرسى»، وكذا رواه من طريق آخر [١] عن زائدة، عن حكيم بن جبير، ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، كذا قال، وقد رواه الترمذى [٢] من حديث زائدة، ولفظه «لكل شىء سنام، وسنام القرآن سورة البقرة، وفيها آية هى سيدة آى القرآن: آية الكرسى» ثم قال: غريب، لا نعرفه إلا من حديث حكيم بن جبير، وقد تكلم فيه شعبة وضعفه.

(قُلْتُ) وكذا ضعفه أحمد ويحيى بن معين، وغير واحد من الأئمة، وتركه ابن مهدى وكذبه السعدى.

(حديث آخر) قال ابن مردويه: حدثنا عبد الباقى بن نافع، أخبرنا عيسى بن محمد المروزى، أخبرنا عمر بن محمد البخارى، أخبرنا عيسى بن موسى بن غنجار، عن عبد الله بن كيسان، حدثنا يحيى، أخبرنا يحيى بن عقيل، عن يحيى بن يعمر عن ابن عمر، عن عمر بن الخطاب: أنه خرج ذات يوم إلى الناس وهم سماطات فقال: أيكم يخبرنى بأعظم آية فى القرآن. فقال ابن مسعود على الخبير سقطت، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أعظم آية فى القرآن ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾.

(حديث آخر) فى اشتماله على اسم الله الأعظم قال الإمام أحمد [٣]: حدثنا محمد بن بكير، أنبأنا عبد الله بن زياد، حدثنا شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد بن السكن، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول فى هاتين الآيتين ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ و ﴿الم اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ١-٢] «إن فيهما اسم الله الأعظم» وكذا رواه أبو داود [٤]، عن مسدد والترمذى [٥]، عن على بن خشرم وابن ماجه [٦]، عن أبى بكر بن أبى شيبة، ثلاثتهم عن عيسى بن يونس، عن عبيد الله بن أبى زياد به، وقال الترمذى: حسن صحيح.

(حديث آخر) فى معنى هذا، عن أبى أمامة رضى الله عنه، قال ابن مردويه: أخبرنا عبد الله بن نمير، أخبرنا إسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل، أخبرنا هشام بن عمار، أنبأنا الوليد بن مسلم، أخبرنا عبد الله بن العلاء بن زيد، أنه سمع القاسم بن عبد الرحمن يحدث عن أبى أمامة يرفعه، قال «اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب فى ثلاث: سورة البقرة، وآل عمران وطه» وقال هشام وهو ابن عمار خطيب دمشق أما البقرة فـ ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ وفى آل عمران ﴿الم اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ١-٢] وفى طه ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١].

(حديث آخر) عن أبى أمامة فى فضل قراءتها بعد الصلاة المكتوبة، قال أبو بكر بن مردويه: حدثنا محمد بن محرز بن مساور الأدمى، أخبرنا جعفر بن محمد بن الحسن، أخبرنا الحسين بن بشر

---

(١) الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٢٨٦)، برقم (٣٠٣٠).
(٢) سبق تخريجه. (٣) أحمد (٢٧٠٦٤).
(٤) حسن: أبو داود (١٤٩٦)، انظر «صحيح سنن أبي داود».
(٥) حسن: الترمذي (٣٤٧٨)، انظر «صحيح سنن الترمذي».
(٦) حسن: ابن ماجه (٣٨٥٥)، انظر «صحيح سنن ابن ماجه».

بطرسوس، أخبرنا محمد بن حمير، أخبرنا محمد بن زياد، عن أبى أمامة، قال: قال رسول الله ﷺ «من قرأ دبر كل صلاة مكتوبة آية الكرسى، لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت»[١] وهكذا رواه النسائى[٢] فى اليوم والليلة، عن الحسين بن بشر به، وأخرجه ابن حبان[٣] فى صحيحه، من حديث محمد بن حمير وهو الحمصى، من رجال البخارى أيضًا، فهو إسناد على شرط البخارى، وقد زعم أبو الفرج بن الجوزى، أنه حديث موضوع، والله أعلم. وقد روى ابن مردويه من حديث على والمغيرة بن شعبة وجابر بن عبد الله، نحو هذا الحديث، ولكن فى إسناد كل منهما ضعف. وقال ابن مردويه أيضًا: حدثنا محمد بن الحسن بن زياد المقرى، أخبرنا يحيى بن درستويه المروزى، أخبرنا زياد بن إبراهيم، أخبرنا أبو حمزة السكرى، عن المثنى، عن قتادة، عن الحسن، عن أبى موسى الأشعرى، عن النبى ﷺ قال: «أوحى الله إلى موسى بن عمران عليه السلام أن اقرأ آية الكرسى فى دبر كل صلاة مكتوبة، فإنه من يقرؤها فى دبر كل صلاة مكتوبة، أجعل له قلب الشاكرين، ولسان الذاكرين، وثواب النبيين، وأعمال الصديقين، ولا يواظب على ذلك إلا نبى أو صديق أو عبد امتحنت قلبه للإيمان، أو أريد قتله فى سبيل الله»[٤] وهذا حديث منكر جدًا.

(حديث آخر) فى أنها تحفظ من قرأها فى أول النهار وأول الليل. قال أبو عيسى الترمذى[٥]: حدثنا يحيى بن المغيرة أبو سلمة المخزومى المدينى، أخبرنا ابن أبى فديك. عن عبد الرحمن المليكى، عن زرارة بن مصعب، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ «من قرأ: ﴿حمٓ﴾[غافر: ١] المؤمن إلى ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾[غافر: ٣] وآية الكرسى، حين يصبح، حفظ بهما حتى يمسى، ومن قرأهما حين يمسى حفظ بهما حتى يصبح» ثم قال: هذا حديث غريب، وقد تكلم بعض أهل العلم فى عبد الرحمن بن أبى بكر بن أبى مليكة المليكى، من قبل حفظه.

وقد ورد فى فضلها أحاديث أخر، تركناها اختصارًا لعدم صحتها وضعف أسانيدها كحديث على فى قراءتها عند الحجامة، إنها تقوم مقام حجامتين. وحديث أبى هريرة فى كتابتها فى اليد اليسرى بالزعفران سبع مرات، وتلحس للحفظ وعدم النسيان، أوردهما ابن مردويه، وغير ذلك.

وهذه الآية مشتملة على عشر جمل مستقلة

فقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إخبار بأنه المتفرد بالإلهية لجميع الخلائق ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ أى الحى فى نفسه الذى لا يموت أبدًا، القيم لغيره. وكان عمر يقرأ القيام، فجميع الموجودات مفتقرة إليه، وهو غنى عنها، لا قوام لها بدون أمره، كقوله ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾[الروم: ٢٥] وقوله ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ أى لايعتريه نقص ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه، بل هو قائم على كل نفس بما كسبت، شهيد على كل شىء، لا يغيب عنه شىء، ولا يخفى عليه خافية، ومن تمام القيومية

---

(١) حسن: ابن ماجه (٣٨٥٦)، انظر «صحيح سنن ابن ماجه».

(٢) صحيح: النسائي في «عمل اليوم والليلة» (١/ ١٨٢)، برقم (١٠٠)، انظر «صحيح الجامع» (٦٤٦٤)

(٣) أورده الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ١٠٢)، قال: رواه الطبراني في «الكبير» و «الأوسط» بأسانيد وأحدها جيد.

(٤) منكر: فيه محمد بن الحسين أبو بكر النقاش، وهو كذاب، والمثنى بن الصباح: ضعيف مختلط.

(٥) ضعيف: الترمذي (٢٨٧٩)، انظر «ضعيف جامع الترمذي».

أنه لا يعتريه سنة ولا نوم، فقوله ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ﴾ أى لا تغلبه سنة وهى الوسن والنعاس، ولهذا قال: ولا نوم لأنه أقوى من السنة. وفى الصحيح [١] عن أبى موسى، قال: قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات، فقال «إن الله لا ينام، ولا ينبغى له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل، وعمل الليل قبل عمل النهار، حجابه النور أو النار، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، أخبرنى الحكم بن أبان، عن عكرمة مولى ابن عباس فى قوله ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ أن موسى عليه السلام سأل الملائكة: هل ينام الله عز وجل؟ فأوحى الله تعالى إلى الملائكة وأمرهم أن يؤرقوه ثلاثًا، فلا يتركوه ينام، ففعلوا، ثم أعطوه قارورتين فأمسكهما، ثم تركوه وحذروه أن يكسرهما، قال: فجعل ينعس وهما فى يده، وفى كل يد واحدة، قال: فجعل ينعس وينبه، وينعس وينبه، حتى نعس نعسة، فضرب إحداهما بالأخرى فكسرهما، قال معمر: إنما هو مثل ضربه الله عز وجل، يقول فكذلك السموات والأرض فى يده، وهكذا رواه ابن جرير، عن الحسن بن يحيى، عن عبد الرزاق فذكره، وهو من أخبار بنى إسرائيل، وهو مما يعلم أن موسى عليه السلام لا يخفى عليه مثل هذا من أمر الله عز وجل، وأنه منزه عنه، وأغرب من هذا كله الحديث الذى رواه ابن جرير [٢]: حدثنا إسحاق بن أبى إسرائيل. حدثنا هشام بن يوسف، عن أمية بن شبل، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن أبى عكرمة عن أبى هريرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يحكى عن موسى عليه السلام على المنبر، قال «وقع فى نفس موسى: هل ينام الله؟ فأرسل إليه ملكًا فأرقه ثلاثًا، ثم أعطاه قارورتين فى كل يد قارورة، وأمره أن يحتفظ بهما قال: فجعل ينام، وكادت يداه تلتقيان، فيستيقظ فيحبس إحداهما على الأخرى، حتى نام نومة، فاصطفقت يداه، فانكسرت القارورتان، - قال - ضرب الله عز وجل مثلًا، أن الله لو كان ينام لم تستمسك السماء والأرض» وهذا حديث غريب جدًا، والأظهر أنه إسرائيلى لا مرفوع، والله أعلم. وقال ابن أبى حاتم [٣]: حدثنا أحمد بن القاسم بن عطية، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدشتكى، حدثنى أبى عن أبيه، حدثنا أشعث بن إسحاق عن جعفر بن أبى المغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، أن بنى إسرائيل قالوا: يا موسى، هل ينام ربك؟ قال: اتقوا الله، فناداه ربه عز وجل يا موسى، سألوك هل ينام ربك، فخذ زجاجتين فى يديك، فقم الليلة، ففعل موسى، فلما ذهب من الليل ثلث نعس، فوقع لركبتيه، ثم انتعش فضبطهما، حتى إذا كان آخر الليل نعس، فسقطت الزجاجتان فانكسرتا، فقال: يا موسى، لو كنت أنام لسقطت السموات والأرض فهلكت كما هلكت الزجاجتان فى يديك. فأنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ آية الكرسى. وقوله: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إخبار بأن الجميع عبيده وفى ملكه، وتحت قهره وسلطانه، كقوله ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣-٩٥].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) منكر: ابن جرير (٣/ ٨)، وفيه الحكم بن أبان، قال الحافظ: «صدوق عابد وله أوهام»، وقال ابن حبان: ربما أخطأ وقد اضطرب في روايته، وانظر «السلسلة الضعيفة» (١٠٣٤).

(٣) ضعيف: ابن أبي حاتم (٢/ ٤٨٧)، برقم (٢٥٨٠)، وهو جزء من حديث طويل وتقدم طرف منه.

وقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] كقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦] وكقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨] وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه عز وجل، أنه لا يتجاسر أحد على أن يشفع لأحد عنده إلا بإذنه له فى الشفاعة، كما فى حديث الشفاعة [١]: «آتى تحت العرش فأخر ساجدًا، فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى. ثم يقال: ارفع رأسك وقل تسمع واشفع تشفع - قال - فيحد لى حدًا فأدخلهم الجنة».

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ دليل على إحاطة علمه بجميع الكائنات، ماضيها وحاضرها ومستقبلها، كقوله إخبارًا عن الملائكة ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤].

وقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ أى لا يطلع أحد من علم الله على شىء إلا بما أعلمه الله عز وجل وأطلعه عليه. ويحتمل أن يكون المراد لا يطلعون على شىء من علم ذاته وصفاته، إلا بما أطلعهم الله عليه، كقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

وقوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا ابن إدريس عن مطرف بن طريف، عن جعفر بن أبى المغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، فى قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ قال: علمه، وكذا رواه ابن جرير من حديث عبد الله بن إدريس وهشيم، كلاهما عن مطرف بن طريف به، قال ابن أبى حاتم: وروى عن سعيد بن جبير مثله، ثم قال ابن جرير: وقال آخرون الكرسى موضع القدمين، ثم رواه عن أبى موسى والسدى والضحاك ومسلم البطين. وقال شجاع بن مخلد فى تفسيره: أخبرنا أبو عاصم، عن سفيان، عن عمار الدهنى، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: سئل النبى ﷺ عن قول الله عز وجل ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؟ قال «كرسيه موضع قدميه والعرش لا يقدر قدره إلا الله عز وجل» [٢] كذا أورد هذا الحديث الحافظ أبو بكر بن مردويه من طريق شجاع بن مخلد الفلاس، فذكره وهو غلط، وقد رواه وكيع فى تفسيره، حدثنا سفيان عن عمار الذهبى، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: الكرسى موضع القدمين، والعرش لا يقدر أحد قدره. وقد رواه الحاكم فى مستدركه [٣] عن أبى العباس محمد بن أحمد المحبوبى، عن محمد بن معاذ، عن أبى عاصم، عن سفيان، وهو الثورى بإسناده عن ابن عباس موقوفًا مثله، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. وقد رواه ابن مردويه من طريق الحاكم بن ظهير الفزارى الكوفى، وهو متروك عن السدى، عن أبيه، عن أبى هريرة، مرفوعًا ولا يصح أيضًا.

وقال السدى، عن أبى مالك: الكرسى تحت العرش: وقال السدى: السموات والأرض فى جوف الكرسى، والكرسى بين يدى العرش. وقال الضحاك عن ابن عباس: لو أن السموات السبع والأرضين

---

(١) البخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣٠)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) ضعيف: والصحيح موقوف، أما المرفوع فقد أخرجه الخطيب (٩/ ٢٥١)، وعزاه لابن مردويه، وقد شذ مجالد بن شجاع -وهو ثقة- عن بقية الثقات في رفعه، وساق الخطيب الروايات عن الثقات في بيان أنه موقوف، لا مرفوع.

(٣) صحيح موقوف: الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣١٠)، برقم (٣١١٦).

السبع، بسطن ثم وصلن بعضهن إلى بعض، ما كن فى سعة الكرسى إلا بمنزلة الحلقة فى المفازة، ورواه ابن جرير وابن أبى حاتم، وقال ابن جرير [١]: حدثنى يونس، أخبرنى ابن وهب قال: قال ابن زيد: حدثنى أبى قال: قال رسول الله ﷺ «ما السموات السبع فى الكرسى إلا كدراهم سبعة ألقيت فى ترس» قال [٢]: وقال أبو ذر: سمعت رسول ا ﷺ يقول: «ما الكرسى فى العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهرانى فلاة من الأرض».

وقال أبو بكر بن مردويه [٣]: أخبرنا سليمان بن أحمد، أخبرنا عبد الله بن وهب الغزى، أخبرنا محمد بن أبى السرى العسقلانى، أخبرنا محمد بن عبد الله التميمى، عن القاسم بن محمد الثقفى، عن أبى إدريس الخولانى، عن أبى ذر الغفارى، أنه سأل النبى ﷺ عن الكرسى، فقال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده ما السموات السبع والأرضون السبع عند الكرسى، إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وإن فضل العرش على الكرسى كفضل الفلاة على تلك الحلقة»، وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى [٤] فى مسنده. حدثنا زهير، حدثنا ابن أبى بكر، حدثنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن عبد الله بن خليفة، عن عمر رضى الله عنه، قال: أتت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: ادع الله أن يدخلنى الجنة، قال: فعظم الرب تبارك وتعالى، وقال: «إن كرسيه وسع السموات والأرض وإن له أطيطًا كأطيط الرحل الجديد من ثقله» وقد رواه الحافظ البزار فى مسنده المشهور وعبد بن حميد وابن جرير فى تفسيريهما، والطبرانى وابن أبى عاصم [٥] فى كتابى السنة لهما، والحافظ الضياء فى كتابه المختار من حديث أبى إسحاق السبيعى، عن عبد الله بن خليفة، وليس بذاك المشهور، وفى سماعه من عمر نظر. ثم منهم من يرويه عنه عن عمر موقوفًا، ومنهم من يرويه عنه مرسلاً، ومنهم من يزيد فى متنه زيادة غريبة، ومنهم من يحذفها. وأغرب من هذا حديث جبير بن مطعم فى صفة العرش كما رواه أبو داود [٦] فى كتابه السنة من سننه، والله أعلم. وقد روى ابن مردويه وغيره أحاديث عن بريدة وجابر وغيرهما فى وضع الكرسى يوم القيامة لفصل القضاء، والظاهر أن ذلك غير المذكور فى هذه الآية، وقد زعم بعض المتكلمين على علم الهيئة من الإسلاميين، أن الكرسى عندهم هو الفلك الثامن، وهو فلك الثوابت الذى فوقه الفلك التاسع، وهو الفلك الأثير ويقال له الأطلس، وقد رد ذلك عليهم آخرون وروى ابن جرير من طريق جويبر عن الحسن البصرى أنه كان يقول: الكرسى هو العرش، والصحيح أن الكرسى غير العرش، والعرش أكبر منه، كما دلت على ذلك الآثار والأخبار، وقد اعتمد ابن جرير على حديث عبد الله بن خليفة عن عمر فى ذلك، وعندى فى صحته نظر، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ أى لا يثقله ولا يكترثه حفظ السموات والأرض، ومن فيهما، ومن

(١) ضعيف: ابن جرير (٣/ ١٠)، وإسناده منقطع.
(٢) صحيح: ابن جرير (٣/ ١٠)، انظر تخريج الطحاوية: ص (٣١٢).
(٣) صحيح: عزاه المصنف لابن مردويه. انظر مختصر العلو.
(٤) عزاه الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ١٥٩) لأبي يعلى وقال: ورجاله رجال الصحيح.
(٥) البزار في «مسنده» (١/ ٤٥٧)، برقم (٣٢٥)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١/ ٢٥٢)، برقم (٥٧٣)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١/ ٨٤): رواه البزار ورجاله رجال الصحيح، وابن جرير في «تفسيره» (٣/ ١٠).
(٦) ضعيف: أبو داود (٤٧٢٦)، انظر ضعيف سنن أبي داود.

بينهما، بل ذلك سهل عليه، يسير لديه، وهو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب على جميع الأشياء، فلا يعزب عنه شيء ولا يغيب عنه شيء، والأشياء كلها حقيرة بين يديه، متواضعة صغيرة بالنسبة إليه محتاجة فقيرة وهو الغنى الحميد الفعال لما يريد الذى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وهو القاهر لكل شيء، الحسيب على كل شيء، الرقيب العلى العظيم، لا إله غيره، ولا رب سواه، فقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ كقوله: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾[الرعد: ٩] وهذه الآيات وما فى معناها من الأحاديث الصحاح الأجود فيها طريقة السلف الصالح، أمروها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه.

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾

يقول تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ أى لا تكرهوا أحدًا على الدخول فى دين الإسلام، فإنه بيّن واضح، جلى دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام، وشرح صدره، ونور بصيرته، دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره، فإنه لا يفيده الدخول فى الدين مكرهًا مقسورًا، وقد ذكروا أن سبب نزول هذه الآية فى قوم من الأنصار، وإن كان حكمها عامًا. وقال ابن جرير[1]: حدثنا ابن بشار، حدثنا ابن أبى عدى، عن شعبة، عن أبى بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: كانت المرأة تكون مقلاة، فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده، فلما أجليت بنو النضير، كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا، فأنزل الله عز وجل ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾، وقد رواه أبو داود والنسائى[2] جميعًا عن بندار به، ومن وجوه أخر عن شعبة به نحوه. وقد رواه ابن أبى حاتم وابن حبان[3] فى صحيحه من حديث شعبة به، وهكذا ذكر مجاهد وسعيد بن جبير والشعبى والحسن البصرى وغيرهم، أنها نزلت فى ذلك. وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبى محمد الجرشى مولى زيد بن ثابت، عن عكرمة أو عن سعيد، عن ابن عباس قوله: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ قال: نزلت فى رجل من الأنصار من بنى سالم بن عوف، يقال له الحصين، كان له ابنان نصرانيان وكان هو رجلًا مسلمًا، فقال للنبى ﷺ: ألا استكرههما، فإنهما قد أبيا إلا النصرانية، فأنزل الله فيه ذلك، رواه ابن جرير[4]. وروى السدى نحو ذلك، وزاد: وكانا قد تنصرا على يدى تجار قدموا من الشام يحملون زيبيًا، فلما عزما على الذهاب معهم، أراد أبوهما أن يستكرههما، وطلب من رسول الله ﷺ أن يبعث فى آثارهما، فنزلت هذه الآية، وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عمرو بن عوف، أخبرنا شريك عن أبى هلال عن أسق، قال: كنت فى دينهم مملوكًا نصرانيًا لعمر بن الخطاب، فكان يعرض على الإسلام، فآبى، فيقول ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ ويقول: يا أسبق، لو أسلمت لا ستعنا بك على بعض أمور المسلمين، وقد ذهب طائفة

---

(١) صحيح: ابن جرير (٣/ ١٤).

(٢) صحيح: أبو داود (٢٦٨٢)، والنسائي في «الكبرى»، (٦/ ٣٠٤)، برقم (١١٠٤٩)، انظر «صحيح سنن أبي داود».

(٣) صحيح: ابن حبان (١/ ٣٥٢)، برقم (١٤٠).

(٤) ابن جرير (٣/ ١٤).

كثيرة من العلماء، أن هذه محمولة على أهل الكتاب، ومن دخل فى دينهم قبل النسخ والتبديل إذا بذلوا الجزية، وقال آخرون: بل هى منسوخة بآية القتال، وإنه يجب أن يدعى جميع الأمم إلى الدخول فى الدين الحنيف، دين الإسلام، فإن أبى أحد منهم الدخول فيه، ولم ينقد له أو يبذل الجزية، قوتل حتى يقتل، وهذا معنى الإكراه، قال الله تعالى ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ [الفتح: ١٦] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحريم: ٩] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣] وفى الصحيح [١] «عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة فى السلاسل» يعنى الأسارى الذين يقدم بهم بلاد الإسلام فى الوثائق والأغلال والقيود والأكبال، ثم بعد ذلك يسلمون، وتصلح أعمالهم وسرائرهم فيكونون من أهل الجنة. فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد [٢]: حدثنا يحيى عن حميد عن أنس، أن رسول الله ﷺ قال لرجل «أسلم»، قال: إنى أجدنى كارهًا، قال: «وإن كنت كارهًا» فإنه ثلاثى صحيح، ولكن ليس من هذا القبيل، فإنه لم يكرهه النبى ﷺ على الإسلام، بل دعاه إليه، فأخبره أن نفسه ليست قابلة له، بل هى كارهة، فقال له: أسلم وإن كنت كارهًا، فإن الله سيرزقك حسن النية والإخلاص.

وقوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أى من خلع الأنداد والأوثان، وما يدعو إليه الشيطان من عبادة كل ما يعبد من دون الله، ووحد الله فعبده وحده، وشهد أنه لا إله إلا هو ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ أى: فقد ثبت فى أمره، واستقام على الطريق المثلى، والصراط المستقيم، قال أبو القاسم البغوى: حدثنا أبو روح البلدى، حدثنا أبو الأحوص سلام بن سليم، عن أبى إسحاق عن حسان، هو ابن قائد العبسى قال: قال عمر رضى الله عنه: إن الجبت السحر، والطاغوت الشيطان، وإن الشجاعة والجبن غرائز تكون فى الرجال، يقاتل الشجاع عمن لا يعرف، ويفر الجبان من أمه، وإن كرم الرجل دينه، وحسبه خلقه، وإن كان فارسيًا أو نبطيًا. وهكذا رواه ابن جرير وابن أبى حاتم من حديث الثورى، عن أبى إسحاق عن حسان بن فائد العبسى عن عمر، فذكره، ومعنى قوله فى الطاغوت: إنه الشيطان، قوى جدًا، فإنه يشمل كل شر كان عليه أهل الجاهلية من عبادة الأوثان والتحاكم إليها، والاستنصار بها.

وقوله: ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾ أى فقد استمسك من الدين بأقوى سبب، وشبه ذلك بالعروة القوية التى لا تنفصم، هى فى نفسها محكمة مبرمة قوية وربطها قوى شديد، ولهذا قال ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾ الآية، قال مجاهد: العروة الوثقى يعنى الإيمان، وقال السدى: هو الإسلام، وقال سعيد بن جبير والضحاك: يعنى لا إله إلا الله، وعن أنس بن مالك: العروة الوثقى القرآن. وعن سالم بن أبى الجعد قال: هو الحب فى الله، والبغض فى الله، وكل هذه الأقوال صحيحة، ولا تنافى بينها. وقال معاذ بن جبل فى قوله: ﴿لَا انفِصَامَ لَهَا﴾ دون دخول الجنة، وقال مجاهد وسعيد بن جبير ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾ ثم قرأ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا

(١) البخاري (٣٠١٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) صحيح: أحمد (١٢٤٥٧)، انظر «صحيح الجامع» (٩٧٤).

بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[الرعد: ١١] وقال الإمام أحمد[١] : أنبأنا إسحاق بن يوسف، حدثنا ابن عوف عن محمد بن قيس بن عباد، قال: كنت فى المسجد، فجاء رجل فى وجهه أثر من خشوع، فصلى ركعتين أوجز فيهما، فقال القوم: هذا رجل من أهل الجنة، فلما خرج اتبعته حتى دخل منزله، فدخلت معه فحدثته، فلما استأنس، قلت له: إن القوم لما دخلت المسجد، قالوا: كذا وكذا، قال: سبحان الله، ما ينبغى لأحد أن يقول ما لا يعلم، وسأحدثك لم، إنى رأيت رؤيا على عهد رسول الله ﷺ ، قصصتها عليه، رأيت كأنى فى روضة خضراء. قال ابن عون فذكر من خضرتها وسعتها - وفى وسطها عمود حديد أسفله فى الأرض وأعلاه فى السماء، فى أعلى عروة، فقيل لى اصعد عليه، فقلت: لا أستطيع، فجاءنى منصف - قال ابن عون هو الوصيف - فرفع ثيابى من خلفى، فقال: اصعد، فصعدت حتى أخذت بالعروة، فقال: استمسك بالعروة، فاستيقظت وإنها لفى يدى، فأتيت رسول الله ﷺ ، فقصصتها عليه فقال «أما الروضة، فروضة الإسلام، وأما العمود فعمود الإسلام، وأما العروة فهى العروة الوثقى، أنت على الإسلام حتى تموت» قال: وهو عبد الله بن سلام. أخرجاه فى الصحيحين[٢] من حديث عبد الله بن عون، فقمت إليه. وأخرجه البخارى من وجه آخر، عن محمد بن سيرين به.

(طريق أخرى وسياق آخر) قال الإمام أحمد[٣] : أنبأنا حسن بن موسى وعثمان، قالا: أنبأنا حماد بن سلمة، عن عاصم بن بهدلة، عن المسيب بن رافع، عن خرشة بن الحر، قال قدمت المدينة فجلست إلى مشيخة فى مسجد النبى ﷺ ، فجاء شيخ يتوكأ على عصًا له، فقال القوم: من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة، فلينظر إلى هذا. فقام خلف سارية فصلى ركعتين، فقلت له: قال بعض القوم: كذا وكذا، فقال: الجنة لله، يدخلها من يشاء، وإنى رأيت على عهد رسول الله ﷺ رؤيا: كأن رجلاً أتانى فقال: انطلق، فذهبت معه فسلك بى منهجًا عظيمًا، فعرضت لى طريق عن يسارى، فأردت أن أسلكها، فقال: إنك لست من أهلها، ثم عرضت لى طريق عن يمينى، فسلكتها حتى انتهيت إلى جبل زلق، فأخذ بيدى فزجل فإذا أنا على ذروته فلم أتقار، ولم أتماسك فإذا عمود حديد في زروته حلقة من ذهب فأخذ بيدي فدحا بي حتى أخذت بالعروة، فقال: استمسك، فقلت: نعم، فضرب العمود برجله، فاستمسكت بالعروة، فقصصتها على رسول الله ﷺ فقال «رأيت خيرًا، أما المنهج العظيم فالمحشر، وأما الطريق التى عرضت عن يسارك فطريق أهل النار، ولست من أهلها، وأما الطريق التى عرضت عن يمينك فطريق أهل الجنة، وأما الجبل الزلق فمنزل الشهداء، وأما العروة التى استمسكت بها فعروة الإسلام، فاستمسك بها حتى تموت» قال: فإنما أرجو أن أكون من أهل الجنة، قال: وإذا هو عبد الله بن سلام، وهكذا رواه النسائى[٤] عن أحمد بن سليمان عن عفان، وابن ماجه[٥] عن أبى بكر بن أبى شيبة عن الحسن بن موسى الأشيب، كلاهما عن حماد بن سلمة به

---

(١) أحمد: (٢٣٢٧٥)، ورجاله ثقات. (٢) البخاري: (٣٨١٣)، ومسلم (٢٤٨٤).
(٣) حسن: أحمد (٢٣٢٧٨)، ورجاله ثقات إلا أن عاصم بن بهدلة قيل: كثير الخطأ.
(٤) صحيح: النسائي في «الكبرى» (٤/ ٣٨٤)، برقم (٧٦٣٣).
(٥) حسن: ابن ماجه (٣٩٢٠)، انظر صحيح سنن ابن ماجه.

نحوه، وأخرجه مسلم [١] فى صحيحه من حديث الأعمش، عن سليمان بن مسهر، عن خرشة بن الحر الفزارى به.

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾

يخبر تعالى أنه يهدى من اتبع رضوانه سبل السلام، فيخرج عباده المؤمنين من ظلمات الكفر والشك والريب إلى نور الحق الواضح الجلى المبين السهل المنير، وأن الكافرين إنما وليهم الشيطان، يزين لهم ما هم فيه من الجهالات والضلالات، ويخرجونهم ويحيدون بهم عن طريق الحق إلى الكفر والإفك ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ولهذا وحد تعالى لفظ النور، وجمع الظلمات، لأن الحق واحد والكفر أجناس كثيرة ولكنها باطلة، كما قال ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣] وقال تعالى ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ۖ﴾ [الأنعام: ١] وقال تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ [النحل: ٤٨] إلى غير ذلك من الآيات التى فى لفظها إشعار بتفرد الحق وانتشار الباطل وتفرده وتشعبه. وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا على بن ميسرة، حدثنا عبد العزيز بن أبى عثمان، عن موسى بن عبيدة، عن أيوب بن خالد، قال: يبعث أهل الأهواء، أو قال: تبعث أهل الفتن، فمن كان هواه الإيمان، كانت فتنته بيضاء مضيئة، ومن كان هواه الكفر، كانت فتنته سوداء مظلمة، ثم قرأ هذه الآية ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾

هذا الذى حاج إبراهيم فى ربه هو ملك بابل نمروذ بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح ويقال نمروذ بن فالخ بن عابد بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، والأول قول مجاهد وغيره، قال مجاهد: وملك الدنيا مشارقها ومغاربها أربعة: مؤمنان وكافران، فالمؤمنان سليمان بن داود، وذو القرنين، والكافران: نمروذ وبختنصر، والله أعلم. ومعنى قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أى بقلبك يا محمد ﴿إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾، أى وجود ربه، وذلك أنه أنكر أن يكون ثم إله غيره، كما قال بعده فرعون لملئه ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]. وما حمله على هذا الطغيان والكفر الغليظ والمعاندة الشديدة، إلا تجبره، وطول مدته فى الملك، وذلك أنه يقال: أنه مكث أربعمائة سنة فى ملكه، ولهذا قال: ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ وكان طلب من إبراهيم دليلاً، على وجود الرب الذى يدعو إليه، فقال إبراهيم ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أى إنما الدليل على وجوده، حدوث هذه الأشياء،

---

(١) مسلم (٢٤٨٤).

المشاهدة بعد عدمها، وعدمها بعد وجودها، وهذا دليل على وجود الفاعل المختار، ضرورة، لأنها لم تحدث بنفسها، فلا بد لها من موجد أوجدها، وهو الرب الذى أدعو إلى عبادته وحده لا شريك له. فعند ذلك قال المحاج - وهو النمروذ - ﴿أَنَا أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾. قال قتادة ومحمد بن إسحاق والسدى، وغير واحد: وذلك أنى أوتى بالرجلين، قد استحقا القتل فآمر بقتل أحدهما - فيقتل، وآمر بالعفو عن الآخر فلا يقتل، فذلك معنى الإحياء والإماتة - والظاهر والله أعلم - أنه ما أراد هذا لأنه ليس جوابًا لما قال إبراهيم، ولا فى معناه لأنه غير مانع لوجود الصانع، وإنما أراد أن يدعى لنفسه هذا المقام عنادًا ومكابرة ويوهم أنه الفاعل لذلك، وأنه هو الذى يحيى ويميت، كما اقتدى به فرعون فى قوله ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨] ولهذا قال له إبراهيم، لما ادعى هذه المكابرة: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ أى إذا كنت كما تدعى من أنك تحيى وتميت، فالذى يحيى ويميت هو الذى يتصرف فى الوجود فى خلق ذراته وتسخير كواكبه وحركاته، فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق، فإن كنت إلهًا كما ادعيت تحيى وتميت، فأت بها من المغرب؟ فلما علم عجزه وانقطاعه وأنه لا يقدر على المكابرة فى هذا المقام، بهت، أى أخرس، فلا يتكلم، وقامت عليه الحجة.

قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أى لا يلهمهم حجة ولا برهانًا، بل حجتهم داحضة عند ربهم، وعليهم غضب، ولهم عذاب شديد، وهذا التنزيل على هذا المعنى أحسن مما ذكره كثير من المنطقيين، إن عدول إبراهيم عن المقام الأول إلى المقام الثانى انتقال من دليل إلى أوضح منه، ومنهم من قد يطلق عبارة رديَّة وليس كما قالوه، بل المقام الأول يكون كالمقدمة للثانى، ويبين بطلان ما ادعاه نمروذ فى الأول والثانى، ولله الحمد والمنة.

وقد ذكر السدى أن هذه المناظرة. كانت بين إبراهيم ونمروذ بعد خروج إبراهيم من النار، ولم يكن اجتمع بالملك إلا فى ذلك اليوم فجرت بينهما هذه المناظرة. وروى عبد الرزاق عن معمر، عن زيد بن أسلم أن النمروذ كان عنده طعام وكان الناس يغدون إليه للميرة، فوفد إبراهيم فى جملة من وفد للميرة، فكان بينهما هذه المناظرة، ولم يعط إبراهيم من الطعام كما أعطى الناس، بل خرج وليس معه شىء من الطعام، فلما قرب من أهله، عمد إلى كثيب من التراب فملأ منه عدليه، وقال: أشغل أهلى عنى إذا قدمت عليهم، فلما قدم وضع رحاله، وجاء فاتكأ فنام، فقامت امرأته سارة إلى العدلين فوجدتهما ملانين طعامًا طيبًا، فعملت طعامًا، فلما استيقظ إبراهيم وجد الذى قد أصلحوه، فقال: أنى لك هذا؟ قالت: من الذى جئت به، فعلم أنه رزق رزقهم الله عز وجل.

قال زيد بن أسلم: وبعث الله إلى ذلك الملك الجبار ملكًا، يأمره بالإيمان بالله، فأبى عليه، ثم دعاه الثانية فأبى ثم الثالثة فأبى، وقال: اجمع جموعك وأجمع جموعى، فجمع النمروذ جيشه وجنوده وقت طلوع الشمس، وأرسل الله عليهم بابًا من البعوض بحيث لم يروا عين الشمس، وسلطها الله عليهم فأكلت لحومهم ودماءهم، وتركتهم عظاما بادية، ودخلت واحدة منها فى منخرى الملك، فمكثت فى منخرى الملك أربعمائة سنة، عذبه الله بها، فكان يضرب برأسه بالمرازب فى هذه المدة، حتى أهلكه الله بها.

﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾

تقدم قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٥٨] وهو فى قوة قوله: هل رأيت مثل الذى حاج إبراهيم فى ربه، ولهذا عطف عليه بقوله ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ اختلفوا فى هذا المار من هو، فروى ابن أبى حاتم، عن عصام بن رواد، عن آدم بن أبى إياس، عن إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن ناجية بن كعب، عن على بن أبى طالب، أنه قال: هو عزير. ورواه ابن جرير عن ناجية نفسه، وحكاه ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس والحسن وقتادة والسدى وسليمان بن بريدة، وهذا القول هو المشهور وقال وهب بن منبه وعبد الله بن عبيد، هو أرميا بن حلقيا. قال محمد بن إسحاق، عمن لا يتهم عن وهب بن منبه، أنه قال: هو اسم الخضر عليه السلام. وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى قال: سمعت سليمان بن محمد اليسارى الجارى من أهل الجارى ابن عم مطرف، قال سمعت سلمان يقول: إن رجلاً من أهل الشام يقول: إن الذى أماته الله مائة عام ثم بعثه اسمه حزقيل بن بورا. وقال مجاهد بن جبر: هو رجل من بنى إسرائيل، وذكر غير واحد أنه مات وهو ابن أربعين سنة، فبعثه الله وهو كذلك وكان له ابن فبلغ من السن مائة وعشرين سنة وبلغ ابن ابنه تسعين وكان الجد شابًّا وابنه وابن ابنه شيخان كبيران قد بلغا الهرم وأنشدني به بعض الشعراء:

واسودَّ رأس شاب من قبل ابنه ... ومن قبله ابن ابنه فهو أكبر
يرى أنه شيخًا يدب على عصا ... ولحيته سوداء والرأس أشعر
وما لابنه حبل ولا فضل قوة ... يقوم كما يمشي الصغير فيعثر
وعمر ابنه أربعون أمرها ... ولابن ابنه في الناس تسعين غبر

وأما القرية فالمشهور أنها بيت المقدس، مر عليها بعد تخريب بختنصر لها وقتل أهلها ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ﴾ أى ليس فيها أحد، من قولهم خوت الدار تخوى خويًا.

وقوله ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أى ساقطة سقوفها وجدرانها على عرصاتها، فوقف متفكرًا فيما آل أمرها إليه بعد العمارة العظيمة، وقال ﴿أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؟ وذلك لما رأى من دثورها وشدة خرابها وبعدها عن العود إلى ما كانت عليه، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ قال: وعمرت البلاد بعد مضى سبعين سنة من موته، وتكامل ساكنوها، وتراجع بنو إسرائيل إليها، فلما بعثه الله عز وجل بعد موته، كان أول شىء أحيا الله فيه عينيه لينظر بهما إلى صنع الله فيه: كيف يحيى بدنه، فلما استقل سويًا (قال) الله له، أى بواسطة الملك: ﴿كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ﴾ قال: وذلك أنه مات أول النهار، ثم بعثه الله فى آخر النهار، فلما رأى الشمس باقية ظن أنها شمس ذلك اليوم، فقال

﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ وذلك أنه كان معه فيما ذكر عنب وتين وعصير، فوجده كما تقدم لم يتغير منه شيء، لا العصير استحال، ولا التين حمض ولا أنتن، ولا العنب نقص ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ أى كيف يحييه الله عز وجل، وأنت تنظر ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ أى دليلاً على المعاد ﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ أى نرفعها، فيركب بعضها على بعض. وقد روى الحاكم فى مستدركه من حديث نافع بن أبى نعيم عن إسماعيل بن حكيم، عن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أبيه، أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ بالزاى ثم قال: صحيح الإسناد. ولم يخرجاه. وقرئ ﴿ننشرها﴾ أى نحييها، قاله مجاهد ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾. وقال السدى وغيره تفرقت عظام حماره حوله يمينًا ويسارًا، فنظر إليها وهى تلوح من بياضها، فبعث الله ريحًا فجمعتها من كل موضع من تلك المحلة، ثم ركب كل عظم فى موضعه حتى صار حمارًا قائمًا من عظام لا لحم عليها، ثم كساها الله لحمًا وعصبًا وعروقًا وجلدًا، وبعث الله ملكا فنفخ فى منخرى الحمار، فنهق بإذن الله عز وجل، وذلك كله بمرأى من العزير، فعند ذلك لما تبين له هذا كله ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أى أنا عالم بهذا، وقد رأيته عيانا، فأنا أعلم أهل زمانى بذلك، وقرأ آخرون «قال اعلم» على أنه أمر له بالعلم.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾

ذكروا لسؤال إبراهيم عليه السلام، أسبابًا منها أنه لما قال لنمروذ ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] أحب أن يترقى من علم اليقين بذلك، إلى عين اليقين، وأن يرى ذلك مشاهدة، فقال ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ فأما الحديث الذى رواه البخارى[1] عند هذه الآية: حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب، أخبرنى يونس عن ابن شهاب، عن أبى سلمة، وسعيد عن أبى هريرة رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ «نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال رب أرنى كيف تحيى الموتى، قال: أو لم تؤمن؟ قال: بلى، ولكن ليطمئن قلبى». وكذا رواه مسلم[2] عن حرملة بن يحيى، عن ابن وهب به، فليس المراد ههنا بالشك، ما قد يفهمه من لا علم عنده بلا خلاف، وقد أجيب عن هذا الحديث بأجوبة أحدها.

وقوله ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ اختلف المفسرون فى هذه الأربعة ما هى، وإن كان لا طائل تحت تعيينها، إذ لو كان فى ذلك مهم لنص عليه القرآن، فروى عن ابن عباس، أنه قال هى الغرنوق والطاووس والديك والحمامة، وعنه أيضًا أنه أخذ وزًا ورألاً وهو فرخ النعام، وديكًا وطاووسًا. وقال مجاهد وعكرمة: كانت حمامة وديكًا وطاووسًا وغرابًا. وقوله ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أى: قطعهن، قاله ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو مالك وأبو الأسود الدؤلى ووهب بن منبه والحسن والسدى وغيرهم.

---

(١) البخاري (٣٣٧٢).
(٢) مسلم (١٥١).

وقال العوفى عن ابن عباس ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أوثقهن، فلما أوثقهن ذبحهن، ثم جعل على كل جبل منهن جزءًا، فذكروا أنه عمد إلى أربعة من الطير، فذبحهن ثم قطعهن ونتف ريشهن ومزقهن وخلط بعضهن ببعض، ثم جزأهن أجزاء، وجعل على كل جبل منهن جزءًا، قيل أربعة أجبل، وقيل سبعة، قال ابن عباس: وأخذ رءوسهن بيده ثم أمره الله عز وجل أن يدعوهن فدعاهن كما أموه الله عز وجل، فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش، والدم إلى الدم، واللحم إلى اللحم، والأجزاء من كل طائر، يتصل بعضها إلى بعض، حتى قام كل طائر على حدته، وأتينه يمشين سعيًا ليكون أبلغ له فى الرؤية التى سألها، وجعل كل طائر يجىء ليأخذ رأسه الذى فى يد إبراهيم عليه السلام، فإذا قدم له غير رأسه يأباه، فإذا قدم إليه رأسه تركب مع بقية جسده بحول الله وقوته، ولهذا قال ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أى عزيز لا يغلبه شىء، ولا يمتنع من شىء، وما شاء كان بلا ممانع، لأنه القاهر لكل شىء، حكيم فى أقواله وأفعاله وشرعه وقدره. قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن أيوب فى قوله ﴿وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ قال: قال ابن عباس: ما فى القرآن آية أرجى عندى منها.

وقال ابن جرير: حدثنى محمد بن المثنى، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، سمعت زيد بن على يحدث عن رجل عن سعيد بن المسيب قال: اتفق عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص أن يجتمعا قال: ونحن شببة. فقال أحدهما لصاحبه: أى آية فى كتاب الله أرجى عندك لهذه الأمة؟ فقال عبد الله بن عمرو قول الله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]، فقال ابن عباس: أما إن كنت تقول هذا، فأنا أقول أرجى منها لهذه الأمة، قول إبراهيم ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ وقال ابن أبى حاتم: أخبرنا أبى، حدثنا عبد الله بن صالح كاتب الليث، حدثنى محمد بن أبى سلمة محمد بن المنكدر أنه قال: التقى عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص، فقال ابن عباس لابن عمرو بن العاص: أى آية فى القرآن أرجى عندك، فقال عبد الله بن عمرو: قول الله عز وجل: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣] الآية، فقال ابن عباس: لكن أنا أقول قول الله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ﴾ فرضى من إبراهيم قوله ﴿بَلَىٰ﴾، قال فهذا لما يعترض فى النفوس ويوسوس به الشيطان، وهكذا رواه الحاكم فى المستدرك عن أبى عبد الله محمد بن يعقوب بن الأخرم، عن إبراهيم بن عبد الله السعدى، عن بشر بن عمر الزهرانى، عن عبد العزيز بن أبى سلمة بإسناده مثله، ثم قال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق فى سبيله وابتغاء مرضاته، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، فقال ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾. قال سعيد بن جبير: يعنى فى طاعة الله. وقال مكحول: يعنى به الإنفاق فى الجهاد من رباط الخيل وإعداد السلاح

وغير ذلك. وقال شبيب بن بشر، عن عكرمة، عن ابن عباس: الجهاد والحج يضعف الدرهم فيهما إلى سبعمائة ضعف، ولهذا قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ وهذا المثل أبلغ فى النفوس من ذكر عدد السبعمائة، فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله عز وجل لأصحابها، كما ينمى الزرع لمن بذره فى الأرض الطيبة، وقد وردت السنة بتضعيف الحسنة إلى سبعمائة ضعف.

قال الإمام أحمد [١]: حدثنا زياد بن الربيع أبو خداش، حدثنا واصل مولى أبي عيينة، عن بشار بن أبى سيف الجرمى، عن عياض بن غطيف، قال: دخلنا على أبى عبيدة نعوده من شكوى أصابته بجنبه، وامرأته تحيفة قاعدة عند رأسه، قلنا: كيف بات أبو عبيدة؟ قالت: والله لقد بات بأجر. قال أبو عبيدة: ما بتّ بأجر، وكان مقبلاً بوجهه على الحائط، فأقبل على القوم بوجهه وقال: ألا تسألونى عما قلت؟ قالوا: ما أعجبنا ما قلت فنسألك عنه، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أنفق نفقة فاضلة فى سبيل الله فبسبعمائة، ومن أنفق على نفسه وأهله أو عاد مريضًا أو أماط أذى، فالحسنة بعشر أمثالها، والصوم جنة ما لم يخرقها، ومن ابتلاه الله عز وجل ببلاء فى جسده فهو له حطة» وقد روى النسائى [٢] فى الصوم بعضه من حديث واصل به، ومن وجه آخر موقوفًا.

(حديث آخر) - قال الإمام أحمد [٣]: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة عن سليمان، سمعت أبا عمرو الشيبانى عن ابن مسعود أن رجلاً تصدق بناقة مخطومة فى سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ «لتأتين يوم القيامة بسبعمائة ناقة مخطومة» ورواه مسلم والنسائى [٤] من حديث سليمان بن مهران عن الأعمش به، ولفظ مسلم: جاء رجل بناقة مخطومة فقال: يا رسول الله، هذه فى سبيل الله، فقال: «لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة».

(حديث آخر) - قال أحمد [٥]: حدثنا عمرو بن مجمع أبو المنذر الكندى، أخبرنا إبراهيم الهجرى، عن أبى الأحوص عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله جعل حسنة ابن آدم إلى عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصوم والصوم لى، وأنا أجزى به، وللصائم فرحتان: فرحة عند إفطاره، وفرحة يوم القيامة، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك».

(حديث آخر) - قال أحمد [٦]: أخبرنا وكيع، أخبرنا الأعمش عن أبى صالح، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ «كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما شاء الله، يقول الله إلا الصوم فإنه لى، وأنا أجزى به، يدع طعامه وشرابه من أجلى، وللصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، الصوم جنة، الصوم جنة» وكذا رواه مسلم [٧] عن أبى بكر بن أبى شيبة وأبى سعيد الأشج كلاهما عن وكيع به.

(١) أحمد (١٦٩٢)، ورجاله ثقات إلا أن ابن عطيف: مقبول.
(٢) ضعيف: النسائي (٢٢٣٣)، انظر «ضعيف سنن النسائي».
(٣) صحيح: أحمد (١٦٦٤٥)، انظر السلسلة الصحيحة (٦٣٤).
(٤) مسلم: (١٨٩٢)، والنسائي (٣١٨٧).
(٥) أحمد (٤٢٤٤)، وفيه إبراهيم الهجري: ضعيف.
(٦) أحمد (٩٤٢١) ورجاله ثقات.
(٧) مسلم (١١٥١).

(حديث آخر) - قال أحمد[١] : حدثنا حسين بن على، عن زائدة، عن الردكين، عن بشير بن عميلة، عن خريم بن فاتك، قال: قال رسول الله ﷺ «من أنفق نفقة فى سبيل الله، تضاعف بسبعمائة ضعف».

(حديث آخر) - قال أبو داود[٢] : أنبأنا محمد بن عمرو بن السرح، حدثنا ابن وهب، عن يحيى بن أيوب وسعيد بن أيوب، عن زبان بن فائد، عن سهل بن معاذ، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ «إن الصلاة والصيام والذكر يضاعف على النفقة فى سبيل الله بسبعمائة ضعف».

(حديث آخر) - قال ابن أبى حاتم[٣] : أنبأنا أبى، حدثنا هارون بن عبد الله بن مروان، حدثنا ابن أبى فديك، عن الخليل بن عبد الله، عن الحسن عن عمران بن حصين، عن رسول الله ﷺ، قال «من أرسل بنفقة فى سبيل الله وأقام فى بيته، فله بكل درهم سبعمائة درهم يوم القيامة، ومن غزا فى سبيل الله وأنفق فى جهة ذلك، فله بكل درهم سبعمائة ألف درهم، ثم تلا هذه الآية ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾، وهذا حديث غريب، وقد تقدم حديث أبى عثمان النهدى عن أبى هريرة فى تضعيف الحسنة إلى ألفى ألف حسنة، عند قوله ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ الآية [البقرة: ٢٤٥].

(حديث آخر) - قال ابن مردويه[٤] : حدثنا عبد الله بن عبيد الله بن العسكرى البزاز، أخبرنا الحسن بن على بن شبيب، أخبرنا محمود بن خالد الدمشقى، أخبرنا أبى عن عيسى بن المسيب، عن نافع، عن ابن عمر: لما نزلت هذه الآية ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قال النبى ﷺ «رب زد أمتى» قال: فأنزل الله ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] قال «رب زد أمتى» قال: فأنزل الله ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، وقد رواه أبو حاتم وابن حبان فى صحيحه[٥] عن حاجب بن أركين، عن أبى عمر حفص بن عمر بن عبد العزيز المقرى، عن أبى إسماعيل المؤدب، عن عيسى بن المسيب، عن نافع، عن ابن عمر، فذكره. وقوله ههنا ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ أى بحسب إخلاصه فى عمله ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أى فضله واسع كثير أكثر من خلقه، عليم بمن يستحق ومن لا يستحق، سبحانه وبحمده.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾

ربع الحزب ٥

يمدح تبارك وتعالى الذين ينفقون فى سبيله، ثم لا يتبعون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات منًا على من أعطوه، فلا يمنون به على أحد، ولا يمنون به لا بقول ولا بفعل.

---

(١) أحمد (١٨٥٥٩)، ورجاله ثقات.

(٢) ضعيف: أبو داود (٢٤٩٨)، انظر ضعيف سنن أبي داود.

(٣) ضعيف: ابن أبي حاتم (٢/ ٥١٥)، برقم (٢٧٣٠)، وفيه الخليل بن عبد الله مجهول.

(٤) سبق تخريجه. (٥) انظر ما قبله.

وقوله ﴿وَلَآ أَذًى﴾ أى لا يفعلون مع من أحسنوا إليه مكروهًا يحبطون به ما سلف من الإحسان، ثم وعدهم الله تعالى الجزاء الجزيل على ذلك، فقال ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أى ثوابهم على الله لا على أحد سواه. ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أى فيما يستقبلونه من أهوال يوم القيامة. ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أى على ما خلفوه من الأولاد، ولا ما فاتهم من الحياة الدنيا وزهرتها لا يأسفون عليها، لأنهم قد صاروا إلى ما هو خير لهم من ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أى من كلمة طيبة ودعاء لمسلم ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أى عفو وغفر عن ظلم قولى أو فعلى ﴿خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾. قال ابن أبى حاتم[١]: حدثنا أبى حدثنا ابن فضيل قال: قرأت على معقل بن عبد الله، عن عمرو بن دينار، قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: ما من صدقة أحب إلى الله من قول معروف، ألم تسمع قوله ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَاللَّهُ غَنِىٌّ﴾ عن خلقه، ﴿حَلِيمٌ﴾ أى يحلم ويغفر ويصفح ويتجاوز عنهم، وقد وردت الأحاديث بالنهى عن المن فى الصدقة، ففى صحيح مسلم[٢] من حديث شعبة عن الأعمش، عن سليمان بن مسهر، عن خرشة بن الحر، عن أبى ذر، قال: قال رسول الله ﷺ «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: المنان بما أعطى، والمسبل إزاره، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب».

وقال ابن مردويه[٣]: حدثنا أحمد بن عثمان بن يحيى، أخبرنا عثمان بن محمد الدورى، أخبرنا هشيم بن خارجة، أخبرنا سليمان بن عقبة، عن يونس بن ميسرة، عن أبى إدريس، عن أبى الدرداء، عن النبى ﷺ قال «لا يدخل الجنة عاق، ولا منان، ولا مدمن خمر، ولا مكذب بقدر»، وروى أحمد وابن ماجه[٤] من حديث يونس بن ميسرة نحوه ثم روى ابن مردويه وابن حبان والحاكم فى مستدركه، والنسائى[٥] من حديث عبد الله بن يسار الأعرج، عن سالم بن عبد الله بن عمر، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، ومدمن خمر، والمنان بما أعطى» وقد روى النسائى[٦]، عن مالك بن سعد، عن عمه روح بن عبادة، عن عتاب بن بشير، عن خصيف الجزرى، عن مجاهد عن ابن عباس، عن النبى ﷺ قال «لا يدخل الجنة مدمن خمر، ولا عاق لوالديه، ولا منان»، وقد رواه ابن أبى حاتم عن الحسن بن المنهال، عن محمد بن عبد الله بن عصار الموصلى، عن عتاب، عن خصيف، عن مجاهد، عن ابن عباس، ورواه النسائى[٧] من حديث عبد الكريم بن مالك الجزرى، عن مجاهد قوله، وقد روى عن مجاهد، عن أبى سعيد، وعن مجاهد

---

(١) ضعيف: ابن أبي حاتم (٢/ ٥١٦) برقم (٢٧٣٤)، وإسناده مرسل، ومعقل بن عبيد الله: صدوق يخطئ.
(٢) مسلم: (١٠٦).
(٣) حسن: ابن أبي عاصم في «السنة» (١/ ١٤١)، انظر «ظلال الجنة» (٣٢١).
(٤) حسن: أحمد (٢٦٩٣٨)، وابن ماجه (٣٣٧٦)، انظر السلسلة الصحيحة (٦٧٥).
(٥) حسن صحيح: النسائي (٢٥٦٢)، وابن حبان (١٦/ ٣٣٤)، برقم (٧٣٤٠)، والحاكم بنحوه في «المستدرك» (١/ ١٤٤) برقم (٢٤٤) انظر صحيح سنن النسائي.
(٦) حسن: النسائي في «الكبرى» (٣/ ١٧٦) برقم (٤٩٢١)، انظر السلسلة الصحيحة (٦٧٣).
(٧) انظر «السنن الكبرى» للنسائي (٣/ ١٧٦).

عن أبى هريرة نحوه، ولهذا قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ فأخبر أن الصدقة تبطل بما يتبعها من المن والأذى، فما بقى ثواب الصدقة بخطيئة المن والأذى، ثم قال تعالى: ﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ أى لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كما تبطل صدقة من راءى بها الناس، فأظهر لهم أنه يريد وجه الله، وإنما قصده مدح الناس له أو شهرته بالصفات الجميلة ليشكر بين الناس، أو يقال إنه كريم، ونحو ذلك من المقاصد الدنيوية، مع قطع نظره عن معاملة الله تعالى وابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه، ولهذا قال ﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، ثم ضرب تعالى مثل ذلك المرائى بإنفاقه، قال الضحاك: والذى يتبع نفقته منًا أو أذى، فقال ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ وهو جمع صفوانة، فمنهم من يقول: الصفوان يستعمل مفردًا أيضًا وهو الصفا وهو الصخر الأملس، ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ﴾ وهو المطر الشديد ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾ أى فترك الوابل ذلك الصفوان صلدًا أى أملس يابسًا، أى لا شىء عليه من ذلك التراب، بل قد ذهب كله، أى وكذلك أعمال المرائين تذهب وتضمحل عند الله وإن ظهر لهم أعمال فيما يرى الناس كالتراب، ولهذا قال ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾

وهذا مثل المؤمنين المنفقين أموالهم ابتغاء مرضاة الله عنهم فى ذلك، ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أى وهم متحققون متثبتون أن الله سيجزيهم على ذلك أوفر الجزاء، ونظير هذا فى معنى قوله عليه السلام فى الحديث الصحيح[1] المتفق على صحته «من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا» أى يؤمن أن الله شرعه ويحتسب عند الله ثوابه، قال الشعبى: ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أى تصديقًا ويقينًا، وكذا قال قتادة وأبو صالح وابن زيد، واختاره ابن جرير وقال مجاهد والحسن: أى يتثبتون أين يضعون صدقاتهم.

وقوله ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ﴾، وهو عند الجمهور: المكان المرتفع من الأرض، وزاد ابن عباس والضحاك وتجرى فيه الأنهار. قال ابن جرير رحمه الله: وفى الربوة ثلاث لغات: هن ثلاث قراءات: بضم الراء، وبها قرأ عامة أهل المدينة والحجاز والعراق، وفتحها وهى قراءة بعض أهل الشام، والكوفة، ويقال إنها لغة تميم، وكسر الراء، ويذكر أنها قراءة ابن عباس.

وقوله ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ وهو المطر الشديد، كما تقدم، ﴿فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا﴾ أى ثمرتها ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ أى بالنسبة إلى غيرها من الجنان ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ قال الضحاك: هو الرذاذ وهو اللين من المطر، أى هذه الجنة بهذه الربوة لا تمحل أبدًا، لأنها إن لم يصبها وابل فطل، وأيًا ما كان فهو كفايتها، وكذلك عمل المؤمن لا يبور أبدًا، بل يتقبله الله ويكثره وينميه كل عامل بحسبه، ولهذا قال ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أى لا يخفى عليه من أعمال عباده شىء.

---

(١) البخاري (٣٨)، ومسلم (٧٦٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾

قال البخارى [1] عند تفسير هذه الآية: حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام هو ابن يوسف، عن ابن جريج سمعت عبد الله بن أبى مليكة، يحدث عن ابن عباس، وسمعت أخاه أبا بكر بن أبى مليكة يحدث عن عبيد بن عمير، قال: قال عمر بن الخطاب يومًا لأصحاب النبى ﷺ: فيمن ترون هذه الآية نزلت؟ ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ قالوا: الله أعلم. فغضب عمر، فقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس: فى نفسى منها شىء يا أمير المؤمنين، فقال عمر: يا ابن أخى قل ولا تحقر نفسك، فقال ابن عباس رضى الله عنهما: ضربت مثلاً بعمل، قال عمر: أى عمل؟ قال ابن عباس: لرجل غنى يعمل بطاعة الله، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصى، حتى أغرق أعماله، ثم رواه البخارى [2] عن الحسن بن محمد الزعفرانى، عن حجاج بن محمد الأعور، عن ابن جريج، فذكره وهو من أفراد البخارى رحمه الله، وفى هذا الحديث كفاية فى تفسير هذه الآية، وتبيين ما فيها من المثل بعمل من أحسن العمل أولاً ثم بعد ذلك انعكس سيره فبدل الحسنات بالسيئات عياذًا بالله من ذلك، فأبطل بعمله الثانى ما أسلفه فيما تقدم من الصالح، واحتاج إلى شىء من الأول فى أضيق الأحوال، فلم يحصل منه شىء وخانه أحوج ما كان إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ﴾ وهو الريح الشديد ﴿فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ أى أحرق ثمارها وأباد أشجارها، فأى حال يكون حاله؟ وقد روى ابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس، قال: ضرب الله مثلا حسنًا وكل أمثاله حسن، قال ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ يقول ضيعة فى شيبته ﴿وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ﴾ وولده وذريته ضعاف عند آخر عمره، فجاءه: ﴿إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ﴾[البقرة: ٢٦٦] إعصار فيه نار فاحترق بستانه، فلم يكن عنده قوة أن يغرس مثله، ولم يكن عند نسله خير يعودون به عليه، وكذلك الكافر يكون يوم القيامة إذا ردّ إلى الله عز وجل، ليس له خير فيستعتب، كما ليس لهذا قوة فيغرس مثل بستانه، ولا يجده قدم لنفسه خيرًا يعود عليه، كما لم يغن عن هذا ولده، وحرم أجره عند أفقر ما كان إليه، كما حرم هذا جنته عندما كان أفقر ما كان إليها عند كبره وضعف ذريته.

وهكذا روى الحاكم [3] فى مستدركه أن رسول الله ﷺ كان يقول فى دعائه «اللَّهم اجعل أوسع رزقك على عند كبر سنى وانقضاء عمرى» ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ أى تعتبرون وتفهمون الأمثال والمعانى وتنزلونها على المراد منها. كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾[العنكبوت: ٤٣].

---

(١) البخاري (٤٥٣٨).

(٢) انظر ما قبله.

(٣) ضعيف: الحاكم في المستدرك، (١/ ٧٢٦)، برقم (١٩٨٧)، انظر صحيح الجامع (١١٦٣).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾

يأمر تعالى: عباده المؤمنين بالإنفاق والمراد به الصدقة ههنا، قاله ابن عباس: من طيبات ما رزقهم من الأموال التى اكتسبوها، قال مجاهد: يعنى التجارة بتيسيره إياها لهم، وقال على والسدى ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ يعنى الذهب والفضة، ومن الثمار والزروع التى أنبتها لهم من الأرض، قال ابن عباس: أمرهم بالإنفاق من أطيب المال وأجوده وأنفسه، ونهاهم عن التصدق برذالة المال ودنيئه وهو خبيثه، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ﴾ أى تقصدوا الخبيث ﴿مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ﴾ أى لو أعطيتموه ما أخذتموه، إلا أن تتغاضوا فيه، فالله أغنى عنه منكم، فلا تجعلوا لله ما تكرهون، وقيل معناه ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ أى لا تعدلوا عن المال الحلال وتقصدوا إلى الحرام فتجعلوا نفقتكم منه، ويذكر ههنا الحديث الذى رواه الإمام أحمد[1]: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا أبان بن إسحاق، عن الصباح بن محمد عن مرة الهمدانى، عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم وإن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطى الدين إلا لمن أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذى نفسى بيده لا يسلم عبد، حتى يسلم قلبه ولسانه ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه قالوا وما بوائقه يا نبى الله قال غشه وظلمه، ولا يكسب عبد مالاً من حرام فينفق منه فيبارك له فيه ولا يتصدق فيقبل منه ولا يتركه خلف ظهره إلا كان إلى النار، إن الله لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكن يمحو السيئ بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث» والصحيح القول الأول، قال ابن جرير[2] رحمه الله: حدثنا الحسين بن عمر السرى، حدثنى أبى عن أسباط عن السدى، عن عدى بن ثابت عن البراء بن عازب رضى الله عنه، فى قول الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ الآية، قال: نزلت فى الأنصار، كانت الأنصار إذا كانت أيام جذاذ النخل أخرجت من حيطانها البسر فعلقوه على حبل، بين الأسطوانتين فى مسجد رسول الله ﷺ، فيأكل فقراء المهاجرين منه، فيعمد الرجل منهم إلى الحشف فيدخله مع أقناء البسر، يظن أن ذلك جائز، فأنزل الله فيمن فعل ذلك ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾، ثم رواه ابن جرير وابن ماجه وابن مردويه، والحاكم فى مستدركه[3] من طريق السدى، عن عدى بن ثابت عن البراء بنحوه، وقال الحاكم: صحيح على شرط البخارى ومسلم، ولم يخرجاه.

---

(١) ضعيف: أحمد (٣٦٦٣)، انظر «ضعيف الجامع» (١٦٢٥).

(٢) ابن جرير (٣/ ٨٢).

(٣) صحيح: ابن ماجه (١٨٢٢)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣١٣)، برقم (٣١٢٧)، وابن جرير (٣/ ٨٢)، انظر صحيح سنن ابن ماجه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا عبيد الله، عن إسرائيل عن السدى عن أبى مالك عن البراء رضى الله عنه، ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ قال: نزلت فينا، كنا أصحاب نخل فكان الرجل يأتى من نخله بقدر كثرته وقلته، فيأتى الرجل بالقنو فيعلقه فى المسجد، وكان أهل الصفة ليس لهم طعام فكان أحدهم إذا جاء فضربه بعصاه فسقط منه البسر والتمر، فيأكل، وكان أناس ممن لا يرغبون فى الخير يأتى بالقنو الحشف والشيص، فيأتى بالقنو قد انكسر فيعلقه، فنزلت ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ قال: لو أن أحدكم أهدى له مثل ما أعطى ما أخذه إلا على إغماض وحياء، فكنا بعد ذلك يجىء الرجل منا بصالح ما عنده، وكذا رواه الترمذى عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى، عن عبيد الله هو ابن موسى العبسى، عن إسرائيل عن السدى، وهو إسماعيل بن عبد الرحمن، عن أبى مالك الغفارى واسمه غزوان، عن البراء فذكر نحوه، ثم قال وهذا حديث حسن غريب، وقال ابن أبى حاتم[1]، حدثنا أبى، حدثنا أبو الوليد، حدثنا سليمان بن كثير، عن الزهرى عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف عن أبيه، أن رسول الله ﷺ، نهى عن لونين من التمر الجعرور والحبيق، وكان الناس يتيممون شرار ثمارهم، ثم يخرجونها فى الصدقة، فنزلت ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ ورواه أبو داود[2] من حديث سفيان بن حسين عن الزهرى، ثم قال: أسنده أبو الوليد عن سليمان بن كثير عن الزهرى، ولفظه نهى رسول الله ﷺ عن الجعرور ولون الحبيق، أن يؤخذ فى الصدقة، وقد روى النسائى[3] هذا الحديث من طريق عبد الجليل بن حميد اليحصبى، عن الزهرى، عن أبى أمامة، ولم يقل عن أبيه، فذكر نحوه، وكذا رواه ابن وهب، عن عبد الجليل.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبى، حدثنا يحيى بن المغيرة، حدثنا جرير عن عطاء بن السائب، عن عبد الله بن مغفل، فى هذه الآية ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ قال: كسب المسلم لا يكون خبيثًا، ولكن لا يصدق بالحشف والدرهم الزيف وما لا خير فيه، وقال الإمام أحمد[4]: حدثنا أبو سعيد، حدثنا حماد بن سلمة، عن حماد هو ابن سليمان، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة، قالت: أتى رسول الله ﷺ بضب، فلم يأكله ولم ينه عنه، قلت: يا رسول الله، نطعمه المساكين؟ قال «لا تطعموهم مما لا تأكلون». ثم رواه[5] عن عفان عن حماد بن سلمة به فقلت: يا رسول الله، ألا أطعمه المساكين؟ قال «لا تطعموهم مما لا تأكلون». وقال الثورى، عن السدى، عن أبى مالك، عن البراء ﴿وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ يقول: لو كان لرجل على رجل فأعطاه ذلك، لم يأخذه إلا أن يرى أنه قد نقصه من حقه، رواه ابن جرير، وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس ﴿وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ يقول: لو كان لكم على أحد حق فجاءكم بحق دون حقكم، لم تأخذوه بحساب الجيد حتى تنقصوه، قال فذلك قوله: ﴿إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ فكيف ترضون لى ما لاترضون

(١) صحيح: ابن أبي حاتم (٢/٥٢٨) برقم (٢٨٠٢) من طرق عن الزهرى به.
(٢) صحيح: أبو داود (١٦٠٧)، انظر صحيح سنن أبي داود.
(٣) صحيح: النسائي (٢٤٩٢)، انظر صحيح سنن النسائي.
(٤) حسن: أحمد (٢٤٢١٥)، انظر السلسلة الصحيحة (٢٤٢٦).
(٥) حسن: أحمد (٢٤٣٩٦)، انظر صحيح الجامع (٧٣٦٤).

لأنفسكم، وحقى عليكم من أطيب أموالكم وأنفسه؟ رواه ابن أبى حاتم، وابن جرير، وزاد: وهو قوله: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] ثم روى عن طريق العوفى وغيره، عن ابن عباس، نحو ذلك، وكذا ذكره غير واحد.

وقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ أى وإن أمركم بالصدقات وبالطيب منها، فهو غنى عنها، وما ذاك إلا أن يساوى الغنى الفقير، كقوله ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧] وهو غنى عن جميع خلقه وجميع خلقه فقراء إليه، وهو واسع الفضل، لا ينفد ما لديه، فمن تصدق بصدقة من كسب طيب، فليعلم أن الله غنى واسع العطاء، كريم جواد، ويجزيه بها، ويضاعفها له أضعافًا كثيرة، من يقرض غير عديم ولا ظلوم، وهو الحميد أى المحمود فى جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقدره، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

وقوله: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ قال ابن ابى حاتم[1]: حدثنا أبو زرعة، حدثنا هناد بن السرى، حدثنا أبو الأحوص، عن عطاء بن السائب، عن مرة الهمدانى، عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ «إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير والتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله، فليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان» ثم قرأ ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ الآية، وهكذا رواه الترمذى والنسائى[2] فى كتابى التفسير من سننهما جميعًا، عن هناد بن السرى. وأخرجه ابن حبان[3] فى صحيحه، عن أبى يعلى الموصلى، عن هناد به، وقال الترمذى: حسن غريب، وهو حديث أبى الأحوص، يعنى سلام بن سليم، لا نعرفه مرفوعًا إلا من حديثه، كذا قال: وقد رواه أبو بكر بن مردويه فى تفسيره، عن محمد بن أحمد عن محمد بن عبد الله بن بن رسته عن هارون القروى عن أبي ضمرة عن ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن مسعود. مرفوعًا نحوه ولكن رواه مسعر عن عطاء بن السائب، عن أبى الأحوص عوف بن مالك بن نضلة، عن ابن مسعود، فجعله من قوله، والله أعلم[4]، ومعنى قوله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ أى يخوفكم الفقر لتمسكوا ما بأيديكم فلا تنفقوه فى مرضاة الله. ﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ أى مع نهيه إياكم عن الإنفاق خشية الإملاق، يأمركم بالمعاصى والمآثم والمحارم ومخالفة الخلاق، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ﴾ أى فى مقابلة ما أمركم الشيطان بالفحشاء. ﴿وَفَضْلًا﴾ أى فى مقابلة ما خوفكم الشيطان من الفقر ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

وقوله: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: يعنى المعرفة بالقرآن، ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثاله، وروى[5] جويبر

---

(١) صحيح موقوفًا: ابن أبي حاتم (٢/ ٥٢٩) برقم (٢٨١٠)، وفيه عطاء بن السائب اختلط، وأبو الأحوص روى عنه بعد الاختلاط فالإسناد مرفوعًا ضعيف.

(٢) ضعيف: الترمذي (٢٩٨٨)، والنسائي في «الكبرى» (٦/ ٣٠٥) برقم (١١٠٥١)، انظر ضعيف جامع الترمذي.

(٣) ضعيف: ابن حبان (٣/ ٢٧٨)، برقم (٩٩٧)، انظر «المشكاة» (٧٤).

(٤) عزاه المصنف لابن مردويه في تفسيره وهو ضعيف كسابقه.

(٥) ضعيف: جويبر هو ابن سعيد الأزدي، قال الحافظ: ضعيف جدًّا.

عن الضحاك عن ابن عباس مرفوعًا «الحكمة القرآن» يعنى تفسيره، قال ابن عباس: فإنه قد قرأه البر والفاجر، رواه ابن مردويه [١]، وقال ابن أبى نجيح، عن مجاهد: يعنى بالحكمة الإصابة فى القول، وقال ليث بن أبى سليم، عن مجاهد ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾: ليست بالنبوة، ولكنه العلم والفقه والقرآن، وقال أبو العالية: الحكمة خشية الله، فإن خشية الله رأس كل حكمة، وقد روى ابن مردويه [٢] من طريق بقية عن عثمان بن زفر الجهنى، عن أبى عمار الأسدى، عن ابن مسعود مرفوعًا «رأس الحكمة مخافة الله» وقال أبو العالية فى رواية عنه: الحكمة الكتاب والفهم، وقال إبراهيم النخعى، الحكمة الفهم، وقال أبو مالك: الحكمة السنة، وقال ابن وهب، عن مالك، قال زيد بن أسلم: الحكمة العقل، قال مالك: وإنه ليقع فى قلبى أن الحكمة هو الفقه فى دين الله، وأمر يدخله الله فى القلوب من رحمته وفضله، ومما يبين ذلك أنك تجد الرجل عاقلاً فى أمر الدنيا إذا نظر فيها، وتجد آخر ضعيفًا فى أمر دنياه، عالمًا بأمر دينه بصيرًا به، يؤتيه الله إياه ويحرمه هذا، فالحكمة الفقه فى دين الله، وقال السدى: الحكمة النبوة، والصحيح أن الحكمة كما قال الجمهور: لا تختص بالنبوة بل هى أعم منها، وأعلاها النبوة، والرسالة أخص، ولكن لأتباع الأنبياء حظ من الخير على سبيل التبع، كما جاء فى الأحاديث «من حفظ القرآن فقد أدرجت النبوة بين كتفيه غير أنه لا يوحى إليه» [٣] رواه وكيع بن الجراح فى تفسيره، عن إسماعيل بن رافع، عن رجل لم يسمه، عن عبد الله بن عمر، وقوله: وقال الإمام أحمد [٤]: حدثنا وكيع ويزيد، قالا: حدثنا إسماعيل يعنى ابن أبى خالد عن قيس وهو ابن أبى حازم، عن ابن مسعود، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، يقول «لا حسد إلا فى اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته فى الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضى بها ويعلمها» وهكذا رواه البخارى ومسلم والنسائى وابن ماجه [٥] من طرق متعددة عن إسماعيل بن أبى خالد به. وقوله: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أى وما ينتفع بالموعظة والتذكار إلا من له لب وعقل، يعى به الخطاب ومعنى الكلام.

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾

يخبر تعالى بأنه عالم بجميع ما يفعله العاملون من الخيرات من النفقات والمنذورات، وتضمن ذلك مجازاته على ذلك أوفر الجزاء للعاملين لذلك ابتغاء وجهه ورجاء موعوده، وتوعد من لا يعمل

---

(١) انظر ما قبله.

(٢) ضعيف: في إسناده بقية وهو مدلس وقد عنعنه، وعثمان بن زفر: مجهول.

(٣) ضعيف: الحاكم في «المستدرك» (١/ ٧٣٨)، برقم (٢٠٢٨)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، انظر «ضعيف الترغيب والترهيب» (٨٦٥).

(٤) صحيح: أحمد (٤٠٩٨)، انظر صحيح الجامع (٧٤٨٨).

(٥) البخاري (١٤٠٩)، ومسلم (٨١٦)، والنسائي في «الكبرى» (٣/ ٤٢٦)، برقم (٥٨٤٠)، وابن ماجه (٤٢٠٨).

بطاعته، بل خالف أمره، وكذب خبره، وعبد معه غيره، فقال ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ أى يوم القيامة ينقذونهم من عذاب الله ونقمته.

وقوله: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ﴾ أى إن أظهرتموها فنعم شىء هى.

وقوله: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فيه دلالة على أن إسرار الصدقة أفضل من إظهارها، لأنه أبعد عن الرياء إلا أن يترتب على الإظهار مصلحة راجحة من اقتداء الناس به، فيكون أفضل من هذه الحيثية، وقال رسول الله ﷺ «الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة»[١] والأصل أن الإسرار أفضل لهذه الآية، ولما ثبت فى الصحيحين[٢] عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ «سبعة يظلهم الله فى ظله، يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ فى عبادة الله، ورجلان تحابا فى الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يرجع إليه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إنى أخاف الله رب العالمين، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»، وقال الإمام أحمد[٣]: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا العوام بن حوشب، عن سليمان بن أبى سليمان، عن أنس بن مالك، عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم: قال «لما خلق الله الأرض جعلت تميد، فخلق الجبال فألقاها عليها، فاستقرت، فتعجبت الملائكة من خلق الله الجبال فقالت: يا رب هل فى خلقك شىء أشد من الجبال؟ قال نعم الحديد. قالت: يا رب فهل من خلقك شىء أشد من الحديد؟ قال: نعم النار، قالت: يا رب فهل من خلقك شىء أشد من النار؟ قال: نعم الماء. قالت: يا رب فهل من خلقك شىء أشد من الماء؟ قال: نعم الريح قالت: يا رب فهل من خلقك شىء أشد من الريح؟ قال: نعم ابن آدم يتصدق بيمينه فيخفيها من شماله». وقد ذكرنا فى فضل آية الكرسى عن أبى ذر، قال: قلت: يا رسول الله، أى الصدقة أفضل؟ قال «سر إلى فقير أو جهد من مقل» رواه أحمد ورواه ابن أبى حاتم[٤] من طريق على بن يزيد عن القاسم، عن أبى أمامة، عن أبى ذر، فذكره وزاد، ثم شرع فى هذه الآية ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ الآية، وفى الحديث المروى «صدقة السر تطفى غضب الرب عز وجل»[٥] وقال ابن أبى حاتم[٦]: حدثنا أبى، حدثنا الحسين بن زياد المحاربى مؤدب محارب، أنا موسى بن عمير عن عامر الشعبى فى قوله: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ قال: أنزلت فى أبى بكر

---

(١) صحيح: أبو داود (١٣٣٣)، والترمذي (٢٩١٩)، والنسائي (١٦٦٣)، وأحمد (١٦٩١٧)، انظر صحيح سنن أبي داود.

(٢) البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

(٣) ضعيف: أحمد (١١٨٤٤)، انظر ضعيف الجامع (٤٧٧٠).

(٤) سبق تخريجه.

(٥) صحيح: الحاكم في «المستدرك» (٣/ ٦٥٧) برقم (٦٤١٨)، والطبراني في «الصغير» (٢/ ٢٠٥) برقم (١٠٣٤)، من حديث عبد الله بن جعفر رضي الله عنه، انظر صحيح الجامع (٣٧٥٩).

(٦) مرسل: ابن أبي حاتم (٢/ ٥٣٦)، برقم (٢٨٤٨). والحديث حسن ولكن دون ذكر سبب النزول، أخرجه أبو داود (١٦٧٨)، والترمذي (٣٦٧٥)، انظر صحيح سنن أبي داود.

وعمر رضى الله تعالى عنهما، أما عمر فجاء بنصف ماله حتى دفعه إلى النبى ﷺ فقال له النبى ﷺ «ما خلفت وراءك لأهلك يا عمر؟» قال: خلفت لهم نصف مالى، وأما أبو بكر فجاء بماله كله يكاد أن يخفيه من نفسه، حتى دفعه إلى النبى ﷺ فقال له النبى ﷺ: «ما خلفت وراءك لأهلك يا أبا بكر؟» فقال: عدة الله وعدة رسوله، فبكى عمر رضى الله عنه وقال: بأبى أنت وأمى يا أبا بكر، والله ما استبقنا إلى باب خير قط إلا كنت سابقًا، وهذا الحديث روى من وجه آخر عن عمر رضى الله عنه، وإنما أوردناه ههنا لقول الشعبى: إن الآية نزلت فى ذلك، ثم إن الآية عامة فى أن إخفاء الصدقة أفضل، سواء كانت مفروضة أو مندوبة، لكن روى ابن جرير من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى تفسيره هذه الآية، قال: جعل الله صدقة السر فى التطوع تفضل علانيتها فقال بسبعين ضعفًا، وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها فقال بخمسة وعشرين ضعفًا.

وقوله: ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ أى بدل الصدقات ولا سيما إذا كانت سرًا، يحصل لكم الخير فى رفع الدرجات ويكفر عنكم السيئات وقد قرئ «ويكفرُ عنكم» بالضم وقرئ «ونكفرْ» بالجزم عطفًا على جواب الشرط وهو قوله: ﴿فَنِعِمَّا هِىَ﴾ كقوله: «فأصدّق وأكون» ﴿وَأَكُن﴾ وقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أى لا يخفى عليه من ذلك شىء وسيجزيكم عليه.

نصف الحزب ٥

﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾

قال أبو عبد الرحمن النسائى [1]: أنبأنا محمد بن عبد السلام بن عبد الرحيم، أنبأنا الفريابى حدثنا سفيان عن الأعمش، عن جعفر بن إياس، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: كانوا يكرهون أن يرضخوا لأنسابهم من المشركين، فسألوا فرخص لهم، فنزلت هذه الآية ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾. وكذا رواه أبو حذيفة وابن المبارك وأبو أحمد الزبيرى وأبو داود الحضرمى عن سفيان، وهو الثورى به، وقال ابن أبى حاتم [2]: أنبأنا أحمد بن القاسم بن عطية، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن يعنى الدشتكى، حدثنى أبى عن أبيه، حدثنا أشعث بن إسحاق عن جعفر بن أبى المغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبى ﷺ أنه كان يأمر بأن لا يتصدق إلا على أهل الإسلام، حتى نزلت هذه الآية ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾ إلى آخرها، فأمر بالصدقة بعدها

---

(١) صحيح: النسائي في «الكبرى»، (٦/ ٣٠٥)، برقم (١١٠٥٢)، انظر «تمام المنة» ص (٣٨٩).

(٢) ضعيف: عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٢/ ٨٦)، إلى ابن أبي حاتم (٢/ ٥٣٧)، برقم (٢٨٥٣)، وفيه جعفر بن أبي المغيرة ليس بالقوي في سعيد بن جبير.

على كل من سألك من كل دين، وسيأتى عند قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ الآية [الممتحنة: ٨]، حديث أسماء بنت الصديق فى ذلك.

وقوله: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ كقوله ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٦، الجاثية: ١٥] ونظائرها فى القرآن كثيرة.

وقوله ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾ قال الحسن البصرى: نفقة المؤمن لنفسه ولا ينفق المؤمن إذا أنفق إلا ابتغاء وجه الله، وقال عطاء الخراسانى: يعنى إذا أعطيت لوجه الله فلا عليك ما كان عمله. وهذا معنى حسن وحاصله أن المتصدق إذا تصدق ابتغاء وجه الله، فقد وقع أجره على الله، ولا عليه فى نفس الأمر لمن أصاب البرّ أو فاجر أو مستحق أو غيره، وهو مثاب على قصده، ومستند هذا تمام الآية ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ والحديث المخرج فى الصحيحين[1] من طريق أبى الزناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «قال رجل لأتصدقنّ الليلة بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها فى يد زانية، فأصبح الناس يتحدثون: تصدق على زانية، فقال: اللّهم لك الحمد على زانية، لأتصدقن الليلة بصدقة فوضعها فى يد غنى، فأصبحوا يتحدثون: تصدق الليلة على غنى، قال: اللّهم لك الحمد على غنى، لأتصدقن الليلة بصدقة، فخرج فوضعها فى يد سارق فأصبحوا يتحدثون: تصدق الليلة على سارق، فقال: اللّهم لك الحمد على زانية وعلى غنى وعلى سارق، فأتى فقيل له: أما صدقتك فقد قبلت، وأما الزانية فلعلها أن تستعفف بها عن زنا، ولعل الغنى يعتبر فينفق مما أعطاه الله، ولعل السارق أن يستعف بها عن سرقته».

وقوله ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يعنى المهاجرين الذين انقطعوا إلى الله وإلى رسوله وسكنوا المدينة، وليس لهم سبب يردون به على أنفسهم ما يغنيهم و ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعنى سفرًا للتسبب فى طلب المعاش والضرب فى الأرض هو السفر، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [النساء: ١٠١] وقال تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠] الآية.

وقوله ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ أى الجاهل بأمرهم وحالهم يحسبهم أغنياء من تعففهم فى لباسهم وحالهم ومقالهم، وفى هذا المعنى الحديث المتفق[2] على صحته عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ «ليس المسكين بهذا الطواف الذى ترده التمرة والتمرتان، واللقمة واللقمتان، والأكلة والأكلتان، ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه، ولا يسأل الناس شيئًا». رواه أحمد من حديث ابن مسعود أيضًا[3].

وقوله: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ أى بما يظهر لذوى الألباب من صفاتهم، كما قال تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم﴾ [الفتح: ٢٩] وقال ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠] وفى الحديث الذى فى السنن «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» ثم قرأ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥][4].

وقوله: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ أى لا يلحون فى المسألة ويكلفون الناس ما لا يحتاجون

---

(١) البخاري (١٤٢١)، ومسلم (١٠٢٢).
(٢) سبق تخريجه.
(٣) انظر ما قبله.
(٤) انظر سابقيه.

إليه، فإن سأل وله ما يغنيه عن المسألة، فقد ألحف فى المسألة، قال البخارى: حدثنا ابن أبى مريم، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شريك بن أبى نمر أن عطاء بن يسار وعبد الرحمن بن أبى عمرة الأنصارى، قالا: سمعنا أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ «ليس المسكين الذى ترده التمرة والتمرتان، ولا اللقمة واللقمتان، إنما المسكين الذى يتعفف، اقرءوا إن شئتم يعنى قوله ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾» وقد رواه مسلم [١] من حديث إسماعيل بن جعفر المدينى، عن شريك بن عبد الله بن أبى نمر، عن عطاء بن يسار وحده، عن أبى هريرة به، وقال أبو عبد الرحمن النسائى [٢]: أخبرنا على بن حجر، حدثنا إسماعيل، أخبرنا شريك وهو ابن أبى نمر عن عطاء بن يسار، عن أبى هريرة به، عن النبى ﷺ قال: «ليس المسكين الذى ترده التمرة والتمرتان، واللقمة واللقمتان، إنما المسكين المتعفف، اقرءوا إن شئتم ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾» وروى البخارى [٣] من حديث شعبة، عن محمد بن أبى زياد، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ نحوه، وقال ابن أبى حاتم [٤]: أخبرنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرنى ابن أبى ذئب، عن أبى الوليد، عن أبى هريرة، أن رسول الله ﷺ قال «ليس المسكين بالطواف عليكم فتطعمونه لقمة لقمة، إنما المسكين المتعفف الذى لا يسأل الناس إلحافًا» وقال ابن جرير [٥]: حدثنى معتمر عن الحسن بن مالك، عن صالح بن سويد، عن أبى هريرة، قال: ليس المسكين بالطواف الذى ترده الأكلة والأكلتان، إلكن المسكين المتعفف فى بيته لا يسأل الناس شيئًا تصيبه الحاجة، اقرءوا إن شئتم ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ وقال الإمام أحمد [٦] أيضًا: حدثنا أبو بكر الحنفى، حدثنا عبد الحميد بن جعفر عن أبيه، عن رجل من مزينة أنه قالت له أمه: ألا تنطلق فتسأل رسول الله ﷺ كما يسأله الناس؟ فانطلقت أسأله فوجدته قائمًا يخطب، وهو يقول «ومن استعف أعفه الله، ومن استغنى أغناه الله، ومن يسأل الناس وله عدل خمس أواق، فقد سأل الناس إلحافًا» فقلت بينى وبين نفسى: لنا ناقةٌ لهى خير من خمس أواق، ولغلامه ناقة أخرى فهى خير من خمس أواق، فرجعت ولم أسأل، وقال الإمام أحمد [٧]: حدثنا قتيبة، حدثنا عبد الرحمن بن أبى الرجال عن عمارة بن غزية، عن عبد الرحمن بن أبى سعيد، عن أبيه، قال: سرحتنى أمى إلى رسول الله ﷺ أسأله، فأتيته فقعدت، قال: فاستقبلنى فقال «من استغنى أغناه الله، ومن استعف أعفه الله، ومن استكف كفاه الله، ومن سأل وله قيمة أوقية فقد ألحف، قال: فقلت ناقتى الياقوتة خير من أوقية، فرجعت فلم أسأله، وهكذا رواه أبو داود والنسائى [٨] عن قتيبة، زاد أبو داود وهشام بن عمار كلاهما عن عبد الرحمن بن أبى الرجال بإسناده نحوه، وقال ابن أبى حاتم [٩]، حدثنا أبى، حدثنا أبو الجماهر، حدثنا عبد الرحمن بن أبى الرجال، عن عمارة بن غزية، عن

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) سبق تخريجه بنحوه.
(٤) انظر ما قبله.
(٥) سبق تخريجه.
(٦) صحيح: أحمد (١٦٧٨٦)، انظر صحيح الجامع (٦٠٢٢).
(٧) صحيح: أحمد (١٠٦٧٦)، انظر صحيح الجامع (٦٠٢٧).
(٨) حسن: أبو داود (١٦٢٨)، والنسائي (٢٥٩٥)، انظر صحيح سنن أبي داود.
(٩) عزاه المصنف لابن أبي حاتم وانظر ما بعده.

عبد الرحمن بن أبى سعيد، قال: قال أبو سعيد الخدرى، قال رسول الله ﷺ «من سأل وله قيمة أوقية فهو ملحف». والأوقية أربعون درهمًا، وقال أحمد[١]: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن رجل من بنى أسد، قال: قال رسول الله ﷺ ومن سأل أوقية أو عدلها فقد سأل إلحافًا.

وقال الإمام أحمد[٢] أيضًا: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان عن حكيم بن جبير، عن محمد بن عبد الرحمن بن يزيد، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ «من سأل وله ما يغنيه، جاءت مسألته يوم القيامة خدوشًا أو كدوحًا فى وجهه» قالوا: يا رسول الله وما غناه؟ قال «خمسون درهمًا أو حسابها من الذهب».

وقد رواه أهل السنن[٣] الأربعة من حديث حكيم بن جبير الأسدى الكوفى، وقد تركه شعبة بن الحجاج، وضعفه غير واحد من الأئمة من جراء هذا الحديث.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى[٤]: حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمى، حدثنا أبو حصين عبد الله بن أحمد بن يونس، حدثنى أبى، حدثنا أبو بكر بن عياش عن هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين، قال: بلغ الحارث رجلاً كان بالشام من قريش، أن أبا ذر كان به عوز فبعث إليه ثلاثمائة دينار، فقال: ما وجد عبد الله رجلاً أهون عليه منى، سمعت رسول الله ﷺ يقول «من سأل وله أربعون فقد ألحف» ولآل أبى ذر أربعون درهمًا وأربعون شاة وماهنان، قال أبو بكر بن عياش، يعنى خادمين، وقال ابن مردويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، أخبرنا إبراهيم بن محمد، أنبأنا عبد الجبار، أخبرنا سفيان عن داود بن سابور، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبى ﷺ، قال «من سأل وله أربعون درهمًا فهو ملحف وهو مثل سف الملة»[٥] يعنى الرمل، ورواه النسائى عن أحمد بن سليمان، عن يحيى بن آدم، عن سفيان وهو ابن عيينة بإسناده نحوه قوله ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ أى لا يخفى عليه شىء منه وسيجزى عليه أوفر الجزاء وأتمه يوم القيامة أحوج ما يكون إليه.

وقوله ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾ هذا مدح منه تعالى للمنفقين فى سبيله وابتغاء مرضاته فى جميع الأوقات من ليل ونهار، والأحوال من سر وجهر، حتى أن النفقة على الأهل تدخل فى ذلك أيضًا، كما ثبت فى الصحيحين[٦] أن رسول الله ﷺ قال لسعد بن أبى وقاص حين عاده مريضًا عام الفتح، وفى رواية عام

---

(١) **صحيح**: أحمد (١٥٩٧٦)، انظر «صحيح الجامع» (٢٤١٦).

(٢) **صحيح**: أحمد (٣٦٦٦)، انظر «السلسلة الصحيحة» (٤٩٩).

(٣) **صحيح**: أبو داود (١٦٢٦)، والترمذي (٦٥٠)، والنسائي (٢٥٩٢)، وابن ماجه (١٨٤٠)، وانظر صحيح سنن أبي داود.

(٤) الطبراني في «الكبير» (٢/ ١٥٠) برقم (١٦٣٠)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٩/ ٣٣١): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن يونس وهو ثقة.

(٥) **حسن صحيح**: ابن خزيمة (٤/ ١٠١)، برقم (٢٤٤٨)، وانظر «صحيح ابن خزيمة».

(٦) البخاري (٥٦)، ومسلم (١٦٢٨).

حجة الوداع «وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة حتى ما تجعل في في امرأتك».

وقال الإمام أحمد [١]: حدثنا محمد بن جعفر وبهز، قال: حدثنا شعبة عن عدي بن ثابت، قال: سمعت عبد الله بن يزيد الأنصاري يحدث عن أبي مسعود رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، أنه قال «إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة يحتسبها كانت له صدقة»، أخرجاه [٢] من حديث شعبة به، وقال ابن أبي حاتم [٣]: حدثنا أبو زرعة، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن، حدثنا محمد بن شعيب، قال: سمعت سعيد بن يسار عن يزيد بن عبد الله بن عريب المليكي، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ، قال: نزلت هذه الآية ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في أصحاب الخيل. وقال حبش الصنعاني عن ابن شهاب، عن ابن عباس في هذه الآية، قال: هم الذين يعلفون الخيل في سبيل الله، رواه ابن أبي حاتم ثم قال: وكذا روى عن أبي أمامة وسعيد بن المسيب ومكحول.

وقال ابن أبي حاتم [٤]: حدثنا أبو سعيد الأشج، أخبرنا يحيى بن يمان عن عبد الوهاب بن مجاهد، عن ابن جبير، عن أبيه، قال: كان لعلي أربعة دراهم، فأنفق درهمًا ليلًا ودرهمًا نهارًا ودرهمًا سرًا ودرهمًا علانية، فنزلت ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾، وكذا رواه ابن جرير من طريق عبد الوهاب بن مجاهد، وهو ضعيف، ولكن رواه ابن مردويه من وجه آخر عن ابن عباس، أنها نزلت في علي بن أبي طالب، وقوله ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي يوم القيامة على ما فعلوا من الإنفاق في الطاعات ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ تقدم تفسيره.

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾

لما ذكر تعالى الأبرار المؤدين النفقات، المخرجين الزكوات، المتفضلين بالبر والصدقات لذوي الحاجات والقرابات في جميع الأحوال والأوقات، شرع في ذكر أكلة الربا وأموال الناس بالباطل وأنواع الشبهات، فأخبر عنهم يوم خروجهم من قبورهم وقيامهم منها، إلى بعثهم ونشورهم، فقال ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾، أي لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع حال صرعه، وتخبط الشيطان له، وذلك أنه يقوم قيامًا منكرًا. وقال ابن عباس: آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنونًا يخنق، رواه ابن أبي حاتم، قال: وروى عن عوف بن مالك وسعيد بن جبير والسدي والربيع بن أنس وقتادة ومقاتل بن حيان نحو ذلك،

---

(١) صحيح: أحمد (١٦٦٦١)، انظر صحيح الجامع (٤٠٢).

(٢) البخاري (٥٥)، ومسلم (١٠٠٢).

(٣) ضعيف جدًا: ابن أبي حاتم (٢/ ٥٤٢)، برقم (٢٨٨٠)، وعلته سعيد بن سنان: متروك.

(٤) ضعيف: ابن أبي حاتم (٢/ ٥٤٣)، وإسناده ضعيف من أجل عبد الوهاب بن مجاهد بن جبر.

وحكى عن عبد الله بن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة ومقاتل بن حيان أنهم قالوا فى قوله ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ يعنى لا يقومون يوم القيامة، وكذا قال ابن أبى نجيح عن مجاهد والضحاك وابن زيد، وروى ابن أبى حاتم من حديث أبى بكر بن أبى مريم عن ضمرة بن حنيف، عن أبى عبد الله بن مسعود، عن أبيه، أنه كان يقرأ «الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس يوم القيامة» وقال ابن جرير: حدثنى المثنى، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا ربيعة بن كلثوم، حدثنا أبى، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: يقال يوم القيامة لآكل الربا: خذ سلاحك للحرب، وقرأ ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ وذلك حين يقوم من قبره[1]. وفى حديث أبى سعيد فى الإسراء، كما هو مذكور فى سورة سبحان، أنه عليه السلام مر ليلتئذ بقوم لهم أجواف مثل البيوت، فسأل عنهم، فقيل: هؤلاء أكلة الربا. رواه البيهقى مطولاً.

وقال ابن ماجه[2]: حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة، حدثنا الحسن بن موسى، عن حماد بن سلمة، عن على بن زيد، عن أبى الصلت، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ «أتيت ليلة أسرى بى على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات تجرى من خارج بطونهم فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكلة الربا». ورواه الإمام أحمد[3]، عن حسن وعفان وكلاهما عن حماد بن سلمه به، وفى إسناده ضعف. وقد روى البخارى[4] عن سمرة بن جندب فى حديث المنام الطويل: فأتينا على نهر، حسبت أنه كان يقول: أحمر مثل الدم، وإذا فى النهر رجل سابح يسبح، وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة، وإذا ذلك السابح يسبح، ثم يأتى الذى قد جمع الحجارة عنده، فيفغر له فاه فيلقمه حجرًا، وذكر فى تفسيره أنه آكل الربا.

وقوله ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾، أى إنما جوزوا بذلك لاعتراضهم على أحكام الله فى شرعه، وليس هذا قياسًا منهم للربا على البيع، لأن المشركين لا يعترفون بمشروعية أصل البيع الذى شرعه الله فى القرآن ولو كان هذا من باب القياس لقالوا: إنما الربا مثل البيع، وإنما قالوا: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ أى هو نظيره، فلم حرم هذا وأبيح هذا؟ وهذا اعتراض منهم على الشرع، أى هذا مثل هذا، وقد أحل هذا وحرم هذا، وقوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ يحتمل أن يكون من تمام الكلام ردًا عليهم، أى على ما قالوه من الاعتراض، مع علمهم بتفريق الله بين هذا وهذا حكمًا، وهو العليم الحكيم الذى لا معقب لحكمه ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وهو العالم بحقائق الأمور ومصالحها وما ينفع عباده فيبيحه لهم، وما يضرهم ينهاهم عنه، وهو أرحم بهم من الوالدة بولدها الطفل، ولهذا قال: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أى من بلغه نهى الله عن الربا فانتهى حال وصول الشرع إليه، فله ما سلف من المعاملة، لقوله: ﴿عَفَا

---

(١) انظر تفسير ابن جرير (١٥/ ١٣).

(٢) ضعيف: ابن ماجه (٢٢٧٣)، انظر ضعيف سنن ابن ماجه.

(٣) ضعيف: أحمد (٨٤٢٦)، انظر ضعيف الجامع (١٣٣).

(٤) جزء من حديث مطول أخرجه البخاري (٧٠٤٧).

﴿ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ [المائدة: ٩٥] وكما قال النبى ﷺ يوم فتح مكة «وكل ربا فى الجاهلية موضوع تحت قدمى هاتين، وأول ربا أضع ربا العباس»[١] ولم يأمرهم برد الزيادات المأخوذة فى حال الجاهلية بل عفا عما سلف، كما قال تعالى: ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

قال سعيد بن جبير والسدى: فله ما سلف ما كان أكل من الربا قبل التحريم. وقال ابن أبى حاتم: قرئ على محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، أخبرنا ابن وهب، أخبرنى جرير بن حازم، عن أبى إسحاق الهمدانى، عن أم يونس يعنى امرأته العالية بنت أيفع، أن عائشة زوج النبى ﷺ قالت لها أم محبة أم ولد لزيد بن أرقم: يا أم المؤمنين أتعرفين زيد بن أرقم؟ قالت: نعم، قالت: فإنى بعته عبدًا إلى العطاء بثمانمائة، فأحتاج إلى ثمنه، فاشتريته قبل محل الأجل بستمائة، فقالت: بئس ما شريت وبئس ما اشتريت، أبلغى زيدًا أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ، إن لم يتب، قال: فقلت أرأيت إن تركت المائتين وأخذت الستمائة؟ قالت: نعم ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ وهذا الأثر مشهور وهو دليل لمن حرم مسألة العينة، مع ما جاء فيها من الأحاديث المذكورة المقررة فى كتاب الأحكام، ولله الحمد والمنة، ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ أى إلى الربا ففعله بعد بلوغه نهى الله عنه، فقد استوجب العقوبة، وقامت عليه الحجة، ولهذا قال: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

وقد قال أبو داود[٢]: حدثنا يحيى بن معين، أخبرنا عبد الله بن رجاء المكى، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن أبى الزبير، عن جابر، قال: لما نزلت ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ قال رسول الله ﷺ «من لم يذر المخابرة فليؤذن بحرب من الله ورسوله» ورواه الحاكم[٣] فى مستدركه من حديث ابن خثيم، وقال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، وإنما حرمت المخابرة وهى المزارعة ببعض ما يخرج من الأرض والمزابنة: وهى اشتراء الرطب فى رءوس النخل وبالتمر على وجه الأرض، والمحاقلة وهى اشتراء الحب فى سنبله فى الحقل بالحب على وجه الأرض، إنما حرمت هذه الأشياء وما شاكلها حسمًا لمادة الربا، لأنه لا يعلم التساوى بين الشيئين قبل الجفاف، ولهذا قال الفقهاء: الجهل بالمماثلة كحقيقة المفاضلة، ومن هذا حرموا أشياء بما فهموا من تضييق المسالك المفضية إلى الربا والوسائل الموصلة إليه، وتفاوت نظرهم بحسب ما وهب الله لكل منهم من العلم.

وقد قال تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦] وباب الربا من أشكل الأبواب على كثير من أهل العلم، وقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب[٤] رضى الله عنه: ثلاث وددت أن رسول الله ﷺ عهد إلينا فيهن عهدًا ننتهى إليه: الجد، والكلالة، وأبواب من أبواب الربا - يعنى بذلك بعض المسائل التى فيها شائبة الربا - والشريعة شاهدة بأن كل حرام فالوسيلة إليه مثله، لأن ما أفضى

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) ضعيف: أبو داود (٣٤٠٦)، انظر ضعيف سنن أبي داود.

(٣) ضعيف: الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣١٤)، برقم (٣١٢٩)، انظر ضعيف الجامع (٥٨٤١).

(٤) البخاري (٥٥٨٨)، ومسلم (٣٠٣٢).

إلى الحرام حرام، كما أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. وقد ثبت فى الصحيحين [١] عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الحلال بين والحرام بين، وبين ذلك أمور مشتبهات، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام، كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه» وفى السنن [٢] عن الحسن بن على رضى الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول«دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» وفى الحديث الآخر [٣]: «الإثم ما حاك فى القلب وترددت فيه النفس وكرهت أن يطلع عليه الناس» وفى رواية [٤] «استفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك» وقال الثورى عن عاصم، عن الشعبى، عن ابن عباس، قال: آخر ما نزل على رسول الله ﷺ، آية الربا، رواه البخارى [٥] عن قبيصة عنه، وقال أحمد عن يحيى عن سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة عن سعيد بن المسيب، أن عمر قال: من آخر ما نزل، آية الربا، وإن رسول الله ﷺ قبض قبل أن يفسرها لنا، فدعوا الربا والريبة، وقال رواه ابن ماجه [٦] وابن مردويه من طريق هياج بن بسطام، عن داود بن أبى هند عن أبى نضرة عن أبى سعيد الخدرى، قال: خطبنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال: إنى لعلّى أنهاكم عن أشياء تصلح لكم، وآمركم بأشياء لا تصلح لكم، وإن من آخر القرآن نزولاً آية الربا، وإنه قد مات رسول الله ﷺ ولم يبينه لنا، فدعوا ما يريبكم، إلى ما لا يريبكم، وقد قال ابن أبى عدى بالإسناد موقوفًا، فذكره ورده الحاكم فى مستدركه، وقد قال ابن ماجه [٧]، حدثنا عمرو بن على الصيرفى، حدثنا ابن أبى عدى عن شعبة عن زبيد عن إبراهيم عن مسروق عن عبد الله، هو ابن مسعود، عن النبى ﷺ قال: «الربا ثلاثة وسبعون بابًا» ورواه الحاكم [٨] فى مستدركه: من حديث عمرو بن على الفلاس بإسناده مثله، وزاد «أيسرها أن ينكح الرجل أمه، وإن أربى الربا عرض الرجل المسلم» وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

وقال ابن ماجه [٩]: حدثنا عبد الله بن سعيد، حدثنا عبد الله بن إدريس، عن أبى معشر عن سعيد المقبرى، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ «الربا سبعون جزءًا، أيسرها أن ينكح الرجل أمه» وقال الإمام أحمد [١٠]: حدثنا هشيم عن عباد بن راشد، عن سعيد بن أبى خيرة، حدثنا الحسن منذ نحو أربعين أو خمسين سنة، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال «يأتى على الناس زمان يأكلون فيه الربا»، قال: قيل له: الناس كلهم؟ قال«من لم يأكله منهم ناله من غباره»، وكذا رواه أبو داود

---

(١) البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).
(٢) صحيح: الترمذي (٢٥١٨)، والنسائي (٥٧١١)، والدارمي (٢٥٣٢)، انظر صحيح جامع الترمذي.
(٣) أخرجه مسلم (٢٥٥٣)، من حديث النواس بن سمعان الأنصاري رضي الله عنه.
(٤) أورده العجلوني في «كشف الخفاء» وقال: رواه أحمد والطبراني وأبو يعلى وأبو نعيم عن وابصة مرفوعًا.
(٥) البخاري (٤٥٤٤).
(٦) صحيح: ابن ماجه (٢٢٧٦)، انظر صحيح سنن ابن ماجه.
(٧) صحيح: ابن ماجه (٢٢٧٥)، انظر صحيح سنن ابن ماجه.
(٨) صحيح: الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٤٣)، برقم (٢٢٥٩)، وانظر صحيح الترغيب والترهيب (١٨٥١).
(٩) صحيح: ابن ماجه (٢٢٧٤)، انظر صحيح سنن ابن ماجه.
(١٠) ضعيف: أحمد (١٠٠٣٨)، انظر ضعيف الترغيب والترهيب (١١٦٧).

والنسائى وابن ماجه[١]، من غير وجه، عن سعيد بن أبى خيرة، عن الحسن به، ومن هذا القبيل تحريم الوسائل المفضية إلى المحرمات، الحديث الذى رواه الإمام أحمد[٢]، حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش، عن مسلم بن صبيح عن مسروق عن عائشة، قالت: لما نزلت الآيات من آخر سورة البقرة فى الربا خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد فقرأهن، فحرم التجارة فى الخمر، وقد أخرجه الجماعة[٣]، سوى الترمذى، من طرق عن الأعمش به، وهكذا لفظ رواية البخارى عند تفسير هذه الآية، فحرم التجارة، وفى لفظ له عن عائشة، قالت: لما نزلت الآيات من آخر سورة البقرة فى الربا، قرأها رسول الله ﷺ على الناس، ثم حرم التجارة فى الخمر.

قال بعض من تكلم على هذا الحديث من الأئمة: لما حرم الربا ووسائله حرم الخمر وما يفضى إليه من تجارة ونحو ذلك، كما قال عليه السلام فى الحديث المتفق عليه[٤]: «لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها وأكلوا أثمانها» وقد تقدم فى حديث على وابن مسعود وغيرهما، عند لعن المحلّل فى تفسير قوله: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٠] قوله ﷺ «لعن الله آكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه»، قالوا: وما يشهد عليه ويكتب إلا إذا أظهر فى صورة عقد شرعى، ويكون داخله فاسدًا، فالاعتبار بمعناه لا بصورته، لأن الأعمال بالنيات، وفى الصحيح[٥]: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم، وأعمالكم» وقد صنف الإمام العلامة أبو العباس بن تيمية، كتابًا فى إبطال التحليل، تضمن النهى عن تعاطى الوسائل المفضية إلى كل باطل، وقد كفى فى ذلك، وشفى، فرحمه الله، ورضى عنه.

﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾

يخبر الله تعالى أنه يمحق الربا، أى يذهبه إما بأن يذهبه بالكلية من يد صاحبه، أو يحرمه بركة ماله فلا ينتفع به، بل يعدمه به فى الدنيا ويعاقبه عليه يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠] وقال تعالى: ﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾ [الأنفال: ٣٧] وقال ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٩] الآية.

وقال ابن جرير: فى قوله ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا﴾ وهذا نظير الخبر الذى روى عن عبد الله بن مسعود أنه قال: الربا وإن كثر فإن عاقبته تصير إلى قل، وهذا الحديث قد رواه الإمام أحمد[٦] فى مسنده، فقال:

---

(١) ضعيف: أبو داود (٣٣٣١)، والنسائي (٤٤٥٥)، وابن ماجه (٢٢٧٨)، انظر ضعيف سنن أبي داود.
(٢) صحيح: أحمد (٢٤١٧١).
(٣) البخاري (٤٥٤١)، ومسلم (١٥٨٠)، وأبو داود (٣٤٩٠)، والنسائي (٤٦٦٥)، وابن ماجه (٣٣٨٢)، وأحمد (٢٤٤٣٩)، والدارمي (٢٥٦٩).
(٤) سبق تخريجه.
(٥) مسلم (٢٥٦٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله
(٦) صحيح: أحمد (٣٧٤٥)، انظر صحيح الجامع (٣٥٤٢).

حدثنا حجاج. حدثنا شريك، عن الركين بن الربيع عن أبيه، عن ابن مسعود عن النبى ﷺ، قال: «إن الربا وإن كثر فإن عاقبته تصير إلى قل»، وقد رواه ابن ماجه [١]: عن العباس بن جعفر عن عمرو بن عون، عن يحيى بن زائدة عن إسرائيل عن الركين بن الربيع بن عميلة الفزارى، عن أبيه عن ابن مسعود عن النبى ﷺ، أنه قال «ما أحد أكثر من الربا إلا كان عاقبة أمره إلى قل»، وهذا من باب المعاملة، بنقيض المقصود، كما قال الإمام أحمد [٢]: حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم، حدثنا الهيثم بن نافع الطاطرى، حدثنى أبو يحيى رجل من أهل مكة، عن فروخ مولى عثمان، أن عمر وهو يومئذٍ أمير المؤمنين، خرج من المسجد فرأى طعامًا منشورًا، فقال: ما هذا الطعام؟ فقالوا: طعام جلب إلينا، قال: بارك الله فيه وفيمن جلبه، قيل: يا أمير المؤمنين إنه قد احتكر، قال: من احتكره؟ قالوا: فروخ مولى عثمان وفلان مولى عمر، فأرسل إليهما، فقال: ما حملكما على احتكار طعام المسلمين؟ قالا: يا أمير المؤمنين نشترى بأموالنا ونبيع، فقال عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالإفلاس أو بجذام»، فقال فروخ عند ذلك: أعاهد الله وأعاهدك أن لا أعود فى طعام أبدًا، وأما مولى عمر فقال: إنما نشترى بأموالنا ونبيع، قال أبو يحيى: فلقد رأيت مولى عمر مجذومًا، ورواه ابن ماجه [٣] من حديث الهيثم بن رافع به، ولفظه «من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالإفلاس والجذام».

وقوله ﴿وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ قرئ بضم الياء والتخفيف، من ربا الشىء يربو وأرباه يربيه، أى كثره ونماه ينميه، وقرئ يربى بالضم والتشديد من التربية، قال البخارى [٤]: حدثنا عبد الله بن منير، أخبرنا سمع أبا النضر، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار، عن أبيه عن أبى صالح عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، فإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوه، حتى يكون مثل الجبل» كذا رواه فى كتاب الزكاة، وقال فى كتاب التوحيد: وقال خالد [٥] بن مخلد بن سليمان بن بلال، عن عبد الله بن دينار فذكره بإسناده نحوه، وقد رواه مسلم [٦] فى الزكاة، عن أحمد بن عثمان بن حكيم، عن خالد بن مخلد، فذكره، قال البخارى [٧] ورواه مسلم بن أبى مريم، وزيد بن أسلم، وسهيل، عن أبى صالح، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ، قلت: أما رواية مسلم بن أبى مريم، فقد تفرد البخارى بذكرها، وأما طريق زيد بن أسلم، فرواها مسلم [٨] فى صحيحه، عن أبى الطاهر بن السرح عن أبى وهب، عن هشام بن سعيد عن زيد بن أسلم به، وأما حديث سهيل، فرواه مسلم [٩] عن قتيبة عن يعقوب بن عبد الرحمن عن سهيل به، والله أعلم.

---

(١) صحيح: ابن ماجه (٢٢٧٩)، انظر صحيح سنن ابن ماجه.
(٢) منكر: أحمد (١٣٦)، انظر ضعيف الترغيب والترهيب (١١٠٢).
(٣) ضعيف: ابن ماجه (٢١٥٥)، انظر ضعيف سنن ابن ماجه.
(٤) البخاري (١٤١٠).
(٥) البخاري (٧٤٢٩).
(٦) مسلم (١٠١٤).
(٧) البخاري (١٤١٠).
(٨) سبق تخريجه.
(٩) سبق تخريجه.

قال البخارى [١]: وقال ورقاء عن ابن دينار عن سعيد بن يسار، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ، وقد أسند هذا الحديث من هذا الوجه الحافظ أبو بكر البيهقى، عن الحاكم وغيره، عن الأصم، عن العباس المروزى، عن أبى النضر، هاشم بن القاسم، عن ورقاء وهو ابن عمر اليشكرى، عن عبد الله بن دينار، عن سعيد بن يسار، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يصعد إلى الله إلا الطيب، فإن الله يقبلها بيمينه فيربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فلّوه، حتى يكون مثل أحد» وهكذا روى هذا الحديث مسلم والترمذى والنسائى [٢] جميعا، عن قتيبة، عن الليث بن سعد، عن سعيد المقبرى، وأخرجه النسائى [٣] من رواية مالك، عن يحيى بن سعيد الأنصارى، ومن طريق يحيى القطان، عن محمد بن عجلان، ثلاثتهم عن سعيد بن يسار أبى الحباب المدنى، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ، فذكره، وقد روى عن أبى هريرة من وجه آخر.

فقال ابن أبى حاتم [٤]: حدثنا عمرو بن عبد الله الأودى، حدثنا وكيع، عن عباد بن منصور، حدثنا القاسم بن محمد قال: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ «إن الله عز وجل يقبل الصدقة، ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدكم كما يربى أحدكم مهره أو فلوه، حتى إن اللقمة لتصير مثل أحد» وتصديق ذلك فى كتاب الله ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ وكذا رواه أحمد [٥]، عن وكيع، وهو فى تفسير وكيع، ورواه الترمذى [٦]، عن أبى كريب عن وكيع به، وقال: حسن صحيح، وكذا رواه الثورى عن عباد بن منصور به، ورواه أحمد [٧] أيضًا عن خلف بن الوليد، عن ابن المبارك، عن عبد الواحد بن ضمرة وعباد بن منصور، كلاهما عن أبى نضرة، عن القاسم به، وقد رواه ابن جرير [٨]، عن محمد بن عبد الملك بن إسحاق، عن عبد الرزاق، عن معمر، عن أيوب، عن القاسم بن محمد، عن أبى هريرة، قال: قال رسول، الله ﷺ «إن العبد إذا تصدق من طيب يقبلها الله منه، فيأخذها بيمينه ويربيها كما يربى أحدكم مهره أو فصيله، وإن الرجل ليتصدق باللقمة فتربو فى يد الله، أو قال فى كف الله حتى تكون مثل أحد، فتصدقوا» وهكذا رواه أحمد [٩]: عن عبد الرزاق، وهذا طريق غريب صحيح الإسناد، ولكن لفظه عجيب، والمحفوظ ما تقدم، وروى عن عائشة أم المؤمنين، فقال الإمام أحمد [١٠]، حدثنا عبد الصمد، حدثنا عفان حدثنا حماد عن ثابت، عن

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) مسلم (١٠١٤)، والترمذي (٦٦١)، والنسائي (٢٥٢٥).
(٣) صحيح: النسائي في «الكبرى» (٤/ ٤١٣)، برقم (٧٧٣٥)، انظر الإرواء (٨٨٦).
(٤) عزاه المصنف لابن أبي حاتم.
(٥) صحيح: أحمد (٩٧٣٨)، انظر صحيح الجامع (١٩٠٢).
(٦) منكر: الترمذي (٦٦٢)، انظر ضعيف جامع الترمذي.
(٧) سبق تخريجه.
(٨) صحيح: ابن جرير (٣/ ١٠٥)، انظر صحيح الترغيب والترهيب.
(٩) أحمد (٧٥٧٨)، ورجاله ثقات.
(١٠) صحيح: أحمد (٢٥٦٠٤)، انظر صحيح الجامع (١٨١٥).

القاسم بن محمد، عن عائشة، أن رسول الله ﷺ قال: إن الله ليربى لأحدكم التمرة واللقمة كما يربى أحدكم فلّوه أو فصيله حتى يكون مثل أحد» تفرد به أحمد من هذا الوجه وقال البزار حدثنا يحيى بن المعلى بن منصور حدثنا إسماعيل حدثنى أبى عن يحيى بن سعيد عن عمرة عن عائشة عن النبى ﷺ وعن الضحاك بن عثمان عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «إن الرجل ليتصدق بالصدقة من الكسب الطيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، فيتلقاها الرحمن بيده، فيربيها كما يربى أحدكم فلّوه أو وصيفه» أو قال فصيله، ثم قال: لا نعلم أحدًا رواه عن يحيى بن سعيد عن عمرة إلا أبا أويس.

وقوله ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾، أى لا يحب كفور القلب أثيم القول والفعل، ولا بد من مناسبة فى ختم هذه الآية بهذه الصفة، وهى أن المرابى لا يرضى بما قسم الله له من الحلال، ولا يكتفى بما شرع له من الكسب المباح، فهو يسعى فى أكل أموال الناس بالباطل، بأنواع المكاسب الخبيثة، فهو جحود لما عليه من النعمة، ظلوم آثم بأكل أموال الناس بالباطل - ثم قال تعالى مادحًا للمؤمنين بربهم، المطيعين أمره المؤدين شكره، المحسنين إلى خلقه فى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، مخبرًا عما أعد لهم من الكرامة، وأنهم يوم القيامة من التبعات آمنون فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾

يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين بتقواه، ناهيًا لهم عما يقربهم إلى سخطه ويبعدهم عن رضاه، فقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أى خافوه وراقبوه فيما تفعلون ﴿وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾ أى اتركوا ما لكم على الناس من الزيادة على رءوس الأموال، بعد هذا الإنذار ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أى بما شرع الله لكم من تحليل البيع وتحريم الربا وغير ذلك، وقد ذكر زيد بن أسلم، وابن جريج ومقاتل بن حيان والسدى، أن هذا السياق نزل فى بنى عمرو بن عمير من ثقيف، وبنى المغيرة من بنى مخزوم، كان بينهم ربا فى الجاهلية، فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه، طلبت ثقيف أن تأخذه منهم، فتشاورا وقالت بنى المغيرة لا نؤدى الربا فى الإسلام بكسب الإسلام، فكتب فى ذلك عتاب بن أسيد، نائب مكة إلى رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية، فكتب بها رسول الله ﷺ إليه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ﴾ فقالوا نتوب إلى الله، ونذر ما بقى من الربا فتركوه كلهم، وهذا تهديد ووعيد أكيد، لمن استمر على تعاطى الربا بعد الإنذار قال ابن جريج: قال ابن عباس: ﴿فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ﴾، أى استيقنوا بحرب من الله و رسوله، وتقدم من رواية ربيعة بن كلثوم، عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، قال: يقال يوم القيامة لآكل الربا: خذ سلاحك للحرب، ثم قرأ ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ﴾ وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ﴾ فمن كان مقيما على الربا لا ينزع عنه، كان حقًا على

إمام المسلمين أن يستتيبه، فإن نزع وإلا ضرب عنقه، وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا هشام بن حسان، عن الحسن وابن سيرين، أنهما قالا: والله إن هؤلاء الصيارفة لأكلة الربا، وإنهم قد أذنوا بحرب من الله ورسوله، ولو كان على الناس إمام عادل لاستتابهم، فإن تابوا وإلا وضع فيهم السلاح.

وقال قتادة: أوعدهم الله بالقتل كما يسمعون، وجعلهم بهرجًا أينما أتوا، فإياكم ومخالطة هذه البيوع من الربا، فإن الله قد أوسع الحلال وأطابه، فلا يلجئنكم إلى معصيته فاقة. رواه ابن أبى حاتم، وقال الربيع بن أنس: أوعد الله آكل الربا بالقتل، رواه ابن جرير، وقال السهيلى: ولهذا قالت عائشة لأم محبة مولاة زيد بن أرقم فى مسألة العينة: أخبريه أن جهاده مع النبى ﷺ قد بطل إلا أن يتوب، فخصت الجهاد لأنه ضد قوله: ﴿فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ قال: وهذا المعنى ذكره كثير، قال: ولكن هذا إسناده إلى عائشة ضعيف.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ﴾ أى بأخذ الزيادة ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ أى بوضع رءوس الأموال أيضًا، بل لكم ما بذلتم من غير زيادة عليه ولا نقص منه، وقال ابن أبى حاتم[1]: حدثنا محمد بن الحسين بن أشكاب، حدثنا عبيد الله بن موسى عن شيبان، عن شبيب بن غرقدة المبارقى، عن سليمان بن عمرو بن الأحوص، عن أبيه، قال: خطب رسول الله ﷺ فى حجة الوداع، فقال «ألا إن كل ربًا كان فى الجاهلية موضوع عنكم كله، لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون، وأول ربا موضوع ربا العباس بن عبد المطلب، موضوع كله» وكذا وجده سليمان بن الأحوص، وقال ابن مردويه[2]: حدثنا الشافعى، حدثنا معاذ بن المثنى، أخبرنا مسدد، أخبرنا أبو الأحوص، حدثنا شبيب بن غرقدة، عن سليمان بن عمرو، عن أبيه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «ألا إن كلّ ربا من ربا الجاهلية موضوع، فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظلمون» وكذا رواه من حديث حماد بن سلمة عن على بن زيد، عن أبى حمزة الرقاشى عن عمر وهو ابن خارجة، فذكره.

وقوله ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾ يأمر تعالى بالصبر على المعسر الذى لا يجد وفاء، فقال ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ لا كما كان أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه إذا حل عليه الدين: إما أن تقضى وإما أن تربى، ثم يندب إلى الوضع عنه، ويعد على ذلك الخير والثواب الجزيل، فقال: ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أى وأن تتركوا رأس المال بالكلية وتضعوه عن المدين، وقد وردت الأحاديث من طرق متعددة عن النبى ﷺ بذلك.

(فالحديث الأول) عن أبى أمامة أسعد بن زرارة. قال الطبرانى[3]: حدثنا عبد الله بن محمد بن شعيب المرجانى، حدثنا يحيى بن حكيم المقوم، حدثنا محمد بن بكر البرسانى، حدثنا عبد الله بن

(١) صحيح: ابن أبي حاتم (٢/ ١٥٥)، برقم (٢٩٢٥).
(٢) عزاه المصنف لابن مردويه من رواية الشافعي عن معاذ بن المثنى عن مسدد.
(٣) صحيح: الطبراني في «الكبير» (١/ ٣٠٤)، برقم (٨٩٩)، انظر صحيح الترغيب والترهيب (٩١٢).

أبى زياد، حدثنى عاصم بن عبيد الله، عن أبى أمامة أسعد بن زرارة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من سره أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله، فليسر على معسر أو ليضع عنه».

(حديث آخر) عن بريدة. قال الإمام أحمد [١]: حدثنا عفان، حدثنا عبد الوارث، حدثنا محمد بن جحادة، عن سليمان بن بريدة، عن أبيه، قال: سمعت النبى ﷺ يقول «من أنظر معسرًا فله بكل يوم مثله صدقة» قال: ثم سمعته يقول: «من أنظر معسرًا فله بكل يوم مثلاه صدقة» قلت: سمعتك يا رسول الله تقول «من أنظر معسرًا فله بكل يوم مثله صدقة». ثم سمعتك تقول «من أنظر معسرًا فله بكل يوم مثلاه صدقة»، قال: «له لكل يوم مثله صدقة قبل أن يحل الدين، فإذا حل الدين فأنظره، فله بكل يوم مثلاه صدقة».

(حديث آخر) عن أبى قتادة الحارث بن ربعى الأنصارى. قال أحمد [٢]: حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا أبو جعفر الخطمى، عن محمد بن كعب القرظى، أن أبا قتادة كان له دين على رجل، وكان يأتيه يتقاضاه فيختبئ منه، فجاء ذات يوم فخرج صبى، فسأله عنه، فقال: نعم هو فى البيت يأكل خزيرة، فناداه، فقال: يا فلان، اخرج فقد أخبرت أنك هاهنا، فخرج إليه، فقال: ما يغيبك عنى؟ فقال إنى معسر وليس عندى شىء، قال: آلله إنك معسر؟ قال: نعم، فبكى أبو قتادة، ثم قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «من نفس عن غريمه، أو محا عنه، كان فى ظل العرش يوم القيامة»، ورواه مسلم [٣] فى صحيحه.

(حديث آخر) عن حذيفة بن اليمان، قال الحافظ أبو يعلى الموصلى: حدثنا الأخنس أحمد بن عمران، حدثنا محمد بن فضيل، حدثنا أبو مالك الأشجعى، عن ربعى بن خراش، عن حذيفة، قال: قال رسول الله ﷺ: «أتى الله بعبد من عبيده يوم القيامة قال: ماذا عملت فى الدنيا؟ فقال: ما عملت لك يا رب مثقال ذرة فى الدنيا أرجوك بها - قالها ثلاث مرات - قال العبد عند آخرها: يا رب إنك كنت أعطيتنى فضل مال، وكنت رجلاً أبايع الناس، وكان من خلقى الجواز، فكنت أيسر على الموسر وأنظر المعسر، قال: فيقول الله عز وجل: أنا أحق من ييسر، ادخل الجنة» [٤]. وقد أخرجه البخارى ومسلم وابن ماجه [٥] من طرق عن ربعى بن حراش، عن حذيفة، زاد مسلم وعقبة بن عامر وأبى مسعود البدرى عن النبى ﷺ بنحوه، ولفظ البخارى: حدثنا هشام بن عمار، حدثنا يحيى بن حمزة، حدثنا الزهرى عن عبد الله بن عبد الله، أنه سمع أبا هريرة رضى الله عنه، عن النبى ﷺ، قال: «كان تاجر يداين الناس، فإذا رأى معسرًا قال لفتيانه: تجاوزوا عنه لعل الله يتجاوز عنا، فتجاوز الله عنه».

(حديث آخر) عن سهل بن حنيف، قال الحاكم فى مستدركه [٦]: حدثنا أبو عبد الله محمد بن

---

(١) صحيح: أحمد (٢٢٥٣٧)، انظر الصحيحة (٨٦).
(٢) صحيح: أحمد (٢٢١١٧)، انظر صحيح الجامع (٦٥٧٦).
(٣) مسلم (١٥٦٣).
(٤) أورده الحافظ المنذري في «ترغيبه» (٢/ ٣٥٤)، برقم (٢٧٠٣)، انظر صحيح الترغيب والترهيب (١٧٥١).
(٥) البخاري (٢٠٧٧٧) ومسلم (١٥٦٠)، وابن ماجه (٢٤٢٠).
(٦) ضعيف: الحاكم في «المستدرك»، (٢/ ٢٣٦)، برقم (٢٨٦٠)، انظر السلسلة الضعيفة (٤٥٥٥).

يعقوب، حدثنا يحيى بن محمد بن يحيى، حدثنا أبو الوليد هشام بن عبد الملك، حدثنا عمرو بن ثابت، حدثنا عبد الله بن محمد بن عقيل، عن عبد الله بن سهل بن حنيف، أن سهلاً حدثه: أن رسول الله ﷺ، قال: «من أعان مجاهدًا فى سبيل الله أو غازيًا أو غارمًا فى عسرته أو مكاتبًا فى رقبته أظله الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله» ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(حديث آخر) عن عبد الله بن عمر، قال الإمام أحمد[١]: حدثنا محمد بن عبيد، عن يوسف بن صهيب، عن زيد العمى عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «من أراد أن تستجاب دعوته وأن تكشف كربته، فليفرج عن معسر». انفرد به أحمد.

(حديث آخر) عن أبى مسعود عقبة بن عمرو. قال الإمام أحمد[٢]: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا أبو مالك عن ربعى بن حراش، عن حذيفة، أن رجلاً أتى به الله عز وجل، فقال: ماذا عملت فى الدنيا؟ فقال له الرجل: ما عملت مثقال ذرة من خير، فقال ثلاثًا، وقال فى الثالثة: إنى كنت أعطيتنى فضلاً من المال فى الدنيا، فكنت أبايع الناس، فكنت أيسر على الموسر، وأنظر المعسر. فقال تبارك وتعالى: نحن أولى بذلك منك، تجاوزوا عن عبدى، فغفر له. قال أبو مسعود: هكذا سمعت من النبى ﷺ، وهكذا رواه مسلم[٣] من حديث أبى مالك سعد بن طارق به.

(حديث آخر) عن عمران بن حصين. قال الإمام أحمد[٤]: حدثنا أسود بن عامر، أخبرنا أبو بكر، عن الأعمش، عن أبى داود، عن عمران بن حصين قال، قال رسول الله ﷺ: «من كان له على رجل حق فأخره، كان له بكل يوم صدقة»، غريب من هذا الوجه، وقد تقدم عن بريدة نحوه.

(حديث آخر) عن أبى اليسر كعب بن عمرو. قال الإمام أحمد[٥]: حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا زائدة، عن عبد الملك بن عمير، عن ربعى، قال: حدثنا أبو اليسر، أن رسول الله ﷺ، قال «من أنظر معسرًا أو وضع عنه، أظله الله عز وجل فى ظله يوم لا ظل إلا ظله». وقد أخرجه مسلم[٦] فى صحيحه ومن وجه آخر من حديث عباد بن الوليد بن عبادة بن الصامت، قال: خرجت أنا وأبى نطلب العلم فى هذا الحى من الأنصار قبل أن يهلكوا، فكان أول من لقينا أبا اليسر صاحب رسول الله ﷺ، ومعه غلام له معه ضمامة من صحف، وعلى أبى اليسر بردة ومعافرى، وعلى غلامه بردة ومعافرى، فقال له أبى: يا عم، إنى أرى فى وجهك سفعة من غضب، قال: أجل كان لى على فلان بن فلان - الحرامي - مال، فأتيت أهله، فسلمت فقلت: أثم هو؟ قالوا: لا، فخرج على ابن له جفر، فقلت: أين أبوك؟ فقال: سمع صوتك فدخل أريكة أمى، فقلت: اخرج إلى فقد علمت أين أنت، فخرج، فقلت ما حملك على أن اختبأت منى؟ قال: أنا والله أحدثك ثم لا أكذبك، خشيت والله أن أحدثك فأكذبك أو أعدك فأخلفك، وكنت صاحب رسول الله ﷺ، وكنت والله معسرًا. قال: قلت: آلله.

---

(١) ضعيف: أحمد (٤٧٣٥)، انظر ضعيف الجامع (٥٣٨٧).
(٢) أحمد (١٦٦١٦)، ورجاله ثقات. (٣) مسلم (١٥٦٠).
(٤) أحمد (١٩٤٧٥)، وفيه أبو داود نفيع بن الحارث ضعفه بعضهم.
(٥) صحيح: أحمد (١٥٠٩٥)، انظر صحيح الجامع (٦١٠٦).
(٦) مسلم: (٣٠١٤).

قال: الله. قلت: آلله؟ قال: الله، ثم قال: فأتى بصحيفته فمحاها بيده، ثم قال: فإن وجدت قضاء فاقضني وإلا فأنت في حل، فأشهد بصر عيناى هاتان - ووضع أصبعيه على عينيه - وسمع أذناى هاتان، ووعاه قلبى - وأشار إلى نياط قلبه، رسول الله ﷺ وهو يقول: من أنظر معسرًا أو وضع عنه، أظله الله في ظله. وذكر تمام الحديث.

(حديث آخر) عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان، قال عبد الله بن الإمام أحمد[١]: حدثنى أبو يحيى البزاز محمد بن عبد الرحيم، حدثنا الحسن بن بشر سلم الكوفى، حدثنا العباس بن الفضل الأنصارى، عن هشام بن زياد القرشى، عن أبيه، عن محجن مولى عثمان، عن عثمان، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «أظل الله عبداً في ظله يوم لا ظل إلا ظله، من أنظر معسرًا، أو ترك لغارم».

(حديث آخر) عن ابن عباس. قال الإمام أحمد[٢]: حدثنا عبد الله بن يزيد، حدثنا نوح بن جعونة السلمى الخراسانى، عن مقاتل بن حيان، عن عطاء، عن ابن عباس، قال خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد وهو يقول بيده: هكذا، وأومأ عبد الرحمن بيده إلى الأرض «من أنظر معسرًا أو وضع عنه، وقاه الله من فيح جهنم ألا إن عمل الجنة حزن بربوة - ثلاثا - ألا إن عمل النار سهل بسهوة، والسعيد من وقى الفتن، وما من جرعة أحب إلى الله من جرعة غيظ يكظمها عبد، ما كظمها عبد لله إلا ملأ الله جوفه إيمانًا» تفرد به أحمد.

(طريق آخر) قال الطبرانى[٣]: حدثنا أحمد بن محمد البورانى قاضى الحديبية من ديار ربيعة، حدثنا الحسن بن على الصدائى، حدثنا الحكم بن الجارود، حدثنا ابن أبى المتثد خال ابن عيينة، عن أبيه، عن عطاء، عن ابن عباس قال: رسول الله ﷺ «من أنظر معسرًا إلى ميسرته أنظره الله بذنبه إلى توبته».

ثم قال تعالى يعظ عباده، ويذكرهم زوال الدنيا، وفناء ما فيها من الأموال وغيرها، وإتيان الآخرة، والرجوع إليه تعالى، ومحاسبته تعالى خلقه على ما عملوا، ومجازاته إياهم بما كسبوا من خير وشر، ويحذرهم عقوبته، فقال: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، وقد روى أن هذه الآية آخر آية نزلت من القرآن العظيم، فقال ابن لهيعة: حدثنى عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبير قال: آخر ما نزل من القرآن كله ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، وعاش النبى ﷺ بعد نزول هذه الآية تسع ليال، ثم مات يوم الإثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول، رواه ابن أبى حاتم، وقد رواه ابن مردويه من حديث المسعودى عن حبيب ابن أبى ثابت، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: آخر آية نزلت ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ وقد رواه النسائى[٤] من حديث يزيد النحوى، عن عكرمة، عن عبد الله بن عباس، قال:

---

(١) ضعيف: أحمد (٥٣٣)، انظر ضعيف الجامع (٩٢٠).

(٢) ضعيف جدًا: أحمد (٣٠٠٨)، انظر ضعيف الترغيب (٥٤٠).

(٣) ضعيف: الطبراني في «الكبير»، (١١/ ١٥١)، برقم (١١٣٣٠)، انظر ضعيف الترغيب والترهيب (٥٣٩).

(٤) صحيح: النسائي في «الكبرى» (٦/ ٣٠٧)، برقم (١١٠٥٨)، من طريقين عن الحسين بن واقد عن يزيد النحوى به.

آخر شيء نزل من القرآن ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، وكذا رواه الضحاك والعوفى عن ابن عباس، وروى الثورى عن الكلبى، عن أبى صالح، عن ابن عباس، قال: آخر آية نزلت ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ فكان بين نزولها وموت النبى ﷺ واحد وثلاثون يومًا، وقال ابن جريج قال ابن عباس آخر آية نزلت: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ الآية قال ابن جريج: يقولون: إن النبى ﷺ عاش بعدها تسع ليال وبدء يوم السبت ومات يوم الإثنين، رواه ابن جرير، ورواه ابن عطية عن أبى سعيد، قال آخر آية نزلت ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾

هذه الآية الكريمة أطول آية فى القرآن العظيم، وقد قال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرنى يونس عن ابن شهاب، قال حدثنى سعيد بن المسيب أنه بلغه أن أحدث القرآن بالعرش آية الدين. وقال الإمام أحمد [1]: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، عن على بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس أنه قال لما نزلت آية الدين: قال رسول الله ﷺ «إن أول من جحد آدم عليه السلام، إن الله لما خلق آدم مسح ظهره، فأخرج منه ما هو ذار إلى يوم القيامة، فجعل يعرض ذريته عليه فرأى فيهم رجلاً يزهر، فقال: أى رب من هذا؟ قال: هو ابنك داود، قال: أى رب، كم عمره، قال ستون عامًا، قال: رب زد فى عمره، قال: لا إلا أن أزيده من عمرك، وكان عمر آدم ألف سنة، فزاده أربعين عامًا، فكتب عليه بذلك كتابًا وأشهد عليه الملائكة، فلما احتضر آدم وأتته الملائكة، قال: إنه بقى من عمرى أربعون عامًا، فقيل له: إنك وهبتها لابنك داود، قال: ما فعلت، فأبرز الله عليه الكتاب وأشهد عليه الملائكة». وحدثنا أسود بن عامر، عن حماد بن سلمة، فذكره وزاد فيه «فأتمها الله لداود مائة وأتمها لآدم ألف سنة». وكذا رواه ابن أبى حاتم [2] عن يوسف بن أبى حبيب، عن أبى داود الطيالسى، عن حماد بن سلمة: هذا حديث غريب جدًا،

---

(١) صحيح: أحمد (٢٢٧٠)، انظر ظلال الجنة (٢٠٤).

(٢) عزاه المصنف لابن أبي حاتم عن يوسف بن أبي حبيب عن أبي داود الطيالسي عن حماد بن سلمة.

وعلى بن زيد بن جدعان فى أحاديثه نكارة، وقد رواه الحاكم [١] فى مستدركه بنحوه من حديث الحارث بن عبد الرحمن بن أبى وثاب عن سعيد المقبرى، عن أبى هريرة، ومن رواية أبى داود بن أبى هند، عن الشعبى عن أبى هريرة، ومن طريق محمد بن عمرو عن أبى سلمة، عن أبى هريرة، ومن حديث هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبى صالح، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ، فذكره بنحوه [٢].

فقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾ هذا إرشاد منه تعالى لعباده المؤمنين إذاتعاملوا بمعاملات مؤجلة أن يكتبوها، ليكون ذلك أحفظ لمقدارها وميقاتها وأضبط للشاهد فيها، وقد نبه على هذا فى آخر الآية حيث قال: ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾ وقال سفيان الثورى، عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس فى قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾ قال: أنزلت فى السلم إلى أجل غير معلوم، وقال قتادة عن أبى حسان الأعرج عن ابن عباس، قال: أشهد السلف المضمون إلى أجل مسمى أن الله أحله وأذن فيه، ثم قرأ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، رواه البخارى، وثبت فى الصحيحين [٣] من رواية سفيان بن عيينة عن ابن أبى نجيح، عن عبد الله بن كثير، عن أبى المنهال، عن ابن عباس، قال قدم النبى ﷺ المدينة وهم يسلفون فى الثمار السنة والسنتين والثلاث، فقال رسول الله ﷺ «من أسلف فليسلف فى كيل معلوم، ووزن معلوم، إلى أجل معلوم».

وقوله: ﴿فَٱكْتُبُوهُ﴾ أمر منه تعالى بالكتابة للتوثقة والحفظ، فإن قيل: فقد ثبت فى الصحيحين [٤] عن عبد الله بن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ «إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب» فما الجمع بينه وبين الأمر بالكتابة؟ فالجواب أن الدين من حيث هو غير مفتقر إلى كتابة أصلاً، لأن كتاب الله قد سهل الله ويسر حفظه على الناس، والسنن أيضًا محفوظة عن رسول الله ﷺ، والذى أمر الله بكتابته إنما هو أشياء جزئية تقع بين الناس، فأمروا أمر إرشاد لا أمر إيجاب كما ذهب إليه بعضهم، قال ابن جريج: من ادّان فليكتب، ومن ابتاع فليشهد، وقال قتادة: ذكر لنا أن أبا سليمان المرعشى كان رجلاً صحب كعبًا، فقال ذات يوم لأصحابه: هل تعلمون مظلومًا دعا ربه فلم يستجب له؟ فقالوا: وكيف يكون ذلك؟ قال: رجل باع بيعًا إلى أجل فلم يشهد ولم يكتب فلما حل ماله جحده صاحبه، فدعا ربه فلم يستجب له، لأنه قد عصى ربه، وقال أبو سعيد والشعبى والربيع بن أنس والحسن وابن جريج وابن زيد وغيرهم: كان ذلك واجبًا، ثم نسخ بقوله: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣] والدليل على ذلك أيضًا الحديث الذى حكى عن شرع من قبلنا مقررًا فى شرعنا ولم ينكر عدم الكتابة والإشهاد.

قال الإمام أحمد [٥]: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا ليث عن جعفر بن ربيعة، عن

---

(١) صحيح: الحاكم في «المستدرك» (١/ ١٣٢)، برقم (٢١٤)، انظر صحيح الجامع (٥٢٠٩).
(٢) لم أقف عليه.
(٣) البخاري (٢٢٤١)، ومسلم (١٦٠٤).
(٤) سبق تخريجه.
(٥) صحيح: أحمد (٨٣٨١)، انظر صحيح الجامع (٢٠٨١).

عبد الرحمن بن هرمز، عن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ ، أنه ذكر أن رجلاً من بنى إسرائيل سأل بعض بنى إسرائيل أن يسلفه ألف دينار، فقال: ائتنى بشهداء أشهدهم.

قال: كفى بالله شهيدًا، قال ائتنى بكفيل قال: كفى بالله كفيلا. قال: صدقت، فدفعها إلى أجل مسمى فخرج فى البحر فقضى حاجته ثم التمس مركبًا يقدم عليه للأجل الذى أجله فلم يجد مركبًا فأخذ خشبة فنقرها، فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة معها إلى صاحبها، ثم زجج موضعها، ثم أتى بها البحر، ثم قال: اللَّهم إنك قد علمت أنى استسلفت فلانًا ألف دينار، فسألنى كفيلاً فقلت: كفى بالله كفيلاً، فرضى بذلك وسألنى شهيدًا فقلت: كفى بالله شهيدًا، فرضى بذلك وإنى قد جهدت أن أجد مركبًا أبعث بها إليه بالذى أعطانى فلم أجد مركبًا وإنى استودعتكها، فرمى بها فى البحر حتى ولجت فيه، ثم انصرف وهو فى ذلك يطلب مركبًا إلى بلده، فخرج الرجل الذى كان أسلفه ينظر لعل مركبًا يجيئه بماله، فإذا بالخشبة التى فيها المال، فأخذها لأهله حطبًا، فلما كسرها وجد المال والصحيفة، ثم قدم الرجل الذى كان تسلف منه، فأتاه بألف دينار وقال: والله ما زلت جاهدًا فى طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركبًا قبل الذى أتيت فيه قال: هل كنت بعثت إلىّ بشىء؟ قال: ألم أخبرك أنى لم أجد مركبًا قبل الذى جئت فيه؟ قال: فإن الله قد أدى عنك الذى بعثت به فى الخشبة، فانصرف بألفك راشدًا، وهذا إسناد صحيح وقد رواه البخارى[1] فى سبعة مواضع من طرق صحيحة معلقًا بصيغة الجزم، فقال وقال الليث بن سعد فذكره، ويقال إنه فى بعضها عن عبد الله بن صالح كاتب الليث عنه.

وقوله: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾ أى بالقسط والحق ولا يجر فى كتابته على أحد، ولا يكتب إلا ما اتفقوا عليه من غير زيادة ولا نقصان. وقوله: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ فَلْيَكْتُبْ﴾[البقرة: ٢٨٢] أى ولا يمتنع من يعرف الكتابة إذا سئل أن يكتب للناس ولا ضرورة عليه فى ذلك، فكما علمه الله ما لم يكن يعلم، فليتصدق على غيره ممن لا يحسن الكتابة وليكتب، كما جاء فى الحديث «إن من الصدقة أن تعين صانعًا أو تصنع لأخرق»[2] وفى الحديث الآخر «من كتم علمًا يعلمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار»[3] وقال مجاهد وعطاء: واجب على الكاتب أن يكتب، وقوله: ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ أى وليملل المدين على الكاتب ما فى ذمته من الدين وليتق الله فى ذلك ﴿وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ أى لا يكتم منه شيئًا ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا﴾ محجورًا عليه بتبذير ونحوه ﴿أَوْ ضَعِيفًا﴾ أى صغيرًا، أو مجنونًا ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ﴾ إما لعى أو جهل بموضع صواب ذلك من خطئه ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾.

وقوله: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ أمر بالإشهاد مع الكتابة لزيادة التوثقة ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾ وهذا إنما يكون فى الأموال، وما يقصد به المال، وإنما أقيمت المرأتان مقام الرجل لنقصان عقل المرأة، كما قال مسلم[4] فى صحيحه: حدثنا قتيبة، حدثنا إسماعيل بن جعفر، عن

---

(١) البخاري تعليقًا، كتاب الزكاة، باب: ما يستخرج من البحر.

(٢) مسلم: (٨٤) بنحوه، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٣) صحيح: أحمد (١٠٢١٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، انظر صحيح الجامع (٦٢٨٤).

(٤) مسلم (٨٠).

عمرو بن أبى عمرو، عن المقبرى، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ، أنه قال «يا معشر النساء تصدقن وأكثرن الاستغفار، فإنى رأيتكن أكثر أهل النار» فقالت امرأة منهن جزلة: وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار؟ قال: «تكثرن اللعن، وتكفرن العشير، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذى لب منكن» قالت: يا رسول الله ما نقصان العقل والدين؟ قال «أما نقصان عقلها، فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل، فهذا نقصان العقل، وتمكث الليالى لا تصلى وتفطر فى رمضان فهذا نقصان الدين».

وقوله: ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ فيه دلالة على اشتراط العدالة فى الشهود، وهذا مقيد حكم به الشافعى على كل مطلق فى القرآن من الأمر بالإشهاد من غير اشتراط وقد استدل من رد المستور بهذه الآية الدالة على أن يكون الشاهد عدلاً مرضيًا. وقوله: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا﴾ يعنى المرأتين إذا نسيت الشهادة ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ أى يحصل لها ذكر بما وقع به من الإشهاد، وبهذا قرأ آخرون فتذكر بالتشديد من التذكار، ومن قال: إن شهادتها معها تجعلها كشهادة ذكر فقد أبعد. والصحيح الأول، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟﴾ قيل: معناه إذا دعوا للتحمل فعليهم الإجابة، وهو قول قتادة والربيع بن أنس، وهذا كقوله: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ فَلْيَكْتُبْ﴾ ومن ههنا استفيد أن تحمل الشهادة فرض كفاية، وهو مذهب الجمهور، والمراد بقوله: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟﴾ للأداء، لحقيقة قوله الشهداء، والشاهد حقيقة فيمن تحمل، فإذا دعى لأدائها فعليه الإجابة إذا تعينت وإلا فهو فرض كفاية، والله أعلم، وقال مجاهد وأبو مجلز وغير واحد: إذا دعيت لتشهد فأنت بالخيار، وإذا شهدت فدعيت فأجب، وقد ثبت فى صحيح مسلم والسنن[1] من طريق مالك، عن عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، عن أبيه عبد الله بن عمرو بن عثمان، عن عبد الرحمن بن أبى عمرة عن زيد بن خالد، أن رسول الله ﷺ، قال «ألا أخبركم بخير الشهداء؟ الذى يأتى بشهادته قبل أن يسألها» فأما الحديث الآخر فى الصحيحين[2] «ألا أخبركم بشر الشهداء؟ الذين يشهدون قبل أن يستشهدوا» وكذا قوله: «ثم يأتى قوم تسبق أيمانهم شهادتهم، وتسبق شهادتهم أيمانهم» وفى رواية «ثم يأتى قوم يشهدون ولا يستشهدون» وهؤلاء شهود الزور، وقد روى عن ابن عباس والحسن البصرى أنها تعم الحالين التحمل، والأداء.

وقوله: ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾ هذا من تمام الإرشاد وهو الأمر بكتابة الحق صغيرًا كان أو كبيرًا، فقال: ولا تسأموا أى لا تملوا أن تكتبوا الحق على أى حال كان من القلة والكثرة إلى أجله، وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟﴾ أى هذا الذى أمرناكم به من الكتابة للحق إذا كان مؤجلاً هو أقسط عند الله، أى أعدل وأقوم للشهادة، أى أثبت للشاهد إذا وضع خطه ثم رآه تذكر به الشهادة، لاحتمال أنه لو لم يكتبه أن ينساه، كما هو الواقع غالبًا ﴿وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟﴾ وأقرب إلى عدم الريبة بل ترجعون عند التنازع إلى الكتاب الذى كتبتموه فيفصل بينكم بلا ريبة.

---

(١) مسلم (١٧١٩)، وأبو داود (٣٥٩٦)، والترمذي (٢٢٩٧)، وابن ماجه (٢٣٦٤).

(٢) مسلم: (٢٥٣٤).

وقوله: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ أى إذا كان البيع بالحاضر يدًا بيد، فلا بأس بعدم الكتابة لانتفاء المحذور فى تركها.

فأما الإشهاد على البيع فقد قال تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوٓا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنى يحيى بن عبد الله بن بكير، حدثنى ابن لهيعة، حدثنى عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبير، فى قوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوٓا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ يعنى أشهدوا على حقكم إذا كان فى أجل أو لم يكن فيه أجل، فأشهدوا على حقكم على كل حال، قال وروى عن جابر بن زيد ومجاهد وعطاء والضحاك نحو ذلك.

وقال الشعبى والحسن: هذا الأمر منسوخ بقوله: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾[البقرة: ٢٨٣] وهذا الأمر محمول عند الجمهور على الإرشاد والندب لا على الوجوب، والدليل على ذلك حديث خزيمة بن ثابت الأنصارى، وقد رواه الإمام أحمد[١]: حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب عن الزهرى، حدثنى عمارة بن خزيمة الأنصارى أن عمه حدثه وهو من أصحاب النبى ﷺ. أن النبى ﷺ، ابتاع فرسًا من أعرابى، فاستتبعه النبى ﷺ ليقضيه ثمن فرسه، فأسرع النبى ﷺ وأبطأ الأعرابى، فطفق رجال يعترضون الأعرابى فيساومونه بالفرس، ولا يشعرون أن النبى ﷺ ابتاعه حتى زاد بعضهم الأعرابى فى السوم على ثمن الفرس الذى ابتاعه النبى ﷺ، فنادى الأعرابى النبى ﷺ فقال: إن كنت مبتاعًا هذا الفرس فابتعه وإلا بعته، فقال النبى ﷺ حين سمع نداء الأعرابى، قال: أوليس قد ابتعته منك؟ قال الأعرابى: لا والله ما بعتك، فقال النبى ﷺ «بل قد ابتعته منك» فطفق الناس يلوذون بالنبى ﷺ، والأعرابى، وهما يتراجعان فطفق الأعرابى يقول: هلم شهيدًا يشهد أنى بايعتك، فمن جاء من المسلمين قال للأعرابى: ويلك إن النبى ﷺ لم يكن يقول إلا حقًا حتى جاء خزيمة فاستمع لمراجعة النبى ﷺ ومراجعة الأعرابى يقول: هلم شهيدًا يشهد أنى بايعتك، قال خزيمة: أنا أشهد أنك قد بايعته، فأقبل النبى ﷺ على خزيمة فقال «بم تشهد» ؟ فقال: بتصديقك يا رسول الله فجعل رسول الله ﷺ شهادة خزيمة بشهادة رجلين، وهكذا رواه أبو داود[٢] من حديث شعيب والنسائى[٣] من رواية محمد بن الوليد الزبيدى، وكلاهما عن الزهرى به نحوه، ولكن الاحتياط هو الإرشاد لما رواه الإمامان الحافظ أبو بكر بن مردويه، والحاكم فى مستدركه[٤] من رواية معاذ بن معاذ العنبرى، عن شعبة عن فراس، عن الشعبى، عن أبى بردة، عن أبى موسى، عن النبى ﷺ، قال «ثلاثة يدعون الله فلا يستجاب لهم: رجل له امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها، ورجل دفع مال يتيم قبل أن يبلغ، ورجل أقرض رجلاً مالاً فلم يشهد» ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد على شرط الشيخين، قال: ولم يخرجاه لتوقيف أصحاب شعبة هذا الحديث على أبى موسى، وإنما أجمعوا على سند حديث شعبة بهذا الإسناد «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين».

---

(١) صحيح: أحمد (٢١٣٧٦).

(٢) صحيح: أبو داود (٣٦٠٧)، انظر صحيح سنن أبي داود.

(٣) صحيح: النسائي (٤٦٤٧)، انظر صحيح سنن النسائي.

(٤) صحيح: الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٣١)، برقم (٣١٨١)، انظر السلسلة الصحيحة (١٨٠٥).

وَقَوْلُه تَعَالَى: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ قيل: معناه لا يضارّ الكاتب ولا الشاهد، فيكتب هذا خلاف ما يملى، ويشهد هذا بخلاف ما سمع أو يكتمها بالكلية، وهو قول الحسن وقتادة وغيرهما. وقيل: معناه لا يضر بهما، قال ابن أبى حاتم: حدثنا أسيد بن عاصم، حدثنا الحسين يعنى ابن حفص، حدثنا سفيان عن يزيد بن أبى زياد، عن مقسم، عن ابن عباس، فى هذه الآية ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ قال: يأتى الرجل فيدعوهما إلى الكتاب والشهادة، فيقولان: إنا على حاجة، فيقول إنكما قد أمرتما أن تجيبا، فليس له أن يضارهما، قال: وروى عن عكرمة ومجاهد وطاووس وسعيد بن جبير والضحاك وعطية ومقاتل بن حيان والربيع بن أنس والسدى نحو ذلك، وقوله: ﴿وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾ أى إن خالفتم ما أمرتم به أو فعلتم ما نهيتم عنه، فإنه فسق كائن بكم، أى لازم لكم لا تحيدون عنه ولا تنفكون عنه، وقوله ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ أى خافوه وراقبوه واتبعوا أمره واتركوا زجره ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ كقوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِن تَتَّقُوا ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩] وكقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ [الحديد: ٢٨] وقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أى هو عالم بحقائق الأمور ومصالحها وعواقبها فلا يخفى عليه شىء من الأشياء بل علمه محيط بجميع الكائنات.

ثلاثة أرباع الحزب ٥

﴿۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أى مسافرين وتداينتم إلى أجل مسمى ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا﴾ يكتب لكم، قال ابن عباس: أو وجدوه ولم يجدوا قرطاسًا أو دواة أو قلمًا، فرهان مقبوضة، أى فليكن بدل الكتابة رهان مقبوضة أى فى يد صاحب الحق، وقد استدل بقوله: ﴿فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ على أن الرهن لا يلزم إلا بالقبض كما هو مذهب الشافعى والجمهور، واستدل بها آخرون على أنه لا بد أن يكون الرهن مقبوضًا فى يد المرتهن، وهو رواية عن الإمام أحمد، وذهب إليه طائفة، واستدل آخرون من السلف بهذه الآية، على أنه لا يكون الرهن مشروعًا إلا فى السفر، قاله مجاهد وغيره، وقد ثبت فى الصحيحين [(١)] عن أنس أن رسول الله ﷺ، توفى ودرعه مرهونة عند يهودى على ثلاثين وسقًا من شعير رهنها قوتًا لأهله، وفى رواية: من يهود المدينة. وفى رواية الشافعى عند أبى الشحم اليهودى، وتقرير هذه المسائل فى كتاب الأحكام الكبير، ولله الحمد والمنة، وبه المستعان. وقوله ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾ روى ابن أبى حاتم بإسناد جيد عن أبى سعيد الخدرى أنه قال: هذه نسخت ما قبلها. وقال الشعبى: إذا ائتمن بعضكم بعضًا فلا بأس أن لا تكتبوا أو لا تشهدوا: وقوله: ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ يعنى المؤتمن كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد وأهل السنن [(٢)] من رواية قتادة، عن الحسن عن سمرة أن رسول الله ﷺ، قال «على اليد ما أخذت حتى تؤديه».

---

(١) البخاري (٢٩١٦)، ومسلم (١٦٠٣)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) ضعيف: أبو داود (٣٥٦١)، والترمذي (١٢٦٦)، وابن ماجه (٢٤٠٠)، وأحمد (٩٥٨٢)، والدارمي (٢٥٩٦)، انظر ضعيف سنن أبي داود.

قوله: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ أى لا تخفوها وتغلوها، ولا تظهروها. قال ابن عباس وغيره: شهادة الزور من أكبر الكبائر وكتمانها كذلك، ولهذا قال ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ قال السدى: يعنى فاجر قلبه، وهذه كقوله تعالى: ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ﴾ [المائدة: ١٠٦] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥] وهكذا قال ههنا ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾

يخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض وما فيهن وما بينهن، وأنه المطلع على ما فيهن، لا تخفى عليه الظواهر ولا السرائر والضمائر وإن دقت وخفيت، وأخبر أنه سيحاسب عباده على ما فعلوه وما أخفوه فى صدورهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٩] وقال ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧] والآيات فى ذلك كثيرة جدًا، وقد أخبر فى هذه بمزيد على العلم وهو المحاسبة على ذلك، ولهذا لما نزلت هذه الآية اشتد ذلك على الصحابة رضى الله عنهم، وخافوا منها، ومن محاسبة الله لهم على جليل الأعمال وحقيرها، وهذا من شدة إيمانهم وإيقانهم.

قال الإمام أحمد [(١)]: حدثنا عفان، حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم، حدثنى أبو عبد الرحمن يعنى العلاء عن أبيه، عن أبى هريرة، قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله ﷺ، ثم جثوا على الركب وقالوا: يا رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطيق، الصلاة والصيام والجهاد والصدقة وقد أنزلت عليك هذه الآية، ولا نطيقها. فقال رسول الله ﷺ «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير» فلما أقر بها القوم وذلت بها ألسنتهم، أنزل الله فى أثرها ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥] فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل الله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦] إلى آخره. ورواه مسلم [(٢)] منفردًا به من حديث يزيد بن زريع، عن روح بن القاسم، عن العلاء، عن أبيه عن أبى هريرة، فذكر مثله ولفظه، فلما فعلوا ذلك نسخها الله، فأنزل الله ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن

(١) أحمد (٢٧٩٠٤)، وفيه عبد الرحمن بن إبراهيم اختلفوا فيه.
(٢) مسلم (١٢٥).

نَسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] قال: نعم، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] قال: نعم ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٦] قال: نعم ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦] قال: نعم.

(حديث ابن عباس فى ذلك) قال الإمام أحمد[1]: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان عن آدم بن سليمان، سمعت سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] قال دخل قلوبهم منها شيء لم يدخل قلوبهم من شيء، قال: فقال رسول الله ﷺ «قولوا سمعنا وأطعنا وسلمنا» فألقى الله الإيمان فى قلوبهم، فأنزل الله ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥] إلى قوله ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦] وهكذا رواه مسلم[2] عن أبى بكر بن أبى شيبة وأبى كريب وإسحاق بن إبراهيم، ثلاثتهم عن وكيع به، وزاد ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] قال: قد فعلت ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] قال: قد فعلت ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٦] قال: قد فعلت: ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦] قال: قد فعلت.

(طريق أخرى) عن ابن عباس. قال الإمام أحمد[3]: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر عن حميد الأعرج، عن مجاهد، قال: دخلت على ابن عباس، فقلت: يا أبا عباس، كنت عند ابن عمر فقرأ هذه الآية فبكى، قال: أية آية؟ قلت ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ قال ابن عباس: إن هذه الآية حين أنزلت، غمت أصحاب رسول الله ﷺ غمًا شديدًا وغاظتهم غيظًا شديدًا، وقالوا: يا رسول الله هلكنا إن كنا نؤاخذ بما تكلمنا وبما نعمل، فأما قلوبنا فليست بأيدينا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «قولوا سمعنا وأطعنا» فقالوا سمعنا وأطعنا، قال: فنسختهاهذه الآية ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥] إلى ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ﴾ [البقرة: ٢٨٦] فتجوز لهم عن حديث النفس وأخذوا بالأعمال.

(طريق أخرى) عنه. قال ابن جرير[4]: حدثنى يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرنى يونس بن يزيد، عن ابن شهاب، عن سعيد بن مرجانة، سمعه يحدث: أنه بينما هو جالس مع عبد الله بن عمر تلا هذه الآية ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ الآية، فقال: والله لئن واخذنا الله بهذا لنهلكن، ثم بكى ابن عمر حتى سمع نشيجه، قال ابن مرجانة: فقمت حتى أتيت ابن عباس، فذكرت له ما قال ابن عمر وما فعل حين تلاها، فقال ابن عباس: يغفر الله لأبى عبد الرحمن لعمرى لقد وجد المسلمون منها حين أنزلت مثل ما وجد عبد الله بن عمر، فأنزل الله بعدها ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] إلى آخر السورة. قال ابن عباس: فكانت هذه الوسوسة مما لا طاقة للمسلمين بها، وصار الأمر إلى أن قضى الله عز وجل أن

---

(١) أحمد (٢٠٧١)، ورجاله ثقات.
(٢) مسلم (١٢٦).
(٣) أحمد (٣٠٦١)، ورجاله ثقات.
(٤) صحيح: ابن جرير (٣/ ١٤٣- ١٤٤).

للنفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت فى القول والفعل.

(طريق أخرى) قال ابن جرير[١] : حدثنى المثنى، حدثنا إسحاق، حدثنا يزيد بن هارون، عن سفيان بن حسين، عن الزهرى، عن سالم، أن أباه قرأ ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ فدمعت عيناه، فبلغ صنيعه ابن عباس فقال: يرحم الله أبا عبد الرحمن لقد صنع كما صنع أصحاب رسول الله ﷺ حين أنزلت، فنسخِتها الآية التى بعدها ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] فهذه طرق صحيحة عن ابن عباس، وقد ثبت عن ابن عمر كما ثبت عن ابن عباس قال البخارى[٢] : حدثنا إسحاق، حدثنا روح، حدثنا شعبة عن خالد الحذاء، عن مروان الأصغر، عن رجل من أصحاب النبى ﷺ أحسبه ابن عمر ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ قال: نسختها الآية التى بعدها ، وهكذا روى عن على وابن مسعود وكعب الأحبار والشعبى والنخعى ومحمد بن كعب القرظى وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة، أنها منسوخة بالتى بعدها، وقد ثبت بما رواه الجماعة[٣] فى كتبهم الستة من طريق قتادة، عن زرارة بن أبى أوفى عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله تجاوز لى عن أمتى ما حدثت به أنفسها ما لم تكلم أو تعمل» .

وفى الصحيحين[٤] من حديث سفيان بن عيينة، عن أبى الزناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ «قال الله: إذا همّ عبدى بسيئة فلا تكتبوها عليه، فإن عملها فاكتبوها سيئة، وإذا هم بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة، فإن عملها فاكتبوها عشرًا» لفظ مسلم وهو فى إفراده من طريق إسماعيل بن جعفر، عن العلاء، عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ ، قال «قال الله: إذا هم عبدى بحسنة ولم يعملها كتبتها له حسنة، فإن عملها كتبتها له عشر حسنات، إلى سبعمائة ضعف، وإذا هم بسيئة فلم يعملها لم أكتبها عليه، فإن عملها كتبتها سيئة واحدة» . وقال عبد الرزاق[٥] : أخبرنا معمر عن همام بن منبه، قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة عن محمد رسول الله ﷺ ، قال «قال الله: إذا تحدث عبدى بأن يعمل حسنة فأنا أكتبها له حسنة ما لم يعمل، فإذا عملها فأنا أكتبها بعشر أمثالها، وإذا تحدث بأن يعمل سيئة فأنا أغفرها له ما لم يعملها، فإن عملها فأنا أكتبها له بمثلها» . وقال رسول الله ﷺ «قالت الملائكة: رب وذاك أن عبدك، يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر به فقال: ارقبوه، فإن عملها فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها فاكتبوها له حسنة، وإنما تركها من جراى» . وقال رسول الله ﷺ «إذا أحسن أحد إسلامه، فإن له بكل حسنة يعملها تكتب له بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وكل سيئة تكتب بمثلها حتى يلقى الله عز وجل» تفرد به مسلم[٦] عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق بهذا السياق واللفظ، وبعضه فى صحيح البخارى[٧] .

---

(١) ابن جرير (٣/ ١٤٥).
(٢) البخاري (٤٥٤٦).
(٣) البخاري (٥٢٦٩)، ومسلم (١٢٧)، وأبو داود (٢٢٠٩)، والترمذي (١١٨٣)، والنسائي (٣٤٣٤)، وابن ماجه (٢٠٤٠).
(٤) البخاري (٧٥٠١)، ومسلم (١٢٨).
(٥) صحيح: من هذا الطريق أخرجه البيهقي في «الشعب»، (٥/ ٣٨٩)، برقم (٧٠٤٥)، انظر صحيح الترغيب والترهيب.
(٦) مسلم (١٢٩).
(٧) البخاري (٤٢).

وقال مسلم [١] أيضًا: حدثنا أبو كريب، حدثنا خالد الأحمر، عن هشام، عن ابن سيرين، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ «من همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، ومن هم بحسنة فعملها كتبت له عشرًا إلى سبعمائة ضعف، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب له، وإن عملها كتبت» تفرد به مسلم دون غيره من أصحاب الكتب.

وقال مسلم [٢] أيضًا: حدثنا شيبان بن فروخ، حدثنا عبد الوارث عن الجعد أبى عثمان، حدثنا أبو رجاء العطاردى عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ فيما يروى عن ربه تعالى، قال «إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وإن همّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة، وإن همّ بها فعملها، كتبها الله عنده سيئة واحدة» ثم رواه مسلم [٣] عن يحيى بن يحيى، عن جعفر بن سليمان، عن الجعد أبى عثمان فى هذا الإسناد بمعنى حديث عبد الرزاق، زاد «ومحاها الله ولا يهلك على الله إلا هالك» وفى حديث سهيل عن أمية، عن أبى هريرة، قال: جاء ناس من أصحاب رسول الله ﷺ، فسألوه فقالوا: إنا نجد فى أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، قال «وقد وجدتموه؟» قالوا: نعم، قال «ذاك صريح الإيمان» لفظ مسلم، وهو عند مسلم [٤] أيضًا من طريق الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ به، وروى مسلم [٥] أيضًا من حديث مغيرة، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله، قال: سئل رسول الله ﷺ عن الوسوسة، قال «تلك صريح الإيمان».

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ فإنها لم تنسخ، ولكن الله إذا جمع الخلائق يوم القيامة يقول: إنى أخبركم بما أخفيتم فى أنفسكم مما لم يطلع عليه ملائكتى، فأما المؤمنون فيخبرهم ويغفر لهم ما حدثوا به أنفسهم، وهو قوله ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ يقول: يخبركم، وأما أهل الشك والريب فيخبرهم بما أخفوا من التكذيب، وهو قوله ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ وهو قوله ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥] أى من الشك والنفاق. وقد روى العوفى والضحاك عنه قريبًا من هذا.

وروى ابن جرير عن مجاهد والضحاك نحوه، وعن الحسن البصرى أنه قال: هى محكمة لم تنسخ، واختار ابن جرير ذلك واحتج على أنه لا يلزم من المحاسبة المعاقبة، وأنه تعالى قد يحاسب ويغفر، وقد يحاسب ويعاقب، بالحديث الذى رواه عند هذه الآية قائلاً [٦]: حدثنا ابن بشار، حدثنا ابن أبى عدى عن سعيد بن هشام (ح) وحدثنى يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن علية، حدثنا ابن هشام، قالا جميعًا فى حديثهما عن قتادة عن صفوان بن محرز، قال: بينما نحن نطوف بالبيت مع عبد الله بن عمر وهو يطوف، إذ عرض له رجل فقال: يا ابن عمر، ما سمعت رسول الله ﷺ يقول فى النجوى، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «يدنو المؤمن من ربه عز وجل حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه

---

(١) مسلم (١٣٠).
(٢) مسلم (١٣١).
(٣) انظر المصدر السابق.
(٤) مسلم (١٣٢).
(٥) مسلم (١٣٣).
(٦) ابن جرير (١٢/ ٢١).

فيقول له: هل تعرف كذا؟ فيقول: رب أعرف، مرتين، حتى إذا بلغ به ما شاء الله أن يبلغ، قال: فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا وإنى أغفرها لك اليوم، قال: فيعطى صحيفة حسناته أو كتابه بيمينه، وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رءوس الأشهاد ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨] وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين[١] وغيرهما من طرق متعددة عن قتادة به، وقال ابن أبى حاتم[٢]: حدثنا أبى، حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن سلمة عن على بن زيد، عن أبيه، قال: سألت عائشة عن هذه الآية ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ قالت: ما سألنى عنها أحد منذ سألت رسول الله ﷺ عنها، فقالت: هذه مبايعة الله العبد وما يصيبه من الحمى والنكبة، والبضاعة يضعها فى يد كمه فيفقدها، فيفزع لها ثم يجدها فى ضبنته حتى إن المؤمن ليخرج من ذنوبه كما يخرج التبر الأحمر من الكير، وكذا رواه الترمذى وابن جرير[٣] من طريق حماد بن سلمة به، وقال الترمذى: غريب لا نعرفه إلا من حديثه.

(قُلْتُ) وشيخه على بن زيد بن جدعان ضعيف يغرب فى رواياته، وهو يروى هذا الحديث عن امرأة أبيه أم محمد أمية بنت عبد الله، عن عائشة، وليس لها عنها فى الكتب سواه.

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾

(ذكر الأحاديث الواردة فى فضل هاتين الآيتين الكريمتين نفعنا الله بهما)

(الحديث الأول) - قال البخارى[٤]: حدثنا محمد بن كثير، أخبرنا شعبة عن سليمان، عن إبراهيم، عن عبد الرحمن، عن ابن مسعود، عن النبى ﷺ، قال «من قرأ الآيتين» وحدثنا أبو نعيم: حدثنا سفيان، عن منصور، عن إبراهيم عن عبد الرحمن بن يزيد، عن أبى مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ «من قرأ بالآيتين - من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه» وقد أخرجه بقية الجماعة[٥] من طريق سليمان بن مهران الأعمش بإسناده مثله وهو فى الصحيحين[٦] من طريق الثورى، عن منصور، عن إبراهيم، عن عبد الرحمن عنه به، وهو فى الصحيحين[٧] أيضًا عن عبد الرحمن، عن علقمة،

(١) البخاري (٤٦٨٥)، ومسلم (٢٧٦٨).

(٢) ضعيف: ابن أبي حاتم (٢/ ٥٧٤)، برقم (٣٠٦٢)، وفيه علي بن زيد بن جدعان: ضعيف، وأمية بنت عبد الله لم يذكرها أحد بجرح ولا تعديل.

(٣) ضعيف: الترمذي (٢٩٩١)، وابن جرير، (٣/ ١٤٩)، انظر ضعيف جامع الترمذي.

(٤) البخاري (٥٠١٠).

(٥) مسلم (٨٠٨)، وأبو داود (١٣٩٧)، والترمذي (٢٨٨١)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة»، (١/ ٤٣٧)، برقم (٧١٩)، وابن ماجه (١٣٦٩)، وأحمد (١٦٦٤٢)، والدارمي (١٤٨٧).

(٦) البخاري (٥٠١٠)، ومسلم (٨٠٧).

(٧) البخاري (٥٠٤٠)، ومسلم (٨٠٨).

عن ابن مسعود، قال عبد الرحمن: ثم لقيت أبا مسعود فحدثنى به، وهكذا رواه أحمد بن حنبل[١]، حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا شريك، عن عاصم، عن المسيب بن رافع، عن علقمة، عن ابن مسعود، عن النبى ﷺ، قال «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلته كفتاه».

(الحديث الثانى) - قال الإمام أحمد[٢]: حدثنا حسين، حدثنا شيبان، عن منصور، عن ربعى، عن خرشة بن الحر، عن المعرور بن سويد، عن أبى ذر، قال: قال رسول الله ﷺ «أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يعطهن نبى قبلى» قد رواه ابن مردويه من حديث الأشجعى، عن الثورى، عن منصور، عن ربعى، عن زيد بن ظبيان، عن أبى ذر، قال: قال رسول الله ﷺ «أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش».

(الحديث الثالث) - قال مسلم[٣]: حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة، حدثنا أبو أسامة، حدثنا مالك بن مغول (ح) وحدثنا ابن نمير وزهير بن حرب، جميعًا عن عبد الله بن نمير، وألفاظهم متقاربة، قال ابن نمير: حدثنا أبى، حدثنا مالك بن مغول عن الزبير بن عدى، عن طلحة، عن مرة، عن عبد الله، قال: لما أسرى برسول الله ﷺ، انتهى به إلى سدرة المنتهى، وهى فى السماء السادسة، إليها ينتهى ما يعرج من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهى ما يهبط من فوقها فيقبض منها، قال ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾[النجم: ١٦] قال: فراش من ذهب، قال: أعطى رسول الله ﷺ ثلاثًا: أعطى الصلوات الخمس، وأعطى خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئًا المقحمات.

(الحديث الرابع) قال أحمد[٤] حدثنا إسحاق بن إبراهيم الرازى حدثنا سلمة بن الفضل حدثنى محمد بن إسحاق عن يزيد أبى حبيب عن مرثد بن عبد الله اليزنى عن عقبة بن عامر الجهنى قال: قال رسول الله ﷺ «اقرأ الآيتين من آخر سورة البقرة فإنى أعطيتهما من كنز تحت العرش» هذا إسناد حسن ولم يخرجوه فى كتبهم.

(الحديث الخامس) - قال ابن مردويه[٥]: حدثنا أحمد بن كامل، حدثنا إبراهيم بن إسحاق الحربى، أخبرنا مروان، أنبأنا ابن عوانة عن أبى مالك، عن ربعى، عن حذيفة، قال: قال رسول الله ﷺ: «فضلنا على الناس بثلاث أوتيت هذه الآيات من آخر سورة البقرة من بيت كنز تحت العرش، لم يعطها أحد قبلى، ولا يعطاها أحد بعدى» ثم رواه من حديث نعيم بن أبى هند عن ربعى عن حذيفة بنحوه.

(الحديث السادس) - قال ابن مردويه[٦]: حدثنا عبد الباقى بن نافع، أنبأنا إسماعيل بن الفضل، أخبرنا محمد بن بزيع، أخبرنا جعفر بن عون عن مالك بن مغول، عن أبى إسحاق، عن الحارث،

---

(١) صحيح: أحمد (١٦٦٢٠)، انظر صحيح الترغيب والترهيب (١٥٨٦).
(٢) صحيح: أحمد (٢٠٨٣٨). (٣) مسلم (١٧٣).
(٤) أحمد (١٦٨٧٣)، ورجاله ثقات عدا سلمة بن الفضل: صدوق يخطئ.
(٥) صحيح: النسائي في «الكبرى» (٥/ ١٥)، برقم (٨٠٢٢)، انظر صحيح الجامع (٤٢٢٣).
(٦) الإسناد الأول: فيه الحارث الأعور وهو متهم بالكذب. والإسناد الثاني رجاله ثقات عدا عمير بن عمرو فلم أعرفه. وكلا الإسنادين مداره على أبي إسحاق مدلس وقد عنعنه والحديث عزاه السيوطي في «الدر المنثور» إلى الدارمي ومحمد بن نصر وابن الضريس.

عن على، قال: لا أرى أحدًا عقل الإسلام ينام حتى يقرأ آية الكرسى خواتيم سورة البقرة، فإنها من كنز أعطيه نبيكم ﷺ من تحت العرش، ورواه وكيع فى تفسيره عن إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن عمير بن عمرو المخارقى، عن على، قال: ما أرى أحدًا يعقل، بلغه الإسلام، ينام حتى يقرأ آية الكرسى وخواتيم سورة البقرة، فإنها من كنز تحت العرش.

(الحديث السابع) - قال أبو عيسى الترمذى[1]: حدثنا بندار حدثنا عبد الرحمن بن مهدى، حدثنا حماد بن سلمة عن أشعث بن عبد الرحمن الجرمى، عن أبى قلابة، عن أبى الأشعث الصنعانى، عن النعمان بن بشير عن النبى ﷺ، قال: «إن الله كتب كتابًا قبل أن يخلق السموات والأرض بألفى عام، أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة، ولا يقرأ بهن فى دار ثلاث ليال فيقربها شيطان» ثم قال: هذا حديث غريب، وهكذا رواه الحاكم[2] فى مستدركه من حديث حماد بن سلمة به وقال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه.

(الحديث الثامن) قال ابن مردويه: حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن مدين، أخبرنا الحسن بن الجهم، أخبرنا إسماعيل بن عمرو، أخبرنا ابن مريم، حدثنى يوسف بن أبى الحجاج، عن سعيد، عن ابن عباس، قال: كان رسول الله ﷺ إذا قرأ سورة البقرة وآية الكرسى ضحك وقال: «إنهما من كنز الرحمن تحت العرش» وإذا قرأ ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣] ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ [النجم: ٣٩-٤١] استرجع واستكان.

(الحديث التاسع) قال ابن مردويه: حدثنا عبد الله بن محمد بن كوفى، حدثنا أحمد بن يحيى بن حمزة، حدثنا محمد بن بكر، حدثنا مكى بن إبراهيم، حدثنا عبد الله بن أبى حميد، عن أبى مليح، عن معقل بن يسار، قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة من تحت العرش والمفصل نافلة».

(الحديث العاشر) - قد تقدم فى فضائل الفاتحة من رواية عبد الله بن عيسى بن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: بينا رسول الله ﷺ وعنده جبريل إذ سمع نقيضًا فوقه، فرفع جبريل بصره إلى السماء، فقال له فقال هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط قال فنزل من ملك فأتى النبي ﷺ فقال له: أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبى قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ حرفًا منهما إلا أوتيته. رواه مسلم والنسائى[3] وهذا لفظه.

(الحديث الحادى العاشر) قال أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى[4] فى مسنده: حدثنا أبو مغيرة، حدثنا صفوان، حدثنا أيفع بن عبد الله الكلاعى قال: رجل: يا رسول الله، آية فى كتاب الله أعظم؟ قال: «آية الكرسى ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾» قال: فأى آية فى كتاب الله تحب أن تصيبك وأمتك، قال: «آخر سورة البقرة، ولم يترك خير فى الدنيا والآخرة إلا اشتملت عليه».

---

(١) صحيح: الترمذي (٢٨٨٢)، انظر صحيح جامع الترمذي.

(٢) صحيح: الحاكم في «المستدرك» (١/ ٧٥٠)، برقم (٢٠٦٥)، انظر صحيح الجامع (١٧٩٩).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) الدارمي (٣٣٨٠)، وفيه أيفع بن عبد الكلاعي، قال الأزدي: لا يصح حديثه، وسكت عنه ابن أبي حاتم.

فقوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ إخبار عن النبى ﷺ بذلك، قال ابن جرير [١]: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد عن قتادة، قال: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ، قال لما نزلت عليه هذه الآية «ويحق له أن يؤمن» وقد روى الحاكم فى مستدركه [٢]: حدثنا أبو النضر الفقيه، حدثنا معاذ بن نجدة القرشى، حدثنا خلاد بن يحيى، حدثنا أبو عقيل عن يحيى بن أبى كثير، عن أنس بن مالك، قال: لما نزلت هذه الآية على النبى ﷺ ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ قال النبى ﷺ: «حق له أن يؤمن»، ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وقوله ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ عطف على الرسول، ثم أخبر عن الجميع فقال ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ فالمؤمنون يؤمنون بأن الله واحد أحد، فرد صمد، لا إله غيره، ولا رب سواه. ويصدقون بجميع الأنبياء والرسل والكتب المنزلة من السماء على عباد الله المرسلين والأنبياء، لا يفرقون بين أحد منهم، فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، بل الجميع عندهم صادقون بارّون راشدون مهديون هادون إلى سبيل الخير، وإن كان بعضهم ينسخ شريعة بعض بإذن الله حتى نسخ الجميع بشرع محمد ﷺ، خاتم الأنبياء والمرسلين، الذين تقوم الساعة على شريعته، ولا تزال طائفة من أمته على الحق ظاهرين، وقوله ﴿وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أى سمعنا قولك يا ربنا وفهمناه، وقمنا به وامتثلنا العمل بمقتضاه، ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ سؤال للمغفرة والرحمة واللطف، قال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن حرب الموصلى، حدثنا ابن فضيل عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس فى قول الله ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ - إلى قوله - ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ قال: قد غفرت لكم ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أى المرجع والمآب يوم الحساب.

قال ابن جرير [٣]: حدثنا ابن حميد، حدثنا جرير عن بيان، عن حكيم، عن جابر، قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ قال جبريل: إن الله قد أحسن الثناء عليك وعلى أمتك فسل تعطه، فسأل ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إلى آخر هذه الآية، وقوله ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أى لا يكلف أحدًا فوق طاقته، وهذا من لطفه تعالى بخلقه ورأفته بهم وإحسانه إليهم، وهذه هى الناسخة الرافعة لما كان أشفق منه الصحابة فى قوله ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] أى هو وإن حاسب وسأل، لكن لا يعذب إلا بما يملك الشخص دفعه، فأما ما لا يملك دفعه من وسوسة النفس وحديثها، فهذا لا يكلف به الإنسان، وكراهية الوسوسة السيئة من الإيمان، وقوله ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ أى من خير ﴿وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ أى من شر وذلك فى الأعمال التى تدخل تحت التكليف. ثم قال تعالى مرشدًا عباده إلى سؤاله، وقد تكفل لهم بالإجابة كما أرشدهم وعلمهم أن يقولوا ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾

---

(١) **ضعيف**: ابن جرير (٣/ ١٥١)، وفيه انقطاع حيث قال قتادة: بلغنا ولم يذكر السند.

(٢) **ضعيف**: الحاكم في «المستدرك»، (٢/ ٣١٥)، برقم (٣١٣٤)، وفيه يحيى بن أبي كثير يرسل وهو لم يسمع من أنس.

(٣) **مرسل**: ابن جرير (٣/ ١٥٣)، عن حكيم بن جابر هو مرسل.

أى إن تركنا فرضًا على جهة النسيان، أو فعلنا حرامًا كذلك، أو أخطأنا أى الصواب فى العمل جهلًا منا بوجهه الشرعى. وقد تقدم فى صحيح مسلم [١] من حديث أبى هريرة، قال «قال الله: نعم» ولحديث ابن عباس، قال الله «قد فعلت».

وروى ابن ماجه فى سننه وابن حبان فى صحيحه [٢] من حديث أبى عمرو الأوزاعى، عن عطاء قال ابن ماجه فى روايته عن ابن عباس، وقال الطبرانى وابن حبان، عن عطاء، عن عبيد بن عمير، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله وضع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» وقد روى من طريق آخر وأعله أحمد وأبو حاتم [٣]، والله أعلم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا أبو بكر الهذلى، عن شهر، عن أم الدرداء، عن النبى ﷺ، قال «إن الله تجاوز لأمتى عن ثلاث: عن الخطأ والنسيان، والاستكراه» قال أبو بكر: فذكرت ذلك للحسن، فقال: أجل، أما تقرأ بذلك قرآنا ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.

وقوله ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ أى لا تكلفنا من الأعمال الشاقة وإن أطقناها كما شرعته للأمم الماضية قبلنا من الأغلال والآصار التى كانت عليهم، التى بعثت نبيك محمدًا ﷺ، نبى الرحمة بوضعه فى شرعه الذى أرسلته به من الدين الحنيفى السهل السمح، وقد ثبت فى صحيح مسلم [٤] عن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ، قال «قال الله: نعم» وعن ابن عباس [٥]، عن رسول الله ﷺ، قال «قال الله قد فعلت». وجاء فى الحديث من طرق عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بعثت بالحنيفية السمحة» [٦].

وقوله ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ أى من التكليف والمصائب والبلاء لا تبتلنا بما لا قبل لنا به، وقد قال مكحول فى قوله ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ قال: العزبة والغلمة، رواه ابن أبى حاتم، قال الله: نعم، وفى الحديث الآخر: قال الله: قد فعلت.

وقوله ﴿وَٱعْفُ عَنَّا﴾ أى فيما بيننا وبينك مما تعلمه من تقصيرنا وزللنا ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ أى فيما بيننا وبين عبادك فلا تظهرهم على مساوينا وأعمالنا القبيحة ﴿وَٱرْحَمْنَآ﴾ أى فيما يستقبل فلا توقعنا بتوفيقك فى ذنب آخر، ولهذا قالوا: إن المذنب محتاج إلى ثلاثة أشياء: أن يعفو الله عنه فيما بينه وبينه، وأن يستره عن عباده فلا يفضحه به بينهم، وأن يعصمه فلا يوقعه فى نظيره. وقد تقدم فى الحديث أن الله قال: نعم، وفى الحديث الآخر: قال الله: قد فعلت.

وقوله ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ أى أنت ولينا وناصرنا، وعليك توكلنا، وأنت المستعان، وعليك التكلان، ولا حول لنا ولا قوة إلا بك، ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أى الذين جحدوا دينك، وأنكروا

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) صحيح: ابن ماجه (٢٠٤٥)، وابن حبان (١٦/ ٢٠٢)، برقم (٧٢١٩)، انظر صحيح سنن ابن ماجه.

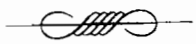
(٣) أورده ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» وقال: فيه أبو بكر الهذلي: متروك.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) سبق تخريجه.

(٦) سبق تخريجه.

وحدانيتك ورسالة نبيك، وعبدوا غيرك وأشركوا معك من عبادك، فانصرنا عليهم، واجعل لنا العاقبة عليهم فى الدنيا والآخرة، قال الله: نعم. وفى الحديث الذى رواه مسلم عن ابن عباس، قال الله: قد فعلت. وقال ابن جرير: حدثنى مثنى بن إبراهيم، حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان عن أبى إسحاق أن معاذًا رضى الله عنه، كان إذا فرغ من هذه السورة ﴿فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ قال: آمين. ورواه وكيع عن سفيان، عن أبى إسحاق، عن رجل، عن معاذ بن جبل، أنه كان إذا ختم البقرة قال: آمين.



obeikandl.com